منشــور بمنح اقطــاع
من عصــر السلطان الغــورى

دراسة ونشر وتحقيق

دكتور : محمد محمد أمين

كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

وثائق توزيع الاقطــاع فى مصــر
فى عصـــــر ســـلاطين المـــاليك :

ارتبط نظام الاقطــاع[1] فى مصر ، فى عصر ســلاطين المماليك (٦٤٨ــ٩٢٣ هـ/١٢٥٠ــ١٥١٧ م) أساسا بالأرض الزراعية[2] وعبر عن

---

(١) المقصود بالاقطاع هنا هو ما يتحصل من غلة نقدا وعينا من أراضى زراعية ، ويعرف هذا النوع عند الفقهاء المسلمين باقطاع الاستغلال وأجازوا اعطاءه لأهل الجيش مقابل ما هو مقرر لهم من أرزاق تصرف لهم عما يقومون به من الأعمال الحربية ، ووضع الفقهاء لذلك شروطا ــ انظر الماوردى : الأحكام السلطانية (ط ثانية) ص ١٩٥ وما بعدها .

(٢) كان الأساس فى الاقطاع هو اقطاع الأرض الزراعية ، ولم يمنع ذلك أن تعرضت موارد الدولة الأخرى للاقطاع ، فيذكر القلقشـــــندى : « وخرجت الأمور عن القواعد الشرعية ، وصارت الاقطاعات ترد من جهة الملوك على سائر الأموال : من خراج الارضين ، والجزية ، وزكاة المواشى ، والمعادن ، والعشر ، وغير ذلك ، ثم تفاحش الأمر وزاد حتى اقطعــوا المكوس على اختلاف أصنافها ، وعمت بذلك البلوى ، والله المستعان فى الأمور كلها » ــ صبح الأعشى جـ ١٣ ص ١١٧ ، ومعنى هذا أن الاقطاع كان بمثابة تخصيص أو ارصاد للمقطع ليحل محل الدولة فى الحصول على الايراد مقابل ما يؤديه للدولة من خدمات .

ذلك المقريزى (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٢ م) بقوله : « وأما منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب (ت ٥٨٩ هـ/١١٩٣ م) الى يومنا هذا ، فان أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده »[٣] .

وعبارة المقريزى « أراضى مصر كلها » فى رأيى لا تعنى سوى غالبية أراضى مصر ، بدليل أن المقريزى أردف عبارته هذه بقوله : « وأرض مصر اليوم — (أى فى عصر المقريزى فى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى) على سبعة أقسام :

١ — قسم يجرى فى ديوان السلطان ، وهذا القسم ثلاثة أقسام : منه ما يجرى فى ديوان الوزارة ، ومنه ما يجرى فى ديوان الخاص، ومنه ما يجرى فى الديوان المفرد .

٢ — قسم من أراضى مصر قد اقطع للأمراء والاجناد .

٣ — قسم ثالث جعل وقفا محبسا على الجوامع والمدارس والخوانك ، وعلى جهات البر ، وعلى ذرارى واقفى تلك الأراضى وعتقائهم .

٤ — قسم يقال له الأحباس ، يجرى فيه أراضى بأيدى قوم يأكلونها ، اما عن قيامهم بمصالح مسجد أو جامع ، واما يكون لهم لا فى مقابل عمل[٤] .

---

(٣) المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٩٧ .

(٤) المقصود بذلك « الرزق » سواء كانت الرزق الاحباسية أم الرزق الجيشية ، التى تمنح لبعض الناس على سبيل الاحسان والانعام ، وقد تنوعت هذه الرزق فمنها ما يصرف ريعه على المساجد أو الكنائس ، أو على أحد الفقهاء ، أو على الامراء الذين اقعدهم المرض أو كبر السن ، أو على الامراء المعزولين أو المتقاعدين — وكان يشرف عليها جميعا ديوان الاحباس ، وهو غير ديوان الاوقاف — وللدراسة التفصيلية انظر د. محمد محمد أمين: الاوقاف والحياة الاجتماعية ص ١٠٨ وما بعدها .

٥ — وقسم قد صار **ملكا يباع ويشترى ويورث ويوهب** ، لكونه اشترى من بيت المال[٥] .

٦ — وقسم لا يزرع للعجز عن زراعته ، فترعاه المواشى أو ينبت الحطب ونحوه .

٧ — وقسم سابع لا يشمله ماء النيل فهو قفر ، وهذا القسم منه ما لم يزل كذلك منذ عرفت أحوال الخليقة ، ومنه ما كان عامرا فى الدهر الأول ثم خرب[٦] .

وهذا التقسيم يوضح بما لا يدع مجالا للشك أن عبارة المقريزى الأولى « بأن أراضى مصر كلها صارت تقطع » لا تعنى سوى غالبية الأراضى ، ذلك أن نظام الاقطاع كان هو النظام السائد ، **ولم يمنع ذلك وجود الملك الحر** ، كما كانت هناك أيضا الأوقاف ، والرزق بأنواعها ، ويؤكد هذا القول ما ذكره القلقشندى : « كانت البلاد بجملتها جارية فى الدواوين السلطانية واقطاعات الامراء وغيرهم من سائر الجند ، الا النزر اليسير مما يجرى فى وقف ملوك مصر على الجوامع والمدارس ونحوها ، مما لا يعتد به لقلته »[٧] .

هذا مع ملاحظة أن بعض السلاطين ، ولأسباب مختلفة ، قاموا بالاستيلاء على الاوقاف أو على بعضها ، وعلى الرزق باختلاف أنواعها ، وأحيانا على الملك الحر أيضا وقاموا باقطاعه[٨] .

---

(٥) يؤكد هذا الوثائق العديدة للبيع من بيت المال والمحفوظة بدور الارشيف بالقاهرة — انظر د. محمد محمد أمين : فهرست وثائق القاهرة (المعهد العلمى الفرنسى للاثار الشرقية بالقاهرة — ١٩٨١) صفحات ٩ ، ١٠ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٥ .. الخ وانظر الوثائق المنشورة بذات الفهرست ص ٣٦٥، ٣٨٣ .

(٦) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٩٧ .

(٧) صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٥ .

(٨) د. محمد محمد أمين : الاوقاف والحياة الاجتماعية ص ٣٢٢ وما بعدها .

وجرى تقسيم **الأراضى التى تخضع للتوزيع الاقطاعى** بنسب محددة بين السلطان والامراء والأجناد ، وذلك طبقا لنظام النسبة الذى كان سائدا فى ذاك العصر ، والذى يقوم على أساس أن كل وحدة كاملة تعادل ٢٤ قيراطا والى هذه الوحدة الكاملة أى الـ ٢٤ قيراطا ينسب أى توزيع[٩] ، وعلى هذا الأساس جرى نظـام توزيع الاقطاعات ، **فالأراضى المخصصة للاقطاع ، والتى تشمل القسمين الآول والثانى من تقسيم المقريزى** السابق الذكر ، كانت تعتبر وحدة واحدة تعادل ٢٤ قيراطا ، اختص السلطان منها بأربعة قراريط «للكلف والرواتب وغيرها»، على حين أفرد عشرة قراريط للامراء وبرسم الاطلاقات أى المنـح ، والزيادات ، أما العشرة الباقية فهى للتوزيع بين الأجناد[١٠] .

وقد جرى تعديل هذه القاعدة العامة بحسب ما يرى السلطان ، مثال ذلك ما حدث فى الروك الحسامى ، اذ أمر السـلطان لاجين (ت ٦٩٨ هـ/١٢٩٨ م) رئيس الكتاب ، ومستوفى الدولة بأن يكتفى الامراء والجند جميعهم بعشرة قراريط بدلا من عشرين قيراطا حسب القاعدة العامة ، وأرصد قيراطا واحدا لمن عساه يشكو من قلة اقطاعه ، ثم احتفظ بتسعة قراريط برسم عسكر يستجد ، فضلا عن أربعة قراريط نصيب السلطان[١١] .

---

(٩) يماثل ذلك فى العصر الحديث النسبة المئوية ، بمعنى انه اذا كانت النسبة ١٢ قيراطا من ٢٤ فانها تعادل ٥٠٪ وهكذا .

(١٠) ابن دقماق : الجوهر الثمين (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٧ تاريخ) ورقة ١٢٦ ، النويرى : نهاية الأرب (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة) جـ ٢٩ ورقة ٣١٨ أ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٣ ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٨٧ .

(١١) بيبرس المنصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة (مخطوط مصور بجامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨) جـ ٩ تحقيق د. زبيدة محمد عطـا (رسالة دكتوراه غير منشورة بجامعة القاهرة ١٩٧٢) ص ٣٨٩ وما بعدها، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٤٢ ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٨٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٩٢ ، د. السيد الباز العرينى : المماليك ص ١٧٤ — ١٧٥ .

وفى الروك الناصرى أمر الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠ م) بافراد عشرة قراريط لخاصته ، ولجميع الجيش من أمراء وأجناد أربعة عشر قيراطا[١٢] .

وجرت العادة باعادة توزيع الاقطاعات بين الامراء والجند فى مناسبات متعددة من أهمها : تولى سلطان جديد لعرش السلطنة ، فجرت العادة أن يقوم السلطان الجديد باجراء توزيع ومناقلات[١٣] بين اقطاع الامراء ليدعم مركزه ، وليضمن ولاء من حوله وبخاصة الذين أعانوه وأخلصوا له ، ولابعاد من يخشى بأسهم ، أو لاضعاف منافسيه ، كذلك كان يعاد توزيع الاقطاعات أو يعاد توزيع بعضها اذا اتسعت رقعة الدولة بالفتح الخارجى ، أو باصلاح الأراضى البور ، فكان السلطان يوزع هذه الأراضى الجديدة[١٤] .

كذلك لجأ سلاطين المماليك الى ما عرف فى المصطلح باسم « عرض الجند » وذلك لقطع أو الغاء اقطاع العاجز والمشكوك فى ولائه من أصحاب الاقطاعات واستخدام غيرهم ، فضلا عن توفير بعض الاقطاعات للخزانة ، وكان الأجناد يكرهون هذه الحركة كلما أمر بها سلطان من السلاطين نظرا لما يحدث فيها من الحرمان أو الانقاص[١٥] .

---

(١٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٥٥ ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٨٨ ، د. السيد الباز : المماليك ص ١٧٧ — ١٨١ ، د. جمال الدين الشيال : دراسات فى التاريخ الاسلامى ص ١٠٣ ، الروك الناصرى (مجلة الثقافة العدد ٩٩— نوفمبر ١٩٤٠) ص ٢٩ .
Rapie, H. : The Financial System of Egypt, A. H. 564—741., A. D. 1169—1341, p. 47.
The size and value of the Iqta in Egypt, p. 131.

(١٣) عن المناقلات الاقطاعية انظر د. ابراهيم على طرخان : النظم الاقطاعية فى الشرق الاوسط فى العصور الوسطى ص ٢٦٥ وما بعدها .

(١٤) للدراسة التفصيلية والأمثلة على ذلك انظر : د. ابراهيم على طرخان : مرجع سابق ص ٦٧ وما بعدها ، ص ٩٥ وما بعدها ، ود. السيد الباز العرينى : المماليك ص ١٨٨ .

(١٥) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥١٧—٥١٨ ، جـ ٣ ص ٥٦١ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات مجلد ٩ جـ ١ ص ٥ .

كذلك كانت تحدث اعادة لتوزيع الاقطاعات فى نطاق محدود اذا ما قدم على البلاد لاجىء من الخارج من أصحاب السلطة والمكانة فى بلده[١٦] ، مثال ذلك ما حدث عند قدوم أولاد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وهما اسماعيل وأخوه اسحق الى مصر فى عهد السلطان الظاهر بيبرس هربا من المغول ، فانه احسن اليهم ، وأعطاهم الاقطاعات الجليلة[١٧] .

وارتبطت عملية اعادة توزيع الأقطاعات بما عرف فى المصطلح باسم « الروك » للدلالة على عملية قياس الأرض وحصرها فى سجلات وتثمينها ، وتقويم الأملاك الثابتة ومتعلقاتها ، والاصل فى عملية « الروك » أن تخدم أهدافا اقتصادية واجتماعية ، فيعاد النظر فى توزيع الاقطاعات طبقا لما طرأ على الأرض من اصلاح أو عمارة أو اهمال ، أى طبقا لزيادة خراج الأرض أو نقصانه ، حسبما يقتضيه الوضع الذى آلت اليه الأرض تبعا لمتغيرات الرى ، ووفرة المياه ، وضعف الأرض ، وانتشار الأوبئة ، أو اضطراب الأمن ... الخ .

ويتضح لنا ذلك مما ذكره المؤرخ بيبرس المنصورى من قوله فى الروك الذى قام به السلطان لاجين سنة ٦٩٧ هـ/١٢٩٧ م : « أن لاجين أزمع روك الديار المصرية ، وتغيير الاقطاعات وترتيب المعاملات لأن النواحى آلت الى الخراب ، والفلاحين عجزوا عن الخراج ، وصارت الأراضى تبور لضعف المزارعين وتغرق ، والشكاوى من المقطعين داعية فى كل وقت »[١٨] .

---

(١٦) د. السيد الباز العرينى : الاقطاع فى الشرق الاوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر — دراسة مقارنة — حوليات كلية الآداب — جامعة عين شمس ، المجلد الرابع (يناير ١٩٥٧) ص ١٤٥ .

(١٧) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٢ تحقيق د. محمد محمد أمين ترجمة اسحق بن لولو ، اسماعيل بن لولو .

(١٨) بيبرس المنصورى : مصدر سابق ص ٣٨٩ ، ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢٢٠ .

واستغل سلاطين المماليك عملية « الروك » من أجل اجراء تغيير شامل فى توزيع الاقطاعات ، ولتحقيق أهداف خاصة مثل التقليل من نفوذ كبار الامراء ، أو توزيع اقطاعات بعض الامراء فى أماكن متباعدة اضعافا لهم[١٩] كذلك استغل السلاطين عملية « الروك » لاختيار أجود الأراضى ، وأفضل المواقع ، وذلك لأنفسهم وللمؤيدين لهم[٢٠] .

وارتبطت وثائق توزيع الاقطاع بكل من ديوان الجيش وديوان الانشاء ، فديوان الجيش هو « مظنة الاقطاعات » أى سجلها ، أما ديوان الانشاء فهو الديوان الذى تخرج منه الوثيقة الاقطاعية النهائية ، بناء على ما يرد اليه من الوثائق التى تكتب فى ديوان الجيش ، وبمقتضى الوثائق التى يصدرها ديوان الانشاء يصبح الاقطاع قانونيا فى يد المقطع[٢١] .

١ ــ الوثيقة الأولى : المثال ، أو القصة ، أو الاشهاد :

وأول وثيقة يصدرها ديوان الجيش فى أمر الاقطاع تسمى « مثال »[٢٢] ، وقد تكون « قصة » [٢٣] ، أو « نزول »[٢٤] .

---

(١٩) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٩٠ .

(٢٠) المقريزى : نفس المصدر جـ ١ ص ٨٩ ، السلوك جـ ١ ص ٨٤٣ .

(٢١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٩٠ ، جـ ١١ ص ٩٣ ، ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٣ .

(٢٢) المثال : بمعنى صورة أو أمر ، أما كوثيقة اقطاعية فهو ورقة مختصرة تكتب فيها بيانات الاقطاع ، أنظر ما يلى .

(٢٣) القصة : هى الطلب أو الالتماس أو الشكوى ، وهى كوثيقة اقطاعية عبارة عن الطلب الذى يقدمه الجندى للحصول على الاقطاع ، أو اعلان بخروجه عن اقطاع بيده ، أو طلب باعادته الى اقطاع خرج عنه ــ د. السيد الباز العرينى : المماليك ص ١٩٠ .

Poliak, A. N. : Feudalism in Egypt, p. 30.

(٢٤) النزول : مصطلح يطلق على الاشهاد بتنازل جندى عن اقطاع لجندى آخر ويشمل كذلك المقايضة ، أو الاشتراك فى الاقطاع ــ نفس المراجع بالحاشية السابقة .

أما صورة « المثال » ، فهى ورقة تكتب على هيئة جدولين بعد ترك الثلثين من أعلاها بياضا ، ويكتب فى الجدول الأيمن ما صورته فى ثلاثة أسطر هى كالآتى :

١ ــ خبــــز .

٢ ــ فــلان المتوفى الى رحمة الله تعــالى .

أو فلان المرسوم ارتجاعه .
أو فلان المنتقل الى غيره .

٣ ــ عبــرته كذا وكذا دينار .

ويكتب فى الجدول الأيسر ما صورته :

« باسم فلان الفلانى » ، وان كانت هناك زيادة فى الاقطــــاع تحدد أيضا فى هذا الجدول[٢٥] .

أما القصة ، فتختلف بحسب الأحوال ، فيذكر فيها وفاة من كان بيده الاقطاع ، أو انتقاله عنه ، أو ارتجاعه أو طلب اعادة ما خرج عنه ، أو طلب تحديده ... الــخ ، ويكتب ناظر الجيش على هامشها بالكشف ، ثم يكتب ما أسفر عنه الكشف بذيل ظاهرها ما صورته : « رافعها فلان ، انهى ما هو كذا وكذا ، وسأل كذا وكذا » ويذكر حال الاقطاع[٢٦] .

وأما الاشهادات فتكون تارة بالنزول ، وتارة بالمقايضة ، ثم يكتب

---

(٢٥) القلقشندى : مصدر سابق جـ ١٣ ص ١٥٣ .

(٢٦) نفس المصدر جـ ١٣ ص ١٥٤ ، وعن تأشيرات ديوان الجيــش انظر ظهر المرسوم رقم ٢٤٧ بمكتبة دير سانتنه كاترين ، والمؤرخ فى ٤ ربيع الاخر ٧١٥ هـ ، والذى نشره Richards, D. S. انظر :

A Mamluk Petition and A Report From the Diwan Al-Jaysh, B. O. A. S. Vol XL, p. 1, 1977, p. 5 — 6.

ناظر الجيش على ظاهر الاشهاد بالكشف ، ثم يكتب ما أسفر عنه الكشف بذيل ظاهر الاشهاد ، كما فى القصة[٢٧] •

وفى الأحوال الثلاثة : سواء فى المثال ، أو القصة ، أو الاشهاد ، يوقع السلطان ، أو النائب الكافل ، فى أعلا الوثيقة بكلمة « يكتب » ، وتحت هذا الأمر السلطانى يكتب ناظر الجيش « يمتثل المرسوم الشريف »[٢٨] كما يحدد ناظر الجيش التاريخ بعبارة « يكتب باسم فلان لاستقبال مغل سنة كذا » ، أو « لاستقبال كذا من مغل سنة كذا »[٢٩] ، ثم يحيل ناظر الجيش هذا المثال أو القصة أو الاشهاد ، على من يختاره من كتاب الجيش •

ويقوم كاتب الجيش بحفظ « بتخليد » هذه الوثيقة الأولى أو الأساسية لاصدار الاقطاع ، بعد أن يكتب فى ذيلها التاريخ ، ويكتب بمقتضى هذه الوثيقة الأولى ، وثيقة ثانية ، عرفت فى المصطلح باسم « المربعة الجيشية »[٣٠] •

٢ ــ الوثيقة الثانية : المربعة الجيشية :

وتكتب « المربعة » فى ورقة « مربعة » تجعل على هيئة صفحتين متقابلتين[٣١] ويترك أعلا ظاهر الصفحة الأولى بياض ، ويكتب فى ذيلها ــ من أسفل الى أعلا ــ أسطرا قصيرة ، على قدر ثلاثة أصابع ما صورته :

---

(٢٧) القلقشندى : مصدر سابق جـ ١٣ ص ١٥٤ .

(٢٨) القلقشندى : مصدر سابق جـ ٤ ص ٥١ ، جـ ١٣ ص١٥٣ــ١٥٤ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٧ .

(٢٩) النويرى : مصدر سابق جـ ٨ ص ٢٠٨ .

(٣٠) القلقشندى : مصدر سابق جـ ١٣ ص ١٥٤ ، النويرى : مصدر سابق جـ ٨ ص ٢٠٨ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٧ ، د. السيد الباز العرينى : المماليك ص ١٨٩ .

(٣١) وهو ما عبر عنه القلقشندى بقوله : « وصورتها أن يكتب فى نصف فرخة مكسورة » صبح الاعشى جـ ٦ ص ٢٠١ .

« مثال شريف ــ شرفه الله تعالى وعظمه ــ بما رسم به الآن من الاقطاع » ، باسم من عين فيه من الأمراء أو من المماليك السلطانية بالديار المصرية ، أو بالمملكة الفلانية ، أو من الحلقة المصرية، أو الشامية، أو نحو ذلك « على ما شرح فيه حسب الأمر الشريف شرفه الله تعالى وعظمه » .

وتحت ذلك كله ما صورته « يحتاج الى الخط الشريف أعلاه الله تعالى » .

ثم يكتب على « وجه » هذه الصفحة الأولى ، بعد ترك هامش عرض أصبعين ، البسملة ، وتحتها فى سطر ملاصق لها : « المرسوم بالامر الشريف العالى المولوى السلطانى » ، ثم يترك بياضا بقدر ثلث الصفحة ويكتب السطر الثانى بعد البياض : « الملكى الفلانى الفلانى « بلقب السلطنة مثل الناصرى ، ولقب السلطان الخاص كالزينى ، » أعلاه الله تعالى وشرفه ، وأنفذه وصرفه ، أن يقطع من يذكر : من رجال الحلقة بالديار المصرية ، أو المملكة الشامية ، أو نحو ذلك ما رسم له به الآن فى الاقطاع حسب الأمر الشريف ، شرفه الله تعالى وعظمه » .

وفى الصفحة المقابلة يكتب فى مقابل البسملة « فلان الدين فلان الفلانى ، المرسوم اثباته فى جملة رجال الحلقة المنصورة بالديار المصرية، أو الشامية ، بمقتضى المثال الشريف ، أو المربعة الشريفة ، المشمولة بالخط الشريف » ، ثم يكتب تحت السطر الأخير فى الوسط ما صورته : « فى السنة كربستا »[٣٢] ، ان كان جميع البلد أو البلاد المقطعة لا يستثنى منها شىء ، أو يكتب به « خارجا عن الملك والوقف » ، أو نحو ذلك « على ما يقتضيه الحق » .

---

(٣٢) كربستا : تحريف للفظ « دربستا » ، وهو لفظ فارسى معناه كاملا، أى أن جميع البلد أو البلاد المقطعة لا يستثنى منها شىء ــ القلقشندى : مصدر سابق جـ ١٣ ص ١٥٦ ، د. زيادة : حاشية ٧ من ص ٨٤٤ من كتاب السلوك جـ ١

ثم يكتب تحت ذلك من أول السطر الى آخره كلمة « خبـــز » ، وفى السطر التالى : « فلان بن فلان الفلانى » ، بحكم وفاته ، أو بحكم نزوله برضاه ، أو نحو ذلك ، على حسب الأحوال ، ثم ناحية كذا .. ناحية كذا .. ويعدد جهات الاقطاع ، وتختم هذه الوثيقة بعبارة : « بعد الخط الشريف — شرفه الله تعالى — ان شاء الله تعـالى » ، ثم تؤرخ فى سطرين قصيرين[٣٣] .

وهذه المربعة تنقل الى ديوان الانشاء ، حيث يحيلها كاتب السر على من يحتفظ بها لديه ، ويكتب بناء عليها الوثيقة الثالثة والنهائية لمنح الاقطاع ، وهى « المنشور »[٣٤] .

٣ — الوثيقة الثالثة : المنشـــور :

والمنشور فى أصل اللغة خلاف المطوى ، ومنه قوله تعالى :

« وكتاب مســطور فى رق منشــور »[٣٥] ، وقوله أيضــا : « ونخرج له يوم القيــامة كتابا يلقــاه منشــورا »[٣٦] ، أى مبسوطا غير مطوى ، ومن هنا كان يطلق فى المصطلح « منشور » على كل وثيقة أو مكتوب لا تحتاج الى ختم ، لأن الوثائق التى تختم يجب أن تطوى لكى يمكن وضع الختم عليها ، ومن ثم فان تسمية مكتوب أو وثيقة باسم « منشور » مستمدة من الشكل المادى للمكتوب ، ولكن مفهوم «المنشور»

---

(٣٣) القلقشندى : مصدر سابق ج ٦ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ج ١٣ ص ١٥٥، ١٥٦ .

(٣٤) نفس المصدر ج ١٣ ص ١٥٤ ، ١٥٦ ، النويرى : مصدر سابق ج ٨ ص ٢٠٨ .

(٣٥) سورة الطور رقم ٥٢ آية ٣ .

(٣٦) سورة الاسراء رقم ١٧ آية ١٣ .

الختلف باختلاف العصور[٣٧] ، وفى عصر سلاطين المماليك أصبح مصطلح « منشور » لا يطلق الا على ما يكتب فى الاقطاعات خاصة ، وجرى العرف أن المنشور فى النظام الاقطاعى الملوكى لا يصـدر الا عن السلطان مشمولا بخطة الا ما يكتب فيه النائب الكافل ابتداء[٣٨] •

وتختلف المناشير فى افتتاحياتها ، وحجوم أوراقها ، ومقدار الفراغ بين السطور باختلاف مرتبة المقطع ، وكانت المناشير على عصر القلقشندى (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م) أربعة أصناف هى :

١ ــ ما يكتب فى « قطع الثلثين » ، أى ما كان عـرض دروج أوراقها ثلثا ذراع أو ثلثا طومار[٣٩] • ويكتب به لمقدمى الالوف بالديار المصرية ، سواء كان من أولاد السلطان أو الخاصكية[٤٠] أو غيرهم ، وكذلك جميع النواب الأكابر بالممالك الاسلامية ، والمقدمون بدمشق ، وكل من له تقليد فى قطع الثلثين يكون منشوره فى قطع الثلثين[٤١] •

---

(٣٧) عن تطور مصطلح « منشور » انظر د. زينب محمد محفوظ هنا : التطور الدبلوماتى لمراسيم ديوان الانشاء بدير سانت كاترين من القـرن الخامس الى القرن العاشر الهجرى (رسالة ماجستير غير منشورة بجامعة القاهرة ١٩٧٠) ص ٥ وما بعدها •

(٣٨) القلقشندى : مصدر سابق جـ ١٣ ص ١٥٧ ، جـ ٤ ص ١٦ ، ١٨٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ •

(٣٩) نفس المصدر جـ ٦ ص ١٩٠ •

(٤٠) الخاصكية : فرقة من المماليك يختارهم السلطان من الاجـلاب الذين دخلوا خدمته صغارا ، ويجعل منهم حرسه الخاص ، ويكلفهم بالمهـام الشريفة ، ويدخلون عليه فى خلواته ، ويتميزون عن غيرهم فى الخـدمة بحملهم السيوف ، وخصص لهم السلاطين الأرزاق الواسعة والعطايا الجزيلة وامتازوا بحسن المظهر وأناقة الركوب والملبس ــ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٧٩ــ١٨٠ ، ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٥ ــ ١١٦ •

(٤١) المحبى : تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف (مخطوط قام بتحقيقه عبد الرحمن أمين صادق ــ رسالة ماجستير غير منشورة بكلية اللغـة العربية بجامعة الازهر ١٩٧٩) ص ٢٣٥ ، القلقشندى : مصدر سابق جـ ٦ ص ١٩٠ •

وفى هذه الحال يكتب فى « طرة »[٤٢] المنشور من يمين الورق بغير هامش ما صورته :

« منشور شريف بأن يجرى فى اقطاعات المقر الكريم » ،

أو « الجناب الكريم العالى الاميرى الكبيرى » ،

وان كان نائبا زيد بعدها « الكافلى الفلانى » أى بلقبه الخاص « فلان الفلانى » بلقب الاضافة الى لقب السلطان ، كالناصرى وغيره ونحوه ، ثم الدعاء بما جرت به عادته دعوة واحدة ، ثم « ما رسم له به الآن من الاقطاع » ، ويشرح ما تضمنته المربعة الى آخره .

أو أن يكون آخر السطر الثانى الدعاء والتتمة بالقلم الرقاع[٤٣] أسطرا قصارا بهامش من الجانبين ، ثم يكتب الوسط سطرا واحدا بالقلم الغليظ « والعدة »[٤٤] وتحته بالقلم الدقيق « خاصته ، ومائة طواشى ، أو تسعون طواشيا » حسب ما يكون فى المربعة .

ويترك ثلاثة أوصال بياضا بما فيه من وصل الطرة ثم تكتب البسملة فى أول الوصل الرابع ، وبعدها خطبة مفتتحة بالحمد ، وبكل ما يناسبه ثم يقال : « أما بعد » ، ويذكر ما ينبغى ذكره باختصار ، ثم يذكر بعد ذلك اسم المقطع بأن يقول : « ولما كان الجناب » ، وبقية الألقاب والنعوت والدعاء ، ولا يزاد على دعوة واحدة مثل « هو

---

(٤٢) الطرة : هى طرف الدرج (الورق) من أعلاه ، وأطلقت مجازا على ما يكتب فى رأس المكاتبات ، وكان من المتعارف عليه ترك عدد من الأوصال التى يتكون منها المكتوب بياضا ، وتسمى الطرة البيضاء ، وكان عدد الأوصال البيضاء يتفق ورتبة المكتوب له ــ القلقشندى : مصدر سابق ج ٨ ص ٢١ ، ٢٥ ، ج ١١ ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٤٣) قلم الرقاع : وهو ما يكتب به فى الرقعة أى الورقة الصغيرة ، وعن مميزاته وشكل حروفه انظر القلقشندى : مصدر سابق ج ٣ ص ١١٥ وما بعدها .

(٤٤) العدة : يقصد بها عدد المماليك التابعين لصاحب الاقطاع .

المراد بهذا المدح والمخصوص بهذه المنح » ، أو نحو ذلك « اقتضى حسن الرأى الشريف أن نخوله بمزيد النعم [٤٥] ، ونسبل عليه من صدقاتنا الشريفة ، وأكف الديم » ونحو ذلك • « فلذلك خرج الأمر الشريف ، العالى المولوى ، السلطانى الملكى ، المنصورى الفلانى ، لازال : يمنح أكابر الأولياء احسانه ، ويفتح أبواب العطاء لمن يشيد بمهابته من الملك الشريف أركانه » أو نحو ذلك ، « أن يجرى كل ذلك » ، الى هنا بالقلم الغليظ ، ثم بعد ذلك ما تضمنته المربعة بالقلم الرقيق فى الوسط بهامش من الجانبين ، وبعده « العدة » بقلم غليظ فى الوسط ، وتحته بالقلم الرقيق « خاصته » وكذا وكذا طواش ، كما فى الطرة ، وبعده بالقلم الغليظ « فى السنة » فى الوسط أيضا ، وتحته بالقلم الرقيق « دربستا » وبعده بالقلم الغليظ فى الوسط أيضا « خبز » ، وتحته بالرقيق فلان الفلانى » ، وجهات الاقطاع الى آخرها ، ثم بالقلم الغليظ : «وذلك لاستقبال كذا وكذا » حسبما فى المربعة الى آخره ، أسطرا مناسبة ، وبينها من البياض نظير أول المنشور •

فاذا انتهى ما تضمنته المربعة يكتب « بعد العلامة الشريفة أعلاه الله تعالى أعلاه وبيوئه » ، ثم « ان شاء الله تعالى » ، ثم التاريخ ، ثم الحمد له ثم الحسبلة[٤٦] •

ومنذ بداية عصر سلاطين المماليك ، وحتى نهاية الدولة الأشرفية شعبان بن حسين (سنة ٧٧٨ هـ/١٣٧٦ م) كانت تلصق طغرى[٤٧] على

---

(٤٥) المحبى : مصدر سابق ص ٢٣٦ ، القلقشندى : مصدر سابق، جـ ١٣ ص ١٥٩—١٦٠ •

(٤٦) المحبى : مصدر سابق ص ٢٣٦—٢٣٧ •

(٤٧) الطغراء أو الطغار : كلمة أعجمية ، معناها علامة ولى الامـر ويرد بها اسم السلطان والقابه مع عبارة دعائية ــ للدراسة التفصيلية ، ورسوم الطغراء انظر القلقشندى : مصدر سابق جـ ١٣ ص ١٦٢ ــ ١٦٦ •

هذا النوع من المناشير تحوى اسم السلطان وألقابه ، ثم رفض استعمالها وأهملت بعد ذلك[٤٨] .

٢ ــ ما يكتب فى « قطع النصف » ، أى ما يكون عرض دروجه نصف ذراع ، أو نصف طومار .

ويكتب به لأمراء الطبلخانات بمصر والشام ، ســواء فى ذلك الخاصكية أو غيرهم ، وكذلك الأمراء المقدمون من نواب القلاع الشامية، وفى حلب وغيرهم من نواب القلاع[٤٩] .

وتختلف صورة هذا المنشور عن المنشور السابق بأن لا يقال : « أن يجرى فى اقطاعات » ، ولكن يقال : « أن يجرى فى اقطاع المجلس العالى أو السامى » ، ان كان المقطع مقدما بحلب أو بغيرها ، أو طبلخاناه خاصكيا ، أو من أولاد السلطان ، أما اذا كان طبلخاناه من غير هــؤلاء كتب : « منشور شريف بما رسم به من الاقطاع للمجلس السامى » ، أما تتمة المنشور فحسب ما تقدم من غير فرق[٥٠] .

٣ ــ ما يكتب فى « قطع الثلث » أى ما يكون عرض درجها ثلث ذراع ، أو ثلث طومار .

ويكتب به لأمراء العشرات مطلقا بمصر والشام ، والطابخانات من التركمان والاكراد[٥١].

---

(٤٨) نفس المصدر ج ١٣ ص ١٦٢ ، العمرى : التعريف ص ٨٣ . المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١١ .
(٤٩) المحبى : مصدر سابق ص ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، القلقشندى : مصدر سابق ج ٦ ص ١٩١ .
(٥٠) المحبى : مصدر سابق ص ٢٣٨ ، القلقشندى : مصدر سابق ج ١٣ ص ١٥٨ــ١٦٠ .
(٥١) المحبى : مصدرسا بق ص ٢٣٥ ، القلقشندى : مصدر سابق ج ٦ ص ١٩١ .

ويكتب فى طرة المنشور « منشور شريف بما رسم به من الاقطاع لمجلس الأمير »[٥٢] .

٤ ـ ما يكتب فى قطع العادة المنصورى ، أى ما يكون عرض دروجه ربع ذراع[٥٣] .

ويكتب به للمماليك السلطانية ومقدمى الحلقة ، ورجال الحلقة ، الا أنه يختلف الحال بين المماليك السلطانية ، ومقدمى الحلقة ، وبين رجال الحلقة بزيادة أوصال الطرة ، والاتيان بالدعاء المناسب ، فيترك فى طرة مناشير المماليك السلطانية ثلاثة أوصال بياضا ، وفى مناشير رجال الحلقة وصلان[٥٤] .

أما توقيع السلطان على المنشور ـ بصفة عامة ـ فيكون فى الفراغ المتروك فوق البسملة ، فيوقع السلطان بعلامته ، بقلم الطومار[٥٥] ، وجرت العادة أن تكون علامة السلطان على المناشير « الله أملى » أو « الله ولى » ، أو « الله حسبى » ، أو « الملك لله » ، أو « المنة لله وحده » ، أو « حسبى الله » ، ونحوه[٥٦] .

وأوردت لنا كتب المصطلح وبخاصة كتاب صبح الاعشى العديد من نماذج مناشير الاقطاع على اختلاف أنواعها[٥٧] ، ولكن هذه الكتب

---

(٥٢) المحبى : مصدر سابق ص ٢٣٨ ، القلقشندى : مصدر سابق ج ١٣ ، ص ١٥٨ـ١٦٠ .

(٥٣) القلقشندى : مصدر سابق ج ٦ ص ١٩١ .

(٥٤) المحبى : مصدر سابق ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، القلقشندى : مصدر سابق ج ١٣ ص ١٥٩ .

(٥٥) القلقشندى : مصدر سابق ج ٣ ص ٤٧ .

(٥٦) المحبى : مصدر سابق ص ٢٤٢ ، القلقشندى : مصدر سابق ج ٣ ص ٥٤ ج ١٣ ص ١٦١ .

(٥٧) القلقشندى : مصدر سابق ج ١٣ ص ١٦٧ـ١٩٩ .

اهتمت بايراد الخطب الافتتاحية للمناشير لتكون كنموذج أمام كتاب الانشاء يستفيدون منها فى تحرير مناشير الاقطاع ، كما أن غالبيـة هذه النماذج ترجع الى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، وقد يرجع القليل منها الى أوائل القرن التاسع الهجرى / الرابع عشر الميلادى ؛ أى الى ما قبل وفاة القلقشندى سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م .

ومن هذه الوجهة تأتى أهمية نشر « المنشور » موضوع الدراسة ، فهو يعطينا صورة صادقة تماما لمناشير الاقطاع التى ترجع الى أوائل القرن العاشر الهجرى / أوائل السادس عشر الميلادى .

والمنشور الذى نقدمه للنشر اليوم ، هو المنشور الاقطاعى الوحيد، بل والوثيقة العامة الوحيدة ، الصادرة عن ديوان الانشاء من عصر سلاطين المماليك — فيما أعلم — والتى حفظهـا لنا التاريخ فى دور الأرشيف بالقاهرة حتى اليوم[٥٨] ، وقد عثرت عليه فى صيف ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٨ م — بدفترخانة وزارة الاوقاف بالقاهرة أثناء اعدادى لفهرست وثائق القاهرة.

والوثيقة موضوع الدراسة فريدة من نوعها اذ أنها تختلف فى موضوعها عن غيرها من الوثائق الموجودة بدفترخانة وزارة الأوقاف ، ولعلها كانت مرفقة باحدى وثائق الوقف كمستند للملكية ، فمن المعروف أنه فى بعض الأحيان تحولت أراضى الاقطاع الى وقف ، كما تحول الوقف الى اقطاع .

ونظرا لعدم أهمية موضوع هذه الوثيقة — بالنسـبة لوزارة الأوقاف — فقد كانت مهملة دون ترقيم أو فهرسة حتى عثرت عليها ، فقمت لأول مرة بترقيمها وفهرستها ، واجتذبنى موضوعها لدراستها وتقديمها للباحثين والدارسين .

---

(٥٨) لا ينطبق هذا القول بالطبع على مكتبة دير سانت كاترين بسيناء والتى تحتفظ بالعديد من المراسيم والمناشير انظر د. محمد محمد أمين : مرسوم السلطان برقوق الى رهبان دير سانت كاترين بسيناء (مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم — العدد الخامس ١٩٧٤) .

فهرسة المنشــور الاقطاعى

١ ـ الفهرسة الشــكلية :

رقم الوثيقة : ٧٨٩ ج

مكان الوثيقة : محفوظات (دفترخانة) وزارة الاوقاف بالقاهرة.

مادة الكتابة : ورق

شكل الوثيقة : ملف

عدد الدروج : ٨

متوسط أبعاد الدرج الكامل : ٥ر٣٠ × ٢٥ سم

المسافة بين الأسطر : ١٠ سم

أبعاد الوثيقة : ٢١٧ × ٢٥ سم

حالة الوثيقة : فاقد جزء من أولها ، والكتابة على الوجه فقط .

٢ ـ الفهرسة الموضوعية :

موضوع الوثيقة : منشور بمنح اقطاع لاحد أمراء الطبلخانات بمصر ، أى أنه فى قطع النصف .

التــاريخ : ٧ ذو الحجة ٩١٦ هـ

المتصرف : من السلطان الغورى
الى الامير تمرباى السيفى قجماس .

المتصرف فيه : نصف دشلوط بالأشمونين ، ثلث سبع منبــال بالبهنساوية ، وسدس المتحصل من ناحية طمــا بسيوط .

منهج النشـــر :

راعيت فى نشر هذا المنشور المحافظة على أصل النص محافظة تامة ، كما هو بحروفه وألفاظه وأخطائه ، دون تصحيح أو تعديل ، ليدل على أسلوب ولغة ومصطلحات وثائق العصر ، ولم أضف الى النص سوى وضع نقط لبعض الحروف ، أو وضع الهمزات حتى يســـهل على القارىء متابعة النص .

وجعلت كل سطر فى الوثيقة سطرا مستقلا ، وأعطيت له رقما حسب ترتيبه في متن الوثيقة .

* * *

عز من المترادفة وعوارفه التي لا تبرح الفلو

بها عارفة والصلاة والسلام على سيدنا محمد

المبعوث لأكرم طائفة والمخصوص

المبعوث لأكرم طائفة والمخصوص

بالآيات الصادقة التي هي عن طرق الباطل

صادقة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة

دائمة للاستمرار باقية آناء الليل وأطراف النهار

دائمين كل الاستمرار باقية انا الليل واطراف النهار

وبعد فانا ولجي من زرعها مقدارة اجتنيناله

سحبكم منا الدارة من الظاصل لنا حذ،

واصبح بفروض طلعتنا ملزمة ولما كان

واصبح بفروض طاعتنا مليا ولما كان

للمجلس العالي الصدري السيدي المجاهدي المؤيدي

الذخري المعظمي الصمدي الاكملي الصدري الكبيري

محله الشاهق الجليل شرف الاكرام المعتمد ركن الغزاة

والمجاهدين عضد الملوك والسلاطين زعيم جيوش الموحدين

والمجاهد بن عضد الله الملك السلطان بن بهادر مسعود محمد

ادام الله تعالى نعمته هو الذي خلص الطاعة

واشتهر بالسلطنة فلذلك

حسب المرسوم الشريف العالي ايوبي

حسنع للصالريف العالي العلوي

السلطاني للسلكي الاشرفي السعيد.

لحلاوه اسعال صيرفه وبصل حماره

لا نتحرى

في اطلاع [illegible]

[illegible]

[illegible]

والعده في البيته

العاده

حساب

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

نص الوثيقة :

١ ــ (بسم الله الرحمن الرحيم)[١] .

٢ ــ ....[٢]

٣ ــ الله ...[٣]

٤ ــ المترادفة وعوارفه التى لا تبرح القلوب

٥ ــ بها عارفة والصلاة والسلام على سيدنا محمد

٦ ــ المبعوث لأكرم طائفة والمخصوص

٧ ــ بالآيات الصادقة التى هى عن طريق الباطل

٨ ــ صارفة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صــلاة

٩ ــ دائمة الاستمرار باقية آناء الليل وأطراف النهار

١٠ ــ وبعد فان أولى من رفعنا مقداره واهمعنا[٤] له

---

(١) أول الوثيقة مفقود ، وحسب ما جاء بكتب المصطلح فالجزء المفقود من المنشور عبارة عن طرة المنشور ، وثلاثة أوصال بياضا بما فيها وصــل الطرة ، أما البسملة فتكون فى أول الوصل الرابع ، وبعدها خطبة ــ وأمكن تحديد أرقام الأسطر على أساس أن العلامة السلطانية تكون عادة فى موضع السطر الثانى بعد البسملة ــ انظر الحاشية التالية ، وانظر ما سبق عن المنشــور .

(٢) باقى الجزء المفقود من الوثيقة وفى تقديرنا انه سطر واحد بعــد البسملة .

(٣) « الله ... » علامة السلطان التى يوقع بها على مناشير الاقطاع، وهى حسب ما جرت به العادة مكتوبة فى سطر مستقل بخط السلطان ، بقلم جليل ، فى موضعها فى بيت العلامة الذى يجب أن يكون مقدار نحو شبر (٢٠ سم) ، أى ضعف المسافة التى بين السطور ، وموضعها بعد السطر الأول من البسملة ، أى أنها تمثل السطر الثالث من أصل المنشـــــور ــ القلقشندى : مصدر سابق ج ٦ ص ٣١٤ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١١ .

(٤) أهمع : سال ــ المنجد .

١١ ــ سحب كرمنا الدارة من أخلص لنا خدما

١٢ ــ وأصبح بفروض طاعتنا ملتزما ولما كان

١٣ ــ المجلس العالى[٥] الاميرى[٦] الكبيـــرى[٧] المجاهدى[٨] المؤيدى[٩]

١٤ ــ الذخـــرى[١٠] النصـــيرى[١١] الاوحدى[١٢] الاكملى[١٣]

---

(٥) المجلس العالى : المجلس فى اللغة موضع الجلوس ، وقد استعير للاشارة الى شخص الجالس تعظيما له عن التعبير عنه باسمه ، وهو من القاب الاصول فقد ارتبط منذ نشأته بالمكاتبات ، وفى عصر المماليك انقسم اللقب الى عدة درجات كان اعلاها « المجلس العالى » ــ حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ص ٤٥٥ ، ٤٥٨ .

(٦) الاميرى : من القاب أرباب السيوف ، والامير فى اللغة ذو الامر والسلطان ، واستعملت النسبة من هذا اللقب كلقب فخرى ــ القلقشندى : مصدر سابق ج ٦ ص ١٠ ، حسن الباشا : مرجع سابق ص ١٧٩ ، ١٨٤ .

(٧) الكبيرى : من الالقاب المشتركة بين أرباب السيوف والاقلام ، والكبير هو خلاف الصغير ، ويقصد به رفيع الرتبـــة ، وكثيرا ما يلحق « الكبير » بلقب الامير ، حتى اعتبر بعض الكتاب اللقبين وحدة لقبية فخرية ، وقد استعملت النسبة منه : فقيل « الكبيرى » ــ القلقشندى : مصـــدر سابق ج ٦ ص ٢٤ ، حسن الباشا : مرجع سابق ص ٤٣٦ .

(٨) المجاهدى : المقصود المجاهد فى سبيل الله ، والنسبة للمبالغة ، وهو من القاب اكابر أرباب السيوف ــ القلقشندى : مصدر سابق ج ٦ ص ٢٦ ، حسن الباشا : مرجع سابق ص ٤٥٢ .

(٩) المؤيدى : بكسر الياء المشددة من القاب أكابر أرباب السيوف نسبة الى المؤيد بالكسر للمبـــالغة ، والمراد أن الله تعـــالى يؤيده ويقـــويه ــ القلقشندى : مصدر سابق ج ٦ ص ٣٢ ، حسن الباشا : مرجع ســـابق ص ٥٢٣ .

(١٠) الذخرى : من القاب أرباب السيوف ، وأصله فى اللغة لما يذخر من النفائس ، والذخرى نسبة اليه للمبالغة ــ القلقشندى : مصدر سابق ج ٦ ص ١٤ ، حسن الباشا : مرجع سابق ص ٢٩٢ .

(١١) النصيرى : من القاب أرباب السيوف ، والنصيرى نسبة الى النصير للمبالغة فى نصره ــ القلقشندى : مصدر سابق ج ٦ ص ٣٣ ، حسن الباشا : مرجع سابق ص ٥٢٣ .

(١٢) الاوحدى : كان يرد فى عصر المماليك ضمن الألقاب السلطانية ، كما كان يطلق على صغار الكتاب ــ القلقشندى : مصـــدر سابق ج ٦ ص ١٠ ــ ١١ ، حسن الباشا : مرجع سابق ص ٢١٧ ــ ٢١٨ .

(١٣) الاكملى : الاكمل من القاب السلطان ، والاكملى نسبة اليه للمبالغة ــ القلقشندى : مصدر سابق ج ص ٩ .

المقــدمى[١٤] السيفى[١٥]

١٥ ــ مجد الاقلام والمسلمين[١٦] شرف الامراء المقــدمين[١٧] ركن الغــزاة

١٦ ــ والمجاهدين[١٨] عضد الملوك والسلاطين[١٩]

---

(١٤) المقدمى : من ألقاب أرباب السيوف ــ ويستخدم كلقب فخرى ــ القلقشندى : مصدر سابق ج ٦ ص ٢٩ ، حسن الباشا : مرجع سابق ص ٤٨٧ .

(١٥) السيوفى : كان لاستعمالها وترتيبها فى الاسم دلالة على معان اصطلاحية مختلفة ، وهى قبل الاسم تعنى أن لقب هذا الامير سيف الدين . زيادة : تحقيق كتاب السلوك للمقريزى ج ١ ص ٧٣٦ حاشية ٦ .

(١٦) مجد الاقلام والمسلمين : المجد فى اللغة الكرم ، وأضيف الى اللفظ بعض كلمات لتكوين ألقاب مركبة ، واللقب المركب هنــا لم يرد فى المصادر والمراجع المتداولة بهذه الصورة ، وأرى أنه جرى تركيبه بهــذا الشكل ليجمع للامير تمرباى صاحب الاقطاع بين كونه دوادارا ، وبين كونه أميرا عسكريا ، فمن المعروف أن اللقب المركب « مجد الاسلام والمسلمين » كان يطلق على أواسط الامراء ــ ابن اياس ، بدائع الزهور (تحقيق محمد مصطفى) ج ٣ ص ٤٤٧ ، القلقشندى : مصدر سابق ج ٦ ص ٦٨ ، حسن الباشا : مرجع سابق ص ٤٥٤ .

(١٧) شرف الامراء المقدمين : من ألقاب الامراء اذا كان مقدم الف ، ويبدو أن أطلق هنا على تمرباى تجاوزا باعتبار أنه كان استادار السلطان قانصوه الغورى قبل ذلك ــ القلقشندى : مصدر سابق ج ٦ ص ٥٥ ــ ٥٦ ، حسن الباشا : مرجع سابق ص ٣٥٦ .

(١٨) ركن الغزاة والمجاهدين : ركن الشىء فى اللغة جانبه الأقوى ، ودخل هذا اللفظ فى تكوين بعض الألقاب المركبة ، كما فى هذا اللقب ، وهو بهذه الصورة من ألقاب الامراء العسكريين .

(١٩) عضد الملوك والسلاطين : العضد فى اللغة اسم للساعد ، واستعمل ليدل على المعين والمساعد ، وأضيفت اليه كلمات لتكوين ألقاب مركبة مثل هذا اللقب ، وهو من ألقاب متوسطى أرباب الســيوف ــ القلقشندى : مصدر سابق ج ٦ ص ٦٠ ، حسن الباشا : مرجع سابق ص ٤٠٤ .

تمرباى السيفى قجماس[٢٠]

١٧ ــ أدام الله تعالى نفسه[٢١] هو الذى اخلص الطاعة

١٨ ــ واشتهر بالشجاعة فلذلك

١٩ ــ خرج الأمر الشريف العالى المولوى

٢٠ ــ السلطانى الملكى الاشرفى السيفى

٢١ ــ أعلاه الله تعالى وشرفه وانفذه وصرفه

٢٢ ــ أن يجــرى

---

(٢٠) اذا ورد مصطلح « السيفى » بين اسمين كما الحال هنا فانها تعنى أن الأول من مماليك الثانى ، أى أن تمرباى من مماليك قجمـــاس ، وبعد البحث والدراسة فمن المرجح أن قجماس هذا هو نائب الشـــام قجماس الاسحاقى الظاهرى ، المتوفى فى شوال ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م ــ ابن اياس : بدائع الزهور (تحقيق محمد مصطفى) جـ ٣ ص ٢٤٣ .

أما تمرباى فيبدو انه التحق بخدمة طومان باى الذى ولى الســلطنة فيما بعد باسم العادل طومان باى ، فقد عرف تمرباى بعد وفاة اســتاذه باسم تمرباى خازندار طومان باى ، ويبدو انه خدم فى البداية كدوادار للامير طومان باى ، وعندما تسلطن طومان باى العادل فى جمادى الاخرة ٩٠٦ هـ/ يناير ١٥٠١ م قرر تمرباى السيفى قجماس فى الخازندارية الكبرى ، ويبدو أنه أصبح منذ ذلك الوقت يطلق عليه تمرباى خازندار طومان باى .

وعندما ولى السلطان قانصورة الغورى عرش السلطنة عزل تمرباى من الخازندارية الكبرى فى شوال ٩٠٦ هـ / مايو ١٥٠١ م ، وقــرر عليه مالا ، وظل فى الترسيم حتى ورد ما قرر عليه من المال . وبعد ذلك أنعــم عليه السلطان قانصوه الغورى بامرة طبلخاناة بغير وظيفة وذلك فى المحرم ٩٠٨ هـ / يوليو ١٥٠٢ م ، ثم خلع عليه السلطان ثانية وقرره فى الاستادارية الكبرى فى محرم ٩١١ هـ / يونيو ١٥٠٥ م وظل بها حتى مستهل شــــهر جمادى الأولى من نفس السنة عندما استعفى تمرباى من الاستادارية فأعفاه السلطان منها ــ ولم يرد ذكره فى المصادر المتداولة بعد ذلك ــ انظر ابن اياس : مصدر سابق جـ ٣ صفحات ٤٤٧ ، ٤٥٢ ، ٤٥٦ ، ٤٧٠ ، جـ ٤ صفحات ٦ ، ١٢ ، ٣٢ ، ٨٠ ، ٨٢ ، جـ ٥ ص ٩٣ .

(٢١) دعوة واحدة مما يتفق وما جاء بكتب المصطلح ــ أنظر ما سبق ص ١٥ــ١٦ .

٢٣ ـــ فى اقطاع المشار اليه عندما رسم ما ستقر له من جملة امراء الطبلخاناة[٢٢] .

٢٤ ـــ بالديار المصـــرية ما رسم لديه للاذن من الاقطاع لخاصته

٢٥ ـــ ولمن يستخدمه من الاجناد الجياد النافعين للخدمة الشريفة والبرك التـــام

٢٦ ـــ والعدة الكاملة بمقتضى المثال الشريف

٢٧ ـــ والعدة[٢٣] فى السـنة[٢٤]

٢٨ ـــ العبـــرة[٢٥]

٢٩ ـــ خبـــــــــز

٣٠ ـــ الامير قانصوه الابراهيمى جوشن المتوفى الى رحمة الله تعالى

٣١ ـــ المغــل خاصته

---

(٢٢) امير طبلخاناة : مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف فى عصر سلاطين المماليك ، صاحبها يلى أمير مائة مقدم الف فى الدرجة ، وسمى أمير طبلخاناه لاحقيته فى دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين وأمراء المئين ، ويطلق عليه أيضا أمير أربعين ، بمعنى أن يكون فى خدمته أربعون مملوكا ، وقد يزيد هذا العدد الى سبعين أو ثمانين ـــ القلقشندى : مصـــدر سابق ج ٤ ص ١٥ ، د. زيادة : تحقيق كتاب السلوك للمقريزى ج ١ ص ٢٣٩ حاشية ١ .

(٢٣) لم يذكر المنشور تحت « والعدة » خاصته عدد المماليك حســب ما نصت عليه كتب المصطلح ، ولعل هذا نوع من التطور بعد عصـــر القلقشندى ـــ انظر ما سبق ص ١٣ـــ١٤ .

(٢٤) لم يذكر المنشور أيضا تحت « فى السنة » مصطلح « دربستا » ، أو ما يستثنى من الاقطاع ـــ انظر ما سبق ص ١٠ ، ١٤ .

(٢٥) العبرة : متوسط الدخل السنوى للاقطاع ، انظر :

Cahen, C. L'Evolution de 1' Iqta, p. 46, Rabie, H. : The Financial, p. 47.

وانظر أيضا الخوارزمى : مفاتيح العلوم (ط. ثانية ١٩٨١) ص ٤٠.

٣٢ ــ دشلوط[٢٦] بالاشمونين منبال[٢٧] بالبهنساوية

النصف ثلث سبع

من ناحية طما[٢٨] بسيوط من متحصل السدس

ثلثـــا ..... [٢٩]

٣٣ ــ وذلك لاستقبال من مغل سنة

خمسة عشرة وتسعمائة للخراج[٣٠]

٣٤ ــ بعد العلامة الشريفة اعلاه وبيبوئه حجته[٣١]

---

(٢٦) دشلوط : من القرى القديمة ، وورد فى التحفة السنية أن مساحتها ١٠١٤ فدان بها رزق ٣٦ فدان ، وكانت عبرتها ٣٠٠٠ دينار والآن ٥٠٠ دينار ، ابن الجيعان : التحفة السنية ص ١٧٩ ، وهى حاليا تابعة لمركز ديروط ــ محمد رمزى : القاموس الجغرافى ق ٢ ج ٤ ص ٤٦ .

(٢٧) منبال : من القرى القديمة ، وورد فى التحفة السنية أن مساحتها ٢١٥٥ فدان ، بها رزق ٤٠ فدان ، وكانت عبرتها ١٠٥٠٠ دينار ثم استقرت بحق النصف ، ابن الجيعان ص ١٧١ ، وهى حاليا تابعة لمركز سمالوط ، القاموس الجغرافى ق ٢ ج ٣ ص ٢٣٦ .

(٢٨) طما : من القرى القديمة ، وورد فى التحفة السنية أن مساحتها ٩٥٦٠ فدان ، بها رزق ٢٠٥ فدان ، عبرتها ٣٠,٠٠٠ دينار ، ابن الجيعان : التحفة السنية ص ١٨٧ ، وهى حاليا قاعدة مركز طما ــ القاموس الجغرافى ق ٢ ج ٤ ص ١٣٥ .

(٢٩) « .... » موضع كلمة غير مقروءة .

(٣٠) نلاحظ أن مغل سنة ٩١٥ هـ لم يجمع بعد رغم أن تاريخ المنشور فى ذو الحجة ٩١٦ هـ ، والمعروف أن نتيجة لقصر السنة القمرية عن السنة الشمسية يجبى الخراج المستحق عن السنة السابقة فى السنة التى بعدها ، وهذا ما يدعو ولى الامر الى تحويل السنة الخراجية السابقة الى التى بعدها ، فمثلا ينقل خراج سنة ٩١٥ هـ الى سنة ٩١٧ ويلغى خراج سنة ٩١٦ هـ حتى توافق السنة الخراجية السنة الشمسية ــ انظر القلقشندى : مصدر سابق ج ١٣ ص ٥٥ وما بعدها ، المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٧٣ وما بعدها .

(٣١) من العبارات الختامية فى المنشور ــ انظر المجبى : مصدر سابق ص ٢٣٧ ، وانظر ما سبق ص ١٦ .

ان شاء الله تعالى[٣٢]

٣٦ — فى سابع شهر الله الحجة لتمام

٣٧ — سنة ستة عشرة وتسعمائة[٣٣]

٣٨ — الحمد لله رب العالمين[٣٤] وصلواته على سيدنا محمـــــد وصحبه[٣٥] وحسبنا الله ونعم الوكيل[٣٦] .

---

(٣٢) درج كتاب الانشاء على كتابة الاستثناء بالمشيئة عند انتهـــاء ما يكتبون تبركا ورغبة فى نجاح مقصد الكتاب ، وموضعها من الـــدرج أسفل المكتوب فى وسط الوصل مكتنفة ببياض عن يمينها وشمالها فى سطر مستقل ، وبينها وبين السطر الاخر من المكتوب كما بين سطرين أو دونه — القلقشندى : مصدر سابق جـ ٦ ص ٢٣٢ — ٢٣٤ .

(٣٣) جاء التاريخ فى موضعه بعد الاستثناء بالمشيئة وفى سطرين مستقلين ، والتاريخ باليوم والشهر والسنة بالتاريخ الهجرى ، وهو مدار التاريخ الاسلامى — القلقشندى : مصدر سابق جـ ٦ ص ٢٤٣ وما بعدها ، وانظر ما سبق عن المنشور .

(٣٤) اصطلح الكتاب على اختتام الكتب بالحمد تبركا ، ولقوله تعالى (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) سورة يونس آية رقم ١٠ ، القلقشندى : مصدر سابق جـ ٦ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ ، ونلاحظ أن الكاتب اختصر كلمة « العالمين » .

(٣٥) طالما أن المنشور اختتم بالحمد له ، فأصبح من المناسب أن يقرن الحمد بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، جمعا بين ذكره وذكـــر الله تعالى — القلقشندى : مصدر سابق جـ ٦ ص ٢٦٧ .

(٣٦) الحسبلة : هى الدعاء الختامى فى نهاية المنشور ، واصـــطلح الكتاب على أن يكتبوا الحسبلة بلفظ الجمع على اعتبار أن المتكلم يتـــكلم بلسانه ولسان غيره من الامة ، وتسبقها (واو) زائدة فلا علاقة بين الحسبلة وما قبلها — القلقشندى : مصدر سابق جـ ٦ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ ، ونلاحظ هنا أن الكاتب كتب « الحسبلة » مختصرة على هيئة حرف (حـ) ، انظر عن هذا الاختصار القلقشندى : مصدر سابق جـ ٦ ص ٢٧٠ .

المصــادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم :

ثانيــا : الوثائق :

١ ــ منشور بمنح اقطاع باسم تمرباى قجماس الاسحاقى محفوظ بدفترخانة وزارة الاوقاف بالقاهرة رقم ٧٨٩ جديد •

٢ ــ مرسو مرقم ٢٤٧ بمكتبة دير سانت كاترين بسيناء •

ثالثا : الكتب العربية :

ــ ابراهيم على طرخان :

١ ــ النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ــ القاهرة ١٩٦٨ •

٢ ــ مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ــ القاهرة ١٩٦٠ •

٣ ــ الاقطاع الاسلامى ــ أصوله وتطوره ــ دراسة مقارنة ــ المجلة التاريخية المصرية ــ المجلد السادس سنة ١٩٥٧ •

ــ ابن اياس (محمد بن أحمد الحنفى ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م) :

٤ ــ بدائع الزهور فى وقائع الدهور

جـ ٣ ــ ٥ نشر محمد مصطفى ــ القاهرة ٦٠ ــ ١٩٦٣ •

ــ ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م) :

٥ ــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة

جـ ١ ــ ١٢ طبع دار الكتب ــ القاهرة ٢٩ ــ ١٩٥٦ •

جـ ١٣ ــ ١٦ ــ القاهرة ١٩٧٠ ــ ١٩٧٢ •

٦ ـ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى
مخطوط بدار الكتب المصرية ، مصور عن نسخة باريس ، رقم ح ١٣٤٧٥ ٠

٧ ـ منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور ـ ٣ أجزاء ـ كاليفورنيا ٣٠ ـ ١٩٤٢ ٠

ـ ابن الجيعان (شرف الدين أبو البقاء يحيى ت ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م) :

٨ ـ التحفة السنية باسماء البلاد المصرية ، نشر موريتز ـ بولاق ١٣٩٦ هـ / ١٨٩٨ م ٠

ـ ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) :

٩ ـ الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين
(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٧ تاريخ)

ـ ابن شاهين (خليل بن شاهين الظاهرى ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م) :
١٠ ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك
نشر بولس راويس ـ باريس ١٨٩٤ م ٠

ـ ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) :

١١ ـ تاريخ الدول والملوك ، المعروف بتاريخ ابن الفرات ـ المجلد التاسع ـ القسم الأول ـ نشر قسطنطين زريق ـ بيروت ١٩٣٦ ٠

ـ بيبرس المنصورى الدوادار (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) :

١٢ ـ زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ٠
مخطوط مصور بجامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨
(تحقيق د٠ زبيدة محمد عطا ـ رسالة دكتوراه غير منشورة بجامعة القاهرة ١٩٧٢) ٠

ـ جمال الدين الشيال :

١٣ ـ دراسات فى التاريخ الاسلامى ـ بيروت ١٩٦٤ ٠

١٤ ـ الروك الناصرى (مجلة الثقافة ـ العـدد ٩٩ ـ نوفمبر ١٩٤٠) ٠

ـ حسن الباشـا :

١٥ ـ الألقاب الاسلامية ـ القاهرة ١٩٥٧ ٠

ـ الخوارزمى (محمد بن أحمد بن يوسف)

١٦ ـ مفاتيح العلوم ـ ط ٠ ثانية ـ القاهرة ١٩٨١ ٠

ـ زينب محمد محفوظ هنا :

١٧ ـ التطور الدبلوماتى لمراسيم ديوان الانشاء بدير سـانت كاترين من القرن الخامس الى القرن العـاشر الهجرى ٠ رسالة ماجستير غير منشور بجامعة القاهرة ١٩٧٠ ٠

ـ سعيد عبد الفتاح عاشور :

١٨ ـ الفلاح والاقطاع فى عصر الايوبيين والمماليك ٠ (بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى) بيروت ١٩٧٧ ٠

ـ السيد الباز العرينى :

١٩ ـ المماليـك ـ بيروت ١٩٦٧ ٠

٢٠ ـ الاقطاع فى الشرق الأوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر ـ دراسة مقارنة ـ حوليات كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ، المجلد الرابع (يناير ١٩٥٧) ٠

ـ العمـرى (أحمد بن يحيى بن فضل الله ت ٧٤٩ هـ/ ١٩٤٩ م) :

٢١ ـ التعريف بالمصطلح الشريف ـ القاهرة ١٣١٢ هـ •

ـ القلقشندى (أحمد بن على ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) :

٢٢ ـ صبح الاعشى فى صناعة الانشاء
١٤ جزء ـ القاهرة ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ •

ـ الماوردى (على بن محمد بن حبيب المصرى ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٧ م) :

٢٣ ـ الاحكام السلطانية والولايات الدينيـة ـ ط • ثانية ـ القاهرة ١٩٦٦ •

ـ المقريزى (أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) :

٢ ـ المواعظ والاعتبـار بذكر الخطط والآثار ـ ط• بولاق ـ ١٢٧٠ هـ •

٢٥ ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ٤ أجزاء (١٢ قسم) ـ تحقيق د• محمد مصطفى زيادة ، د• سعيد عبد الفتاح عاشور ـ القاهرة ١٩٣٦ ـ ١٩٧٣ •

ـ المحبى (عبد الرحمن بن المقر المحبى ت ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م) :

٢٦ ـ تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف (مخطوط تحقيـق عبد الرحمن أمين صادق ـ رسالة ماجستير غير منشورة بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ١٩٧٩) •

ـ محمـد رمزى :

٢٧ ـ القاموس الجغرافى • القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٦١ •

ـ محمد محمد أمين :

٢٨ ـ الاوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر • القاهرة ١٩٨٠ •

٢٩ ــ فهرست وثائق القــاهرة (المعهــد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ــ ١٩٨١) ٠

٣٠ ــ مرســوم السلطان برقوق الى رهبــان دير سانت كاترين بسيناء ٠
(مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ــ العدد الخامس ١٩٧٤)٠

ــ النــويرى (أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :

٣١ ــ نهاية الأرب فى فنون الأدب
من جـ ١ ــ ٢١ طبع القاهرة ١٩٢٣ ــ ١٩٧٦ ٠
من جـ ٢٢ ــ ٣١ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة ٠

Ashtor, E. :

32 — A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages, London, 1976.

Cahen, C. :

33 — L'evolution de L'iqta, du Ixe au XIIIe siecle, Annales (E.S.C.) Economies, Societes, Civilisations, VIII, 1953.

Rabie, H. :

34 — The Financial System of Egypt, A. H. 564—741., A. D. 1169-1341, London, 1972.

35 — The Size and Value of the Iqta in Egypt, 564—741 A. H. 1169—1341 A. D., studies in the Economic History of the Middle East, (ed. M. A. Cook), London, 1970.

Richards, D. S. :

36 — A Mamluk Petition and A. Report from the Diwan Al-Jaysh, (B.O.A.S.) Bulletino of the School of Oriental and African Studies, Vol. XL, p. 1, 1977.

Poliak, A. N. :

37 — Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, London, 1939.

رسالة من البطريرك نيقولا مستيكوس الى الخليفة العباسى

دكتور / أحمد عبد الكريم سليمان

كلية التربية بالفيوم ـ جامعة القاهرة

مقـــــدمة :

ترك البطريرك نيقولا مســـتيكوس الذى هيمن على الأحـــداث السياسية والدينية فى العاصمة البيزنطية خلال الفترة من سنة ٩٠١ ـ ٩٠٧ م ، ٩١٢ ـ ٩٢٥ م ، ترك مجموعة كبيرة من الخطـــابات « ١٦٣ خطـــابا » تعتبر وثائق رسمية توضح علاقة الامبراطورية البيزنطيـــة بكثير من القوى السياسية المعاصرة لها خلال الربع الأول من القـــرن العاشر م ومن بين تلك القوى : البلغار ، البابوية ، الخلافة العباسية .

وكانت هذه الخطابات محفوظة ضمن مخطوطات الفاتيـــكان ثم نشرت بمعرفة MAı فى مجموعة :

Spicilegium Romanum, Tome x, 1839—1844.

ثم أعيد نشرها سنة ١٨٦٤ م باللغة اليونانية مع ترجمة باللغـــة اللاتينية ضمن ممجوعة J. P. Migne تحت عنوان :

Nicolae Constantinopolitani, Archiepiscopi Epistolae, Patrologiae Graecae, Tomus III.
(١)

ومن الصعوبات التى تواجه الباحث عند دراسة هذه الخطابات أنها ليست مؤرخة ، كما أنها لا تذكر الأسماء المرسل اليها الخطابات فى كثير من الأحيان • وعلى ذلك يصبح الاعتماد على نصوص الخطابات ذاتها هو الأساس فى معرفة تاريخها على وجه التقريب وكذلك معرفة اسم الشخص المرسل اليه الخطاب •

وفى هذا المقال سوف نلقى ضوءا على حياة البطريرك نيقولا وعلى الدور الذى شارك به فى الحياتين السياسية والدينية خلال الربع الأول من القرن العاشر الميلادى مع نشر احدى رسائله الى الخليفة العباسى ، والتعليق عليها •

البطريرك نيقولا مستيكوس :

ايطالى المولد ، وتلميذ فوتيوس[٢] ومن مساعديه ، دخل أولا فى

---

(١) قام عدد من الباحثين بدراسة بعض خطابات البطريرك نيقولا مستيكوس نذكر منهم : الأب جرامل . Grumel
انظر :
Dumbarton Oaks Papers, N. 16, 1962, p. 232., Note 9.
وكذلك جاى J. Gay انظر :
Mélanges Charles Diehl, Histoire, 1930 p. 91—100.
وأيضا جنكنز R. Jenkins انظر :
I. « The Mission of St. Demetrianus of Cyprus to Bagdad », in Annuaire Ix 1949 pp. 267—275.
II. Three Documents Concerning the «Tetragamy», in D.O.P. 1962, pp. 231—241.

(٢) كان فوتيوس بطريركا فى القسطنطينية فى الفترة من ٨٥٧ — ٨٦٧ م ، من ٨٧٧ — ٨٩١ م • واشتهر بخلافه الشديد مع البابوية فى الغرب •
انظر : اغناطيوس ديك : الشرق المسيحى ص ١٤٢ — ١٤٥ ، اسحاق عبيد : روما وبيزنطة ص ١—٢٠ •

سلك الادارةكمستشار للامبراطور ليو السادس«٨٨٦ـ٩١٢م»، وسكرتير أول فى القصر ، ثم انضم الى الحياة الدينية فرسم بطريركا للكنيسة البيزنطية أول مارس سنة ٩٠١ م خلفا لابطـريرك انطـون كاولاس Antony Cauleas [٣] • وكان للبطريرك نيقولا فى البداية نفوذ كبير على الامبراطور ليو السادس حتى أنه تشفع للضباط الذين ادينـوا بالخيانة فى تورمينا بصقلية فألغى الحكم باعدامهم[٤] • كما كان له مواقف سياسية ودينية مشهورة ، من ذلك موقفه من مشكلة الزواج الرابع للامبراطور ليو السادس ، وموقفه من سيمون ملك البلغار ، ومن البابوية فى الغرب • وقد مات نيقولا فى ١٥ مارس سنة ٩٢٥ م[٥] عن عمر ناهز الثالثة والسبعين عاما[٦] •

البطريرك نيقولا والامبراطور ليو السادس :

كانت مسألة الزواج الرابع للامبراطور ليو السادس هى سبب الخصومة بينهما ، فقد عارض نيقولا ذلك الزواج على أساس أنه ضد كل القوانين الكنسية • وكان ليو قد تزوج من قبل ثلاث مرات دون أن ينجب وريثا للعـرش[٧] • وأراد الامبراطور ومستشـاروه الاستفادة من نيقولا بالحصول على موافقته على الزواج الرابع — من زوى Zoe Carbanopsina •

---

(3) Dictionnaire de Theologie Catholique, p. 621, Lexikon Fur Theologie und kirche, p. 995., R. Jenkins, The Imperial Centuries AD 610—1071, p. 219.

(4) P.G.M., p. 9—10.

(5) Ibid, p. 14., Acta Sanctorum, Maii, III, p. 507—508.

(٦) ولد نيقولا حوالى سنة ٨٥٢ م • انظر :
Jenkins, Three documents .. p. 235, Note, 19. «in D.O.P.N. 16-1962».

(7) Jenkins, «The Flight of Samonas», in Speculum vol. 23, 1948, p. 232., Cambridge Medieval History, vol. Iv, I, p. 130—131.

وكان الامبراطور ليو السادس قد سيطر عليه الوزير العربى الأصل ساموناس • واستطاع ساموناس هذا أن يحرك الأحداث السياسية الكبرى فى بلاط ليو ، لذلك فانه اصطدم بالشخصيات القوية النفوذ فى الامبراطورية • وسعى ساموناس للتخلص منهم واحدا بعد الآخر • وكان أول هؤلاء هو القائد اندرونيقوس دوكاس قائد ثغر الأناضول الذى ثار على الامبراطور ليو السادس ثم هرب الى الخليفة العباسى فى بغداد • ونجح ساموناس فى الوشاية به لدى حكومة بغداد فقبض عليه وأودع السجن ، ولم يسمع عنه شىء بعد ذلك[٨] • أما الرجل الثانى الذى نجح ساموناس فى التخلص منه فكان القائد ايوستاسيوس Eustace ، وكان من الضباط الذين حكم عليهم بالاعدام بعد استيلاء المسلمين على تورمينا بصقلية سنة ٩٠٢ م ، وتشفع له نيقولا وحال دون تنفيذ الحكم فيه ، وقد تخلص منه ساموناس بالسم[٩] •

وكان الرجل الثالث الذى سعى ساموناس للخلاص منه أكثر هؤلاء عنادا وأشد صلابة ، وهو البطريرك نيقولا مستيكوس ، ومع ذلك لم يعدم ساموناس الحيلة للايقاع به ، فقد ثبت أن اتصالات تمت بين الثائر البيزنطى اندرونيقوس دوكاس وبين البطريرك نيقولا ، ووقع فى يد الحكومة البيزنطية خطاب قيل بأن البطريرك قد أرسله الى الثائر ينصحه فيه بعدم الاستسلام أو الاذعان لوعود الحكومة ، وقد جاء بذلك الخطاب جاسوس الحكومة — وربما جاسوس ساموناس — فى كابالا Cabala التى تحصن فيها اندرونيقوس دوكاس فى أثناء ثورته[١٠] •

---

(٨) أحمد عبد الكريم : المسلمون والبيزنطيون ج ١ ص ٦٥—٦٦ ، Jenkins, «The Flight . . p. 232.

(9) Jenkins, op. cit., p. 232.

(10) Jenkins, «The Flight . . p. 231—232.

وتحت تهديد الفضيحة والمحاكمة العاجلة بتهمة الخيانة العظمى دعى نيقولا لمباركة الطفل المنتظر ، وفى سنة ٩٠٥ م وضعت زوى طفلها فى الحجرة الأرجوانية ، وناشد الامبراطور ليو السادس البطريرك أن يعمد الطفل ويعترف بشرعيته ، وقد وافق البطريرك على ذلك بشرط أن ينفصل الامبراطور عن زوى ، عندئذ رفض الامبراطور وعمد الطفل بمعرفة قسيس وتحت ملاحظة عيون ساموناس[١١] .

ويبدو أن ضغط الامبراطور ومستشاريه لا سيما ساموناس قد اشتد على البطريرك نيقولا حتى أوشك أن يعترف بذلك الزواج[١٢] ، لكنه تراجع عن ذلك بل ورفض استقبال الامبراطور فى الكنيسة أثناء احتفالات عيد الميلاد سنة ٩٠٦ م ، فما كان من الامبراطور الا أن طرد نيقولا من منصبه ونفاه ، وأحل محله ايوثيميوس Euthymius فى فبراير سنة ٩٠٧ م[١٣] ، ويبدو أن صفقة بين الجانبين قد عقدت ، فمن ناحية لم يصر أيوثيميوس على انفصال الامبراطور عن زوى ، ومن ناحية أخرى وافق الامبراطور على أن يمنع الزواج الرابع فى المستقبل بقانون[١٤] .

---

(11) Enno Franzius, History of the Byzantine Empire, p. 198—199. New Yourk 1967.

(١٢) يرى جنكنز أنه طبقا للخطاب رقم ٤٠ المرسل من نيقولا مستيكوس الى The Patrician Malakinos فان نيقولا كان ميالا للاعتراف بالزواج الرابع لكنه تراجع عن ذلك تحت ضغط بعض الأساقفة ومنهم Arethas « اريتاس » أسقف قيصرية . انظر :

Jenkins, «Three documents. .» in D.O.P. N. 16—1962. p. 233—234.

(13) Karlin-Hayter, «Vitae S. Euthymii, pp. 79—103», in Byzantion xxv—xxvI—xxvII, 1955—1957.

(14) Nicolas Oikonomides, «Leo's Legislation on Fourth Marriages, p. 179—181» in D.O.P. 30, 1976.

وبسبب تصرفات الامبراطور ليــو السادس انقسم رجال الدين الى قسمين : قسم وقف الى صف البطريرك نيقولا ضد زواج الامبراطور للمرة الرابعة ، والقسم الآخر ناصر البطريرك الجديد ايوثيميوس • والواقع أن الامبراطور ليــو كان يشك فى ولاء البطريرك نيقــولا منذ أن تعرض الامبراطور لمحاولة اغتيال فى كنيسة St. Mocius Martyr سنة ٩٠٣ م ، اذ لم يأمر البطريرك أحدا من اتباعه لمحاولة الدفاع عن الامبراطور بل لاذ الجميع بالفرار(١٥) •

البطريرك نيقولا وسيمون ملك البلغار :

عاد نيقولا الى منصب البطريركية مرة ثانية بعد وفاة الامبراطور ليو السادس فى مايو عام ٩١٢ م وتولى الكسندر العرش خلفا له • وترتب على ذلك عزل وابعاد البطريرك ايوثيميوس من منصبه • ولمــا كان الكسندر معاديا للامبراطورة زوى فانه ترك قبل وفاته فى ٦ يونية سنة ٩١٣ م وصية عين بمقتضــاها البطريرك نيقولا رئيســا لمجلس الوصاية على الامبراطور الطفل قنسطنطين الســابع ، فهيمن بذلك البطريرك نيقولا من جديد على ادارة القصر والحكومة وكل ما يتعلق بالسلطة الامبراطورية(١٦) •

ومع أن أحداثا وقعت فى البلاط الامبراطورى أصــبحت زوى بموجبها رئيسة لمجلس الوصاية ، وأخذت تتآمر لابعاد نيقولا عن منصبه والتخلص منه ولو بالقتل ، اذ أنها لم تنس له رفضه الاعتراف بها فى الكنيسة ، برغم ذلك كله فان البطريرك خرج فى النهاية منتصرا على كل خصومه بعد أن اضطرت زوى نفسها الى الاستعانة به فى مواجهة

---

(15) Karlin- Hayter, op. cit., p. 81.

(16) J. Gay. «Le Patriarche Nicolas Le Mystique et son role Politique, p. 92—93» Mélanges Charles Diehl, Histoire., Louis Brehier, Vie et Mort de Byzance, p. 155—156.

خصومها واطماع المحيطين بها ، بل أن نيقولا بارك زواج قنسطنطين من ابنة رومانوس ليكابينوس وتوج الزوجين ثم توج رومانوس نفسه امبراطورا شريكا لقنسطنطين[١٧] .

وفى خلال ولاية نيقولا الثانية لمنصبه ٩١٢ — ٩٢٥ م قام بدور كبير فى المفاوضات مع سيمون ملك البلغار ، وقد أظهر نيقولا فى هذه المفاوضات مزيجا من الحزم واللين . وكتب نيقولا خطابات كثيرة الى سيمون فى الفترة من سنة ٩١٢ م — ٩٢٤ م هى المصدر الرئيسى عن العلاقات البيزنطية البلغارية فى تلك الفترة . كما أن نيقولا هو الذى توج سيمون امبراطورا على البلغار[١٨] .

وخطابات نيقولا الى سيمون ليست مؤرخة لكن نصوصها توضح أنها كتبت بعد وفاة الامبراطور ليو السادس والامبراطور الكسندر ، وفى أحد هذه الخطابات يخاطب البطريرك ملك البلغار بعبارة « الابن الروحى » ، ويستنكر قيام سيمون بالاستعداد للهجوم على طفل برىء وقاصر ، ويتهمه بأنه يرغب فى أن يصبح طاغية وأنه يستغل المصاعب الداخلية فى الامبراطورية البيزنطية للاستيلاء على عاصمتها[١٩] . وقد اشترك البطريرك نيقولا بنفسه أكثر من مرة فى المفاوضات مع سيمون ملك البلغار[٢٠] .

البطريرك نيقولا مستيكوس والبابوية :

فى خلال اهتمام نيقولا بالسلام الدينى داخل الامبراطورية ناضل من أجل استعادة العلاقات الودية مع روما ، فقد قطعت هذه العلاقات

---

(17) Gay, op. cit., p. 93—95.

(١٨) من هذه الخطابات رقم ٣ ، ٥ حتى رقم ١١ ، من رقم ١٤ حتى رقم ٣١ . وعدد هذه الخطابات ٢٦ خطابا . انظر :
P.G.M., p. 39, 46—90, 99—195.

(19) P.G.M. Col 48., Gay, op. cit., p. 95.

(20) Gay, op. cit, p. 93—95.

بسبب موقف البابا سرجيوس الثالث المؤيد للامبراطور ليو السادس فى زواجه الزابع[٢١] • بل ان البابوية وافقت على نفى نيقولا واعتلاء ايوثيميوس محله فى البطريركية البيزنطية[٢٢] • وبمجرد أن عاد نيقولا الى البطريركية مرة ثانية أرسل فى سنة ٩١٣ م خطابا كبيرا الى البابا كى ينال اعتراف الكرسى البابوى به دون أن يجحد نيقولا شيئا من المبادىء التى كان دفاعه عنها سببا فى نكبته الأولى • وقد عبر نيقولا فى خطابه فى أكثر من عبارة عن الكراهية والغضب ضد الرومان شركاء أعدائه ، وعن عدم معرفة الرومان بالقوانين الكنسية وقلة مروءتهم[٢٣] •

ويبدو أن البابوية لم تستجب بسرعة لطلب نيقولا أو لم تعن خطابه اهتماما يذكر ، والدليل على ذلك أنه عاد وكتب خطابا آخر الى البابا حنا العاشر بعد ثمان سنوات من خطابه الأول يشكو فيه من سكوت روما ، فكتب يقول « أكثر من مرة ان لم يكن عن طريق الرسالة فعن طريق رهبان من كل صنف وعلمانيين قادمين من روما الى هاهنا طالبنا ايفاد مندوبين من قبل كنيسة روما لدينا لازالة كل ما لدينا ولدى كنيستنا من شكوك بالنسبة الى الماضى ، وهذه هى السنة التاسعة منذ عودتنا الى الكرسى ولم يصلنا شىء ، ولا شهادة واحدة بلغتنا فى هذا الخصوص •

كما كتب نيقولا رسالة أخرى يعود تاريخها الى نفس الفترة تقريبا

---

(21) Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p. 229-231.

(22) Gay, op. cit., p. 97.

(23) Gay, op. cit., p. 98.

وقال نيقولا فى خطابه « الى كلى القداسة بابا روما القـديمة من نيقولاوس رئيس أساقفة بيزنطة عن الزيجة الرابعة المقبولة بلا حق لدى الرومان . إنكتب نشيد مديح وتمجيد أم نذكر المؤامرات التى حيكت ضدنا ، ونعاتبكم عتابا أخويا ، أم نتهمكم بحق بسبب المضايقات التى سببتموها لنـا ... » .

انظـر :

P.G.M. Col. 195. «Lettre xxxII»

يشرح فيها للبابا الاضطرابات التى أحدثت الانشقاق فى الكنيسة البيزنطية عند نكبة نيقولا الأولى سنة ٩٠٧ م .

وفى هذه الرسالة قال نيقولا « اننا نحاول اعادة الوحدة الأخوية التى كانت بيننا قديما بحيث يعود ذكر اسمكم فى القوائم المقدسة »(٢٤) .

واستجابت روما هذه المرة لطلب نيقولا اعادة الوفاق بين الكنيستين ، ولكن يبدو أن استجابة روما لم تأت الا بعد أن أحست بأن الوحدة قد عادت داخل الكنيسة البيزنطية ذاتها ، فقد عقد فى القسطنطينية مؤتمرا كنسيا سنة ٩٢٠ م حضره أنصار البطريرك نيقولا مستيكوس وأنصار البطريرك المعزول ايوثيميوس واتفق الحاضرون على ما سمى بميثاق الاتحاد أو كتاب الاتحاد Tome of union للكنيسة البيزنطية ، وقد أعلن فى هذا الكتاب أن الزواج الرابع محرم وباطل وممنوع بواسطة الكنيسة ، ولا يصح فى أرض مسيحية ، ولم يشر ذلك الكتاب مباشرة الى الزواج الرابع للامبراطور ليو السادس ، وبذلك رضى الطرفان المتنازعان . ومن المحتمل أن ذلك الاتفاق بين الطرفين كان بسبب الخوف من التهديدات البلغارية . على أى حال فقد وافقت البابوية بعد ذاك الاجتماع على ارسال اثنين من الأساقفة الى العاصمة البيزنطية ، وقد أدان مندوبا البابا النزاع الذى نشب بسبب زواج ليو السادس . وبذلك عادت الاتصالات المباشرة من جديد بين كنيستى روما والقسطنطينية ، وان كان من الواضح أن جهود نيقولا مستيكوس كانت سببا فى تلك العودة ، كما أن نيقولا نفسه قد خرج من هذا النزاع منتصرا ، فقد أقرت البابوية أراءه وأدانت قراراتها السابقة(٢٥) .

---

(24) Gay, op. cit., p. 98.

(25) Vasiliev, History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 234.

البطريرك نيقولا والخلافة العباسية :

أرسل البطريرك نيقولا ثلاث رسائل غير مؤرخة الى الخليفة العباسى ، تضمنت الرسالة الأولى وهى الى الخليفة المقتدر معلومات عن حملة داميان على قبرس سنة ٢٩٨ هـ / ٩١١ م ، واعترض البطريرك فى رسائله هذه على تصرفات داميان فى الجزيرة(٢٦) ، ويمكن ارجاع تاريخ هذه الرسالة الى فترة بعد أغسطس سنة ٩١٣ م ، ففى احدى فقراتها ذكرت وفاة داميان التى حدثت سنة ٣٠١ هـ / أغسطس ٩١٣ م— يولية ٩١٤ م(٢٧) .

أما الرسالة الثانية وهى بعنوان « اليه أيضا » فيصعب القطع بتاريخ محدد لها سوى أنها لاحقة للرسالة الأولى ، وعلى العموم فان البطريرك يناشد الخليفة فى رسالته الثانية الموافقة على تبادل الأسرى بين الجانبين ، فهو يقول « ولما قلنا هذا الكلام بروح الصداقة ورغبة منا فى اعلاء شأن صديقنا نضيف نصيحتنا وتوصيتنا بخصوص عملية من أعظم الأعمال الانسانية الا وهى اطلاق سبيل الأسرى . وفى ودنا استمالتك الى ذلك » . وفى عبارة أخرى « لن يصعب عليك الاقدام على عمل صالح كما لن تضع العراقيل والادعاءات فى سبيل اطلاق سراح أسرانا وأسراكم » . ويذكر البطريرك نيقولا الخليفة العباسى بالصداقة التى كانت بين البطريرك السابق فوتيوس والخليفة المعتضد فيقول « ولا يخفى لسيادتكم أن عظيم أحبار الله فوتيوس

---

(٢٦) سبق نشر هذه الرسالة وترجمتها بمعرفة الباحث .

انظر : المسلمون والبيزنطيون جـ ١ ص ٢٣ ، ص ٢٧٧—٢٨٢ .

(27) Jenkins, «The Mission of st. Demetrianus of Cyprus to Baghdad, p. 274», in Annuaire Ix-1949., « Anote on the «Letter to the Emir» of Nicholas Mysticus, p. 400 » in D.O.P. N. 17—1963.

المعظم أبى فى الروح القدس كانت تربطه ووالدكم الجليـــل أواصر الصداقة »[٢٨] •

والرسالة الثالثة التى ننشر نصها هنا بالكامل كانت موجهة أيضا الى الخليفة العباسى ، فهو وحده الذى يخاطب بعبارة « رئيس أمة المسلمين ومملكتهم » ، ومع أن الرسالة لا تذكر اسم الخليفة العباسى المقصود الا أننا نعتقد أنه كان الخليفة المقتدر بالله • فمن المعروف أن البطريرك نيقولا ٩٠١ ــ ٩٠٧ م ، ٩١٢ ــ ٩٢٥ م قد عاصر اثنين من الخلفاء العباسيين : الأول هو الخليفة المكتفى ٢٨٩ هـ ــ ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ ــ ٩٠٨ م ، وعهده يوافق تقريبا الفترة الأولى التى شـــغل فيها البطريرك منصبه ، والثانى هو الخليفة المقتدر ٢٩٥ ــ ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ ــ ٩٣٢ م ، ويدخل فى عصره الفترة الثانية التى شغل فيها نيقولا منصبه بعد عودته سنة ٩١٢ م عقب وفاة الامبراطور ليو السادس فى ١١ مايو سنة ٩١٢ م •

وبمقارنة نصوص هذه الرسالة بما ورد فى المصادر العربية وجدت نصا منسوبا الى أحد وزراء الخليفة العباسى المقتدر وهو الوزير على ابن عيسى يتضح منه بالفعل أن هذه الرسالة كانت موجهة الى الخليفة المقتـــدر •

ولذلك رأيت أن أنشر نص حديث ذلك الوزير بعد ترجمة رسالة البطريرك • أما التاريخ التقريبى لهذه الرسالة فيقع فى فترة وزارة على بن عيسى الأولى ــ محرم ٣٠١ هـ ــ ذو الحجة ٣٠٤ هـ / ٩١٣ ــ ٩١٦ م ، لأن فترة وزارته الثانية كانتمن صفر ٣١٥ هـ الى ربيع الأول

---

(28) P.G.M. Col. 35—39., Jenkins, The Mission. . p. 275, Note 5, Gay, op. cit., p. 100.

٣١٦ هـ / ٩٢٧ — ٩٢٨ م[٢٩] ، أى بعد وفاة البطريرك نيقولا فى سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م .

نص رسالة البطريرك نيقولا الى الخليفة العباسى :[٣٠]

Col. 310 : الى صاحب الأصل العريق وصديقنا الذى حظى باختياره تعالى برئاسة أمة المسلمين[٣١] ومملكتهم .

يا رئيس المسلمين المعظم ، بقدر ما وهبك الله من مكانة وسمو منزلة بين جميع بنى جنسك ، بنفس هذا القدر عليك أن تسمو على الآخرين فى الفضيلة ، ولا أقول ذلك لأنى أشك فى فضلك اذ أننا نعلم كل ما ذاع عنك من صيت حسن ، وبلغنا أنك تفوق رعاياك لا بالرئاسة فقط بل بالحكمة والعدل والأخلاق السامية ، ولكن لما بلغت مسامعنا

---

(٢٩) عريب بن سعد القرطبى : صلة تاريخ الطبرى ص ٤٣ ، ٥٩ ، ١١٣ ،

الهمدانى : تكملة تاريخ الطبرى ص ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢٥٠ ،

الصابىء : تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء ص٣٠٥—٣١٠ ، ٣٣٤—٣٣٦ .

ويعتقد Gay أن الرسالة كتبت فى فترة من سنة ٩٢١—٩٢٥ م . انظر :

Gay, op. cit., p. 100.

(٣٠) هذه الرسالة هى رقم ١٠٢ ضمن مجموعة P.G.M. p. 310—318 ويلاحظ أن كل صفحة من هذه المجموعة بها عمودان ، عمود باللغة اليونانية ، وآخر يقابله باللغة اللاتينية . وسنشير فى الترجمة الى رقم العمود اللاتينى .

(٣١) فى الأصل « السراكين » وهى كلمة لها تفسيرات مختلفة ، منها أنها مأخوذة من اسم قبيلة Saraka ، أو على اسم سارة زوجة سيدنا ابراهيم المعروف بأنه أبو العرب ، أو هى تحريف لكلمة شرقيين . المهم أنها أصبحت علما على المسلمين فى العصور الوسطى . انظر :

عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ١ ص ٤٧ ،

ديو : العرب فى سوريا قبل الاسلام ترجمة عبد الحميد الدواخلى ص ١٦٣ .

وسنذكر فى باقى الترجمة كلمة المسلمين بدلا من السراكين .

أخبار خرافية لا تصدق ، مفادها أن النصارى الذين فى ظلكم يعاملون معاملة قاسية من غير أى سبب معقول ، ومتذرعا بوشايات واهية ، ولهذا السبب ذكرنا ما سلف • وقد جاء فى هذه الاشاعة الغريبة التى لا أدرى كيف بلغت مسامع جلالتكم ، ولا شك فى أنها بلغتكم على يد الشيطان الذى هو مصدر الكذب من البداية — أن مسجد المسلمين الكائن عندنا قد هدم بأمر الامبراطور ، وأن المسلمين قد أرغموا على جحد دينهم قهرا واعتناق الديانة المسيحية ، ولذلك أصدرتم قرارا بهدم الكنائس المسيحية التى فى مملكتكم •

هذه هى مقدمة رسالتنا ، ولم يكن يجدر بك الاصغاء الى هـذه الاشاعة الشيطانية ، ولو كانت من بشر لم يجز قبولها واصدار مثـل هذا الأمر الخطير ، بل كان لابد من تحقيق هذه الاشاعة لتتأكد ان كان ما جاء فيها حقيقة أم خدعة بحيث لا تشك فى سماحة الامبراطورية الرومانية وعدالتها بسبب اشاعة • وبمقدار خطورة ما أقدمت عليه أنت السلطان السامى الأعظم ضد سلطان سام أعظم ، كان عليك بنفـس المقدار الأعظم أن تبحث عن صحة ما سمعت من غير أن تغـرر بك اشاعات الغوغاء ، Col. 311 : وان كان الرومان يزدانون بفضـائل كثيرة ، فانهم يتميزون بالرحمة والعدالة ، ولا يشهد على ذلك كلامى فقط بل الناس جميعهم وعلى مدى التاريخ ، ومنذ أن استقرت سلطة الروم فى الأرض وحيثما أمتد سلطانهم • فكيف كان من المعقـول أن يقترف هذا الاثم من يشهد كل تاريخ وكل لسان لتسامحهم كما أكدت أنت بنفسك وبما لديك من خبرة بالشئون البشرية ، وكما يليق بالمنزلة التى تحتلها ، ولذلك لم يجمل بجلالتكم وسلطانكم وحكمتكم أن تجعلوا من بلادكم موطنا للالسنة النمامة •

ولكن بعد أن جرى ما جرى ، وأرسلت رجالا جاؤونا باحثين عن الحقيقة فهم أنفسهم سيبلغونك الاجابة ، فانهم سيذكرون لكم ما أبصروه بأعينهم ، وتأكدوا من صحته بآذانهم لا بل الرجال المنتمون الى عشيرتكم

والذين سيأتون مع المندوبين سيتحدثون عن كل ما جرى لهم فى هذه المدينة الملكية منذ أسرهم وبما لاقوه من معاملة • وكان حسبنا أن نكتفى بهذه الشهادة على لسان بنى جلدتكم لكى تتأكدوا من هذه الاشـــاعة الكاذبة من الرجال الذين ارسلتموهم الينا ، على أننا كتبنا لكم بأنفسنا بصفتنا آباء الشعب المسيحى — مع خطايانا وعدم استحقاقنا — ولكوننا تلاميذ المسيح الهنا ، ولن ننكر أبدا حقيقته ، ولن نفقد رعايته وعنايته•

فاسمع اذن يا أيها الرجل العظيم زعيم أمة المسلمين : ان حكام الرومان منذ القدم قرروا بالنسبة للاسرى ما يلى : نظرا لعلمهم أنه لابد من مقاومة كيد العدو الى نهاية الحرب ، ولكن ما أن يقع المحاربون فى أيديهم فعليهم معاملتهم كرعايا ، والاعتناء بهم كى لا تتغص عليـــهم حياتهم ولا يصيبهم أى مكروه ما عدا حرمانهم من الوطن والأقارب والأصدقاء والأهل ، ولذلك فانهم يمنحونهم مساكن فسيحة ، وجعلهم يتمتعون بالهواء النقى كما يليق بحياة الانسان ، فيمنحونهم مصلى خاص بهم كما هى العادة عندكم للناس الذين ينتمون الى الجنس الواحـــد والايمان الواحد والملة الواحدة • ثم ان أباطرة الروم رأوا منذ القدم ألا يلقى أسراكم أية معاملة أسوأ من التى يلقاها المسلمون المقيمـــون فى أوطانهم ما عدا فراق ذويهم • وقد اتخذت هذه القرارات من سبيل الرحمة ، وجميع الذين تولوا الحكم على مر الأجيال التزموا حتى يومنا هذا بذلك العهد • وليس لأحد أن يدعى من غير الاجحاف بالحق أنه قد حدث تغيير **نحو الأسوأ** ، **Col. 314** : من ناحية السكن أو نظام الحياة المقرر منذ البدء بالنسبة للاسرى المسلمين ، ومع ذلك فان الأسرى النصارى يلقون عندكم — كما يشهد الجميع — شتى المضايقات ويعيشون فى الذل بحيث أن الموت أجدر بهم ، وأحرى بهم ألا يعدوا بين الأحياء • ثم اليك أيضا هذه الملاحظة : ما هو السبب الذى جعل حكام أمة الروم يعاملون بنى جلدتكم بالشدة والقسوة كما بلغ مسامعكم عن طريق هذه الوشاية المنكرة ؟ وليس فى وسعكم أن تدعوا أنهم نفضوا أيديهم مما

تحلى به أسلافهم من رحمة ، وكيف لهذا الادعاء أن يلقى تصديقا لو جرؤ أحد وادعاه ؟ اذ لو ابتدعت فى الوقت الحاضر أنواع جديدة من التعذيب أو القتل بالنسبة لأسراكم فليذكرها أولا أحدكم ممن يمرون بنا وعندئذ لك الحق فى توجيه الاتهام ، مع أنكم كثيرا ما تذيقون الأسرى النصارى أنواعا من الموت العنيف البعيد عن كل شعور انســانى ، فأحيانا لا تقطعون رؤوسهم بالسيف بل تذبحونهم كالغنم من غير أن تقشعر أجسامكم أو تأخذكم الخشية والاحساس بالانسانية • وربما علقتموهم على الأشجار وقتلتم الواحد بالسهام والحجارة •

فماذا نقول ؟ على أنه رغم تصرفكم هذا فان تسامح الشــعب الرومانى لن يقتدى بهذه القساوة ، بل اذا دعت الضرورة الى الحــكم بالاعدام على أحد المسلمين فان ذلك الانسان يعبر من الحياة الى الموت بقطع الرأس فحسب من غير عنف أو قسوة ، فالذين تصرفوا الآن بتسامح وانسانية كيف سمحتم لأنفسكم أن تشكوا فيهم مدعين أنهم ظلموا المسلمين ظلما حمل به المغرضون وداعتكم على اصدار أمر لا يليق بسلطانكم • غير أنه يبدو أن هؤلاء — ونحن لا نرضى اهانتهم — قد أبلغوكم هذا الكلام بغضا منهم للمسيح الهنا الذى لم يشأ أن ينتقم من الذين تمردوا عليه لا فى حياته الأرضية ولا بعد عودته الى مجده ، غير أنه حدد يوما رهيبا سوف يجازى فيه كل حسب أعماله ، ويكفى ما قلنا هنا عن الذين حاولوا اثارة حلمكم لتشعلوا غضبكم ضد النصارى•

ثم اننا نقول لكم بكتابنا هذا وكأننا ماثلون أمامكم نتحدث بلساننا مباشرة ما يلى : ليس صحيحا يا من قلدك الله السلطة على أمة المسلمين ذلك الخبر الذى بلغكم اياه بعض الناس •

وبصرف النظر عن هوية Col. 315 : الذين لفقوه ممن لا يخافون الله الذى يكشف القلوب ، والذى يبدو كل خفى أمامه مكشوف بلا غطاء، ومن غير أن يهابوا حرمة العقل والحقيقة التى لها أمام الله والناس شرف

وفضل عظيم ، كما أنهم لم يتورعوا عن تدنيس أذنكم التى ليس لهـا شىء أحب من الحقيقة الواضحة — ماذا عساه أن يكون أحب من الحقيقة بالنسبة لانسان ملك لا سيما وأنه ملك أمة المسلمين العظيمة ؟ — لا بل كان تصرفهم مضادا لكل ما ذكرت مؤثرين الكذب والافتراء ضد من لا يذكر قط أنه اقترف مثل هذه الأمور .

وعليه فليس لما قالوه أو فعلوه أى نصيب من الحقيقة ومردود الى عالم الأكاذيب ، فلا مسجد ملتكم دمر فى الوقت الحاضر أو الماضى ، ولا المسلمون المقيمون هنا منعوا من التردد عليه ، لا بل ان المســجد والذين يرغبون فى خدمته يلقون من الرعاية ما كانوا يلقونها لو كانوا فى أرضكم ، ثم ان أحدا من المسلمين لم يجبر على جحد دينه بأمــر الملك أو بالاكراه من قبل الأمراء أو النبلاء فأى انسان له أن يدنو من الملك ويتمتع بمخالطته ويسمع كلامه ويحظى برؤية محياه . أما ان وجد من الرعاع والصعاليك العديمى الحكمة ممن يجهل الملك هويتهم وجرءوا على أن يقترفوا ذلك الاثم فليس من واجبى سرد التفاصيل . غير أنه لابد من كشف مقترفى هذه الجريمة ، واذا ما أهملتها السلطه الملكية ولم تقض بالانتقام منها بعدالة فربما جاز لكم عندئذ توجيه التهم وصب جام غضبكم عليهم ان وقعوا فى أيديكم ، مع أن هذا التصرف لا يقبله العدل ولا محبتكم للعدالة ولا الأمان الذى منحه نبيكم للتابعين لسلطة غريبة والواقعين تحت حكمكم ، فلماذا على أنا البرىء أتحمل العقوبة ظالما مع أنى لم أخالف سلطانك فى شىء ، لأن انسانا آخر غير تابع لسلطانك يحاول اقتراف ما يزعجك .

ماذا نقول اذن ؟ أيهان النصارى ومعابدهم مع أنهم يطيعــون ويستجيبون لأوامرك ولا يجرؤون أن يحركوا ساكنا كما يقال من غير ارادتك لأن امبراطور الروم — من باب الفرض فقط — أمر بتعذيب بعض المسلمين المأسورين لديه ؟ ولسنا نقول ذلك لأنه حدث فعلا — لأنه لم ولن يقع ، اذ أن الروم لم ولن ينسوا قط ما لديهم من رحمة — بل

نقول ذلك لترى انك لا تنصف النصارى بتعريضهم للتعذيب ، ثم انك بذلك تبطل الأمان الذى أعطاه رسولكم خطيا ، Col. 318 : وتتحمل أنت هذا الابطال والالغاء الخطير لشرف كنت تتمتع به باستحقاق • فلا تجعل يا زينة المسلمين ومجدهم ، لا تجعل من فخركم فى هذا المضمار عارا • فمن الذى سيسمع أن عظيم المسلمين المتقلد حكمهم يعرض النصارى التابعين له للعذاب والمضايقات من غير أن يخالفوه أو يتمردوا عليه ولا يقر أنكم لا تصنعون عدلا ولستم مستحقين لما منحكم الله من سلطان • فكما أن كل انسان يستحق الخير ان كان فاضلا كذلك كل انسان يستوجب العقاب لما يقترفه من اثم • وقد علمت جلالتكم أن الابن لا يشارك أباه فى عقوبته عن ذنوبه الكثيرة الا اذا شاركه الابن فى الذنب أيضا ، كما أن الأخ لا يدان مع أخيه المقترف شرا الا اذا أسهم فى اقتراف الشر • وبالجملة لا القريب يؤدب مع قريبه لأمر يستوجب التأديب ، ولا الصديق مع صديقه الا اذا ثبت تعاونه معه فى العمــل •

فانظر اذن كم هو أقرب الى العقل ألا يلحق بالنصارى الخاضعين لك أى مضايقة بسبب المسلمين المقيمين ها هنا — او سلمنا بذلك كما سبق وقلنا — لأنهم لم يشاركوا بأى شكل من الأشكال من له هنا القدرة على استعمال العنف فى مقاصده أو ظلمه • على أن هذا لم يتم قط ولم تقع أى مظلمة فى حق المسلمين لا من قبل الملك ولا من قبــل خاصته الذين يحظون بصداقته ومصاحبته ، بصرف النظر عن بعض صــــغار المسئولين الذين سيؤدبون كما يجب بعد التحقيق فى الأمر •

وكى لا نبدو بكلامنا هذا أننا نضطركم اضطرارا على التصـــديق أوفدنا من عندنا بعض المسلمين ، وهناك رسائل الأسرى المقيمين لدينا ستزيدكم تأكيدا ويقينا أن ما بلغ آذانكم انما هو اشـــاعات أناس يستوحون الشيطان ويكرهون الجنس البشرى كما كرهه هو منذ البدء ، ويحاولون ايقاع المسلمين فى شرك النميمة دون حكم الله العادل لتعريض

النصارى الى العذاب والمكاره • ولكن لا يجوز أن يخفى عليك هذا كله يا رئيس أمة المسلمين ولا تسمح لنفسك أن تنصاع الى أكاذيب هؤلاء المغرضين من حيث لا تدرى كى لا يلتصق العار بمجدك واسمك العظيم ، ويذكر عنك أنك فى حياتك وفى عهدك لقى النصارى الهوان وان شئت تصدقنى لأنى أحب جلالتك واخلاصك ، وأنا الحريص على مجدك وورعك ، وهذا هو موقفى من جميع الناس ، وهذا هو رأيى وأصلى من أجل الجميع ليل نهار مع كونى خاطئا ، ودع عند مغادرتك هذا العالم ذكرى التسامح والعدالة ، وعموم الرأفة والانصاف على شعبك من غير أن يتعرضوا لأى ظلم وأية مشقة •

نص من كتاب جامع التواريخ :[٣٢]

ص ٣٠ : « حدثنى القاضى أبو بكر محمد بن عبد الله قال « حدثنى مكرم بن أبى بكر أن عم أبى الحسن بن مكرم القاضى قال : كنت خصيصا بأبى الحسن على بن عيسى وربما شاورنى فى شىء من أمره ، قال : دخلت عليه يوما وهو مغموم جدا فقدرت أنه بلغه عن المقتدر أمر كرهه فقلت : هل حدث شىء ؟ واومأت الى جهة الخليفة • فقال : ليس غمى من هذا الجنس ، ولكن ما أشد منه فقلت: ان جاز أن أقف عليه فلعلى أقول شيئا ، فقال : نعم • كتب الى عاملنا بالثغر أن أسارى المسلمين فى بلد الروم كانوا على رفق وصيانة الى أن ولى آنفا ملك الروم حدثان[٣٣] ، فعسفا الأسارى وأجاعاهم وأعرياهم وعاقباهم وطالباهم

---

(٣٢) التنوخى : جامع التواريخ المسمى بكتاب نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة جـ ١ ص ٣٠—٣٣ .

وقد ورد هذا النص أيضا فى كتاب الصابىء « تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء » ص ٣٥٤—٣٥٦ ، وكتاب ابن الجوزى « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » جـ ٦ ص ٣٥١ — ٣٥٣ ، مع اختلاف بسيط فى بعض الألفاظ .

(٣٣) كان امبراطور الروم فى ذلك الوقت هو قنسطنطين السابع وكان قاصرا وتحت وصاية البطريرك نيقولا أولا ثم وصاية أمه زوى .

بالتنصر ، وأنهم فى جهد وبلاء شديد ، وليس هذا مما لى فيه حيلة لأنه أمر لا يبلغه سلطاننا ولا الخليفة ولا يطاوعانى ، فكنت أنفق الأموال واجتهد واجهز الجيوش حتى تطرق القسطنطينية ، فقلت : أيها الوزير ها هنا رأى أسهل مما وقع لك يزول به هذا ، فقال : قل يا مبارك . فقلت ان بأنطاكية عظيما للنصارى يقال له البطرك ، وببيت المقدس آخر يقال له الجاثليق[٣٤] ، وأمرهما ينفذ على ملك الروم حتى أنهما ربما حرما الملك فيحرم عندهم ، ويحلانه فيحل ، وعند الروم أن من خالف منهم هذين كفر . وأنه لا يتم جلوس الملك ببلاد الروم الا برأى هذين ، وأن يكون الملك قد دخل بيعتهما ويقرب بهما ، والبلدان فى سلطاننا والرجلان فى ذمتنا ، فيأمر الوزير أن يكتب الى عاملى البلدين باحضارهما وتعريفهما ما يجرى على الأسارى ، وأن هذا خارج عن الملة وأنهما ان لم يزيلا هذا لم يطالب بجريرته غيرهما ، وينظر ما يكون من الجواب . قال فاستدعى كاتبا وأملى عليه كتابا فى ذلك وانفذهما فى الحال وقال : سريت عنى قليلا ، وافترقنا . فلما كان بعد شهرين وأيام وقد نسيت الحديث جارنى فرانق[٣٥] من جهته يطلبنى فركبت وأنا مشغول القلب بمعرفة السبب فى ذلك حتى وصلت اليه فوجدته مسرورا ، فحين رآنى قال : يا هذا أحسن الله جزاءك عن نفسك ودينك وعنى ، فقلت : ما الخبر ؟ فقال : كان رأيك فى أمر الأسارى أبرك رأى وأصح ، وهذا رسول العامل وقد ورد بالخبر ، وأومأ الى رجل كان بحضرته وقال خبرنا بما جرى ، فقال الرجل : انفذنى العامل مع رسول البطرك والجاثليق برسالتهما الى قسطنطينية وكتبا الى ملكيهما انكما قد خرجتما عن ملة المسيح بما فعلتماه بالأسارى وليس اكما ذلك فانه حرام عليكما ومخالف لما أمرنا به المسيح

---

(٣٤) فى الأصل القاثليق . والصواب جاثليق أو جاثاليق أو جثليق وهو بطريك النساطرة . انظر فهرس الكلمات الكنسية اعربية :
Verzeichnis Arabischlicher Termini, von Georg Graf, p. 33.

(٣٥) يريد به الرسول .

من كذا وكذا وعدد أشياء من دينهما ، فاما زلتما عن هذا واستأنفتما الاحسان الى الأسارى وتركتما مطالبتهم بالتنصر ، والا لعناكما على هذين الكرسيين وحرمناكما . قال : فمضيت مع الرسـول فلما صرنا بقسطنطينة حجبت عن الملكين أياما وخليا بالرسول ثم استدعياني اليهما فسلمت عليهما ، فقال لى ترجمانهما : يقول لك الملكان ان الذى بلغ ملك العرب من فعلتا بالأسارى كذب وتشنيع ، وقد أذنا فى ادخالك دار البلاط لتشاهد أساراكم فترى أحوالهم بخلاف ما بلغكم وتسمع من شكرهم لنا ضد ما اتصل بكم . قال : ثم حملت الى دار البلاط فرأيت الأسارى وكأن وجوههم قد أخرجت من القبور تشهد بالضرر وما كنوا فيه من العذاب ، الا أنهم مرفهون فى ذلك الوقت ، وتأملت الى ثيابهم فاذا جميعها جدد ، فعلمت أنى منعت من الوصول تلك الأيام حتى غير زى الأسارى ، وقال لى الأسرى نحن للملكين شاكرون ، فعل الله بهما وصنع ، وأومأوا الى أن الأمر كان كما بلغكم ولكنه خفف عنا وأحسن الينا بعد حصولك ها هنا وقالوا لى كيف عرفت حالنا ومن تنبه علينا وأنفذك بسببنا ؟ فقلت لهم : ولى الوزارة على بن عيسى فبلغه ذلك فأنفذ من بغداد وفعل كذا وكذا ، قال : فضجوا بالدعاء الى الله تعالى الوزير ، وسمعت أمرأة منهم تقول : مريا على بن عيسى لا أنسى الله لك هذا الفعل . قال : فلما سمع ذلك على بن عيسى أجهش بالبكاء وسجد حمدا لله سبحانه وتعالى وبر الرسول وصرفه . فقلت له : أيها الوزير أسمعك دائما تتبرم بالوزارة وتتمنى الانصراف عنها فى خلواتك خوفا من آثامها، فلو كنت فى بيتك هل كنت تقدر أن تحصل هذا الثواب ؟ ولو أنفقت فيه أكثر مالك ولا تفعل ولا تتبرم بهذا الأمر فلعل الله يمكنك ويجرى على يديك أمثال هذا الفعل فتفوز بثوابه فى الآخرة كما تفردت بشرف الوزارة فى الدنيـــا » .

* * *

وبمقارنة ما جاء فى رسالة البطريرك بما ورد فى النص العربى منسوبا الى الوزير على بن عيسى يتضح أن هناك تطابقا فى كثير من العناصر : فيقول الوزير أن معلومات وصلت اليه عن اضطهاد الأسرى المسلمين فى القسطنطينية وعن محاولات اجبارهم على التنصر ، وهذا ما ينفيه البطريرك فى رسالته • كذلك فان ارسال الوفد الى القسطنطينية للتحقيق فى الأمر يؤكده البطريرك فى رسالته ، كذلك فان ما جاء على لسان الوزير من توسيط بطريرك أنطاكية وبطريرك بيت المقدس وارسالهما رسالة الى القسطنطينية بطلب تحسين معاملة الأسرى المسلمين يجعل من المناسب أن يرد البطريرك بنفسه وبهذه الرسالة المطولة على رسالة الوزير التى ربما تكون قد ختمت من قبل الخليفة نفسه كما هى العادة عند مخاطبة رؤساء الدول الأجنبية ، وعلى ذلك جاءت رسالة البطريرك موجهة الى الخليفة العباسى •

ومهما كان الأمر فان رسالة البطريرك تضمنت معلومات هامة عن كيفية معاملة الأسرى المسلمين فى القسطنطينية(٣٦) ، كما أن البطريرك قد أشار من طرف خفى الى وقوع اضطهاد على الأسرى المسلمين ، وان كان قد برر ذلك بأنه من عمل صغار الموظفين الذين سوف يتم التحقيق معهم •

---

(٣٦) بنيت دار البلاط فى القسطنطينية للاسرى المسلمين بناء على طلب مسلمة بن عبد الملك عندما كان يحاصر القسطنطينية سنة ٧١٧ م واشترط مسلمة على الامبراطور البيزنطى أن تبنى دار البلاط بازاء قصره فى الميدان ينزل فيها الوجوه الاشراف من المسلمين اذا أسروا ليكونوا تحت رعاية الامبراطور . أما سائر الأسرى من عامة المسلمين فكانوا يستعملون فى الصناعات المختلفة ، وكانوا يتاجرون فيما بينهم ، على الا يكرهوا على أكل لحم الخنزير أو يثقب لهم أنف أو يشق لهم لسان .

انظر المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

المصادر والمراجع

المصادر اللاتينية واليونانية :

1 — Acta Sanctorum, Paris et Romae 1866.

2 — Patrologiae Graecae, III, J.P. Migne 1864.

مصادر عربية :

٢ ــ التنوخى : القاضى أبو على المحسن : « كتاب جامع التواريخ المسمى بكتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » نشره مرجليوث سنة ١٩٢١ م .

٣ ــ ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » . الدكن ١٣٥٧ ه .

٤ ــ الصابئ : أبو الحسن الهلال بن المحسن : « تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » . عيسى البابى الحلبى ١٩٥٨ م .

٥ ــ القرطبى : عريب بن سعد . « صلة تاريخ الطبــرى » . دار المعــارف .

٦ ــ المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد . « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، ليدن ١٩٦٧ م .

٧ ــ الهمدانى : محمد بن عبد الملك . « تكملة تاريخ الطبرى » ، دار المعــارف .

مراجع عربية :

١ ــ أحمد عبد الكريم : المســلمون والبيزنطيون فى شرقى البحــر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس ه/التاسع والثانى عشر م ، ج ١ ــ دار النهضة العربية ــ ١٩٨٢ .

مصادر يونانية مترجمة :

3 — Karlin - Hayter, Vitae S. Euthymii, in Byzantion xxv—xxvI—xxvII, 1955—1957.

مراجع بلغات أوربية مختلفة :

4 — Cambridge Medieval History, Newedition, vol. Iv, I. 1966.

5 — Dictionnaire de Theologie Catholique, Paris, 1931.

6 — Gay-j. Le Patriarch Nicolas Le Mystique et Son role Politique, Mélanges Charles Diehl, Histoire, Paris 1930.

7 — Jenkins : I. «The Flight of Samonas» in Speculum 23—1948.

II The Mission of st. Demetrianas of Cyprus to Bagdad, in Annuaire Ix, 1949.

III Three Documents Concerning The «Tetragamy». in D.O.P. N. 16—1962.

Iv A Note on the «Letter to the Emir» of Nicholas Mysticts, in D.O.P. 17, 1963.

8 — Lexikon Fur Theologie und Kirche 1962.

9 — L. Brehier, Vie et Mort de Bysance, Paris, 1947.

10 — N. Oikonomides, «Leo's Legislation on Fourth Morriages». n D.O.P. N. 30, 1976.

11 — Ostrogorsky, History of the Byzantine State, Oxford 1956.

12 — Vasiliev, History of the Byzantine Empire, vol. I. 1958.

مختصرات

D.O.P. : Dumbarton Oaks Papers.

P. G. M : Patrologiae Graecae, J. P. Migne



الشــعر والتــاريخ

دراسة تطبيقية على شعر الحركة الصليبية

للدكتور قاسم عبده قاسم

العلاقة بين الفن والتاريخ (ماهية التاريخ ــ الفن مصدر من مصادر المعرفة التاريخية ــ التاريخ الهام للفنان ــ الفرق بين المؤرخ والفنان) ــ الشعر كمصــدر تاريخى (الملاحم ــ القصائد الفردية) ــ الحركة الصليبية والشعر ــ (الشعر العربى ــ الشعر الأرمنى ــ الشعر الأوربى) ــ الفكرة الصليبية وتطورها من خلال دراسة أغنيات الحروب الصليبية (أنشودة أنطاكية ــ أغنيات الحروب الصليبية) ــ خاتمة •

بين الفن والتاريخ علاقة جدلية ، فالفن مصدر هام من مصــادر المعرفة التاريخية ، كما أن التاريخ بأحداثه وظواهره وشخوصه وأبطاله، منبع للوحى والالهام فى الفن • والحدود بين الفن والتاريخ ليســت حدودا صارمة مانعة ، وانما هى حدود متداخلة بحيث تحسبها حدودا وهمية فى بعض الأحيان • فالانسان هو الموضوع المشترك لكل من الفن والتاريخ ، وهو من ناحية أخرى ، المبدع فى دنيا الفن وصانع أحداث التاريخ[1] • وبينما يرتبط التاريخ بالزمان اطارا ، وبالمكان مسرحا على نحو محدد واضح ، نجد ارتباط الفن بالزمان والمكان ارتباطا فضفاضا ،

(١) عن هذا الموضوع انظر : قاسم عبده قاسم وأحمد الهوارى ، الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث ، دار المعارف ١٩٧٩ م •

فالفن قد يتخطى حدود الزمان والمكان فى سبيل قيمة فنية بعينها ، بيد أنه لا يستطيع أن يخرج عن نطاق الزمان الانسانى ، أو بيئة الانسان خروجا مطلقا •

واذا كنا نقول بأن الفن ، بكافة أجناسه من فنون القول وفنون الشكل ، مصدر هام من مصادر المعرفة التاريخية ، فان قولنا هذا نابع من يؤثر كل منهما فى الآخر ويشكله بدرجة أو بأخرى • ذلك أن الانسان ذلك أن التاريخ ، كعلم ، يلهث وراء الانسان من عصر الى آخر باحثا ومستفسرا ، فى محاولة لأن يفهم الانسان ويفهمه حقيقة وجوده على سطح الأرض ، والعلاقة بين الانسان والتاريخ علاقة جدلية أيضا ، اذ يؤثر كل منهما فى الآخر ويشكله بدرجة أو بأخرى • ذلك أن الانسان فاعل تاريخى ، بمعنى أنه يصنع التاريخ (سواء كان واعيا بدوره التاريخى أم لا) • كما أن الانسان من ناحية أخرى ، من نتاج التاريخ ، فهو الكائن الوحيد الذى يعى صيرورة الزمن ويفيد منها ما يضيف جديدا الى خبرته على الدوام • وبمرور الزمن تتراكم انجازات البشر الحضارية لكى تصير تراثا (أو تاريخا بمعنى من المعانى) • ولكن هذا التراث أو التاريخ لا تنقطع صلته بالحاضر الانسانى[2] • فالماضى هو الأب الشرعى للحاضر • وانسان اليوم بفكره وخبراته هو ثمرة تجارب وأفكار الانسان مذ بدأ يسعى على سطح هذا الكوكب • فالماضى يعيش فى الحاضر باستمرار • وليس من المتصور على أية حال أن يكون عالم اليوم، بكل ما يحويه ، نتاجا للحاضر فقط •

واذا كان الانسان فى حاضره يخضع ، جزئيا ، لماضيه ، فان تفسير هذا الحاضر ومشكلاته يفرض علينا أن نبحث عن جذورها فى الماضى • والتاريخ ، كعلم ، هو وسيلتنا لذلك ، فلكل ظاهرة فى المجتمع

---

(2) Carl G. Gustsvson, A preface to History, (Mc Graw-Hill, 1955), pp. 12 — 23.

جذورها ، ومن يحاول فك غموض الظاهرة أو الكشف عن أسرارها دون الاستعانة بالتاريخ انما يحرث فى البحر •

وقد مضى زمن كان فيه مصطلح « التاريخ » مرادفا لكل نادرة أو عجيبة ، كما تخلى التاريخ عن مكانه التقليدى فى قصور الحكام والاباطرة والسلاطين والملوك ، ونزل يسعى وراء الحقيقة فى الشوارع والطرقات والأسواق ، بين جموع الفلاحين وجماهير العمال ، وجماعات المثقفين والفنانين والشعراء • لقد بدأ علم التاريخ يدرس أحوال صناع التاريخ الحقيقيين فى المصانع والحقول والمدارس والجامعات ، وأماكن العبـــادة ونوادى الأدب وقاعات الفنون ••• وتمثلت النتيجة فى تلك الفروع الكثيرة التى تفرع اليها مسار الدراسات التاريخية[٣] •

هذا التطور الذى ألم بعلم التاريخ هو الذى يجعل الفن ، كمصدر من المعرفة التاريخية قيمة كبيرة لدى المؤرخ الذى يعكف على اعادة بناء الماضى متسلحا بمنهجه الاستردادى • فاذا كان مفهوم « التاريخ » قد اتسع ليشمل سيرة البشر الحضارية ، فان مصادر المؤرخ ، التى تساعده على اعادة تصوير الماضى ، قد تنوعت بحيث تشمل كافة ما أنجزه الانسان، أو فكر فيه ، أو تطلع اليه بأمل ، منذ بدأ سعيه على وجه الأرض ، وفى أشكال الابداع الفنى المتنوعة (من فنون القول شعرا ، ورواية ، وقصة، ومسرح •• وما الى ذلك ، الى فنون الشكل من عمـــارة ، ونحت ، وتصوير ••• وغيرها) يجد المؤرخ مادة تاريخية خصبة ، فالفن ، كمصدر من مصادر المؤرخ ، يعكس روح العصر الذى يهتم به ويكشف عن وجدانه، كما يساعده على الاقتراب أكثر من هدفه الذى هو اعادة بناء صـــورة الماضى • اذ أن الفن يساعد المؤرخ على فهم انسان العصر الذى يدرسه، بمشاكله ، بآماله وهمومه ، برفعته وضعته ، بنجاحاته واخفاقاته ،

---

(٣) حول تطور الكتابة التاريخية أنظر :

H. E. Barnes, A history of Historical writing, (2 nd ed., Dover, New York 1963), pp. 373 — 405.

بانجازاته واحباطاته ، بقيمه ومثله وأخلاقياته • وهذه كلها أمور لا نجدها بسهولة ، وربما لا نجد لها صدى على الاطلاق ، فى طيـــات الوثائق التاريخية التقليدية أو فى كتابات المؤرخين • فضلا عن أن أشكال الابداع الفنى تنبىء عن مزيد من التفصيلات الدقيقة عن النظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى فى أى عصر نهتم بدراسته • كما تسهم أشكال الابداع الفنى ، بأدواتها وأطرها التعبيرية الخاصة فى اعادة بناء صورة الماضى وبعث روحه من مرقدها • ولعل من المفيد فى هذا الصدد أن نقرر أن افضل مصدر للمؤرخ هو ذلك الذى لم يكتب بقصد أن يكون تاريخا •

من ناحية أخرى ، يجد الفن لنفسه الوحى والالهام فى أحداث التاريخ وظواهره وأبطاله • هذا الاستيحاء التاريخى فى الفن سمة عامة فى الفنون الانسانية • ويكثر لجوء الفنان الى معين التاريخ لينهل منه فى عصور التردى والاحباط ، اذ يتوجه الفنان الى التاريخ بحثا عن المثل الأعلى أو رغبة فى التعويض العاطفى ، وربما فرارا من زمن العجز الذى يحيا فى رحابه وهربا الى أحضان الماضى الذى قد يبدو مجيــدا أو مثاليا بالقياس الى الحاضر • وهنا نجد أن الفنان الذى يستلهم التاريخ فى ابداعه الفنى يتخذ من الأحداث (أو الحقائق) التاريخية نواة ينطلق منها خياله الفنى الخالق ، وينسج حولها من رؤيته ورؤاه الابداعية • وهنا يكون الخيال الخالق لدى الفنان مقيدا بالاطار التاريخى العــام الذى وضع نفسه رهن أغلاله ، فهو يبدأ بالحدث التاريخى « الماثل » لينطلق صوب الرمز المعنوى أو « المثال » •وقد يبتكر شخوصا وأحداثا فرعية فى الاطار التاريخى العام لتحقيق هدفه الفنى •

ويجمل بنا أن نتريث بعض الشىء لنتأمل الفرق بين مهمة المؤرخ، ومهمة الفنان • فالمؤرخ ينشد الحقيقة التاريخية المجردة ، وهو فى بحثه عن هذه الحقيقة التاريخية يحاول اعادة بناء صورة الماضى « كما حدث بالضبط » متسلحا بمنهجه الاستردادى وقيود هذا المنهج الصارمة ، مسترشدا بمصادره (ومن بينها الفن بطبيعة الحال) فى محاولة لتحقيــق

هدفه فى اعادة تصوير الماضى ، ثم هو من ناحية أخرى ، يحاول تفسير هذا الماضى من خلال الكشف عن العلاقة السببية بين مختلف الظواهر التاريخية • ومن أهداف المؤرخ أيضا أن يحاول كشف قوانين حركة التاريخ لكى تكون أداة فى تفسير الحاضر واستشراف طريق المستقبل •

أما الفنان ، فانه حين يختار التاريخ مجالا لعمله الفنى يضع نفسه رهن أغلال الحقيقة التاريخية فى اطارها العام • ولكنه يكون فى حل من القيود الصارمة التى يفرضها المؤرخ على نفسه • كما أن الفنان فى عمله الفنى يكون بعيدا عن استخدام المنهج • وانما يرى فى الحقيقة التاريخية شيئا أشبه بالهيكل العظمى ، فيكسوها بخياله الفنى لحما ، وينفخ فيها من روحه الابداعية ، فاذا الحدث التاريخى قد استوى كائنا حيا جاءنا عبر العصور ، ليس على صورته التاريخية الدقيقة ، ولكن فى الاطار العام للحقيقة التاريخية واذا التاريخ بشخوصه وأحداثه، قد أصبح يعايشنا فى حاضرنا ، بل ويعبر عن هذا الحاضر بفضل الفنان الذى بنى بفنه جسرا جعل الماضى والحاضر يتداخلان بشكل يصعب تحديد مداه • وينبغى على الفنان ألا يلوى عنق الحقيقة التاريخية فى سبيل الابداع الفنى ، فان ذلك يعد تزييفا للتاريخ وينأى بالعمل الفنى عن خاصية أولية من أهم خواصه ، وهى الصدق •

والصدق الذى نقصده هنا هو « الصدق التاريخى » الذى لا نراه متعارضا مع « الصدق الفنى » • اذ لا ينبغى أن يكون « الصدق الفنى » ذريعة للتنصل من « الصدق التاريخى » الذى يخلق غيابه آثارا سلبية خطيرة فى الوجدان الانسانى بشكل عام •

واذا كان الهدف من العمل الفنى ، الذى يتخذ التاريخ مجالا له ، هو بعث قيمة بعينها ، أو تكريس مفهوم ما ، أو تجسيد مثل أعلى ، أو حتى دغدغة مشاعر الفخر والاعتزاز القومى والوطنى ، فان « الصدق التاريخى » ، فى تصورنا ، هو خير أداة لتحقيق هذا الهدف • بيد أن

هذا لا يعنى بالضرورة أن يكون العمل الفنى وثيقة تاريخية ، أو محاضرة، أو بحثا فى التاريخ ، لأن هذا يكون بعيدا تماما عن الفن • ولكن ما نقصده هو أنه لا يجوز للفنان أن يغير ملامح عصر ما ، وأن يمسخ الشخصيات التاريخية ، متذرعا بالصدق الفنى • ومن ناحية أخرى ، فان من حق الفنان أن يخلق الشخوص ويصنع الأحداث الفرعية التى تحمل وجهة نظره ، وتكرس الأفكار والقيم التى ينشدها •

* * *

وما أوردناه عن الفن عامة ينسحب على الشعر بشكل خاص • فالفنون الشعرية مصدر هام لابد للمؤرخ أن يعول عليه وهو يحاول استعادة صورة عصر ما من العصور التاريخية • بيد أن هذا لا يعنى أن النصوص الشعرية ، بكافة أجناسها ، يمكن أن تكون نصوصا تاريخيا بحد ذاتها • بمعنى أننا لا يمكن أن نستخدمها بنفس الطريقة التى نستخدم بها الوثائق والنصوص التاريخية التقليدية ، كما أننا لا نستطيع أن نتجاهلها بدعوى أنها نتاج لخيال الشعراء الذى يتجاوز الواقع • اذ أننا حين نتعامل مع فنون الشعر بحثا عن المادة التاريخية نلجأ كثيرا الى الاستنتاج والاستنباط والاستقراء ، كما نلجأ الى اختبار المادة التاريخية الشعرية فى ضوء المصادر التاريخية الأخرى •

لقد فرق أرسطو فى كتابه « فن الشعر » ، بين الشعر بوصفه التمثيل الأعلى ، وبين التاريخ بوصفه تصوير الأحداث الواقعة « •• لأن الشعر يمثل ارتباطا ضروريا ومحتملا بين الأفعال لا يكفى لتحقيقه تصوير الواقع وحده • وعالم الشعر وان كان مخالفا لعالم الواقع أقدر على ادراك أسرار القلب الانسانى لأنه يحسن استنباط المنطق من الأفعال الانسانية والانفعالات ••• ومهمة الشاعر الحقيقية ليست فى رواية الامور كما وقعت فعلا ، بل رواية ما يمكن أن يقع • والأشياء ممكنة : اما بحسب الضرورة أو بحسب الاحتمال • ذلك أن المؤرخ والشاعر

لا يختلفان بكون أحدهما يروى الأحداث شعرا والاخر يرويها نثـرا (فقد كان من الممكن تأليف تاريخ هيرودتس نظما ، ولكنه كان سيظل مع ذلك تاريخا سواء كتب نظما أو نثرا) ، وانما يتميزان من حيث كون أحدهما يروى الأحداث التى وقعت فعلا ، بينما يروى الآخر الأحداث التى يمكن أن تقع ••• »[٤] •

وعلى الرغم من أن كلمات أرسطو توضح أن الشاعر لا يلتـزم بالواقع الذى يلتزم به المؤرخ ، وهى حقيقة يدركها الباحثون على الدوام، فان الشاعر يظل مصدرا هاما للمؤرخ لأنه « ••• أقدر على ادراك أسرار القلب الانسانى ، لأنه يحسن استنباط المنطق من الافعال الانسـانية والانفعالات » هذا الجانب الوجدانى فى الشعر هو الذى تفتقر اليـه المصادر التاريخية الأخرى من ناحية ، وهو الذى يمكن أن يسـاعد المؤرخ على استكمال ملامح صورة الفترة الزمنية التى يدرسها من ناحية أخـرى •

واذا كنا نسلم بأهمية الشعر كمصدر من مصادر المؤرخ ، فاننا يجب فى الوقت نفسه أن نفرق بين الملاحم الشعرية الكبرى التى غالبا ما تكون تعبيرا كليا تراكميا عن عصر من العصور أو مجتمع ما فى فترة تاريخية بعينها ، وبين القصائد الفردية التى يمكن أن تكون تسجيلا لحـادث جزئى ، أو تعبيرا عن وجهة نظر جزئية تطل على الحدث التاريخى من زاوية محدودة • وعلى الرغم من اختلاط الخيال الفنى بالواقع التاريخى فى الملاحم الشعرية التاريخية ، فانها غالبا ما تكون هاديا ومعينا للمؤرخ فى الكشف عن كثير من ملامح العصر الذى تنتمى اليه ، اذ أنها تعبير عن المجتمع ككل تحمل قيمه ومثله وأخلاقياته بين طياتها ، فضلا عن أنها تحمل الكثير من تفاصيل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية

---

(٤) أرسطو طاليس ، فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابى وابن سينا وابن رشد (ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوى ــ النهضة المصرية ١٩٥٣) ، ص ٢٦ •

التى كانت سائدة فى المجتمع الذى جاءت هذه الملحمة نتاجا له وتعبيرا عنه فى فترة من فتراته التاريخية •

ففى تراث الشعوب المختلفة ما تزال الملاحم الشعرية تعتبر من أهم المصادر التاريخية ، بل ان بعض الباحثين يرون أن هذه الملاحم تمثل المرحلة الانتقالية بين عصر الاسطورة وعصر التاريخ ، أو هى « نهاية عصر الاسطورة وبداية عصر التاريخ » • ذلك أن التسجيلات الأولى (مثل ملحمة جلجامش الأكادية — البابلية ، وما سجله القدماء المصريون، أو تصورات رج فيدا الهندية ، أو أفكار الكنعانيين الفينيقيين التى نقلها العبريون) كانت من الضبابية والايغال فى الخيال بحيث كانت أجرأ الأساطير • والفكر التاريخى فى حقيقة أمره فرخ من أفراخ الاسطورة • فقد طبعت الاسطورة الخطوات الأولى حتى جاء بدايات التاريخ موصولة بأواخر عصر الاسطورة التى كانت وظيفتها الفكرية / الاجتماعية ترقيع النقص والنسيان فى الماضى الانسانى من جهة ، وأن تقدم من جهة أخرى المحاولات الأولى لتوضيح الترتيب الزمنى للخلق والأشياء والأحداث ، ولكن الطابع الاسطورى لهذه الكتابات الباكرة جعلها تفتقر الى عنصر الزمان ، فليس للزمن الاسطورى مبنى محدد ، وانما هو زمن أزلى ، لأن الاسطورة ترى أن الماضى لم ينته ، بل ما يزال مستمرا[٥] •

و اذا كان بعض الباحثين يصفون الاسطورة بانها العلم البدائى ، فانه يجدر بنا أن نشير من جديد الى أن التاريخ ، كعلم ، قد نشأ وتطور فى حجر الاسطورة التى كان ميلاده فى رحمها • ولا غرو اذن أن تحفل الملاحم الشعرية الاسطورية الطابع بالكثير من الحقائق التاريخية • فهناك علاقة قوية بين الاسطورة والشعر ، وأقدم النصوص التى وصلتنا هى

---

(٥) ارنست كاسيرر ، المدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية (ترجمة احسان عباس ، بيروت ١٩٦١) ص ٢٩٥ . شاكر مصطفى ، « التاريخ هل هو علم ؟ » ، عالم الفكر ، المجلد الخامس — العدد الأول ابريل — يونيو ١٩٧٤ م ، ص ١٧٦—١٧٧ •

النصوص الشعرية ، والشعر القصصي منها على نحو خاص • فقد كان من الضروري أن تصبح الاسطورة كلاما موزونا ، أو أناشيد ذات ايقاع خاص • ومن المعلوم أن أقدم الاساطير كانت غناء دينيا ثم صارت ملاحم شعرية[٦] وفي تلك المرحلة كان التاريخ يختلط بالخيال في الملاحم الشعرية ذات الطابع الاسطوري • وقد كان تاريخ الجماعات الانسانية آنذاك محفوظا في الموروثات الشفاهية التي كان القالب الشعري بجرسه وموسيقاه وايقاعاته ، هو الاطار المناسب لها • وفي هذا الصدد يقول أرسطو ان الشعر نشأ لسببين طبيعيين هما غريزة المحاكاة ولذة التعلم• وعنهما تولدت الرغبة في اللحن والاستمتاع بالايقاع • ومن هذه الميول الفطرية يرى أرسطو أن الشعر قد ولد مرتجلا في بداية أمره[٧]• واذا أخذنا برأي أرسطو في هذا المجال ادركنا السبب في أن كتابات مطالع عصر التاريخ وأواخر عصر الأسطورة قد جاءت في قالب شعري •

ويحفل التراث الانساني بالكثير من الملاحم الشعرية التي تجمع بين التاريخ والخيال • وحقيقة الأمر أن هذه الملاحم قد نسجت حول نواة من الأحداث التاريخية الحقيقية ثم أخذ الانسان يضفي عليها قيمه ومثله العليا ، وآماله وأفكاره عبر العصور ، حتى جاء زمن دونت فيه الملحمة في شكلها الأخير فكانت تعبيرا تراكميا عن حقب زمانية متوالية من حيث مضمونها التاريخي من الحوادث والأسماء المختلفة ، وان جاءت تعبيرا وجدانيا عن عصر التدوين •

والالياذة والأوديسية المنسوبتان الى هوميروس تصلحان مثالا

---

(٦) أحمد كمال زكي ، الأساطير (المكتبة الثقافية ، رقم ١٧٠ — الكاتب العربي ١٩٦٧) ، ص ٦٨—٧١ •

(٧) ارسطو طاليس ، فن الشعر ، ص ١٢ •

جيدا للدلالة على ما نقول[٨] . فقد حاول الأثريون والمهتمون بدراسة الآثار أن يثبتوا حرب طروادة من الناحية التاريخية ، وكان التاجر الألمانى هينريخ شليمان H. Schlimann هو الرائد فى هذا السبيل . وسار على دربه عدد من العلماء من جنسيات أخرى . وكللت جهودهم بالعثور على آثار مدينة تتفق أوصافها مع ظروف طروادة هوميروس. هذا التطابق العام أثبت تاريخية حرب طروادة التى رسمها هوميروس بالشعر والقصص ، ولكن اختلافات كثيرة ما تزال قائمة بين ما أنشده الشاعر وما كشف عنه البحث التاريخى والأثرى الحديث . وعلى الرغم من هذا فان هميروس لم يبدأ من نقطة اللاشىء فى نظم ملحمتيه الطويلتين ، وانما كان تحت يديه قدر كبير متراكم على مر القرون من التراث الأدبى الشعبى ممثلا فى أناشيد وأساطير وأغانى نسجها اليونانيون على مر الأجيال حول الحوادث التى مرت بهم وحول القيم والمثل التى كانت تسيطر على حياتهم . ومن طبيعة الأمور أن النظم الاجتماعية والسياسية ، ونوع الموارد الاقتصادية التى اعتمد عليها اليونانيون عبر العصور كانت فى تطور مستمر ، وقد سجلت ملحمتا هوميروس كثيرا من هذه النظم ورصدت العديد من الظواهر .

ويمكن لدارس الحضارة أن يستخدم ملحمتى هوميروس كمادة تاريخية لتصوير حقبة من حياة المجتمع اليونانى دون أن يتعرض لخطأ فادح لعدة أسباب . فنحن لا نعتمد على الالياذة والأوديسية لمعرفة تفاصيل أو أحداث جزئية ، وانما السبب الأساسى فى اعتمادنا عليهما هو الرغبة فى معرفة الاتجاهات العامة للاوضاع والقيم الاجتماعية والتيارات السياسية أو الاقتصادية أو غيرها . وفضلا عن ذلك ، فان المؤرخين يجدون الكثير من الحقائق التاريخية فى ثنايا أبيات هاتين

---

(٨) انظر الدراسة القيمة التى طرحها الاستاذ الدكتور لطفى عبدالوهاب فى هذا الموضوع بعنوان : « عالم هوميروس » — مجلة عالم الفكر ، المجلد الثانى عشر ، اكتوبر — ديسمبر ١٩٨١ م ،ص ١٣—١٥ .

الملحمتين • ولعل أفضل ما قيل عن الالياذة والأوديسية هو أن من يبحث فيهما عن التاريخ يجد خيالا كثيرا ، ومن يبحث عن الخيـــال يجـــد تاريخا كثيرا •

وقد كان لعرب قبل الاسلام تراث اسطورى يستحق الدراســة الجادة ، ونلتقى فى بقاياه بالبطل الاسطورى والساحر والمارد والحية ذات الرأسين ، ونقرأ عن أسجاع الكهان الدينية وعن شداد عاد المتمرد ، وعن لقمان •• وغير ذلك مما بقى لدينا فى مقدمات كتب التاريخ العربى، وفى بعض الشعر الجاهلى والاسلامى[9] • كما أن الشعر العربى فى الفترة السابقة على ظهور الاسلام يعتبر من أهم مصادر معـــرفتنا التاريخية بأحوال العرب قبل الاسلام ، اذ كان الشعر هو الوعاء الذى حفظ جوانب هامة من التاريخ العربى فى تلك الآونة لسهولة تداوله الشفوى • وعلى الرغم من أن أيام العرب (التى كانت تحوى أخبار البطولات والامجاد والمعارك العربية) قد اتسمت بالتحيز والمغالاة ، فانها ولا شك قد نسجت حول نواة من الوقائع التاريخية بحيث يمكننا أن نطمئن اليها بعض الاطمئنان كمصدر من مصادر معلوماتنا عن تاريخ العرب قبل الاسلام على حد تعبير أحد الباحثين[10] •

وفى قصص الأيام تتبدى النزعة الملحمية جلية واضحة بحيث تختلط الحقيقة بالأسطورة ،ويمتزج الفن بالتاريخ ، وتتصاعد الحبكة (الدرامية) حتى تبلغ أوجها فى موقف شعرى خالص يلقيه الراوى على لسان أبطال القصة • واذا كان بعض الباحثين يرى أن هذه الحبكة ذات تأثير سلبى « •• بحيث تختفى الدلالة التاريخية الحقيقية ، وتعجز عن الاشارة الى وجود شعور تاريخى معين للذات القبلية التى تحـــكمها

---

(٩) أحمد كمال زكى ، الأساطير ، ص ٢٨ــ٢٩ •

(١٠) حسين نصار ، نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى (ط. ثانية، القاهرة ١٩٦٦ م) ، ص ١٧٣ــ١٧٤ •

العصبية ، وما يتصل بها من القيم الاجتماعية ٠٠ »[١١] ، فاننا لا نستطيع أن نوافقه على هذا الرأى بسهولة ٠ ذلك أن التنظيم القبلى للمجتمع ، أى مجتمع ، ليس سوى درجة أولية فى سلم التطور الاجتماعى خاصة والتطور الحضارى عامة ٠ واذا كانت « أيام العـــرب » بما تحمله من اتجاهات واهتمام بتجسيد البطولة حول فرد من أفراد القبيلة ، هى التى تمثل الفكر التاريخى لدى العرب قبل الاسلام (الى جانب الأنساب) ، فان ذلك لا يعنى « عدم وجود شعور تاريخى معين للذات التى تحكمها العصبية » ، وانما على العكس من ذلك يدل على أن الذات القبلية كانت هى محور هذا الشعور التاريخى ٠ واذا كانت الأيام والأنساب أداة المجتمع القبلى العـــربى فى التعبير عن هذا الشـــعور التاريخى لدى القبيلة[١٢] ٠

واختفاء الموضوع التاريخى للقصة خلـــف التراكمات الملحميـــة والبطولية سمة عامة تميز كافة أنماط التراث التاريخى لدى المجتمعات القبلية فى كل زمان ومكان ٠ بيد أن هذه السمة لا تنقص من أهميـــة الاعتماد على الشعر الملحمى كمصدر من مصادر المعرفة التاريخية ، ففى بعض الأحوال لا يجد المؤرخون أمامهم مصدرا للمعلومات التاريخية سوى التراث الشعرى الذى يختبرون مدى تاريخيته بالحفريات الأثرية كما هو الحال فى تاريخ القبائل الجرمانية ٠ فالواقع أن مصادر الفترة الباكرة من تاريخ الجرمان تكاد تنحصر فى البحوث الأثرية من جهة ، وفى الشعر الملحمى الجرمانى من جهة أخرى ٠ والقصيدة الوحيدة التى وصلتنا هى ملحمة بيوفولف Beowulf ، وهى ملحمة جرمانية تدور حول بطل اسكندنافى عاش فى العصور السحيقة ٠ وقد ظلت هـــذه الملحمة الشعرية محلا للتداول الشفوى على مدى عشرات السنين ، وربما

(١١) عفت الشرقاوى ، أدب التاريخ عند العرب (القاهرة ١٩٧٦ م) جـ ١ ، ص ١٤٩ — ١٥٠ ٠

(١٢) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين (دار المعارف ١٩٨١) ، ص ٥٩ — ٧٢ ٠

عدة قرون ، ثم جمعت أشعارها ودونت فى منتصف القرن الثامن الميلادى تقريبا على يد قسيس أنجلو ـ سكسونى • وهذه الملحمة حافلة باثار شتى من المصادر التاريخية الأخرى • وقد تأكدت بعض أحداث الملحمة وبعض شخصياتها بورودها فى المصادر التاريخية التى ترجع الى القرن الخامس[١٣] •

والملحمة تضم فى ثناياها كما مدهشا من أعلام وأحداث العصور الوسطى الباكرة ، كما تكشف عن النظرة الجرمانية التلقائية للاشياء ، وطريقة الجرمان الطبيعية فى التعبير • ويرى بعض العلماء أن ما ذكره تاكيتوس فى القرن الأول عن أحوال الجرمان[١٤] يجد تأييدا له فى أبيات ملحمة بيوفولف التى تعتبر مصدرا محترما من مصادر معلوماتنا عن النظم الجرمانية زمن الغزوات حين كانت السيادة Lordship ، وعصبة الحرب Comitatus ، أو Gefloge قد صارتا محور الحياة الجرمانية على نحو أكثر تركيزا مما كانت عليه فى القرن الميلادى الأول •

وما نقوله عن ملحمة البيوفولف ينسحب على ملاحم شعرية أخرى كثيرة تنبىء عن أحوال أوربا فى العصور الوسطى ، فلدينا أنشودة نيبيلونج Nibelungenlied التى وصلتنا فى نص يرجع الى القرن الثالث عشر مثقل بأفكار الفروسية التى لا تتوافق مع المفاهيم التى كانت

---

(١٣) انظر الترجمة الانجليزية لهذه الملحمة فى :

Beowulf. M. Alexander, trans. Baltimore : Penguin 1973.

انظر أيضا أجزاء من الترجمة وتعليقات فى

Norman F. Cantor, The Medieval World (Macmillan, New York 1968), pp. 61 — 36., Robert Brentono, The Early Middle Ages 500 — 1000 (Macmillan, New York 1964), pp. 243 — 53.

(١٤) انظر :

Tacitus, The Agricola and the Germania, (Translated with an introduction By H. Mattingly, Penguin 1970), pp. 101 — 141.

سائدة وقت أن ظهرت هذه الملحمة[١٥] . وأنشـــودة رولان[١٦] التى تتناول بعض مراحل الصراع بين الفرنجة والمسلمين . وكذلك ملحمة السيد Poéma de Mio Cid وهى ملحمة شعرية من لون كان رائجا فى الأندلس طوال فترة الصراع بين المسلمين والمسيحيين وهى تدور حول السيد القنبيطور (رودريجو دياث) ، وهو شخصية تاريخية حقيقية ، وهو فى التاريخ يختلف عنه فى الملحمة[١٧] . كذلك فان لدينا أغنيـــات المآثر Chansons de geste التى هى عبارة عن قصائد ملحمية طويلة ترتبط بشمال فرنسا ، وكانت تصور أعمال البطولة وغيرها من جوانب حياة النبلاء الاقطاعيين . ومن المؤكد أنها كتبت لتسلية البلاط الارستقراطى ، وربما كانت عبارة عن قصص متداولة شفاها ثم تزايدت ببطء على مدى قرون ثلاثة قبل تدوينها فى أواخر القرن الحادى عشر أو بواكير القرن الثانى عشر . وكانت هذه القصائد مبنيـــة على الحوادث التى نعـــرف بعضها من المصادر التاريخية والتى حدثت فى الفترة الكارولنجية[١٨] .

هذه القصائد الملحمية ، التى كتبت لتسلية النبـــلاء الاقطاعيين الفرنسيين ، يفترض أنها تصور كبار السادة الاقطاعيين فى الشـــمال الفرنسى فى الصورة التى كانوا يحبون أن يروا أنفسهم فيها . وكانت النتيجة صورة مثالية للحياة الاقطاعية ، بيد أنها صورة يمكن التعرف عليها من خلال معلوماتنا عن الحياة الاقطاعية من المصادر غير الأدبية ،

---

(١٥) نورمان ف كانتور ، التاريخ الوسيط (ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ١٩٨١) . جـ ١ ص ١٧٥ .

(١٦) جوزيف نسيم يوسف « انشودة رولان » ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، المجلد الأول .

(١٧) الطاهر أحمد مكى ، ملحمة السيد ـــ دراسة مقارنة (دار المعارف ١٩٧٩ م ، الطبعة الثانية) .

(18) Norman F. Contor, Medieval History-The Life and death of a Civilization (2 nd ed. Macmillan, New York 1929), pp. 378-379.

بل انها تؤكد هذه المعلومات تأكيدا حيا فى كثير من الأحيان • ان هذه الملاحم ترسم صورة للاقطاعيين وكأنهم زعماء المجتمع ، كما أنها تصور الامبراطور ــ الملك بعيدا فى أحسن الأحوال ، ولكنها غالبا ما تصوره ضعيفا وجلا • أما رجال الكنيسة فتصورهم على أنهم مجرد مساعدين للنبلاء الاقطاعيين • وتصور الفلاحين فى صورة القوة الاجتماعية التى يمكن تجاهلها ، فليس لهم من دور سوى أن يكدوا ويكدحوا من أجل سادتهم ، ثم تحصدهم مجازر الحروب الاقطاعية حين تنشب ، أما البورجوازيون (سكان المدن الجديدة) فانهم لا يكادون يظهرون فى صفحات هذه الملاحم • ومحور هذه الملاحم هو الولاء ، ودائما ما يكون الموضوع الذى بنيت حوله القصيدة مسألة تتعلق بالتبعية الاقطاعية ، وتحقيقها أو الخروج عليها • وهو الموضوع الذى نلمسه فى أنشودة رولان Chonson de Roland التى أشرنا اليها ،فالبطل واحد من الكونتات يفى بقسمه الذى قطعه لشارلمان حتى وان أدى ذلك الى موته المؤكد • وقصيدة راؤول دى كامبرى Raonl de Cambri ، التى تعتبر من أكبر القصائد قيمة لمن يؤرخ للحياة الاجتماعية فى تلك الفترة ، تدور حول المتاعب والعنف الذى ينتج حين يحرم الامبراطور واحدا من كبار اتباعه من الاقطاع الذى يدعى وراثته • وفى قصيدة راؤول تتجلى النزعة العدوانية عند النبلاء الاقطاعيين اذ يشترك البطل المخطىء فى عصيان دموى ومذبحة يروح ضحيتها رجال الكنيسة والبورجوازيون الأبرياء(١٩) •

والدراسة التاريخية الحديثة ، بمنظورها الاجتماعى الواسع ، لا تستطيع أن تتجاهل ما يحمله أدب القرن الثانى عشر فى أوروبا من دلائل على تغيرات شاملة فى العواطف والمثل والقيم التى تركت بصماتها على مجموعات بشرية هامة فى العصور الوسطى •

---

(19) Cantor, op. cit., p. 378.

ويضيق بنا المقام عن تتبع المزيد من الأمثلة الدالة على أن الشعر الملحمى يمكن أن يكون من بين مصادر المؤرخ التى يعتمد عليها فى اعادة تصوير الماضى • وهنا نشير أيضا الى أن القصائد الفردية يمكن أن تكون ضمن مصادر المؤرخ أيضا ، بشرط مراعاة المحاذير المتمثلة فى الرؤية الجزئية للشاعر ، وموقفه من الحدث الذى تحدثنا عنه قصيدته ، فضلا عن موقعه الطبقى واتجاهاته السياسية والفكرية ، وانحيازاته الاجتماعية •••وما الى ذلك • ولا ضير فى أن نكرر أن الشعر مصدر هام للمؤرخ بالنسبة للجوانب الوجدانية والمعنوية اللا محسوسة فى التـــــاريخ الانسانى • وأهمية هذا المصدر تنبع من كونه مصدرا ذا طبيعة متفردة لا تشاركه فيها المصادر التاريخية الأخرى التى ظل اهتمام المؤرخين قاصرا عليها ردحا من الزمن طويلا • فالشعر تعبير وجدانى عن عصر الشاعر • والشاعر ، بحاسته الفنية ، قد يتجاوز الحقيـــقة التاريخية الملموسة الى آفاق فنية بعيدة ، ولكنه على أية حال يظل أسيرا للقيـــم والمفاهيم السائدة فى عصره ، وقد يكون تعبيره عنها ايجابيا اذا ما كان يتوافق معها ، وقد يكون هذا التعبير سلبيا اذا ما كان رافضا لها • وهو فى الحالين يضع المؤرخ أمام دلالات هامة ، ربما لا نجد لها مثيـــلا فى المصادر التاريخية التقليدية ، فالمدونات التاريخيـــة ، والوثائق ، والآثار ، والبرديات ، والمسكوكات ••• كلها تعيننا على الاقتراب من الحقيقة التاريخية المجردة ، ولكن الشعر (وغيره من فنون القول وفنون الشكل) هى التى تساعدنا على الكشف عن روح العصر • فضلا عن أن الشعر يمكن أن يكون مصدرا هاما للحوادث التاريخية الخالصة •

ومن ناحية أخرى ، فان الشعر بفنونه المختلفة كثيرا ما يكـــون بمثابة رجع الصدى للاحداث التاريخية • بمعنى أن الشاعر قد يجد فى حادثة تاريخية ما ، أو فى ظاهرة تاريخية بعينها ، ما يلهمه ويوقظ شيطان الشعر فيه ، فينظم قصيدته ، أو ينسج خيوط مسرحيته الشعرية، مستلهما تلك الحادثة أو الظاهرة التاريخية • ومن نافلة القول أن نردد أن الملاحم الشعرية التاريخية لم تنسج حول وهم أو خيال ، ولم يبدعها

الشاعر من لا بداية ، وانما ثمة من الأحداث التاريخية ما جعل الشاعر ينفعل بها ويسجلها فى قالب شعرى قصصى تتداوله الأجيال وتضيف اليه وتضفى عليه من مفاهيمها وقيمها وأخلاقياتها • وقد يأتى النتاج الشعرى فى شكل مسرحية شعرية ، أو قصيدة بسيطة • والشاعر فى كل الأحوال يقدم لنا ما يمكن أن نسميه التسجيل الفنى للحدث التاريخى • حقا أن الشاعر يستخدم أدواته الفنية وصياغاته الجمالية وينطلق من اسار الحقيقة التاريخية المجردة الى شكل فنى يكون اطارا لخياله ، ولكنه مع هذا يظل أسير الحدث التاريخى فى سياقه العام بحيث يكون عمله تسجيلا لهذا الحدث على نحو ما •

والشاعر الذى ترق أحاسيسه ويستشعر ما لا يستشعره العاديون من الناس ينفعل بالاحداث فيسجلها فى اطار فنى يغلفه الخيال ، وينطق بها تعبيرا عن موقفه الذاتى من الحدث ، وعن قطاع من الناس فى مجتمعه •

فقد سجل الشعراء اليونانيون القدماء كثيرا من أحوالهم التاريخية فى أشعارهم ومسرحياتهم ويكفى أن نشير الى كوميديات أريستوفانيس التى تعتبر من أهم مصادر معلوماتنا عن الحرب البليبونيزية ، وتقترب هذه الكوميديات فى أهميتها من كتاب ثوكيديديس عن هذه الحرب[٢٠] • ذلك أن أريستوفانيس يوضح فى مسرحياته كيف أن هذه الحرب الطويلة قد أضرت بكافة جوانب الحياة فى المجتمع الأثينى ، وكيف أن هذه الحرب قد أسرعت بهذا المجتمع صوب تدهوره النهائى • وترصد مسرحيات أريستوفانيس الكوميدية التأثيرات السلبية لهذه الحرب فى النواحى السياسية ، وكيف أن ظروف الحرب أفرزت قيادات من نمط عاجز • وهنا نجد أن الشاعر أريستوفانيس ، والمؤرخ ثوكيديديس يتفقان

---

(20) Tyucydides, The Peloponnesian war (translated by Rex Warner, with an Introduction and Notes by M. I. Finley), Penguin 1976.

على دور السمات المختلفة والمكانة الاجتماعية المغايرة لكل من بريكليس وخلفائه فى قيادتهم للشعب وعلاقتهم به • كما أن الشاعر والمؤرخ يتفقان على صورة الدمار الاقتصادى المادى الذى خلفته الحرب البليبونيزية ، وتدميرها للريف ، والزراعة وآثارها السلبية على الصناعة والتجارة[٢١] • ومن يقرأ مسرحيات أريستوفانيس الشعرية الكوميدية يخرج بانطباع قوى مؤداه أن هذا الشاعر قد انفعل بالأحداث التاريخية المتمثلة فى الحرب ونتائجها المدمرة على المجتمع الأثينى فصاغ مسرحياته التى تسخر من افرازات الحرب من ناحية ، وتكشف عن موقفه من الحرب ونتائجها من جهة أخرى • لقد جاءت مسرحيات أريستوفانيس الاحدى عشرة نتاجا لموقف تاريخى ، ولكنها فى الوقت نفسه جاءت تعبيرا عن هذا الموقف التاريخى من زاوية معينة هى الزاوية التى يمثلها الشاعر •

وما يصدق على أريستوفانيس وعصره يصدق على غيره من الشعراء والعصور • فقد تخلف عن عصر الحروب الصليبية تراث شعرى كبير ساهم فيه أطراف الصراع ، اذ ترك الشعراء العرب قصائد كثيرة ذات مدلول تاريخى[٢٢] • فقد جاءت تعبيرا عن ظروف المجتمع العربى الاسلامى فى تلك الآونة • فالقيم والاخلاقيات والمثل التى كانت تحكم السلوك الاسلامى فى مواجهة العدوان الصليبى ، وغيرها من التطلعات والآمال والجوانب الوجدانية ، نجد صداها بين أبيات القصائد التى

---

(٢١) عن هذا الموضوع تفصيلا ، انظر :

Maunira A. Karawan, Aristophanes, Political Thought-A Study of the Influences of the Peloponnesian war on the Athenian Society as Illustrated by Aristophanes, (M. A. Thesis, Cairo University 1982).

(٢٢) محمد سيد كيلانى ، الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام ، (لجنة النشر للجامعيين ١٩٤٩ م) ، ص ٢٠٨—٣٣٦ • والجدير بالذكر أن المصادر التاريخية العربية المعاصرة لفترة الحروب الصليبية تحفل بالكثير من الأشعار والقصائد التى قيلت فى مناسبات مختلفة أثناء تقلبات هذه الحروب •

خلفها لنا ذلك العصر الذى واجه فيه العالم العربى الاسلامى هجوما عنصريا تحت راية الصليب • وفى تصورنا أنه يمكن متابعة التاريخ المعنوى للناس فى ذلك العصر من خلال قصائد شعرائه، فمن الصدمة والاحباط واليأس الذى صحب نجاح الحملة الأولى وقيام مملكة بيت المقدس اللاتينية على التراب الفلسطينى وتخاذل الحكام العرب ، ننتقل مع الشعر العربى الى مرحلة أخرى نشعر فيها بأن روح الجهاد قد بدأت تسرى فى المنطقة العربية ، بحيث تفرز قادة وزعماء من طراز عماد « الدين زنكى » ، و« نور الدين محمود » وصلاح الدين الأيوبى الذى تمكن المسلمون بقيادته من استرداد بيت المقدس وتقليص المساحة الصليبية فى فلسطين الى حد كبير[٢٣] • فقد ازدحم الشعراء على خيمة السلطان صلاح الدين بعد استرداد القدس ، كل بقصيدته التى أعدها انفعالا بهذا الحدث التاريخى الجلل[٢٤] • وقد كانت القصائد التى قيلت فى هذه المناسبة من الكثرة بحيث عرفت فى مجموعها باسم القدسيات ، وهى مجموعة شعرية لها مكانة خاصة فى الشعر الأيوبى • ثم نجد الشعر العربى فى تلك الفترة يمجد قيم البطولة والجهاد ، ويكرس مثال البطل المسلم المجاهد فى مرحلة مطاردة فلول الصليبيين خلال العصرين الأيوبى والمملوكى الأول حتى يتم القضاء نهائيا على فلول الصليبيين فى

---

(٢٣) عن دور صلاح الدين فى حركة الجهاد أنظر :

ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ــ سيرة صلاح الدين ، (تحقيق ونشر الدكتور جمال الدين الشيال) القاهرة ١٩٦٤ م العماد الكاتب الاصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى (تحقيق ونشر محمد محمود صبح) القاهرة ١٩٦٥ . البندارى، سنا البرق الشامى (تحقيق الدكتورة فتحية النبراوى) القاهرة ١٩٧٩م. أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة ١٢٨٨هـ. هاملتون أ.ر.جب، صلاح الدين الأيوبى ــ دراسات فى التاريخ الاسلامى (حررها يوسف أيبش) بيروت ١٩٧٣ م .

(٢٤) عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، (دار الفكر العربى ــ الطبعة الثامنة ١٩٦٨ م) ، ص ٢٧٤ــ٢٧٥ .

أواخر القرن الثالث عشر الميلادى على يد الجيش المصرى بقيـــادة الأشرف خليل بن قلاون • والجدير بالذكر أن الكتابة التاريخية أيضا كانت تدور حول سيرة البطل فى تلك الفترة ، وهو ما نعتقد أنه كان تلبية للحاجات الثقافية فى ذلك العصر •

ولابد لمن يدرس أحوال المجتمع العربى الاسلامى فى عصر الحروب الصليبية أن يتعرف على أسماء شعراء من أمثال « ابن القيسرانى » ، و« ابن منير الطرابلسى » ، و« أبو الفضل عبد المنعم عمر بن حسان » الذى تنسب اليه قصائد كثيرة من القدسيات ، و« أبو الحسن على بن الجوينى » ، و« البهاء زهير » فضلا عن « أسامة بن منقذ » ••• وغيره من شعراء ذلك الزمان • ويذهب بعض الباحثين الى أن الشعراء العرب فى عصر الحروب الصليبية قد عبروا عن عواطف الشــعوب العربية الاســـلامية آنــذاك أصــدق تعبيــر ، وأن النفســـية العربيـــة الاسلامية فى مصر والشام قد سجلت في قصائد ذلك العصر تسجيلا دقيقا « ••• فما يكاد المسلمون يستولون على حصن أو قلعة ، أو مدينة حتى يهب الشعراء لتهنئة الملك المنتصر ، والاشادة بمجهوداته العظيمة فى سبيل نصرة الاسلام والمسلمين ••• وما تكاد مصيبة تقع عـــلى المسلمين ، من سقوط حصن أو قلعةفىأيدى الافرنج أو وفاة عظيم من عظمائهم كصـــلاح الدين مثـــلا ، حتى ترى الشــــعراء ينوحون ويبكون ••• »[٢٥] •

ومن البديهى أن ذلك العصر الزاخر بالأحداث الجسام قد ترك بصماته على شعرائه وعلى قصائدهم بالقدر الذى يجعل من هذه القصائد مصدرا هاما من مصادر تاريخ ذلك العصر • ومن ناحية أخرى ، فان التراث الشعرى الذى خلفته لنا فترة الحروب الصليبية فى المنطقـــة العربية كان نتاجا أو صدى للحوادث التاريخية • فقد كان شعراء ذلك الزمان ينفعلون بالأحداث التى تجرى من حولهم ، ثم يسجلونها فى

---

(٢٥) محمد سيد كيلانى ، الحروب الصليبية وأثرها ، ص ٢٠٨ـــ٢١٠ •

اطار فنى يناسبهم • والمعروف أن القصائد القصيرة التى تقال فى المناسبات ذات الطابع التاريخى ، تكون عادة نتيجة لانفعال الشاعر ازاء الحدث • وغالبا ما تكون القصيدة الفردية أقرب الى الصحة التاريخية من الملحمة من حيث تقريرها للحدث التاريخى ، على الرغم من كونها تعبيرا عن ذات الشاعر أو جانب من عواطف الناس فى عصره ، حتى لو كان هذا التعبير جزئيا فى مداه •

وعلى الجانب الآخر ترك الشعراء المسيحيون الأرمن واللاتين كثيرا من الملاحم والقصائد ذات الدلالة التاريخية عن عصر الحروب الصليبية • فمن المعروف أن الأرمن قد تحمسوا كثيرا لحركة الصليبية• فعندما وصلت جيوش الحملة الصليبية الأولى الى قبادوقيا سارع الأرمن بتزويد الصليبيين بالمؤن ، كما قدموا لهم الأدلاء ، وقد اعترف فوشيه دى شارتر (أحد شهود العيان ممن كتبوا عن هذه «الفترة) بما قدمه الأرمن من مساعدة للصليبيين[٢٦] • وبغض النظر عن الأسباب التى دعت الأرمن الى هذا الموقف[٢٧] ، فان كلمات المؤرخين الأرمن والسريان حول هذه الفترة تفيض بالعداء تجاه البيزنطيين والحماسة تجاه الصليبيين[٢٨] •

(26) Ahistory of the expedition to Jerusalem, 1095 — 1127 (translated with an introduction and edited by Harold S. Fink), Konxville 1969, p. 91.

(٢٧) حول هذا الموضوع انظر :
عبد الغنى محمود عبد العاطى ، السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور اليكسيوس كونين ١٠٨١—١١١٨م (رسالة دكتوراه غير منشورة — جامعة المنصورة ١٩٨١ م) ، ص ٢٢٦—٢٦٨ .

(٢٨) انظر على سبيل المثال حديث متى الرهاوى عن الحوادث التى جرت حول انطاكية وداخلها سنة ١٠٩٧ م •
R.H.C, Doc. Arm., I, pp. 32 — 34.
وحديثه عن البيزنطيين pp. 50 — 51 حيث يتهم البيزنطيين بالتخلى عن ايمانهم التى قطعوها على أنفسهم
« Mais ceux-ci renierent leurs surments ils avait promis, et ils se dédirent de leur parole . . ».
وهو نفس الموقف الذى نجده عند جورج التس Gregoire Le Prêtre الذى يبدو أنه كان تلميذا لمتى الرهاوى والذى أكمل حوليته انظر :
RHC, Arm., I, pp. 150 — 183.

ولسنا هنا بصدد بحث دور الأرمن فى الحروب الصليبية ، ولكننا نحب أن نشير الى أن هذه الحرب التى وصفها كتابهم بالحرب المقدسة، قد حركت فى بعضهم كثيرا من الأحاسيس والمشاعر الدينية والحماسية، فكتب بعضهم أشعارا عن أحداث الحروب الصليبية فى مراحلها المختلفة، جاءت انفعالا بهذه الأحداث من ناحية ، كما أنها تعتبر من المصادر الهامة فى تاريخ الحركة الصليبية من جهة أخرى •

وثمة شاعر أرمنى هو « سان نرسيس الرحيم » Saint Nersès Schnorhali (le Gracieux) وقد عرف بالرحيم Gracieux بسبب رقة شخصيته وأسلوبه الذى يفيض عذوبة ونعومة[٢٩] • وهو واحد من ألمع كتاب الأدب الأرمنى، جمع بين اللاهوت، والبلاغة والشعر • وقد كتب هذا الشاعر مرثية فى سقوط الرها التى استعادها عماد الدين زنكى من الفرنج بعد سيطرة دامت حوالى ست وأربعين سنة• وقصيدة نرسيس تعتبر الوثيقة الوحيدة التى تصف حصار الرها على يد قوات عماد الدين زنكى • والقصيدة من النوع الملحمى تتألف من ألف وثلاثمائة وثمانية وخمسين بيتا (١٣٥٨) وفى هذه القصيدة الملحمية جسد الشاعر مدينة الرها وجعلها تتحدث عن نفسها وتخاطب فيها الأخوات والأخوة المسيحيين فى شتى أنحاء الدنيا ، فى المدن والريف ، مذكرة اياهم بمكانتها فى المسيحية وتدعوهم الى نصرتها ونجدتها • والقصيدة عبارة عن سرد تاريخى فى معظمها ، وعلى الرغم من بعض الأخطاء التاريخية ، فان القصيدة تبدو نوعا من السرد التاريخى المنظوم ، حقيقة أنها تنحاز الى الجانب المسيحى ، ولكن نصيب الخيال يظل قليلا فيها • فهو يتحدث عن آلات الحصار ، ومكونات جيش

---

(٢٩) هو رابع بطرك أرمنى يحمل هذا الاسم ، كان اخوه بطريركا سنة ١١١٣ م ••• وصحبه معه الى مجمع دينى فى القدس سنة ١١٣٦ م، وتولى البطريركية سنة ١١٦٦ م ، وكانت وفاته سنة ١١٧٢ م عن خمس وسبعين سنة • انظر :
RHC., Arm., I, p. 223.

عماد الدين زنكى ، وتكتيك المسلمين فى الحصار ، حتى انه يتحدث عن الموسيقى المستخدمة فى الجيوش الاسلامية والكوسات التى تدق لاثارة الحماسة فى صفوف الجند • وفى آخر القصيدة يتحدث عن محاولات الفرنج لاستعادة المدينة •• ثم يختتمها بخبر الرسالة التى أرسلها زنكى الى الخليفة العباسى مبشرا بسقوط الرها[٣٠] •

وهناك شاعر آخر هو البطريرك جريجورى الابن ، أى أبن أخى نرسيس صاحب مرثية الرها ويعرف باسم جريجورى الابن Le Patriarch Gregoire DGh'A [٣١] • وقد كتب مرثية عن سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبى فى ألفين وثلاثمائة وأربعة وتسعين بيتا ، وهو فى هذه القصيدة يريد تقليد نرسيس فى مرثيته التى نظمها بمناسبة أخذ الرها ، كما أنه استخدم الأساليب الفنية نفسها • والقصيدة أيضا من النوع الملحمى الذى يستخدم السرد التاريخى ، اذ أن القصيدة على لسان القدس تخاطب كل المحبين والمخلصين ، وتقول عن نفسها :

أننى القدس العتيقة	Je Suis La Jerusalem antique
عاصمة فلسطين	Metropole de la Palestine
ونقطة الدنيا الرئيسية	Le Centre de L' univers
مركز العالم	La Point Principal du Monde

ثم تستمر القصيدة للتحدث عن صلاح الدين وأحداث معركة

---

(30) RHC., Arm., I, pp. 223 — 278.

(٣١) كان جريجورى الابن هذا من المهتمين بصالح المسيحية ، وبذل محاولات فى سبيل توحيد الكنيسة البيزنطية والأرمنية ، ولكن الامبراطور مانويل كومنين لم يلق لها بالا . وكانت وفاته سنة ١١٨٩ فى سن السابعة والخمسين بعد ستة عشر عاما على كرسى البطريركية . وقد خلف لنا ستة خطابات أو سبعة ، احدها هو مرثيته للقدس . انظر :
RHC., Arm., I, pp. 269 — 271.

حطين ، وسيطرة صلاح الدين على بلاد الشام ، بحيث صارت دمشق مركز عملياته • وعلى الرغم من انحيازاته الدينية التى تجعله يخلط بين المسيح الدجال وصلاح الدين ، فان القصيدة تعتبر انعكاسا جيدا لصدى سقوط بيت المقدس عند الأرمن(٣٢) •

أما الشعراء اللاتين ، والفرنسيون على نحو خاص ، فقد تركوا لنا مجموعة من الأشعار حول الحركة الصليبية تصلح أن تكون مقياسا هاما لتطور الفكرة الصليبية فى الوجدان الأوربى منذ البداية وحتى نهاية الوجود الصليبى على الأرض العربية • ولعل من المناسب أن نبدأ بالقصيدة الملحمية المعروفة باسم « أنشودة انطاكية » La Chanson d' Antioche ، وهى افراز شعرى للحركة الصليبية فى مجتمع غرب أوربا آنذاك من جهة ، وتعبير عن مكانة الفكرة الصليبية فى وجدان الناس فى بداية الحركة من جهة أخرى • وهذه القصيدة من النوع الملحمى الذى لا نعرف مؤلفه على وجه اليقين(٣٣) والقصيدة تدور حول أحداث الحملة الصليبية الأولى ، منذ البداية وحتى سقوط أنطاكية فى أيدى الصليبيين • ويبدو من عدد المخطوطات التى تحمل نصوصا لهذه الأنشودة أنها كانت متداولة على نطاق واسع فى غرب

---

(٣٢) انظر النص الكامل للقصيدة :
RHC, Arm., I, pp. 271 — 307.

(٣٣) لا نعرف سوى اسمه فقط «Ricars Le Pelerins» وكونه حاجا لا توضح تماما انه كان ضمن الحملة الصليبية فكلمة Pelerins تعنى بالضبط «مسيحى غربى فى رحلة حج الى بيت المقدس ضمن مجموعة مسلحة» • ويرى بعض الباحثين انها كلمة تقابل كلمة صليبى ، انظر :
Lewis A.M. Sumberg, La Chanson d'Antioche — Etude historique et Littraire (paris 1968), p. 318.

وقد تعرضت القصيدة الأصلية لعدة اضافات وتعديلات اضافها Graindoe de Douai الذى وقع باسمه على عد من المخطوطات الباقية للقص
(Ibid, pp.. 162 — 163)

أوروبا وفى فرنسا على وجه التحديد ، فهناك روايات لهذه الأنشودة جاءت الينا مدونة باللهجة البروفنسالية[٣٤] •

والقصيدة تتناول فى بدايتها ثلاثة موضوعات هى أصول الفكرة الصليبية ، وأسطورة بطرس الناسك ، ثم ما حدث فى كليرمون فى نوفمبر ١٠٩٥ • وتحدثنا القصيدة عن حج بطرس الناسك وتحكى لنا بعض الأعمال الاسطورية المنسوبة اليه ، ثم تسرد لنا بعض أحداث الحملة الشعبية • بيد أن الشاعر يصدمنا بأن كافة التفاصيل الواردة فى الأنشودة عن بطرس الناسك والحملة الشعبية مضطربة الى أبعد الحدود ، اذ أن القصيدة — على سبيل المثال — تجعل نبوءة بطرس الناسك ورحيل الحملة الشعبية قبل مجمع كليرمون[٣٥] • وتواصل الأنشودة حديثها عن الوقائع والأحداث التاريخية ، ويتجاهل الشاعر أعمال السلب والنهب التى ارتكبها الصليبيون ابان اقامتهم فى القسطنطينية ، فهو يحدثنا عن الهجوم الكبير الذى شنه صليبيو الحملة الشعبية على نيقية مما نبه سليمان بن قطلمش الى غزوتهم • والأنشودة تتفق فى هذا مع أنا كومنينا[٣٦] ومع المؤرخ المجهول صاحب أعمال الفرنجة Gesta Francorum [٣٧] • ثم تعاود الأنشودة الغوص فى الخيال الذى يجعل الشاعر يخلط بين الحوادث وبعضها ولا يلتزم بالسياق الزمنى الحقيقى •

---

(34) Paul Meyer, «Fragment d'une Chanson d' Antioche en Provinsal», Archives de L, Orient Latin, (Paris 1884), Tom. II, pp. 466 — 509.

(35) Sumberg, La Chanson d'Antioche, pp. 146 — 154, 156.

(36) The Alexiad of Anna Comnena, (Translated From Greek by E.R.A. Sewter) Pengnin 1979, p. 312.

(37) The Deeds of the Franks and other Pilgrims to Jerusalem, (Edited by, Rosalind Hill, New York 1962), pp. 3 — 4.

تتحدث الأنشودة بعد ذلك عن رحيل الجيوش الصليبية المنظمة ، أو جيوش الأمراء ، الى الأرض المقدسة ، ويحكى الشـاعر كيف أن جودفرى كان أول من انطلق الى القسـطنطينية بعد أن اسـتكمل استعداداته[٣٨] • •وأخيرا وبعد عدة حوادث يحدثنا الشاعر عن الاستيلاء على انطاكية والخلاف الذى نشب بين بوهيموند وكونت سان جيل حول تولى الحكم فى انطاكية ، وتنتهى أبيات القصيدة بالحديث عن انتصار الصليبيين على قوات قربوغا[٣٩] •

ويهمنا فى هذه الدراسة أن نركز على موضوع الفكرة الصليبية وتطورها فى وجدان المسيحية الكاثوليكية من خلال متابعتنا لشـعر الحركة الصليبية • ومن ثم ، فاننا سنغض النظر عن الأحداث التاريخية المتنوعة التى تحكيها أنشودة أنطاكية ، فقد تمت دراستها وتحقيقها بشكل جيد على يد لويس سومبرج فى كتابه « أنشودة انطاكية ــ دراسـة تاريخية وأدبية » الذى أشرنا اليه فى هوامش البحث • واذا كان علماء تاريخ العصور الوسطى لم يقولوا كلمتهم بعد حول موضوع أصـول الفكرة الصليبية وتطورها ، فان ذلك راجع فى أساسه الى صعوبة البحث فى مثل هذه الموضوعات التى تتعلق بجوانب فكرية ووجدانية يصعب تتبع آثارها • ومن ناحية أخرى ، فاننا نرى الفرصة متاحة للمشاركة فى دراسة هذا الموضوع من زاوية جديدة ، هى الزاوية الوجدانية • فان الشعر تعبير وجدانى عن مدى تعلق الناس بالفكرة أو رفضهم لها ، وحماستهم أو فتورهم تجاهها • وسوف نحاول فى هذا الجـزء من دراستنا أن نرصد تطور الفكرة من خلال قصائد الحروب الصليبية التى أنشدها شعراء الغرب اللاتينى طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر•

تبدأ أنشودة انطاكية بأبيات تعالج أصل الفكرة الصليبية • ولكى يشرح الشاعر لنا أصل هذه الحملة الكبرى يقول على لسان الراوى ان

---

(38) Sumberg, op. cit., pp. 171 sq.
(39) Ibid, pp. 266 — 275.

على المرء أن يكون عارفا بعصيان أبوينا الأولين ، آدم وحواء ، هذا العصيان الذى جاء المسيح بسببه لفداء البشرية وتخليص الناس من الخطيئة الأولى :

Seigneur, Or escoutés qui ecris nous dist :

Bien vous dois rememberez de Dieus qui vous fist

Et quant il vous at fait, en tel vous mist.

Jamais N'eiissiés Pain d'Adame nel forfesist

Son fil tramist en terre qui d'enfer vous traisist

Apres livra sa char que on ne crois pendist.,

Pilates ne Juis ni ot uns nel laidist

Puis nous ama-il tant que Le suen nom nous mist,

Crestien avons nom et lui L'apelons Crist. (٤٠)

فهو فى هذه الأبيات يطلب من السادة السامعين أن ينصتوا جيدا لما يقوله الكتاب الذى ينبههم بأنه لا ينبغى لهم نسيان ما فعله الرب من أجلهم ، فبسبب آدم وعصيانه وخيانته ، نزل ابن الرب الى الأرض لكى ينقذ الناس من جهنم ، وسلم جسده على الصليب ولكن بيلاطس أو اليهود لم يستطيعا تشويهه وقد اختار لأحبائه اسم المسيحيين ، وسمى نفسه المسيح . ثم تستمر القصيدة ، بعد هذه الأبيات لتتحدث عن صلب المسيح ، وينتقل الشاعر الى تحديد البلد الذى سيكون له شرف الانتقام المقدس لصلب الرب فيقول :

Li Franc auront la terre tote deliverment

Et qui pris et fines iert en cel errent. (٤١)

هكذا تكشف القصيدة عن أن الحملة الصليبية هى أمر من الرب نفسه ، وأن الفرنج هم الشعب الذى اختاره الرب لكى ينتقموا لموته ويخلصوا ضريحه من أيدى الكفار . والحقيقة أننا نستطيع أن نلمس

---

(40) Sumberg, op. cit., p. 140.
(41) Loc. cit.

توافقا وانسجاما بين ما تقوله الأنشودة فى هذا الصدد ، وبين ما أورده المؤرخون عن خطبة البابا اربان الثانى فى كليرمون فى نوفمبر سنة ١٠٩٥[٤٢] • وفى ضمير الشاعر صاحب أنشودة انطاكية أن المجتمع المسيحى Societas Cheistiana ، انما هو الوطن الفرنجى •

ومن ناحية أخرى فان الشاعر هنا يحاول تبرير الحرب الصليبية باعتبارها « حربا عادلة bellum justum » ، وهو نفس ما يردده المؤرخون المعاصرون مثل جيوبرت النوجنتى[٤٣] الذى كان يرى فى الحملة الصليبية مشروعا مقدسا ، وأن الرب بنفسه هو الذى شرع الحرب المقدسة ، وهو الذى سار على رأس الجيش المسيحى ، أما المؤرخ المجهول فيقول انه حين جاء الوقت الذى حذر المسيح منه أفراد شعب المؤمنين ، لا سيما فى الانجيل حيث يقول : « ان أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى »[٤٤] ، كان ثمة شوق فى البلاد الفرنجية[٤٣] • هذه الفكرة نفسها موجودة عند فوشيه دى شارتر[٤٦] وغيره من مؤرخى تلك الفترة •

والحقيقة أننا نستطيع أن نورد عشرات التعبيرات الواردة فى المصادر التاريخية والحوليات والتى تصف الصليبيين بأنهم « فرسان المسيح » ، و« رجال المسيح » و« أولئك الذين يشكلون جيش

---

(٤٢) انظر رواية كل من فوشيه دى شارتر ، وروبير الراهب ، والمؤرخ المجهول ، وبلدريك الدوللى ، وجيوبرت النوجنتى لخطبة البابا اربان الثانى فى

Edward Peters (ed.), The First Crusade-The Chronicle of Fulcher of Chartres and other source Materials (Univ. of Pennsylvania Press 1971), pp. 2—16.

(43) R.H.C, Occ. IV, pp. 124 sq.

(٤٤) متى : ١٦ : ٢٤ •

(45) The deeds of the Franks, pp. 1—2.

(46) Ahist. of the expedition to Jerusalem, pp. 66—67.

المسيح » ، « الشعب المقدس » و« شعب الرب » • ومن خلال هذه الأمثلة وغيرها مما تحفل به المصادر التاريخية يجعلنا نؤكد أن أنشودة انطاكية ، وهى تحاول تبرير الحرب الصليبية على أسس مقدسة ، كانت تعبيرا حقيقيا الى حد كبير عن الحال الوجدانية فى الغرب آنذاك ، لقد كانت الحماسة الدينية الصليبية مشتعلة فى صدور ونفوس الناس ، فقد أتاحت لهم فرصة الخروج الكبير الى فلسطين « الأرض التى تفيض باللبن والعسل » لكي يحققوا أطماعهم الدنيوية تحت ستار دينى ، لقد كانت المسيرة الصليبية مسيرة قوم يحدوهم الأمل الدينى والطمع الدنيوى فى آن واحد • ومن ناحية أخرى ، كان الفرنج آنذاك يعتقدون أنهم أمة مفضلة على سائر الأمم المسيحية ، وأنهم الشعب المختار Le people êlu وكلمة مختار هنا êlu تعنى أنهم كانوا الأداة التى يريد الرب بواسطتها تحقيق ارادته على الأرض(٤٧) ، وهذا هو بالضبط ما يقوله جيوبرت النوجنتى(٤٨) ، اذ يقول « ••• أننى أعرف ••• ولن يعارضنى أحد أن الرب بنفسه قد اختار الوطن الفرنجى لهذه المهمة العظمى •• »، وهو نفس الكلام الذى يردده متى الرهاوى الذى يقول « ••• فى الوقت المحدد من قبل ، وفى المكان المعلوم ، انفتح باب الرومان لأن الرب كان يريد هزيمة الفرس بأيديهم •• »(٤٩) •

وأما فيما يتعلق بالانتقام الذى كان الرب المصلوب قد أمر المؤمنين بتوقيعه على « الوثنيين المخذولين » ، فان أنشودة أنطاكية ، لم تكن سوى انعكاس أمين للتفكير الشعبى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر • ولابد أن نعترف بأن العامل الدينى كان موجودا فى الحركة الصليبية ، ولكنه كان نابعا من تدين عاطفى يقوم على التعصب المقيت ، ولم يكن تدينا عقلانيا حقيقيا • ذلك أن الجو الذى أشاعته

(47) Sumberg, la Chanson d'Antioiche, pp. 143 — 144.

(48) RHC. occ., IV, p. 136.

(49) RHC., Arm. I, p. 24.

الدعاية البابوية المسعورة ضد المسلمين ، واذكى المبشرون الجوالون من أمثال بطرس الناسك نيرانها جعلت نفوس المسيحيين الكاثوليك تضطرم بالرغبة فى قتل المسلمين الذى شاعت عنهم قصص تدمير الكنائس وقتل المسيحين وتعذيبهم ، ولا شك فى أن بعض الناس قد حملوا شـــارة الصليب أملا فى نيل الغفران والدخول فى رحمة الرب • وفى تصورنا أنه فى مجتمع مثل غرب أوربا فى أواخر القرن الحادى عشر ، حيث يبسط الجهل رداءه على المجتمع ، وحيث الأريج الثقافى مزيج من المفاهيم الدينية الغامضة والخرافات والخزعبلات ، لابد أن تكون الدعوة الى حرب تحت راية الصليب دعوة ناجحة ، وأن تكون الاستجابة لمثل هذه الدعوة قوية ، بل هستيرية ، وهو ما حدث بالفعل • ففى هــذا الجو المحموم تشيع أنباء عن الرؤى والأحلام المقدسة والنبوءات ، وتجــلى القديسين والقديسات ، فضلا عن النجوم التى تتساقط من السماء(٥٠) • وفى هذا الجو الذى تحكمه المفاهيم الألفية وتوقع قيام القيامة ، كان لابد من ربط الحركة الصليبية بالخلاص وحادثة صلب المسيح وانتظار مجيئه الثانى ، وهو ما يبدو واضحا فى كتابات المؤرخين وفى أنشـــودة أنطاكية على حد سواء •

ان الفكرة الصليبية تبدو حية قوية فى ثنايا أبيات أنشـــــودة أنطاكية ، وهى بهذا تعكس الحال الوجدانية قبيل وأثناء الحملة الصليبية

---

(٥٠) كانت الأحوال الاجتماعية السيئة للفلاحين الذين كانت حياتهم عابسة وغير آمنة من أهم أسباب نجاح الدعوة الصليبية أيضا ، انظر :

L'An Mille-Oeuvres de : Luitprand, Raoul Glaber, Ademar de Chabannes, Adalberon, et Helgaud, (Traduites et peésentées par : Edmond Pognon ., France 1947). Painter, S., A history of the Middle Ages (England 1953), pp. 118—122., Hans Eberhard Mayer, The Crusades (translated from German by John Gillingham), Oxford University Press 1972, pp. 22—23., K.M. Setton (ed.), A history of the Crusades, (Philadelphia 1955), vol. I, p. xx.

أيضا : كانتور ، التاريخ الوسيط ، جـ ١ ، ص ٣٤٥ — ٣٦٨.

الأولى . فهل ظلت الفكرة على قوتها وحيويتها طوال عصر الحـــروب الصليبية فى غرب أوربا ؟ هذا ما سوف نحاول الاجابة عليه من خـــلال متابعتنا لشعر الحركة الصليبية الذى صاغه الشعراء حول كل من الحملات المعـــروفة .

والحقيقة أن الأغنيات أو القصائد التى قيلت بمناسبة الحـــركة الصليبية كثيرة ومتنوعة ، وهى تخلط بين الموضوعات الســـياسية والدينية والموضوعات العاطفية ، بحيث أننا لا نستطيع أن نضعها فى جانب دون الآخر . والسبب فى كثرة أغنيات الحروب الصـــليبية وقصائدها راجع الى أن الحملة الصليبية الأولى قد ولدت فى زمن كان الشعر العامى قد ازدهر فى شمال فرنسا وجنوبها . ومن ناحية أخرى ، ساعدت القصص الخيالية عن حروب شارلمان ضد المسلمين على بقـــاء ذكريات الحرب المقدسة فيما وراء البحار Outre-mere . فضلا عن أن التأليف التاريخى بالشعر كان يهدف الى تلبية حاجة ثقافية فى المجتمع الفرنسى آنذاك ، فقد تم تأليف التواريخ المنظومة شعرا لمن لا يعرفون اللغة اللاتينية ، ومن سوء الحظ أن هذه الصياغات الشعرية التاريخية لم تصلنا ، اما بسبب ضياعها ، واما بسبب التغييرات الكثيرة التى طرأت عليها بحيث جاءت فى صياغات مغايرة تماما لصياغتها الأصلية[٥١] . ومن هذا الشعر لدينا قصيدة تعـــرف باسم « أنشـــودة القـــدس La Chanson de Jerusalem » ، وهى عبارة عن حكاية شعرية فرنسية تحكى مغامرات جودفرى البويونى Godefroi de Bouillon فى الحملة الصليبية الأولى . ومن المناسب أن نشير الى أن الشاعر مجهول الاسم والجنسية[٥٢] .

---

(٥١) انظر ما سبق فى الحديث عن أنشودة انطاكية .

(52) Un Récit en vers Francais de la Prémiere Croisade fondé Sur Baudri de Bourgueil, notices et extraits d'après les manuscrits d'Oxford et de Spalding, Par : Paul Meyer (Paris 1976), pp. 1—7.

وعلى الرغم من أن هذه القصيدة تهتم أساسا بالتركيز على جودفرى وما جرى له ، فانها تمدنا ببعض التفاصيل عن الحملة منذ بدايتها وتطوع النبلاء لحمل شارة الصليب ، والألمان واللمبارديين ، ثم تحدثنا عن العلاقات مع البيزنطيين وتتهم الامبراطور اليكسيوس كومنينوس بمحاولة تثبيط عزائم الصليبيين[٥٣] • وفى بقية أجزائها تركز على دور جودفرى فى الحملة التى انتهت بالاستيلاء على بيت المقدس •

هذه القصيدة أيضا تعكس مدى تأجج الحماسة الصليبية بانحيازاتها المتعصبة فى صدور أبناء الغرب الأوربى آنذاك • ولدينا طائفة كبيرة من القصائد الشعرية التى اصطلح العلماء على تسميتها بأغنيات الحروب الصليبية Les Chansons de Croisade وهى تغطى بقية عصر الحروب الصليبية[٥٤] • هذه القصائد تشى بمدى تطور الفكرة الصليبية فى الوجدان الغربى آنذاك ، وهى تجمع بين أغنيات تتحدث عن التطوع لحمل شارة الصليب والذهاب الى الأرض المقدسة ، وأخرى تشرح لنا الظروف الوجدانية السائدة فى غرب أوربا آنذاك ، وأغنيات غيرها تجمع فى طياتها بين الحب والحرب ، فالشاعر بحكم واجبه الصليبى عليه أن يرحل ، ولكنه لا يملك سوى أن يأسى لفراق محبوبته ، وتكشف لنا مثل هذه الأغنية عن الصراع بين الواجب والعاطفة ، وهو صراع يؤرقه لكنه لا يملك ازاءه شيئا • وفى بعض الأغنيات نجد الشاعر الفارس يخاطب حبيبته مودعا ، كما تكشف أغنيات أخرى عن أن المحبوبة هى التى تبكى فراق حبيبها ورحيله الى الأرض المقدسة • هذه الاغنيات ، جميعا ، تشترك فى انها تدعو الى الحركة الصليبية ، وفيها مواقف تتكرر ومناقشات يتم تعديلها حسب مقتضيات الزمان والمكان بحيث تبدو نتاجا شعريا جديدا[٥٥] •

(53) Ibid, pp. 12 — 21.

(54) Joseph Bédier et Pierre Aubry, Les Chansons de Croisades avec leurs Mèlodies, (Paris 1909 — Hitkine reprints 1974).

(55) Ibid, pp. lx — x.

بيد أن هذه الأغنيات نفسها ، فى تطورها الزمنى ، تكشف عن تضاؤل الاهتمام بالحركة الصليبية ، وانصراف الظهير الأوربى عن مساندة الكيان الصليبى بفعل التطورات الجديدة التى طرأت على المجتمع الأوربى ، والمشاكل التى استنفدت جل الطاقة الأوربية فى حلها داخل الغرب اللاتينى نفسه •

والقصيدة الأولى فى أغنيات الحروب الصليبية تتعلق بالحملة الصليبية الثانية • فقد كان ملك بيت المقدس آنذاك صبيا فى الخامسة عشرة من عمره ، عندما حدث فى عيد الميلاد سنة ١١٤٤ م أن قام عماد الدين زنكى بالاستيلاء على الرها[٥٦] • وقد أفرخت هذه الكارثة التى حلت بالمسيحية الغربية نبوءة سان برنار دى كليرفو Saint Bernard de Clairvaux ، وعدة قصائد من بينها هذه الأغنية• وفى الخامس والعشرين من ديسمبر ١١٤٥ م قام لويس السابع بعقد مجمع من الأساقفة والبارونات فى بورج Bourges ، وأعلن عن عزمه على التوجه فى حملة صليبية ، ولكنه واجه مقاومة عنيفة من الحاضرين ، وتم تعديل القرارات فى مجمع جديد فى فيزلاى Vezelay • وفى مارس ١١٤٦ م وافق البابا أيوجين الثالث على مشروع الملك ، وعين برنار أسقف كليرفو (سان برنار) مبشرا وداعية للحملة • ولقيت دعوة برنار ترحيبا حارا ، وذهب برنار يبشر بحملته فى ألمانيا ، وفى ٢٨ ديسمبر من هذه السنة أعلن الامبراطور كونراد الثالث أنه يأخذ

---

(٥٦) يعتبر استيلاء عماد الدين زنكى على الرها سنة ١١٤٤ من أهم أحداث الحركة الصليبية ، وقد حكاه بتفاصيل طويلة ، أو مقتضبة المؤرخون الشرقيون والغربيون على التوالى ، انظر عن هذا الموضوع :

M.J.B. Chabot, «Un Episode de L'histoire des Croisades», Mellanges Offerts à M. Gustave Schlumberger à L'occasion du quatre - Vingtiéme anniversaire de sa naissance, 17 oct. 1924, (Paris 1924), pp. 169 — 179.

حيث يعرض تفاصيل جديدة لهذه الحادثة وصفها شاهد عيان كتب مؤرخة ولكنه مجهول الاسم •

شارة الصليب . وأخيرا ، وفى الثانى عشر من يونيو ١١٤٧ أنطلق لويس السابع على الطريق الى القدس ... وفى ظل هذه الظروف تم تأليف هذه الأنشودة فماذا تقول ؟

تتحدث الأنشودة عن أن المسلمين قد استولوا على أرض الرب التى كان يعبد فيها ، ثم تتساءل عمن سوف يصحب لويس ، وعمن يخشى نار جهنم ، ثم تؤكد على فكرة أن من يختار الذهاب الى هناك ستكون الجنة مقرا له مع الملائكة ومع الرب . وتدخل القصيدة فى خضم الدعوة الصليبية أكثر حين تقول كلماتها :

لقد أخذت الرها ، وعليكم انقاذها

Pris est Rohais, ben le savez

مم يخشى المسيحيون

Dunt Crestiens sunt esmaiz

لقد نهبت الكنائس ودمرت :

Les mustiers ars e desertez :

ولم يعد أحد يضحى للرب هناك

Deus n'i est mais sacrifiez

أيها الفرسان فلتفكروا فى ذلك ،

Chivalers, Cher vus purpensez.,

أنتم يا من تمسكون الســـلاح ،

Vus Ki d'armes estes preisez.,

قدموا أجسادكم هدية لمن

Acelui voz cors Presentez

من أجلكم رفع على الصليب

Ki pur vus fat en cruiz drecez

وتمضى القصيدة لكى تستحث النبلاء على أخذ شارة الصليب والتشبه بلويس الذى رغم كونه غنيا وقادرا ، وملكا متوجا على الجميع ، هجر ملكه وترك مظاهر العز من أجل الرب الذى تحمل العذاب على الصليب من أجل المسيحيين ، وتحمل القصيدة فى مقطعها الرابع دعوة للأنتقام

من أعداء الرب ثم تتحدث فى القسم الخامس عن أن الجحيم والفردوس هناك • أما المقطع السادس فيتحدث عن أن الرب قد حدد موعدا للقاء فى الرها ، حيث سيغفر خطايا من يجيئون الى هناك فى خدمته(٥٧) •

هذه المفاهيم الواردة فى القصيدة عن الذهاب فى الحملة الصليبية من أجل الرب ، والوعد بالغفران لمن يذهب الى الأرض المقدسة فى خدمة الرب ، تشى بأن المفاهيم والمثل التى تشكل الفكرة الصيابية كانت ما تزال قوية فى الوجدان الأوربى عندما خرجت الحملة الصليبية الثانية • لقد كان سقوط الرها صدمة نفسية مؤلمة ونذير شؤم للصليبيين ولهذا سارعت أوربا الى تقديم العون الى المستوطنين اللاتين فى الشرق •

كانت محاولات زنكى هى بداية الحركة الاستردادية الاسلامية ، وقد بلغت هذه الحركة قمتها على يد السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى استطاع أن يوحد الجبهة العربية الاسلامية ، وأنزل بالصليبيين هزيمة فادحة فى معركة حطين فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ (٤ يوليو ١١٨٧) • وبعد حطين بدت قوات المسلمين وكأنها فى نزهة عسكرية اذ توالى سقوط المدن والقلاع الصليبية بسهولة وسرعة • وفى أكتوبر من نفس العام عادت بيت المقدس مدينة اسلامية مرة أخرى بعـــد ثمانية وثمانين عاما من الأسر اللاتينى ••• ولم يتبـــق بأيدى الصليبيين سوى صور وآنطاكية وطرابلس ، وبعض القلاع المتناثرة على أرض الشـــام •

وكانت الحملة الصليبية الثالثة تجسيدا لرد الفعل الأوربى تجـــاه سقوط بيت المقدس • وكان على رأسها ثلاثة ملوك أوربيون كبـــار : فردريك بروبرسا امبراطور ألمانيا العجوز ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا اللاهى العابث المخادع ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا المتهور •

---

(57) Bedier, les chansons de Croisade, pp. 1—15.

وبعد تقلبات عديدة كان حصاد هذه الحملة ضعيفا بالشكل الذى أدى الى مزيد من الانتقادات ضد الحركة الصليبية • لقد كشــفت الحملة الصليبية الثالثة عن أن اهتمام ملوك أوربا وحكامها بمصير الصليبيين فى الشرق قد أخذ يتراجع أمام المشكلات والهموم والمصالح التى فرضت نفسها عليهم داخل أوربا(٥٨) •

ولدينا تسع أغنيات صليبية تدور حول الحملة الثالثة(٥٩) • والأغنية الأولى فى هذه الأغنيات التسع تبدو قريبة تماما فى مضمونها من الأغنية التى عرضنا لها عن الحملة الصليبية الثانية، فهى أيضا تتحدث بمصطلحات عن وجوب الذهاب الى الأرض المقدسة حيث الحب الحقيقى للرب الذى صلب فداء للبشر • ولكن اللافت للنظر فى هذه الأغنية أنها تتعمــد وصف تفاصيل آلام المسيح على الصليب بشكل مطول كما أنها من ناحية أخرى تتحدث عن العذاب الذى ينتظر أولئك المتقاعســين عن نصرة سيدهم(٦٠) ونخرج من قراءة هذه القصيدة بانطباع أن الناس كانوا معرضين عن المشاركة فى هذه الحملة ، أو أنهم على الأقل لم يكونوا جميعا على نفس المشاعر التى كانت سائدة ابان أحداث الحملة الأولى ، فهذا الالحاح على مسألة صلب المسيح ، ثم التهديد الكثير لمن يتخلف ويفكر فى الدنيا والمستقبل ، انما يدل على أنها ألمور كانت تعــوق حركة الدعاية الصليبية بشكل أو بآخر •

أما الأغنية التالية ، فانها تنقلنا الى عالم وجدانى جديد يجمع بين الحب والحرب ، ويتناول موضــوع الصراع بين العاطفــة والواجب الصليبى ، يقول المقطع الأول من هذه القصيدة الغنائية :

واأسفاه ! ياله من فراق أيها الحب
سيكون على أن أفارق أحسن من أحببت

---

(58) Cantor, Med. Hist., pp. 328 — 329.

(59) Bedier, op. cit., pp. 17 — 118.

(60) Ibid, pp. 17—24.

لعل الرب برحمته يعيدنى اليهــا
غير أنى حقا أفارقها لأداء واجب عظيــم
ما أتعبنى ، اننى لا أجد ما أقوله •
أننى لم افارقها على الاطــلاق :
فاذا كان الجسد ذاهبا لخدمة ســيدنا
فان القلب يبقى فى خدمتها ، بكامله(٦١)

فى هذه القصيدة نجد الشاعر يتحدث عن سفره الى ســــوريا « لأن أحدا لا يجب أن يخذل خالقه »(٦٢) فهناك ينبغى للمرء أن يظهــر فروسيته ، فهناك الفردوس والشرف وثناء الحبيبة وحبها • والمقطع الثالث يتحدث عن الانتقام لسقوط بيت المقدس فى أيدى المســلمين فيقــول :

اذا تركنا هذا المكان لأعدائنا الفانين
ستكون حيــاتنا عارا للابد

يتحدث الشاعر بعد ذلك عن أن من يموت فى سبيل هذه المعركة سينال حياة المجد ، أما من سيعود حيا فسيكون الشرف قرينه الى الأبد• ثم تتناول القصيدة المتخاذلين من الشباب والأصحاء وكيف أن العــار سيلحقهم ، وأخيرا يختتم الشاعر قصيدته ، بأنه راحل وعيناه تبــكى وعقله مشغول بمحبوبته التى هى أحسن من فى الدنيا •

والمتأمل فى هذه القصيدة يكتشف من الوهلة الأولى أن تطورا هاما قد نشأ فى المجتمع وترك بصماته على الشعر • والحقيقة ان من يقــرأ الأدب الفرنسى فى القرن الثانى عشر لابد وآن يلمس انعكاسا واضحا

---

(٦١) القصيدة عنوانها هو البيت الأول ، ونصه :

Ahi ! Amours, con dure departie

انظــر :

Bedier, op. cit., pp. 28—37.

(62) Quar nus ne doit faillir son Creatour.

لبعض الجوانب الهامة من التغير الاجتماعي والفكري • فقد أدت ظروف الحياة الاجتماعية فى جنوب فرنسا ، وانتقال كثير من نبلاء لانجدوك الى سكنى المدن الى فتور حماستهم للمشاركة فى الحياة العسكرية • وفى بلاط الدوقات والكونتات ازداد دور المرأة بحيث أتيحت الفرصة كاملة لسيدات الطبقة الارستقراطية فى تهذيب أخلاقيات النبلاء، وهو تطور ربما يكون ناتجا عن تأثير الحياة الشاعرية فى بلاط الأمراء المسلمين مى الامارات الأندلسية المجاورة(٦٣) •

ومن ناحية أخرى بدأت تتجسد فى القرن الثانى عشر أخلاقيات الفروسية • وعلى الرغم من صعوبة تحديد معنى مصطلح فروسية Chivalry ، فالواضح أنه كان مصطلحا ذا معنى مزدوج ، فهو يوحى فى معناه الواسع بأن عادات الطبقة المحاربة القديمة تراجعت أمام وسائل التسلية التى كان أبناء الطبقة الارستقراطية يمارسونها فى البلاط حفاظا على هوية الطبقة التى فقدت وظيفتها العسكرية أو كادت • فقد ارتبطت الفروسية بمثل وممارسات العلاقات الغرامية فى البلاط(٦٤) • طبيعيا أن ينعكس صداها فى شعر الحركة الصليبية فى القرن الثانى عشر ، وهو ما تجسده هذه القصيدة التى عرضنا لها وغيرها من القصائد التالية •

لقد كان سقوط القدس نذير سوء للغرب الكاثوليكى ، وجاءت كثير من القصائد بمثابة رجع الصدى للصدمة التى أصابت الغرب ، ولكن هذا لم يكن كافيا ليحرك الناس فى حركة عامة مثل تلك الحركة التى أفرزت الحملة الأولى • وبدأت أغنيات وقصائد الحروب الصليبية تتحدث عن المتخاذلين وبدأت صياغات الترغيب بالغفران وخدمة الرب الذى عانى

---

(63) Cantor, Med. Hist., p. 380.

(64) Ibid, pp. 377 — 385.

على الصليب ، ثم التهديد بسوء العقاب فى يوم الحساب الأخير تتسرب الى هذه القصائد مثلما يتضح فى الأغنية التى عرضنا لها فى السطور السابقة • وهناك أغنية أخرى تعكس هذه الصدمة ، يقول مطلعها :

كان يجب أن أكون فى زمن آخر
لكى أكتب الأغنيات والكلمات والأناشيد(٦٥)

وفى هذه الأغنية يركز الشاعر على أولئك الذين يتخاذلون عن نصرة الرب ، ويكشف لنا عن أولئك الذين يعارضون العشور التى فرضتها الكنيسة لتمويل الحملة الصليبية ، كما يوضح أن الشهوة جعلت عدد الذين ينضمون للحملة لتحقيق مكاسب شخصية أكبر من عدد جنود الايمان • وبقية القصيدة تكرار لموضوع الترغيب والتهديد الذى ورد فى القصائد السابقة •

ونفس هذا الموضوع تكرره قصيدة أخرى مطلعها : أهجروا الشر واتجهوا صوب الخير(٦٦) • ويعود موضوع الحب ليفرض نفسه مرة أخرى على قصيدة صليبية يعانى فيها الشاعر من فراق الحبيبة التى يتغزل فيها غزلا مبتذلا ، ويبدو موضوع الحرب بعيدا تماما عن خاطره(٦٧) • ويتكرر الموضوع فى قصيدة يتحدث الشاعر فيها عن حبيبته التى سوف يتركها بسبب قيامه برحلة حج(٦٨) •

---

(٦٥) عنوانها البيت الأول Bien me deùsse targier ، انظر Bedier, op. cit., pp. 45—50

(٦٧) يقول مطلع القصيدة :
الزمن الجديد والربيع والبنفسج
والبلبل يدعوننى الى الغناء
انظر قصيدة :
(Ibid, pp. 86 — 96) Li nouviauz tanz et mais et violete

(68) Ibid, 97 — 106.

ولنختتم حديثنا عن أغنيات الحملة الثالثة بقصيدة كتبت ما بين سنة ١١٨٩ م ، والشهور الأولى من سنة ١١٩١ م • وهذه الأغنية تجسد الصدمة التى حدثت بسبب استيلاء صلاح الدين على القدس من ناحية ، كما تكشف عن الصعوبات التى كانت الدعوة الصليبية تلاقيها فى أوربا آنذاك من ناحية أخرى ففى هذه القصيدة يختتم الشاعر كل مقطع بقوله:

القدس تأسف وتبكى لمنقذها

الذى تأخر كثيرا[٦٩]

ولدينا قصيدة أخرى يتصور ناشرها أنها كتبت سنة ١١٨٧ م بعد وصول خبر معركة حطين الى مسامع الغرب بقرير ، وقبل معرفة نبأ استيلاء صلاح الدين على القدس[٧٠] • وليست للوثيقة قيمة تاريخية كبيرة فى مجال الأحداث والمعلومات ولكن قيمتها الأساسية تكمن فى أنها تطلعنا على الانطباع الأول الذى سيطر على صايبيى الشرق • ومن هذا الانطباع خرج الشاعر بحكاياته عن النزاع بين الاسلام والمسيحية، وعن نجاح خليفة نور الدين والهلع الذى أصاب الصليبيين والقصيدة تحكى عن معارك الصلاح ، وتكشف عن تعصب الشاعر ضده بحيث أنه يافق له كثيرا من الصفات السيئة ، فهو يتهمه بأنه قتل خليفة مصر ، ويتهمه بعشق امرأة متزوجة هى امرأة نور الدين محمود الذى يقول الشاعر ان صلاح الدين دس له السم ، كما يتهمه بأنه وراء موت ابن نورالدين كذلك ••• وقد رأى الشاعر فى ذلك شيئا يصم به العدو الذى رأى فى انتصاره قرب طبرية أمرا غريبا لم يستوعبه جميع المسيحيين • اما اشاراته عن معركة حطين نفسها فهى تتسم الغموض ، ثم يغوص فى تفاصيل خيالية لا نجد لها مثيلا فى أى مصدر آخر • وقد بقى من هذه

---

(69) Ibid, pp. 77 — 81.

(70) Gaston Paris, « Un poème latin contemporain sur Saladin», Archives de L'Qrient Latin, Tom. I, pp. 433 — 444.

القصيدة مائة بيت وعشرة فقط ، ولكنها تكفى لكشف زاوية من الأثـــر الوجدانى لانتصارات المسلمين بقيادة صلاح الدين .

ولدينا قصيدتان عن الحملة الصليبية الرابعة ، واذا كان الهــزل والمأساة قد امتزجا فى الحملة الصليبية الثالثة التى كانت أكثر الحمــلات اللاتينية طموحا ، من حيث بدايتها على الأقل ، واذا كانت هذه الحملة قد كشفت عن تضاؤل الاهتمام بالحركة الصليبية فى الغرب (كما لمسنا من خلال القصائد أيضا) ، فان الحملة الصليبية الرابعة قد كشفت عن امكانية استغلال الحركة الصليبية لتحقيق أغراض أخرى غير انقـــاذ مملكة بيت المقدس اللاتينية . حقا لم يكن البابا انوسنت الثالث ، الذى دعا الى هذه الحملة ، يقصد أصلا أن تتوجه الى القسطنطينية ، ولكن البنادقة الذين قدموا الأسطول للجيش الصليبى أجبروا الصليبيين على الامتثال لأوامرهم ، وعلى الفور وافق انوسنت الثالث على هذا التغيير الذى رأى فيه وسيلة لتأكيد السيطرة البـــابوية على الامبراطورية البيزنطية .

والقصـــــيدة الأولى كتبهـــا الشـــــاعر هيـــج دى بريـــزى Hugues de Brezé ، الذى كان أحد ثلاثة شعراء كان يحملهم الاسطول البندقى الذى رحل من البندقية قاصدا زارا والقسطنطينية(٧١) ويبدو أن هذه القصيدة كانت شائعة ورائجة بدليل النسخ الكثيرة الموجـــودة لها فى عدة مخطوطات . وبين العديد من المقطوعات التى صيغت فى هذا الموضوع لم تفقها أغنية أخرى فى تصوير عواطف الايمان الحقيقى ، والمشاعر التى كانت تعتمل فى صدر الصليبى عندما يترك كل ما أحبه ، اذ تقول الأغنية(٧٢) : كل يبكى أرضه وبلاده حين يفارق قلبه .

---

(٧١) كان الشاعران الاخران هما Conr de Béthunc ، وجى Gui أمير قصر كوكى Gui Chêtelain de Couci ، انظر : Bedier, op. cit., p. 123.

(٧٢) القصيدة عنوانها :

Ibid, pp. 121 — 31, S'onques nus hom por durc departie.

هذه القصيدة والقصيدة الأخرى[٧٣] ، يبدو فيها الأسف على فراق الحبيبة واضحا لأن الشاعر لا يملك سوى ذلك • ويبدو فيهـــا موضوع الحب والفروسية ممتزجين على نحو يجسد تماما الصـــياغة الأدبية للقيم التى كانت تسود المجتمع الفرنسى فى أخريات القرن الثانى عشر ومطلع القرن الثالث عشر •

أما الحملة الخامسة التى دعا اليها البابا انوسنت الثالث ، ثم البابا هنريوس الثالث ، فقد كان هدفها الاستيلاء على مصر ، واسترداد الشرف العسكرى الصليبى الذى أهدره المسلمون على أرض الشام بالقرب من حطين ، ولكن هذه الحملة فشلت رغم نجاحها فى الاستيلاء على دمياط وأضطر الصليبيون للتخلى عن أحلامهم في مصر هربا من الهلاك فى أوحال الدلتا ، وفى سنة ١٢٢١ م تم جلاؤهم عن مصر دونما قيد أو شرط • ولدينا قصيدتان حول هذه الحملة •

واحدى هاتين القصيدتين موجهة الى فردريك الثانى قبل تتويجه ، اذ كان فردريك قد قطع على نفسه وعدا بالذهاب فى حملة صـــليبية الى الأرض المقدسة • وكان من نتائج الحملة الخامسة أن وقع عـــدد من الدوقات والكونتات الألمان والفرنسيين أسرى فى أيدى المصريين ، وكانوا ينتظرون قدوم فردريك الثانى • وبمجرد تنصيب فردريك على العرش فى الثانى والعشرين من نوفمبر ١٢٢٠ م، أخذ الامبراطور شارة الصليب فى روما على يد الكردينال هوجو الأوستى Hugo d, Ostie (الذى صار فيما بعد البابا جريجورى التاسع الذى وقع قرار الحرمان ضد فردريك الثانى) ، وأقسم الامبراطور على ارسال التعزيزات لجيش الصليبيين ، ثم الرحيل بنفسه الى الشرق فى أغسطس ١٢٢١ م ، ولكن تطورات الأمور أجلت خروجه الى سنة ١٢٢٨ كما هو معروف •

---

(73) Ibid, pp. 135 — 141.

في هذه الظروف كتب الشاعر قصيدته ، وفيها نكتشف أن المصالح والاهتمامات الذاتية في الوطن كانت تحول دون السفر الى الأرض المقدسة ، فالشاعر يلوم من يتمسك بزخرف الدنيا على الرغم من فنائه ، ويقول :

لكن أصحبنا الى ما وراء البحر
اذ أن كل هذه الأشياء ستهلك يوما ما
ولا يهلك ربنا

وتعلق القصيدة آمالا كبيرة على الامبراطور فردريك الثانى الذى يملك الكثير ، ولن يبخل بشىء فى سبيل هذه الحركة • بيد أن أطرف ما تقدمه القصيدة ، هو أن الشاعر يطلب من الماركيز الذى يخاطبه مكافأة المهرج الذى حمل الرسالة اليه :

حيث أن صليبى يدافع عنى ويحفظنى
من أن أضيع مالى فى أشياء ذات زهو باطل

أى أن من يأخذ شارة الصليب للذهاب فى حملة مقدسة ، يحرم عليه أن ينفق ماله فى توافه الأمور [٧٤] •

أنتهت محاولات الحملة الخامسة بهدنة تطورت الى سلام استمر حتى سنة ١٢٣٩ م • وفى أثنائها عكفت البابوية على الحاحها بمطالبة فردريك الثانى بضرورة الاسراع بالوفاء بقسمه الصليبي ، ولكن فردريك كان صقليا حقيقيا ، فلم يكن الاسلام بالنسبة له كتابا مغلقا ، كما أن المسلمين لم يكونوا مجرد قوم كفار يستحقون الموت فى نظره • ومنذ ١٢٢٦ م بدأت مراسلات ودية بين السلطان الكامل محمد الأيوبى ، والامبراطور فردريك الثانى ••• وتطورت الأحداث حتى غادر فردريك ايطاليا فى أسطول صغير وستمائة فارس في أواخر يوليو ١٢٢٨ م •

(74) Ibid, pp. 155 — 165.

وهناك حدث أمر عجيب اذ أصدر البابا قرارا ثانيا بحرمان الامبراطور ، وأسفرت حملته عن هدنة كان أهم شروطها أن يتسلم فردريك القدس وبيت لحم مقابل عدم السماح بنزول أية حملة صليبية على شواطئ مصر وبلاد الشام(٧٥) .

فى هذه الأثناء وقعت عدة أحداث أدت الى قدوم حملة لويس التاسع على مصر ، ففى سنة ١٢٣٩ قدمت حملة صليبية جديدة بقيادة ثيبالد الرابع Thibaut IV ، كونت شمبانى وملك نافار . ووصلت سفن هذه الحملة الى شواطئ عكا فى سبتمبر من نفس السنة . واختلف الصليبيون المحليون والصليبيون الجدد حول وجهة هذه الحملة ، هل تكون مصر أم دمشق . وقرر ثيبالد مهاجمة الحدود المصرية عند غزة . وانتهت مغامراته بأن تمزقت القوات الصليبية شر ممزق على أيدى فرسان الجيش المصرى فى غزة . وهناك راح عدد كبير من النبلاء الصليبيين أسرى أو قتلى ، كما أن الملك الناصر داود ، أمير الكرك وفلسطين ، انتهز الفرصة واسترد بيت المقدس فى السابع من ديسمبر ١٢٣٩ م . وكان الفشل مصير محاولات ثيبالد الذى لم يجد بدا من الرحيل الى أوربا فى أواخر سبتمبر سنة ١٢٤٠ م ، دون أن يحقق شيئا .

حول هذه الحملة ، التى لا تحمل رقما ، والظروف التى واكبتها أو سبقتها لدينا سبع قصائد ، كتب ثيبالد نفسه أربع قصائد منها . والقصيدة الأولى(٧٦) تتحدث عن التخاذل وعن ذلك الذى يقول « اننى

---

(٧٥) عن تفاصيل هذا الموضوع ، انظر :
محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية) ١٩٦١ ، ص ٦٠ — ٧١ .

(٧٦) مطلعها : سيدى ، اعرف ذلك الذى لن يذهب الآن .
Seignor, Saichiés qi or ne s'en ira
، انظر :
Bedier, op. cit., pp. 169 — 173.

لن أترك أحبائى مهما كان الثمن » ، ويقارنهم بالشجعان الذين يحبون الرب والذين يرحلون الى هناك. وتكشف القصيدة عن حدة القلة المؤمنة بهدف ترى الكثرة منصرفة عنه ولاهية بأمور تبدو أكثر هوانا وتفاهة ، اذ يبقى « الأشرار الجبناء » ، ويؤكد الشاعر أن من لا يرى طريقة فى خدمة الرب أعمى .

أما قصيدته الثانية(٧٧) فيقول مطلعها :

فى هذا الزمن المليء بالغدر
والحسد والخيانة ، بالظلم والأذى
نحن البارونات نحول زمن الشر الى زمن أبشع
وحين أرى الحرمان يوقع على صاحب العقل الأرجح
تنتابنى الرغبة فى الغناء

هذه القصيدة تحمل اشارة واضحة الى توقيع عقوبة الحرمان على فردريك الثانى من البابا جريجورى التاسع . فبعد أن أعلن البابا فى أبريل ١٢٣٩ تحرير جميع رعايا فردريك من الاخلاص والولاء لحكمه بمقتضى عقوبة الحرمان البابوية ، صاغ ثيبالد هذه القصيدة قبل رحيله الى الأرض المقدسة ، فما هى الظروف السياسية التى جعلت ثيبالد يعلن ضجره من هذا الزمن المليء بالشرور ؟ كان البابا يستفز المسيحيين لحملة صليبية جديدة قبل نهاية الهدنة التى عقدها فردريك مع المسلمين فى سنة ١٢٣٩ م . ولكن الظروف السياسية الجديدة فى أوربا جعلت جريجورى التاسع يستخدم القوات التى كانت قد تجمعت للحملة الصليبية فى الدفاع عن المملكة اللاتينية فى القسطنطينية ازاء الأخطار التى كانت تتهددها من قبل البيزنطيين . وقد انصاع كثيرون لرغبة البابا ، ورفض البعض الاخر ، وظلوا على ولائهم لمشروع تخليص الأرض المقدسة ، وقد ضايقهم أن يتحول البابا الى مشروع آخر يهدف

---

(77) Ibd, pp. 177 — 186.

الى خدمة أغراضه السياسية • وفى هذه القصيدة يعارض الشاعر قرار الحرمان ضد الامبراطور أو توجيه اللوم والتهديد بحرمان كل من يريد الذهاب الى الأرض المقدسة[٧٨] •

لقد لعبت الحركة الصليبية دورا هاما فى الحياة الأوربية فى القرن الثالث عشر ، فقد اتخذت شكلا مقلوبا وتحولت الى حروب ضد أعداء البابوية • وكلما مضت البابوية قدما فى استغلال الحركة ، كلما أدينت الحركة الصليبية وازداد النقد ضدها لأنها انقلبت الى حركة تناقض مثلها العليا الأصلية وقيمها بشكل صارخ • هذا الاستغلال السياسى البحت للفكرة الصليبية حدث فى الوقت الذى كانت فيه بقايا مملكة بيت المقدس اللاتينية تحتاج الى التعزيزات الأوربية لانقاذها من الهلاك• كما أن زعماء أوربا فى القرن الثالث عشر ، لا سيما فى النصف الثانى منه ، كانوا عازفين عن شن حروب جديدة ضد الاسلام • ذلك أن مشكلات الحكم ، والاقتصاد والفكر ، والثقافة الأوربية كانت قد امتصت طاقاتهم ، وما بقى من هذه الطاقة وجهته البابوية ضد أعدائها فى أوربا[٧٩] •

هذه الأوضاع تتجلى واضحة فى الأشعار التى تدور حول حملة ثيبالد سنة ١٢٣٩ ففى بقية قصائد ثيبالد الأربع نجد نفس النغمة ، ونفس الموضوع ، كما نجد اختلاط الحب والحرب ، وآلام الفراق والرحيل عن الوطن والحبيبة من أهم موضوعات هذه القصائد[٨٠] • وثمة قصيدة أخرى فى رثاء ضحايا معركة غزة من الصليبيين مطلعها :

لست أغنى ، فماذا عساى أن أقول

---

(78) Ibid, pp. 178 — 180.

(79) Cantor, Med. Hist., pp. 330 — 331.

(80) Bedier, op. cit., pp. 217 — 225.

وكيف يسعد قلبى ، بينما ضاع باروناتنا فى أرض سوريا[٨١]

وتتحدث القصيدة عن الأسرى وحزن الفرنج عليهم ، ويحاول الشاعر أن يواسى الناس ، الذين كان حزنهم كبيرا على من فقدوهم فى غزة ، ويبدو أن الصليبيين فى الشرق كانوا فى حال من الهلع ، لأن أحد المصادر التاريخية يذكر أن ثيبالد كان يرى الدموع ويسمع صيحات الحزن كلما مر بقرية ، أو مكان فى المناطق الصليبية[٨٢] .

ثم نأتى الى الحملة الصليبية السابعة ، ولدينا عنها ثلاث قصائد[٨٣] . ففى سنة ١٢٤٤ م كان الخوارزمية يتجولون فى المنطقة العربية يبيعون سيوفهم فى خدمة الأيوبيين ، واستطاعوا أن يستولوا على مدينة بيت المقدس لينتزعوها نهائيا من أيدى الصليبيين . وفى أكتوبر من السنة نفسها تمكنت جوش الصالح نجم الدين أيوب ، تحت قيادة مملوكه بيبرس ، وبمساعدة الخوارزمية ، أن ينزلوا بالصليبيين هزيمة ساحقة عند غزة ، وراح أفراد الجيش الصليبى بين قتيل وأسير . وكانت أوربا فى شغل عن صليبيى الشرق ، وعبثا حاول البابا انوسنت الرابع أن يحرك أوربا لنصر المملكة اللاتينية ، ولكن المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية من ناحية ، والصراع بين الامبراطورية والبابوية من جهة أخرى لم تحرك واحدا من ملوك أوربا سوى لويس التاسع ملك فرنسا .

فى ١٧ أكتوبر سنة ١٢٤٤ م ، حين وفدت أنباء الكارثة الى فرنسا كان لويس قد سقط مريضا ، وفى أثناء مرضه أخذ شارة الصليب ، وقطع على نفسه عهدا بأن يذهب فى حملة صليبية ولدينا عدة روايات عن الظروف التى أخذ فيها لويس شارة الصليب ، وكلها مغلفة بالخيال

---

(81) Ibid, pp. 229 — 34.

(82) Ibid, p. 230.

(83) Ibid, pp. 235 — 267.

والمسحة الاعجازية بحيث أننا لا نستطيع أن نثق فى أى منها • والقصيدة الأولى تمثل رد الفعل ازاء هذا الخبر ، كما أنها تكشف عن مدى خفوت الفكرة الصليبية فى الوجدان الأوربى ، ومطلع هذه القصيدة يقول :

كل الناس يجب أن يتركوا أنفسهم للفرح
ويعيشون فى بهجة :
لأن ملك فرنسا أخذ شارة الصليب

ثم تتحدث القصيدة عن الظروف الاعجازية التى جعلت الملك يأخذ على نفسه عهدا بالذهاب فى حملة صليبية • والفرح الذى تعكسه هذه الأغنية يكشف عن أن الناس لم يعودوا يتحركون لنصرة الفكرة الصليبية من تلقاء أنفسهم ، على الرغم من ارتباطهم العاطفى بالأرض المقدسة ، بحيث أن ذهاب أحد ملوك أوربا فى حملة أصبح مثار سرور وفرح •

هذا الانطباع تؤكده القصيدة التالية حول هذا الموضوع ، فبعد أن تقلد لويس التاسع الوشاح الصليبى فى دير سان دونى فى ١٢ يونيو ١٢٤٨ م ورحل الى الشرق ، كتب شاعر آخر :

بأمر الرب ، سوف أدافع عن السرور والفرح
لأن الرب أوضح الطريق السوى الذى نسير فيه اليه دونما عائق

ثم يتحدث هو الآخر عن قصة مرض لويس وشفائه الاعجازى ، وأخذه لشارة الصليب •

أما القصيدة الثالثة ، فتدور حول الأحداث التى تلت هزيمة الصليبيين فى المنصورة فى الثامن من فبراير ١٢٥٠ م • فقد تمزق الجيش الصليبى فى ثلاثة أيام على أيدى المسلمين ، وأسر الملك • ثم تمت المفاوضات على دفع الفدية للملك ، ورحل مع بعض شراذم الجيش على مراكب جنوية ، تاركا بين أيدى المسلمين عددا من الأسرى • وعاد عدد كبير من رجاله الى فرنسا ، وتوجه الملك بمفرده صوب عكا

مع بعض أفصاله الاقطاعيين ، وهناك طرأ عليه وعلى صليبيى الشرق هذا السؤال : هل ينبغى أن يعود الى فرنسا ؟ وعلى الرغم من أن أخويه قد عادا الى فرنسا ، فقد كانت العودة الى فرنسا تعنى ترك بقية المناطق الصليبية تحت رحمة المسلمين وترك الاثنى عشر ألف أسير المسجونين فى مصر ••• وقد بقى فى بلاد الشام ومعه بعض الأمراء مثل جوانفيل الذى كتب لنا قصة هذه الحملة التعسة • وفى هذه الظـروف كتب الشاعر قصيدته التى يقول مطلعها :

لا يمكن لأحد أن ينظم أو يغنى أغنية جيدة فى موضوع سىء(٨٤)

والقصيدة تواسى الملك على الهزيمة ، وتتحدث عن أن الرب هو الذى جعله يأخذ شارة الصليب ، وأن مصر كلها كانت خائفة من سمعته ، ثم تقول الأغنية مخاطبة الملك :

والآن تضـيع كل شىء
اذا تركت القـدس فى أسـرهم

وتكشف القصيدة عن تدهور حال الصليبيين فى الشرق من جهة ، وعن عدم اهتمام الغرب بمساعدتهم من جهة أخرى ، فالشاعر يخاطب الملك باعتباره سيد الانتقام الذى اختاره الرب لكى ينتقـم للاسرى والموتى الذين سجنوا وماتوا فى سبيل الرب وفى سبيل لويس • ومن أهم ما تبينه القصيدة فى المقطع الثالث أن الفرسان الصليبيين فقراء ويخشون البقاء فى الشرق ، ومن ثم فالأمل معقود على الملك • واذا ما خذلهم ، وخذل شعب الرب ، والشهداء ، والقديسين والأبرياء ، فانهم جميعا سوف يشكونه يوم الحساب الأخير •

وتتضح خصوصية الروح الفرنسية حين يذكر الشاعر الملك بواجبه فى حماية الكيان الصليبى لأن ما يملكه من كنوز الذهب والفضة يفوق

---

(84) Ibid, pp. 259 — 267.

ما لدى أى ملك آخر ، ويطالبه بالبقاء حتى يمكن لفرنسا أن تستعيد شرفها ... وأنه سيكون من العار أن يترك الأسرى والشهداء لكى يعود الى فرنسا ليواجه استنكارا عاما .

غادر لويس التاسع مصر عقب هزيمته ووصل الى عكا فى أواسط مايو سنة ١٢٥٠ م ، وظل مقيما ببلاد الشام حتى أبريل سنة ١٢٥٤ م ليصل فرنسا فى يولية من تلك السنة ، بعد أن فشل فى القيام بأى عمل ذى قيمة . فلقد رفضت كافة القوى الأوربية مساندة الكيان الصليبى المحتضر ، اذ طلب هنرى الثالث ملك انجلترا من البابا انوسنت الرابع أن يعفيه هو وباروناته من النذر الذى كان قد قطعه على نفسه بالذهاب فى حملة صليبية ، كما رفض شقيقا لويس التاسع (شارل كونت أنجو ، وألفونسو كونت بواتييه) ارسال أية مساعدة لشقيقهما فى الشرق ، وقامت حركة شعبية هى حركة الرعاة تطالب بعودة لويس الى بلاده كما تصاعدت انتقادات النبلاء الفرنسيين ضد انوسنت الرابع الذى وجه القوى الصليبية الى محاربة كونراد بن فردريك الثانى عدو البابوية . بل ان الملكة بلانش أم لويس هددت بأن تصادر أملاك النبلاء الذين يستجيبون لدعوة البابا[٨٥] ..

كانت حملة لويس ، بطابعها الفرنسى الخالص ، علامة على تدهور الفكرة الصليبية . ومنذ عاد لويس من حملته الفاشلة (١٢٥٤ م) كانت سنوات عديدة قد مرت دون أن تشغل أمور الشرق بال الغرب بشكل جدى . وحين ظهر الخطر المغولى فى الأفق كتب البابا اسكندر الرابع الى ملكى فرنسا وانجلترا يدعوهما للتشاور مع باروناتهما بشأن عمل مسيحى موحد ، وأن يوافيانه بمقترحاتهما فى ٦ يوليو ١٢٦١ . وفى أبريل ١٢٦١ عقد لويس التاسع اجتماعا كبيرا فى باريس أعلن عن مضمون خطاب البابا . ولكن الأمور تعقدت بعد ثلاثة شهور فقط اذ

---

(٨٥) زيادة ، حملة لويس التاسع ، ص ٢٥٧—٢٥٨ .

جاءت الأنباء باسترداد ميخائيل باليولوجوس للقسطنطينية ، وكانت هذه صدمة كبيرة للمسيحية الكاثوليكية .

ومنذ تلك الأثناء لم يعد مطروحا بشكل جدى موضـــوع حملة صليبية جديدة صوب الأراضى المقدسة ، وانشغلت البابوية بالصراع ضد مانفريد ابن فردريك الثانى ، لكى يأخذ منه عرش صقلية ويعطيه لشارل أنجو شقيق ملك فرنسا[٨٦] ... وهكذا ماتت الفكرة الصليبية ، وأصمت أوربا آذانها عن نداءات الاستغاثة الصادرة عن صليبيى الشرق. ومن ناحية أخرى بدأ المسلمون يستولون على المدن والقلاع الصليبية تباعا حتى انتهى الوجود الصليبى بسقوط عكا فى يد السلطان الأشرف خليل بن قلاون سنة ١٢٩١ م .

ولدينا عدة أغنيات وقصائد عن هذه الفترة تكشف عن هذا الفتور فى الحماسة الصليبية بشكل واضح ، كما أنها تشى بانشغال الغرب الأوربى بمشاكله وهمومه الذاتية بالقدر الذى جعله يترك صليبيى الشرق لمصيرهم المحتوم . والأغنيات التى لدينا عبارة عن خمس أغنيات غير محددة التواريخ ، وهى تجمع بين موضوعات الحب والحرب ، والاشارة للحوادث الداخلية[٨٧] . كما أن لدينا مجموعة من احدى عشرة قصيدة تتناول أحداث الفترة الأخيرة وتركز على الأمور الداخلية فى أوربا ، وتكشف عن اخفاق المحاولات المتأخرة لتجميع حملة صليبية جديدة[٨٨] .

***

(86) Cantor, Med. Hist., pp. 485, f.

(87) Bedier, les Chansons de Croisde, pp. 269 — 300.

(87) Document relatifs a L'histoire de Croisades 1, Onze Poémes de Rutebeuf Concernant la Croisade, (Publiés par : Edmond Farol,et Julia Bastin) Paris 1946.

هكذا يكشف شعر الحركة الصليبية عن جانب هام ومثير من جوانب العلاقة بين الشعر والتاريخ ، فالفـكرة والحماسة الوجدانية يمـكن رصدها من خلال القصائد والأشعار التى تعبر عن الجو النفسى السائد ، لا سيما وأن الشعر كان من أهم وسائل الدعاية التى استخدمتها الحركة الصليبية طوال تاريخها • ومن ثم فاننا نرى أن الشعر مصدر لا غنى عنه للمؤرخين الذين يربطون أنفسهم بمنظور اجتماعى واسع ، اذ يجب على المؤرخ أن يكون ذا حس يجعله يهتم بالحال الوجدانية ، والشعر يحمل الكثير من الدلالات الهامة على التغيرات الشاملة فى المشـاعر والأحاسيس فى صدور الناس صناع التاريخ الحقيقيين •

سياسة مصـــر التجـــارية
فى عصرى الأيوبيين والمماليك

د. صبحى لبيب
جامعة كييل ــ ألمانيا الغربية

مقـــدمة :

لعلنـــا نذكر المعركتين العالميتين : معركة بلاط الشهداء أو تور أو بواتييه عام ٧٣٢ ، ومعركة تاس (طلس/ تالس : Talas) عام ٧٥١ عند نهر طلس فى وسط آسيا . هاتان المعركتان تبرزان بوضوح اتجاهات التوسع الاسلامى . معركة بلاط الشهداء انتهت بوقف التوسع الاسلامى فيما وراء جبال البرنيز . ومعركة طلس انتهت بانتصـــــار الفرق الاسلامية على جيش الصين . وترتب عليها تغلغل الاســـلام والحضارة الاسلامية فى وسط آسيا ، وانتهاء نفوذ الصين وامتـــداد الحضارة الصينية فى المنطقة .

وبظهور الدولة السامانية فى خراسان وبلاد ما وراء النهر (٨١٩ ــ ١٠٠٥) وبقيام دولة البلغر أو البلغار فى روسيا نشطت العــــلاقات التجارية بينهما وبين شمال أوربا ، كما يتضح من آلاف العمــــــلات السامانية التى أمكن العثور عليها فى روسيا ومناطق بحر البلطيق ، وفى السويد والنرويج وشمال ألمانيا والدانمرك . ساعد على امتداد هـــذه التجارة انتشار الاسلام وبدء استعمال اللغة العربية فى دولة البلغار

هذه ، وهى التى كانت تقع على الطريق التجارى بين وسط آسيا والدولة السامانية من ناحية ، وشمال أوربا من الناحية الأخرى • وعند الطرف الغربى من الامبراطورية العباسية أقام عبد الرحمن الداخل دولته الأموية المشهورة فى التاريخين الأوربى والاسلامى عام ٧٥٦ • والى اسبانيا الاسلامية هذه تنتهى رحلة قوافل التجارة التى كانت تربط روسيا بجنوب غربى القارة الأوربية •

وفى البحر المتوسط استمر التجار السوريون والأقباط وملاحوهم، الى جانب اليونانيين ، فى نشاطهم التجارى المتواضع منذ القرن الخامس • فنقلوا متاجر الشرق الى الغرب ومنهم من وصل الى أيرلندا• وفى القرن التاسع ضعف نشاطهم واستقر معظمهم فى أوربا • وحل محلهم التاجر الرادانى • والرادانية تجار يهود ــ تجار البر والبحر بين أوربا وساحل افريقيا وطرق التجارة البرية والبحرية من ساحل آسيا على البحر المتوسط الى سواحلها فى الهند وجنوبى شرق آسيا والصين •

وبعد قيام الدولة العباسية وبناء بغداد كعاصمة لأكبر امبراطورية فى ذلك العصر ، امتد واتسع نشاط الملاحة الاسلامية فى الجنوب من موانى الجزيرة العربية والخليج الى موانى الصين فضلا عن امتدادها الى سواحل البحر الأحمر وشرق أفريقيا • ومنها كلها تصل المراكب المحملة بسلع الجنوب الى سيراف والبصرة ومنها الى بغداد • وبفضل هذه الدورة الملاحية المنتظمة أصبحت بغداد ــ الى جانب القسطنطينية ــ أكبر سوق تجارية فى الشرق ، ان لم تكن فى العالم كله ، فى القرنين التاسع والعاشر • وقد نجح فى دعم هذه الدورة الملاحية التجارية تجار مغامرون مكافحون ، وملاحون مهرة تمرسوا على استخدام الرياح الموسمية ، وحكومات اهتمت بنشر الأمن حتى أصبحت البصرة أهم ميناء فى الجنوب •

فى ذلك الوقت والى عهد الخلافة الفاطمية وبناء القاهرة لم تكن

مصر مركز الثقل فى الشرق الاسلامى • كما لم يكن البحر المتوسط مركز النشاط التجارى الضخم فى العالم فى ذلك الوقت • على أى حال احتفظت مصر فى ذلك الوقت بعلاقاتها التجارية مع بيزنطة وأوربا فى فترات السلم الطويلة • واستفادت مصر من انتظام القوافل البرية بين بغداد والمغرب والحجاز ، حيث كان موسم الحج أهم موسم تجارى للمسلمين فى العالم الاسلامى كله • كما وصلت قوافل التجارة المصرية الى طرابزونة على ساحل البحر الأسود ، طرابزونة ـ تلك السوق البيزنطية التى استقبلت أيضا تجار العراق وايران ووسط آسيا ، فضلا عن تجار مملكة الخزر •

وفى القرن العاشر أو على وجه الدقة ، فى النصف الثانى من القرن العاشر بدأت معالم الصورة السياسية العامة فى البحر المتوسط وفى غرب آسيا تتغير ، وبرزت مصر لتحتل مكان الصدارة فى علاقات الشرق والغرب • فقبيل نهاية القرن العاشر أو فى بداية القرن الحادى عشر انهارت الدولة السامانية تحت ضربات الأتراك (الغزنوية والقرخانية) ، وانهارت دولة البلغر أمام هجرة أو هجرات الروس الوافدين من شبه جزيرة اسكنديناوة والدانمرك • كما انهارت مملكة الخزر أيضا • بل لقد حاول هؤلاء الروس الاستيلاء على القسطنطينية • هؤلاء الروس أو النرمنديون هم الذين قاموا بغارات نهب على سواحل أوربا الغربية ووصلوا الى الأندلس وعرفوا فى المصادر العربية باسم المجوس • ولقد حملت غاراتهم وهجماتهم الأمويين على بناء أسطول يحمى شواطئهم • ضعف شأن هذا الأسطول الحربى قبيل تولى عبد الرحمن الناصر حكم الأندلس (٩١٢ـ٩٦١) • فأعاد بناءه وزاد فى عدد قطعه والتحم مع أسطول الفاطميين فى شمال افريقيا وصقلية فى أكبر معركة بحرية فى وسط البحر المتوسط عند ميناء مازرة أو مزارة ـ وهو ميناء صقلى على الساحل الغربى للجزيرة • هنا التقى أضخم أسطولين فى غرب البحر المتوسط • انتهت المعركة بتحطيم الأسطول الفاطمى وانتصار أسطول الأندلس • وأهم النتائج التى ترتبت على

هزيمة الفواطم وكان لها أثرها الواضح فى سياسة مصر التجارية هى تركيز الخلافة الفاطمية على فتح مصر ، ونقل العاصمة اليها ، وتدعيم مركزها فى الشرق الأدنى ، ووضع افريقيا وصقلية تحت ادارات تابعة لها . وبهذا نصل الى النتيجة التاريخية لهذه الأحداث وهى النتيجة التى لا يمكن اغفالها عندما نتكلم عن سياسة مصر التجارية . لقد انتهج الفاطميون سياسة جديدة بعد نقل عاصمتهم الى مصر : لم يشتركوا مشاركة جدية فى استكمال فتح صقلية ، واهتموا بدعم الصلات التجارية السلمية مع الجزيرة . فكانت أساطيلهم التجارية وسفن بعض كبار موظفيهم تغادر موانيهم فى مصر وسوريا لتتنقل بين عدد من موانى البحر المتوسط وخاصة فى جزيرة صقلية . فليس غريبا اذا أن نرى فى القاهرة نفسها — أى على عمق دلتا النيل كلها — نرى تجار أما لفى وغيرهم يتعاملون ، وقد منحتهم الحكومة الفاطمية بعض الامتيازات تشجيعا لهم على استمرار العلاقات السلمية والتبادل التجارى .

وسياسة الفاطميين فى منطقة البحر الأحمر تهدف الى دعم علاقاتهم مع مركزهم فى اليمن ، والى تغلغل دعاتهم الى الساحل الغربى للهند — كل هذا كان من شأنه تنمية مجال التبادل التجارى مع مصر . ولكن الأهم بالنسبة لتجارة مصر فى ذلك الوقت هو ما وقع فى قلب العراق ، مركز الخلافة العباسية : قلة الاستقرار السياسى ، عدم استتباب الأمن ، ضعف الادارة ، وهبوط دخل الخليفة بحيث لم يعد قادرا على تغطية مصاريف جهازه الحكومى ودفع مرتبات جنده . كل هذا قد دفع التجار الى تجنب الخليج ، كل هذا أدى الى ما سماه جغرافيو العرب فى ذلك الوقت بـ « خراب بغداد » . استفادت عدن من هذا كله عندما بدأ كبار التجار وأصحا بالسفن يتحولون عن بغداد والبصرة ليركزوا نشاطهم فى عدن . وبذلك ارتبطت أهم طرق الملاحة فى مياه الجنوب بمصر ارتباطا وثيقا — من ساحل الصين الى عدن ، ومن عدن الى موانى مصر فى البحر الأحمر ، وأهمها ميناء عيذاب الذى بناه الفاطميون .

وفى نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر وقعت أيضا تطورات ملاحية هامة : استعمال البوصلة وشراع السفن المعـــروف بالشراع اللاتينى فى البحر المتوسط ، وكلاهما تجديد ملاحى خطير الشأن ، نقله المسلمون من المحيط الهندى الى البحر المتوسط • هـذا التجديد أحدث أثره ــ ليس فقط فى بحار الجنوب ، بل أيضا فى البحر المتوسط ــ فيما بعد ــ ، ليس فقط فى تقليل مخاطر الملاحة وتأمين السفن وحياة ملاحيها وتجارها ، بل أحدث فوق ذلك أثره فى ظهــور دورة ملاحية تجارية جديدة ومواسم منتظمة على مدار الســـنة • انتظمت الملاحة اذن ودخلت تجارة البحر المتوسط مرحلة جديدة : لم تعد التجارة فيه تجارة ساحلية كما كان الحال من قبل ، عندما كانت المراكب تسير فى محاذاة الساحل وعلى مقربة منه تجنبا لكل ما ينذر من مخاطر • ولم تعد حلقات المزايدات التى تقام فى الميناء للتجارة السريعة ، لانهاء عمليات البيع والشراء ودفع الضرائب وتموين السفينة ، ثم الاقلاع فورا الى المرسى التالى ــ لم يعد كل هذا هو دستور التجارة والملاحة • وقع تطور جديد يحدد معاملات التجار على أسس ثابتة/ الدولة المضيفة تقبل نزول تجار المدن الايطالية الصديقة الى العاصمة ــ الى القاهرة ــ وتمنحهم حق الاقامة لتأدية عملهم وممارسة الاتجار ، أى تصريف سلعهم دون لهفة أو قلق • ثم شراء ما يحتاجون اليه من سلع لتصريفها فى أسواق مدنهم الأوربية • كانت أهم هذه السلع هى توابل الشرق، وأقمشة الشرق والغرب ، والمواد الغذائية والحبوب ، وفوق ذلك كله الأسلحة ومواد التسليح ــ وأهمها الحديد والخشب • كما تبدت فى الأفق التجارى ظاهرة لا يمكن اغفالها فى هذا المجال ــ ألا وهو التاجر الاسلامى الكبير ، الذى يركز نشاطه على الاتجار مع المدن الايطالية •

ولكن هذه المدن الايطالية تمثل ظاهرة جديدة فى تاريخ حوض البحر المتوسط • انها مدن حرة • مدن اســـتطاعت أن تثبت وجودها فى الغرب ، وأن تستفيد فائدة كبرى من وراء الصراع الذى شــغل به الفاطميون فى المغرب والأمويون فى الاندلس ــ ذلك الصراع الذى

أنتهى بانتصار أسطول عبد الرحمن الناصر إنتصارا ساحقا على الفاطميين ، ورغم ذلك فلم تعقبه انتصارات أخرى أو سياسة مستتبة لتحقيق سيادة بحرية اندلسية فى غرب البحر المتوسط • فما أن بدأ القرن الحادى عشر حتى وجدنا سفن هذه المدن تتردد على سواحل المغرب وتمخر عباب خليج مسينا وبحر الادرياتيك باحثة عن الأسواق الجديدة فى الجانب الآخر ، بعد أن أتيحت لها فرصة ذهبية أخرى ، ألا وهى نجاح الاسرة المقدونية البيزنطية فى استعادة جزيرة كريت عام ٩٦١ ، والسيطرة على الطريق الملاحى بين القسطنطينية وبين موانى شرق المتوسط • ولكن بيزنطة كانت تعانى من مشاكلها الداخلية ، ومن الصراع مع صقالبة الجنوب على السيادة فى جنوب شرق أوربا والبلقان• ولم يقو اليونانيون على منافسة الايطاليين فى مجال التجارة البحرية • معنى هذا كله فى جملة تاريخية واضحة : ان الفراغ الذى نجم عن الصراع البيزنطى العربى ، ثم الصراع الفاطمى الأموى فى حوض البحر المتوسط قد ملىء بقوة جديدة : التجار الايطاليون والمدن الايطالية الحرة ، التى اهتمت بالتجارة وببناء السفن وتحسينها وايجاد أو فتح أسواق جديدة للتجارة فى حوض البحر المتوسط كله • وكان أهم هؤلاء التجار الذين اصطلح مؤرخو العصر على تسميتهم بتجار الفرنج هم البنادقة والجنوية والبيازنة من البندقية وجنوه وبيزا • ثم تلاهم فى فترة لاحقة المراسلة ، أى تجار ميناء مرسيليا الفرنسى ، والبراشنة ، أى تجار برشلونة ميناء اسبانيا •

فالعميل الجديد فى الشرق الاسلامى عندما بدأت الحركة الصليبية عميل طموح ، تشابكت مصالحه مع مصالح الصليبيين أحيانا ، وتناقضت معها أحيانا أخرى •

النقطة الثانية : فالنقطة الثانية اذن يجب أن تكون عن مصر نفسها ، بعد أن درسنا الاطار العام لمسالك التجارة ومقوماتها الجديدة •

عندما وصل الصليبيون الى الأراضى المقدسة كانت مصر الفاطمية قد تخلت عن سياستها فى قسر التجارة مع سفن الغرب على بعض الموانى الساحلية وسمحت لتجار الفرنج بدخول القطر والاتجار بالقاهرة ، كما ذكرت لكم من قبل ٠

والواقع أن مصر لم تعمل بهذه السياسة الا فترة قصيرة محدودة عادت بعدها الى التقليد القديم ألا وهو حصر نشاط التعامل الخارجى على أرضها على موانى مصرية محددة فتحت أمام التاجر الأجنبى ، وأهم تلك الموانى — الاسكندرية ودمياط ٠

هذا التحول جدير بأن يلقى شيئا من عنايتنا لأنه مرتبط بالصراع الذى دار حول الأراضى المقدسة ، وعلى حدود مصر ، واتسع مداه حتى شمل سواحل البحر المتوسط كلها ٠ عام ١١٥٤ أرسلت بيزا سفيرا الى القاهرة ، الى الخليفة الظافر (١١٤٩ — ١١٥٤) لاعادة بناء العلاقة بين البلدين ، وللحصول على موافقة الحكومة على تخصيص فندق بالقاهرة للتجار البيازنة ٠ لقد أبدت مصر استعدادها لقبول الفكرة ، ولكن بيزا لم تحصل على هذا الفندق فى العاصمة — لا فى عهد الظافر ، ولا فى عهد من تلاه على حكم مصر ٠ فقد اشتركت بيزا فى الصراع الذى دار بين الصليبيين وأتابكة الموصل وحلب للاستيلاء على مصر أملاً فى تحقيق مطامعها التجارية بالحصول على ربع مدينة القاهرة وربع مدينة الفسطاط ٠ انتهى هذا الصراع الذى امتلأت به الحوليات خلال الستينات من القرن الثانى عشر — انتهى بنجاح نور الدين زنكى ورجليه فى مصر — أسد الدين شيركوه وصلاح الدين — وبطرد الصليبيين من مصر ٠ فحقق بذلك نصرا ضخما بعد القضاء على امارة الرها الصليبية ٠ والجدير بالذكر أن بيزا بدأت مفاوضاتها مع صلاح الدين عام ١١٧٣ بعقد معاهدة تجارية جديدة ٠ فى هذه المعاهدة الجديدة لم تحصل بيزا على فندق فى القاهرة ، بل ولم يذكر شىء من هذا القبيل فى المعاهدة ٠ وفى عام ١١٧٤ عقدت البندقية معاهدة أخرى

لم تنل فيها أى امتياز فى القاهرة • فما مغـــزى هذا كله ؟ أدرك صلاح الدين خطر التلاحم بين المصالح التجارية وبين حركة التوسع الصليبية فى المنطقة وعبر عن ذلك فى رسالته للخليفة العبـــاسى عندما وصف البنادقة والبيازنة والجنوية بأنهم « تارة يكونون غزاة ••• وتارة يكونون سفارا (أى تجارا) »[١] •

ولا يمكن أن نغفل ونحن بصدد دراسة مراحل تبلور سياسة مصر التجارية مدى يقظة صلاح الدين وحكومته الى هذا الخطر من الجانب الآخر : استولى الصليبيون على ميناء العقبة أو أيلة على خليـــج العقبة بعد ستة عشر عاما من استيلائهم على القدس أى فى عام ١١١٦• وقد استعاده صلا حالدين عام ١١٧٠ ،أى قبل أن يقضى على الخلافة الفاطمية ويؤسس الأسرة الأيوبية عام ١١٧١ • هنا لابد أن نتمسك

بملاحظتين :

الأولى ـ أن الصليبيين احتفظوا بالعقبة مايقرب من خمســة وخمسين عاما ، ورغم ذلك لم يكونوا من القوة بحيث يمكنهم تحقيق أى نشاط تجارى فى البحر الأحمر •

والثانية ـ أن صلاح الدين قد أدرك مدى خطورة احتفـــاظ الصليبيين بمثل هذا الموقع الاستراتيجى الحيوى على البحر الأحمر• فقام بالاستيلاء عليه ودعم بذلك مركز مصر والتجارة المصرية فى البحر الأحمر • وليس أدل على حسن تقدير صلاح الدين من أن نذكر بأن الفارس Renaud de Chàtillon الذى قام بأكبر مغامرة فى تاريخ الحروب الصليبية قد تغلغل عام ١١٨٢ بسفنه التى نقلها قطعا على ظهور الجمال من شرق الأردن الى خليج العقبة • ثم استولى على أيلة ومنها أبحر الى عيذاب وغيرها من الموانى الواقعة شمالى جزر

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، القاهرة ، جـ ١ ص ٢٣٤ •

دهلك ، فهاجمها ونهبها وأشعل النيران فى بعضها • هزت هذه الحادثة العالم الاسلامى الذى أبدى استنكاره لتجرىء هذا الفارس على الاقتراب من المواقع المقدسة فى الجزيرة العربية والتعرض لمصالح المسلمين التجارية فى البحر الأحمر • فى هذه الحملة الفريدة نهب أسطول de Chàtillon فيما نهب ، ميناء عيذاب (فى بلاد البجة) — أهم ميناء مصرى فى حوض البحر الاحمر • عام ١١٨٣ حاول رحالة الأندلس المشهور ابن جبير أن يحصى عدد جمال القوافل المارة بين عيذاب وقوص ، فما تمكن لكثرة عددها • باءت محاولة de Chàtillon بالفشل — فكانت آخر محاولة للصليبيين فى البحر الأحمر •

صلاح الدين كان قد أكد سيادة مصر فى اليمن من قبل عندما أرسل حملة بقيادة أخيه تورانشاه عام ١١٧٤ للاستيلاء على اليمن • نجحت هذه الحملة فى ضم اليمن الى الامبراطورية الأيوبية • وكان من خصائص الحكم الجديد وضع نظام جديد للضرائب فى اليمن ، وخاصة بالنسبة لموانيها وتجارتها الصادرة والواردة • وهو نظام مأخوذ عن نظام الضرائب فى مصر • مصر اذن سيطرت على أهم الطرق التجارية وأقصرها بين الشرق والغرب — من الموانى المصرية على ساحل البحر المتوسط الى موانى اليمن وأهمها عدن • كما امتدت حدود الأيوبيين فى الجنوب الى النوبة ، وشملت فى الشمال سوريا كلها ، ما عدا « الدويلات » أو « الامارات » الصليبية التى تلقت ضربة قاسية على يد صلاح الدين وجيوشه فى موقعة حطين المشهورة عام ١١٨٧ • وبعد هذه الموقعة تبددت آمال الصليبيين فى الأراضى المقدسة • فبعد أن تشتت شمل الحملة الصليبية التى قادها الامبراطور فردريك بربروسا قبل وصولها الى فلسطين ، ركزت الصليبيات مرة أخرى على الاستيلاء على مصر بعد أن اتضح لهم أن مصر حجر الزاوية فى الجهاد الاسلامى والسوق الأكبر فى المنطقة ، رغم العلاقات التجارية بين جمهوريات الغرب وموانى الصليبيين على ساحل الشام • اتجهت الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة الى القسطنطينية ، بدلا من الاتجاه الى

مصر ـ تحقيقا لأطماع البندقية فى الشرق • فوضت الحملة أركان الامبراطورية البيزنطية وأقامت امبراطورية لاتينية ضعيفة (١٢٠٤ـ ١٢٦١) • أما البندقية فقد نجحت فى تكوين امبراطورية تجـــارية تتألف من الموانى والجزر التى تدعم مصالحها من البحر الأسود الى بحر الادرياتيك / ومن الناحية الأخرى عززت البندقية بنفس الضربة مركزها فى مصر واستطاعت أن تحصل على فندق ثان فى الاسكندرية ، وأصبحت بذلك أهم شريك لمصر فى تجارة التوابل بين الشرق والغرب• ولعل موقف البندقية من الصليبية الرابعة هو خير مثال على بروزعقلية جديدة يرمز اليها المثل البندقى المشـــهور :

« Siams Veneziani poi Christiani »

« نحن بنادقة أولا ومسيحيون ثانيا أو بعد ذلك » وصلت الحملة الصليبية التالية الى مصر ومنيت بالهزيمة • وعطلت الحرب انتظـام العلاقات التجارية ، ولكن الى أجل محدود • وفى صليبية القـديس لويس تتكرر المأساة رغم اختلاف التفاصيل • ولكن الظروف التاريخية لهذه الصليبية تحملنا على التوقف للتأمل فى أبعادها ، وفى ظهـور عامل جديد فى الصراع على الأرض والتجارة • كان المفروض أن يتجه لويس التاسع بحملته الى مصر من البحر بينما تتصب جحافل المغول فى بقاع الشام ، فيضطر الأيوبيون الى الحرب فى جبهتين ، وبعد اكتساح سوريا يسحق جيش مصر بين شقى الرحى • لم تخرج هذه الخطة الى حيز التنفيذ • والتقت جيوش مصر بأكبر جيش أوربى هاجم مصر فى العصور الوسطى • وانتصرت • ليس هذا هو كل ما يهمنا أن نعرفه عن صليبية القديس لويس • لقد عجلت هذه الحملة بانهاء حكم الأيوبيين فى مصر ، أى أنها عجلت أيضا بوصول جيشهم من المماليك الى السلطة • وبعد مواجهة الخصم الثانى وهم المغول فى عين جالوت والانتصار عليه عام ١٢٦٠ ثبت المماليك حكمهم فى الشرق الأوسط • وعندما انتقلت الخلافة العباسية الى مصر عام ١٢٦١ ارتفع جاه مصر فى العالم الاسلامى كله •

مصر أصبحت اذن ملاذ علماء الاسلام ، أصبحت مركز الحضارة الاسلامية ، وأمل العالم الاسلامى فى دفع خطر المغول . وبذلك نصل الى النقطة الثالثة فى هذه المحاضرة وهى المغول ومصر وسياسة مصر التجارية .

النقطة الثالثة :

تعد امبراطورية المغول أكبر امبراطورية فى القرن الثالث عشر ومن أكبر الامبراطوريات فى تاريخ العالم . وكان لانتصار المماليك عليهم فى عين جالوت أكثر من نتيجة . هناك مثلا نتيجة حضارية على جانب كبير من الأهمية : نهر الفرات أصبح الخط الذى يفصل ، أو يكاد يفصل، بين شطرين أساسيين للحضارة الاسلامية : الحضارة الايرانية الاسلامية والحضارة العربية الاسلامية . هناك نتيجة أخرى : مصير دولة سلاجقة الروم (أو سلاجقة الأناضول كما يسميها المؤرخون الأتراك اليوم) ظهور هذه الدولة ، كما نعلم ، من أكبر الانتصارات الاسلامية : بعد انتصار السلاجقة فى موقعة ملاذكرد العالمية بقليل أسس السلاجقة هذه الدولة فى قلب الامبراطورية البيزنطية فى آسيا ، وبعد انتصار سلاجقة الروم على جيوش بيزنطة فى موقعة Myiokephalon سنة ١١٧٦ أصبح الحكم الاسلامى فى آسيا الصغرى حقيقة تاريخية ثابتة وأصبحت آسيا الصغرى جزءا لا يتجزأ من المجال التجارى للعالم الاسلامى بما فيه مصر .

هذه الدولة السلجوقية ، دولة الثغور والحدود أمام بيزنطة ، ينقض عليها المغول عام ١٢٤٣ فى معركة تاريخية مشهورة — معركة Kösedagh (بالقرب من سيواس) . يهزم سلاجقة أناضوليا فى هذه المعركة هزيمة منكرة ، وتصبح آسيا الصغرى منطقة من مناطق الامبراطورية المغولية ، وتتمتع بيزنطة بما يشبه الحماية المغولية . ويترتب على عجز السلاجقة ظهور امارات المجاهدين الأتراك ، مثل كرمان وغيرها — من هذه الامارات امارة آل عثمان فى بورصة .

ومن نتائج التوسع المغولى التى لا يمكن اغفالها هجرة التجار من بغداد قبيل عام ١٢٥٨ وبعده فرارا من غارات المغول • هاجر هـؤلاء التجار ومعظمهم من المسايمن الى ميناء قاليقوت على سـاحل الملبار الذى أطلق عليه فيما بعد ساحل الفلفل • كان حكام قاليقوط من الهنود، ولم يكونوا من المسلمين ولكن أصحاب النفوذ فى هذا الثغر كانوا التجار المسلمين الوافدين من بغداد ، الذين تمتعوا بامتيازات عديدة ، وحكموا علاقاتهم التجارية بتقاليدهم وقانونهم • وأهم من ذلك ، أنهم تمتعوا بحق التمثيل التجارى • بفضل هؤلاء التجار المسلمين الذين هاجروا من بغداد الى قاليقوط أصبح هذا الميناء المتواضع أو أصبحت هذه القرية الصغيرة خلال فترة قصيرة أهم ميناء لتجار الشرق فى مياه الجنوب ، وأهم مركز للتبادل الاسلامى الصينى الأندونيسى فى الهند • وهنا لابد لنا أن نذكر الصين المغولية • المغول حكموا الصين أيضا (أسرة Yüan) • وللمسلمين تقاليد تجارية عريقة فى الصين ، وفى ساحل الصين بالذات ، نذكرها حين نذكر كانتون والخنسا وغيرهما من موانى الصين • أباطرة الصين من المغول حافظوا على السياسة الصينية فى تشجيع تجار المسلمين الذين أصبحوا الشركاء الأول فى بناء الاقتصاد الصينى فى مجال التجارة • أباطرة الصين المغول حاولوا فتح اليابان وضمها الى امبراطوريتهم • فشلوا فى هذه المحاولة ، ولكنهم نجحوا فى القضاء على القرصنة اليابانية الى حد كبير • أباطرة الصين من المغول حاولوا الاستيلاء على سيلان ، ولم يوفقوا • وهنا نلاحظ أن المد الصينى يصل الى منتصف المحيط الهندى • ما معنى هذا بالنسبة للتجارة وبلغة التجار ؟ وما جد من تطور فى الملاحة وصناعة السفن حتى امتد نشاط الصينيين تحت سيادة المغول الى سواحل الهند الغربية، الى ساحل الملبار • فى الواقع أخذ ملاحوا الصين عن ملاحى العرب والفرس والهنود ــ أخذوا عنهم كيف يستغلون الرياح الموسمية فى المحيط الهندى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، كما أخذوا عن

سكان موانى الهند الصينية كيف يبنون السفن الضخمة المعروفة بالجنك (Junk) والتى وصـــفها لنا ماركو بولو فى القرن الثالث عشر ، وابن بطوطة فى القرن الرابع عشر • ووصف ابن بطوطة للجنك وصف رائع يستمتع به كل من قرأ رحلته • كان الجنك يحمل ما يزيد على خمسمائة مسافر • وكان الجنك يحمل بالبضائع الثقيلة أيضا • معنى هذا بلغـــة الضرائب زيادة دخل الدولة ، وبلغة التجار زيادة فى حجم التجـــارة وتداول السلع ورخاء السلعة ، أى اعتدال سعرها •

بهذا نصل الى الملاحظة الأخيرة فى هذه النقطة ــ عصر المغــول وايجابيات هذا بالنظر فى تاريخ المحيط الهندى وبحار الجنوب : خطوط الملاحة فى الجنوب تمتد من سواحل الصين الى سواحل الهند الصينية وسواحل مملكة سريفيجايا (أو شرى ، أو سريرة) ، وبعـــدها مملكة Màqapahit ، الى ســـيلان وجزر المالديف وسواحل الهند الشرقية والغربية ثم الخليج حيث نلتقى عند مدخله بأهم ميناء لايران المغولية وهو ميناء هرمز ، ثم موانى الجزيرة العربية وأهمها عدن • ومن ساحل شبه الجزيرة العربية وأهمها عدن • ومن ساحل شبه الجزيرة الجنوبى وموانى سيلان والماديف تبدأ خطوط الملاحة الى ساحل شرق أفريقيا وأهم موانيـــه مقدشـــو وكلوه ومختلف موانى ســـاحل الزنج وسفالة • لاشــــك فى أن العـــرب قد وصـــلوا الى رأس الرجاء الصـــالح ، أو رأس العواصف ، بحثا عن الذهب • وعندما افتقدوه أهملوا الرحلة اليه • ولكن ما علاقة ساحل الزنج وسفالة بالمغول وامبراطوريتهم وهو موضوع هذه النقطة من هذا البحث ؟ ظهـــور قاليقوت يرجـــع الى الهجرة من بغداد وارتفاع أهمية ساحل الزنج يرجع أيضا الى هجرات المسلمين من مناطق الخليج فى أعقاب الهجوم المغولى فى أواسط القرن الثالث عشر • وكما اتصلت تجارة مصر وسياستها التجارية بقاليقوت و« دول أندونيسيا » ، اتصلت تجارة مصر بسواحل شرق افريقيا •

بذلك اكتملت الخطوط الرئيسية فى صورة المحيط الهندى ومياه

الجنوب وخطوط الملاحة من ساحل الصين الى ساحل الزنج ومن عدن والبحر الأحمر حتى مصر وساحلها على البحر المتوسط •

فالى النقطة الرابعة النظرة التاريخية للتطور فى حوض البحر المتوسط ابان سيادة المغول فى آسيا •

« مصر مجمع قارتين افريقيا وأوراسيا ، ومفرق بحرين — البحر المتوسط وبحر القلزم » ، ومصير تجارة مصر وخطوط سياستها التجارية مرتبط ارتباطا وثيقا بهذه الحقيقة المعروفة فى الجغرافيا التاريخية •

لعبت سياسة المغول دورا هاما فى تاريخ العلاقات التجارية والسياسات التجارية على السواء • السياسة العامة للمغول بنيت على أساس فتح أبواب التجارة والطرق التجارية للجميع • فتح المغول الطرق الاسيوية من حدود امبراطورية المغول فى روسيا (القفجاق) على البحر الأسود أو من ميناء أياس — ميناء أرمينية الصغرى فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى — ، للوصول الى تبريز وبغداد فالخليج ، فساحل المابار ، ومنه الى جنوب شرق آسيا والصين • ومن تجار الغرب من عبر مع القوافل من سواحل البحر الأسود أو تبريز الى وسط آسيا فحائط الصين • ومن حدود الصين هناك وصل تجار الفرنج الى سواحل الصين • وهناك — فى الميناء المشهور كانتون — انتصل تجار الغرب بتجار الكارمية : أهم التجار المسلمين • فتح هذا الطريق البرى بين البلاد المنتجة للتوابل والمصدرة لسلع الشرق — فتح هذا الطريق للغرب فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر مما أنعش آمال البابوية ودعاة الحركة الصليبية فى استغلال هذه الطرق الاسيوية ، وفى قسر الاتصال التجارى بين جمهوريات الغرب التجارية والشرق عليها دون غيرها ، أى وقف الاتجار مع مصر مما يترتب عليه انهيار الطريق التقليدى بين البحر المتوسط والمحيط الهندى عن طريق مصر والبحر الأحمر — وهو الطريق الذى تشرف عليه مصر اشرافا تاما محكما • بدأت هذه الفكرة تتبلور فى صورة

دعاية قوية ، وخرجت فعلا الى حيز التنفيذ ، خاصة وأن العلاقات بين الغرب والمغول قد أصبحت علاقات ودية يعتمد عليها ، الى درجة ارسال سفارة مغولية الى بلاط الملك المفرنسى فى باريس . وأخذت البابوية تفرض العقوبات على من يتاجر مع مصر وسوريا . ومن الجدير بالذكر فى هذا المجال أن علماء الاسلام فى هذه الفترة قد نادوا أيضا بوقف الاتجار مع الغرب ./وعلى الرغم من هذا كله فان الطريق التقليدى للمواصلات والملاحة والتجارة الخاضع لاشراف مصر لم يفقد أهميته . على العكس احتفظت الطرق التجارية بين ساحل الصين وموانى الهند الصينية ودول جنوب شرق آسيا وسواحل الهند وسيلان وشرق افريقيا التى تصب جميعها فى ميناء عدن (الذى خضع للدولة الرسولية التى حافظت على ولائها لمصر رغم بعض المشاكل السياسية) احتفظت بنشاطها التجارى كما حافظت عدن على دورها التجارى أمام الميناء المنافس فى مجال التجارة الدولية ـ ميناء هرمز عند مدخل الخليج. زادت حدة المنافسة بين عدن وهرمز . هذه المنافسة أدت الى زيادة حجم التجارة فى عدن ، وبالتالى الى زيادة المتاجر التى تصل الى عيذاب ، فقوص ، فأسواق القاهرة الكبرى وفنادقها ومنها الى الاسكندرية . هذا نجاح أول وحاسم فى معركة المنافسة .

ـ أما النجاح الثانى فظهر على شكل رد فعل لموقف دولة المغول فى ايران عندما عرقلت وصول سفارة الى مصر عن طريق هرمز والعراق فى بداية الثمانينات من القرن الثالث عشر . كان احتجاج مصر احتجاجا عمليا يدل على عقلية تعطى المسائل الاقتصادية حقها من التفكير النظرى والعملى فى وقت واحد . أصدرت مصر نوعا من جواز الامتياز التجارى أهتمت بتوزيعه على كبار تجار الجنوب والمحيط الهندى وأكدت فيه أن من يملك هذا الجواز له الحق فى الحصول على تخفيضات فى الضرائب وعلى تسهيلات عديدة فى عمليات الشحن والتفريغ . وعلى تمسك الحكومة بحماية النفس والمال ، وفوق ذلك كله أكدت أنها على استعداد لشراء كل مايصدره تجار الجنوب اليها ـ كل هذه خطوات ايجابية لاشك فى فعاليتها الايجابية .

النجاح الثالث — مصر راقبت التطور السياسى فى امبراطورية المغول الضخمة • وسرعان ما أيقنت أهمية تقسيم هذه الامبراطورية فى تدعيم مصالحها التجارية والسياسية أيضا • وباستبعاد الصين التى كان لها وضع تاريخى خاص انقسمت أو قسمت امبراطورية المغول الى دولة المغول فى وسط آسيا ودولة المغول فى ايران ودولة المغول فى روسيا بالاسلام وبدأوا فى اعتناقه ، فبادرت مصر الى تدعيم هـذا التحول الخطير وأخذت ترسل الهدايا والعلماء والخطباء الى مساجد سراى — العاصمة • كما اهتمت بدعم علاقات الصداقة ببلاط هؤلاء المغول وبمصاهرة البيت الملكى المغولى ، وبالتوسط فى المشاكل التى ظهرت بين مغول روسيا وبيزنطة ومغول ايران • هذا نجاح لا يمكن التجاوز عنه أو التقليل من أهميته • وبهذا النجاح حافظ المماليك على المصالح المصرية • وفى الوقت نفسه قاموا بتشجيع تجارة الرقيق • فجيش المماليك قام على ما كان يصل الى مصر من الرقيق الأبيض الذى يخرج على السفن الجنوية من موانى البحر الأسود ويمر بالبسفور والدردنيل ليصل الى موانى مصر على ساحل البحر المتوسط ، وأهمها الاسكندرية ودمياط • هذا هو النجاح الثالث للسياسة المصرية فى تلك الفترة الحرجة •

أما النجاح الرابع فهو انهاء حالة الحرب بين مصر ودولة المغول فى ايران أو دولة الايلخانات ، وذلك فى العشرينات من القرن الرابع عشر • ظلت الحرب سجالا بين مصر المملوكية وايران المغولية لمدة تزيد على نصف قرن بعد انتصار المماليك فى عين جالوت عام ١٢٦٠ • تبدل الموقف عندما نجح الاسلام فى تثبيت مكانته فى بلاط مغول ايران فى العشرينات من القرن الرابع عشر ، وعندما نجح تاجر مسلم كبير كان يتردد بين ايران ومصر فى تحقيق السلام بين البلدين • اسم هذا التاجر المجد السلامى الذى منحه السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعد أن توصل الى عقد معاهدة السلام منحه بعض الممتلكات والامتيازات وأهمها اعفاء تجارته من الضرائب أو من أكثرها • عقدت معاهدة الصلح

مع ايران سنة ١٣٢٣ وانتظم بعدها سير القوافل البرية بين الصين وايران والعراق وسوريا ومصر •

هذ النجاح الرابع ينقلنا الى النجاح الخامس وهو يتمثل فى مواجهة خطر وجود أرمينية الصغرى وخطر ميناء أياس على الاسكندرية فى هذه المنافسة التجارية بين الشرق والغرب • اتجه سلاطين المماليك الى اخضاع أرمينية الصغرى لنفوذ مصر لمواجهة أى احتمال لتعاون الفرنج والمغول عسكريا ، هذا الى جانب تصميمهم على القضاء على بقـايا أملاك اللاتين على ساحل الشام • وبلغ هذا النجاح ذروته عام ١٢٩١ ، عندما استولت مصر على آخر معقل صليبى : عكا ـ عكا التى عاشت تحت السيطرة الفعلية للجمهوريات التجارية لمدة تزيد على خمسين عاما قبل فتحها ، ومع ذلك لم تتمكن من اضعاف مركز الاسكندرية التجارى • خربت عكا عام ١٢٩١ أى خرب المماليك معاقلها حتى لا يفكر الفرنج فى فتحها مرة أخرى • معنى ذلك أن مصر بعد فتح عكا ، وبعد عقد الصلح بين ايران المغولية ومصر المملوكية لم تتعجل الاستيلاء على أياس بعد أن اتضح أنها لا تمثل خطرا فى حركة التبادل بين الشرق والغرب عن طريق مصر • ودليلنا على ذلك أن مصر أهملت مشروعها فى بنـاء ميناء على ساحل سوريا الشمالى لينافس أياس بعد عقد معاهدة الصلح مع ايران المغولية ــ معنى هذا كله أن الاسكندرية قد أصبحت منـذ العشرينات من القرن الرابع عشر سوق الشرق والغرب وأهم مينـاء للتبادل على طول الساحل الاسلامى من سواحل آسيا الصـغرى الى تونس •

وعندما نسمع اسم تونس فلابد لنا أن نتـذكر مـدى أهميـة سياسة مصر التجارية بالنسبة للقارة الافريقية التى أصبح ساحلها على البحر المتوسط من أهم مراكز الصراع بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، وخاصة بعد استيلاء النرمنديين على صقلية وجنوب ايطاليا فى القرن الحادى عشر ، وبعد محاولتهم القصيرة الأمد للاستقرار فى

ساحل تونس وليبيا • نذكر قيام دولة المماليك عام ١٢٥٠ • ونـــذكر جهودهم فى دفع خطر المغول عن مصر بانتصارهم فى موقعة عين جالوت

سنة ١٢٦٠ • وبهذا النصر دفعت مصر خطـــر المغول عن القارة الافريقية أيضا • وهذا نجاح خامس لسياسة مصر التجارية فى العصور الوسطى• وهو نجاح مبهر يستحق منا نظرة أو وقفة خاصة •

افريقيا أو بمعنى أدق مملكة غانة والسودان الغربى الواقع غربى تشاد وكردفان ودارفور وبحر الغزال كانت أو كان أهم مصدر للذهب فى العصور الوسطى • كان ذهب غانة يوزن بما يقابله من الملح وهو أهم سلعة رائجة فى السودان ومصادره الى الشمال من غانة والســـــودان الغربى • كان هذا الذهب ، كما كانت تجارته احتكار الملك • وكان أهــم طريق تجارى له هو طريق لمثونة ، ولمثونة من أهم قبائل البربر فى المغرب• هذا بالاضافة الى طرق القوافل المؤدية الى الجزائر وتونس • وبفضـــل تصدير هذا الذهب الى البحر المتوسط بدأ صك العملة الذهبية فى عدد من الجمهوريات الايطالية • وفى عصر السلطان الظاهر بيبرس بالذات تفاوضت احدى هذه الجمهوريات مع صاحب تونس للحصول على حـــق المرور من ساحل تونس الى تشاد أو غانة أو منابع الذهب • وافق صاحب تونس مبدئيا على عقد معاهدة تقر للغرب بهذا الحق الخطير • وما أن ترامت أخبار هذا الاتجاه الى البلاط المملوكى حتى بعث الظاهر بيبرس بسفارة الى صاحب تونس ينذره فيها بغزو بلاده اذا ما فكر جديا فى عقد مثل هذه المعاهدة مع الفرنج • وبهذا الموقف الحاسم لمصر تراجعت تونس عن اتجاهها • خلاصة هذا كله حافظت الدول الاسلامية على سياســـتها التقليدية ، ألا وهو أن حق المرور من الساحل الى داخل افريقيا حـــق اسلامى • وفى عصر المماليك أيضا بدأ انتعاش الطريق التجارى بين مصر وواحاتها واقليم تشاد ووسط السودان الى مالى — وهى امبراطورية اسلامية ظهرت فى القرن الثالث عشر لتضم معظم مناطق السودان الغربى • وكما قلت لكم بدأ انتعـــاش الطريق التجـــارى بين مصر

وامبراطورية مالى وازداد تصدير الذهب الى مصر بعد أن نضب معين الذهب فى وادى العلاقى — أول مصدر للذهب فى تاريخ مصـــر الاسلامية • كما انتقل طلبة السودان الى القاهرة طلبا للعلم وكانت لهم مدرسة مشهورة فى هذه العاصمة • وجدير بالذكر أن أكبر ملة فى تاريخ امبراطورية مالى — منساموسى — مصر فى طريقه الى مكة المكـــرمة لأداء فريضة الحج • وبلغ ما صرفه من الذهب فى القاهرة وما وزعه على الأمراء من الذهب حدا بالغا حتى انخفض سعر الدينار لوفرة الذهب فى العاصمة • سخاء منساموسى اضطره عنـــد عودته الى بلاده الى الاستدانة من ثلاثة من كبار تجار امبراطورية المماليـــك — أعنى من الكارمية • وعندما لم يرسل منساموسى دينه لأحد هؤلاء الكارمية ، سافر الكارمى بنفسه لاستعادة ماله • ومن سوء حظه أنه مات هناك فى مالى فدفن بها •

نصل الان الى نهاية النقطة الرابعة فى هـــذا البحث وهى أبعاد سياسة مصر التجارية والأسواق الجديدة • فاذا بدأنا الآن بافريقيا نجد أن مصر اتصلت بأسواق المغرب والأندلس والسودان الغربى ، فضلا عن النوبة الى ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق • وصلات مصر بالحبشـــة صلات تقليدية عريقة • وباستقرار العرب فى سواحل الحبشة والصومال ازداد حجم التبادل التجارى مع الحبشة • كما وصلت سلع مصر والشرق والغرب الى ساحل افريقيا الشرقى والى ساحل الزنج • انتظم التبادل فى المحيط الهندى وبحر الصين ، وذلك بفضل جهـــود الكارمية وسفن الجنك ونواخذة مياه الجنوب •والنواخذة جمع ناخوذاة وهو قبضان المركب وصاحبه وتاجره فى كثير من الأحيان •

المنافسة القوية اذن كانت فى حوض البحـــر المتوسط عنـــدما أتاحت امبراطورية المغول لتاجر الغرب فرصة التغلغل فى الطـــرق الآسيوية الى سواحل الهند والصين • وكان رد فعـــل مصر قويا • والنتيجة : لم تفقد مصر شيئا من تجارتها ، بل زاد حجمها حين واجهت

الغرب بحلول عملية فعالة وبسياسة قوية دافعت عنها • ثم جاءت الفرصة المواتية التى حولت مجرى الأمور فى صالح مصر : لم يكن حكم المغول فى ايران حكما طويل الأمد • ففى الثلاثينات من القرن الرابع عشر ، أو عام ١٣٣٠ بالتحديد ، بدأ انهيار سيادة المغول فى ايران انهيارا سريعا • وفى الأربعينات من القرن نفسه أو عام ١٣٤٠ بالتحديد اختل الأمن فى دولة القفجاق فى روسيا ، فاختل معه دولاب الأعمال وكيان الدولة ذاتها •وظلت مصر أقوى دولة فى المنطقة : من البحر الأسود الى المغرب ، فضلا عن مكانتها فى البحر الأحمر والمحيط الهندى • أما عدن والاسكندرية ، فقد أصبحتا من أهم موانى العالم كله • أما عيذاب فقد أخذت تعانى من قلاقل القبائل المجاورة فانتقل مركز الثقل نحو الشمال — الى القصير والطور والسويس •

وبذلك نصل الى النقطة الخامسة التى تتناول العاملين فى التجارة وتعالج نظم الدولة التى تخدم المصالح التجارية وتراقبها ، وأجهزة الدولة التى تقوم بجمع الضرائب وتأدية الخدمات الادارية فى سبيل دعم المعاملات وتوطيد وتوفير الثقة بين المتعاملين من مصريين وشرقيين وغربيين •

فلنبدأ بالتجار — تجار الكارمية هم تجار الامبراطورية المصرية فى عصر الأيوبيين والمماليك • هم طبقة فريدة فى تاريخ التجار المسلمين وفى تاريخ الامبراطوريات الاسلامية • ورغم ما يقال عن افتقارنا الى معلومات جديدة عنهم ، ورغم أننا لم نعثر حتى اليوم على شىء من كتبهم التجارية وأهمها دفاتر الحسابات والمعاملات التى عرفها تاريخ التجارة فى العالم الوسيط ، فان ما تحت أيدينا من وثائق ومعلومات يمكننا من تكوين صورة عامة وواضحة عنهم • بداية هذه المعلومات مرتبطة بحملة Renaud de Chàtillon حسب بما ورد فى رسالة صلاح الدين الأيوبى الى الخليفة العباسى فى بغداد وهو النص الذى لابد أن نذكره دائما • يقول نص الرسالة أن هدف الصليبية — ان صح لنا

أن نستعمل هذا المصطلح فى هذا المقام — ، يقول النص ان هدف de Chàtillon هو أن « يمنع الحاج عن حجه ويحول بينه وبين فجه ، ويأخذ تجار اليمن وأكارم (أو كارم) عن ويلم بسواحل الحجاز » • فحماية تجارة الجنوب الكبرى وحماية تجار اليمن وأكارم عدن من أهم مسئوليات مصر فى ذلك الوقت • صدرت هذه الرسالة عام ١١٨٣ • وقبل ذلك بعامين ، أى عام ١١٨١ قبل هؤلاء الكارمية أن يدفعوا لحكومة صلاح الدين ضرائب أربع سنوات كاملة دفعة واحدة • أن يدفع هؤلاء التجار ضرائب أربع سنوات دفعة واحدة دليل لا لبس فيه ولا غموض عن :

أولا — ادراك ووعى وتجاوب واضح بين الدولة وكبار تجارها •

ثانيا — اتساع استثمارات هؤلاء التجار الكارمية وقدرتهم المالية ، قدرة لابد أن تسترعى الانتباه •

والغموض فى النص ينحصر اذن فى نقطة واحدة هى هل جاء الدفع مقدما لسنوات قادمة أو مؤخرا أى لسنوات ماضية • وان كان من السهل أن نرجح أن الدفع كان لأربع سنوات تالية • أما الدافع فيدل على التلاحم بين مصالح الدولة وبين مصالح كبار تجارها • فليس غريبا اذن أن يقوم تقى الدين عمر ، أحد أفراد أسرة صلاح الدين ونائبه فى مصر ، ببناء فندق الكارم على شاطىء النيل فى الفسطاط • والفندق فى العصور الوسطى هو ذروة المؤسسات التجارية والمعاملات الكبرى• ابن الحاج الفقيه المشهور الذى كتب كتاب المدخل فى ثلاثة أجزاء ينصح الناس والمشترين بألا يتجهوا الى الكارمية لقضاء مطالبهم ، لأن تجار الكارمية هم تجار الجملة ، هم تجار الصفقات الضخمة ، وأهم متاجرهم هى التوابل وخامات العطور ، فضلا عن الجواهر • بعد بناء هذا الفندق فى الفسطاط تنافس السلاطين والأمراء والتجار على بناء فنادق الكارم فى أهم مراكز التجارة الضخمة والتخزين وعلى رأسها قوص

والاسكندرية • كما أسس الكارمية بيوتات تجارية فى ســوريا ، كما كان لهم أسواق مشهورة فى الحجاز • أما فى البحر فكانت عدن وتعز وزبيد من أهم قواعد امبراطوريتهم التجارية ، بينما كانت غلافقة من أشهر أسواقهم فى الجنوب وفيها أهم فنادقهم •

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر بدأت قاليقوط بفضل انوافدين عليها والذين أخذوا فى الاستقرار فيها من التجار المسلمين — بدأت قاليقوط تلعب دورا أساسيا فى دورة التجــارة العالميــة • وكان لبيوتات الكارمية مركزها المرموق فى هذا الميناء الهندى • وشق الكارمية طريقهم فى الشرق الأقصى حتى دعموا مكانتهم فى موانى الصين • بل والتقوا هناك بالتجار الايطاليين ، عندما فتح لهم المغول الطــرق الاسيوية ، كما ذكرت لكم من قبل •

ولا يجوز لنا أن ننتقل الى عرض خصائص هؤلاء الكارمية دون أن نشير الى الأزمة الداخلية التى صاحبت انتقال الحكم من أسرة الأيوبيين انى مماليكهم • صاحب هذا الانتقال ثورة عارمة للقبائل العربية التى رفضت الخضوع للمماليك وطالبت بالحكم والســيادة • وبينما كان الظاهر بيبرس يقضى على خطر منافسيه العرب أحجم هؤلاء الكارمية عن الابحار من اليمن الى عيذاب وانتظروا حتى استقر الأمن وانتصر المماليك • وعندما وصلت سفنهم وفرغت بضائعها لتحملها قوافل الجمال الى قوص لاحظ ابن واصل اهتمام الظاهر بيبرس بتجارة الكارمية وأمن قوافلهم حين سجل أنهم لم يفقدوا مقود بعير •

التجار الكارمية طائفة من البيوتات التجارية والمالية الاسلامية ، عمودها الفقرى هو الأسرة • ورب الأسرة الكارمى يدرب أبناءه وعبيده الأحرار على التجارة والاستثمار وبذلك يرث الأبناء خبرة الآباء فضلا عن صلاتهم بالعملاء التقليديين وأسواقهم التقليدية بما فيها من سلع ومعاملات •

اهتم الكارمية بتحقيق السلام وفض المنازعات بين السـلاطين والملوك وخاصة بين اليمن ومصر تأكيدا على أهمية المصالح التجارية المشتركة • اهتموا أيضا بنظـام الضرائب ، وكان لهم فى مصر ادارة ضرائب خاصة • كما اهتموا بتنظيم شئونهم الضرائبيبة عامة خارج مصر • وذلك نجد تجار الكارم فى كانتون (بالصين) مثلا يصلون الى القاهرة فى بداية القرن الرابع عشر ، حيث قدموا شكواهم من سـوء معاملة سلطات الضرائب فى عدن ، وعن التعسف فى جمع الضرائب ورفع فئاتها •وكانت مصر موفقة فى حل مثل هذه المسائل •

لم يرتفع شأن هؤلاء الكارمية فى سوق التجارة وحدها ، بل كان لهم شأن كبير فى تداول الأموال الضخمة والقروض الهائلة ، حتى أن الدولة — أعنى سلطان المماليك أو ملك اليمن من الأسرة الرسولية — كانت تستدين منهم • بل وصل الأمر الى ما هو أهم من ذلك : كانت الكارمية تحمى قوافلها فى البر والبحر بفرق دفاعية مسلحة • كما كانوا يقدمون فرق الحراسة هذه الحكومة نفسها ، للعمل على استتباب الأمن أو المشاركة فى بعض الحملات — حسب ما تقتضيه ظروف العصر • وكثيرا ما قدموا الهدايا السخية للسلاطين والأمراء • فلا غرابة اذن اذا علمنا أن رأس مالهم كان يربو على الملايين •

ولا شك أن أهم تاجر أجنبى تعـامل معه الكارمى هو التـاجر الايطالى أو تاجر مرسيليا أو برشلونة • هؤلاء التجار التقوا بالكارمى فى موانى مصر على البحر المتـوسط وفى سـوريا • وفى مقدمة التجار الأجانب ، تجار جمهورية البندقية وجمهورية جنوة • وكانت الاسكندرية أهم سوق تجارية للبندقية وجنوة فى شرق المتوسط • والفندق ، كما ذكرنا ، هو ذروة النشاط التجارى الوسـيط • وفنادق الأجانب كانت أشبه بالقلاع • وقد شاعت شهرتها حتى أن فندق الألمان فى البندقية بنى على طراز فندق البنادقة فى الاسكندرية • أهم سـوق تجارية للبندقية وجنوة ، بعد عام ١٢٠٤ أصبح للبندقية فندقان فى المدينة •

والفندق ، كما ذكرنا ، هو ذروة النشاط التجارى الوسيط • يشرف على شئون الفندق والنازلين فيه القنصل الذى يمثل مصالح دولته ومصالح تجارها فى الميناء • ويدير الفندق الفندقى (Fundiçarus) ، وله معاونوه • ويتمتع الفندق والنازلون فيه ببعض الامتيازات ، كاستعمال الموازين والمكاييل الخاصة والمخبز الخاص والكنيسة الخاصة بداخله • والتاجر الأجنبى ينزل بالفندق المخصص لبنى جلدته ، أما التاجر المسلم فله أن يختار أحد الخانات أو الفنادق الاسلامية أو بيوت أصدقائه وعارفيه •

وقد قدم لنا الرحالة بنيامين التطيلى — النصف الثانى من القرن الثانى عشر — قائمة بعدد فنادق الاسكندرية وأسماء دول نزلائها وبلدانهم تربو على ثلاثين فندقا • ومهما كان الشك فى صحة هذا الرقم الا أنه يدل دلالة واضحة على الظاهرة الجديدة — ألا وهى أن الاسكندرية قد أصبحت مدينة دولية الطابع •

ومن الطريف أن نعلم أن مصر لم تتعنت فى تحديد مدة اقامة التجار الأجانب فى موانيها حتى أن بعض هؤلاء التجار ولد وعاش واشتغل بالتجارة فى الاسكندرية ، وان ارتبط بالجمهورية الأجنبية التى يتبعها • وكان التعامل بين الكارمى والبندقى أو الجنوى أو المرشيلى أو البرشلونى سمة من سمات العصر لا تشوبها شائبة ، مادام التعامل هو دستور الطرفين ، ومادام السلام قائما بين مصر وبين دولهم • وفى حالة الحرب تتعقد الأمور وتبدأ المراقبة أو المحاصرة وأخيرا يتم الاعتقال •

— مهما يكن من شىء فقد شق التخصص طريقه فى ميدان هذه العلاقات • فتخصصت البندقية فى تجاره الفلفل بالذات ، وأصبحت الاسكندرية أكبر سوق للفلفل فى الشرق • والكارمى هو المصدر الأكبر للفلفل • وتجار البندقية هم الموزع الأول للفلفل الى غرب أوربا • كما تخصصت جنوة فى تجارة الرقيق ، فكانت مراكبها تحمل فى عصر

المماليك والى بداية القرن الخامس عشر ما يقرب من ألفى مملوك وجارية الى مصر سنويا • ومن هؤلاء المماليك صغار السن كان يتألف جيش المماليك بنظامه المعروف • وكان سلاطين المماليك يهتمون بتشجيع استيراد السلع الحربية كالحديد والخشب والقطران ، فضلا عن الأسلحة بأنواعها المختلفة • وكانت الحكومة تغرى تجار الغرب بتخفيض الضرائب على هذه السلع أو بالغائها • كما اهتمت الدولة باستيراد المعادن من السوق الأوربية ، وعلى رأسها الذهب والفضة والنحاس • ومن التجار الأجانب من أحضر هذه المعادن ليضربها نقودا اسلامية فى دار الضرائب بالمدينة ، ثم يتعامل بها •

وفئات الضرائب سواء على الصادر أو الوارد كانت كثيرة ومعقدة• ولكن النسبة العامة للضريبة تمثل حمولة سفينة من مجموع حمولة ثلاث سفن أو أربع على الأكثر — أى أن مصر ، أعنى خزانة السلطان بالذات، كانت تحصل على حوالى ٣٠٪ من قيمة السلعة •

ننتقل بعد ذلك الى النقطة السادسة والأخيرة فى هذا البحث ألا وهى اضمحلال تجارة مصر • وهذه فى الواقع نقطة حساسة وشاقة

هناك تاريخان مهمان يمكن أن نحدد بهما بداية هذا الاضمحلال : عام ١٣٦٥ وعام ١٤٠٠ •

ففى عام ١٣٦٥ نهبت الاسكندرية ، نهبتها حملة بطرس لوسنيان — الملك الشاب وصاحب جزيرة قبرس الذى عرف بنعرته الصليبية المتطرفة • لم تنس مصر هذه الحملة الغاشمة • وصمم سلاطين المماليك على الانتقام بغزو جزيرة قبرس • ولم يقلل عقد الصلح بين أطراف النزاع ، ولم تقلل افاقة ثغر الاسكندرية من هذه العثرة ، لم يقلل هذا كله من عزم مصر على غزو قبرس : فقبيل نهاية القرن الرابع عشر استعادت الاسكندرية مركزها التقليدى فى عالم التجارة والمال ، كما

استعادتهما بعد طاعون عام ١٣٤٩ الذى أصاب العالم كله وطوح بثلث سكان العالم على وجه التقريب •

الضربة الثانية التى منيت بها حدود الامبراطورية المصرية هى غارة تيمور لنك التى كادت تهلك أسواق الشام الغنية وصناعاتها المشهورة • ولكن ما خلفه لنا رحلة النصف الأول من القرن الخامس عشر ومؤرخوه / يدل أيضا على أن الشام استطاعت أن تسترد نشاطها التجارى بعد غارة تيمور لنك المحزنة •

أما المقريزى فيحدثنا عما سماه بخراب أسواق القاهرة فى مطلع القرن الخامس عشر • والباحث لا يستطيع أن يقنع أو يقتنع بهـذين التاريخين تمام الاقتناع •

ان نظرة فاحصة لخريطة الشرق الأوسط فى النصف الأول من القرن الخامس عشر قد تساعدنا على استقراء الأحداث التى بدأت تحول مجرى لتاريخ فى المنطقة • أول هذه الأحداث وأخطرها هو غيـاب الاستقرار السياسى على الحدود الشمالية للامبراطورية المصرية • بعد انتهاء غارات تيمور لنك على الشام وآسيا الصغرى • هجرات القبائل التركية ، وكثرة تحركاتها ، والتقلبات السياسية التى صاحبتها أجهدت مالية مصر واستنزفتها ، لكثرة ما أرسلته من حملات باهظة التكاليـف لحماية هذه الحدود / نشاط قراصنة جزيرة رودس والاسبتارية ، فضلا عن التركمان الذين استقروا على سواحل آسيا الصغرى واختلطوا باليونانيين واشتغلوا أيضا بأعمال القرصنة ، هددوا طرق الملاحة فى شرق البحر المتوسط ، وبدأوا بمهاجمة السفن المصرية المحملة بالغلال التى احتاجت اليهـا مصر حاجة ملحة للتخفيـف من حـدة الأزمات الاقتصادية فى بعض سنوات القحط بها • نجاح العثمانيين فى لم شملهم وجمع كلمتهم بعد هزيمة أنقرة المنكرة أمام تيمور عام ١٤٠٢ ، ثم تفوقهم العسكرى فى جنوب أوربا ، ثم قيامهم بضرب بيزنطة ضربة قاضـية

بالاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية عام ١٤٥٣ • وبذلك تحكموا فى أهم طرق التجارة بين جنوب روسيا والبحر الأسود من ناحية ، وشرق البحر المتوسط من ناحية أخرى / وعانت البندقية ، أكبر عميل لمصر ، من هذه الضربة عناء كبيرا • وفى الوقت نفسه عجزت جنوة عن تقديم العدد الكافى من الرقيق من منطقة البحر الأسود الى سلاطين مصر الذين اضطروا الى شراء مماليك كبار السن نسبيا ، فتعذر تدريبهم وساء حال لجيش ، وضعفت روحه المعنوية • والحوليات المصرية مليئة بمفاسد هؤلاء المماليك فى القرن الخامس عشر عامة والنصف الثانى منه خاصة •

أرسلت مصر حملاتها الى رودس وقبرس ورغم ما حققت هـذه الحملات من نفوذ مصرى الا أن خطر القرصنة ظل جاثما • صاحب هذه العمليات العسكرية تحول خطير فى سياسة مصر التجارية • فلم يكن من محض الصدف أن يبدأ السلطان برسباى سياسته فى احتكار تجارة التوابل لسد نفقات حملاته على رودس • نظم برسباى هذه السياسة الاحتكارية لأهم تجارة بين الشرق والغرب • وبدأ بالتخلص من كبار التجار وعلى رأسهم الكارمية ، الذين كانوا يملكون الملايين المعطلة من الدنانير • ذكر لنا ابن حجر العسقلانى أن عدد تجار الكارمية الذين يملك كل واحد منهم الملايين من العملات الذهبية ــ ذكر لنا أن عددهم يزيد على مائة تاجر أى مائة بيت كارمى • أصاب احتكار الدولة للتجارة المارة بين الشرق والغرب الكارمية فى الصميم • بدأ بعض تجار الكارمية فى هجرة الامبراطورية المصرية وتقاعس بعضهم واستسلم لمصيره المظلم • ومنهم من انتقل الى الهند والشرق الأقصى • وبدأ عملاء الكارمية من تجار الفرنج فى الاسكندرية وينكرون على السلاطين تحكمهم فى الأسواق ورفع الأسعار الى حد باهظ لا يتفق مع رواج السلع وانتظام الدورة التجارية • ومما زاد فى تعقيد الموقف ضعف الانتاج الزراعى الذى أدى الى التمسك باحتكار السلطان للتجارة بعد أن جعل جدة الميناء الوحيد للتجارة المارة فى البحر الأحمر ، وبعد أن دب الفساد

فى اليمن وزاد جشع الحكام فى جمع الضرائب فى عدن حتى اضطروا الى تجنبها •

بدأت سفن الفرنج تغادر الاسكندرية دون بيع أو شراء احتجاجا على سياسة السلطان بعد أن طالبوه باعادة حريته مع التجار الكارمية • ثم أخذت عناصر جديدة تدخل ميدان التجارة الضخمة مثل أرغونة وميناؤها برشلونة • ولما فشلت أرغونة فى اقناع السلاطين بالتخلى عن سياسة الاحتكار ، بدأت أعمال القرصنة • وبذلك استفحلت مخاطر التجارة • وزاد الطين بلة أن بدأ السلاطين فى احتكار التجارة الداخلية أو أهم فروعها ، كتجارة السكر والأقمشة • تحكم فى أسعار هذه السلع وبدأ الانتاج نفسه فى الهبوط • كما أمعن سلاطين القرن الخامس عشر عامة فى سياسة الطرح وهى فرض السلع التى يشتريها السلطان من التجار بسعر منخفض ليبيعها بسعر مرتفع للناس والتجار أيضا • نزعت الأسعار • استشرى الفساد فى ميدان التعامل النقدى عندما ضعفت القوة الشرائية للعملة بعد أن قل تداول الذهب والفضة وانتشرت العملات النحاسية وغيرها من المعادن المنحطة ، بسبب التضخم وغلاء الأسعار • وجدير بالذكر أن أزمات العملة النحاسية ــ بشتى أحجامها وضعف قيمتها ــ قد تكررت وتعددت حتى امتلأت بها حوليات النصف الثانى من القرن الخامس عشر • هذا من الناحية • ومن الناحية الأخرى كان التجار يسحبونها من الأسواق المصرية الى أسواق البحر الأحمر والمحيط الهندى • مر النقد المصرى اذن بأخطر أزماته فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، وزادت أهمية عملات الفرنج حتى وصلت الى اليمن • واتهم السلاطين البندقية وغيرها من عملاء مصر التقليديين باهمالهم الاتجار مع مصر وبعدم استحضار الذهب الذى تعودوا حمله معهم الى الاسكندرية ، دون أن يذكر هؤلاء السلاطين الأزمات التى كانت تمر بها البندقية من جراء توسع العثمانيين الذين أخذوا على عاتقهم القضاء على امبراطورية البنادقة التجارية فى شرق البحر المتوسط • هذا الى جانب الحروب التى اشتركت فيها البندقية مع

جيرانها مما أرهق ماليتها وأضعف مركزها التقليدى القوى فى حوض البحر المتوسط وعندما انتصر السلطان سليم على الدولة الصـــفوية واسماعيل الصفوى أو الصوفى فى موقعة تشالديران عام ١٥١٤ بعث الى خصمه الثانى ، السلطان الغورى ،بعث اليه برسالة يتهكم فيها ويقول أن العملة المصرية قد انحطت قيمتها الى درجة أن تجار الرقيق يرفضونها ، وبالتالى لا يصل الى مصر العدد الكافى من المماليك كيما يحتفظ جيش مصر بقوته المعهودة • وما قاله سليم فى هذه الرسالة صحيح ، ولكن تعقيبه غير صحيح • فقد كان جيش مصر قادرا على الدفاع عنها لولا الخيانة التى وقعت فى صفوفه ، ولولا تمسك المماليك بالأسلحة التقليدية بينمـــا اســـــتعمل العثمانيون الأســــــلحة النارية التى حققت النصر فى موقعة مرج دابق عام ١٥١٦ • ومن المؤسف حقا أن العثمانيين قد تمسكوا بسياسة تجارية رجعية لا تتفق أو تتناسب مع التحول العالمى الجديد بعد الاستكشافات الجغرافية • ولكن هـــذا موضوع آخر •

راجع للمؤلف فى بعض نقط هذا الموضوع :

S. Labib :

(1) Les marchands Kàrimis eu Orient et sur l'Océan Indien, in: M. Mallat (Ed.) : Sociètès et Companies de Commerce eu Qrient et dans l'Océan !ndien, Paris, 1970.

(2) Medieval Islamic Maritime Policy in the Indian Ocean Area., in : «Les Grandes Escales», I, Recueils de la Société Jean Bodin, T. 32, Bruxelles, 1974.

(3) Die mittelalterliche Islamische Politik Im Mittelmeerraum., in : «Stud n Mèmoria d Federzo Melis», vol. I, Roma, 1978.

الصراع الروسى ـ العثمانى

وأثــره

فى الوطن العربى

دكتور فؤاد المرسى خاطر

يعد بطرس الأكبر من أعظم القياصرة الروس وحين تولى بطرس (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥) عرش روسيا كان الشـــعب الروسى لا يزال فى حقيقته شعبا آسيويا وكانت روسيا شاسعة المساحة تشمل الســـهل الكبير بين البحر الأبيض الروسى فى الشمال وبحر قزوين فى الجنوب وتمتد عبر جبال أورال فى آسيا الشمالية ، وكان الروس يقيمون نوعا من السيطرة غير الحازمة على سكان سيبريا نتيجة للزحـــف الروسى تجاه الشرق • أما جهة الغرب فقد حال دون توسعهم وجود بولنـــدا والسويد ، وكانت الأخيرة تغلق بحر البلطيق فى وجه الروس • وفى نفس الوقت كانت الامبراطورية العثمانية تسيطر على جميع الأراضى المحيطة بالبحر الأسود فى الجنوب • وهذا يعنى أن روســـيا كانت محاصرة لا يكاد يوجد بينها وبين البحار العالمية المفتوحة سوى البحر الأبيض الروسى وهو يتجمد معظم شهور السنة •

وهذه الصفة البرية لروسيا تفسر تأخرها فى الاتصـــال بأوربا وحضارتها كما أن هذه العزلة الطويلة هى المسئولة عن ذلك النوع من

الحكم الذى عرفته روسيا ولم تعرفه أوروبا والذى كان مزيجا من الاتوقراطية البيزنطية والتقاليد المغولية[1] •

لقد كانت روسيا بحاجة الى طرق للمواصلات البحرية لكى تتطور بصورة طبيعية وكان بطرس الأكبر يقول « أن روسيا بحاجة الى البحر » الا أن تركيا كانت تسيطر عندئذ على البحر الأسود ، والسويد القوية كانت تسيطر على بحر البلطيق واحتل السويديون فى بداية القرن السابع عشر الأراضى الروسية فى حوض البلطيق فكان البحر قريبا ولكن الوصول اليه متعذرا[2] • وكان على بطرس الكبير أن يتغلب على هذه الصعاب وكان بين أهم أهداف السياسة الروسية فى عهد بطرس الكبير : فتح الطريق أمام روسيا الى الغرب مباشرة وذلك بتثبيت النفوذ الروسى على بحر البلطيق والبحر الأسود وهو ما سيؤدى الى بدء الصراع مع العثمانيين •

(١)

الصراع بين روسيا والدولة العثمانية حتى نهاية القرن الثامن عشر

بدأ بطرس الأكبر بوضع سياسته موضع التنفيذ فى عام ١٦٩٥ منتهزا فرصة اشتباك « ليوبولد » امبراطور النمسا ــ المجر فى حرب مع العثمانيين •

وكانت الامبراطورية العثمانية مع بداية القرن الثامن عشر تعانى من التدهور فبينما كانت الأسلحة والفنون الحربية تتطور فى أوروبا بشكل سريع نتيجة لتطور الصناعة ظل الجيش العثمانى على حاله

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، محمد أنيس (الدكتوران) : أوروبا فى العصور الحديثة جـ ١ ط ١ (الانجلو المصرية ــ القاهرة ١٩٦١) ص ٢٦٠ •

(٢) ييفانوف ، فيدوسوف : تاريخ الاتحاد السوفيتى ــ ترجمة خيرى الضامن ، نقولا طويل (دار التقدم ــ موسكو) ص ١٩٩ •

التى كان عليها خلال القـــرنين الرابع عشر والخـــامس عشر وانتقلت الامبراطورية من الانتصارات الى الانحدار ومن الهجوم الى الدفاع وبدأت تفقد بعض أجزائها[٣] • وأسرع بطرس بشن الحرب عـــلى العثمانين واحتل ميناء « آزوف » على البحر الأسود واضطرت الدولة العثمانية للاعتراف له بذلك فى معاهدة كرلوفيا (كرلوفتز) عام ١٦٩٩ • ثم تطلع لفتح منفذ لبلاده على البلطيق لأن ثغر آزوف كان قليـــل القيمة طالما الدردنيل مفتاح الطريق الى البحر المتوسط فى قبضـــة العثمانيين • وكان لا مفر من الاصطدام فى تحركه نحو البلطيــــق بدولة الســـــويد •

ودخلت روسيا فى حربين مع السويد خسرت الأولى فى عام ١٧٠٠ ولكنها انتصرت فى الثانية فى عام ١٧٠٩ فى موقعـــة « بولتـــافا » حيث فر شارل ملك السويد مع مجموعة صغيرة من قواته الى تركيا • واستقبل السلطان العثمانى (أحمد الثالث) الملك السويدى الهارب استقبالا طيبا ومنحه مكانا على نهر الدنيستر ليتخذه مقرا لاقامتـــه واستمر فيه خمس سنوات صرف همه فيها فى تحريض الســـلطان على اعلان الحرب على الروس حتى يشغلهم ويعود هو الى الســـويد ليسترد نفوذه ويستأنف الحرب ضد روسيا •• وسر شارل عندما نشبت الحرب بين روسيا ــ وتركيا عام ١٧١١ وقد حاول الروس نقل الحرب الى الأراضى العثمانيـــة فوقع الجيش الروسى فى حصار كاد ينتهى بتسليمه لولا القائد التركى الذى يسر له امكانية الافلات مقـــــابل استرداد « آزوف » ورشوة كبيرة تقاضاها لنفسه • وتم توقيع اتفاقية بين روسيا وتركيا فى يوليو (تموز) عام ١٧١١ أملت فيها تركيـــا شروطها على روسيا بواسطة الممثل التركى عنــــد نهر « بروت » Pruth وقد وضعت هذه الاتفاقية أساس السلام الذى وقع فى

---

(٣) لوتسكى : تاريخ الأقطار العربية الحديث (ترجمة دار التقـــدم موسكو ١٩٧١) ص ٣٢ .

« أدرنة » فى ٢٢ يوليو (تموز) ١٧١٣ وعادت آزوف لتركيا وتم هدم القلاع التى بنيت قرب نهر سامرا Samara وسلمت مواقعها وذخائرها للاتراك[٤] .

وحققت بذلك تركيا نصرا واضحا على الروس . ولما فشل شارل فى حرب السويد مع النرويج عام ١٧١٨ تنازلت السويد عن الأراضى التى كانت تطالب بها الدول المجاورة ، وفازت روسيا منها بنصيب الأسد فى معاهدة نيستاد Nystad فى عام ١٧٢١ حيث حصلت على « انجمرلاند » وكاريلينا واستونيا ولتوانيا وعموما على كل الممتلكات السويدية على ساحل البلطيق الشرقى باستثناء فنلندا . وهذا يعنى أن روسيا ستتمكن من القنوع أكثر للتحرك ضد العثمانيين. واستمر بطرس حتى آخر أيامه يؤكد على سير روسيا فى تيار الحضارة الأوربية . وعملت كاترين الثانية على مواصلة خطة بطرس الكبير لمد حدود روسيا ناحية الغرب فى أوروبا ولكن كاترين واجهت فى سبيل تحقيق أهدافها كلا من بولندا والامبراطورية العثمانية وان كانتا لم تشكلا عائقا كبيرا : فبولندا كانت تعانى من فوضى داخلية والامبراطورية العثمانية كانت تجتاز بداية الانهيار .. وفيما يخص بولندا فانه بعد مفاوضات طويلة بين برلين وبطرسبرج وفيينا وقعت معاهدة عام ١٧٧٢ لتقسيم الأراضى البولندية وهو التقسيم الأول لبولندا نالت بموجبه روسيا الأراضى التى تقع شرق نهر الرون والدنيبر الأعلى وهى منطقة روسيا البيضاء .

كان نجاح كاترين الثانية فى بولندا قد شجعها على مضاعفة جهودها

---

(4) Hurewitz, J. C, Diplomaey in the Near and Middle East Vol. I (New York 1972) p. 39.

ولمزيد من التفاصيل عن مخططات بطرس الكبير ضد الدولة العثمانية والصراع بين الدولتين فى عهده . انظر :

Sumner, B. H, Peter The Great and the Ottoman Empire. pp. 21 — 23, p.i 27.

ضد الاتراك ففى حربين الأولى من ١٧٦٨—١٧٧٤ ، والثانية من ١٧٨٧— ١٧٩٢ نجحت كاترين فى تحطيم الستار الذى كانت الدولة العثمانية تتصبه حول البحر الأسود فقد ترتب على الحرب الأولى بسط النفوذ الروسى على طول بحر آزوف وفى شبه جزيرة القرم(٥) • وبدأت روسيا تمد نشاطها الى الوطن العربى •

وتجدر الاشارة هنا الى أن الجزائر تعاونت مع الدولة العثمانية فى الحرب الأولى فقدمت لها معونات بحرية ذات شأن كبير واشتبك الاسطول الجزائرى — وكان قويا — مع الاسطول الروسى الذى دخل البحر الأبيض المتوسط رغم تهديد البريطانيين بضرب الجزائر •

ومن ناحية أخرى فان روسيا بدأت فى هذه الفترة تستغل الحركات التى ظهرت ضد الدولة العثمانية فى الشرق العربى فعندما خرج الشيخ ظاهر العمر حاكم عكا على الدولة وتحالف مع على بك الكبير الذى انفرد بحكم مصر عام ١٧٦٩ وقرر قطع علاقاته مع الدولة عام ١٧٧٠ استغلت روسيا خروج الرجلين على الدولة خاصة وان على بك الكبير أراد أن ينال مساعدة روسيا ، وكان الاسطول الروسى مرابطا وقتذاك فى الارخبيل تحت قيادة « الكونت أورلوف » وعندما تم تدمير الاسطول التركى فى موقعة « جشمة » الشهيرة فى ٢٥ ، ٢٦ يوليو (حزيران) عام ١٧٧٠ أحكم الروس سيطرتهم على البحر واستولوا على بعض جزر الارخبيل مساندين بذلك المتمردين اليونانيين بشكل فعال • وفى عام ١٧٧١ وصل مبعوثون خاصون من جانب على بك الكبير الى مقر قيادة « أورلوف » فى جزيرة « باروس » حيث تم الاتفاق بين الجانبين على العمل المشترك ضد العثمانيين •

وقد أفاحت خطة على بك فى بادىء الأمر • اذ شرع المصريون بمساندة قوات الشيخ ظاهر العمر بشن حملة كبيرة على سوريا عام

---

(٥) شكرى ، أنيس : المرجع السابق ص ٢٧٠ .

١٧٧١ ، واستولوا على دمشق وصيدا وحاصروا يافا • لكن خيانة أبى الذهب لعلى بك أدت الى فشله وهروبه الى عكا • وانضم يوسف الشهابى ، أمير لبنان الى جانب الاتراك ، فحاصروا صيدا معا • وفى ذات الوقت قدم الى سواحل الشام وفقا لطلب الحلفاء ، الاسطول الروسى واستولى على بيروت فى مايو (آيار) ١٧٧٢ • ولكن الروس غادروا سواحل الشام بعد عقد هدنة مع الاتراك فى خريف نفس العام وعادت الشام للاتراك من جديد لكن الروس رغم الهدنة لم يتوقفوا عن تقديم العون لعلى بك الذى أراد أن يضرب المتمردين عليه من المماليك فأرسل الكونت أورلوف • وفدا برئاسة الملازم بليشبييف ، الى على بك • قدم له كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر • وشرع على بك فى عام ١٧٧٣ بمحاربة المتمردين ، معتمدا على جيشه الذى أعاد تنظيمه ومع ذلك فقد حلت به الهزيمة فى معركة قرب الصالحية شرقى الدلتا بمصر وأصيب على بك بجرح خطير وأخذ أسيرا الى القاهرة حيث توفى بعد قليل • فأصبح الشيخ ظاهر العمر فى وضع حرج •

غير أن الهدنة الروسية ــ التركية التى انتهت فى يونيو (حزيران) عام ١٧٧٣ جعلت روسيا ترسل الى سواحل الشام قسطا من اسطولها مرة أخرى بقيادة « كوجوخوف » وقطع يوسف الشهابى علاقاته بالاتراك وعقد تحالف مع الروس والشيخ ظاهر العمر • وبعد حصار استمر ثلاثة أشهر استولى الروس على بيروت مرة أخرى •

وفى أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٧٧٣ قدم يوسف الشهابى طلبا الى الامبراطورة الروسية لتجعله تابعا لروسيا وأن تضع لبنان تحت الحماية الروسية • ولكن كاترين الثانية رفضت هذا الطلب بعد أن تم توقيع اتفاقية صلح « كوتشك قينارجة » بين الروس والاتراك فى عام ١٧٧٤ ، وغادر الاسطول الروسى سواحل الشام • وترك ظاهر العمر يواجه مصيره حيث وجه الاتراك قواتهم ضده وانتهى الأمر

بمقتله والاستيلاء على عكا التى أصبحت مقرا لاحمد الجزار[٦] •

وواضح أن روسيا كانت تساند الخارجين على الدولة العثمانية لتحقيق مصالحها وللضغط على الدولة وعندما وقعت اتفاقية مع الدولة نالت بها كثيرا من المكاسب تخلت عن الذين كانت تساندهم دون تردد • فبمقتضى هذه الاتفاقية استحوذ الروس على الاجزاء الشمالية الشرقية من البحر الأسود ، كما أعلنت استقلال خانات القـــرم عن الدولة العثمانية ، واكتسبت روسيا بمقتضى المعاهدة حقوقا تجارية وبحرية وأصبح من حقها انشاء قنصليات فى ممتلكات الدولة وأصبح لرعاياها حق التجارة فى أملاك هذه الدولة ، كما فتحت لسفنها حرية المـلاحة فى أوقات السلم فى البحر الأسود وعبر المضايق التركية ، وأعطيت روسيا حق اقامة كنيسة ارثوذكسية فى استانبول على رأسها أساقفة روس ، وأصبح من حق رعايا روسيا الحج الى الأراضى المقدسـة المسيحية — ومن الناحية السياسية كان لروسيا حق حماية المسيحيين فى ولاشيا ومولدافيا[٧] •

وهذا يعنى أن الدولة العثمانية قد فقدت انفرادها بالسيطرة فى البحر الاسود ومهدت الاتفاقية الطريق لضم روسيا لخانات التتر ، كما أصبح فى امكان الروس التدخل فى شئون الدولة العثمانية الداخلية بحجة حماية المسيحيين الارثوذكس •

ومنذ توقيع اتفاقية كوتشيك قينارجة تحددت الخطوط التى أضحى بامكان روسيا بواسطتها الزحف على الدولة العثمانية وهى : رابطـة الشعوب السلافية وعلى رأسها روسيا للعمل على اثارة المتاعب للدولة

---

(٦) لوتسكى : المرجع السابق ص ٣٨—٣٩ •

(٧) انظر النص فى : Hurewitz, op. cit., pp. 54 — 61.

(٨) محمد أنيس ، رجب حراز (الدكتوران) : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر (دار النهضة المصرية — القاهرة ١٩٦٧) ص ٧٤—٧٥ •

فى البلقان العثمانية ، وجنوب شرقى أوروبا ، والارثوذكسية التى تدعى روسيا لنفسها حق حمايتها ورعايتها ،وأخيرا العدوان المسلح وسلخ ممتلكات الدولة[٨] ٠

وظهرت أصابع روسيا من جديد ضد الدولة فى مصر بعد أن استأثر مراد بك وابراهيم بك بالسلطة فيها فقد ترامت الانباء الى الدولة العثمانية بأن هذين الاميرين يجدان تشجيعا من روسيا فى سياستهما تمهيدا لفصل مصر عن الدولة العثمانية ٠ وكانت روسيا قد ندمت لأنها لم تستغل الفرصة التى أتيحت لها على عهد على بك الكبير ٠

وقد زاد اهتمام روسيا بمصر بعد وفاة على بك الكبير وعينته قنصلا لها فى الاسكندرية وعهدت اليه بعرض المساعدات العسكرية على ابراهيم بك ومراد بك وأن يوضح لهما أن روسيا على استعداد لتأييد مصر فى أى حركة استقلالية عن الدولة ٠ ولكن يبدو أن الاضطراب الداخلى فى مصر فى تلك الحقبة لم يساعد على الدخول فى تفاصيل سياسية من هذا القبيل مع روسيا ٠ ولكن ابراهيم بك استقدم عددا وافرا من المماليك من روسيا[٩] ٠ أما ما ترتب على الحرب الروسية التركية الثانية (١٧٨٧ — ١٧٩٢) فهو امتداد نفوذ روسيا غربا على طول البحر الأسود حتى نهاية « الدنيستر » وكنات كاترين الثانية تحلم بالاستيلاء على (القسطنطينية) نفسها ٠ وحين ماتت كاترين الثانية كانت روسيا قد اندمجت فى النظام الدولى الاوروبى وأصبحت احدى الدول الكبرى فيه ٠

---

(٩) عبد العزيز الشناوى (الدكتور) عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية (اعلام العرب العدد ٦٧ — دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٦٧) ص ١٨ ٠

(٢)

تصاعد الصراع الروسى العثمانى فى القرن التاسع عشر

اتخذت المسألة الشرقية فى أواخر القرن الثامن عشر شكلها الحديث وحكمتها عوامل ثلاثة هى : ضعف الدولة العثمانية المتزايد وظهور عدد من القوميات الصغيرة فى البلقان وأثر هذان العاملان على سياسة الدول الكبرى — فقد تعرضت الدولة العثمانية فى السنوات ما بين ١٧٨٨ ، ١٧٩١ لهجوم روسى — نمسوى مشترك ، وتقدمت روسيا — التى ما برحت تؤكد أنها حامية للمسيحيين الارثوذكس فى الامبراطورية — حتى وصلت ميناء « أوجزاكوف Ogzakov » على البحر الاسود ٠

وهكذا بدأت روسيا مع مطلع القرن التاسع عشر تتسلل الى جنوب البحر الأسود وكانت تتطلع على الدوام الى القسطنطينية باعتبارها الهدف النهائى ٠ وكانت المتاعب تنشأ غالبا بقيام محاولات من جانب قوميات البلقان الصغيرة لتؤكد استقلالها عن تركيا ، فلا تلبث الدول الكبرى أن تتدخل على أثرها لتحسين أوضاع هذه القوميات وتنظيمها ٠ وكانت روسيا بين هذه الدول بشكل خاص تسعى الى التعجيل بانهيار الدولة العثمانية — وقد أسفر الموقف فى القرن التاسع عشر عن ثورات متعددة من جانب الرعايا الاتراك فى البلقان ضد السلطان وثلاث حروب روسية تركية ٠

وبدأت الثورة تندلع فى البلقان من الصربيين ، اذ بدأت ثورتهم فى عام ١٨٠٤ بزعامة قرة (الاسود) جورج بعد ثمانية أعوام من الثورة تمكن قرة جورج من تدعيم مركزه فحصل فى المعاهدة الروسية التركية عام ١٨١٣ على وعد بالاستقلال الذاتى لبلاده ٠ على أنه لم يلبث أن هزم فى عام ١٨١٣ وفر من البلاد ٠ وفى عام ١٨١٥ أشعل « ميلوس

أوبرينوفيتشى » ثورة أخرى تنجح فى تأكيد استقلال الصرب الفعلى (de Faeto) وتمكن بعد جهد ووقت من الحصول على دستور والاعتراف به أميرا للصرب[١٠] • وساعدت روسيا الثورة فى اليونان ضد الدولة العثمانية فى عشرينات القرن التاسع عشر وكان اليونانيون قد كونوا عام ١٨١٤ منظمة سرية اسمها « فيليكى هيتريا » أى اتحاد الاصدقاء وكان مركزها فى « أوديسا » ويرأسها ضابط كبير فى الخدمة الروسية هو « اسكندر ايبسيلانتى » • وفى ٦ مارس (آذار) ١٨٤١ عبـر ايبسلانتى على رأس مفرزة يونانية صغيرة كونت على الأراضى الروسية — نهربروت ودخل الأراضى الخاضعة للسلطان العثمانى من ولايات الدانوب • وكان يأمل فى اثارة السكان ضد السلطان لكنه هزم • ورغم ذلك فان حملته كانت اشارة البدء لانتفاضة اليونانيين التى انتهت بهزيمة جيش الانكشارية وأجلته عن المورة نهاية عام ١٨٢١ •

وقد جرت مصر الى هذه الأحداث وتمثل ذلك فى استنجاد السلطان العثمانى محمود الثانى بمحمد على بعد أن ولاه المورة واستجاب محمد على وأرسل جيشا الى المورة بقيادة ابراهيم باشا حيث تمـكن من الاستيلاء على اثينا فى الخامس من يونيو (حزيران) عام ١٨٢٧ •

وهنا أسرعت الدول الأوروبية للتدخل وكانت روسيا فى المقـدمة وكانت سياستها قد تغيرت منذ عام ١٨٢٥ بتسلم « نيقـولان الأول » العرش ومالت الى مساندة أكثر فعالية لليونانيين • وترتب على هـذا أن سارعت بريطانيا — لعدم رغبتها فى انفراد روسيا بالتدخل — الى الاتفاق مع روسيا على القيام بعمل مشترك فى اليونان •

---

(10) Grant. A. J, Temperly, H : Europe in the Nineteenth and Twentieth Centuries (London 1944) pp. 257 — 258.

وفى ٤ ابريل (نيسان) ١٨٢٦ وقــع نسلرودة وولنجتــون فى بطرسبورج البروتوكول البريطانى الروسى بشأن التدخل فى الشئون اليونانية وقررت فيه الدولتان أن تحصل اليونان على الاســـتقلال الذاتى وتبقى شكليا فى نطاق الدولة العثمانية • وكان فى نية الدولتين فى الواقع بسط حمايتهما الخاصة عليها •

ورفض السلطان العثمانى جميع المطالب الانجلو ــ روسية وكان النفوذ الروسى فى اطراد مستمر فى اليونان فقد انتخب « كابوديستريا رئيسا لليونان ، وهو وزير الخارجية الروسى السابق ، ولتفادى تثبيت المركز الروسى المتفوق فى اليونان طرحت بريطانيا مجددا مسألة عمل دولى مشترك •

وفى السادس من يوليو (تموز) ١٨٢٧ ، بعد شهر من الاستيلاء المصرى على اثينا ، وقعت فى لندن معاهدة وسعت بروتوكول بطرسبرج لعام ١٨٢٦ بانضمام فرنسا للدولتين حيث قررت الدول الثلاث الحصول على فصل اليونان المدنى عن تركيا • ورفض الباب العالى مرة أخرى فأقدمت الدول الثلاث على التدخل وفى ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول) دخل اسطولها الموحد خليج « نفــارين » حيث كانت ترابط القــوات الأساسية للاسطولين التركى والمصرى • وبدأت المعركة التى انتهت بابادة الاسطولين المصرى والتركى ووجد ابراهيم نفسه فى وضــع لا يحسد عليه اذ صار منقطعا عن قاعدته الأساسية كما أن تدخل الدول بعث قوة جديدة فى الانتفاضة اليونانية •

وفتحت « نفارين » باب حرب روسية ــ تركية كبيرة بدأت فى ربيع عام ١٨٢٨ لكن محمد على لم يسهم فيها واضطر الى الجلاء عن المورة وفى أغسطس (آب) ١٨٢٨ وقع محمد على فى الاســكندرية اتفاقية جلاء القوات المصرية عن المورة وبدأ الجلاء فعلا فى سبتمبر (ايلول) من نفس العام •

وهكذا انتهت هذه الحرب بتكبيد مصر خسائر كبيرة (٣٠ ألف جندى) بالاضافة الى حرمانها من اسطولها[١١] •

أما الحرب الروسية ــ التركية فقد انتهت بهزيمة الأخيرة فقد تقدم الروس فى آسيا حتى ارضروم وفى أوروبا حتى اندرينويل وهدد هذا العاصمة العثمانية ذاتها غير أن الروس لم يقدموا على مهاجمتها أمام هياج الرأى العام فى أوروبا ومعارضة بريطانيا واضطر القيصر الروسى أن يذهب الى برلين بنفسه ليحصل على الوساطة البروسية[١٢] • وانتهى الأمر بتوقيع صلح ادرنه وبموجب شروط صلح ادرنة الموقع فى ١٤ سبتمبر (ايلول) ١٨٢٩ ، منحت اليونان الاستقلال الذاتى •

ومن الغريب أن روسيا خرجت من التجربة بنتيجة مغايرة تماما بالنسبة لتركيا اذ تحولت سياسة روسيا بعد عام ١٨٢٩ ولمدة عشر سنوات على الأقل الى النقيض التام من سياستها التقليدية الرامية الى مواصلة الزحف حتى القسطنطينية وضم كل ما تستطيع ضمه من الأراضى فى الطريق • •وقصة ذلك أن القيصر نيقولا عين فى ١٨٢٩ لجنة من كبار سياسييه لبحث أمر نتائج انحلال الامبراطورية العثمانية المتوقع فأفتت اللجنة بأن المحافظة على سلامة تركيا أمر مستحب اذ رأت أن دولا بلقانية صغيرة ستنشأ اذا استمر انحلال تركيا ولن تتمكن روسيا من السيطرة على هذه الدول ، فى حين أن لها فى تركيا بوضعها القائم اذ ذاك حقوقا تكفلها المعاهدات وتستطيع روسيا اذا شاءت السعى لكسب المزيد من الأراضى أن تتجه صوب أرمينيا أو بغداد لا القسطنطينية وما لبث نيقولا أن قبل تقرير اللجنة[١٣] •

---

(١١) لوتسكى : المرجع السابق ص ١٢١ •

(١٢) جوزف حجار (الدكتور) : اوروبا ومصير الشرق ، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٦) ص ٣٧ــ٣٨ •

(13) Grant, Temperely. op. cit., p. 260.

ومما تجدر الاشارة اليه أن هذه الحرب قد شلت يد الدولة فلم تقدم أى مساعدة للجزائر عندما غزتها فرنسا فى العام التالى • كما أن روسيا ساندت مشاريع البوربون للأستيلاء على الجزائر عام ١٨٣٠ •

التحالف الروسى التركى ضد محمد على :

أضعفت الهزيمة التى ألحقتها روسيا بتركيا الجيش التركى كثيرا وأدت الغرامة الحربية التى فرضت على تركيا الى ازدياد التذمر فى ولاياتها فبدأت انتفاضات فى بعض الولايات فى محاولة للخروج على الدولة مثال ذلك ماحدث فى العــراق على يد داود باشا وان كانت الدولة قد أخمدت حركته •

أما محمد على فقد شجعه ضعف الباب العالى على التقدم نحــو الشام واستقبلت جيوش محمد على فى الشــام استقبال المنقــذين المحررين من النير السلطانى • وبعد الانتصارات التى حققتها القوات المصرية فى الشام دخلت الأناضول وبينما كان الجيش المصرى يتقدم فى الأناضول ويستعد للمعركة الحاسمة ، قررت روسيا وبروسيا وتبعتهما النمسا سحب قناصلها فى مصر • وجاء استدعاء القنصل الروسى ليؤكد لمحمد على مخاوفه من روسيا • ولكن محمد على وان كان قد توقــع معارضة من جانب روسيا « تقلب حساباته كلها وتجبره على التوقف » فانه كان يعتمد على انقسام الحكومات الأوروبية وعلى انتصار نهائى يحرزه فى البر أو البحر • وقد عبر محمد على عن ذلك فى حفــــل الوداع التى أقامها القنصل الروسى عندما استدعته حكومته محــاولا اقناعه بضرورة قطع المساعدة عن السلطان وان من صالح روسيا مساندة العرب ضد الاتراك فالباب العالى مدين لروسيا وهو بحاجة للامــوال لدفع تعويضات الحرب لها وهو ، أى محمد على ، اذ يطالب بسورية أو من الباب العالى فسيقدم له تعويضات تساعده على تسديد ديونه لروسيا

وحاول طمأنة الروس بالتأكيد بنفس أطماعه فى عرش السلطان حتى يزيل مخاوف روسيا من الخطر المصرى على القسطنطينية[١٤] •

ولكن محاولات محمد على لم تقنع روسيا بالتراجع عن مساندة السلطان العثمانى واستمرت القوات المصرية فى زحفها فاستولت على « اطنة » وفى ٢١ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٣٢ وقعت معركة كبرى بالقرب من « قونية » أوقع ابراهيم باشا هزيمة منكرة بالاتراك وسرعان ما دخلت طلائع قواته « بروسا » وأصبح الطريق الى استانبول مفتوحا أمام الجيش المصرى وعندما استنجد السلطان محمود الثانى بالدول الكبرى سارعت روسيا للوقوف بجانبه والتزمت فرنسا جانب محمد على• أما بريطانيا فقد أقلقها كثيرا تعزيز النفوذ الروسى فى الدولة العثمانية وتخوفت من وقوع الامبراطورية فى يد نفوذين فيقع شطرها الشمالى تحت النفوذ الروسى ويخضع الجنوبى لمحمد على ويتحول الى منطقة نفوذ فرنسية •

والحق ان انتصارات محمد على قد أقلقت الروس وهو ماوضحه وزير خارجيتهم من ذلك الحين « الكونت نسلرودة » حين قال أن الهدف من التدخل الروسى هو : (انقاذ القسطنطينية من امكانية وقـــوع انقلاب يضر بمصالحنا ويؤدى الى ســقوط دولة ضعيفة ـ الا أنها صديقة والى استبدالها بدولة أقوى وهى تحت نفوذ فرنسا ، موردا لآلاف المصاعب بالنسبة لنا) •

ولهذا تحركت روسيا للدفاع عن الامبراطورية العثمانية وســيادة السلطان وعند وقوع كارثة « قونية » وصلت الى اسطنبول بعثة روسية واذا بالسلطان يتجه ساعة يأسه الى عدوه التقليدى طالبا العــون •• وتوجه « الجنرال مورافييف » بمهمة خاصة الى سواحل البوســفور

---

(١٤) جوزف حجار : المرجع السابق ص ٦٤ــ٦٥ •

ثم الى مصر حيث وصل الاسكندرية فى ١٣ يناير (كانون الثانى) ١٨٣٣ وقدم نيابة عن القيصر الروسى عددا من المطالب لمحمد على منها أن يوقف فورا العمليات العسكرية وأن يعد بالخضوع للسلطان خضوعه لسيده • وكان مورافييف يتصرف بحزم وعندما سأل محمد على محدثه عن رغبة « صديقه القيصر » فى سبيل وضع حد للنزاع أجاب الجنرال الروسى : (ليس القيصر صديقك مطلقا بل صديق السلطان وهو يريد أن يبقى كذلك) وفى تلك الاثناء كان ابراهيم باشا يواصل تقدمه نحو استانبول دون أن ينتظر نتائج التدخل الروسى فتوجه من سهل قونية الى بروسيا وهى الهدف المباشر لهذا الزحف • ولكن أوامر محمد على القاطعة بلغته فى ٢ فبراير (شباط) فى كتاهية ، وكانت تقضى بأن يتوقف عن الزحف فى اللحظة التى تصله فيها ، تنفيذا للوعد الذى قطعه محمد على للجنرال الروسى • فانصاع ابراهيم باشا لهذا الأمر الجازم وتوقف زحف الجيش المصرى فى كوتاهية[١٥] •

وساد الذعر الدوائر التركية فطلب محمود الثانى رسميا المعونة العسكرية من روسيا فرسا فى ٢٠ فبراير اسطول روسى أمام شواطىء استانبول — وكانت هى المرة الوحيدة التى ظهر فيها هناك مثل هذا الاسطول برضا تركيا • وشرع فى مارس (آذار) فى انزال الفليق العسكرى الروسى المكون من ٢٠ ألف محارب ورابط مقر أركان حربه فى « هنكار اسكلسى » على الشاطىء الاسيوى من البوسفور قرب قصر السلطان الصيفى وارسل فى الوقت ذاته من جهة الدانوب فيلق روسى آخر مهمته الوصول الى العاصمة التركية بطريق البر •

وافزع التدخل الروسى بريطانيا وفرنسا فأسرعتا للعمل على احلال الصلح بين محمد على والسلطان حتى تبطلا أى حجة تتذرع بها روسيا للاستمرار فى البوسفور فقامت الدولتان بمظاهرة بحرية مشتركة

---

(١٥) نفس المرجع ص ٦٩ .

عند سواحل مصر فضغطتا فى الوقت نفسه على السلطان لينزل محمد على الشام • ومن ثم تم توقيع صلح كوتاهية فى الرابع من مايو (آيار) ١٨٣٣ بين تركيا ومصر (١٦) •

وهذا يوضح أن التدخل الروسى كان عاملاً رئيسيا فى تحرك بريطانيا وفرنسا ضد محمد على كما انه انقذ السلطان العثمانى ومكنه من الاحتفاظ بعرشه وامبراطوريته بعد أن فرضت المعاهدة على محمد على الانسحاب من الأناضول والاعتراف باستمرار سيادة السلطان عليه وبالفعل انسحب ابراهيم باشا الى الشام وبدأ وكأن قد انتهت •

وكذالك شرعت روسيا فى سحب قواتها ولكنها كانت قد وقعت مع السلطان معاهدة « هنكار اسكلسى » فى ٨ يوليو (تموز) ١٨٣٣ وكانت بمثابة حلف دفاعى بين الدولتين فى واقع الأمر ولمدة ثمانى سنوات تعهدت فيها روسيا بارسال قواتها لمساعدة السلطان « اذا اقتضت الضرورة ذلك » بينما كان على تركيا وفقا لطلب روسيا : قفل الدردنيل فى وجه السفن الحربية الأجنبية • وفى بند سرى يسمح للسفن الروسية الحربية بعبور المضايق •

ووسعت روسيا نطاق التحالف ضد محمد على ففى ١٨ سبتمبر (ايلول) ١٨٣٣ عقدت اتفاقية « مودخن جراتز » (١٧) ــ كملحق لمعاهدة هنكار اسكلسى ــ مع النمسا وسرعان ما انضمت بروسيا اليها • وقضت الاتفاقية بما يلى : « ١ ••• اسناد كيان الامبراطورية العثمانية تحت حكم الأسرة الحالية ، وتكريس كل الوسائل العملية لبلوغ هذا الهدف • ٢ ــ ••• المناهضة الجماعية المشتركة لأية خطة من شأنها الحاق ضرر

---

(١٦) لوتسكى : المرجع السابق ص ١٢٩ •

(١٧) نص الاتفاقية فى : Hurewitz op. cit., p. 105.

بحقوق السلطة العليا فى تركيا سواء عن طريق تنظيم وصاية العرش المؤقت أم بواسطة التغيير التام للسلالة الحاكمة » .

وجاء فى المادة السرية الأولى « ... تطبق بصورة خاصة على باشا مصر قرارات أحكام المادة الثانية .. للحيلولة دون بسط نفوذه بصورة مباشرة أو غير مباشرة على الاقاليم الأوروبية من الامبراطورية العثمانية »[18] .

ومع أن بريطانيا وفرنسا نجحتا فى شل النتائج الفعلية لمعاهدة هنكار اسكلسى وملحقها فان الاتفاقيتين عقدتا بصورة خطيرة تحقيق أهداف محمد على وحرمتاه عن جنى ثمار انتصاره فى الحملة السورية الأولى .. وكانت قد تكونت نتيجتها فى اطار الامبراطورية العثمانية الموجودة شكليا دولتان . اذ وقعت فى قبضة ممحد على مصر والسودان والشام وكيليكيا وكريت والجزيرة العربية وبقى فى قبضة الدولة العراق والأناضول وبعض مناطق البلقان . وواضح أن الأولى أكثر اتساعا وسكانا وثراء من الثانية وكان هذا الوضع محفوظا بالمخاطر ومنذرا بالانفجار[19] كما كان محمد على يتطلع نحو العراق .. ومعلوم أنه حين تحركت الجيوش المصرية الى الشام وكان العراق قد أعيد الى الحكم العثمانى المباشر ، أعلنت العناصر الوطنية الكارهة للحكم العثمانى المركزى فى العراق — أعلنت ولاءها لمصر ، فقد أعلنت الثورة ضد على رضا الوالى العثمانى الجديد فى بغداد عام ١٨٣٢ ، كما انضم يحيى الجيلى والى الموصل الى جانب مصر ، كذلك صفوف الفارس شيخ عشائر شعر الجبريا وبدأ كأن المشرق العربى بأسره بالاضافة الى الأناضول التركى سيصبح دولة كبرى فى المنطقة[20] واتخذت الدول الأوروبية

---

(18) Ibid, p. 106.

(١٩) لوتسكى : المرجع السابق ١٣٤ .

(٢٠) عبد العزيز سليمان نوار (الدكتور) **المصالح البريطانية فى انهار العراق** ١٦٠٠ — ١٩١٤ (الانجلو المصرية — القاهرة ١٩٦٨) ص ١٦ .

وخاصة بريطانيا موقفا معاديا من محمد على وساعد ذلك تركيا على الاستعداد لاستئناف الحرب وبدأتها بعبور القوات التركية الفرات فى ٢١ ابريل (نيسان) ١٨٣٩ وتغلغلت فى ممتلكات محمد على ومع ذلك لم تحقق غير الفشل حيث دمرها الجيش المصرى بقيادة ابراهيم باشا فى موقعة « نصيبين » فى ٢٤ يونيو (حزيران) وفتح الطريق أمام جيشه للعاصمة التركية واشتد تخوف روسيا من هذه المعركة — من خطر هجوم صاعق يقوم به الجيش المصرى أو الاسطول المحتشد فى الاسكندرية على العاصمة التركية خاصة وأن نتيجة المجابهة الروسية المصرية فى الأناضول اذا حدثت لن تكون فى صالح الروس ولجأت روسيا الى انذار محمد على معلنة (ان بوسعها أن تقضى على مشاريعه لخلع السلطان)[٢١] •

وفى ٣٠ من نفس الشهر توفى محمود الثانى وأعلن الاسطول التركى بقيادة فوزى باشا انضمامه الى ممحد على • وفقدت تركيا سلطانها وجيشها واسطولها فى أقل من شهر ولكن محمد على أمر ابراهيم باشا بعدم عبور جبال طوروس حتى لا يحدث تدخل روسى جديد • وكان محمد على مستعدا لتفاهم مع الباب العالى على أن يعترف له ولسلالته بحكم مصر وممتلكاتها وكان الباب العالى من ناحيته مستعدا — بعد هزيمته الساحقة لقبول أى شرط يقدمه ابراهيم •

غير أن الدول الموقعة على معاهدة « مودخن جراتز » وروسيا فى مقدمتها طلبت الى الدولة العثمانية فى ٢٧ يونيو (حزيران) « عدم اتخاذ قرار نهائى بدون مساعدة الدول لها ، وأن ترقب نتائج التعاون المشترك الذى اتخذ من قبلهم من أجل مصيرها » وقدمت مذكرة للباب العالى موقعا عليها من الدول الأربع التى كونت الكتلة المعادية لمصر (انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا) وكذلك فرنسا التى رأت المساهمة

---

(٢١) لوتسكى : المرجع السابق ص ١٤٥ •

فى النشاط الجماعى للدول حتى تتفادى عزل نفسها وتحمى مصالحها فى مصر والشام[٢٢] •

وأبرمت معاهدة لندن فى ١٥ يوليو (تموز) ١٨٤٠ بين انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا • وكانت أول وثائق التسوية التى وضعت للمسألة المصرية وكان جوهر الحل الذى تضمنته هذه المعاهدة اعطاء محمد على وأسرته الحكم الوراثى فى مصر ولكن بشرط أن تبقى مصر ولاية عثمانية وقبلت فرنسا التسوية « وانضمت الى حظيرة الدول بتوقيعها اتفاقية البوغازات فى ١٣ يوليو (تموز) ١٨٤١ وهى التى لم تكن قد وقعت على معاهدة لندن[٢٣] •

وساهمت روسيا مع الدول الأربع فى الاتفاقية رغم انها كانت مقيدة لنشاطها • ومن المعروف أن محمد على رفض معاهدة لندن ولكنه اضطر أمام تدخل الدول الى التوقيع على الاتفاقية فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٨٤٠ انسحب بموجبها من كل البلاد العربية ولم يبق له سوى مصر وراثية مع احتفاظه بالسودان •

وابتداء من عام ١٨٤١ غدت بريطانيا صاحبة النفوذ الأول فى مصر التى اهدر برنامج استقلالها •

يتضح من هذا العرض أن روسيا ساهمت بدور نشيط فى احباط مشروع محمد على لاقامة دولة عربية كبرى فلقد أفسح وجود الجيش الروسى فى العاصمة العثمانية المجال أمام شتى الدسائس الدبلوماسية بين الدول المتنافسة ولم يرجع ذلك الضغط الروسى الا بتنازلات باهظة من قبل جميع الفرقاء المعنين • وصحيح أن بريطانيا كانت قد تحركت

---

(٢٢) جوزف حجار : المرجع السابق ص ١٦٣ .

(٢٣) د• محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان (دار المعارف — القاهرة ط ١٩٦٣) ص ١٤ .

للحفاظ على مصالحها عندما رأت أن جيوش محمد على تشكل خطرا على هذه المصالح عندما وصلت الى اليمن وسارعت بريطانيا فاحتلت عدن فى عام ١٨٣٩ • كما سارعت لمواجهة الخطر المصرى عندما وصل الى سواحل الخليج العربى • ولكن النشاط الروسى فى الامبراطورية يهدف أن يكون للنفوذ الروسى تفوق على غيره هو الذى دفع بريطانيا وغيرها من الدول للتحرك •

وهكذا أوقفت أوروبا الفاتح المصرى وكرست بذلك أولى علاقات حمايتها الدبلوماسية للباب العالى وتضاءلت مكانة السلطان ومحمد على على السواء وغدت مصر تحت وصاية أوروبية •

وشهد عام ١٨٤١ أيضا نزاعا ايرانيا ــ تركيا كاد يؤدى الى الحرب بين الجانبين فقد اقتحمت القوات الايرانية السليمانية لمساندة تمــرد قام به الاقطاعيون الأكراد ضد الدولة فتقدمت روسيا وبريطانيا للتوسط فى تسوية النزاع وأدى ذلك الى عقد معاهدة أرضروم الثانية فى ٣١ مايو (ايار) ١٨٤٧ التى تخلــت بموجبها ايــران من ادعاءاتها فى السليمانية وبعض المناطق الأخرى فى مقابل تنازل الباب العالى لايران عن المحمرة والساحل الأيسر لشط العرب[٢٤] •

ولا شك أن فى هذا اضعاف للدولة العثمانية وهو ما سعت اليــه الوساطة الروسية لأنه برغم الاتفاقية ظلت الحركات الكردية المعادية للدولة فى شمال العراق مستمرة كما أن هذه الاتفاقية قد ألحقت بالعراق ضررا كبيرا بنقلها للمحمرة والساحل الأيسر لشط العرب الى ايران •

ولم تتوقف الأطماع الروسية فى الأراضى التركية بعد تسويات ١٨٤٠ــ١٨٤١ ففى عام ١٨٤٤ سعى القيصر نيقولا الثانى فى محادثاته الشهيرة مع « اللورد ابردين » وزير الخارجية البريطانية لايجــــاد

---

(٢٤) لوتسكى : المرجع السابق ص ١٧١ •

تقارب مع بريطانيا للوصول الى تفاهم بالنسبة للمستقبل واتضحت نواياه من وصفه للسلطان بأنه « رجل مشرف على الموت » وأعرب عن رأيه فى أن الامبراطورية العثمانية فى طريقها الى الانهيار وأنه يحسن اتخاذ الأهمية للامر تقدما وأبدى رغبته فى الحصول على العاصمة العثمانية وفى المقابل تحصل بريطانيا على مصر ، وكريت اذا شاءت أيضا • وقال انه بهذا يبرهن على استعداده لمراعاة مبدأ التوازن الدولى واعطاء تعويض عادل لبريطانيا • وسيكرر نيقولا هذا العرض لابردين عندما أصبح رئيسا لوزراء بريطانيا فيما بعد فى عام ١٨٥٣ ولكن بريطانيا ترفض العرض[٢٥] •

(٣)

الاطماع الروسية فى الأماكن المقدسة وحرب القرم

تضمنت معاهدة كوتشك قينارجة لعام ١٧٧٤ مادتين أثار تفسيرهما خلافا كبيرا فقد نصت احداهما (١٤) على السماح لروسيا ببناء كنيسة مسيحية فى « غلطة » ـ وهى جزء من استانبول ـ وابقاء تلك الكنيسة تحت حمايتها على الدوام ووعدت تركيا فى مادة أخرى (٧) بحماية الكنيسة والديانة المسيحية فى ممتلكاتها والسماح لسفراء روسيا بمخاطبة السلطات نيابة عن كنيسة غلطة • وأدعى الروس أن لهم بناء على المادتين حقا فى تمثيل الطوائف المسيحية فى البلقان وحمايتها ولما كان من شأن الاعتراف بهذا الحق قيام خطر التدخل بصفة دائمة فقد أصرت تركيا على رفض الاعتراف بهذا الحق المزعوم •

ثم ظهرت مسألة الأماكن المقدسة وهى مسألة كانت تثير عواطف جدية وكانت تنصب على ادارة أماكن الحج فى القدس ولا سيما كنيسة الميلاد فى بيت لحم : وقد دأبت الحكومة التركية على ضغط التوازن

---

(25) Grant, Temperly, op. cit., p. 265.

بين الدعاوى المتضاربة للاتين أو الروم الكاثوليك من ناحية والارثوذكس أو المسيحيين الروس واليونانيين من ناحية أخرى • وقد كان للحكومة الفرنسية ادعاء تقليدى يرجع الى زمن الصليبيين فى أن تعتبر حامية للمسيحيين فى الشرق ولكن القياصرة الروس بدءوا يتقدمون منذ نمو سلطان روسيا بدعواهم الخاصة فى هذا الصدد ، فكان أن عزز الشعور الدينى الخصومات القومية والمطامع السياسية وأثارت مسألة حيازة مفاتيح كنيسة بيت لحم ووضع نجمة فى شارة المزود المقدس أشد العواطف تأججا(٢٦) ولقد تفوق الأغريق والكنيسة الارثوذكسية فى الأراضى المقدسة خلال الثلاثينات للقرن التاسع عشر نتيجة للأموال التى كانت تقدمها روسيا والحجاج الروس والرعاية الروسية الكبيرة • ونشأ عن ذلك أن انتقل بطريرك بيت المقدس الارثوذكس الى القدس بعد أن كان مقر اقامته فى استانبول •

وكانت روسيا تنظر الى السياسة البريطانية والفرنسية التى نشطت فى اقامة القنصليات فى بيت المقدس وادعاء حماية اليهود والمسيحيين الكاثوليك والمذهب الأنجلى مع نهاية الوجود المصرى فى الشام ــ بعين القلق وما فتئت تسعى لقطع خط الرجعة على النفوذ الفرنسى الكاثوليكى خاصة وان عدد الارثوذكس من الجاليات الأجنبية والوطنيين يزيد عن عدد اللاتين والكاثوليك وان روسيا التى نفضت فى روح الارثوذكسية وادعت حماية جميع الكنائس الشرقية قد أصبحت تتمتع بعطف الوطنيين من أبنائها ، وتمارس سلطانا غير مباشر على الأرمن والسريان والقبط والأحباش • وفى عام ١٨٤٧ تكونت فى روسيا على سبيل المثال الجمعية الروسية ــ الفلسطينية وهى التى تحولت عام

---

(26) Ibid. pp. 268 — 269.

* لمزيد من التفاصيل عن بداية الاطماع الروسية فى حماية الارثوذكس فى الدولة العثمانية راجع :
Sumner op. cit., pp. 30 — 32, 78.

١٨٩٣ الى الجمعيــة القيصرية الارثوذكسية بفلسطين وقامت هــذه الجمعية بكثير من الأعمال الدعائية لخدمة النفــوذ القيصرى الروسى بالمنطقد[٣٧] .

ولم يرض ذلك كله فرنسا وتقدمت حكومة فرنسا عام ١٨٥٠ الى الباب العالى تبين له تمسك فرنسا بامتيازاتها وفقا لمعاهدة ١٧٤٠ ، وأن الامتيازات التى منحت لغير الفرنسيين فى تاريخ لاحق تلغيها ، أما روسيا فلم تكن من ناحيتها مستعدة للتنازل عما اكتسبته الكنيســـة الأرثوذكسية من حقوق . ولم يستطع الباب العالى أن يوفق بين مطالب الطرفين .

وفى محاولة للضغط على السلطان العثمانى احتلت روسيا ولايتى الدانوب وأصبحت مطالبها خطرا كبيرا يهدد الدولة نفسها . وتكونت لجنة لبحث المطالب الفرنسية ـــ وكان لفرنسا اسطول قوى فى البحر الأبيض يمكنها بواسطته تهديد ممتلكات الدولة ـــ فرأت أن تشترك فرنسا وروســـيا فى الاشراف على الأماكن المقدســـة ، ولكن القيصر الروسى رفض وهدد باستخدام القوة وفى نفس الوقت هدد الســـفير الفرنسى باستخدام القوة اذا أقر الباب العالى مطالب روسيا[٣٨] .

وعلى هذا الأساس كانت مسألة الأراضى المقدسة مقدمة للحرب . فأمام موقف فرنسا المتشدد قرر القيصر الروسى القيام بمناورات حربية على الحدود العثمانية وأرسل بعثة الى استانبول برئاسة مستشـــاره « منتشكوف » بهدف تهديد السلطان حتى يمنعه من الاستجابة لمطالب

---

(٢٧) عز الدين فودة (الدكتور) دراسة بعنوان « الصراع الدولى حول فلسطين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى صدور وعد بلفور » ، منشورة فى مجلة معهد البحوث والدراسات العربية عدد ١ مارس (اذار) ١٩٦٩ ص ٧٥ وما بعدها .

(٢٨) محمد مصطفى صفوت (الدكتور) : المسألة الشرقية ومؤتمر باريس (معهد البحوث الدراسات العربية ـــ القاهرة) ص ٢٩ـــ٣٠ .

فرنسا وكان يريد فرض حماية روسية على رعايا السلطان الارثوذكس ... وتصاعدت الأزمة .

وقدم منتشكوف مطالب بلاده وكان من بينها تعيين البطاركة الأربعة الارثوذكس فى الدولة العثمانية مدى الحياة — حتى لا يكون للسلطان سلطة فى ابعادهم أو عزلهم لا سيما وقد كان لهم نفوذ سياسى كبير الى جانب نفوذهم الدينى .

وعندما استكملت روسيا استعدادها الحربى على الحدود التركية عند نهر بروث قدم منتشكوف انذارا الى السلطان يطالب بـ «ضمانات» وجدتها بريطانيا تهدد بالخطر استقلال الدولة العثمانية وعاد منتشكوف يصر على اغلاق الدردنيل أمام سفن فرنسا وانجلترا ، كما طالب فى ١٣ مايو (ايار) ١٨٥٣ — فى مقابلته للسلطان — بعزل رئيس الوزراء ووزير الخارجية فخضع السلطان لطلبه ، وتحت ضغطه عين السلطان رشيد باشا وزيرا للخارجية ومع كل هذا فشل منتشكوف فى مهمته لأن الأتراك رفضوا انذاره بعد أن دعت بريطانيا لعقد اجتماع من ممثلى فرنسا والنمسا وبروسيا للتوسط فى النزاع . فما كان من القيصر الروسى الا أن أمر جيوشه باحتلال ولايتى الدانوب (الافلاق والبغدان) فأرسلت انجلترا وفرنسا اسطوليهما الى خليج بيسيكا خارج الدردنيل . واحتجت الدول على احتلال الروس للولايتين الدانوبيتين .

وفى ٣١ مايو أرسل نسلرود بناء على تعليمات سيده انذارا الى تركيا ، بأن الجيوش الروسية ستحتل الولايتين الدانوبيتين اذا لم تجب مطالب روسيا كاملة ، ووصل الانذار الى القسطنطينية فى العاشر من يونيو (حزيران) وقبل وصوله كانت تركيا ، لتفوت على الروس خطتهم، قد اعترفت بحقوق رعاياها الارثوذكس ورفض وزير خارجيتها الانذار الروسى فى ١٦ من نفس الشهر .

وفى السابع من يوليو (تموز) وصلت تركيا أنباء عبور الروس حدودها ومع ذلك لم يعتبر السلطان ذلك سببا للحرب[٢٩] .

وفى ٤ أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٥٣ أعلنت تركيا الحرب على روسيا وبدأتها باطلاق النار على الجنـود الروس الذين عبروا نهـر بروث واحتلوا الافلاق والبغدان . وأجاب الروس باغراق الاسطول التركى على مقربة من سينوب فاجتاحت بريطانيا موجة من السخط ورأت دخول الاساطيل البريطانية والفرنسية البحـر الأسود لوضع حـد لاعتداءات الاسطول الروسى وفى ٢٧ مارس (آذار) ١٨٥٤ قررت بريطانيا اعلان وقف الحرب ووقفت فرنسا الى جانبها وفى ١٠ ابريل (نيسان) عقدت حكومتا بريطانيا وفرنسا حلفا رسميا ضد روسيا ، وبذا أصبح نابليون الثالث حليفا للكة بريطانيا .

وفى ٣ يونيو (حزيران) طلبت النمسا من روسيا اخلاء ولايتى الدانوب ورأت روسيا انه لا سبيل لها فى حرب فى البلقان مع الجيوش النمساوية فى الوقت الذى تهددها فيه أساطيل الحلفاء فى البحر الأسود وامام نصح بروسيا لروسيا بالانسحاب من ولايتى الدانوب وخشـية روسيا من انضمام بروسيا الى النمسـا ونتيجة لذلك وضـعت النقط الأربع بين فرنسا والنمسا خلف ظهر بريطانيا . وهذه النقاط الأربع هى التى سيرت دبلوماسية حرب القرم .

وجاء فى هذه النقاط ان اقامة علاقات طبيعية بين تركيا وروسيا يجب أن تكون على الأسس الآتية :

١ ــ وضع ضمان أوروبى لولايتى الدانوب محل حماية روسيا لهـا .

٢ ــ تقرير حرية الملاحة فى نهر الدانوب .

---

(٢٩) نفس المرجع ص ٣٥ـ٣٦ .

٣ ـ اعادة النظر فى اتفاقية المضايق ١٨٤١ لصالح توازن القوى فى أوروبا •

٤ ـ ترك الروس ادعاءاتهم حق حماية الرعايا المسيحيين للدولة العثمانية وبدلا من هذا تأخذ الدول الاوروبية وعدا من السلطان بتحسين حالة رعاياه المسيحيين •

وقامت حرب القرم فى الواقع على أساس النقطة الثالثة وعلى أساس تفوق قوة روسيا فى البحر الأسود لأن هذا كان له أثره على تركيا وعلى توازن القوى فى أوروبا • واضطرت الحكومة البريطانية الى قبول النقط الأربع بعد تردد • ولكن فى الوقت الذى وصلت الى فيينا موافقة الانجليز وصلتها أنباء انسحاب الروس من ولايتى الدانوب • ودخلت قوات النمسا الولايتين • وقد ترك انسحاب الروس الحلفاء فى حيرة من أمرهم فهم قد دخلوا الحرب لوقف العدوان الروسى واذا بروسيا تنسحب من ولايتى الدانوب فكيف يهاجم الحلفاء روسيا ؟ ولم يكن أمامهم بعد هزيمتهم السياسية أمام النمسا الا خوض الحرب ضد روسيا فنابليون الثالث يرغب فى بحث بولندا من جديد على نطاق واسع ولكن بريطانيا لا تريد اغضاب النمسا وبروسيا وانتهى الأمر الى القيام بحرب بحرية وبرية ضد القاعدة الروسية فى اسباستبول وبذلك يقضون على قوة روسيا البحرية وينفذون النقطة الثالثة • استطاع الحلفاء آنزال حوالى ٣٥ ألف جندى فى شبه جزيرة القرم ، وفى سبتمبر حاول الروس منعهم من التقدم ولكن الهزيمة حلت بهم فى موقعة « ألما » وأغرق الأسطول الروسى عند مدخل سباستبول وحاول الروس مرتين طرد الحلفاء وفشلوا ولكن الحلفاء لم يأخذوا اسباستبول وظل الأمر على حاله حتى يونيو (حزيران) ١٨٥٥ وكان معنى هذا العودة الى ميدان السياسة •

---

(٣٠) فشر : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ترجمة احمد نجيب هاشم ووديع الضبع (دار المعارف ــ القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٢١ .

أمام عقد تحالف فرنسي بريطاني نمسوي في ٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٥٤ أعلن الروس في ٢٩ منه قبولهم للنقاط الأربع •

وعقد مؤتمر للصلح في فيينا في ١٥ مارس (آذار) ولكن الروس رفضوا مقترحات الحلف القاضية بتحديد قواتهم في البحر الأسـود فانفرط عقد المؤتمر • وعاد الحلفاء للحـرب ــ لكن النمسـا رفضت دخولها ــ فسقطت سباستبول في أيديهم في ٨ سبتمبر (ايلول) وكان هذا يعني انتصار فرنسا وبريطانيا في حرب القرم •

ولما أحست النمسا بنية فرنسا التقارب مع روسيا حتى يمكنها اطلاق يدها في أوروبا بعقد حلف روسي ــ فرنسي • قررت العمل على فرض النقط الأربع كما فسرها الحلفاء ، على روسيا والاشتراك مع الدول الثلاث في ضمان سلامة الدولة العثمانية وفسر « بول » امبراطور النمسا النقطة الأولى في صالح بلاده فتقتطع بيساريا من روسـيا ، لتبعد الأخيرة عن مصب الدانوب كما فسرت النقطة الثالثة بحيرة البحر الأسود ، كما اختفت القوة البحرية الروسية في هذا البحر وقرر الحلفاء ألا يكون لتركيا قوة بحرية فيه • واضطرت روسيا التسليم أخيرا ووقعت مقدمات الصلح في أول فبراير (شباط) ١٨٥٦ وبذلك انتهت حرب القـرم •

وتعهد السلطان العثماني بالعمل على المساواة التامة بين رعاياه المسلمين والمسيحيين وأصبحت الملاحة حرة في كل حوض نهر الدانوب • وفتحت ولايتا الدانوب استقلالها تحت سيادة السلطان وضم جزءا من بسارابيا اليها • وعادت الحدود بين تركيا وروسيا في آسيا الى ما كانت عليه قبل الحرب ، وأصبحت تركيا تتمتع بكل الحقوق في ظل القـانون الدولي ، واتفقت الدول المتعاهدة على احترام ممتلكات الدولة العثمانية والمحافظة عليها ، وان أي اعتداء على تركيا يكون معناه دخولها الحرب الى جانبها (النمسا ، فرنسا ، بريطانيا)[31] •

---

(٣١) صفوت : المرجع السابق ص ٤٧ــ٤٩ .

وهكذا فان روسيا التى استغلت النزاع على الأماكن المقدسة فى فلسطين لتقوية نفوذها فى أملاك الدولة العثمانية فى البلقان خرجت من النزاع خاسرة وأظهرت حرب القرم التى نشأت عن هذا النزاع مدى ما عليه روسيا من ضعف ولم يعد لها دور كبير فى مسائل أوروبا ولم تستعد مركزها فى أوروبا الا فى سنة ١٩٤٥ ، وكان المتصرف فى شئون أوروبا دول غرب ووسط القارة •

واذا كانت نتائج حرب القرم جاءت سيئة بالنسبة لروسيا فقد أدت الى خسائر كبيرة بالنسبة للدولة العثمانية وهو ما جاءت به مقررات مؤتمر باريس الذى عقد لتسوية الأوضاع بعد هذه الحرب •

فقد افتتح المؤتمر فى ٢٥ فبراير (شـــباط) ١٨٥٦ وحضرته بريطانيا وفرنسا والنمسا والمجر ولكن ظل الاجتماع الى ١٦ ابريل فلقد تحول الى اجتماع أوروبى •• وقبل التوقيع على المعاهدة أصدر الباب العالى خطأ همايونيا ضمنه حقوق الطوائف المسيحية فى الدولة ، وأعلن رغبته فى ادخال تنظيمات جديدة كما أعلن المساواة التامة بين الأديان والجنسيات المختلفة ، وأخذ المؤتمر علما بهذا العهد • واجتمع المؤتمر لحل مشكلة الشرق الأدنى وقبل الروس حياد جزائر آلاند Aaland وحلت مشكلة العلاقات الروسية التركية فى ثلاثة أمور :

١ ــ وعد السلطان بالاصلاح •

٢ ــ اعلان حياد البحر الأسود •

٣ ــ استقلال ولايتى الدانوب عن حماية روسيا • وكان من أهم شروط المعاهدة تحرير رومانيا وجعلها دولة مستقلة حتى تصبح حاجزة بين تركيا وروسيا ولتقف أمام مطامع النمسا فى السيطرة على وادى الدانوب كله •

وأصبحت مسألة الدولة العثمانية رسميا مسألة أوروبية • وقـــد أكسبت معاهدة باريس تركيا مركزا خاصا وضمنت لها على الأقـــل

نظريا وقوف الدول الأوروبية الغربية الى جانبها ضد روسيا بينما دمرت قوة روسيا الحربية لمدة عشرين سنة • ولم تعد تهتم كثيرا بمسائل أوروبا لمدة ١٥ سنة ، وأصبح مستقبل روسيا هو فى الامبراطورية وفى التوسع فى آسيا الشمالية وآسيا الوسطى وكرست جهودها الى الغاء شروط باريس التى تمس البحر الأسود وبسارابيا(٣٢) •

وعلى الرغم من خروج روسيا خاسرة من مؤتمر باريس فانها لم توقف نشاطها فى فلسطين بل استمر ذلك النشاط على يد الجمعية الروسية بفلسطين فقامت — تحت ستار رعاية شئون الحجاج والبعثات الدينية وتيسير أماكن الاقامة وطرق الانتقال بالأماكن المقدسة بكثير من الأعمال الدعائية لخدمة النفوذ القيصرى الروسى بالمنطقة وزاد هذا النشاط بنوع خاص من بعد أن ترأسها الأمير « سيرج » شقيق الاسكندر الثالث فى أعقاب حرب القرم حيث أنشأت شركة للملاحة والنقل الى فلسطين ومكتبا لهذا الغرض بأوديسا ، كما قامت بانشاء عدد كبير من الجمعيات الخيرية والمدارس والمستشفيات فى القدس والناصرة وحوران ودمشق ، ومدرسة للطب فى بيروت • وأرسلت الحكومة الروسية فى أعقاب معاهدة باريس بعثة برئاسة موظف روسى كبير (M Boris De Mansour off) لدراسة الأوضاع بالأماكن المقدسة وتقوية روح الأرثوذكس المقيمين بها • كذلك أرسلت بعثة دينية أخرى فى فبراير ١٨٥٨ ، قامت بشراء الأراضى وانشاء المبانى والمؤسسات فى ضواحى المدينة المقدسة لاقامة الارساليات واستقبال الحجاج الروس• وغدت الجمعية الروسية تباشر اشرافها على جميع هذه المؤسسات بالمدينة المقدسة ، وكان هذا مقدمة للنفوذ الروسى بالمنطقة • فأصبحت اللغة الروسية شائعة بين الارثوذكس ، كما أصبح السعى الى الكنيسة الروسية والحبشية الذى استهدفته بعثة روسية الى الحبشة عام ١٨٩٧ ، وبعثة النجاشى الى روسيا عام ١٨٩٥ احدى خطوات هذه السياسة التى

---

(٣٢) فشر : المرجع السابق ص ٢١٩ .

استهدفت ضد نفوذ القيصرية في قلب افريقيا • وعدلت روسيا فيما بعد عن تدعيم قنصليتها بدمشق من أجل الاشراف على رعاية مصالحها بالقدس وأنشأت لها قنصلية بالمدينة المقدسة كان أول من ترأسها (M. Dorgaboujin off) • وبقى راسخا فى الاذهان أن روسيا مازالت (من الناحية الفعلية) حامية الأرثوذكس[٣٣] •

وشاركت روسيا فى الأحداث التى قامت فى لبنان عام ١٨٦٠ وتدخلت فى شئونه مع المتدخلين من الدول الاوروبية وكان ذلك بطبيعة الحال تدخلا فى شئون الدولة العثمانية فعندما أعلنت فرنسا عن نيتها فى أعقاب المذابح التى جرت فى لبنان فى ذلك الوقت وجدنا روسيا وبريطانيا تتخوفان من هذا التدخل الذى قد يؤدى الى استيلاء الفرنسيين على الشام وأصرتا على عقد مؤتمر دولى للحد من تحرك نابليون الثالث ، وفى ٥ سبتمبر (ايلول) ١٨٦٠ وقعت ست دول (انجلترا ، فرنسا ، النمسا ، بروسيا ، روسيا ، وتركيا) على الاتفاقية التى قررت أن القوة الفرنسية التى تنزل لبنان يجب ألا يتجاوز عددها ١٢ ألفا والا تبقى أكثر من ستة أشهر وفضلا عن ذلك أوفد الى سوريا مندوبين عن الدول الموقعة على الاتفاقية • ألفوا لجنة تتحرى أسباب الأحداث اللبنانية وتكشف عن المذنبين الحقيقيين وتعاقبهم وتتلافى وقوع أحداث مماثلة عن طريق ايجاد نظام جديد للبنان — ومع ذلك أنزلت فرنسا قوات فى بيروت عشية الاتفاق ولما حاول نابليون الثالث تجاهل الاتفاق وابقاء قواته فى سوريا طالبت انجلترا والنمسا بانسحاب فرنسا وهددتا بالحرب فتم الانسحاب فى يونيو (حزيران) ١٨٦١[٣٤] •

ومعروف أن هذه الأحداث أدت الى وضع « نظام أساسى » أصبح بموجبه جعل لبنان منطقة ذات حكم ذاتى يترأسها حاكم مستقل

---

(٣٣) عز الدين فودة : المرجع السابق ص ٧٦—٧٧ •

(٣٤) لوتسكى : المرجع السابق ص ١٦٤—١٦٥ •

عن ولاية بيروت ودمشق ويتبع الباب العالى مباشرة • ويلاحظ أن هذا التدخل الدولى الجديد والذى شاركت فيه روسيا يضعف من سلطة الباب العالى ويخدم مصالح دول أجنبية فى مقدمتها فرنسا كما أن النظام الذى صيغ على أساس طائفى ظل مقلقا للوضع فى لبنان بعد ذلك •

(٤)

الحرب الروسية ــ التركية ١٨٧٧ وآثرها على العرب

أساءت الهزيمة التى لحقت بروسيا فى حرب القرم الى سمعة السياسة الخارجية الروسية فهبط دورها فى العلاقات الدولية وقد حرمتها معاهدة باريس المرهقة من حق امتلاك اسطول حربى وحصين على البحر الاسود •وكانت الحدود الجنوبية لروسيا غير محمية ، الأمر الذى كبل أيدى القيصرية ولم يعطها امكانية انتاج سياسة خارجية نشيطة •

لذلك فان المحتوى الأساسى لسياسة روسيا الخارجية فى نهاية العقد السادس وفى العقد السابع للقرن التاسع عشر كان العمل من أجل تصفية الشروط التى أمليت على روسيا فى صلح باريس • وقبل كل شىء البنود المتعلقة بحياد البحر الاسود •

وكانت سياسة روسيا الخارجية مركزة فى يد القيصر الاسكندر الثانى الذى لم يكن له المام حقيقى بشئون السياسة الخارجية أو الداخلية وكان عنيدا مترددا تنقصه الحيوية والنشاط ولكنه بعد حرب القرم أوكل مهمة وزارة الخارجية الى « جورتشاكوف Gorchakov » الدبلوماسى الحاذق وقد استغل الرجل التغيرات التى طرأت على الوضع الدولى لكى يزيل عزلة روسيا خاصة وان التحالف الذى انتصر فى حرب القرم كان قد تفكك وتأزم الوضع فى أوروبا بشدة ونشأت بين أكبر

الدول الأوروبية تناقضات حادة أدت الى عدد من الاشتباكات المسلحة وفى هذا الوضع سلكت الحكومة القيصرية سياسة المناورة ، مستغلة التناقضات بين الدول الكبرى[٣٥] •

وكانت المسائل التى تشغل بال السياسة الروسية فى ذلك الوقت : مسألة آسيا الوسطى والجامعة الصقلبية ، والعلاقات الألمانية — الروسية •

كان تهديد روسيا للهند فى حرب القرم تهديدا غير مباشر ، تهديدا للمواصلات البريطانية الى الهند ، وذلك عن طريق السيطرة على المضايق • ولكن بعد ذلك بعشرين سنة كان تهديد روسيا للهند تهديدا مباشرا ، اذ فى خلال عشرين سنة كانت معظم آسيا الوسطى ومعظم القوقاز قد أصبحت فى اطار روسيا ، فمنذ عام ١٨٦٤ كان التوسع الروسى مستمرا فى تركستان وفيما بين سنتى ١٨٦٥ ، ١٨٦٨ سقطت طشقند ، وسمرقند ، فى يد الروس وأصبحت بخارى امارة تابعة لبطرسبرج • وأثار تقدم الروس فى آسيا الوسطى مخاوف بريطانيا التى رأت فيه تهديدا واضحا للهند ، وخشيت من خضوع افغانستان وايران للنفوذ الروسى •

وأما حركة الجامعة الصقلبية (بانسلافيزم Panslavism) فكانت بصفة عامة ترمى الى ضم جميع صقالبة أوروبا تحت جناح روسيا • وهذه الحركة تؤثر بطبيعة الحال فى علاقات روسيا مع الدولة العثمانية ومع الامبراطورية النمسوية المجرية لأنه جانبا من رعايا الدولتين من الصقالبة • وكان مركز الحركة هو موسكو ورأسها « بوجودين Pogadin » استاذ التاريخ فى جامعة موسكو ، وتطورت فكرة هذه الحركة الى العمل على تخليص الصقالبة الارثوذكس فى البلقان من الحكم العثمانى •ومن ثم كان خطر حركة الجامعة الصقلبية

---

(35) Grant Temperly : op. cit., p. 278.

على الدولة العثمانية لأنها تعنى فى حالة نجاحها القضاء على سلطة الدولة وعلى الامبراطورية العثمانية فى أوروبا .

وكان من رجال هذه الحركة « فادايف Fadayev » وهو ضابط عمل فى الجيش المصرى فى عهد الخديو اسماعيل ، وكان يأمل فى تقوية الجيش المصرى ليستطيع تحدى الدولة العثمانية . ومنهم أيضا « اجناتيف Ignatiev » سفير روسيا فى استانبول وكان يعمل بنشاط على انهيار الدولة العثمانية أو وقوعها تحت السيطرة الروسية[٣٦] .

واذا انتقلنا الى تركيا مع بدايات النصف الثانى من القرن التاسع عشر وجدنا انه فى الوقت الذى تطورت فيه الرأسمالية فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية لم يكن متوفرا فى تركيا والاقطار العربية التابعة لها سوى أولى مقدمات الرأسمالية وقد تأخرت عمليات التخلص من النظام الاقطاعى وبدأ الانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية ولكن ذلك كان يجرى بخطوات بطيئة للغاية وفى ظروف متناقضة الى حد كبير .

وقد تحولت تركيا الى سوق ثم الى شبه مستعمرة للدول الأوروبية الرأسمالية فقد مهدت السبيل للرأسمال الأجنبى مرحلة التنظيمات الثانية التى بدأت بـ « خط همايونى » عام ١٨٥٦ والتى اكتسبت ، بحكم صلح باريس شكل الالتزامات الدولية وفتحت بابا للرأسمال الأجنبى اذ تعهدت الدولة العثمانية بمنح امتيازات السكك الحديدية والبنوك وصناعة التعدين وغيرها من الامتيازات الى الرأسماليين الأجانب . كما منحتهم حق شراء الأراضى من الامبراطورية العثمانية وأعطت عملاءهم المحليين عددا من التسهيلات .

وهكذا كان صلح باريس لعام ١٨٥٦ فاتحة لتحويل تركيا والاقطار العربية التابعة لها الى شبه مستعمرة للرأسمال الأجنبى . والى جانب هذا كانت الحرب التى سبقت معاهدة باريس من ١٨٥٣ ــ ١٨٥٦ بداية

لتوريط تركيا فى الديون ففى عام ١٨٥٤ عقدت تركيا لتسديد النفقات العسكرية أول قرض خارجي استلمت منه ٦٠ مليونا فقط من أصل ٧٥ مليونا من الفرنكات وهى قيمة القرض الأصلى وخصصت ما كانت تدفعه مصر لخزينة الدولة كضمان لهذا القرض • وفى عام ١٨٥٥ ابرم القرض الثانى ومبلغه ١٢٥ مليون فرنك وخصصت مداخيل جمارك أزمير وسوريا ضمانا له • وقبيل عام ١٨٧٤ بلغت قيمة القروض الاسمية ٥٣٠٠ مليون فرنك لم تستلم منها تركيا سوى ٣٠١٢ مليونا فقط أى ٥٦٫٨٪ من مجموع قيمة القروض وحسمت البنوك (الفرنسية فى الغالب والبريطانية الى حد ما) ما يربو على مليارى فرنك أو ٤٣٫٢٪ كفوائد وعمولات وغير ذلك[٣٧] •

ولكى تتخلص من القيود التى فرضتها معاهدة باريس عليها ، تحركت روسيا فى عام ١٨٧٠ وجاء هذا التحرك فى صورة مذكرة وزعها وزير خارجيتها جورتشاكوف جاء فيها : ان روسيا لا تستطيع أن تنفذ تلك البنود فى معاهدة باريس التى تهدد أمن حدودها ، وذلك لأن المعاهدة قد خرقتها الدول الأخرى •

وقد وافق المؤتمر الدولى المنعقد فى لندن عام ١٨٧١ على طلب روسيا ونالت روسيا من جديد حق انشاء الحصون على شواطىء البحر الأسود ، وفى ان تملك هناك اسطولها البحرى •وكان هذا نجاحا كبيرا للدبلوماسية الروسية وطد بشكل ملموس مواقع روسيا دوليا[٣٨] •

وكان قسم كبير من اليونانيين والرومانيين وكذلك السلاف

---

(٣٦) يبيفلنوف : المرجع السابق ص ٣٩٨ •

(٣٧) صفوت : مؤتمر برلين واثره فى البلاد العربية (معهد الدراسات العربية ــ القاهرة ١٩٥٧) ص ١٧ــ١٨ •

(٣٨) لوتسكى : المرجع السابق ص ٣٧٤ــ٣٧٥ •

الجنوبين (البلغار والهوسينيون والهرسكيون وقســم من الصرب) لا يزالون تحت الحكم العثمانى وناضلت شعوب البلقان من أجل التخلص من الحكم التركى وتطلعت بأنظارها الى روسيا اذ أن الشعوب السلافية كانت تعتبر روسيا الشقيقة الكبرى وقد سعى الحكم المطلق فى روسيا الى اعادة نفوذه فى البلقان مستغلا هذه المشاعر • ودافعت روسيا عن مصالح السلاف على المسرح الدولى وقدمت لهم مساعدة مادية وأيدت الكنيسة الارثوذكسية العملية ولكن الحكومة القيصرية كان يهمها من كل هذا وبالدرجة الأولى تعزيز مواقعها فى الشرق الأدنى وفى شبه جزيرة البلقان •

وفى ١٨٧٥ قامت انتفاضة ضخمة فى البوسنة والهرسك ، وفى ابريل (نيســان) ١٨٧٦ فى بلغــاريا وقد قمع الاتراك هذه الانتفاضات بوحشية •

وفى صيف ١٨٧٦ بدأت صربيا والجبل الأسود الحرب ضد تركيا ، الا أن القوى لم تكن متساوية وانتهى الأمر بتغلب الأتراك • كما تاقت ولايتا الافلاق والبغدان الى الاستقلال نهائيا عن الدولة ، وبدأت اليونان ترنو ببصرها الى توسيع حدودها الشمالية • وكان لتأييد الكنيســة المسيحية أثر كبير فى اثارة الهياج على الدولة العثمانية فى البلقــان وقد قامت الثورة فى البلقان يدفعها الشعور القومى والدينى والتدخل الاجنبى معتمدة على مساعدة روسيا وقد لاقت انتفاضات السلاف مساندة حارة فى روسيا وأعرب الكثيرون عن رغبتهم فى الانضمام كمتطوعين الى الجيش الصربى •

ولقد أصيب الجيش الصربى بعدد من الهزائم • ولم ينقذ الصرب من هزيمة كاملة الا تدخل روسيا واعلانها عن التعبئة الجزئية • فوقعت صربيا معاهدة صلح مع تركيا بينما واصلت بلاد الجبل الاسود الصغيرة النضال وحدها •

والحق أن الصرب وروسيا كانتا تعملان على خدمة مصالحهما قبل كل شيء فالصرب ترغب في الاستقلال الكامل وربما تطمح الى توسيع ممتلكاتها ، وروسيا تهتم قبل كل شيء بالسيطرة على صقالبة البلقان وبالاشراف على المضايق واسترجاع بساربيا التى ضمها مؤتمر باريس الى ولايتى الدانوب ٠

ورفضت تركيا ، بتحريض من بريطانيا ، اقتراح روسيا التسوية السلمية للنزاع وكانت سياسة روسيا فى أول الأمر ترمى الى التدخل مع ألمانيا والنمسا لاقناع الباب العالى بضرورة اتخـــاذ الاجراءات الحاسمة لاعادة الطمأنينة الى المناطق الثائرة ولكن الأمور تشعبت ورأت فرنسا ألا يقتصر التدخل على الدول الثلاث الســابقة ٠ بينما رأت بريطانيا التدخل بقوة لمنع تفوق النفوذ الروسى٠ وأخذ السفير الروسى فى استانبول « اجناتيف » على عاتقه عرقلة الأمور حتى تستفحل الثورة فى البلقان ، وكان يهمه مقاومة النفوذ بين النمسوى والبريطانى والعمل على تفوق نفوذ روسيا بينما القيصر الروسى يرى ألا تقدم روسيا على أية خطوة دون موافقة النمسا خاصة بعد أن أعلن بسمارك لروسيا انه موافق سلفا على كل أمر تتفق عليه النمسا وروسيا بخصوص الدولة العثمانية وممتلكاتها ٠

وأخيرا وفى ابريل (نيسان) ١٨٧٧ اضطرت الحكومة الروسية أن أن تبدأ الحرب اذ أن ترددها كان يعنى استسلامها ويؤدى الى خسارتها لنفوذها بين الشعوب السلافية وفى شهر مايو (ايار) دخلت رومانيا الحرب كذلك ضد تركيا ٠

ولم تكن روسيا مستعدة لحرب طويلة الأجل ٠ فقـــد مرت فى سبعينات القرن التاسع عشر بتغيرات داخلية خطيرة شملت حياة البلاد ونظم الامبراطورية نفسها وخضعت روسيا للعوامل التى خضعت لها دول غرب أوروبا من قبل ٠ كالانقلاب الصناعى ، وانقلاب الاصـــلاح

الخاص بملكية الأرض الى صراع قوى بين اتوقراطية قيصرية مستبدة يؤيدها الجيش والبوليس والكنيسة وبين نوع من الاشتراكية المتأثرة بأراء كارل ماركس • واستمر ذلك الصراع حتى ثورة ١٩١٧ •

وعند دخولها الحرب عـــام ١٨٧٧ كان وضعها المالى متدهـــورا والتدريبات العسكرية متخلفة فى نواح كثيرة وعارضت أكثرية القيادة العليا التى تربت فى ظروف حكم نيقولا ، تطبيق التكنيك الحديث • ولكن الروح القتالية فى الجيش الروسى كانت عالية بسبب عطفهم على اشقائهم السلاف ورغبتهم فى مساعدتهم من أجل التخلص من الأتراك[٣٩] • كما كانت لدى القيصر رغبة ملحة فى دخول الحرب منتهزا قيام الثورة فى البوسنة والهرسك والصرب رغم ان وزراءه نصحوه بأن هذه الحرب ستضعف البلاد ماليا ولن تجنى منها مغنما ولكن القيصر كان يرى ضرورة شغل الرأى العام الروسى عن مناقشة المسائل الداخلية بقضية خارجية•

أما الجيش التـــركى فكان مسلحا بأحـــدث الأسلحة البريطانية والالمانية وان كانت تدريباته العسكرية غير كافية وكانت القيادة التركية تتبع التكنيك الدفاعى • وفى الوقت الذى كانت فيه الأمور مثيرة للقلق فى استانبول عزل الدستوريون عبد العزيز وأحلوا محله مراد ، ورأس مدحت الوزارة وكان هذا التطور فى الدولة العثمانية مؤذنا بالقضاء على النفوذ الروسى فى استانبول وعلى نشاطات « اجناتيف » الأمر الذى دفع روسيا الى اتخاذ سياسة ايجابية تجاه الدولة العثمانية •

وزاد الحال سوءا قيام الثورة فى بلغاريا ورأى الترك فيها أصابع الروس واضحة وتلا قيام الثورة فى بلغاريا اعلان الصرب والجبـــل الاسود الحرب على تركيا • ورأت روسيا فى هذا الموقف فرصتها ، فسارعت واتفقت مع النمسا على توزيع الغنائم ، ولذا عقدت معهـــا اتفاقية « رشستادت Reichstadt » وفيها اتفق الطرفان على مبدأ

---

(٣٩) بيبفانوف : المرجع السابق ص ٣٩٩ .

عدم التدخل • فاذا انتصر العثمانيون على الصرب يجب التدخل لمنع العثمانيين من الانتقام وحرمانهم من ثمرة النصر • واذا انتصرت الصرب تتدخل الدولتان فتأخذ روسيا بسارابيا من رومانيا وتحتل النمسا البوسنة والهرسك وفى حالة انهيار الدولة العثمانية تصبح استانبول مدينة حرة ويحتل الاغريق بقية الأجزاء الاغريقية [٤٠] •

ودخلت الصرب الحرب ضد تركيا واثقة من مساعدة روسيا وكان قد تطوع فى الجيش الصربى عدد غير قليل من الضباط الروس وثار الشعور القومى فى البلقان مطالبا روسيا بمساعدة صقالبة البلقان مساعدة فعلية • ودخلت الصرب الحرب رغم تحذير النمسا وفرنسا وبريطانيا • وفشلت فى الحرب فشلا ذريعا ، فكان ذلك مدعاة لتدخل روسى فعلا لمناصرة فكرة الجامعة الصقلية خاصة عندما اصبحت بلغراد نفسها (عاصمة الصرب) فى خطر • ولذا أسرعت روسيا باقتراح هدنة وعقد مؤتمر من الدول ولكن الترك العنصريين ابوا حتى تقدم الصرب شروط الصلح التى يرضونها • وكانت روسيا ترغب فى هدنة طويلة تسترد فيها الصرب أنفاسها وتلم قواها بينما الدول الأخرى تريدها قصيرة ، واختلفت الآراء بين الدول • وكان بسمارك يخشى قيام حرب أوروبية تضطر بلاده للأشتراك فيها ولذا بدأ يهتم بالمسألة الشرقية ، وما يتفرع عنها مسألة الشعوب الاسلامية الخاضعة لتركيا ، مسألة مصر وسورية وتونس وطرابلس (ليبيا) •

ورأى أن توافق بريطانيا على تفوق النفوذ الروسى فى شرق البلقان فى نظير أن تضم بريطانيا مصر بالاتفاق مع فرنسا وظل هذا هو رأى المستشار الألمانى من ١٨٧٧ــ١٨٨١ وكان يعمل على ايجاد جو من التعاون بين الدولتين خارج حدود القارة الأوروبية وعلى حساب الدولة العثمانية • ورأى بسمارك انه اذا تخوفت الحكومة البريطانية

---

(٤٠) صفوت : مؤتمر برلين ص ١٦ •

من مناواة فرنسا لهذه السياسة فعلى لندن أن تبحث مع باريس أمر تقسيم الشرق الأدنى الى مناطق نفوذ فتوافق بريطانيا على تفوق النفوذ الفرنسى فى سوريا نظير موافقة فرنسا على تفوق النفوذ البريطـــانى فى مصـــر •

لكن دزرائيلى رئيس حكومة المحافظين فى ذلك الوقت كان لا يرى فى احتلال مصر وسيلة ناجحة لدرء الخطر الروسى عن الشرق الأدنى ، ويرى انه اذا أخذ الروس استانبول فبامكانهم فى أى وقت الوصول الى ســـوريا ثم وادى النيل • فالآستانة لا مصر ولا قناة السويس هى مفتاح الطريق الى الهند[٤١] •

وجرت العمليات الحربية على مسرحين : فى البلقان وفى ما وراء القوقاز وهدفت خطة القيادة الروسية الى عبور نهر الدانوب واجتياز البلقان بهجوم خاطف ثم التوجه نحو العاصمة التركية • وقد أملت القيادة التركية أن تمنع اجتياز القوات الروسية لنهر الدانوب معتمدة على حصونها لكن هذه الحسابات لم تتحقق واجتازت القوات الروسية نهر الدانوب بنجاح فى صيف ١٨٧٧ واحتلت بسرعة عاصمة بلغـــاريا القديمة مدينة « تيرنوف » وقد استقبل البلغار الروس بحماس كمنقذين وقدموا لهم المساعدات وتكبدت القوات الروسية خســـائر كبيرة فى الحرب أمام الاتـــراك ولكن الروس اســـتطاعوا فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٨٧٧ أن يستولوا على « بليفنا » فى شمال بلغاريا بعد أن استسلمت حاميتها التركية وعددها ٤٠ ألف شخص والتى أثار سقوطها انتعاشا فى حركة الثورة السلافية فدخلت صربيا الحـــرب من جديد وانهكت قوى الاتراك وتقدمت القوات الروسية وانتصرت على الاتراك فى عدد من المعارك واستولت على مدينة صوفيا •

---

(٤١) صفوت : نفس المرجع ص ١٦ .

وفى شهر يناير (كانون الثانى) ١٨٧٨ بدأ الهجوم العام للقوات الروسية حتى أجلى الاتراك عن مدينة « أدرنة » وأصبح الطريق نحو استانبول مفتوحا • وطلبت تركيا الصلح وكانت العمليات الحربية قد جرت بنجاح كذلك فى القوقاز حيث سقط بأيدى الروس حصون بايزيد واردهان وقرص[٤٢] •

لقد أثار انهيار تركيا قلق بريطانيا والنمسا ـ المجر • فوجهت بريطانيا اسطولها الى بحر مرمرة وهددت روسيا بقطع العلاقات الدبلوماسية اذا تجرأت واحتلت القسطنطينية •

ولقد كانت الحكومة البريطانية ـ والتى تظاهرت بأنها غير راغبة فى احتلال مصر فى ذلك الوقت ـ حريصة على ألا تمتد الحرب الى ثارت فى البلقان الى مصر فلقد راجت شائعات تقول ان روسيا تنوى ادخال مصر فى غمرة الحرب ، فهى تنوى محاصرة الشواطىء المصرية باسطولها وهى تنوى أخذ أرمينية كذلك • ولذا قدم وزير خارجية بريطانيا « داربى » الى « شوفالوف Shuvalov » السفير الروسى فى لندن مذكرة تؤكد أن مصالح بريطانيا ستضطرها للدفاع اذا مس خطر حرية الملاحة فى قناة السويس أو اذا قامت روسيا بهجوم على مصر • واستفسرت الحكومة البريطانية من روسيا عما اذا كانت عازمة على محاصرة مصر أم لا وبينت فى نفس الوقت أن أى عمل حربى يهدد سلامة مصر أو قناة السويس ستعتبره بريطانيا عملا عدائيا ، ولم يهدأ بال بريطانيا الا حين علمت أن هذه الشائعات عارية عن الصحة • كما ان روسيا أثناء الحرب الروسية ـ التركية أعلنت عن رغبتها فى ارضاء بريطانيا بانها لن تتعرض لمصر ولا لقناة السويس ، فليست لها المصلحة ولا الرغبة ولا الوسائل للقيام بمثل هذا العمل[٤٣] •

---

(٤٢) نفس المرجع ص ٢٧ ولمزيد من التفصيلات يراجع يبفانوف : المرجع السابق .

(٤٣) ص ٤٠١ وما بعدها .

وقدمت النمسا ـ المجر احتجاجا على استمرار العمليات الحربية وبرز أمام الاوساط الحاكمة فى روسيا شبح حرب « كبيرة » مع الدول الاوروبية ، لم تكن مهيأة لها • وكان الجيش الروسى قد أصيب بخسائر كبيرة وعانى صعوبات فى التموين • فأوقفت القيادة الروسية قواتها فى بلدة « سان ستيفانو » (بالقرب من استانبول) وفى مارس (آذار) ١٨٧٨ وقعت معاهدة صلح سان ستيفانو • وكانت شروط معاهدة الصلح التى وقعت فى سان ستيفانو والتى فرضتها روسيا على تركيا لمصلحة روسيا والشعوب السلافية فتكونت دولة كبيرة مستقلة هى بلغاريا واعترفت تركيا باستقلال الجبل الاسود وصربيا • وقد توسعت اراضيها بصورة ملحوظة وتم الاعتراف برومانيا كدولة مستقلة ونالت روسيا الجزء الجنوبى من بسارابيا ومنطقة قرص • وأصبح على تركيا ارضاء الرعايا الروس فى الدولة وان تعترف بحرية المضايق وتغلق البحر الاسود فى وقت الحرب أمام أعداء روسيا • وتدفع غرامة حربية قدرها ٢٣٥ مليون جنيه جزءا منها نقدا ، والآخر عن طريق التخلى عن بعض المناطق والمدن مثل بسارابيا الجنوبية ، واردهان وقارص وباطوم وجزء من أرمينية • تم كل ذلك أثناء المفاوضات بين روسيا وتركيا فى مارس (اذار) ١٨٧٨ •

لكن بريطانيا والنمسا ـ المجر لم يرضيا توطيد روسيا لموقعها فى البلقان وقيام دولة سلافية كبيرة هى بلغاريا • فطلبتا اعادة النظر فى شروط معاهدة سان ستيفانو فى مؤتمر أوروبى وهددتا روسيا بالحرب وامتنعت ألمانيا عن تأييد روسيا فاضطرت الأخيرة للموافقة على اعادة النظر فى المعاهدة واتفق على طلب النمسا عقد مؤتمر فى برلين تعرض عليه المعاهدة • وتدخل بسمارك لانقاذ السلام لأن الحرب كانت ستقع بين بريطانيا وروسيا ـ ووافق على عقد مؤتمر ومهد الطريق لمفاوضات بين لندن وبطرسبرج لتعديل معاهدة سان ستيفانو فاعترفت روسيا بحق النمسا فى احتلال البوسنة والهرسك ، فزالت معارضة النمسا ونفذ

رأى بسمارك فى تقسيم البلقان الى منطقتى نفوذ بين روسيا والنمسا[٤٤] وأما المفاوضات بين بريطانيا وروسيا فقد وضح فيها أن معارضة بريطانيا للمعاهدة كانت تنبع من أمرين : أولهم أن المعاهدة أوجدت دولة بحرية جديدة هى بلغاريا وثانيهما ـ انها وضعت تركيا تحت رحمة روسيا ولذا لابد من انقاص حجم بلغاريا ، وتقوية مركز تركيا فى آسيا ، وقد قبلت روسيا بذلك •

وفى هذه الأثناء عقدت بريطانيا معاهدة سرية دفاعية مع تركيا تحتل بموجبها قبرص (٢٦/٥/١٨٧٨)[٤٥] • وبذا ضمنت بريطانيا سلامة مصالحها الامبراطورية • وكان احتلال قبرص لحفظ التوازن فى أوروبا وفى شرقى البحر المتوسط أمام توسع روسيا فى البلقان والقوقاز وامام رغبة النمسا ـ المجر فى احتلال البوسنة والهرسك • واتخذ البريطانيون من قبرص قاعدة لهم ضد روسيا ومركزا يقفزون منه الى أجزاء أخرى من الامبراطورية العثمانية (مصر ١٨٨٢) كما كانت اتفاقية قبرص هذه تعنى أن بريطانيا تخلت عن سياستها التقليدية وأصبحت لا تمانع فى تقسيم الامبراطورية العثمانية ولكن بشرط ألا يضر ذلك بمصالحها •

وعقد مؤتمر برلين للدول الكبرى برئاسة بسمارك لاعادة النظر فى معاهدة سان ستيفانو فى الظاهر ولكنه فى الواقع كان لتسجيل الاتفاقيات التى تمت بين روسيا وبريطانيا وبين روسيا والنمسا ـ المجر • وكان واضحا عزلة روسيا فى المؤتمر فاضطر الوفد الروسى الى تقديم تنازلات كبيرة وبموجب معاهدة برلين ١٨٧٨ قسمت بلغاريا الى ثلاثة أقسام ونالت بلغاريا الشمالية وحدها الاستقلال ، وانخفضت مساحة الأراضى التى نالتها الجبل الاسود وصربيا ، واعطيت البوسنة والهرسك للنمسا ـ المجر ، وتخلت رومانيا عن بسارابيا التى كانت قد أخذت من روسيا فى معاهدة باريس ١٨٥٦ • ونصت المعاهدة على صيانة

---

(٤٤) صفوت : مؤتمر برلين ص ٣٣ـ٣٤ .
(٤٥) نفس المرجع ص ٤٢ـ٤٣ .

حرية الملاحة فى الدانوب وهى حرية دولية وتنازل الباب العالى عن أراضى : اردهان ، وقارص ، وباطوم لروسيا •

بينما استردت تركيا وادى « آلاكرد » ومدينة بايزيد ، وتنازلت لفارس عن مدينة واقليم « ختر » وتعهد الباب العالى بأن يحقق سريعا الاصلاحات التى تستلزمها حالة ارمينيا وحمايتها من الشركس والكرد • وأعلن الباب العالى رغبته فى منح حرية الاعتقاد الدينى ، ولا يجب أن يقف الاعتقاد الدينى عقبة فى سبيل الحقوق السياسية والدينيـــة وتعترف الدولة بحق القناصل فى حماية رعاياهم(٤٦) •

ويلاحظ فى مواد معاهدة برلين انها حاولت تحقيق وجهة النظـــر البريطانية فى المسألة البلغارية فأصبح قسم منها مستقلا وآخر خاضعا للباب العالى • على أن هذا التقسيم الذى هدفت من ورائه بريطانيا لاضعاف النفوذ الروسى فى بلغاريا لم يدم طويلا • فتتحد أجزاء بلغاريا فى أول أزمة بلقانية كبرى تواجهها استانبول بحيث لم يمضى خمسة وثلاثون عاما الا وقد تكونت دولة بلغاريا الحديثة • ورغم هزيمـــة الصرب فقد أكدت المعاهدة استقلالها بل ضمنت لها بعـــض الأراضى العثمانية ، وبذا وضع الاساس الذى ستقوم عليه دولة يوغوسلافيا الحديثة • كما أكدت استقلال رومانيا والصرب والجبل الاسود • وحاولت الدول قبل كل شىء التوفيق بين مصالح الدول الكبرى فى البلقـــان • فقوى النفوذ الروسى فى شرقى البلقان ونما النفوذ النمســاوى ــ المجرى فى غربها ، ورضيت بريطانيا حين وضع حد لاطماع روسيا فى الاشراف على القسطنطينية والمضايق ، ولكن مع هذا فلقد امتد النفوذ الروسى فى آسيا بعد اخضاع القوقاز كلها وأخذ اردهان وباطوم ، وأصبحت روسيا متاخمة لأرمينيا العثمانية • وبذا أصبح فى استطاعة الروس القفز الى آسيا الصغرى نفسها والى شمال الجزيرة (العراق

---

(٤٦) انظر نص المعاهدة فى Hurewitz, op. cit., pp. 187 — 189.

وسوريا) ولكى تواجه انجلترا الموقف وتعيد التوازن أخذت قبرص فى شرقى المتوسط لصالحها ولوقف النفوذ الروسى من أن يمتد الى الشرق الأدنى • ولتحقيق أطماعها فى أملاك الدولة فى المشرق العربى •

والجدير بالذكر انه فى الوقت الذى اهتمت فيه بريطانيا بتأييد شعوب الولايات المسيحية لم تهتم بمصير رعايا الدولة المسلمين •

وكان أثر معاهدة برلين على روسيا انها وجهت اهتمامها للتوسع فى شمال آسيا ووسطها وشرقها حيث أخذت تصطدم بالشعوب الاسيوية الشرقية وبالدولة اليابانية التى ظهرت على مسرح السياسة الاسيوية والعالمية كما أخذت تصطدم بالمصالح الأوروبية والبريطانية والفرنسية فى الصين •

وحافظت المعاهدة على السلام الأوروبى وعملت ألمانيا — حتى يظل لها التفوق فى أوروبا على توجيه أنظار الدول الكبرى الى اتباع سياسة استعمارية فى افريقيا وآسيا على حساب شعوب افريقيا والشعوب العربية والاسلامية وشعوب الهند والشرق الاقصى • فبعد ثلاث سنوات احتلت فرنسا تونس وبعدها بعام احتلت بريطانيا مصر •

وكان من أثار المؤتمر أيضا زيادة اهتمام العثمانيين بأحكام سيطرتهم على الاقطار العربية والاهتمام بفكرة الجامعة الاسلامية (عبد الحميد الثانى) وبالتقارب مع ألمانيا بعد أن تخلت بريطانيا عن سياستها التقليدية للمحافظة على الدولة وعدم الموافقة على تقسيمها بأخذها قبرص وتركتها فرنسا تتحرك نحو تونس ثم تحرك بريطانيا نفسها نحو مصر • فبدأ النفوذ الألمانى يلعب دوره المعروف فى الدولة العثمانية وفى ولاياتها العربية بالذات •

وكان لجوء عبد الحميد للسياسة الاسلامية بهدف استخدام الدين لمقاومة معارضيه فى الداخل ومواجهة أعدائه فى الخارج ورأى فى هذه

السياسة أداة يضمن بها التفاف الوطن العربى بل والاسلامى حول الخلافة العثمانية وبذلك تتأكد السيطرة العثمانية على الأقاليم العربية فى وقت فقدت فيه الدولة اقليمها فى البلقان الواحد تلو الآخر وقصد ضمن ما قصد خارجيا أن يجمع حوله الشعوب الاسلامية الخاضعة للدول الأوروبية ومنها التتر الخاضعين لروسيا(٤٧) •

بعد مؤتمر برلين أصبح واضحا أن التدخل الأوروبى فى الامبراطورية العثمانية فى تزايد مستمر وسيكون نصيب البلاد العربية فى هذا التدخل الاستعمارى كبيرا • ولم تقف روسيا القيصرية بعيدا عن هذا النشاط وان كانت أوضاعها الاقتصادية قد ساءت كثيرا بسبب حربها مع الدولة العثمانية فى ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨ •

وقد كان لهذا أثره فى هزيمة روسيا أمام اليابان عام ١٩٠٤ ثم فى الثورة التى قامت فيها عام ١٩٠٥ بالاضافة الى الاتجاه الاسيوى الواضح لروسيا بعد مؤتمر برلين •

وبانتهاء مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ كانت بريطانيا قد وضعت يدها على قبرص باتفاق خاص مع تركيا وقد اعطاها هذا مركزا متميزا فى شرقى البحر المتوسط وأصبحت أهدافه فى القفز على مصر أكثر سهولة •

وكانت مصر تعيش أزمة اقتصادية وسياسية وعزل اسماعيل بعد تردى الأوضاع المالية للبلاد نتيجة لتراكم الديون الأجنبية على مصر والتدخل الأجنبى فى شئونها (الانجلو ــ فرنسى بالدرجة الأولى) •

وعندما قامت بريطانيا وفرنسا فى ١٩ يونيو (حزيران) ١٨٧٩ بتقديم انذار نهائى الى اسماعيل بالتنازل عن الخديوية وهددته فى حالة عدم الاذعان بالالتجاء الى السلطان لخلعه حظى الانذار بمساندة الدول

---

(٤٧) صفوت : مؤتمر برلين ص ٤٦ــ٥٠ نص المعاهدة .

الأخرى ومنها روسيا حيث قدم قناصل روسيا وألمانيا ، والنمسا ، وايطاليا « نصيحة » مماثلة لاسماعيل •

كما شاركت روسيا بعد ذلك فى مؤتمر القسطنطينية لعام ١٨٨٢ عندما كانت مصر فى صيف ذلك العام معرضة لخطر تدخل انجليزى حقيقى ورفضت الحكومة الفرنسية فى يناير (كانون الثانى) ١٨٨٢ برئاسة « دى فريسيبيه » خطط التدخل المشترك الأنجلو ــ فرنسى وذلك ما كانت تنتظره الدبلوماسية البريطانية • ولم يكن بمقدور فرنسا ــ حيال الاتحاد الثلاثى أن تمضى فى تصعيد الأزمة مع بريطانيا بسبب مصر ، بينما لم تكن راغبة فى ترك بريطانيا تنفرد بالتدخل • ورأت الدوائر الفرنسية ان المخرج من هذا المأزق هو الاحتفاظ باستقلال مصر • ونادت بعقد مؤتمر دولى لتسوية المشاكل الجادة وعرقلة التدخل البريطانى •

وساندت الدول ومنها روسيا مبادرة فرنسا وافتتح المؤتمر فى العاصمة التركية فى ٢٣ يونيو (حزيران) ١٨٨٢ وأسهمت فيه روسيا وانجلترا وفرنسا وايطاليا وألمانيا • بينما رفضت تركيا الاشتراك فيه لأنها اعتبرته خرقا لحقوق سيادتها وتعهدت الدول المؤتمرة « بعدم السعى فى مصر الى اقتناء الأراضى أيا كان نوعها ولا الحصول على امتيازات ذات ميزات استثنائية وامتيازات تجارية لرعاياها » كما اتخذ قرار بصدد تحاشى أية اجراءات منفردة فى مصر طوال انعقاد المؤتمر • ولكن بريطانيا تحفظت بالتالى : « اذا لم يكن هناك أحوال طوارىء وأبطل هذا التحفظ مفعول القرارات التى أتخذها المؤتمر كما أقدمت بريطانيا لايجاد أحوال طوارىء لتضع الدول أمام الأمر الواقع » •

وأدى نشوب الأعمال العسكرية العدوانية ضد مصر من جانب بريطانيا الى استياء الدول فقامت روسيا وسحبت مندوبيها من مؤتمر القسطنطينية •

وقد قررت فض المؤتمر فى ١٤ أغسطس (آب) ١٨٨٢ بعد أن أصبح واضحا أنه عاجز عن منــع التدخل البريطــانى المنفـــرد فى مصـــر[٤٨] •

وشاركت روسيا فرنسا فى مساندة السلطان العثمــانى وطالبتا بجلاء القوات البريطانية عن مصر وقد شجع ذلك الســلطان ليرفض الاتفاق البريطانى ــ التركى لعام ١٨٨٧ • ولكن لم يؤد هذا الى نتيجة واستمرت القوات البريطانية تحتل مصر مع اعلان بريطانيا ان مصـــر جزءا من الامبراطورية العثمانية !

كما شاركت روسيا أيضا فى اتفاقية القسطنطينية الخاصة بقناة السويس لعام ١٨٨٨ والموقعة فى ٢٩ أكتوبر (تشرين الأول) من ممثلى روسيا وألمانيا ، وفرنسا ، والنمسا ــ المجر وايطاليا وأسبانيا ، وتركيا وتحفظت بريطايا وماطلت حتى تم توقيعه عليها فى عام ١٩٠٤ بعـــد أن تفاهمت مع فرنسا فيما عرف بالوفاق الودى •

(٥)

روســيا والخليج العــربى

شغلت فكرة الزحف الروسى على الخايج العربى وتمركز روسيا فى موانىء على هذا الخليج اذهان كبار الساسة والعسكريين البريطانيين منذ قيام نابليون للتحالف مع قيصر روسيا ضد بريطانيا لتنفيذ خطتـــه فى احتلال الهند • فلقد اعتقد نابليون بأن روسيا تستطيع التعــاون مع جيوش فرنسا البرية للسيطرة على ايران وافغانستان ودخول الهند من حدودها الشمالية الغربية فى نفس الوقت الذى يحتل فيه الاسطول

(48) Antonius, George : The Arab Awekening- The Story of the Arab National Movment (London H. Hamilton) 1938 p. 75.
Hurewitz, op. cit., pp. 219 — 249.

الفرنسى ميناء بومباى والموانى الهندية الأخـــرى بعد أن يتمركز فى الخليج العربى • ومنذ قيام نابليون بالاتصال مع الروس ومع سلطان مسقط ، وتيبو صاحب أمير ميسور ـ آخر أمراء المسلمين والذى كان يخوض صراعا ضد البريطانيين فى الهند ـ حتى جلاء بريطانيا عن الهند فى عام ١٩٤٧ كانت السياسة البريطانية مشـــغولة بالتفكير فى أحتمال قيام روسيا القيصرية (ثم الاتحاد السوفيتى) بغزو الخليج العربى • وبذلك يخرج الموقف فى الهند من يد بريطانيا وتصبح روسيا سيدة الموقف هناك •

وبعد ظهور الحركة القومية فى الهند أخذ الاستعماريون البريطانيون يهددون السكان فى شبه القارة الهندية بشبح الخطر الروسى ويؤكدون ان من أهداف بقاء بريطانيا فى الهند رغبتها فى حراسة الهنـــد من روســـيا !

وهو أمر غريب بطبيعة الحال أن تهدد دولة مستعمرة للهند فعلا ، سكانها بدولة غـــير مستعمرة لهم ولم يروا لهـــا جنـــودا على أرضهم من قبـــل !

أما بالنسبة لوجهة النظر الروسية فقد كانت فكرة الروس الاتصال بالخليج العربى فكرة واقعية هدف اليها التحالف الروسى ـ الفرنسى غير أن الأحداث السياسية والعسكرية التى أعقبت الحرب مع اليابان قضت على آمال روسيا فى الوصول الى مياه الخليج العربى •

وقد بحثت مسائل الهجوم والدفاع على الخليج العربى بتقارير السياسيين والعسكريين لمختلف الدول ومن الذين ناقشوا أهمية الخليج العربى البحرية والعسكرية من البريطانيين « الاميرال لو Low » فى كتابه « تاريخ البحرية الهندية » وكذلك العسكرى « ماك كريجوت Mac Cregot » الذى وضع دراسة استراتيجية للدفاع عن الهند فى كتاب أصدره عام ١٨٨٥ • أما فى الولايات المتحدة الامريكية فقد تطرق

« الاميرال ماهان » الى موضوع الخليج العربى فى الصراع البريطانى — الروسى فى مقالته عن الخليج العربى والعلاقات الدولية التى نشرتها مجلة National Review البريطانية عام ١٩٠٢ ثم أصدر كتابه عن « مشكلة آسيا وتأثيرها على السياسة الدولية » عام ١٩٠٣ محذرا بريطانيا من الخطر الروسى على الخليج العربى وايران وقال بأن الخطر الروسى ليس عسكريا فحسب بل يتمثل فى استعمارها الاقتصادى لمنطقة الشرق الأدنى ومشاريعها لربط البحر المتوسط بالخليج العربى بواسطة سكة حديد • وقال بأن روسيا ستتوسع فى بلاد العرب وستهدد الاحتلال البريطانى لمصر اذا استولت على الخليج ورأى ماهان أن وجود دول مستقلة قوية فى افغانستان وايران وتركيا تحترم الدول الأوروبية حيادها أمر كفيل بحل مشكلة القلق الذى يسيطر على أفكار السياسة البريطانية عن مستقبل النفوذ البريطانى فى الهند والخليج العربى [٤٩] •

ووضح كيزرن السياسة التى يجب أن تتبعها بريطانيا فى ايران والخليج العربى وركز على تأكيد التعاون بين حكومة الهند وحكومة لندن فى تحليل مطول فى سبتمبر (ايلول) عام ١٨٩٩ • وتحدث طويلا عن أيدى روسيا الخفية والقوية فى شمال ايران وحث بريطانيا على أن تتحرك بقوة أكبر قبل أن تصبح روسيا أكبر قوة فى وسط آسيا وتقترب من مناطق عديدة وهامة قرب حدود الهند من خلال نفوذها فى ايران وافغانستان خاصة وان بامكان بريطانيا التأثير فى سياسة تركيا وافغانستان الخارجية • كما حذر كيرزن من امكانية روسيا لتحويل بحر قزوين الى بحيرة روسية •

ورأى ان بريطانيا عليها أن تقابل ذلك النشاط الروسى بجعل جنوب ووسط ايران منطقة نفوذ بريطانية • وأن سيستان ، وبلوخستان لهما أهمية خاصة بالنسبة للحفاظ على المصالح البريطانية فى الخليج العربى •

---

(٤٩) لوتسكى : المرجع السابق : ص ٢٦٧—٢٧١ •

وفى استعراضه للوضع فى الخليج العربى تحــدث كيرزن عن تبعيات مناطق مختلفة مؤكدا على أهميــة استمرار يد بلاده قوية فى المشيخات العربية التى تم توقيع اتفاقيات بينها وبين بريطانيا لمواجهة نشاط روسيا نحو جنوب ايران (خاصة سيستان) ومن ثم نحو الخليج العربى •

ولم يحاول كيرزن أن يساوم مع روسيا مطلقا فيما يتعلق بشــئون الخليج ، وقال فى مذكرة سرية أرسلها الى وزير الهند بانه لا يعتقــد ان بالامكان تقسيم الخليج العربى الى منطقتى نفوذ روسية فى الشرق وبريطانية فى الغرب ولا يمكن التنازل عن بندر عباس أو المحمرة لروسيا وليس باستطاعة حكومة الهند التنازل عن مشروع نهر الكرون [٥٠] •

وقد درست جميع الاحتمالات فى حالة حرب مع روسيا فى منطقة الشرق الأدنى وتأثيرها على منطقة الخليج العربى بالذات • وقد قامت وزارة الحربية البريطانية بدراسة امكانية ارسال قوات عسكرية الى شمال الخليج العربى ثم عبر دجلة والفرات فى حالة حرب مع روسيا وذلك ضد أى تقدم روسى فى شرق الاناضول أو فى شمال ايران •

وكانت روسيا لو استطاعت السيطرة على الممرات المؤدية الى جبال كردستان يمكنها أن تستولى على الموصل واذا تم لها ذلك أصبحت سيدة الموقف فى الجزيرة وأصبح سهل الرافدين مفتوحا أمام جيوشها وهو ما يؤدى الى الوصول الى الخليج العربى •

ومن ناحية أخرى كانت روسيا مهتمة بباطوم على اعتبار انهــا الميناء الوحيد فى القسم الجنوبى الشرقى من البحر الأسود والمينــاء الطبيعى لمقاطعات روسيا فى القوقاز ونهاية سكة حديد أرمينيا التى توصل

---

(٥٠) محمود على الداود (الدكتور) : الخليج العربى والعلاقات الدولية ج ١ (معهد البحوث والدراسات العربية ــ القاهرة) ص ١٥١ــ ١٥٢ .

البحر الاسود ببحر قزوين • وكانت الدوائر العسكرية الروسية تعتقد أن احتلال باطوم معناه وقوع استانبول الواقعة على بعد ٧٠٠ ميل الى الغرب فى يدها وبذلك تصبح الاناضول ، معقل آسيا التركية ، والتى تضم منابع دجلة والفرات ، منطقة هجوم على سهول العراق المؤدية الى الخليج العربى •

وبعد أن يئس الروس من التغلغل فى الأناضول اتجهوا الى افغانستان وايران •

وقد ذكرت وثائق وزارة الحربية البريطانية للفترة من ١٨٩٠ — ١٩١٤ بأنه اذا نشبت حرب مع روسيا فعلى الاسطول البريطانى فى المحيط الهندى أن يتوجه الى بندر عباس وبوشهر وينزل قوات عسكرية لاحتلال ايران عن طريق الاستيلاء على المحمرة وعربستان أولا لاهميتها الاقتصادية ثم احتلال كرمنشاه لوقوعها على طريق العراق • أما فى حالة الهجوم الروسى فتعمل حكومة الهند على تزويد ايران فورا بالاسلحة والضباط والأموال لعرقلة التقدم الروسى مدة تكفى لوصول امدادات جديدة الى الأسطول البريطانى فى الخليج العربى ورأت الدوائر البريطانية انه بالامكان الاستفادة من شجاعة عرب المحمرة وعربستان وكذلك الاستفادة من سهول الكارون الخصبة للمجهود الحربى[٥١] •

ومن ناحية أخرى كان بعض رجال الاستراتيجية الروسية يؤمنون بأن مصلحة روسيا مرتبطة بنقل الحرب مع بريطانيا الى الخليج العربى حيث تستطيع القوات الروسية أن تحتل موقعا مهما بالنسبة لطرق المواصلات البريطانية عبر المحيط الهندى • وكان هؤلاء يعتقدون بأن مصلحة روسيا البحرية فى المحيط الهادى وبحر البلطيق تقتضى التمركز فى الخليج •

---

(٥١) نص التقرير فى :

Hurewitz, Op. cit., P. 219

وكان احتمال قيام روسيا باستعمال ميناء مسقط للتزود منه بالفحم الحجرى قد أقلق بريطانيا • وبالنسبة الى الخليج العربى بالذات فقد كانت بريطانيا تخشى أن تقوم روسيا فى حالة امتلاكها مراكز ذات ميزات استراتيجية لاغراض جعلها قواعد للفحم البحـــرى بوضع ضـــغطها السياسى على شيوخ الخليج العربى ، واقناعهم بالتوقيع على معاهدات سياسية تعطى معنى الحماية • وفعلا اتصل الروس بالشيخ مبارك شيخ الكويت ، كما اتصـــلوا بعبد العزيز آل سعود ، وذلك خلال سنة ١٩٠٢ وحاولوا اقناعهم بأهمية التعاون مع روســـيا وفرنســـا • ولكن الأميران العربيان رفضا الدخول فى أية علاقات مع حكومة القيصر •

وكانت سياسة القيصرية الروسية فى تركيا وايران وافغانستان والصين تهدف الى الاحتلال والى ضم المناطق المحتلة الى روسيا لتكون تابعة لها كما حدث بالنسبة لتركستان وكانت هذه السياسة تعتمد كذلك على طرق مواصلات واسعة تربط هذه الأجزاء بعضها ببعــض تحت اشراف روسيا المباشر • وكان البريطانيون يعترفون بمقدرة روســـيا على تنفيذ مشاريع سكك الحديد عبر ايران الى الخليج العربى • ولكنهم كانوا مطمئنين الى الأفضلية البحرية التى تملكها بريطانيا فى الخليج والتى تمكنها من فرض الشروط على حكومة الشام ومن الدفاع عن الوضع الدولى القـــائم فى الخليج ضد أى اطمـــاع روسية أو فرنســـية أو ألمانية[٥٢] •

واتهمت روسيا بريطانيا بخرق اتفاقية برلين لعام ١٨٧٨ عندما عقدت اتفاقا سريا مع شيخ الكويت عام ١٨٩٩ الذى كان تحت ظـــل السيادة التركية •

وفى ١٢ مارس (اذار) زار الطراد الروسى « جلياك Gilayak » الخليج العربى وقد صرح قائده بأنه لاينوى احتلال أى ميناء فى الخليج

---

(٥٢) محمود على الداود : المرجع السابق ص ١٥٤—١٥٦ •

وأن زيارته لبندر عباس لا علاقة لها بالحصــول على محطة للفحــم الحجرى • وكان القنصل الروسى فى بغداد على ظهر الطراد فى رحلته فى الخليج الذى طلب من الكونت « دى وبت » فتح خط بحــرى للبواخر بين الموانىء الروسية والخليج العربى وتأسيس بنك روسى فى احدى موانىء الخليج واقامة محطة فحم فى بوشهر وابقــاء طراد روسى وبصورة دائمة فى مياه الخليج العربى على أن يكون بندر عباس مقرا له • وفى ٢١ مارس (اذار) ١٩٠١ زار الامير الروسى « دابيجه Dabiji » القنصل الروسى العام فى اصفهان ميناء بوشـــهر ، واجتمع مع العقيد كامبل المقيم البريطانى هناك وأخبره بتوقيع وصول الباخرة الروسية « كورنيلوف Korniloff » من أوديسا بعد زيارتها لمسقط وجسك وبندر عباس وطنجة ، وقد زار قائدها سلطان مســقط برفقة القنصل الفرنسى فى المدينة ••• وقد عارض اللورد هاملتون فكرة اعطاء بندر عباس للروس بشدة وصرح بأنه على استعداد لاعطائهم ميناء أقل أهمية خشية وقوع حرب عامة بين الطرفين •

وقد كتبت احدى الصحف الروسية «st. Petersburg Zietung بتاريخ ١٨ ابريل (نيسان) عام ١٩٠٠ مقالة عن بندر عباس قالت فيها : ان حكومة القيصر على استعداد للعمل على مسالة الانجليز فى الخليج شريطة أن يترك الانجليز ادعاءاتهم الخاصة بأن حدود الهند تنتهى فى العراق والكويت وقالت الصحيفة بأن فى آسيا متسعا للأستعماريين الروس والانجليز »[٥٣] •

ومما تجدر الاشارة اليه أن روسيا كانت قد دخلت فى مجـــال النشاط الذى قام حول اقامة سكك حديدية فى الأراضى العثمانية فقد كان هناك عدد من المصالح المالية الروسية التى يرأسها «الكونت كابست» عم سفير القيصر الروسى فى فينا ، قد أخذت تدرس امكانية تحقيق مشروع يقضى بمد سكة حديدية من طرابلس على البحر المتوسط الى

---

(٥٣) نفس المرجع ص ١٦١ــ١٦٣ •

الكويت على الخليج العربى عبر الصحراء على أن يربط بالعراق بواسطة طريق فرعى يمتد نحو كربلاء •• غير أن مشروعا شبه خيالى كهذا المشروع بمد خط سكة حديدية عبر الصحراء الشاسعة كان مصيره ألا يرى النور خصوصا وان روسيا لم يكن لديها الوسائل المالية أو الفنية التى تمكنها من انجاز مثل هذا المشروع(٥٤) •

وعندما ظهر مشروع سكة حديد بغداد الألمانى بدأت غيوم المعارضة الروسية للمشروع تتجمع فى الافق كرد فعل على زيادة النفوذ الألمانى فى الامبراطورية العثمانية ، ففى ٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٩٦ اتخذ مجلس الوزراء الروسى قرارا بضم المضايق الى روسيا فى أقرب فرصة سانحة وفى ٩ كانون الأول وقع قيصر روسيا على القرار المذكور وكان القرار جريئا وصريحا • وبالرغم من الاعلان عن بطلان القرار بعد فترة من الزمن من اصداره ، فان محتوياته كانت لها أهميتها الواضحة ، اذ جاءت تلك المحتويات معبرة عن الرغبات والخطط الحقيقية لروسيا فى تلك المنطقة ولم يكن مستغربا أن تظهر روسيا معارضتها للخطط والمشاريع الألمانية فى الامبراطورية العثمانية ، فبعد الاعلان عن امتياز بناء ميناء حيدر باشا أبلغ السفير الروسى فى المانيا وزير خارجيتها بأن امتياز حيدر باشا من شأنه اقلاق الحكومة الروسية لأنها تعتبر الميناء أمرا ضروريا بالنسبة لها •

ورد « الهرفون بيلو » وزير الخارجية الألمانى بأن ألمانيا تتبع فى تركيا سياسة اقتصادية بحتة وليس فى نيتها الوقوف أمام روسيا هناك • وفى نفس الوقت أبلغ سفير روسيا فى استانبول السفير الألمانى هناك ان هناك احتمالات فى أن تؤدى زيادة المصالح التجارية الألمانية فى تركيا الى اثارة المصالح السياسية الروسية الأمر الذى يؤدى الى صدام بين الدولتين •

---

(٥٤) نفس المرجع ص ١٧٣ •

ويبدو ان روسيا كانت فى ذلك الوقت تسعى للتفاهم مع ألمانيا حول آسيا الصغرى بل ومن المحتمل انها كانت تتوقع الحصول على تأييد ألمانيا للاطماع الروسية فى شمال وشرق تركيا مقابل اعطاء تأييدها للسياسة الألمانية الخاصة بسكة حديد بغداد وقد شعر الدبلوماسيون الألمان بأن فى ذلك الأمر فرصة قوية لعزل فرنسا[٥٥] •

ويلاحظ أن الروس كانوا قد عارضوا مشاريع الألمان لربط الامبراطورية العثمانية وخاصة فى آسيا الصغرى بسكك حديد — لعوامل استراتيجية وليس لعوامل اقتصادية منذ مطلع التسعينات من القرن التاسع عشر • وبدأ الروس بحملة قوية ضد العلاقات الألمانية التركية وخاصة بعد أن فشلت الحكومة الروسية فى اقناع ألمانيا بوجوب التفاهم مع فرنسا حول مشاريع السكك الحديدية واتهمتها باستعمار العراق وسوريا ولكن الألمان لم يهتموا بالمعارضة الروسية وذلك لأن العلاقات الدولية كانت متأزمة بين بريطانيا من جهة وبين فرنسا وروسيا من جهة أخرى • وكانت الاتفاقية البريطانية السرية مع شيخ الكويت عام ١٨٩٩ موجهة ضد الخطر الروسى • وان أصبحت بعد ذلك موضوعا مهما فى العلاقات الألمانية البريطانية فى المنطقة • وبعد ظهور المشروع الألمانى الخاص بسكة حديد بغداد ازدادت اهتمامات الروس بالخليج العربى وطرحت مشاريع عديدة على بساط البحث فى الصحافة الروسية متحدثة عن أهمية حصول روسيا على ميناء على الخليج وكانت الاشارة الى أحد ميناءين هما بندر عباس أو شاهبور Chahbar ولكن بريطانيا كانت مهتمة بهما كما أن الميناء الثانى ما كن يحقق الاهداف الروسية •

وكان أمام روسيا امكانية اختيار ميناء على الخليج دون أن يكون مرتبطا بخط حديدى بالداخل وهو ما رأته الدوائر الروسية غير مفيد

---

(٥٥) لؤى بحرى (الدكتور) : سكة حديد بغداد (شركة الطبع والنشر الأهلية — بغداد ١٩٦٧) ص ١٨—١٩ .

ذلك أن البحرية الروسية ـ كانت راغبة فى الحصول على ميناء بندر عباس ولكن البريطانيين كانوا يرون أن هذا سيرتبط بولاية سيستان مفتاح شمال الخليج[٥٦] • وهو ما يرفضوه •

ومع السنوات الأولى من القرن العشرين كانت الدوائر البريطانية ترى امكانية الاتفاق على مناطق النفوذ فى ايران مع روسيا وكان كتشنر القائد الأعلى للقوات المسلحة فى الهند يحذر (١٩٠٦) من السماح للروس بنشاط فى البحر العربى • أو اعطائهم ميناء فى شمال الخليج وان الأفضل تقسيم فارس بحيث تبقى روسيا بعيدة عن الخليج ، ورأى نيكولسن القائد العام للمخابرات العسكرية البريطانية أن يؤخذ بعين الاعتبار فى الاتفاقيات مع روسيا حول ايران بأن تبقى روسيا على مسافة كافية من الحدود البريطانية وفيما يخص الخليج يجب التأكيد على تفوق النفوذ البريطانى دائما عليه[٥٧] • وأصبحنا نرى تزايدا فى المعارضة الروسية والبريطانية لسكة حديد بغداد بعد الاتفاق الذى تم بين روسيا وبريطانيا حول تقسيم ايران سنة ١٩٠٧ وأصبح هذا الموضوع عاملاً مهما فى ابعاد تصاعد الخلاف بين ألمانيا وبين التحالف الروسى ـ الفرنسى ـ البريطانى • وكانت روسيا باتفاقها مع بريطانيا قد اعترفت بمنطقة الخليج العربى كمنطقة نفوذ بريطانية دون منازع وبأفضلية بريطانيا فى جنوب ايران وعربستان فى حين أصبح شمال ايران منطقة نفوذ روسية[٥٨] •

لكن روسيا ما لبثت أن أوقفت معارضتها لمشروع سكة حديد بغداد بعد عقد الاجتماع بين قيصر روسيا وقيصر ألمانيا ، أثناء زيارة

---

(٥٦) نفس المرجع ص ٤٢ــ٤٣ •

(57) Briton Cooper : Britain and the Persion Gulf 1894 — 1914 (Untvof California Press Berkelay and Last Angeles 1967) p. 119.

(58) Ibid, pp. 307 — 309, 362.

الأول للثانى فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٠ حيث جرت مباحثات فى بوتسدام أدت الى عقد اتفاقية بوتسدام بشأن سكة حديد بغـداد والمصالح الروسية فى ايران فى ١٩ أغسطس (آب) ١٩١١ حيث تعهدت روسيا بألا تضع العراقيل أمام بناء هذا الخط الحديدى فى حين تعهدت ألمانيا بالابتعاد بالخط عن الأناضول فى سوريا والعـراق • واعترفت بادعاءات روسيا فى ايران[٥٩] •

وباتفاق ١٩٠٧ بين الروس والبريطانيين واتفاق بوتسدام ١٩١١ بين الروس والألمان تكون روسيا قد قنعت بتركيز نفوذها فى شـمال ايران على أن تبتعد ألمانيا بسكة حديد بغداد عن المناطق القريبة من الحدود الروسية مع تركيا فى الأناضول •

ومن الواضح أن اتفاق ١٩٠٧ قد ترك النفوذ فى الخليج العربى بالكامل لبريطانيا وتراجعت روسيا عن تحركاتها السابقة نحو الخليج العـربى •

(٦)

روسيا واقتسام الأملاك العثمانية

قبيل الحرب الأولى وابانها

ومما تجدر الاشارة اليه انه فى الربع الأخير من القـرن ١٩ كانت مناطق نفوذ ثلاث من الدول الأوروبية الكبرى قد ارتسـمت بخطوط واضحة فأصبحت الولايات الشرقية من الأناضول منطقة نفوذ روسية ، وسوريا منطقة نفوذ فرنسيا ، العراق منطقة نفوذ بريطانيا ، وفيما يتعلق بروسيا فقد كانت تهتم بالولايات الشرقية اهتماما بالغا ، لأنها كانت متأخمة لبلادها ومتصلة جغرافيا بها بشكل مباشر ، فضلا عن أنه كان بين سكان تلك الولايات جماعات كبيرة من الأرمن • والواقـع

---

(٥٩) انظر نص الاتفا ق: Hurewitz, op. cit., pp. 265 — 267.

أن روسيا لم تكن قد أقامت هناك مؤسسات اقتصادية أو ثقافية تكسب لها النفوذ المادى والمعنوى ، الا أنها عملت على منع الدول الأخرى من اكتساب نفوذ لها فيها • وحصلت الحكومة الروسية من الحكومة العثمانية على وعد خطى يضمن لروسيا ذلك بصورة صريحة • وجاء ذلك فى كتاب موجه من وزارة الخارجية فى استانبول الى السفارة الروسية بتاريخ ١٩٠٠/٣/٣١ قالت فيه : « تتعهد الحكومة العثمانية أن لا تمنح امتيازات لأية دولة أوروبية لانشاء سكك حديدية فى جهات البحر الاسود — فى المنطقة التى تقع فى شمال وشرق الخط الذى يمتد بين اركلى — انقرة — قيصرية — سيولس — خربوط — ودان • فاما أن تنشىء السكك المذكورة هى بنفسها واما أن تمنح امتيازها الى شركات روسية » • ولما كانت الحكومة العثمانية لا تملك الامكانيات الفنية أو المالية اللازمة لهذه الأعمال فى تلك المناطق الوعرة فأن التعهد فى حقيقته يسلم بأن تكون تلك السكك فى هذه المناطق فى أيدى شركات روسية • وهو ما يعنى أن الولايات الشرقية من الأناضول أصبحت « منطقة مقفلة » دون سائر الدول الأوروبية وتقع فى نفوذ روسيا وحدها[٦٠] •

ولم يتوقف الأمر بالنسبة لروسيا عند هذا الحد فمنذ مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأصابع روسيا تتحرك فى البلقان •

وبعد احتلال ايطاليا لطرابلس واضطرار الدولة العثمانية للاعتراف بالتنازل عن طرابلس وبرقة عام ١٩١٢ زادت أطماع الدول الأوروبية الأخرى •• وبالنسبة لروسيا عرض سفيرها فى الآستانة مشروع تحالف تركى — روسى ، تتعهد بموجبه روسيا بالعمل على التكامل السياسى للدولة العثمانية بينما تقوم تركيا من جانبها بالسماح للسفن الحربية الروسية بالمرور فى المضايق • ولكن بريطانيا وألمانيا عرضت سرا هذا المشروع وحرضت الساطان على رفضه فاستجاب السلطان لتحريضهما •

---

(60) Ibid, pp. 267 — 268.

وكان من نتيجة ذلك أن أخذت سياسة روسيا تتجه أكثر فأكثر الى تكوين حلف بلقانى بزعامة الصرب ، تكون مهمته الأولى العمل عـــلى تصفية الممتلكات التركية الباقية فى البلقان ويكون لروسيا النفوذ الأول على هذا الحلف .

وفى مارس (اذار) ١٩١٢ وقعت الصر بوبلغاريا معاهدة سرية للتحالف وفى نفس الوقت دخلت اليونان والجبل الأسود هذه المحالفة ، وبذلك تألف الحلف البلقانى ونشبت الحرب فى البلقان حيث انتصر فيها الحلف على الأتراك . وهنا تدخلت روسيا والنمسا ــ المجر ، فروسيا من جانبها كانت تخشى قيام النمسا بالتوســـع فى البلقان لتـــوازن الانتصارات المتواصلة لحلف البلقان ولا سيما انتصارات الصرب . هذا بينما كانت النمسا تخشى من تحقيق مشروع دولة الصرب الكبرى . وحتى تمنع النمسا وايطاليا خروج دولة الصر بالى الادرياتيك ، أعلنت اعترافها باستقلال البانيا وخوفا من أن تتطور الحرب البلقانية الى حرب عالمية بتدخل الدول الكبرى اقترحت بريطانيا عقد مؤتمر فى لندن من سفراء النمسا ــ المجر ، ألمانيا ، فرنسا ، وايطاليا وبريطانيا غير أن أعمال المؤتمر توقفت فى يناير (كانون الثانى) ١٩١٣ عندما استولى أنور بك على السلطة بانقلاب فى تركيا واستأنف الحرب فى البلقان غير أن الهزيمة لحقت بتركيا من جديد وانتهى الأمر بتوقيع معاهدة لندن فى ٣٠ مايو (ايار) ١٩١٣ وفقدت تركيا بموجبها كافة ممتلكاتها باستثناء شريط ضيق يمتد من العاصمة الى خط يسير من اينوس على بحـــر ايجة الى ميديا على البحر الأسود .

ولكن هذه العاصمة لم توضع موضع التنفيذ بسبب اختلاف دول البلقان على الغنائم وقامت الحرب البلقانية الثانية فى يونيو (حزيران) ١٩١٤ وانتهى الأمر بهزيمة بلغاريا واعلانها الهدنة فى ٣١ يوليو (تموز) ثم وقعت معاهدة بوخارست .

على أية حال فقد تركت حروب البلقان هذه الدولة العثمانية وهى دولة غير أوروبية وأدى ذلك الى نتائج بعيدة المدى أهمها :

١ ـ تركيز الاتراك على ممتلكاتهم فى الولايات العربية بالذات •

٢ ـ ظهور حركات الاصلاح داخل الدولة العثمانية للمحافظة على ما تبقى من الدولة كدولة اسلامية شرقية مثل الجامعة الاسلامية وحركة الأتراك الأحرار •

٣ ـ ظهور الجمعيات العربية التى بدأت تطالب بحقوق العرب القومية فى الولايات العربية[٦١] • بعد أن أخذت سياسة التتريك ابعادا خطيرة •

ولقد أدى انهزام الجيوش العثمانية فى البلقان الى اسراع ساسة أوروبا فى حل الأمور الخاصة بالدولة لأنه أصبح واضحا أن عمرها لن يطول كثيرا لأن الحرب الطرابلسية والبلقانية انهكت العثمانيين الى درجة كبيرة •

واذا كانت الاتفاقيات التى عقدت فى هذه الفترة بين الدولة العثمانية وروسيا لا تعنى البلاد العربية بشكل مباشر الا أن ما حدث فى البلقان ضد الدولة • وكانت روسيا صاحبة اليد الطولى فيه كان من أهم العوامل التى جعلت الدولة تقبل الاتفاق مع الدول الأوروبية الأخرى وجل هذه الاتفاقيات كانت على حساب الولايات العربية وان كان هذا لا ينفى المسئولية العثمانية لأن الدولة استسلمت لاطماع الدول الأوروبية بشكل واضح •

وتجدر الاشارة الى أن الاتفاقيات التى عقدتها الدولة العثمانية

---

(٦١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ط ٢ (بيروت) ص ١٩٤ •

والدول الأوروبية فى هذه الفترة كانت سرية وظلت مكتومة على الرأى العام مدة طويلة والاتراك أنفسهم لم يذيعوها الا سنة ١٩٥١ حيث خصص « يوسف حكمت بابور » أحد مجلدات كتابه عن « تاريخ الانقلاب التركى » لبحث المفاوضات والاتفاقيات مستندا الى محفوظات وزارة الخارجية التركية[٦٢] •

وتمت هذه الاتفاقيات بين الحكومة التركية وبين بريطانيا وفرنسا وألمانيا :

فتم التوقيع على اتفاقيات مع بريطانيا بين يوليو (تموز) ١٩١٣ ، ومارس (اذار) عام ١٩١٤ تنازلت فيها الدولة العثمانية عن كل ما كان لها من حقوق ومطالب فى : قطر ، البحرين ، واعترفت باتفاقيات بريطانيا السابقة مع شيخ الكويت ، وتم اتفاق بخصوص شط العرب وأعطيت بريطانيا امتيازات خاصة ، وآخر بخصوص الملاحة النهرية فى دجلة والفرات تمنح بموجبه الحكومة العثمانية امتيازات لشخص بريطانى ترشحه الحكومة البريطانية لتأسيس شركة تتولى تسيير السفن فى نهر دجلة من القورنة حتى الموصل على الأقل • وفى نهر الفرات من القورنة حتى مسكنة • وتم منح الامتياز الى اللورد « اينجة كوت » البريطانى • كما وقعت اتفاقيات مع بريطانيا حول المحميات وحضرموت فى الجنوب العربى تم فيها تحديد حدود بين ولاية اليمن ، وبين عدن والمحميات التسع وتخلت بموجبها الدولة عن كل ما كان لها من حقوق ومطالب فى حضرموت •

كما جرت مفاوضات بين الدولة وفرنسا وبين فرنسا وألمانيا لتحديد مناطق نفوذ الدولتين فى آسيا العثمانية خاصة فيما يتعلق بالسكك الحديدية • بالنسبة لفرنسا عقدت معها الدولة اتفاقية خاصة بالسكك الحديدية والموانىء البحرية أعطت بموجبها لفرنسا امتيازات :

---

(٦٢) أنيس ، حراز : المرجع السابق ص ٨٥–٨٧ •

لانشاء مرافىء طرابلس الشام وحيفا ويافا ، ولمد سكة حديدية بين الرياض واللد ، ولمد سكة حديدية تمتد من طرابلس الى يافا عن طريق بيروت — حيفـــا .

وأعطيت للفرنسيين امتيازات خاصة فى تشـــغيل معظم هذه السكك بمديرين ومهندسين فرنسيين بحيث يكون لهم السيطرة عليها .

وهناك اتفاقية خاصة بالمؤسسات الفرنسية فى آسيا العثمانية اعطت امتيازات واسعة للفرنسين وفى نهايتها تعهد عثمانى بان « تعتبر الدولة أهالى تونس وفاس مثل أهالى الجزائر من تبعة فرنسا وان تعاملهم على هذا الأساس » .

وهذا يعنى أن الحكومة العثمانية قد اعترفت بحماية فرنسا على تونس وفاس .

وقد تضمنت هذه الاتفاقيات « اقتسام مناطق النفوذ » فى سوريا بين فرنسا وألمانيا بموافقة الدولة العثمانية .

ولكن روسيا لم تقدم للحكومة العثمانية ، خلال مفاوضات عامى (١٩١٣ — ١٩١٤) أى طلب يتصل بالوطن العربى .

وكانت بريطانيا قد صرحت غير مرة — على لسان وزير خارجيتها — بأنها تعترف بما لفرنسا من مركز ممتاز ومصالح خاصة فى سوريا وانها لا تطمع فى شىء فى سوريا .

وهذا يعنى أن القسمة المذكورة أصبحت متفقا عليها بين جميـــع الدول الأوروبية الكبرى وبموافقة الدولة العثمانية فأصبحت ســـوريا منطقة نفوذ فرنسية باستثناء حلب التى تركت لألمانيا (وعندما تقـــوم الحرب بين البلدين سيؤدى ذلك الى ضم حلب لمنطقة فرنسا) .

وكانت الدولة العثمانية تسعى من وراء ذلك الى عدة أمور أهمها :

(أ) الغاء الامتيازات الأجنبية .

(ب) زيادة الرسوم الجمركية .

(جـ) الاستعاضة عن النظام الجمركى المقرر بتعريفة جمركية .

(د) احتكار صنع وبيع بعض المواد .

(هـ) الغاء دوائر البريد الأجنبية .

(و) الحصول على بعض القروض لتسديد العجز فى الميزانية من ناحية وتحويل بعض المشاريع من ناحية أخرى .

وقد وافق الاوروبيون على بعض هذه المطالب وأجلوا البعض الآخر مقابل ما حصلوا عليه من امتيازات(٦٣) .

وواضح أن المفاوضات التى جرت والاتفاقيات التى عقدت كانت قد وضعت « أسس اقتسام آسيا العثمانية » من الوجهتين : « الاقتصادية والسياسية » ورسمت خطوط اقتسامها بصورة فعلية . انها كانت تقسم الولايات والمتصرفيات العربية التى تمتد بين سواحل الشام وحدود ايران ، الى أربع مناطق نفوذ . خصصت ثلاثا منها لكل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا والرابعة مشتركة بين بريطانيا وألمانيا .

وجاءت أحداث الحرب العالمية الأولى واتفاقيته فأقرت ما كان لبريطانيا وفرنسا ونسفت ما كان مقررا لالمانيا وقسمته بين بريطانيا وفرنسا .

ومن هنا يمكن القول أن أسس اقتسام البلاد العربية المذكورة

---

(٦٣) الحصرى : المرجع السابق ص ٢٠٤ .
عرض الحصرى فى كتابه المشار اليه لهذه الاتفاقيات بتفصيل ص ٢٠١—٢٢٣ .

كانت قد تقررت قبل الحرب العالمية وتمت تحت علم الحكومة العثمانية نفسها[٦٤] .

وفى الثانى من أغسطس (آب) ١٩١٤ وهو اليوم التالى لنشوب الحرب دارت مفاوضات سرية بين ألمانيا وتركيا تمخضت عن عقد معاهدة دفاعية هجومية وكانت بمثابة اتفاق عسكرى يتضمن التزامات من جنب تركيا بالاشتراك فى أية حرب تخوضها روسيا اذ نصت المادة الثانية من الاتفاق على انه « اذا تدخلت روسيا وقامت باتخاذ خطوات عسكرية واضطرت ألمانيا الى الوفاء بالالتزامات التى يفرضها عليها تحالفها مع النمسا فان تركيا ملزمة ــ فى هذه الحالة بالوفاء بالتزاماتها نحو ألمانيا »[٦٥] .

ولقد كان دخول تركيا الحرب الى جانب دول الوسط وضد دول الوفاق على جانب كبير من الأهمية لتأثيره على توازن القوى بين الفريقين المتحاربين .

فقد ترتب على دخولها الحرب ان صار على روسيا أن تحارب فى جبهة ثانية الى جانب ميدان الحرب ضد ألمانيا وبذلك يتحول جانب كبير من مجهود روسيا ــ وكذلك بريطانيا ــ من ميدان الحرب فى أوروبا . والى جانب ذلك فان تركيا بموقعها الاستراتيجى كان من شأن دخولها الحرب أن يؤثر على سلامة خطوط مواصلات بريطانيا ويفتح الطريق لامتداد النفوذ الالمانى الى ممتلكات بريطانيا الشرقية ولربما أثر على مستقبل الهند ذاتها[٦٦] .

---

(٦٤) نفس المرجع ص ٢٢٧ .

(65) Hurewitz, op. cit., vol II. pp. 1 — 2.

(66) Linczowaki, George : The Middle East in World Affairs 2nd,ed (Cornell univ. Press 1957) pp. 38 — 39.

ومن أشد الأخطار التى كانت تهدد دول الوفاق من جانب تركيا اعلان الجهاد وكان من المؤكد أن تركيا ستلجأ الى سلاح الحرب الدينية بالعمل على اثارة العالم الاسلامى ضد دول الوفاق ، خاصة وان ملايين المسلمين كانوا تحت حكم كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا وقد أكدت التقارير الأمريكية أن ملايين من رعايا الدولة المسلمين كانوا يرحبون بالحرب أملا فى القضاء على الخطر الروسى ويؤمنون فى هزيمة روسيا وبريطانيا بالاستعانة بألمانيا • وكانت ألمانيا ترى ان اعلان الحـرب المقدسة سيحشد ضد الانجليز والروس المسلمين ويمكن أن يؤدى ذلك الى ارغام الدولتين على طلب الصلح(٦٧) •

ومن ثم فان دخول روسيا الحرب فى صف الوفاق كان مهما للغاية بالنسبة لبريطانيا وفرنسا •

وفى بداية الحرب ، شعرت الحكومة البريطانية بضرورة ابلاغ الروس عن موافقة لندن على حل مسألة الاستانة والمضايق وفق رغبات روسيا • وبعد استلام هذه المذكرة قدم « سازنوف » وزير خارجية روسيا رسالة فى ٤ مارس (آذار) ١٩١٥ الى السفيرين البريطانى والفرنسى فى بطرسبرج مقترحا عليها تزويده بموافقة خطية على أن تكون المضايق من حق روسيا وتقبل الحلفاء هذا الاقتراح فاعلن سفير فرنسا فى روسيا فى ٨ مارس (آذار) عن موافقة الحكومة الفرنسية على مطالب روسيا لقاء موافقة الأخيرة بالاعتراف بحق فرنسا فى سوريا ولبنان وكيليكيا وكانت روسيا مستعدة للاخذ بهذه المساومة • ومع ذلك تحفظت حول « مطامع الأرمن فى كيليكيا » كما أثارت قضية « الأماكن المقدسة » فى فلسطين أما البريطانيون فتصرفوا بحذر اذ طالبوا بأن يؤخذ بعين الاعتبار مسألة تأسيس دولة اسلامية مستقبلا وبأن تقرر حدودها فيما بعد •

---

(٦٧) محمود حسن منسى (الدكتور) : حركة اليقظة العربية فى الشرق الاسيوى ط ١ (دار الاتحاد العربى للطباعة ـ القاهرة ١٩٧٢) ص ٢٠١ •

وفى ١٠ ابريل (نيسان) ١٩١٥ وقعت اتفاقية بين روسيا وبريطانيا وفرنسا منحت المضايق بموجبها الى روسيا ونظر فى تأليف دولة اسلامية مستقلة فى الجزيرة العربية أما قضية سوريا وفلسطين فبقيت معلقة حيث أجريت مفاوضا تاضافية حولها بين انجلترا وفرنسا فى نهاية عام ١٩١٥ وبداية ١٩١٦ . وبمناسبة هجوم الروس على القوقاز فى بداية ١٩١٦ ، أسرع فى انهاء هذه المفاوضات . فوافقت بريطانيا على التنازل لفرنسا من الأراضى الواقعة غرب حلب ــ حماه ــ دمشق وأصر الفرنسيون على اعتبار هذه المنطقة كمستعمرة فرنسية مقبلة وشرقى سوريا كمنطقة نفوذ فرنسية .

وقبيل ذلك قدمت روسيا خطة جديدة لحل القضية العربية ، بعد أن كانت قد تأكدت من وجود نزاع بين جمال باشا والحكومة المركزية فى استانبول وتتلخص هذه الخطة فى الآتى :

يطلب من جمال باشا أن يقطع علاقاته مع الباب العالى وأن يفتح الجبهة للحلفاء . واقتراح لقاء ذلك وضع جمال باشا على رأس سلطنة مستقلة مؤلفة من ست ولايات ذات حكم ذاتى (بضمنها أربعة ولايات عربية) وعلى هذا الأساس اقترح « سازنوف » اجراء مفاوضات سرية مع جمال باشا . الا أن دول الوفاق (فرنسا وبريطانيا بالذات) لم تكن مستعدة اطلاقا للموافقة على هذا المشروع الذى سيقدم البلاد العربية ــ محل اطماع الدولتين ــ لجمال باشا ولهذا أعلنت فرنسا انه لا يمكن تحقيق هذه الخطة الا فى حالة عدم تقديم المناطق التى خصصت لها الى جما لباشا . وقدمت بريطانيا نفس الشرط بخصوص العراق والجزيرة العربية . وترتب على ذلك فشل الخطة الروسية .

وفى مارس (آذار) ١٩١٦ قدم الى العاصمة الروسية المبعوثان الخاصان سايكس عن بريطانيا ، وبيكو عن فرنسا . وفى مجرى المفاوضات التى قاما بها ، وضعت الاتفاقية المعروفة بــ (سايكس ــ

بيكو) والتي تكونت كمذكرات متبادلة بين فرنسا وروسيا (٩ مايو / ايار ١٩١٦) وفرنسا وبريطانيا (١٥ مايو ١٩١٦) ولم يكن لروسيا التى تبادلت المذكرات اللازمة مع بريطانيا فى خريف ١٩١٦ اطماع فى البلاد العربية • ولكن لقاء انضمامها الى الاتفاقية وعدها حلفاؤها بالولايات الارمنية فى تركيا وشمال كردستان وأكدوا « حقها » فى القسطنطينية والمضايق وفى الدفاع عن مصالح الارثوذكس في فلسطين• فظهرت على الخريطة الى جانب المناطق البريطانية الفرنسية « منطقة صفراء » هى منطقة بحيرة « فان » تختص بها روسيا(٦٨) •

وهكذا فانه لكى تحصل روسيا على اطماعها فى الأراضى التركية الغير عربية ، سلمت بالمقابل لحلفائها (الفرنسين والبريطانيين) بأطماعهم فى الوطن العربى • وشاركت فى المفاوضات التى انتهت الى اتفاقية سايكس بيكو المعروفة •

وعندما قامت الثورة الروسية عام ١٩١٧ تزايد اتجاه الحكومة التركية نحو الجامعة الطورانية وزاد أمل الأتراك فى تحقيق أحد أهدافهم من الحرب وهو تحرير الجماعات التركية فى روسيا وضمها لتركيا ، وترتب على هذا تركيز الجهد التركى فى الحرب فى عامها الرابع على القوقاز مما أدى الى اهمال الميادين الأخرى للحرب بما فيها الشرق العربى حيث كانت ألمانيا تريد وقف التقدم البريطانى ، ولذلك غضبت القيادة الألمانية لأنها نظرت الى التحرك التركي فى القوقاز عام ١٩١٨ كما لو كان الاتراك قد تخلوا عن تحالفهم مع الألمان ليخوضوا حربا تخدم مصالحهم وحدهم(٦٩) •

---

(٦٨) لوتسكى : المرجع السابق ص ٤٦٠ـ٤٦٢ وانظر النص فى : Hurewitz, op. cit., vol. II. pp. 18 — 22.
وانظر كذلك محمود صالح منسى : المرجع السابق ٣٢٥ وما بعدها .

(69) Linczowski op. cit., p. 55.

وفى نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٩١٧ نشرت الحكومة الروسية المعاهدات السرية الخاصة باقتسام الامبراطورية العثمانية وبضمنها اتفاقية سايكس – بيكو . وقد اذيع النص الكامل للاتفاقية ضمن بقية الاتفاقيات السرية عندما نشرت هذا النص جريدتا ازفستيا وبرافدا فى ٢٣ نوفمبر (تشرين الثانى) عقب العثور عليها فى سجلات وزارة الخارجية الروسية . ونشرت بناء على تعليمات تروتسكى « قوميسير » الشئون الخارجية الروسية والذى أعلن فى حديث له أمام اللجنة المركزية للسوفيت فى بتروجراد « ان كل الاتفاقيات السرية قد صارت الآن تحت يدى ، وان بنود هذه الوثائق لاسوأ مما توقعنا ، وسوف نلقى بها فى سلة المهملات[٧٠] .

وأعلن بلفور وزير خارجية بريطانيا فى أعقاب ذلك بأن الاتفاقية تلفيق عن البلاشفة وكان هذا التصريح لتهدئة العرب وهو تصريح خادع بطبيعة الحال .

كما كان رد فعل الشريف حسين على نشر الروس لهذه الاتفاقية مجرد طلب استفسار من الحكومة البريطانية عن الاتفاقية وسارعت لندن فردت عن طريق ونجت مندوبها فى مصر فى حزيران عام ١٩١٨ مؤكدة ان ما أذاعته موسكو لا يمثل اتفاقية مبرمة فعلا ولكنها محاضر لمحادثات بين فرنسا وبريطانيا وروسيا فى بداية الحرب وقبل الثورة العربية بقصد تجنب اثارة الصعوبات بين الدول المتحالفة فى متابعة الحرب ضد تركيا ... وان نجاح الثورة العربية وانسحاب روسيا من الحرب قد خلق ظروفا مختلفة تماما[٧١] .

وقبل الشريف هذا التفسير البريطانى . وواضح انه استمرار لخداع العرب .

---

(٧٠) محمود صالح منسى : المرجع السابق ص ٣٢٧ .

(71) Antenius, op. cit., p. 257.

وكان الرئيس ولسن قد صرح فى الكونجرس بتاريخ ٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٧ بأنه سيعمل على منح حق تقرير المصير لشعوب الامبراطورية العثمانية .

ومعروف مدى التأثير الذى أحدثه هذا التصريح فى الوطن العربى .. لكن العرب لم يحققوا شيئا من وراء وعود ولسن ووقعت العراق والشام تحت يد بريطانيا وفرنسا تحت اسم الانتداب كما هو معروف أيضا .

خاتمة

من العرض السابق يتضح أن روسيا القيصرية كانت فى مقدمة الدول التى دخلت فى صراع مع الامبراطورية العثمانية استمر منذ عهد بطرس الأول (١٦٨٢–١٧٢٥) حتى سقوط النظام القيصرى سنة ١٩١٧ .

وكانت مناطق هذا الصراع الأراضى الاسيوية من الامبراطورية العثمانية المجاورة لروسيا والقسطنطينية والمضايق والبلقان .

وكان التحرك الروسى ضد الدولة العثمانية يدفع الى تدخل بريطانى يعقبه تحرك أوروبى – لوقف التدخل الروسى ولمنع الروس من تحقيق جل أطماعهم فى ولايات الدولة حفاظا على المصالح الاستعمارية لهذه الدول الأوروبية وعلى التوازن الدولى من وجهة نظرهم . ولكن تحت ستار الحفاظ على سيادة وتمامية أراضى الدولة العثمانية .

ان حروب الروس ضد الدولة العثمانية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أضعفت تلك الدولة كثيرا خاصة حرب القرم ١٨٥٤ – ١٨٥٦ ، وحرب ١٨٧٧ – ١٨٧٨ . ولكنها أضعفت الاقتصاد الروسى والعسكرية الروسية أيضا وهو ما ظهر أثره فى هزيمة روسيا أمام اليابان عام ١٩٠٤ ثم من الثورة التى قامت بها عام ١٩٠٥ .

وأخطر ما أصاب العثمانيين من جراء هذه الحروب هو اخراجهم من البلقان تدريجيا والنشاط الروسي فى كل ما حدث فى البلقان من انتفاضات ضد العثمانيين كان واضحا على امتداد القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين وكان يأتى تارة تحت ستار مساعدة الثوار ثم تحت اسم الجامعة السلافية •

وقد أثر الصراع الروسى ــ العثمانى على الوطن العربى كثيرا فجل الوطن العربى كان ابان هذا الصراع تابعا للدولة العثمانية وعلى ولايات الدولة ان تشارك فى حروبها ضد الروس وضد ما يحركه الروس فى البلقان بالذات وعلى هذه الولايات أيضا أن تدفع حصصها فى تعويضات الحرب لروسيا المطلوبة من الدولة العثمانية •

وكلما تقلص سلطان الدولة على الولايات الأوروبية فى البلقـــان تعمل على تقوية سلطانها أكثر فى الولايات العربية •

اضافة الى ذلك امتد النشاط الروسى الى مناطق عربية بشـــكل مباشر بهد فالضغط على الدولة العثمانية لتسلم بمطالب روســية فى ميادين غير عربية أو لتسلم بتفوق نفوذ روسيا فى الأراضى المقدســة فى فلسطين : مثال ذلك ما حدث عن مساندة روسيا لحركة على بك الكبير فى مصر وظاهر العمر فى فلسطين فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وان تراجعت عن هذه المساندة بعد التنــازل لروسيا من جانب العثمانيين فى مناطق أخرت غير عربية •

ورأينا كيف قامت روسيا بدور بارز فى افشال مشروع محمد على لاقامة دولة عربية كبرى : ففى بدء الأزمة التركية ــ المصرية فرضت روسيا نفسها على الباب العالى (معاهدة هنكار اسكلسى) واوقف هذا النصر الدبلوماسى ــ لصالح روسيا عام ١٨٣٢ تقدم القوات المصرية على مشارف استانبول وجاء اسطول القيصر الروسى وجيشه اليها وتمتع

الروس بنفوذ متفوق فى العاصمة العثمانية وبحق اجتياز سفنهم الحربية للمضايق التركية لفترة ٠

وجر ذلك الى تشدد بريطانى قاد دولا أوروبية أخرى الى اتفـــاق ضد محمد على اودى بمشروعه ٠

ونتيجة لتخوف بريطانيا الدائم من ظهور روسيا بشكل قوى فى البحر المتوسط وفى الخليج العربى وما يترتب على ذلك من اخطـــار على الطرق التى توصلها الى الهند لم تتمكن روسيا القيصرية ــ والتى كانت جادة فى العمل للوصول الى هذه البحار ــ من اقامـــة علاقات اقتصادية واسعة مع البلاد العربية رغم انها كانت قد أقامت مثل هــذه العلاقات فى القرن التاسع عشر خاصة مع مصر وسوريا وتوسعت فيها بعد افتتاح قناة السويس ٠

ففى عام ١٩٠١ فتحت شركة للملاحة والتجارة الروسية خطــا ملاحيا منتظما بين « اوديسا » وموانىء الخليج العربى ولكن بريطانيا التى كان لها السيطرة فى الخليج فى ذلك الوقت قررت خنق المزاحمـــة الروسية فى التجارة وهى فى مهدها فأسرعت وخفضت شركات الملاحة البريطانية بعد وصول « كورنيلوف » أول سفينة لشركة الملاحة والتجارة الروسية الى البصرة عام ١٩٠١ ــ أجرة النقل البحرى من موانىء أوروبا بنسبة ٧٠٪ ومع ذلك استمرت التجارة الروسية ــ العربية تتطور ولكن ببطء[٧٢] ٠

وقد شاركت روسيا القيصرية دولا أوروبية أخرى قبيل الحرب العالمية الأولى وابانها من أجل تحقيق أطماعها فى الأراضى العثمانية ٠

---

(٧٢) بونداريفسكى : سياستان ازاء العالم العربى (دار التقدم ــ موسكو ١٩٧٥) ص ٢٠ــ٢١ ٠

فمن أجل تحقيق أحلامها فى (القسطنطينية) والمضايق شاركت روسيا بريطانيا وفرنسا فى اتفاقية سايكس — بيكو — وان لم يكن لها اطماع فى الوطن العربى — وكان ذلك آخر عمل ساهمت فيه روسيا يمس الوطن العربى •

وتجدر الاشارة الى أن نغمة التخويف بالخطر الروسى على الخليج العربى والهند قد ضربت عليها بريطانيا من القرن التاسع عشر فى وقت كانت فيه السيطرة البريطانية على الخليج قائمة والاستعمار البريطانى فى الهند راسخة اقدامه ولم يكن هنا أو هناك أى أثر لسيطرة روسية أو احتلال روسى •

على أية حال فان خروج روسيا الى البحر المتوسط وظهورها فى مياه الخليج العربى جعل اتصالها بالوطن العربى ميسرا وخدم مصالحها وأخرجها من عزلتها • وبدأت قناصلها تنتشر فى المدن الهامة فى العراق والشام ومصر • وفى القرن التاسع عشر كتب بعضهم عن أقاطر عربية فكتب القنصل الروسى بازيلى (استمر قنصلا لروسيا فى بيروت طوال ١٥ عاما اعتبارا من ١٨٣٩) كتابا عن « سوريا وفلسطين تحت الحكم التركى تاريخيا وسياسيا » وكتب أداموف أول قنصل روسى فى البصرة كتابا باسم « العراق العربى » وكتب غيرهم فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين عن الحضارة العربية وتأريخ العرب من العلماء الروس المشهورين من أمثال « فرين وبولديريف وسانيليف وجريجوريف وسنيكوفسكى ودورن وروزين وميدينكوف وبارتولد وكريمسكى وكراتشكوفسكى » وتعاون معهم بعض السوريين المصريين مثل الأديب المصرى الشيخ طنطاى الذى قام بتدريس اللغة العربية منذ عام ١٨٤٠

فى القسم الخاص باللغات الشرقية فى وزارة الخارجية الروسية وأصبح اعتبارا من عام ١٨٤٧ استاذ اللغة العربية فى جامعة بطرسبرج[٧٣] .

وهذا يعنى أن هناك علاقات قامت بين روسيا القيصرية والبلاد العربية فى العهد القيصرى وان كانت هذه العلاقات لم تتخط العلاقات القنصلية .

---

(٧٣) بوتداريفسكى : المرجع السابق ص ٢٦٤–٢٦٥ .

(*) فيما يخص مصر والتمثيل القنصلى بينها وبين روسيا ، انظر التفصيلات فى فؤاد المرسى : العلاقات المصرية — السوفيتية ١٩٤٣–١٩٥٦ (دار الثقافة الجديدة — القاهرة ١٩٧٦) ص ٢٠–٢١ .

العرب وقضية فلسطين

الشركة العقارية العربية

لانقاذ ومساعدة أراضى وعرب فلسطين

د٠ نبيل عبد الحميد سيد أحمد

كلية الآداب ــ جامعة المنيا

بذل العرب جهدا كبيرا ، لانقاذ ومساعدة أرض وعرب فلسطين ، بعد أن بدأ فى الافق خطر قيام دولة اسرائيل ، وأحد هذه الجهود العربية المشتركة تأسيس الشركة العقارية العربية فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧ ٠

وفكرة تكوين هذه الشركة مبنية على أساس مواجهة خطر تزايد معدلات هجرة اليهود الى فلسطين واقدامهم على امتلاك الأرض العربية ومختلف العقارات ٠

ويتواكب مع ذلك ، فقد الكثير من العرب لأراضيهم الزراعية التى تركوها لليهود وذلك تحت عوامل الضغط والتهديد تارة ، وعوامل الاغراء المادى تارة أخرى ، بالاضافة الى ظروف اقتصادية واجتماعية صعبة وشائكة ٠

وهذا هو مكمن الخطر الكبير فى القضية الفلسطينية ، والذى ترتب عليه الاستمرار فى سياسة التهويد ، لتنفيذ خطة اليهود والتى عكفت

على رسم خطوطها الصهيونية العالميـة من أجل اعلان قيـام دولة اسرائيل[١] •

وعن خطر تزايد هجرة اليهود الى فلسطين العربية وامتلاكهم للارض ومختلف العقارات ، فاننا نجد أن تلك الهجرة ، قد سارت فى موجات متعاقبة ، استمرت من ١٨٨٢ وحتى ما بعد الحرب العالمية الثانية، والجدول المبين بالملحق رقم (١) يوضح موجات تلك الهجـرة واعدادها والبلاد الوافدة منها ، وكذلك الصفات الرئيسية للمهاجرين •

واذا كان الجدول قد قسم موجات الهجرة الى فلسطين الى خمس موجات ، بالاضافة الى موجتى هجرة الحرب العظمى الثانية وما بعدها ، فان هناك عدة ملاحظات أخرى على هجرة اليهود الى فلسطين ، من ذلك أننا نجد ، انه من بداية موجات الهجرة فى عام ١٨٨٢ وحتى قيام اسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، فى هذه الفترة التى بلغت ٦٦ عاما ، تضاعفت الأقلية اليهودية فى فلسطين ٢٢ مرة ، بوفود أكثر من نصف مليون «٥٥٢ر٠٠٠» مهاجر يهودى جديد[٢] واقتربت نسبة عدد اليهود من ٣٣٪ من مجموع سكان فلسطين سنة ١٩٤٧[٣] •

وكان لصدور وعد بلفور أثر كبير فى زيادة الهجـرة ، كما كان للاضطهاد الذى لاقاه اليهود أيضا فى شرق أوروبا وخاصة فى روسيا أثرا كبيرا فى ذلك ، هذا بخلاف الحركة الصهيونية وظهورها وتنظيمها للهجرة ، وكذلك القيود التى فرضت فى بعض الدول ، والتى حدت من الهجرة اليهودية اليها مثل القانون الذى وضع فى بريطانيا ١٩٠٥ والآخر الذى صدر فى الولايات المتحدة سنة ١٩٢١[٤] •

---

(١) وعن خطط الصهيونية العالمية فى تنفيذ وتحقيق اغتصاب فلسطين راجع : يورى ايفانوف الصهيونية حذار ! ترجمة ماهر عسل وهى دراسة سوفيتية فى تاريخ وتنظيم وأيديولوجية الحركة الصهيونية •

(٢) وليم فهمى : الهجرة اليهودية الى فلسطين ص ٣٥ ، ٣٧ •

(٣) يورى ايفانوف : المصدر السابق ص ١٢٦ •

(٤) وليم فهمى : المصدر السابق ص ، ص٣٧ ، ٣٩ •

وواكبت حركة تزايد معدلات هجرة اليهود الى فلسطين ، عملية انتقال ملكية الأرض الزراعية اليهم ، وكان ذلك بمساحات كبيرة ، وعلى حساب الملاك العرب . وقد بلغت جملة الأرض الزراعية التى نقلت ملكيتها الى اليهود حتى عام ١٩٣٦ (١ر٣٩٣ر٦٠٠) دونم ، مع ملاحظة أن جملة مساحة فلسطين تبلغ (٢٦ر١٥٨ر٠٠٠) دونم ، ويزرع من هذه المساحة (٦ر٠١٦ر٨٤٨) دونم على أكثر تقدير[٥] .

وكان نقل ملكية الأرض العربية الى اليهود يتم على حساب الملاك العرب ، اذ فقدت نسبة كبيرة منهم ، ملكيتهم لأراضيهم الزراعية، وقد بلغت تلك النسبة (٢٩ر٤٪) من العائلات العربية أصبحت بلا أرض حتى عام ١٩٣٠[٦] واستمرت موجة طرد اليهود للعرب من أراضيهم ، الزراعية فقد سجلت الوثائق البريطانية فى عام ١٩٣٦ (٣٢٧١) شكوى مقدمة من مزارعين عرب طردهم اليهود من أراضيهم بالقوة ، وتتكون كل أسرة من خمسة أفراد على الأقل ، هذا بالرغم من وجود عائلات وأسر عربية أخرى فقدت الأرض ، ولم تستطع تسجيل أو تقديم شكواها ، ولذلك فان الأرقام الحقيقية غير معروفة بالضبط[٧] .

وكل ما يمكن معرفته هنا حالات معينة ، فمثلا فى احدى الصفقات الكبيرة لشراء الأرض ، قام اليهود بطرد حوالى (٨٠٠٠) فلاح فلسطينى، كانوا يسكنون فى ٢١ قرية ، ويقابل هؤلاء مصيرهم المظلم من الضياع وتتركهم الحكومة بدون أية مساعدة[٨] .

---

(٥) عادل حسن غنيم (الدكتور) : الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٧ — ١٩٣٦ ص ٢٧١ .

(٦) جلال يحيى (الدكتور) : مشكلة فلسطين والاتجاهات الدولية ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٧) يورى ايفانوف : المصدر السابق ص ١٢٤ .

(8) T.D. Glube: Britain and Arabs, p. 149.

وجدير بالذكر أن نشير هنا ، الى أن أغلب العائلات العربية التى باعت أراضيها هم من السوريين واللبنانيين[٩] وان كان هذا لا ينفى وجود أقلية فلسطينية من كبار الملاك أقدمت هى أيضا على بيع الأرض لليهود[١٠] أما الفلاح الفلسطينى الصغير فانه لم يقدم على بيع أرضه الا تحت ظروف قاسية ، كظروف الضرائب العديدة التى أثقلت كاهله ، وعدم سن الحكومة القوانين لحماية صغار الزراع الفلسطينيين على عكس اليهود ، بالاضافة الى انخفاض أسعار الحاصلات الزراعية بسبب منع الحكومة تصديرها[١١] .

كما ارتكب اليهود أبشع أنواع الجرائم والارهاب لاشاعة الذعر بين السكان العرب تمهيدا لطردهم واغتصاب أرضهم[١٢] .

وأمام خطورة أوضاع نقل ملكية الأرض العربية الى اليهود ، حاول القادة الفلسطينيين التفكير العملى لحل تلك المشكلة ، وأسفرت

---

(٩) عادل غنيم (الدكتور) : القوى الاجتماعية فى فلسطين فيما بين الحربين العالميتين ص ١١٢ ، ١١٤ .

S. Christopher: Crossroads to Israel, p. 115.

(١٠) ومن أمثلة العائلات الفلسطينية الاقطاعية التى قامت ببيع أرضها لليهود ، عائلة عبد الهادى ، ومصطفى خليل ، وراغب النشاشيبى ، وعبد الرحمن التاجى ، وخليل البطة ، وهؤلاء الفلسطينيون الذين أغراهم بريق ذهب اليهود ، لم ينجوا من حكم الشعب عليهم بالاعدام ، ولم يكد ينج من هذا الحكم أحد ، الا من اتخذ بلدا غير فلسطين مسكنا له .

وفى ذلك راجع :

ــ ابراهيم رضوان الجندى : الأرض والفلاح الفلسطينى فى ظل الانتداب البريطانى ص ٣٠ « دراسة منشورة بمجلة آفاق عربية ، وهى مجلة فكرية شهرية ، تصدر فى بغداد . السنة الرابعة ، العدد ٨ سنة ١٩٧٩ » .

(١١) عادل غنيم (الدكتور) : الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٧ — ١٩٣٦ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(١٢) وليم فهمى : المصدر السابق ، ص ٧٩ .

المناقشات والمشاورات عن تكوين البنك الزراعى العربى سنة ١٩٣٣ ، وهذا البنك يعتبر أول محاولة عربية لانقاذ الفلاح الفلسطينى ، وتوفير ما يحتاجه من دين بفوائد معقولة ، ولم يقدر لهذا البنك أن يستمر فى أداء مهمته ، فقد تحول عام ١٩٤٢ الى بنك تجارى وغير اسمه ، الى بنك الأمة العربية ، أما المحاولة الثانية ، فكانت انشاء صندوق الأمة العربى عام ١٩٣٥ ، والهدف منه انقاذ الأراضى العربية المعرضة لخطر البيع لليهود بشرائها رأسا أو التوسط لنقلها الى أيد عربية أخرى ، وأصاب هذا الصندوق بعض النجاح ، فى انقاذ نسبة من الأراضى التى كانت معروضة للبيع أمام اليهود ، الا أن نجاحه لم يكن كبيرا ، أمام قلة رأسماله والتى جمعت من عرب فلسطين ، فى نفس الوقت الذى كانت فيه رؤوس الأموال اليهودية غير محدودة وتنهمر بغزارة على فلسطين من جميع أنحاء العالم[١٣] .

ووسط هذه الظروف ظهر الجهد العربى المشترك ــ بعد تكوين جامعة الدول العربية ــ لعله يكون أكثر تأثيرا فى حل المشكلة والحيلولة دون تهويد فلسطين ، ونقل الأرض العربية الى المهاجرين اليهود .

وأسفر التفكير العربى عن تأسيس شركة عقارية ، تتولى مهمة الحفاظ على أرض فلسطين ومساعدة الزراع بصور مختلفة ، وتلك هى « الشركة العقارية العربية » .

الجامعة العربية ودراسة تكوين شركة لانقاذ أرض فلسطين :

تأسست جامعة الدول العربية ، بعد مشاورات بين بعض تلك الدول وأمكن التوقيع على ميثاق تأسيسها فى ٢٢ مارس ١٩٤٥[١٤] .

---

(١٣) عادل غنيم : المصدر السابق ، ص ٢٧٦ــ٢٧٧ .

(١٤) صفحات من المذكرات السرية لأول أمين عام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام ، ص ٢٦٦ .

وفى العام الأول من تأسيسها أخذت الجامعة العربية فى دراسة مشروع انقاذ الأرض العربية فى فلسطين • وبدأت تلك الدراسة عندما كونت الجامعة لجنة اقتصادية من خبــراء على مستوى عال ، تكــون مهمتها بحث موضوع انقاذ الأرض العربية فى فلسطين ، وبعد أن فرغت تلك اللجنة من أعمالها ، قدمت تقريرا الى الامانة العامة بالجامعة يتضمن مشروعا لانقاذ أراضى فلسطين ، ورفعت الأمانة العامة هــذا التقرير بالتالى الى مجلس الجامعة المنعقد فى ٨ ضوفمبر ١٩٤٥ ، وأعلن المجلس تقديره للجهود التى بذلتها اللجنة فى هذا السبيل ، واتفاقه على العمل لانقاذ أرض فلسطين ، وقد قرر المجلس بناء على ذلك تعيين هيئة من الخبراء لدراسة تقرير اللجنة الاقتصادية ، وتحديد أفضل الوسائل الفعالة لوقف أعمال نقل الأرض العربية الى اليهود[١٥] •

ولم يطل بحث هيئة الخبراء ، فما لبثت أن قدمت هى الأخــرى تقريرين الى مجلس الجامعة فى جلسة ١٤ ديسمبر ١٩٤٥ ، حول أفضل الوسائل للحيلولة دون استمرار نقل الأرض العربية من العرب لليهود ، وقرر مجلس الجامعة عرض تلك الدراسة على الدول الأعضاء[١٦] لأخذ الرأى واشراكها فى مشروع انقاذ أرض فلسطين ، على أن تكون هناك سرعة فى مشاركة الدول العربية وتحديد الوسيلة المتفق عليها قبــل نهاية شهر يناير ١٩٤٦[١٧] •

---

(١٥) قرارات مجلس جامعة الدول العربية الخاصة بقضية فلسطين ، منذ الدورة الأولى حتى الدورة الخمسين يونيو ١٩٤٥ — سبتمبر ١٩٦٨ ، ص ١١٤ •

« جامعة الدول العربية ، الامانة العامة ، ادارة شئون فلسطين » •

(١٦) كان عدد الدول العربية الأعضاء فى الجامعة فى ذلك الوقت ، سبعة وهى (مصر — السعودية — سوريا — العراق — شرق الاردن — لبنان — اليمن) •

راجع : مذكرات عبد الرحمن عزام ، ص ٢٦٧ •

(١٧) قرارات مجلس جامعة الدول العربية ، ص ١١٤ •

وبالفعل كانت هناك سرعة من الدول العربية الأعضاء بالجامعة العربية فى دراسة المشروع ، وكان هناك اتفاق على وضع حل لذلك ، وقدمت الجامعة العربية هذا الحل فى شكل مشروع انشاء مؤسسة مالية (شركة) لانقاذ أراضى فلسطين ، وأعلن عن هذا المشروع بعد أن بحث فى جلسة مجلس الجامعة المنعقد بتاريخ ٢٨ مارس ١٩٤٦[١٨] .

وحول هذا المشروع فانه قد وضع على أساس تكوين مؤسسة مالية (شركة) تكون مهمتها انقاذ أرض فلسطين ،

وقد قسم المشروع على حسب أغراضه الى عدة أقسام .

القسم الأول :

وهو قسم للتسليف العقارى لمساعدة الملاك على تحسين أراضيهم واستصلاحها .

القسم الثانى :

قسم للتسليف الزراعى لتمكين المزارعين من شراء الأسمدة و التقاوى والمواشى والآلات الزراعية بشروط موافقة[١٩] .

والمشروع هنا فى هذين القسمين يحاول تخطى أزمات صغار الزراع الفلسطينيين بتقديم المساعدات المالية اللازمة والواجب تقديمها لدوام الاستمرار فى خدمة الأرض وزراعتها ، والتى وقفت أمامها سلطة الاحتلال البريطانى وخطط اليهود لتنفيذ أغراضهم .

القسم الثالث :

قسم للاستغلال الزراعى والتعليمى ، فتقوم المنشأة بالاستغلال الزراعى الحديث للعمل على نشر التقاليد الزراعية الطيبة بشراء قطع

---

(١٨) قرارات مجلس جامعة الدول العربية ، ص ١١٥ — ١١٦ .
(١٩) نفس القرارات ، ص ١١٥ .

من الأرض بأسعار اقتصادية حيثما أمكن ذلك ثم بيعها بعد ذلك لصغار المزارعين بشروط ميسرة مع تسهيلات فى الدفع ، ثم تسعى بعد ذلك الى شراء قطع صغيرة أخرى لاصلاحها وبيعها ، على أن تصبح هذه المزارع النموذجية أشبه بمدارس لتعليم أبناء العرب تعليما علميا أصول الزراعة الحديثة ، ويكون من اختصاص هذا القسم المساهمة فى شراء الأرض عند الاضطرار ، على أن تؤجر لصغار الفلاحين بشروط سهلة أو تباع لهم بأثمان مقسطة لآجال طويلة[٢٠] .

القسم الرابع :

والقسم الرابع من المشروع حاول فيه واضعوه ، تخطى عقبات التشريع بتعديل الضرائب العقارية الزراعية ، حتى لا ترهق صغار الزراع ، وأن تكون الضرائب على أساس غلة الأرض[٢١] .

والأمر هنا ليس بيد واضعى التشريع ، اذ أن أمور الحكم والادارة فى فلسطين ، قد أصبحت بيد الانجليز ، وفى خدمة مصالح اليهود .

كما كان القسم التشريعى يهدف أيضا الى تعديل تشريع ملكية الأراضى وانتقالها بما يحقق الأغراض التى ترمى اليها المنشأة[٢٢] .

والحاقا بالقسم التشريعى من مشروع الشركة ، فان لجنة الخبراء التى قدمت المشروع قد طلبت من مجلس الجامعة أن يوصى الدول العربية باصدار تشريع يعتبر بموجبه بيع العقار للصهيونيين جرما جنائيا ، ونشر هذا المطلب ضمن قرارات مجلس الجامعة فى جلسة ١٢ يونيو ١٩٤٦ ، وقد جاء فيه : « بالنظر لما جاء فى تقرير اللجنة الانجليزية الامريكية المشتركة من توصيات باتخاذ تدابير ترمى الى

---

(٢٠) نفس القرارات ، ص ١١٦ .
(٢١) قرارات مجلس جامعة الدول العربية ، ص ١١٦ .
(٢٢) نفس القرارات والصفحة .

تسهيل بيع أراضي العرب الى الصهيونيين في فلسطين ، ولتسهيل ادخال مهاجرين صهيونيين الى فلسطين ، وبما أن العرب يعتبرون الأمر سبيلا للقضاء على كيانهم في عقر دارهم ، فاللجنة ترى أن يوصي مجلس الجامعة بوضع تشريع في كل دولة من دول الجامعة العربية ، يعتبر بموجبه بيع العقار في فلسطين للصهيونيين وتهريب اليهود اليها أو المساعدة عليهما بطريق السمسرة أو غيرهما جرما جنائيا »(٢٣) .

أما عن شكل المشروع ورأسماله ، والمسائل الأخرى التي تتعلق بالأسهم والاحتياطي ، فان لجنة الخبراء التي قدمت المشروع ، حددت بأن تكون تلك المؤسسة على شكل شركة مساهمة ، ويحسن في رأس المال ألا يكون كبيرا في بداية الأمر ، ورأي الخبراء في ذلك أن رأس المال الكبير سيرهق المشروع بالفوائد والأرباح التي توزع على حملة الاسهم ، وقد حدد أنه من المنطقي أن يبدأ المشروع برأسمال مقداره مليون جنيه فقط على أن تكون قابلة للزيادة حسب احتياجات المنشأة ، ويحسن أن تكون قيمة السهم بسيطة ، كجنيه مثلا ليكثر تداولها ، وتعاون كل حكومة عربية في اكتتاب الأفراد في الجزء الذي يخصها ، وتكون الاسهم اسمية ، ويشترط في حاملها أن يكون من أهالي البلاد العربية ، ويخصص جزء من الاسهم للاكتتاب في فلسطين ، أما معونات الحكومات العربية ، فتكون في شكل تبرع للشركة يضاف الى احتياطيها . ولا يجوز بأي حال توزيع ذلك الاحتياطي كأرباح . وتقبل الشركة علاوة على ذلك التبرعات والهبات التي ترد اليها من الحكومات والأفراد على أن تضاف هذه التبرعات والهبات الى الاحتياطي الذي لا يجوز توزيعه كأرباح مساهمين ، وحثا للمنشأة في السير على المبادىء القويمة يجب أن تضمن الحكوما تفائدة ٣٪ على الاسهم في السنوات الثلاثة الأولى

---

(٢٣) نفس القرارات ، ص ١١٧ .

لتمكين هذه المؤسسة من تغطية مصروفات التأسيس فى هذه المرحلة الأولى ، ومن تكوين احتياطى يعزز مركزها المالى[٢٤] •

وواضح من هذا المشروع الذى قدمته لجنة الخبراء لمجلس الجامعة ــ والذى قام بعرضه على الدول الأعضاء ــ انه يضم أفكارا كثيرة وجميعها لصيانة وحفظ عروبة فلسطين ، وان كان لابد من وضع ديباجة نهائية وتفاصيل مختلفة تقتضيها ضرورة اخراج المشروع الى حيز التنفيذ •

وبدأ مجلس الجامعة ــ وكبادرة عملية منه فى مساعدة المشروع ــ فى منحه سلفة فى حدود مبلغ ألف جنيه تصرف باسم حافظ عفيفى (باشا) وأقر مجلس الجامعة منح هذه السلفة فى جلسة ١٢ ديسمبر ١٩٤٦[٢٥] •

وجامعة الدول العربية وفقا لذلك تكون قد اضطلعت بأعباء المهام التى أسست من أجلها ، وفى مقدمة هذه الأعباء القضية الفلسطينية • وفتحت بمشروع شركة انقاذ أراضى فلسطين الباب مفتوحا أمام البلاد العربية للمساهمة بالخبرة والمال للحيلولة دون تهويد فلسطين العربية ، بمساعدة العرب فيها على الاحتفاظ بالأرض والصمود أمام الضغوط الكبيرة بالبقاء فى فلسطين وعدم الرحيل عنها •

التعاون العربى وتأسيس الشركة العقارية العربية فى سبتمبر ١٩٤٧ م :

بعد أن بذلت الجامعة العربية هذا الجهد الكبير فى دراسة مشروع شركة لانقاذ أرض فلسطين ، أصبح من المتوقع بعد ذلك اخراج المشروع الى حيز التنفيذ والتطبيق العملى ، ولن يكون ذلك واقعا ، الا بعد مشاركة العرب وتحمسهم للتنفيذ بالتنسيق مع الادارات المختصة فى الجامعة العربية •

---

(٢٤) قرارات مجلس جامعة الدول العربية ، ص ١١٦ •
(٢٥) نفس القرارات ، ص ١١٨ •

وبالفعل بدأت الدول الأعضاء فى الجامعة بالتعـــاون مع تلك الادارات ، وكانت المشكلة التى واجهت التنفيذ ، هى أنه لن يمكن تسجيل الشركة فى فلسطين واصدار قانون تأسيسها كشركة فلسطينية ، وذلك بالنظر الى الاعتبارات التى أسست الشركة من أجلها والتى تتناقض مع أهداف الادارة البريطانية ومصالح اليهود فى فلسطين ، ومن ثم استقر الرأى بعد المداولة على أن تسجل الشركة خارج فلسطين فى احـــدى الدول العربية الأعضاء فى الجامعة ، وتحمل الشركة جنسية تلك الدولة ، وكان الاختيار أن تكون مصر هى تلك الدولة العربية التى تتحمل عبء تسجيلها للشركة (كشركة مساهمة مصرية) واضطلاعها بتلك المهمة[٢٦] على أن تعمل الشركة فى اطار اشراف ورقابة جامعة الدول العربيـــة عليها وبعد الاتفاق على هذا الموضع ، حدد مجلس الجامعة العربيـــة أحد المصريين وهو محمد على نمازى (باشا) وعهد اليه مهمة التأسيس، وما يقتضيه الحال من مختلف الأعمال اللازمة لذلك[٢٧] .

ومحمد على نمازى (باشا) كان يشغل فى ذلك الوقت وظيفـــة وكيل مجلس الدولة[٢٨] وكللت جهوده بالنجاح الكبير ، فقد صـــدر المرسوم الملكى بتأسيس الشركة فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧[٢٩] ونشر مرسوم تأسيسها فى جريدة الوقائع المصرية العدد ٨٠ الصادر فى أول سبتمبر ١٩٤٧ .

وحدد مرسوم التأسيس كافة التفاصيل ، التى تتعلق بأغراض الشركة كما جاءت فى مشروع الجامعة العربية ، بالاضافة الى وضـــع

---

(٢٦) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ١٦ ، ملف ١٨٢ــ٣/٤٢٨ ، ج ١ ص ١٦٤ .

(٢٧) نفس المحفظة والملف ، ص ١٦٣ .

(٢٨) نفس المحفظة والملف ، ص ١٦٩ .

(٢٩) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٩٥ ، ملف ١٨٤ــ١/٢٢٣ ج ٢ ص ٥١ .

بنود أخرى تستكمل بها الشركة كيانها العام ، وقد جاءت هذه البنود والمواد فى العقد الابتدائى المدرج فى مرسوم التأسيس ، وهذه البنود تشمل الأقسام التالية : « أسماء المساهمين ، وجنسياتهم وقيمة مساهمة كل منهم ، تأسيس الشركة ، تسميتها ، أغراضها ، مدتها ، مركزها ، رأسمال الشركة والاسهم والسندات ، ادارة الشركة ، المراقب ، الجمعية العمومية والحساب الختامى والارباح » وغير هذه البنود كانت هناك أحكام ختامية أخرى وردت فى صياغة العقد الابتدائى[٣٠] .

وفيما يلى نعرض لبعض محتوى مواد مرسوم التأسيس .

رأسمال الشركة ومساهميها وتسميتها[٣١] :

بين مرسوم التأسيس ، اسم وشكل وجنسية الشركة ، ونص على أن تكون شركة مساهمة مصرية تدعى « الشركة العقارية العربية » أما عن المساهمين فقد بلغ عددهم (٢٨) ثمانية وعشرون مساهما ، بالاضافة الى ثلاثة من البنوك أحدها مصرى والاخرين فلسطينيين . وجملة المبلغ المساهم به (١٫٠٠٠٫٠٠٠) مليون جنيه مصرى ، وهو قيمة رأسمال الشركة[٣٢] .

ورأس المال هنا جاء فى حجمه الأخير بعد التأسيس وفقا لما حددته لجنة الخبراء بالجامعة من قبل وهو ليس رأسمالا كبيرا حتى لا يرهق المشروع بالفوائد والأرباح التى توزع على حملة الاسهم[٣٣] .

أما عن جنسية المساهمين من الأفراد والبنوك ، فالأفراد كان منهم ، أربعة عشر مصريا وستة فلسطينيون ، وثلاثة عراقيون وثلاثة آخرون

---

(٣٠) ملحق الوقائع المصرية ، العدد ٨٠ أول سبتمبر ١٩٤٧ .
(٣١) راجع الملحق رقم ٢ وهو عن المساهمين ومقدار مساهمة كل منهم وجنسياتهم .
(٣٢) ملحق الوقائع المصرية أول سبتمبر ١٩٤٧ ، راجع الملحق رقم ٢ .
(٣٣) قرارات مجلس جامعة الدول العربية ، ص ١١٦ .

سوريون واثنين سعوديين . ومن هذا يتبين أن عدد المساهمين المصريين نصف عدد مساهمى الشركة .

أما البنوك فكان منهم بنـــك مصرى وهو بنـــك مصر ، وبنكان فلسطينيان هما البنك العربى ، وبنك الأمة العربية .

وبالرغم من أن عدد المساهمين المصريين كانوا ضعف المساهمين العرب ، ويليهم الفلســطينيين ، الا أن المساهمين الفلســطينيين قد ساهموا بأكبر نصيب فى رأس المال ، فقد ساهم الفلسطينيون الأفــراد ومعهم البنكان الفلسطينيان بمبلغ مقداره (٦٢٠ر٥٠٠) ج.م من رأس المال وهو ما يزيد عن نصف رأسمال الشركة ، أما المساهمون المصريون ومعهم بنك مصر فقد بلغ جملة مساهمتهم (٣٦٥ر٥٠٠) ج. م من رأس المال وهو ما يزيد قليلا عن ثلاث رأس المال[٣٤] .

ونعتبر بذلك أن غالبية رأسمال الشركة قد ساهم به الفلسطينيون والمصريون ، ومما زاد من مساهمة الفلسطينيين والمصريين ، مشــاركة البنوك فى رأس المال ، فالبنكين الفلسطينيين قد شاركا وحدهما بمبلغ (٦٠٥ر٦٠٠) ج. م ومعنى هذا أن الفلسطينيين الأفراد لم يساهموا الا بالقليل ، وكان أكبر مبلغ يساهم به أحدهم مقداره (١٠ر٠٠٠) ج.م أما الخمسة الفلسطينيون الباقون ، فقد تراوحت مساهمتهم بين (٤٠٠) ج.م و(٢٠٠٠) ج.م لكل منهم ، ولم يختلف الوضع فى مساهمة المصريين عن الفلسطينيين ، فقد كان بنك مصر يحظى بمعظم الرأسمال المصرى ، فقد كانت مساهمته بمبلغ (٣١٨٠٠٠) ج . م أما المصريين الأفراد ، فقد كان أكبر مبلغ يساهم به أحدهم مقداره (٢٠ر٠٠٠) ج.م وقد ســاهم به محمود أبو الفتوح يليه مبلغ (١٠ر٠٠٠) ج.م وقد ساهم به شريف صبرى (باشا) أما أقل مبلغ ساهم به أحد المصريين فقد كان مقداره (٥٠٠) ج.م[٣٥] .

---

(٣٤) ملحق الوقائع المصرية اول سبتمبر ١٩٤٧ .
(٣٥) نفس المصـــدر .

وبالطبع هذا وضع طبيعى أن تكون مساهمة البنوك بهذا القدر الكبير ، وخاصة البنوك الفلسطينية والتى كان الهدف الأول من تأسيسها قبل ذلك فى فلسطين هو الهدف التى أسست من أجله تلك الشركة ، الا أن هذه البنوك لم تتمكن من انجاز مهمتها بسـبب ظروف الادارة الانجليزية وسيطرة اليهود ، أما عن بقية المساهمين العرب ، فقد كانت مساهمتهم محدودة فى رأس المال ، فقد ساهم العراقيون الثلاثة بمبلغ (٦٤٠٠) ج٠م يليهم السعوديون وقد ساهموا بمبلغ (٥٠٠٠) ج٠م وأخيرا كانت مساهمة السوريين الثلاثة بمبلغ (٢٦٠٠) ج٠م وهو أقل مبلغ فى رأس المال[٣٦] ٠

وتوزيع رأسمال الشركة على هذا النحو له دلالاته ، فهو يبين مدى مساهمة رأس المال الفلسطينى وثقله فى المشروع ، وفى نفس الوقت يوضح اقدام رأس المال المصرى على المشاركة فى هذا العمل العربى لنصرة شعب فلسطين ، وبالرغم من ضعف مشاركة بقية المساهمين المذكورين ، الا أن ذلك يشير الى وجود عربى (على مستوى الأفراد) لتلك الدول ومشاركتها لعرب فلسطين ومصر فى هذا العمل القومى العربى ٠

هذا وقد ساهم هؤلاء الأفراد والبنوك المذكورة فى تغطية الاكتتاب بكل اسهم الشركة المطروحة للبيع ، وقد بلغ عدد تلك الاسهم (٢٥٠٫٠٠٠) سهم قيمة السهم الواحد أربعة جنيهات مصرية ، فيكون قيمة تلك الاسهم (١٫٠٠٠٫٠٠٠) مليون جنيه مصرى ، تم الاكتتاب فيها جميعا[٣٧] ٠

ضمانات عروبة الشركة :

وللجدية المطلقة فى عروبة هذا المشروع ، وخوفا من أن يتسلل اليه اليهود لتخريبه ، فانه اشترط أن تكون الاسهم المطروحة اسهما

(٣٦) ملحق الوقائع المصرية أول سبتمبر ١٩٤٧ ٠
(٣٧) ملحق الوقائع المصرية ، نفس التاريخ ٠

اسمية يشترط فى حاملها أن يكون عربيا من رعايا احدى الدول الأعضاء فى جامعة الدول العربية • وتستخرج الشهادات والمستندات الممثلة للاسهم من دفتر ذى قسائم مرقوم بأرقام مسلسلة يوقع عليها عضوان من أعضاء مجلس الادارة ، وتختم بخاتم الشركة ، وتكون للاسهم كوبونات ذات أرقام مسلسلة تشتمل كل منها على رقم السهم[٣٨] •

ولخطورة انتقال ملكية الأسهم وامعانا فى أخذ الحذر الكافى فى الحفاظ على عروبة المشروع — ذلك أن خطته ونجاحه متوقف على الحماس للعمل القومى والوطنى ونصرة عرب وأرض فلسطين — فانه لذلك عند انتقال ملكية الاسهم ، يثبت هذا الانتقال بالتنازل عنها كتابة فى سجل خاص يحفظ بالشركة ، بعد تقديم اقرار من المتنازل والمتنازل اليه • وللشركة الحق فى أن تطلب التصديق على توقيع الطرفين واثبات أهليتهما وجنسيتهما قانونا وأنهما من العرب من رعايا الدول الأعضاء فى جامعة الدول العربية ، ويوقع اثنان من أعضاء مجلس الادارة على الشهادات المثبتة لقيد الأسهم فى سجل نقل الملكية ، وفى حالة انتقال ملكية الاسهم بطريق الميراث الى شخص من غير رعايا احدى الدول الأعضاء فى الجامعة العربية أو فى حالة اذا ما فقد أحد المساهمين تلك الرعوية لسبب ما ، فهؤلاء يجب عليهم أن يتنازلوا فى الحال عن ملكية الاسهم الى أشخاص من العرب من رعايا احدى الدول الأعضاء فى الجامعة ، وفى حالة عدم قيامهم بذلك ، يكون للشركة الحق فى بيع هذه الاسهم الى عرب من رعايا احدى الدول الأعضاء فى الجامعة العربية لحساب هؤلاء الأشخاص وتحت مسئوليتهم دون حاجة الى سابق انذار أو اتخاذ أى اجراء من الاجراءات القانونية[٣٩] •

---

(٣٨) نفس المصدر •

(٣٩) ملحق الوقائع المصرية أول سبتمبر ١٩٤٧ •

أهداف تأسيس الشركة العقارية العربية :

وعن هدف تأسيس الشركة فانه قد حدد فى العقد الابتـــدائى مطابقا لنفس أهداف المشروع الذى قدمته لجنة الخبراء لمجلس الجامعة العربية (قد سبق ذكر هذه الأهداف بالتفصيل)[٤٠] •

وتحديد هدف وغرض الشركة على هذا النحو بانقاذ أرض فلسطين ومساعدة عربهما والوقوف فى وجه سياسة تهويد أرض عربية ، كان له أثر كبير فى اذكاء روح التعاون العربى ، والمسارعة بتقديم كافة أنواع التبرعات أو الخبرة لمساعدة الفلاح الفلسطينى على التمسك بأرضه واستصلاح البور منها ، وزراعة الصالح للزراعة ، وتمويل هذا الفلاح أيضا بالبذور وأدوات الزراعة والسلف والارشادات الكافية حتى لا يكون طعاما لذيذا فى أفواه قادة اليهود والقائمين على تنفيذ سياسة التهويد بقوة وحماس ، وكانت تلك الأهداف هى الغاية القصوى التى أســست الشركة من أجلها ، وأوجدت فى نفس الوقت فرصة كبيرة للتعــاون العربى المشترك فى بداية تأسيس جامعة الدول العربية[٤١] •

وكانت حوادث طرد العرب من أراضيهم ، أو اغرائهم على بيعها، واقدامهم على البيع تحت أقسى الظروف سواء كانوا عربا فلسطينيين أو غير فلسطينيين كل ذلك كان دافعا لايجاد تعاون عربى لتأسيس الشركة خاصة وأن القضية الفلسطينية كانت قد بدأت فى التعقد بعد صدور قرار التقسيم فى عام ١٩٤٧ ، والذى سيكون نتيجة تنفيذه اســتيلاء اليهود على أراضى شاسعة يملكها (٤٠٠ر٠٠٠) عربى ، سيكون مصيرهم الطرد • ولذا فان الشركة لديها الفرصة الكافية لاثبات امكانية تحقيقها

---

(٤٠) هذه الأهداف هى نفس اهداف المشروع الذى قامت الشركة على اساسه ، بعد أن أقر وأخذت الموافقــة عليه من الدول العربية الأعضاء واعلن عنه فى جلسة مجلس الجامعة بتاريخ ٢٨/٣/١٩٤٦ ، راجع ص٦ ، ٧

(٤١) ملحق الوقائع المصرية ، أول سبتمبر ١٩٤٧ .

— قرارات مجلس جامعة الدول العربية ، ص ١٠٥-١١٦ .

الهدف الذى أسست من أجله[٤٢] وذلك بعد أن يتوفر لها المناخ الملائم وظروف مساعدة على تحقيق هذا الهدف .

ضمانات الحكومات العربية لأرباح أسهم التأسيس :

ومن الأمور الهامة والمتعلقة بمواد تأسيس هذه الشركة تلك المادة رقم ٥٨ التى قرر فيها أن تضمن الحكومات الأعضاء فى جامعة الدول العربية للاسهم المكونة لرأس المال المكتتب به عند التأسيس والبالغ قدره (١٫٠٠٠٫٠٠٠) مليون جنيه ربحا أدنى قدره ٥٪ من قيمتها الاسمية سنويا ولمدة عشر سنوات وذلك طبقا للقرار الصادر من مجلس هيئة الدول العربية خلال دورته العادية الثالثة (مارس/ابريل) ١٩٤٦[٤٣] .

وطبقا للتفسير الذى ذكر فى وضع هذه المادة انه من شأن هـذا الضمان أن يحقق نجاح الشركة ودوام انتعاشها الاقتصادى ، فيعمل على تشجيع الافراد وترغيبهم فى الاقبال على المساهمة فى رأسمال الشركة[٤٤] .

وبناء على أن رأسمال الشركة مليون جنيه ، فان قيمة الضمان الاجمالية التى تدفعها الدول العربية الأعضاء فى مجلس الجامعة هى (٥٠٫٠٠٠) ج٠م سنويا على أساس دفع ربح قدره ٥٪ من قيمة الاسهم الاسمية سنويا . وتتحمل الحكومة المصرية فى قيمة الضمان الاجمالية بنسبة ما تتحمله فى مصاريف الامانة العامة للجامعة العربية وهى ٤٢٪ من ميزانيتها السنوية ، فيكون قيمة ماتدفعه مصر سنويا من

---

(٤٢) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، ملف ١٨٤ — ١/٢٢٣ ج ١ ص ٧٩ .

(٤٣) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ١٦ ، ملف ١٨٢—٣/٤٢٨ ج ١ ص ١٦٣ .

(٤٤) مجلس النواب ، جلسة ١٩٤٧/١٢/١ ، ص ٨٥ ملحق رقم ٤ .

هذا الضمان (٢١٠٠٠) ج٠م أو (٢١٠٠٠٠) ج٠م بعد عشر سنوات وهى مدة الضمان[٤٥] ٠

واذا كان هناك افتراض أن الشركة ستخسر فى نشاطها بفلسطين خلال مدة العشر سنوات ، نظرا للعقبات والظروف التى قد تصادفها فى بداية عملها ، الا أنه بالرغم من هذا الافتراض فان الفائدة القومية والعربية أحسن وأكبر بكثير من تلك الخسارة ٠ ذلك أن الشركة عمل عربى قوى أجمع العرب على ضرورته ، وفى ذلك ذكرت اللجنة المالية بمجلس النواب المصرى فى جلسة أول ديسمبر ١٩٤٧ ما يلى « اذا ذهبنا الى أسوأ الفروض وقدرنا ان الشركة ستخسر على طول الخط فى السنوات العشر التى ينصب عليها ضمان الحكومات العربية ، فان نصيب الحكومة المصرية فى الخسارة هو (٢١٠٠٠) ج٠م سنويا وفى العشر سنوات (٢١٠٠٠٠) ج٠م وهو مبلغ زهيد بجانب النتائج السياسية التى تحققها الشركة ، على أن اللجنة رأت أن افتراض الخسارة لا محل له لأن هذه الشركة الكبيرة قد أنشئت لغرض أجمع العرب افرادا وجماعات على ضرورته حفظا لكيانهم السياسى والاقتصادى ، كما قالت انها لا تستطيع الاقلال من شأن هذا الاجماع العربى وآثاره البعيدة »[٤٦] ٠

وتأكيدا لذلك فان الحكومة المصرية قد أصدرت القانون رقم ١٥٥ لسنة ١٩٤٧ بالترخيص فى ضمان اسهم رأسمال الشركة العقارية لربح أدنى قدره ٥٪ سنويا ولمدة عشر سنوات ، وهو القانون الصادر فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٧ والمنشور فى الوقائع المصرية فى ١٩٤٧/١٢/٢٥[٤٧]٠

---

(٤٥) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، ملف ١٨٤ــ١/٢٢٣ جـ ١ ص ٧١ ٠

(٤٦) تقرير لجنة الشئون المالية ، عن مشروع قانون بالترخيص للحكومة المصرية فى أن تضمن للاسهم المكونة لراس المال الأصلى للشركة العقارية العربية ربحا أدنى قدره ٥٪ سنويا لمدة عشر سنوات ٠

ــ مجلس النواب ، جلسة ١٩٤٧/١٢/١ ، ص ٨٥ ملحق رقم ٤ ٠

(٤٧) الوقائع المصرية ، عدد رقم ١١٨ فى ١٩٤٧/١٢/٢٥ ٠

كما أن البلاد العربية الأخرى قد أخطرت الأمانة العامة للجامعة بأنها توافق على هذا الضمان تشجيعا للمساهمين ، وأصدرت تلك الدول بدورها التشريعات اللازمة لاقرار النسب التى تخصها فى دفع هـــذا الضمان[٤٨] •

تبرع الدول العربية بدفع احتياطى رأسمال الشركة :

وغير هذا كله وتشجيعا للشركة أيضا شان الحكومات العربيةالاعضاء فى الجامعة قد تبرعت للشركة بمبلغ اجمالى قدره ربع مليون جنيه تعتبر احتياطيا ثابتا لها ، وقد بلغ نصيب مصر فى هذا الاحتياطى (١٠٥ر٠٠٠) ج•م وفتح بهذا المبلغ اعتماد اضافيا فى ميزانية وزارة الخارجية لسنة ١٩٤٧/٤٦ وصدر به القانون رقم ٥٩ فى ٢ يونيو سنة ١٩٤٧[٤٩] أى قبل أن يعلن مرسوم تأسيس الشركة فى الوقائع المصرية فى أول سبتمبر ١٩٤٧ •

والشركة العقارية العربية على هذا النحو تكون قد استعدت للعمل الذى أنشئت من أجله بعد أن استكملت كيانها العام ، ووقفت الجامعـــة العربية بقوة وحماس الى جانب هذا المشروع العربى القومى ، وكانت بداية رائعة تبدأ بها الجامعة أول نشاط لها على طريق العمل العـــربى الموحـــد •

بداية نشاط الشركة وافتتاح فرع فلسطين :

وبتهيئة الظروف المالية المناسبة لعمل الشركة ووضع الصيغ والمواد القانونية التى تحدد خطوات العمل ، لم يعد أمامها بعد ذلك الا أن تبدأ وتمارس نشاطها فى فلسطين •

---

(٤٨) مجلس النواب ، جلسة ١٩٤٧/١٢/١ ، ص ٨٦ •
(٤٩) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، ملف ١٨٤ــ١/٢٢٣ جـ ١ ص ٧٢ •

وبالفعل فبعد أن كلفت الجامعة العربية محمد على نمازى (باشا)، بعملية استكمال الصيغ والاتصالات اللازمة لتسجيل الشركة فى مصر ، فانه قد صدر مرسوم تأسيسها كشركة مساهمة مصرية فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧[٥٠] .

وذكرنا أن الشركة سجلت فى مصر نظرا لصعوبة تسجيلها فى فلسطين ، الا أن تسجيلها فى مصر ليس الا مركز لادارة الشركة فقط وذلك لتقرير كافة وسائل عملها وأنشطتها المختلفة[٥١] التى حددناها فى أغراض تأسيسها ، والتى تتلخص فى مواجهة الشركة أعمال تهويد الأرض العربية بالسيطرة على هذا التيار ، والوقوف بجانب الفلاح الفلسطينى لتثبيته فى أرضه واخراجه من عثراته وتلبية حاجياته وأغراضه .

ولكى تنتقل الشركة لتطبيق تلك الأهداف فى فلسطين ، فان محمد على غازى قد أخذ أيضا فى تهيئة السبيل الى ذلك ، بأن أخذ فى الاتصال بالمندوب السامى البريطانى بفلسطين ، والذى كان له وحده الحق فى قبول أو رفض افتتاح فرع للشركة بفلسطين ، وبالطبع هذا الحق غير القانونى قوامه سيطرة الادارة الانجليزية على تصريف كافة أمور فلسطين ، والأمر الواضح أن تلك الادارة كانت تخضع لسيطرة كبار اليهود الساعين لتهويد تلك الأرض العربية ، وبعد اتصالات مكثفة ، استطاع نمازى (باشا) من أخذ موافقة المندوب السامى البريطانى على افتتاح فرع الشركة هناك[٥٢] .

---

(٥٠) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ١٦ ، ملف ١٨٢-٣/٤٢٨ ج ١ ص ١٦٣ .

(٥١) الوقائع المصرية فى أول سبتمبر ١٩٤٧ .

(٥٢) وعلى سبيل المثال فقد بلغت مجموع الأموال التى دفعتها الجالية اليهودية فى كندا وحدها لمساعدة اسرائيل (٢٦٣ر٢٠٠ر٤) دولار ، وذلك منذ بداية القرن العشرين وحتى عام ١٩٤٨ ، وفى ذلك راجع :
على الدين هلال : كندا وقضية فلسطين ، دراسات فلسطينية ص ٦٠ .

ويبدو أن الادارة الانجليزية ، قد رأت عدم الوقوف أمام تأسيس فرع لمشروع رأت أنه لن يكون ذا أثر كبير فى مواجهة خطط يهودية مدروسة ، وموقف غير ثابت من مختلف قطاعات عرب فلسطين ، مما يؤثر على آداء الشركة وانجاح مهمتها ، فالمقارنة بين ثقل النشاط اليهودى فى فلسطين برؤوس أمواله الكبيرة والتى تنهمر عليه من جميع أنحاء العالم نقول أن المقارنة بين هذا النشاط ونظيره العربى ، توضح وتجسد الفرق بينهما ، مما يجعل الادارة الانجليزية تستهين بمشروع الشركة وتوافق على افتتاح فرعها هناك ، ولعل فى هذا التصرف تهدئة لكثير من الاضطرابات العربية ، فى نفس الوقت الذى يسير فيه النشاط اليهودى وفقا لبرامجه وخططه المدروسة •

ومن ناحية ثانية نجد أن عقد التحالف بين انجلترا والحركة الصهيونية كان قد بدأ فى الانفراط بعد أن تمكن اليهود من فلسطين وسعوا الى بناء دولة اسرائيل ، ومن ثم لم يكن للوجود الانجليزى ضرورة بعد ذلك من وجهة النظر اليهودية ، وبالتالى اتجهت بريطانيا نحو عدم الاندفاع فى مساندة اليهود ، وبصفة خاصة بعد أن تعاظمت المعارضة لدى الدول العربية محتجة على دور بريطانيا فى فلسطين ، ومن جهة مقابلة وجد اليهود فى الولايات المتحدة حليفا غربيا بديلا عن بريطانيا فى المرحلة الجديدة الحاسمة — بعد الحرب العالمية الثانية — للاستيلاء على فلسطين[٥٣] •

وأمام هذه الاعتبارات تمكن نمازى (باشا) من أخذ موافقة المندوب السامى الانجليزى على تسجيل فرع الشركة بفلسطين ، وتم هذا التسجيل فى ٢٨ سبتمبر ١٩٤٧ بمقتضى شهادة سجل الشركات رقم

---

(٥٣) فايز صايغ (الدكتور) : الاستعمار الصهيونى فى فلسطين • دراسات فلسطينية ص ٢٢/٢٣ •

٥٦٠ ، كما أصدر المندوب السامى التصريح الذى يسمح للشركة بتملك الأراضى ومباشرة الأعمال العقارية[٥٤] .

وبعد ذلك أصبح على الشركة أن تبدأ فى ممارسة وادارة أعمالها وكان قد عين لها مجلس ادارة من عشرة أعضاء بين عرب ومصريين وفلسطينيين ورأس المجلس حافظ عفيفى (باشا) [٥٥] كما عين نمازى (باشا) مديرا عاما للشركة ، وذلك بعد أن أحيل الى المعاش من وظيفة وكيل مجلس الدولة فى أول نوفمبر ١٩٤٧[٥٦] .

وبعد أن وضعت أمور الشركة على هذا النحو من التنظيم أخذ مجلس الادارة فى بدء التشغيل والانتقال بالأموال المطلوبة الى فلسطين، ومن ثم طلب من مجلس جامعة الدول العربية بأن يطالب الدول العربية المشاركة فى العمل والنشاط وذلك بالعمل على تسهيل نقل رؤوس الأموال من دول الجامعة الى مصر وفلسطين وقد أصدر مجلس الجامعة العربية بالفعل قرارا يدعو الى ذلك فى جلسة المجلس بتاريخ ١٥ أكتوبر ١٩٤٧م، وقد جاء فيه ما يلى : « يقرر مجلس الجامعة أن تتخذ كل دولة من دول الجامعة العربية الاجراءات اللازمة فى حدود التزاماتها لتسهيل نقل رؤوس الأموال من دول الجامعة الى مصر وفلسطين بغية تمكين الشركة العقارية العربية من الحصول على ما يلزمها من الأموال لمباشرة أعمالها وتأدية رسالتها فى انقاذ أراضى فلسطين »[٥٧] .

---

(٥٤) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، ملف ١٨٤ — ١/٢٢٣ ج ١ ص ١٥٢ .

(٥٥) الوقائع المصرية ، أول سبتمبر ١٩٤٧ .

(٥٦) مصلحة الشركات ، محفظة رقم (١٦) ، ملف ١٨٢—٣/٤٢٨ ج ١ ص ١٦٩ .

(٥٧) قرارات مجلس جامعة الدول العربية الخاصة بقضية فلسطين ص ١١٨ .

حرب فلسطين ١٩٤٨ ، وعقبات عمل الشركة :

وبعد اتمام تلك الاجراءات اتخذت الشركة عدتها للعمل الفعلى ، ولكن حالت الظروف دون ذلك ، فقد نشبت الحرب بين العرب واليهود فى فلسطين مع بداية عام ١٩٤٨ ، وكانت الاضطرابات قد بدأت فى ديسمبر ١٩٤٧ نتيجة لقرار تقسيم فلسطين والمواجهة التى نتجت عن ذلك بين العرب واليهود •

وفى يناير ١٩٤٨ ظهرت العناصر الأولى لجيش الانقاذ العربى فى فلسطين وبدأت أعمال الحرب واستمرت بعد ذلك طوال عام ١٩٤٨ ، الى أن طلبت مصر عقد الهدنة فى ٦ يناير ١٩٤٩ ، وذلك بعد أن منيت الجيوش العربية بنكبة الهزيمة وانتصار اليهود(٥٨) •

كانت تلك الظروف السيئة بداية غير موفقة ، لنشاط الشركة العقارية ، وكأنها نذير بسوء الطالع ، وأخذ مجلس الادارة فى بحث الموقف بين فترة وأخرى ، وآثر التريث حتى يحين الوقت الذى تستطيع الشركة فيه مباشرة أعمالها على وجه يكفل حماية مصالح المتعاملين معها ومصالح حملة اسهمها على السواء ، ولم يشأ المجلس بذلك أن يقامر بأموال المساهمين فى وقت لم تكن الأحوال فى فلسطين قد استقرت فيه تماما ، وفى هذه الأثناء اشتدت مطالبة الأهلين فى المناطق العربية من فلسطين للشركة أن تسعفهم بالقروض التى تمكنهم من المحافظة على أراضيهم ودورهم وصيانتها ، ولكن مجلس الادارة شاء أن لا تتعجل الشركة بالعمل قبل أن تستقر الأحوال استقرارا تقتضيه طبيعة أعمال التسليف العقارى • وقد رأت جامعة الدول العربية ازاء ذلك ، وبناء على رغبة الحكومة المصرية أن تسعف أصحاب الأراضى الزراعية فى المنطقة الجنوبية من فلسطين (الخاضعة لرقابة القوات المصرية) بالقروض

---

(٥٨) محمد نصر مهنا (الدكتور) : مشكلة فلسطين أمام الرأى العام العالمى ١٩٤٥/١٩٦٧ م ص ٢٧٦–٢٧٧ •

التى تحفظ أراضيهم وتمنعها من البوار ، فوضعت تحت تصرف الشركة خمسين ألفا من الجنيهات (٥٠٫٠٠٠) ج ٠م لاستخدامها فى اقــراض أصحاب تلك الأراضى ضمن قوانين الشركة وطبقا لشروطها ، وقد قامت الشركة باقراض ذلك المبلغ على النحو الموضح فى ميزانيتها عن عام ١٩٤٩ [٥٩] .

وفى نهاية السنة المالية الأولى من عمل الشركة قدمت ميزانيتها ، وحساب الأرباح والخسائر عن المدة من ١٥ أغسطس ١٩٤٧ (تاريخ التأسيس) وحتى ٣١ ديسمبر ١٩٤٨ ويتبين من فحص تلك الميزانية أن هناك خسارة عن تلك المدة قدرها (٨٥٥٤) ج٠م ، وذلك بالطبع راجع الى الظروف التى أوردناها عن الحرب ونكبة العرب ١٩٤٨ ، وما أدى اليه ذلك من عدم امكان الشركة القيام بكافة أغراضها[٦٠] .

وواضح هنا أثر الحرب المدمر على مصير القضية الفلسطينية ، فقد أوقفت الحرب خطة الشركة وبرنامج أعمالها ٠ وما أن تنتهى الحرب وتجد الشركة فرصة عمل مواتية ، الا وتجد أن تلك الحرب قد غيرت تماما من معالم وخريطة توزيع الأرض والسكان فى فلسطين ٠

فقد أخذ عدد اليهود فى التزايد الى أن بلغ عددهم (١٫٠١٣٫٠٠٠) يهودى على وجه التقريب فى أواخر عام ١٩٤٩ ، هذا فى نفس الوقت الذى قل فيه عدد العرب الى (١٦٠٫٠٠٠) عربى فى أواخر نفس العام٠ وبذلك انعكس الموقف وأصبح اليهود أكثرية والعرب أقلية ، بعد أن كان الأمر قبل ذلك أكثرية عربية وأقلية يهودية ٠ ففى عام ١٩٤٦ كان عدد

---

(٥٩) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، ملف ١٨٤ — ١/٢٢٣ جـ١ ص ١٥٢ « مذكرة عن عمل الشركة العقارية العربية » .

(٦٠) مصلحة الشركات ، نفس المحفظة والملف ، ص ١٢٥ .

« تقرير عن مراجعة حساب الشركة العقارية العربية عن المدة من ١٥ أغسطس ١٩٤٧ — ٣١ ديسمبر ١٩٤٨ » .

العرب حوالى (١٫٢٣٧٫٠٠٠) عربى على وجه التقريب ، بينما كان عدد اليهود فى نفس العام حوالى (٦٠٨٫٠٠٠) يهودى[٦١] .

وواضح هنا من هذا الانقلاب الكبير فى تحول العرب من أكثرية الى اقلية واليهود من أقلية الى أكثرية ، أن أثر حرب ١٩٤٨ كان بالغ الخطورة ، فقد ترتب على تلك الحرب ، أن هاجرت أعداد كبيرة من اليهود من أماكن متفرقة فى العالم وخصوصا من أوربا الى أرض فلسطين العربية والعكس من ذلك ، اضطرار عدد كبير من عرب فلسطين ، تحت ضغط الطرد والارهاب الى ترك ديارهم وممتلكاتهم والعيش فى خيام كلاجئين فى الدول العربية المجاورة[٦٢] .

وتواكب مع ذلك أن استولى اليهود على الأراضى العربية واغتصبت اغتصابا ، وقد تم ذلك قسرا باستخدام الهاجاناة لوسائلها الارهابية فى طرد الفلسطينيين من أراضيهم ، مما جعلها تنجح بعد حرب ١٩٤٨ وفى أقل من عام واحد من انتزاع مساحة قدرها ٧٦٪ من مجموع مساحة فلسطين[٦٣] .

وباتت أحوال فلسطين على شكل خطير من التشرد والضياع ، الى درجة ان الجامعة العربية ، اقترحت فرض ضريبة على دول الجامعة تسمى ضريبة انقاذ فلسطين ، ووافق مجلس الجامعة على فرض تلك الضريبة فى جلسة ٢٢ فبراير ١٩٤٨ وجاء فى قرار الجامعة ما يلى :

---

(٦١) اليوميات الفلسطينية ، المجلد التاسع ، ص ٢٠ .

(٦٢) جامعة الدول العربية ، الندوة الدولية حول المستوطنات الاسرائيلية فى الأراضى العربية المحتلة .
القاهرة ٢٤–٢٦ سبتمبر ١٩٧٩ م . مضبطة جلسة العمل الرابعة كلمة الدكتور فاروق يوسف ص ١ .

(٦٣) جامعة الدول العربية . التأصيل النظرى للظاهرة الاستيطانية ص ٨ « اعداد معهد البحوث والدراسات العربية » .

« نظرا لأن الحرب الداخلية الدائرة الآن بفلسطين ، قد الحقت بالعرب خسارة كبيرة فى الأموال والأرواح بحيث أصبح عدد غير قليل منهم بغير مأوى وبدون عائل أو رغبة فى معالجة هذه الحالة على ما يقضى به واجبات الاخوة والانسانية ، تقدم الوفد السورى باقتراح بفرض ضريبة فى كل دولة من دول الجامعة باسم ضريبة انقاذ فلسطين تخصص مواردها لهذه الغاية على أن تكون هذه الضريبة بنسبة واحدة لكل دولة من دول الجامعة »[٦٤] .

وواضح من ذلك الى أى حد بلغت خطورة أوضاع عرب فلسطين فى نفس الذى تمكن فيه اليهود من السيطرة الكاملة على شئون فلسطين، وأعلن عن قيام دولتهم اسرائيل فى ١٥/٥/١٩٤٨ ، ومن شأن هذا كله أن يضع العراقيل واستمالة العمل أمام الشركة العقارية للعمل داخل فلسطين ، وفقا لبرامجها ونظام عملها .

الشركة تطالب بدفع مبالغ ضمان الأرباح :

بعد أن تطورت أحوال فلسطين على النحو السالف ذكره ، وأثرت حرب عام ١٩٤٨ على وضع العراقيل أمام نشاط الشركة واستحالة عملها داخل فلسطين فى اطار تلك الظروف ، وأمام هذا كله ، كان لابد للشركة أن تصاب بالضرر الفادح ، وتعكس ميزانية الشركة فى آخر عام ١٩٤٨ هـذه الأضرار فنجـد أن الميزانيـة قد سـجلت خسـارة قـدرها (٨٥٥٤)ج.م[٦٥] ، وبالرغم من تلك الخسارة نجد أن مجلس الادارة يجتمع فى ٢٢ نوفمبر ١٩٤٩ ويقـرر صرف الربح الأدنى المضـمون للمساهمين وقدره ٥٪ من قيمة الاسهم الاسمية بعد خصم الضريبة المستحقة عليه ، ومجلس الادارة هنا يقرر هذا الحق وفقا للضمان الذى

---

(٦٤) قرارات مجلس جامعة الدول العربية ص ١١٩ .

(٦٥) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، ملف ١٨٤ـ٢٢٣/١ جـ ١ ص ١٧٩ .

قطعته الدول العربية الأعضاء على نفسها ، بأن تضمن ربح الاسهم ولمدة عشر سنوات فى حالة خسارة الشركة ، وذلك وفقا للمادة (٥٨) من نظام الشركة الأساسى ، وفى ١٧ مارس ١٩٤٩ اجتمعت الجمعية العمومية للمساهمين وصدقت على قرار مجلس الادارة لتنفيذ صرف الأرباح المذكورة[٦٦] .

وبعد أن اتخذت الشركة هذه الاجراءا تالخاصة بصرف الأرباح ، أخذ رئيس مجلس الادارة فى مراسلة الحكومات العربية الضامنة لأرباح الاسهم ، ومن ذلك خطابه الى وزير مالية الحكومة المصرية فى ٢٢/٣/١٩٤٩ يطالبه بدفع مصر نصيبها السنوى المقرر فى حالة الخسارة لضمان أرباح الاسهم ، ونصيب مصر مقداره (٢١٠٠٠) ج . م فى العام ، وذكر رئيس مجلس ادارة الشركة لوزير المالية المصرى ، أن غالبية المساهمين الأفراد من المصريين ، وأن معظم هؤلاء من صغار المدخرين ومن اليتامى والقصر والمحتاجين ممن أوصت المحاكم الحسبية على توظيف المدخرات الآيلة اليهم فى أسهم الشركة المحاطة بالضمان المذكور ، والذى كان سببا فى اقبال الأفراد على المساهمين فى اسهم ورأسمال المشروع[٦٧] .

وقبل أن تقرر مصر صرف قيمة الضمان المقررة ، فانه قد أثيرت ضجة حول هذا الموضوع فى مجلس النواب والشيوخ المصرى ، ففى جلسة ١٢ ابريل ١٩٤٩ تقدم أحد النواب بسؤال الى رئيس مجلس الشيوخ، يسأله عن مصير تلك الشركة الخاسرة وجاء فى هذا السؤال ما يلى « نص قانون الشركة على أن تضمن الحكومات العربية للمساهمين ربحا أدنى قدره ٥٪ من قيمة الاسهم التى اكتتبوا بها ، ولذلك فان هذه الحكومات تتحمل مرتبات موظفى الشركة ومصاريف ادارتها ، كما ستتحمل دفع أرباح المساهمين بعد أن أصيبت الشركة بالخسارة ، ولذا نطلب

---

(٦٦) مصلحة الشركات ، نفس المحفظة والملف ، ص ١٠٨ .

(٦٧) مصلحة الشركات ، نفس المحفظة والملف ، ص ١٠٧ .

معرفة سياسة الحكومة نحو هذه الشركة على ضوء الحالة الراهنة فى فلسطين »[٦٨] •

وسؤال النائب على النحو الموضح لم يزد عن مجرد استيضاح يراد منه الاطمئنان على أن مساهمة مصر بضمان أرباح الاسهم لن يكون بغير فائدة ، وجاء رد الحكومة على النائب بالافادة عن أخبار الشركة وتطوراتها منذ أن أسست والأهداف القومية التى تسعى اليها ، وكيف جاءت الحرب لتحول دون تحقيق أهداف المشروع ، ومن ثم خسارته فى عامه الأول ، وجاء فى الاجابة أيضا ان الحكومة لا تتحمل دفع مرتبات موظفى الشركة أو مصروفاتها الادارية وكل ما التزمت به الحكومة هو ضمان أرباح الاسهم بربح أدنى قدره ٥٪ وفى نهاية الاجابة أفادت الحكومة بأنها تأمل أن تتاح للشركة فرصة العمل القريب العاجل لتحقق الأغراض القومية النبيلة التى تكونت من أجلها لنصرة شعب فلسطين وأبنائها العرب[٦٩] •

وبعد هذا لم تقدم الحكومة المصرية على صرف نصيب مصر فى حصة ضمان أرباح الاسهم بسهولة ، بل أخذت الشركة توالى ارسال طلبات استعجال دفع الحكومة المصرية نصيبها المقرر ، وهذه الرسائل استمرت من مارس ١٩٤٩ وحتى آخر هذا العام[٧٠] •

وفى نوفمبر ١٩٤٩ أرسلت وزارة التجارة والصناعة لجنة لدراسة أحوال الشركة ومراجعة ميزانيتها وحسابها الختامى ، وأوردت تلك اللجنة تفصيلات عن ميزانية الشركة حددت فيها مرتبات الموظفين الشهرية

---

(٦٨) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، ملف ١٨٤—١/٢٢٣ ج ١ ص ١٠٩ •

(٦٩) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، نفس الملف ، ص ١١٣ •

(٧٠) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، نفس الملف ، ص ١٠٧— ١٢٢ •

(حوالى ٦٥٠ ج٠م) وان الشركة استأجرت دورا كاملا من احدى عمارات الحراسة الايطالية بشارع الملكة فريدة بايجار سنوى قدره (١٨٢٤)ج٠م، وهذا الدور مكون من خمسة شقق أخذت الشركة شقة من الشـــقق الخمسة كمكاتب لها وأجرت الأربع شقق الأخرى من الباطن لشركات أجنبية ، وشقة منها أجرتها لشركة كمقر للامانة العامة للجامعة العربية ٠ وأوردت اللجنة أيضا مصاريف مختلفة أنفقتها الشركة على اصـــلاحات كثيرة ، وكذلك أوردت ايراداتها عن عوائـــد الحسابات الخاصـــة بها والمودعة فى البنوك وحسابات أخرى مختلفة ٠ وبعد أن كتبت اللجنـــة تقريرها على هذا النحو ، أعدته وزارة التجارة والصناعة وقامت برفعه الى وزارة الخارجية فى ٢٨ نوفمبر ١٩٤٩ ، وقد كتبت وزارة التجارة والصناعة رأيها فى نهاية التقرير بأنه ليس لدى الوزارة مانعا من الموافقة على صرف مبلغ حصة مصر فى ضمان أرباح سهم التأسيس[٧١] ٠

وبالفعل اتخذت اجراءات صرف مبلغ حصة مصر فى الضمان وقدره (٢١٠٠٠) ج٠م وتسلمت الشركة المبلغ بتاريخ ١٥/١٢/١٩٤٩ م وذلك لكى يتسنى لها صرف حصص أرباح أسهم المساهمين ، وأدرجت وزارة المالية هذا المبلغ بميزانية وزارة الخارجية لسنة ١٩٤٩ــ١٩٥٠[٧٢] ٠

ولم يتوقف دفع مصر والعرب مبالغ ضمان أرباح أسهم التأسيس على الســـــنة الأولى فقط ، بل ووفقا لقانون التأسيس أن يستمر هذا الضمان لمدة عشر سنوات طالما أن الشركة لم تحقق أية أرباح ٠ وفى العام التالى لعمل الشركة فانها لم تحقق ربحا أيضا ، هذا بالرغم من أن الشركة قد حققت زيادة فى الايرادات عن المصروفات مقدارها (٦١٥٠)

---

(٧١) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، نفس الملف ، ص ١٢٥ — ١٢٦ ٠

« تقرير عن مراجعة حسابات الشركة العقارية العربية عن المدة من ١٥ أغسطس ١٩٤٧ الى ٣١ ديسمبر ١٩٤٨ » ٠

(٧٢) مصلحة الشركات ، نفس المحفظة والملف ، ص ١٢٦ــ١٢٧ ، ١٤٣ ٠

ج٠م عن السنة المالية المنتهية فى ٣١ ديسمبر ١٩٤٩ ، والسبب فى عدم تحقيق الربح بالرغم من تلك الزيادة هو أن هذه الزيادة قد دفعت بكاملها لتغطية خسارة الشركة فى العام السابق والتى كان مقدارها (٨٥٥٤) ج٠م وبعد استهلاك زيادة الايرادات على هذا النحو يتبقى مبلغ خسـارة مقداره (٢٤٠٤) ج٠م من جملة مبلغ خسارة العام الأسبق [٧٣] .

وبالطبع وجب على مصر والعرب أن تستمر فى دفع ضمان أرباح أسهم التأسيس عن السنة الثانية أيضا وبالفعل دفعت مصر نفس مبلغ الضمان الذى دفعته فى العام الأول وهو (٢١٠٠٠) ج٠م ، كما استمر العرب فى دفع نصيبهم فى العام الثانى وهو نفس المبلغ الذى دفع فى العام الأول[٧٤] .

ويبلغ اجمالى مبلغ ضمان أرباح اسهم التأسيس الذى تدفعه مصر والعرب فى العام الواحد (٥٠٠٠٠) ج٠م[٧٥] .

وفى ١٦ مارس ١٩٥٠ اجتمعت الجمعية العموميةللمساهمين بالشركة وذلك لتحديد ميعاد دفع هذا المبلغ كربح أدنى للمساهمين ، وحدد هذا الميعاد للدفع فى ١٣ ابريل ١٩٥٠[٧٦] .

وبفحص ميزانية السنة الثانية لعمل الشركة نجد أن سبب زيادة الايرادات التى ذكرناها مصدره قيمة ايجارات الشقق التى أجرتهـا الشركة من الباطن بالاضافة الى فوائد استثمار أموال الشركة فى مختلف

---

(٧٣) مصلحة الشركات ، نفس المحفظة والملف ، كراسة رقم ١٤٨ . « حساب الأرباح والخسائر عن السنة المالية المنتهية فى ١٢/٣١/ ١٩٤٩ ، الميزانية العمومية فى ١٩٤٩/١٢/٣١ » .

(٧٤) مصلحة الشركات ، نفس المحفظة والملف ، ص ١٤١ ، ١٧٩ .

(٧٥) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، ملف ١٨٤ — ١/٢٢٣ جـ١ ص ٦٧ .

(٧٦) مصلحة الشركات ، نفس المحفظة والملف .

البنوك المصرية والعربية ، وأيضا فوائد على سلفيات فلسطين وسندات الحكومة (قرض فلسطين)[٧٧] •

ويتبين من ذلك أن هذا العائد ليس مصدره ــ باستثناء فوائد سلفيات فلسطين وهى محدودة ــ نشاط الشركة فى انقاذ أراضى وعرب فلسطين ، بل أن مصدر هذا العائد أعمال تجارية ناتجة من تأجير شقق أو فوائد أموال مودعة فى البنوك • ومن ثم فان ذلك لا يتفق والهدف الذى أسست الشركة من أجله ، ومن ناحية ثانية أصبحت الشركة تشكل عبئا كبيرا على الحكومات العربية ، وهذا العبء لا يوجه الى الغرض الذى وافق العرب ومصر على دفع أموالهم فيه ، وهو انقاذ ومساعدة أرض وعرب فلسطين ، ومن ثم أصبح هناك نوع من الاستياء عند بعض المتتبعين لأخبار تلك الشركة فى مختلف البلاد العربية المشاركة فى مشروع تأسيسها ، وطالب بعض من هؤلاء حل الشركة تفاديا لدفع أموال من غير طائل أو جدوى طالما ان الشركة لم توفق تحقيق هدفها القومى •

المطالبة بتصفية الشركة العقارية :

ونظرا لأن الشركة قد وصلت الى هذا الحال من التوقف عن العمل والبعد عن أهدافها فان احدى الحكومات العربية الأعضاء فى مجلس الجامعة العربية ، قد تقدمت بتساؤل فى دورة مجلس الجامعة المنعقدة فى أكتوبر ١٩٤٩ ، وفى هذا التساؤل استفسرت تلك الدولة عما اذا كان من المستطاع حل الشركة ، وأحال مجلس الجامعة هذا الموضوع الى الادارة القانونية بالامانة العامة للجامعة العربية لبحثه ، ولم يطل بحث الادارة القانونية ، فما لبثت أن قدمت تقريرا ذكرت فيه ان حل تلك الشركة أمر لا يملكه الا أصحابها ، كما ان التزام الحكومات العربية

---

(٧٧) حساب الأرباح والخسائر عن السنة المالية المنتهية فى ١٢/٣١/ ١٩٤٩ كراسة رقم ١٤٨ « مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠نفس الملف » .

بضمان الربح الأدنى قائم طوال مدته ، وأن الاحتياطى الخاص المتبرع به من قبل تلك الحكومات قد أصبح مملوكا للشركة ذاتها[٧٨] .

وفى دورة مجلس الجامعة المنعقدة فى مارس ١٩٥٠ ، عرض تقرير الادارة القانونية المذكور ورأى المجلس أن يعيد بحث الموضوع عن طريق اللجنة القانونية المتفرعة عنه والممثلة فيها كل الحكومات العربية الأعضاء فى الجامعة ، وقد درست اللجنة القانونية الموضوع فى عدة جلسات، ورفعت بنتيجة دراستها تقريرا الى مجلس الجامعة[٧٩] .

ولم يكتف المجلس بهذا التقرير ، بل أعاد المجلس البحث بنفسه ، ومن ثم وافق على تقرير اللجنة القانونية ، وأصدر بذلك قرارا فى ٨ ابريل ١٩٥٠ ، جاء فيه مايلى :

يوافق مجلس الجامعة العربية ، على قرارات اللجنة القانونية الآتيــة :

أولا :

ترى اللجنة القانونية أن الشركة العقارية العربيـــة هى شركة مصرية ، خاضعة لأحكام القوانين المصرية ، وأنه ليس لمجلس جامعة الدول العربية أن ينظر فى حل الشركة .

ثانيا :

فى الوقت الذى تعبر فيه اللجنة عن رغبتها فى بقــاء الشركة وتوفرها على الأغراض المنصوص عليها فى المـادة الثانية من نظامها الأساسى — وهى مساعدة وانقاذ أراضى وعرب فلسطين — فان اللجنة ترى أن للشركة الحق فى أن تباشر نشاطها أيضا فى

---

(٧٨) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، نفس الملف ، ١٤٩ .
— قرارات مجلس الجامعة العربية ص ١١٩ .
(٧٩) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ نفس الملف ، ص ١٤٩ .

غير فلسطين من دول الجامعة العربية طبقا لاحكام قانونها الأساسى(٨٠) .

واذا كانت هناك دولة عربية — غير مصر — قد تقدمت باقتراح لحل الشركة ، فان أحد الأعضاء فى مجلس النواب المصرى ، قد تقدم فى جلسة ١٩/٦/١٩٥٠ باقتراح الى وزير التجارة والصناعة يطالب فيه بالنظر فى تصفية الشركة حتى لا يظل التزام دفع نصيب مصر فى ضمان أرباح أسهم المساهمين عبئا على الميزانية من غير داع .

وقد جاء فى اقتراح النائب المصرى ما يلى : « ان هذه الشركة تأسست وساهمت فيها مختلف الحكومات العربية بقصد انقاذ أراضى فلسطين العربية ، ولا شك أننا جميعا نقدر هذا العمل ونعطف عليه كل العطف وعندما تأسست هذه الشركة لقيت منا كل حماسة وتأييد ، ولكن التطورات الأخيرة ، التى اجتازتها قضية فلسطين جعلت هذه الشركة لا عمل لها فى الوقت نفسه تتحمل الحكومة أرباحا لمساهمى هذه الشركة. أما وقد أصبحت الشركة لا عمل لها على الاطلاق ، كما لا ينتظر أن يكون لها عملا مستقبلا ، فسينتهى الأمر بنا الى أن تظل الحكومة ملتزمة بدفع هذه الأرباح عن الميزانية العامة دون فائدة ترجى من ذلك ، لهذا اقترحت على حضراتكم حذف المبلغ من الميزانية على أن تبدأ الحكومة فى اتخاذ الاجراءات اللازمة لتصفية هذه الشركة ، وتتحلل من التزاماتها لدى المساهمين حتى لا يبقى هذا المبلغ عبئا على الميزانية من غير داع وليس من وراءه حكمة »(٨١) .

واستمرت مطالبة النواب بعد ذلك بتصفية الشركة ، كما طالبت اللجنة المالية أيضا بمجلس النواب بنفس الطلب ، وقد ورد ذلك فى جلسة المجلس المنعقدة فى ٢٦/٦/١٩٥٠ ، وقد ذكر هذا فى اطار حديث

---

(٨٠) قرارات مجلس الجامعة العربية ص ١١٩ .

(٨١) مضابط جلسات مجلس النواب ، جلسة ١٩/٦/١٩٥٠ ، ص١٧ .

أحد النواب ، وجاء فيه مايلى : « وردت ملاحظة فى التقرير الذى وضعته اللجنة المالية وهذه الملاحظة خاصة بالشركة التعاونية التىأنشئت لشترى أراضى فلسطين ، وقد جاء فى ملاحظة اللجنة انه على الحكومة أن تعمل على تصفية هذه الشركة حتى لا تتحمل ميزانية الدولة فى السنة القادمة خسائر هذه الشركة »[٨٢] .

وكان تركيز مناقشات أعضاء مجلس النواب حول الشركة ينصب على أنها لم تحقق شيئا ، مما أنشئت من أجله وهو انقاذ أراضى فلسطين ومعاونة عربها[٨٣] .

نشاط الشركة العقارية خارج فلسطين :

كان لابد أمام هذه الظروف من أن تتحرك الشركة العقارية بسرعة نحو ايجاد مناخ عمل مناسب لها ، ووجدت الشركة فرصة لعملها على أحسن ما يكون خارج فلسطين ، وذلك تنفيذا لما جاء فى قرار مجلس الجامعة العربية فى ٨ ابريل ١٩٥٠ والذى أقر فيه انه على الشركة أن تباشر نشاطها أيضا خارج فلسطين فى الدول العربية الأعضاء بالجامعة العربية[٨٤] .

وبالفعل بدأت الشركة فى ممارسة هذا النشاط فى منطقة غـزة والاردن والعراق وهى مناطق لتوظيف أموالها حتى تحقق الشركة الربح المطلوب فى آخر كل عام ولا تظل عبئا على الحكومات العربية ، وبالفعل ستحقق الشركة هذا الربح بعد ذلك ، ولكن من أعمال تصطبغ بالطابع التجارى ، وقد بعدت بذلك بدرجة واضحة عن هدفها الأساسى الذى

---

(٨٢) مضابط جلسات مجلس النواب ، جلسة ١٩٥٠/٦/٢٦ ص ٢٥ .
(٨٣) مضابط جلسات مجلس النواب ، نفس الجلسة ص٧٥ .
(٨٤) قرارات مجلس الجامعة العربية ، القرار الأول ، الجلسة الخامسة فى ١٩٥٠/٤/٨ « مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، ملف ١٨٤ــ ١/٢٢٣ جـ ١ ص١٥٨ » .

أنشئت من أجله ، هذا باستثناء نشاطها فى منطقة غزة لكونها أرض فلسطينية خضعت للادارة المصرية بعد حرب ١٩٤٨ . ونتابع فيما يلى نشاط الشركة فى غزة والاردة والعراق ، لنتحقق من طبيعة هذا العمل ومدى تحقيقه لأهداف المشروع .

أولا : نشاط الشركة فى منطقة غزة :

كان لعمل الشركة فى هذه المنطقة الخاضعة لرقابة القوات المصرية أعظم الأثر ، فى انعاش اقتصادها الزراعى ، بما منحته وتمنحه لأصحاب البيارات والأراضى الزراعية من قروض ، ومعروف أن هذه المنطقة مكتظة بسكانها الأصليين وباللاجئين اليها من مناطق فلسطين الأخرى ، ويبلغ مجموع سكان تلك المنطقة فى ذلك الوقت (١٩٥٠) ٣٥٠ر٠٠٠ نسمه ، ومجموع مساحات الأرض الزراعية بها (٢٥٠ر٠٠٠) دونم ، ومعروف أن عماد الثروة الزراعية فيها هى الثمار الحمضية التى تنتجها بياراتها (حدائقها) ومع رغبة الشركة فى اسعاف الزراع بها واعانتهم على استصلاح أراضيهم وحفظها ، فان مجلس الادارة يأخذ مع ذلك بسياسة حريصة فى منح القروض طبقا للاحتياج العاجل وبنسبة الضمان المأخوذ فى كل حاله . وقد بلغ مجموع القروض التى منحتها الشركة فعلا ما قيمته (٨٦ر٣٨٥) جنيه فلسطينى ، وظلت الشركة توالى عملها فى تلك المنطقة ، وقد حظيت فى هذا السبيل بمعاونة السلطات المصرية هناك . وقد أعطت الشركة هذه القروض بضمان أراضى زراعية ، وأراضى بناء ، ومبان بلغت قيمتها (٤٣٧ر١١٨) ج فلسطينى ، وهى أسعار أقل بكثير من قيمتها الحقيقية فى ذلك الوقت[٨٥] .

وواضح من نشاط الشركة فى غزة انها أسعفت بعض الزراع المحتاجين للقروض .

---

(٨٥) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ نفس الملف ، ص ٧٩ .

ولكون منطقة غزة أرض فلسطينية دخلت تحت الادارة المصرية ، فان نشاط الشركة هنا يكاد يكون موضوعيا مع الهدف الذى أنشأت من أجله ، هذا مع ملاحظة احتياط الشركة المبالغ فيه ، والذى وضح من قيمة الأرض الضامنة للقروض ، فقد كانت تزيد قيمتها أضعافا مضاعفة عن مبالغ القروض .

ثانيا ــ نشاط الشركة فى الاردن :

واذا كانت الشركة قد بدأت نشاطها فى غزة خلال عام ١٩٥٠ ، الا انها لم تبدأ هذا النشاط فى الاردن فى نفس العام ، ذلك أنها صادفت مشاكل فى الاجراءات وبدء التنفيذ ، بالرغم من الفرص الكبيرة المتاحة للعمل ، والتى يمكن أن تستغرق كل رأسمال الشركة بل ويزيد ، وعن تلك الفرص المتاحة للعمل فى الاردن فان الشركة قد ذكرت ما يلى : « تنفيذا للقرار الذى اتخذه مجلس جامعة الدول العربية فى ١٩٥٠/٤/٨ لتوظيف أموال الشركة فى بعض البلاد العربية خارج فلسطين ، منذ ذلك التاريخ والشركة على اتصال دائم بالسلطات المختصة فى الحكومة الاردنية للتصريح لها بالعمل فى هذه المنطقة الشاسعة التى يمكن أن تستوعب جانبا كبيرا من رأسمال الشركة ، فمن المعروف انه فى هذه المنطقة أراضى زراعية واسعة بعضها يزرع والآخر قابل للزراعة ، كما أن حركة العمران فى هذه البلاد نشطة جدا نظرا لكثرة عدد اللاجئين اليها، وبسبب آثار التدمير التى خلفتها الحرب فى مبانيها ، أمام هذا كله تعالت صيحات الأهالى تطلب القروض من الشركة لزراعة الأرض واصلاح المبانى ، ومدينة كمدينة القدس وحدها تحتاج لتعمير ما تهدم من مبانيها وانشاء ما يحتاج اليه الأهالى رأسمال الشركة كله ، ومن المؤسف حقا ان مساعى الشركة لدى الحكومة الاردنية لم تنته بعد الى النتيجة المنشودة بعد انقضاء بضعة شهور على اجرائها ، وذلك

لأسباب سياسية متصلة بالعلاقة بين جامعة الدول العربية والمملكة الاردنية مما لا دخل للشركة فيه »[٨٦] .

وفى الوقت الذى لم تستطع فيه الشركة ابتداء العمل فى الاردن وفى مدينة القدس (الجزء الشرقى منها) — والتى دخلت تحت الادارة الاردنية بعد الحرب — فانه على العكس من ذلك كان النشاط اليهودى على قدم وساق فى تعمير القدس (الجزء الغربى) — الذى استولت عليه اسرائيل بعد الحرب — وساهمت فى ذلك مؤسسات يهودية كثيرة مثل الكارين كايمت ، والكارين هامود وغيرهما ، والتى بلغ عددها حوالى ١٦ مؤسسة يهودية . وقد ساهمت تلك المؤسسات اليهودية فى تعمير الأراضى المحيطة بالقدس وغيرها م نالأراضى الكثيرة ، ووظفت تلك المؤسسات فى ذلك مبالغ باهظة (ملايين من الجنيهات) فى شراء الأرض استصلاحها وتشييد المبانى [٨٧] .

ولم تبدأ الشركة نشاطها فى الاردن بصورة جادة الا مع بداية عام ١٩٥٢ ، وفى ١٩٥٣ واتسمت أعمالها فى هذا النشاط بالصبغة التجارية ، ووظفت الكثير من أموالها فى عموم البلاد ، فكانت منها قروض فى مجال الزراعة ، اتسمت بطابع الاستمرار وحافظ الزراع على دوام تسديد الأقساط المستحقة ، ولهذه القروض الزراعية دورا كبيرا فى نهضة وترقية أحوال الزراعة فى المملكة الاردنية ، وغير قروض الزراعة كانت هناك قروض البناء والتى كان الطلب عليها مستمرا وكبيرا بسبب أعمال البناء المتزايدة ، وخاصة فى مدن عمان والقدس واريحا والزرقاء واستطاع البنك أن يحقق أرباحا أكبر فى مجال البناء بالاردن عن استثماراته فى المجالات الأخرى[٨٨] .

---

(٨٦) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، نفس الملف ص ١٧٣ .

(٨٧) مصلحة الشركات ، نفس المحفظة والملف ، ص ١٧٢/١٧٣ .

(٨٨) نشرة البنك العقارى العربى . تقرير مجلس الادارة عن اعمال البنك وعن أعمال السنة المنتهية فى ٣١ ديسمبر ١٩٥٤ ، وأعمال الجمعية العمومية مارس ١٩٥٥ ص ٨—٩ .

ويتضح من نشاط البنك بالاردن فى كافة أنشطته فى مجال الزراعة والبناء والمرافق انها أعمال اتصلت بالاردن نفسه فى تطوير بعض أنواع الزراعة فيه وتعمير بعض مدنه واقراض عدد من الأهالى ، وهـــذه أعمال قد بعدت بهدف البنك عن صلب القرض الذى أسس من أجله وهو مساعدة وانقاذ أرض وعرب فلسطين ، واتسمت هذه الأعمال من ناحية ثانية بالطابع التجارى والبحث عن الفائدة والربح •

ثالثا ــ نشاط الشركة فى العراق :

كان العراق من البلاد العربية الهامة التى رأى مجلـــس ادارة الشركة أن يوظف أمواله فيها ، وذلك لقابلية المشاريع هناك فى مختلف الميادين لاستثمار الأموال وتنميتها •

وبالفعل بدأت ادارة الشركة منذ منتصف عام ١٩٥٠ فى الاتصال بالحكومة الملكية العراقية وقد أوردت الشركة فى بياناتها أن الحكومة أبدت اهتماما خاصا بشئون الشركة لتحقيق التعاون المطلوب ، وقامت بالربط بين مساعى وطلب الشركة للعمل ، فعملت على تحقيق التعاون بينها وبين مؤسسات عراقية هامة مثل البنك الزراعى العراقى والبنـــك العقارى العراقى ، وذلك لتحقيق التعاون المطلوب لتقوية التعاون العربى وتحقيق أهدافه[٨٩] •

ومساعى الشركة للعمل فى العراق أبعدتها تماما عن أرض فلسطين وحولتها الى هدف عقارى تجارى آخر ، لا يتفق مع جو تأسيســـها وهدفها العربى والقومى •

تغير تسمية الشركة الى البنك العقارى العربى :

وبعد أن وضح اتجاه الشركة على هذا النحو ، وتغير هدفها ، وأنها أصبحت أقرب الى أنشطة البنوك الباحثة عن المكاسب والأرباح

---

(٨٩) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، نفس الملف ، ص ١٧٢ •

منها الى أنشطة المؤسسات التى أنشأت لأهداف وطنية وقومية خاصة ومحددة ، بعد أن وضح ذلك تماما فانه لم يعد الا أن يتغير اسم الشركة ، من الشركة العقارية العربية (ش٠ م٠ م) الى البنك العقارى العربى (ش٠ م٠ م) ٠

وبالفعل فانه قد صدر مرسوم بذلك فى ١٩٥٤/٦/١٧ ، ونشر بجريدة الوقائع المصرية فى ١٩٥٤/٧/١٥[٩٠] ٠

وجاء ضمن أهداف البنك وأنشطته ، القيام بأعمال التسليف العقارى برهون أطيان زراعية ومبانى وأراضى معدة للبناء ، ولم يعد هناك ذكر لأرض فلسطين ومساعدة عربها[٩١] ٠

وبالتطبيق على نشاط البنك من واقع نشراته ، نجد أنه قد اتجه هذا الاتجاه بعيدا كل البعد عن النشاط الفعلى لمساعدة وانقاذ أرض وعرب فلسطين ، وهذا أمر طبيعى ففلسطين احتلت ، وأعلن عن قيام دولة يهودية فيها فى ١٩٤٨/٥/١٥ ٠

ومنذ أن تحولت الشركة الى نشاطها التجارى مع بداية عام ١٩٥١ فانها قد حققت أرباحا واضحة وصلت حملتها فى عام ١٩٥١ الى (١٤١ر١٧) ج٠م[٩٢] واستمرت فى الأرباح بعد ذلك ، وخاصة بعد أن تغيرت تسميتها الى البنك العقارى العربى ، فان البنك قد حقق أرباحا فى سنته المالية لعام ١٩٥٤ قدرها (٢٥٦ر٤٣) ج٠م وهو مبلغ يمثل صافى الأرباح بعد خصم كافة المخصصات المطلوبة[٩٣] ٠

---

(٩٠) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ١٦ ، ملف ١٨٢ــ٤٢٨/٣ ج ١ ص ٢١٥ ٠

(٩١) نشرة البنك العقارى العربى ، تقرير مجلس الادارة عن عام ١٩٥٤ ٠

(٩٢) مصلحة الشركات ، محفظة رقم ٨٠ ، نفس الملف دفتر رقم ١٩٧ « حساب الأرباح والخسائر عن عام ١٩٥١ » ٠

(٩٣) نشرة البنك العقارى العربى ، تقرير مجلس الادارة عن عام ١٩٥٤ م ٠

خاتمــة :

انشئت الشركة العقارية مع بداية تكوين جامعة الدول العربية ، وكان انشاؤها بداية موفقة لنشاط الجامعة ، ذلك أن هدف تلك الشركة يتفق تماما مع الغاية التى اتجهت اليها الجامعة العربية ، وهى العمـل العربى المشترك والانتصار للقضايا القومية العربية .

وكانت قضية فلسطين ، بعد أن بلغت درجة كبيرة من التعقد ، هى الأساس الأول الذى اتجهت اليه أهداف الشركة والغاية القصـــوى لتأسيسها ، ومن ثم سعت الجامعة العربية ، لدى الدول العربية الأعضاء من أجل الاتفاق على تأسيس هذه الشركة بهدف العمل الجاد من أجل القضية الفلسطينية ، وذلك بالوقوف بشدة وبشكل عملى وموحد أمام جوهر مشكلة فلسطين وهى سياسة التهويد والتى نبهت بشـدة الى ضرورة أن يكون هناك صف عربى موحد ، وفكر عربى مشترك ، وتنسيق لتحديد الهدف ، ومال يجمع لمواجهة التحديات ، وفوق هذا كله حتمية أن تكون هناك هيئة قومية أو مؤسسة نشطة ، لها صفة الشرعية التى تعطيها حق العمل والحركة .

وبالفعل كانت الجامعة العربية موفقة عنـدما درست القضـية الفلسطينية لتكون بداية لنشاطها على صعيد العمل العربى الموحد ، ورأت اللجان المتخصصة والمتفرعة عن مجلس الجامعة أن تكون هناك مؤسسة أو شركة تتصدى لسياسة التهويد ، ووافق مجلس الجامعة ، كما وافقت الدول العربية الأعضاء على تكوين تلك الشركة ، وبالفعل صدر مرسوم تأسيسها فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧ كشركة مساهمة مصرية وسجلت الشركة أوراقها فى مصر نظرا لصعوبة تسجيلها فى فلسطين وأعلن عن هدف الشركة ، بأنها شركة ذات مهمة قومية خاصة ، اذ تهدف الى الوقوف الى جانب المواطن والفلاح الفلسطينى ، فتقرضه بالأموال بشروط ميسرة كلما احتاج اليها ، لمواجهة خطط اليهود التى هدفت الى

شراء الأرض العربية فى فلسطين واقدامهم على ذلك بطرق وصل كثيرة ومختلفة •

ومن ثم وجب مد يد العون والمساعدة الى هذا الفلاح لتثبيته فى أرضه ومساعدته على زراعتها ، وتمويله بالبذور والتقاوى والارشادات الحديثة فى زراعة الأرض ، وتهيئة كافة الوسائل أمامه حتى لا يكون عرضة للاغراء أو فريسة للضغوط •

وغير ذلك أعلنت الشركة عن خططها التفصيلية لتنفيذ أفكارها القومية والتى تتلخص فى الوقوف بحزم أمام سياسة التهويد ونجدة عرب فلسطين والحيلولة دون انتقال الأرض العربية اليهم • لعلها تبطل بذلك هدف وخطط اليهود والصهيونية العالمية •

ومن العوامل التى ساعدت على تكوين تلك الشركة هدفها القومى المذكور لمساعدة الفلسطينيين ، بالاضافة الى أن الحكومات العربية الأعضاء فى مجلس الجامعة قد ساعدت مشروع الشركة بشكل عملى جاد ، عندما أعلنت أنها تضمن الربح الأدنى لأسهم التأسيس ، اذا لم تربح الشركة عن أعمالها فى فلسطين ، وأضافت تلك الحكومات أنها ستستمر فى ضمان تلك الأرباح لمدة عشر سنوات من تاريخ التأسيس• وكان هذا الضمان مهم جدا لبداية نشاط الشركة ، نظرا لأن افتراض عدم الربح أو الخسارة قائم ، وذلك لصعوبة بداية العمل والتشغيل الكامل لأموال الشركة •

ويتضح حجم مساعدة الحكومات العربية للشركة بهذا الضمان لو عرفنا أن قيمة اجمالى الضمان فى العام الواحد (٥٠ر٠٠٠) ج•م على أساس أن رأسمال الشركة بلغ مليون جنيه مصرى ، وليس المهم بالضبط قيمة الضمان ، بقدر الفكرة القومية ، والتضحية العربية ، التى ينطوى عليها العمل العربى الموحد لنصرة شعب عربى شقيق •

وبقدر ما كانت البداية موفقة فى تأسيس الشركة ، بقدر ما كانت غير موفقة بعد أن أخذت تسعى لتنفيذ أهدافها فى فلسطين ، وقد يكون السبب فى ذلك أن العوامل التى تعرضت لها أكبر بكثير من طاقة الشركة وحدود العمل العربى ، الا أن الحقيقة المؤكدة أن الشركة لم توفق فى تحقيق أهدافها •

وكانت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ هى العامل الأول الذى غير تماما من مسار الشركة وأبطل من أهدافها القومية ، ففى تلك الحرب نكبت الأمة العربية بهزيمة فادحة وانتصر اليهود ، وأعلنوا عن قيام دولتهم (اسرائيل) فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، والأكثر من ذلك أن عددا من دول العالم قد أعلن مساندته لدولة اسرائيل الوليدة وبات العرب فى أرضهم فلسطين فى وضع بائس ، ذلك أنهم تعرضوا لألوان شتى من الضغط والارهاب ، وصودرت قرى بأكملها ، استولى عليها اليهود ، وانتزعت مساحات شاسعة من أرض فلسطين العربية ، ومن ثم هاجر كثير من عرب فلسطين تحت ضغط هذه الظروف الى البلاد العربية المجاورة ، فى نفس الوقت الذى توافدت فيه أعداد كبيرة من اليهود من مختلف أنحاء العالم الى فلسطين وأصبح الوضع فى فلسطين بعد الحرب مختلف تماما عن الأوضاع قبل الحرب ، فالاكثرية العربية أصبحت أقلية ، والعكس تماما ، الأقلية اليهودية أصبحت أكثرية وتمتلك حوالى (٧٦٪) من ممجوع مساحة فلسطين •

وأمام هذه الظروف لم تتمكن الشركة من ممارسة نشاطها داخل فلسطين فى عامها الأول ، ولذا منيت بالخسارة وتحملت الدول العربية دفع أرباح أسهم التأسيس لتوزع على المساهمين ، وفى العام الثانى أيضا لم تتمكن الشركة من مواصلة عملها الجاد ، ومن ثم لم تحقق ربحا أيضا ، وبالتالى واصل العرب دفع أرباح اسهم التأسيس ، وعندما وجد المتتبعون لأخبار الشركة أنها بهذه الصورة لن تتمكن من تحقيق الهدف الذى أسست من أجله ، بالاضافة ان الدول العربية الضامنة للارباح ستستمر فى الدفع من غير جدوى ، عندما وجد هؤلاء ذلك طالب

بعضهم بتصفية الشركة وحلها • ونوقش أمر تصفية الشركة فى مجلس ادارة الجامعة العربية ، ورفض المجلس طلب التصفية ، واتخذ قرارا بأن تعمل الشركة على تشغيل أموالها فى البلاد العربية المجاورة لفلسطين والتابعة للجامعة وبالفعل اتجهت الشركة نحو هذا الهدف ، وساندت الحكومة فى مصر الابقاء على الشركة دون حل بالرغم من مطالبة بعض أعضاء مجلس النواب ولجنة الميزانية بالمجلس حل الشركة •

وبالفعل بدأت الشركة فى الاتصالات للعمل بقطاع غزة ومارست أعمالا عقارية ، كما اتصلت بالحكومة الاردنية ومارست نشاطها فى ميادين عقارية زراعية وأعمال بناء ، كما اتصلت بالحكومة العراقية للعمل هناك ، وبناء على ذلك بدأت الشركة تحقق أرباحا عن أنشطتها فى تلك الأماكن •

ولكن المهم هنا أن الشركة قد بعدت تماما عن هدفها الأصلى وهو مساعدة عرب فلسطين وانقاذ أرضهم العربية وتثبيت الفلاح الفسطينى فى أرضه ، كل ذلك لم يحدث ، واتجهت الشركة الى ممارسة أعمال تجارية بعيدا عن أرض فلسطين ، باستثناء قطاع غزة ، الذى خضع للادارة المصرية •

وبعد أن وضحت تلك الحقيقة تماما ، وأن الشركة لم تحقق هدفها، وأصبح عملها يتسم بالعمل التجارى البحت وكافة الأنشطة البنكية الأخرى ، التى تمارسها البنوك العقارية • بعد أن وضح ذلك ، تغيرت تسمية الشركة فى عام ١٩٥٤ من الشركة العقارية العربية الى البنك العقارى العربى • وبهذا يكون قد تغير هدف الشركة والاتجاه العربى القومى الذى أنشأت من أجله ، واغتصبت فلسطين ، لتقام عليها دولة اسرائيل ، وطرد أكثر العرب وضاعت أراضيهم ، وأصبحوا أقلية مغلوبة على أمرها ، وهو الأمر الذى لم تستطع الشركة مجابهته برأسمالها المحدود ، كما أن وحدة العرب وامكانياتهم كانت أقل بكثير من التصدى للامبريالية والصهيونية العالمية ، وخطط اليهود •

الملاحـــق

ملحق رقم (١)

موجات الهجرة اليهودية الى فلسطين(١)
١٨٨٢ — ١٩٤٨

الموجة	الفترة الزمنية	تقدير عدد المهاجرين بدون خصم الهجرة العكسية	بلد الاصل الرئيسية التى وفد منها المهاجرون	الصفات الرئيسية للمهاجرين
الأولى	١٨٨٢/١٩٠٣	٢٠٠٠ — ٣٠٠٠	روسيا القيصرية	أعضاء محبى صهيون ، بعد موجة اضطهاد سنة ١٨٨١م
الثانية	١٩٠٤/١٩١٤	٣٥٠٠٠ — ٤٠٠٠٠	روسيا القيصرية	من العمال الأعضاء فى الحركة الصهيونية بعد اضطهاد ١٩٠٤/١٩٠٥
الثالثة	١٩١٩/١٩٢٣	٣٥٠٠٠	الاتحاد السوفيتى بولندا بلاد البحر البلطى	مهاجرون من الرواد والعناصر المدربة بعد تصريح بلفور ١٩١٧

الموجة	السنوات	العدد	البلاد	ملاحظات
الرابعة	١٩٣١/١٩٢٤	٨٢٠٠٠	بولندا الاتحاد السوفييتى البلقان الشرق الاوسط	مهاجرون من الطبقى الوسطى ، دفعهم الى فلسطين سوء الاحوال الاقتصادية فى بولندا وعدم تمكنهم من دخول الولايات المتحدة الامريكية بسبب القيود التى فرضتها على الهجرة .
الخامسة	١٩٣٨/١٩٣٢	٢١٧٠٠٠	بولندا وسط أوروبا	مهاجرون ذو سعة اقتصادية من أرباب المهن الحرة وغيرهم ممن هربوا من الاضطهاد النازى فى المانيا .
الحرب العظمى الثانية	١٩٤٥/١٩٣٩	٩٢٠٠٠	وسط أوروبا البلقان الشرق الاوسط	مهاجرون من الرواد ومن اللاجئين اليهود الذين نجوا من الاضطهاد النازى .
مابعدالحرب	١٩٤٨/١٩٤٦	٦١٠٠٠	بولندا وسط أوروبا البلقان	معظمهم من الهجرة السرية .

(١) وليم فهمى : الهجرة اليوهدية الى فلسطين .

ملحق رقم (٢)

مرسوم تأسيس شركة مساهمة تدعى « الشركة العقارية العربية »(١)

المساهمون	الجنسية	عدد الاسهم	القيمة بالجنيه المصرى
١ — شريف صبرى باشا	— مصرى	٢٥٠٠	١٠٫٠٠٠
٢ — على ماهر باشا	— مصرى	٢٥٠	١٠٠٠
٣ — جميل مردم بك	— سورى	٥٠٠	٢٠٠٠
٤ — يوسف ياسين	— سعودى	١٠٠٠	٤٠٠٠
٥ — حافظ عفيفى باشا	— مصرى	٢٥٠	١٠٠٠
٦ — أحمد حلمى باشا	— سعودى	٢٥٠	١٠٠٠
٧ — عبد الحميد شومان	— فلسطينى	٢٥٠٠	١٠٫٠٠٠
٨ — محمد على علوبة باشا	— مصرى	٤٥٠	١٠٠٠
٩ — محمود شكرى باشا	— مصرى	٥٠٠	٢٠٠٠
١٠ — توفيق دوس باشا	— مصرى	٥٠٠	٢٠٠٠
١١ — حسن كامل الشيشينى باشا	— مصرى	٥٠٠	٢٠٠٠
١٢ — محمود أبو الفتح	— مصرى	٥٠٠٠	٢٠٫٠٠٠
١٣ — محمد فهمى سليمان بك	— مصرى	١٢٥	٥٠٠
١٤— هدى شعراوى	— مصرية	٥٠٠	٢٠٠٠
١٥ — عطية غازى	— مصرى	٥٠٠	٢٠٠٠
١٦ — بهيــة وهبة	— مصرية	٥٠٠	٢٠٠٠
١٧ — عبد القادر ايمان	— عراقى	١٠٠	٤٠٠
١٨ — محمد عبد الرحمن نصير	— مصرى	٢٥٠	١٠٠٠
١٩ — محمد عاطف الأتاسى	— سورى	٥٠	٢٠٠

(١) ملحق الوقائع المصرية ، العدد ٨٠ أول سبمتبر ١٩٤٧ م
يجب التنويه الى أن الأسماء مرتبة كما جاءت فى المرسوم بالضبط .

(تابع) ملحـــق رقم (٢)

المساهمون	الجنسية	عدد الأسم	القيمة بالجنيه المصرى
٢٠ ـ جمال الحسينى ـ فلسطينى		١٠٠	٤٠٠
٢١ ـ نجيب شلبى الجادر ـ عراقى		١٠٠٠	٤٠٠٠
٢٢ ـ محمود الطبقجلى ـ عراقى		٥٠٠	٢٠٠٠
٢٣ ـ حنا سـلامة ـ فلسطينى		٥٠٠	٢٠٠٠
٢٤ ـ ابراهيم الشفطى ـ فلسطينى		٢٥٠	١٠٠٠
٢٥ ـ شوكت حمـاد ـ فلسطينى		٢٥٠	١٠٠٠
٢٦ ـ عزت طنـوس ـ فلسطينى		١٢٥	٥٠٠
٢٧ ـ محمد بشير الحريرى ـ سعودى		١٠٠	٤٠٠
٢٨ ـ محمد سالم سالم ـ مصرى		٢٥٠	١٠٠٠
٢٩ ـ بنك مصر ش٠م٠م ـ ش٠م٠م		٧٩٥٠٠	٣١٨٠٠٠
٣٠ ـ البنك العربى ـ فلسطينى		٧٥٧٠٠	٣٠٢٨٠٠
٣١ ـ بنك الأمة العربية ـ فلسطينى		٧٥٧٠٠	٣٠٢٨٠٠



الشوام فى مصـــر
فى القرن الثـــامن عشر

اعـــداد
دكتور/ عبد الله محمد عزباوى
كلية التربية بالفيوم ــ جامعة القاهرة

أقام بمصر فى القرن الثامن عشر مجموعة كبيرة من الشوام الذين لعبوا دورا هاما فى المجتمع المصرى فى ذلك الوقت • والمقصود ببلاد الشام هنا ، تلك المنطقة الجغرافية التى تقع على الشـــاطىء الشرقى للبحر المتوسط ، وتمتد الى الداخل حتى حدود الصحراء الســـورية • وتعرف هذه الأراضى فى اللغة العربية المستخدمة فى مصر باســـم « بر الشام » ومن هنا جاء اسم « الشامى » والجمع (شـــوام) الذى يطلق على سكان هذه المنطقة[1] •

وكان هؤلاء الشوام يتكونون من عنصرين ، الشوام المسلمون ، والشوام الموارنة ، الذين هم جماعة من السريان يدينون بالمسيحية ، وهم اتباع القـــديس مارون الذى كان كاهنـــا فى القرن الخـــامس الميلادى[2] •

وكان الشوام المسيحيون « الموارنة » أكثر شعوب الشرق العربى

---

(١) البير حورانى ، السوريون فى مصر خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، ص ٢١٧ ، ضمن أبحاث الندوة الدولية لتأريخ القاهرة .

(٢) يوسف الدبس ، الجامع المفصل فى تأريخ الموارنة المؤصـــل ، ص ٣ــ٤ ، بيروت ، المطبعة العمومية الكاثوليكية ، سنة ١٩٢٠ .

اتصالا واختلاطا بشعوب أوربا المطلة على البحر المتوسط فى العصور الوسطى ، ففى ربوع بلادهم دارت ميادين الحروب الصليبية ، وفى شواطىء بلادهم قامت الامارات اللاتينية وبالرغم من انتهاء الحروب الصليبية الا أنها خلقت فى الشام طائفة من المسيحيين تدين بالمذهب الكاثوليكى ، وهؤلاء هم الموارنة الذين يعترفون بالولاء لزعيم الكاثوليك ورئيسهم « البابا » المقيم فى روما ، ولذلك ظلت رحلة البطارقة والقساوسة الشوام دائمة الى « روما » لزيارة مقر البابوية . ولتلقى العلوم الدينية فى مدارس روما الدينية[٣] . وأدى ذلك الى كثرة العارفين باللغتين الفرنسية والايطالية بين كاثوليك الشوام[٤] .

هجرة الشوام الى مصر

لا نستطيع أن نحدد متى بدأ الشوام بقسميهم الهجرة الى مصر ، ولا من هو المهاجر الشامى الأول الى مصر ، وان كان من الثابت أن الشوام المسيحيين كانوا موجودين بمصر فى أوائل القرن السابع عشر ، ولكن باعداد ضئيلة ، فقد جاء فى سجل العماد للاباء الفرنسيسكان[٥] « أنه قد قبل سرا العماد المقدس يوسف بن شكبرى المارونى فى نيسان لـ ٢ سنة ١٦٢٧ من يد الكاهن اللاتينى »[٦] . وجاء أيضا فى سجل الزواج للاباء الفرنسيسكان « تكلل موسى المارونى فى ٢ أكتوبر ٢ سنة

---

(٣) كان للموارنة مدرسة للعلوم الدينية بروما ، لمزيد من التفصيلات وأسماء الموارنة الذين تلقوا العلوم الدينية بهذه المدرسة ، انظر المصدر السابق ص ٣١٠ وما بعدها .

(٤) جمال الدين الشيال ، تأريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ص ٥١ــ٥٢ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٠ .

(٥) عندما هاجر الشوام الكاثوليك الى مصر كان الفرنسيسكان هم المتولون شئونهم الدينية لأن المماليك كانوا يعترفون بهم فقط ويعتبرونهم المسئولون عن شئون جميع الكاثوليك من افرنج وشرقيين ، انظر ، الخورى، بولس قرالى ، السوريون فى مصر ، الجزء الأول ، القسم الأول ؛ ص ٥ .

(٦) بطرس خويرى ، تاريخ الرسالة المارونية فى القطر المصرى ، ص ٥١ .

١٦٤٣ بحضور كل الموارنة »[٧] ، ويتضح من هذا النص الاخير ، قلة أعداد الموارنة بمصر فى أوائل القرن السابع عشر ، فلقلة عددهم حضروا جميعا حفل عرس موسى المارونى •

وعندما زار الأب يوحنا كوبية Couppier الفرنسى الشرق وزار مصر فى خلال سنتى ١٦٣٨ ، ١٦٣٩ شاهد فيها البطرك المارونى جرجس عميرة يزور أبنـــاء طائفتـــه من الموارنة ، وقال : « زرت بطـــــرك الموارنة الذى وصـــل الى القـــاهرة اذ كنت فيها ، ويوجد فى مصر ، عدة قرى يقطن فيها الموارنة ، فضلا عن القاهرة وجاء البطرك من بلاده لزيارتهم ، وبما أن هذا الحبر الجليل هو خاضع لكرسى رومية ، فقد ذهبت مع كل الفرنسين الذين يسكنون القاهرة للسلام عليه[٨] •

وفى أوائل القرن الثامن عشر ، ازدادت هجرة الشوام الى مصر ، بسبب اضطراب أمور الحكم العثمانى ، وازدياد طغيان الباشـــوات الاتراك فى الشـــام ، وقد نال الطـــوائف المســـيحية شىء من هـــذا الاضطهاد[٩] • هذا بالاضافة الى اشتداد الاضطهادات الدينية التى اشتدت فى بلاد الشام وخاصة فى مدينتى دمشق وحلب التى عانى منها الكاثوليك عامة والموارنة خاصة[١٠] • ذلك أنه عندما ســاعد الامير فخر الدين المعنى « الثانى » أمير لبنان الشهير ، الارساليات التبشيرية الكاثوليكية على النزول فى بلاد الشام ، لجأ فريق من الشوام المسيحيين الى قناصل الدول الاوربية ، وتذهبوا بالمذهب الكاثوليكى ، طمعا فى حماية دولهم والفوز بشىء من المساعدة المادية • ولذا فقد ثار عليهم رجال الدين الارثوذكسى اليونانيون ، وأخذوا يحرضون عليهم اخوانهم الشوام الارثوذكس ويلجأون الى البطريرك القسطنطينى ليستصدروا

---

(٧) المصدر السابق ، الصفحة نفسها •

(٨) اليوبيل القرنى الثانى للرهبانية الحلبية المارونية فى وادى النيل ١٨٤٧—١٩٤٧ ، ص ٨ •

(٩) الشيال ، المصدر السابق ، ص ٥٦ •

(١٠) الخورى بولس قرالى ، المصدر السابق ، ص ٥ •

الاوامر لاضطهاد الكاثوليك ، مدعين انهم يتبعـون الدول الاوربية ويحاولون تمكينهم من البلاد . وقد انتهز العثمانيون هذه الفرصـة لاضطهاد المسيحيين من المذهبين ، الكاثوليك والارثوذكس . وان زاد الاضطهاد على الكاثوليك بصفتهم منحازين للاجانب ، وخارجين على رؤسائهم ، الروحيين ، مما جعل الشوام الكاثوليك ينزحون الى مصر فى أوائل القرن الثامن عشر ، ثم زادت مهاجرتهم بعد اضطهاد عـام ١٧٢٥ الشهير . وكان أغلبهم من دمشق الشام ، فلقبوا بالشـوام ، وعم هذا اللقب كل الشوام المهاجرين الى مصر[١١] .

ويبدو أن المرسلين الافرنج « الاوربيين » وخاصة الفرنسيسكان هم الذين اوعزوا الى الكاثوليك الشوام بالهجرة الى مصر ، لانهم هم الذين كانوا يتولون أمر الكاثوليك من الناحية الدينية فى مصر[١٢] .

وقد لجأ القسم الأكبر من الشوام المهاجرين الى القاهرة ، واتجه عدد قليل منهم الى دمياط ورشيد والاسكندرية[١٣] . وهى المدن المصرية الكبرى ذات الصدارة حينذاك فى التجارة والصناعة ، واستغلوا فى هذه المدن نشاطهم التجارى والصناعى وقتذاك ، ووصلت أخبار هـذا النجاح الى اخوانهم فى بلاد الشام فتوالت الهجرات وتتابعت[١٤] ، ويرجع الأب قسطنطين الباشا هجرة مسيحيين الشام الى مصر لسببين « قوة الجذب » ، و« قوة الدفع » ، اذ كانت أخبار نجاح من تقدم منهم الى هذا القطر تجذب سواهم ، وكان الاضطهاد الدينى الذى كان يجرى فى مدن الشام يدفعهم الى هذا القطر[١٥] .

---

(١١) المصدر السابق ، ص ٨٢ .
(١٢) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .
(١٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(١٤) الشيال ، المصدر السابق ، ص ٥٢ــ٥٣ .
(١٥) قسطنطين الباشا ، محاضرة فى تاريخ طائفة الروم الكاثوليك فى مصر ، ص ٧ نقلا عن الشيال ، المصدر السابق ، ص ٥٣ .

وكان الشوام الكاثوليك يؤلفون القسم الأكبر من هؤلاء النازحين، وقد بدأت اعدادهم فى الازدياد منذ عام ١٧٣٠ ، فمنذ هذا العام بدأت أسماء أسر هذه الطائفة ترد تباعا وبكثرة فى السجلات ، حتى اذا جاءت سنة ١٧٥٠ ، أصبحوا الاكثرية الغالبة بين الطوائف الكاثوليكية[١٦] ، فقد ذكر سجل العماد لهم فى سنة ١٧٦٠ نحو ٦٠ عمادا لاطفالهم ، مما يدل على وجود نحو ٢٠٠ أسرة منهم فى القاهرة وحدها[١٧] •

والى جانب هؤلاء الشوام المسيحيين « الكاثوليك » كان هنــاك أيضا الشوام المسلمون الذين انتشروا فى معظم مدن مصر • واذا كان الدافع الأساسى لهجرة الشوام المسيحيين الكاثوليك ، هو الاضطهاد الدينى ، فان الدافع الذى دفع الشوام المسلمين الى الهجرة الى مصر كان التجارة • وينبغى أن نشير الى أن الشــوام مســلمين ومسيحيين كانوا لا يعتبــرون أجانب فى مصر فى ذلك الوقت ، فالكل مصريون وشوام كانوا رعايا الدولة العثمانية •

« نشاط الشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر »

وقد شارك الشوام بقسميهم فى مختلف الأنشطة فى مصر ، فى القرن الثامن عشر ، فشاركوا فى الحركة الفكرية والتعليم ، كما اشتغلوا بالتجارة ، والحرف المختلفة ووظائف الدولة والفرق العسكرية وادارة الجمارك • ونستطيع أن نقسم هذا النشاط الى قسمين رئيسيين :

(أ) نشاط ثقــافى •

(ب) نشاط اقتصــادى •

(أ) النشاط الثقافى للشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر :

لعب الشوام وخاصة المسلمون منهم دورا ثقافيا هاما فى مصر فى

(١٦) الخورى بولس قرالى ، المصدر السابق ، ص ٦٧ •
(١٧) المصدر السابق ، ص ١١٥ ، ١٣٣ •

القرن الثامن عشر بالاشتراك مع اخوانهم المصريين ، وكان لهم رواق بالازهر ، انشأه لهم السلطان قايتباى ثم زاد فيه الامير عبد الرحمن كتخدا حتى صار من أورقة الازهر الكبيرة ، وقد أوقف عليه كل منهما الاوقاف ، ويسكنه أكثر من يجاور من بلاد الشام ، وبه خزانة كتب . وأهل هذا الرواق كثيرون من جميع بلاد الشام(١٨) .

وكان من عادة الشوام اذا أتم الواحد منهم غرضه ، وأراد السفر الى بلاده ، أن يدعو أصدقاءه ومحبيه من الطلبة والمشايخ ، وقد أوقد لهم الرواق بالشموع وفرشه بقدر حاله فيجتمعون عنده الى ما شاء الله من الليل ، ويطاف عليهم بالقهوة والشربات ، وينشدون بالمجلس قصيدة أو أكثر تشتمل على مرحه والتنويه بغزارة علمه وكثرة فضله ثم ينصرفون(١٩) .

وكان الشوام يرحلون الى مصر ، حيث الجامع الازهر ويأخذون على مشايخه المشهورين ثم يعودون الى بلادهم حيث يتولون وظائف الافتاء أو التدريس فى المسجد الاموى وغيره من المساجد الأخرى التى كانت تعتبر دور ومعاهد التعليم العالى . والبعض منهم كان يطيب له المقام بمصر فيستقر بها ويقوم بالتدريس فى الازهر وغيره من المساجد الأخرى ، وكان لبعضهم علاقات قوية ووطيدة بالامراء المماليك.

ومن الشوام الذين رحلوا الى مصر لأخذ العلم عن شيوخها ثم عادوا الى بلادهم :

١ ــ الشيخ أبو المواهب محمد بن تقى الدين الحنبلى الدمشقى ت ١٢٢٦ هـ/١٧١٤ م الذى ولد بدمشق وأخذ عن والده ثم رحل الى مصر فأخذ علم القراءات على الشيخ محمد البقرى ، والفقه

---

(١٨) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٤ ، ص ٢٢ ، القاهرة ، المطبعة الاميرية سنة ١٣٠٥ هـ .

(١٩) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

على الشيخ محمد البعوتى الخلوتى ، والحديث على الشمسى البابلى ، ثم عاد الى بلاده ، وتولى منصب مفتى السادة الحنابلة بدمشق[٢٠] .

٢ ـ الشيخ محمد العجلوتى ت ١١٤٨ هـ/١٧٣٥ م ، نزيل دمشق ، ولد باحدى قرى عجلون وبها نشأ ثم رحل الى القدس وأقام بها سنتين وأخذ بها عن بعض الشيوخ ثم رحل الى دمشق وأخذ عن بعض علمائها ، ثم رحل الى مصر وأخذ بها عن الشيخ محمد العنانى والشيخ محمد الشرنبابلى وغيرهم ، ثم عاد الى دمشق[٢١] .

٣ ـ الشيخ عبد المعطى الخليلى ت ١١٥٤ هـ/١٧٤١ م . أرتجل من بلدته الخليل الى مصر والتحق بالجامع الازهر ، ودرس فيه علوم التفسير والحديث والفقه وأخذ عن كل من الشيخ يونس الدمرداشى الازهرى، وعبد الروؤف البشبيشى وأحمد الخليقى، وغيرهم[٢٢] .

٤ ـ الشيخ محمد الغزى ت ١١٥٥ هـ/١٧٤٢ م ، نشأ بدمشق وأخذ عن شيوخها ثم ارتجل الى مصر وأخذ على مجموعة من الشيوخ منهم الشيخ أحمد بن العتيقة المصرى الشافعى الذى قرأ عليه الفقه والنحو والتوحيد والحديث والمنطق الى غير ذلك ، ومن شيوخه بمصر أيضا الشيخ عبد الرؤوف البشبيشى . وعندما انتهى الشيخ محمد الغزى من دراسته بمصر أرتجل الى تركيا وأقام بها عدة سنين ثم عاد الى دمشق وتولى التدريس بالمدرسة الامينية والمدرسة الشامية ثم رحل بعد ذلك الى حلب ، وصار

---

(٢٠) الجبرتى ، جـ ١ ، ص ٧٢ .
(٢١) محمد المرادى ، سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ، جـ٤ ، ص ٣٩ .
(٢٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٣٦ـ١٣٧ .

بعد ذلك قاضى الشافعية بمحكمة الباب العالى بدمشق واستمر فى القضاء الى أن توفى[٢٣] •

٥ — الشيخ عمر كرامة الطرابلسى ت ١١٦٠ هـ/١٧٤٧ م • وقد قرأ بمصر وحينما عاد الى بلدته طرابلس ، قام بالتدريس هناك كما تولى افتاء طرابلس[٢٤] •

٦ — الشيخ محمد سعيد بن محمد الحنفى الدمشقى الشهير بالسمان ت ١١٧٣ هـ/١٥٧٩ م • كان أديبا وشاعرا مشهورا ، وقد وصفه الجبرتى بانه « أديب الزمان وشاعر العصر والاوان »[٢٥] ذهب الى مصر فى عام ١١١٤ هـ / ١٧٣١ م ودارت بينه وبين أدباء مصر ، مطارحات أدبية ، ثم عاد الى وطنه ، الا أنه عاد مرة ثانية الى مصر فى عام ١١٧٢ هـ/١٧٥٨ م • وقد دارت بينه وبين الشيخ عبد الله مطارحات ثم توجه الى الشام وهناك وافاه الحمام ، ودفن بالصالحية فى عام ١١٧٣ هـ/١٧٥٩ م[٢٦] •

٧ — الشيخ عبد الغنى بن رضوان ت ١١٧٣ هـ/١٧٥٩ م ، ولد بصيدا عام ١١١١ هـ/١٦٩٩ وبها نشأ وحفظ القرآن ثم رحل الى دمشق والتحق بالجامع الاموى ، وأخذ هناك عن الشيخ يونس المصرى[٢٧] مدرس قبة النسر بالجامع الاموى ، وقامت بدمشق ثلاث سنوات عاد بعدها الى صيدا ثم أرتجل الى مصر ، ومكث بها أحدى عشرة سنة وأخذ بها عن جماعة من الشيوخ كالشيخ العقدى والشيخ أحمد الملوى أو الشيخ على الاسكندرى

---

(٢٣) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٢٦ •

(٢٤) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٩٣ •

(٢٥) الجبرتى ، جـ ١ ، ص ٢٤٢ •

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ — ٢٤٤ •

ومنصور المنوفى ، وعبد الرؤوف البشبيشى . ثم عاد الى صيدا وتولى الافتاء بها(٢٨) .

٨ ــ الشيخ محمد العافى ت ١١٩١ هـ/١٧٧٧ م ، ولد بدمشق ، ونشأ بها وأخذ عن بعض مشايخها ثم أرتجل الى مصر وحاور بالجامع الازهر ، وأخذ عن كل من الشيخ أحمد العروسى ، ومحمد الفارسى ، وعيسى البراوى وغيرهم ، وبعد أن عاد الى دمشق تولى التدريس بالجامع الاموى وفى المدرسة السامانية وكذلك فى المدرسة الصالحية . وكان له اطلاع تام فى علوم التفسير والحديث والفقه .وكان يعمل الى جانب اشتغاله بالتدريس بالزراعة والشد فى القرى(٢٩) .

٩ ــ الشيخ حسن بن شرف الدين العسيلى ت ١١٩٥ هـ/١٧٨١ م ولد ببيت المقدس ونشأ بها وقرأ على شيوخها بعض المبادىء ثم أرتجل الى دمشق وحضر دروس الشيخ اسماعيل العجلونى ولازمه ، وقد أجازه الشيخ العجلونى بمروياته ، ثم ارتجل بعد ذلك الى مصر وجاور بالجامع الازهر ونزل برواق الشوام ، وحضر دروس كبار المشايخ فى ذلك الوقت كالشبراوى والحفنى

---

(٢٧) الشيخ بولس المصرى ت ١١٢٠ هـ/١٧٠٨ م ، وهو الشيخ يونس ابن أحمد المحلى الازهرى الكفراوى الشافعى ، نزيل دمشق . ولد فى عام ١٢٠٩ هـ ــ بالمحلة الكبرى ونشأ بها وأخذ علم التفسير والحديث والفقه عن جماعة من علماء بلده ، ثم رحل الى القاهرة حيث الجامع الازهر ومكث عدة سنين وأجازه مشايخه بالافتاء . ثم رحل الى دمشق عام ١٠٧٠ هـ/ ١٦٥٩ م . وأخذ عن جماعة من علمائها ، وقد تولى الشيخ يونس المصرى تدريس الحديث بالجامع الاموى تحت قبته ، الى أن توفى . وكان له بدمشق جاه عريض ، وكان وجهها محترما مقبول الشفاعة عند الحكام . انظر : ثبت يونس المصرى الدمشقى ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية ، برقم ٤٩ مصطلح حديث ، المراوى ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٦٦ .

(٢٨) المرادى ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٨ .

(٢٩) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٨ ــ ٢٩ .

والجوهرى ، وسافر بعد ذلك الى الحرمين وجاور بهما وأخذ عن كل من الشيخ محمد حياة ، والشيخ الطيب ثم عاد الى مصر مرة ثانية فى عام ١١٩٢ هـ/١٧٧٨ م مع بعض امراء المماليك ، وأنضوى الى السيد محمد ابى هادى بن وفا ، الذى كان صغير السن ، فألف كل منهما الآخر وأخذ الشيخ حسن يذاكر له العلوم، وعندما تولى السيد محمد أبى هادى وفا ، نقابة الاشراف الى جانب خلافة السادة الوفائية ، أصبح الشيخ حسن العسيلى وكيلاً له فى جميع أموره ، وكانت كلمته نافذة ، واستمر على ذلك الى أن توفى الشيخ محمد أبى هادى ، فضاقت مصر عليه، فسافر الى دار السلطنة العثمانية وقطنها وأستقر بها ، مع استمراره بالاشتغال بالعلم ، وصار هناك مرجع الخاص والعام فى الفقه الحنفى ، وتقبل شفاعته عند أرباب الدولة . وكان قبل سفره الى الاستانة قد أودع مجموعة من كتبه بمصر ، فأرسل بوقفها برواق الشــام ، فوضعت فى خزانته للانتفاع بها(٣٠) .

١٠ــ الشيخ ابراهيم الاطلسى ت ١١٩٦ هـ/١٧٨٢ م . ولد بحمص عام ١١٢٢ هـ/١٧١٠ م ونشأ بها ، وهناك قرأ القرآن ومبادىء بعض العلوم ، ثم رحل الى مصر وجاور بالازهر مدة طويلة وأجاز له مشايخه بالافتاء والتدريس ، ثم عاد الى بلدته حمص حيث اشتغل بالافتاء والتدريس . وأقبل عليه أهلها وصــار من مشاهير فقهاء عصره ، ثم رحل الى حلب والقسطنطينية وتولى فى أخر الأمر افتاء الحنفية بطرابلس الشام واستمر فى هذا المنصب الى أن توفى(٣١) .

١١ــ الشيخ على الأرمنازى ت ١١٩٦ هـ/١٧٨٢ م . ولد فى أرمناز أحدى قرى حلب عام ١١٢٨ هـ/١٧٧٥ م ، وبها نشأ ، وأخذ عن

---

(٣٠) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ٧٠ــ٧١ .
(٣١) المرادى المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤ .

بعض شيوخها ، ثم رحل الى مصر وحاور بالجامع الازهر ، سبع سنوات وأخذ على عدد من الشيوخ منهم الشيخ حسن المقدسى والشيخ أحمد الدمنهورى والشيخ محمد الحفنى والشيخ على الصعيدى وغيرهم ثم عاد الى وطنه حلب ، ورحل بعد ذلك الى معرة النعمان حيث صار بها قاضيا ، وتوجه بعد ذلك الى حماة واستقر بها حتى مماته ، وقد أشتهر الارمنازى بتفوقه فى اللغة العربية وأصـول الحديث والفقه ، وخاصة فقه أبى حنيفة ، بالرغم من كونه شافعيا[٣٢] . وذلك راجع بالطبع الى أنه كان متوليا منصب القضاء الذى كان يحتم معرفة الفقه الحنفى ، لأن مذهب الدولة العثمانية الرسمى كان المذهب الحنفى ، به تصدر الأحكام ، واليه يرجع فى القضايا ، كما كانت الدولة تحتـم دراسته لمن يريد تولى منصب القضاء .

وبالاضافة الى هؤلاء الشيوخ الشوام الذين رحلوا الى مصـر لتلقى العلم على يد شيوخها فان هناك مجموعة أخرى من الشـيوخ الشوام ، لم يذهبوا الى مصر والأخذ عن علمائها ، وانما اكتفوا بأن أرسلوا يأخذون الاجازات عن بعض شيوخها بالمراسلة نذكر منهم :

١ ــ الشيخ عبد الرحمن المنينى ت ١١٧٢ هـ/١٧٥٨ م ، منينى الاصل دمشقى المولد ، ولد بدمشق عام ١١٤٢ هـ/١٧٢٩ م وبها نشأ ، وقد أجازه علماء مصر بالمكاتبة « المراسلة » وهم الشيخ محمد الحفنى ، وأهبه الشيخ على الصعيدى أو الشيخ خليل المغربى ، والسيد أبو السعود[٣٣] .

٢ ــ الشيخ بدر الدين المقدسى ت ١١٨٧ هـ/١٧٧٣ م ، الذى أجازه

---

(٣٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢١٨ .

(٣٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ ــ ٢٨١ .

بالمكاتبة كل من الشيخ محمد الاسقاطى ، وعبد الله الشبراوى ، ومحمد الدفرى ، وأحمد الملوى[٣٤] .

والى جانب هؤلاء الشوام الذين قاموا بالمجاورة بالازهر وأخذ العلم عن شيوخه وهؤلاء الذين أخذوا الاجازات بالمراسلة ، كان هناك فريق من الشيوخ الشوام أخذ عن علماء مصر ثم أقام بها ، متوليا وظائف التدريس أو القضاء .

ومن هؤلاء الشيوخ الشوام الذين أقاموا بمصر :

١ — الشيخ عبد الطيف الكتبى ت ١١٦٢ هـ/١٧٤٩ م . وهو من أهالى دمشق وقد ولد بها ونشأ بها مشتغلا بطلب العلم ، وفى عام ١١٢٥ هـ/١٧١٣ م رحل الى مصر وأخذ عن شيوخها ثم عاد الى دمشق الا أنه لم يمكث بها سوى عام واحد ، عاد بها الى مصر مرة ثانية وأستطاب بها العيش الى أن مات ، واشتغل بالتدريس وأفادة الطلاب ، وصار شيخ رواق الشوام بالجامع الازهر مدة طويلة وشاع ذكره فى مصر . وكان عالما محققا أشتهر بالاشتغال بالعلوم الرياضية والفلكية ، وبرع فيها . وله مؤلفات فيها وهى : منظومة فى حل الاعداد وشرحها، والمنهج الأقرب لتصحيح موضع العقرب فى الحساب والهيئة . ثم ترك التدريس وأبتعد عن الناس ولازم داره ، الا أنه كان ملازما للحج المصرى فى كل سنة ، حيث صار شيخ الركب المصرى مع أى أمير ، واستمر على ذلك الى أن توفى بمكة ودفن هناك فى عام ١١٦١ هـ/ ١٧٤٩ م[٣٥] .

٢ — الشيخ على بن محمد بن على جار الله ت ١١٦٩ هـ/١٧٥٦ م. من أهالى القدس ، رحل الى مصر وأخذ من علمائها كالشيخ الحفنى ،

---

(٣٤) المصدر السابق ، ص ٢—٣ .
(٣٥) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٨ — ١١٩ ، اسماعيل البغدادى ، هدية العارفين ، جـ ١ ، ص ٦١٨ ، ايضاح المكنون ، ج ٢ ، ص ٥٩٠—٥٩١ ، محمد رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، جـ ٦ ، ص ٨ .

والشبراوى والملوك وقد قام بالتدريس فى المدرسة الصلاحية[٣٦] ٠

٣ ــ الشيخ حسن المقدسى ت ١١٨٢ هـ/١٧٦٨ ٠ وقد أخذ العلم بمصر على شيوخها مثل الشيخ سليمان المنصورى ، والشيخ محمد عبد العزيز الزيادى ، والعزيزى والسيد على الضرير ، والملوى والجوهرى والحفنى والبليدى وغيرهم ٠ وقام بالتدريس بالازهر فى حياة شيوخه ٠ وعندما بنى الامير عثمان كتخدا مسجده بالازبكية جعله خطيبا وأماما به ٠ وقد راج أمره ، وعندما شغر منصب مفتى الحنفية بموت الشيخ سليمان المنصورى ، تولى هذا المنصب بفضل مساعدة الامير عبد الرحمن كتخدا الذى كان له به ألفة ٠ وقد بنى منزلا نفيسا مطلا على بركة الازبكية بمساعدة بعض الامراء ، واشتهر أمره ، وقام بالتدريس فى عدة أماكن الى جانب الازهر ، كالمدرسة الصرغتشية المخصصة لشيخ الحنفية ، والمدرسة المحمودية ، ومدرسة الشيخ مطهر وغيرها ٠ وقد ألف الشيخ حسن المقدسى كتابا فى الفقه الحنفى ، ذكر فيه الراجح من الأقوال ، واقتنى كتبا نفيسة[٣٧] ٠

٥ ــ ابن النقيب ت ١١٨٦ هـ/١٧٧٢ م وهو الامام الفقيه المحدث السيد على بن موسى بن مصطفى بن شمس الدين ينتهى نسبه الى على ابن أبى طالب ، ويعرف بابن النقيب لأن أجداده تولوا النقابة ببيت المقدس ٠ ولد تقريبا عام ١١٢٥ هـ/١٧١٣ م ببيت المقدس ونشأ بها ، وقرأ القرآن على مجموعة من الشيوخ منهم الشيخ مصطفى الأعرج المصرى ، ثم رحل الى دمشق وأخذ عن علمائها ورحل الى حماة وحلب وأخذ عن علمائها[٣٨] ٠ ثم ذهب الى مصر ، واصطحب معه أسرته ، والتحق بالجامع الازهر ، وأحتضنه التاجر المصرى الشهير أحمد جاويش

---

(٣٦) أحمد سامح الخالدى ، أهل العلم بين مصر وفلسطين ، ص٣٥٠

(٣٧) الجبرتى ، جـ ١ ، ص ٣١٢ ٠

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٣٧١ــ٣٧٢ ٠

الجزائرى ، وهكذا نلاحظ أن هناك فى مصر فى القرن الثامن عشر ، كان هناك بعض التجار الذين يهتمون بالعلم ويعملون على تشجيعه ، وذلك عن طريق احتضان الطلبة الغرباء عن مصر ، والانفاق عليهم واسكانهم على نفقتهم ، وكان جاويش الجزائرى التاجر المصرى خير مثال لذلك .

وقد حضر الشيخ ابن النقيب على مجموعة كبيرة من العلماء مثل الشيخ على السجينى ومصطفى العزيزى ، والسيد على الضرير الحنفى، والصباغ ، والملوى والجوهرى ومحمد الحفنى وأحمد العمادى وسليمان المنصورى . وقد قام بالتدريس بالمشهد الحسينى وأشتهر أمره وذاع صيته[٤٠] .

وكان فى كتابته النثرية لا يتكلف بالسجع ويسترسل فى كتابته على سجيته وكانت هذه الطريقة تخالف ما كان متبعا فى ذلك الوقت فى الكتابة النثرية ، حيث التزم الكتاب بالسجع والمحسنات اللفظية ، ولهذا كانت هذه الطريقة غريبة بالنسبة للعصر الذى عاش فيه ابن النقيب ، وفى ذلك يقول الجبرتى « وكانت له فى النثر طريقة غريبة لا يتكلف فى الأسجاع ... ويكتب فى الترسل على سجية بادرة وفكرة على السرعة صادرة[٤١] .

وكان أعيان مصر وأمراؤها يعتقدون فيه ويهدون اليه الهدايا ، وكانت كلمته نافذة فيهم[٤٢] وقد اشتهر ابن النقيب بالكرم والسخاء ، وكان منزله بالقرب من المشهد الحسينى كما يقول الجبرتى «مورودا للاملين» ومحط الرجال الوافدين[٤٣] وكان مغرما باقتناء الخيل المنسوبة، فقد كان عارفا لانسابها ، ولذا فان اصطبله كان لا يخلو من اثنين أو ثلاثة ،

---

(٣٩) المرادى ، المصدر السابق، ص ٢٤٦ .
(٤٠) الجبرتى ، ج ١ ، ص ٣٧١ــ٣٧٢ .
(٤١) المصدر السابق ، ص ٣٧٢ .
(٤٢) المرادى ، المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .
(٤٣) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ٣٧٢ .

يركب عليها ويضربها ويعتنى بأحوالها • وكان أيضا مغرما بالفروسية ورمى السهام واستعمال السلاح واللعب بالرماح وغير ذلك ولما ضاق عليه منزله لكثرة ميله الى اقتناء الخيل ، وكثرة الوافدين عليه ، ترك هذا المنزل ، وانتقل الى منزل واسع بالحسينية فى أطراف المدينة ، فقد كانت الاطراف بمثابة الضواحى يسكنها الاغنياء • وقد عمر الزاوية القريبة من بيته الجديد •

وقد دفعه اسرافه الشديد الى الاستدانة ، وكثرت الديون عليه وكثر مطالبوها وفى ذلك الوقت عزم عبد الرحمن كتخدا على هدم المشهد الحسينى واعادة بنائه وتجديده ، ورأى ابن النقيب أنه سيتعطل عن التدريس طوال فترة الهدم والبناء التى ستستمر شهورا ، فوجدها فرصة للسفر الى دار السلطنة ، فتوجه الى هناك وقرأ درسا فى الحديث فى عدة مساجد ،وحصلت له هناك شهرة واسعة حتى اشتهر بالمحدث ، وأقبلت عليه الناس أفواجا لتلقى دروس الحديث عنه ، وأحبه الامراء وأرباب الدولة وصارت له هناك وجاهة ، الا أنه كان فى دروسه يهاجم بعنف أصحاب اموال والأكابر ، ويصفهم بالجور والعدوات ، وانحرافهم عن الحق ، مما جعل الكثيرون منهم يضيقون به ذرعا ، فوشوا به ، فصدر الأمر بخروجه من العاصمة • وعاد الى مصر ، ولما وصل بولاق استقبله جماعة من الفضلاء ، وحينما انتهى عبد الرحمن كتخدا من تجديد المشهد الحسينى عام ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م عاد ابن النقيب الى دروسه هناك ، ومع كثرة ديونه لم يتخل عن اكرام الضيوف • وكان على صلة بالأمير محمد بك أبو الذهب ، الذى أمر له بمائة ألف نصف فضة من الضربخانة ، فقضى منها بعض ديونه ، وأنفق باقيها على الفقراء وعاش بعد ذلك أربعين يوما ، وتعلل بخراج أياما وأحضروا له يهوديا لمعالجته فقصده بمشتر قيل انه مسموم فكان سببا لموته •

وعندما مات أحضر له الأعيان عدة أكفان وكل منهم يريد أن لا يوضع الا فى كفنه فأخذوا من كل كفن قطعة وكفنوه من مجموع ذلك أرضاء لهم •

كما أعطى الأمير محمد بك أبو الذهب لأخيه « السيد بدر الدين » مبلغ خمسمائة ريال لتجهيزه •

وقد جلس أخوه « السيد بدر الدين » مكانه لاملاء درس الحديث بالمشهد الحسينى ، وحصل له ما حصل لأخيه من قبل ، من ناحية اقبال الناس والأعيان على درسه ، وسار نفس سيرة أخيه وجرى على نسقه فى مكارم الأخلاق وأكرام الضيوف والتردد الى الامراء والأعيان والسعى فى حوائج الناس والتصدى لأهل حارته وخطبته « الحسينية » فى دعاويهم والفصل فى خصوماتهم وصلحهم والدفاع عنهم ومدافعة المعتدى عليهم ولو كان من الامراء والحكام • وصارت له وجاهة ومنزلة بين أبناء حيه •وقد هدم الزاوية القريبة من بيته وأنشأ بدلا منها مسجدا لطيفا وبنى لأخيه ضريحا بداخل ذلك المسجد ونقله اليه فى عام ١٢٠٥ هـ/١٧٦٠ م ، كما أنشأ لنفسه بجانب هذا المسجد دارا نفيسة، انتقل اليها باسرته ، وترك الدار السابقة دار أخيه — لأنها كانت مؤجرة[٤٤] •

٦ — ابراهيم بن مصطفى الحلبى ت ١١٩٠ هـ/١٧٧٦ م •

كان فى أول أمره « مذاريا » يصنع آلة التذرية ، ثم اشتغل بالعلم على شيوخ بلدته ثم توجه الى مصر للاخذ عن علمائها ، وقامت بها سبع سنوات ، درس أثنائها العلوم العقلية ، كالفسلفة والرياضيات والفلك ، ولما كانت العلوم النقلية أكثر انتشارا فى الوطن العربى من العلوم العقلية ، وتكاد تسيطر على الحياة الفكرية وتطبعها بطابعها ، فان الشيخ ابراهيم الحلبى عندما عاد الى بلاده لم يستحسنوا منه دراسة العلوم العقلية وأغفال العلوم النقلية ولذا فقد نبهه شيوخه الى ضرورة تعلم العلوم النقلية ، ولذا فقد عاد الشيخ ابراهيم الحلبى الى مصر وأخذ العلوم العقلية مع النقلية عن كل من السيد على الضرير ، والشيخ

---

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٣٧٢—٣٧٤ •

موسى الحنفى ، والشيخ سليمان المنصورى مفتى الحنفية والشـــيخ سالم النبراوى وغيره • وقد سمح له شيوخه بالتدريس وأصبح بعد ذلك اماما ليوسف كتخدا • وقد انتفع من ورائه بثروة واسعة واعطاه يوسف كتخدا التزاما فى جاهت كثيرة • الا أنه عندما توفى يوســف كتخدا استولى الامير عثمان الكبير على جميع ما بيده من التزام وألزمه بأموال كثيرة • وعندما عزل الامراء المماليك سليمان باشـــا العظم من ولاية مصر ، أرسلوا وفدا كالعادة الى الدولة يشكون هذا الوالى وكان الشيخ ابراهيم الحلبى من ضمن أعضاء هذا الوفد ، وهناك تقابل مع الوزير محمد راغب باشا ــ رئيس كتاب الدولة ــ وأجتمع به وأعجب به الوزير وقرأ عليه كثير من العلوم ، واستمر الشيخ ابراهيم الحلبى مقيما فى العاصمة التركية الى أن توفى(٤٥) •

(ب) النشاط الاقتصـــادى :

اشتغل عدد كبير من الشوام بالتجارة فى مصر فى القرن الثامن عشر ، مثل تجارة الدخان ، ومن التجار الشوام فى الدخان فى مصر فى ذلك الوقت نجد كل من : جرجس الشامى(٤٦) • وديمترى ميخائيـــل الشهير بفمرز الطرابلسى(٤٧) • وموسى جرجس الشـــهير بســـمنة الطرابلسى(٤٨) •

وتاجر بعضهم فى الأقمشة مثل اسحاق الحلبى ، وورنيس أرونين

---

(٤٥) المرادى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٧ــ٣٩ •

(٤٦) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، ســـجل رقم ١١٦ ، مادة ٦٧ ، صحيفة ٣١ ، مؤرخة ٢٨ ذى الحجة ١١٣١ هـ •

(٤٧) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات الباب العالى ، سجل رقم ٢٢٦ ، مادة ١٩٠ ، صحيفة ١٣٦ــ١٣٧ ، مؤرخة ١٣ ذى القعدة ١١٥٥هـ.

(٤٨) المصدر السابق ، سجل رقم ٢٢٧ ، مادة ٣٠٩ ، صحيفة ١٥٥ ، مؤرخة غرة رجب ١١٥٦ هـ •

الحلبى[٤٩] • والخواجا على بن أحمد المعروف بالعاقل الشامى الذى كان يتاجر فى الآلاجات « القفاطين » والبن[٥٠] • والحاج زين الدين بن كمال الدين الشامى التاجر فى الألاجات[٥١] • ومنصور بن قاسم الحلبى التاجر فى الأقمشة[٥٢] •

وتاجر البعض منهم فى الخيش مثل ابراهيم ونيس الحلبى (المخيشاتى) أى الذى يتاجر فى الخيش[٥٣] وتاجر البعض منهم فى السكر مثل الخواجا سليمان بن على الحلبى[٥٤] واشتغل البعض الاخر بتجارة الأخشاب ، مثل الحاج سعد بن أحمد يوسف الحلبى الخشاب ببولاق •

وتاجر بعض الشوام فى الصابون ، مثل فخر الدين بن عثمان النابلسى ، التاجر بوكالة الصابون بخط باب النصر[٥٦] • والسيد عمر فخر الدين وأولاده الثلاثة « اسماعيل وابراهيم ويحيى » والحاج محمد

---

(٤٩) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العربية ، سجل ١٠٩ ، مادة ١٨٨ صحيفة ٩٧ ، مؤرخة ٣ شعبان ١١٦٤ هـ .

(٥٠) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل ٩٤ ، مادة ٥٠٩ ، صحيفة ٣٣٧ ، مؤرخة ١٥ جمادى أول ١١١٣ هـ .

(٥١) المصدر السابق ، نفس السجل ، مادة ٦٢٣ ، صحيفة ٤٦٦ ، مؤرخة ٥ ارجب ١١١٣ هـ .

(٥٢) المصدر السابق ، نفس السجل ، مادة ٥٨ ، صحيفة ٣٦٨ .

(٥٣) المصدر السابق ، سجل رقم ١١٦ ، مادة ٤٥٩ ، صحيفة ٢٥٧ ، مؤرخة ١٥ ربيع آخر ١١٣٢ هـ .

(٥٤) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العربية ، سجل رقم ٧٠ ، مادة ١٥٦ ، صحيفة ٩٢ ، مؤرخة ٧ صفر ١١٠٦ هـ .

(٥٥) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات البا بالعالى ، سجل رقم ٢٠٩ ، مادة ٢٣٩ ، صحيفة ٨٣ ، مؤرخة غرة ربيع آخر ١١٤١ هـ .

(٥٦) المصدر السابق ، سجل رقم ١٩٤ ، مادة ٧٩٣ ، صحيفة ٣٢٦ ، مؤرخة ٣ ربيع أول ١١٢٥ هـ .

حبيشى القوسى التجار بوكالة الصابون بخط باب النصر[٥٧] • والسيد حسين القوسى والحاج فخر الدين النابلسى ، ومحمد بن عبد الحق النابلسى من أعيان التجار بوكالة الصابون بخط باب النصر[٥٨] •

واشتغل بعض الشوام بتجارة البن التى كانت فى ذلك الوقت من مصادر الدخل الكبير ، ومن الشوام الذين تاجروا فى البن ، الخواجا عن بن أحمد المعروف بالعاقل الشامى الذى أشرنا اليه سابقا والذى كان يتاجر فى الألاجات « القفاطين » الى جانب البن ، والحاج حسين ابن نور الدين الحمصى ، والخواجا الحاج عبد الجليل الحمصى التاجر بالبن بخط المشهد الحسينى[٥٦] • والحاج عبد الله بن عبد الله المشهدى الشهير بالشامى من أعيان التجار فى البن[٦٠] •

واشتغل البعض منهم بتجار ةالمجوهرات مثل الخواجا محمد بن عثمان الشامى الجوهرى بسوق الصاغة[٦١] وميخائيل بن عبد الله بن موسى الطرابلسى الصايغ بخط سويقة الغزى[٦٢] •

وكان لبعض الشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر ، مؤسسات تجارية كبيرة لها فروع فى البلاد العربية المختلفة وخاصة بلاد الشام ،

---

(٥٧) المصدر السابق ، سجل رقم ٢٦٣ ، مادة ٥٨٦ ، صحيفة ٤٥٠ـ ٤٥١ ، مؤرخة ٢ القعدة ١١٧٧ هـ •

(٥٨) المصدر السابق ، سجل رقم ٢٥٦ ، مادة ٢٥٦ ، صحيفة ٢١٧ ، مؤرخة ٨ ربيع آخر ١١٧٥ هـ •

(٥٩) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل رقم ١١٧ ، مادة ٨٧ ، صحيفة ٧٠ ، مؤرخة ٢٠ ربيع الثانى ١٣٣٢ هـ •

(٦٠) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات الباب العالى ، سجل رقم ٢٠٦ ، مادة ٣١٨ ، صحيفة ١٤٥ ، مؤرخة ١٨ ربيع آخر ١١٣٥ هـ •

(٦١) المصدر السابق ، سجل رقم ١٠٠ ، مادة ٢٥ ، صحيفة ١٧٩ ، مؤرخة ١١ ربيع أول ١١٣٠ هـ •

(٦٢) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل رقم ١١٦ ، مادة ١١٦٤ ، صحيفة ٦٤٤ ، مؤرخة ١٨ ذى الحجة ١١٣٢ هـ •

وشبه الجزيرة العربية . فقد كان الخواجا على بن الخواجا أحمد المعروف بالعاقل الشامى التاجر فى البن بخان الحمزاوى يقوم بارسال البن الى الشام ليقوم شريكه هناك بتصريفه ، كما كان يقوم بارسال البن الى الاقطار الحجازية ليباع هناك . وقد بلغت قيمة ثمن البن المرسل الى شريكه بالشام ١٣٩٩٨٠ نصف فضة ، وقيمة ارسالياته من البن الى الاقطار الحجازية ٣٠٫٠٠٠ نصف فضة[٦٣] .

ومن التجار الشوام الذين كانوا يقومون بارسال الارساليات الى الخارج ، الحاج زين الدين بن كمال الدين الشامى التاجر . فقد كان له وكيل ببلاد الحجاز يقوم بتصريف ارسالياته هناك ، ويقوم فى نفس الوقت بارسال البضائع من بلاد الحجاز ، ليقوم الحاج زين الدين بتصريفها فى مصر . وكانت حملة الأموال التى تحت يد وكيله الحاج مبارك ببلاد الحجاز ١٨٨٤٥٠ نصف فضة[٦٤] .

وفى دمياط كان يوجد فى عام ١٨١٠ عدد من التجار الشوام المسيحيين وهم : يوحنا سرور البعلبكى ، وجبريال عيروط الحلبى ، وجرجس عيروط الحلبى ، وموسى نقولا حرو الدمشقى ، وجرجس كون الحلبى ، وبطرس عتحورى الدمشقى ، ونقولا كحيل وأنطون سرور البعلبكى[٦٥] .

وقد عمل بعض هؤلاء التجار الشوام المسيحيين بدمياط ، قناصل

---

(٦٣) المصدر السابق ، سجل رقم ٩٤ ، مادة ٥٠٩ ، صحيفة ٣٣٧ ، مؤرخة ١٥ جمادى أول ١١٣٣ هـ .

(٦٤) المصدر السابق ، مادة ٦٢٣ ، صحيفة ٤٦٦ ، مؤرخة ١٥ رجب ١١١٣ هـ .

(٦٤) المصدر السابق ، مادة ٦٢٣ ، صحيفة ٤٦٦ ، مؤرخة ١٥ رجب ١١١٣ هـ .

(٦٥) بطرس خويرى ، تاريخ الرسالة المارونية فى القطر المصرى ، ص ٦٧ .

للدول الأوربية فكان يوحنا سرور قنصلا لاسبانيا ، وجبـريال عيروط قنصلا للنمسا ، وجرجس عيروط قنصلا لانجلترا[٦٦] •

واشتغل البعض من الشوام فى السمسرة بأنواعها المختلفة وهى الوساطة فى البيع والشراء • ومن هؤلاء الشوام السماسرة الحاج عبد الرحمن بن مصطفى السمسار فى البن[٦٧] • والحاج حسين القدسى الدلال بسوق الكتان ببولاق[٦٨] •

واشتغل بعض الشوام بالالتزام ، فقد كان السيد الشريف عبد الرحمن بن السيد الشريف سليمان الحمصى من طايفة متحفظا ملتزما فى عدة نواحى ، ففى أحدى وثائق سجلات القسمة العسكرية الخاصة بحصر تركته بعد وفاته جاء « •• •ويضاف لذلك ثمن ما وجد مخلف عن المتوفى المذكور وعما هو مخلف عن المتوفى المذكور فى النواحى التى كانت جارية فى التزام المتوفى المذكور حال حياته »[٦٩] •

هذا ، كما كان الشيخ مصطفى الحلبى الذى أشرنا اليه من قبل نتيجة صلاته بالامير يوسف كتخدا ملتزما على نواحى عديدة[٧٠] •

كذلك اشتغل بعض الشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر ببعض الحرف والصناعات نجد من بينهم الحاج حسن بن على الشهير بعجلان

---

(٦٦) المصدر السابق الصفحة نفسها •

(٦٧) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات الباب العالى ، سجل رقم ٢٢٧ ، مادة ٣٠٩ ، صحيفة ١٥٥ ، مؤرخة غرة رجب ١١٥٦ هـ •

(٦٨) المصدر السابق ، سجل رقم ٢٦٣ ، مادة ٦٣٨ ، صحيفة ٤٨٦ ، مؤرخة ١٢ ذو الحجة ١١٧٧ هـ •

(٦٩) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل رقم ١١٧ ، مادة ٤٥ ، صحيفة ٣٣٩ — ٣٤٠ •

(٧٠) المرادى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٩ •

النراس « أى الذى كان يشتغل بصناعة التروس » ببولاق[٧١] . وسعد الخياط بتجارة السقايين[٧٢] .

واشتغل البعض منهم بحرفة القبانة « أى الوزن » فنجد فى سجلات الباب العالى ضمن وثائق المحكمة الشرعية ذكر « الخواجا محمد النابلسى والسيد محمد تفاحة النابلسى والحاج سعد الدين الرملى القبانى كل منهم بوكالة الصابون »[٧٣] .

الشوام وادارة الجمارك فى مصر

وفى عهد على بك الكبير تولى الشوام المسيحيون ادارة الجمارك فى مصر ، فقد كان بمصر فى القرن الثامن عشر أربعة دواوين «جمارك» وهى : جمرك الاسكندرية ويتبعه جمرك رشيد وأبى قير للتجارة القادمة من أوربا ، وجمرك دمياط للتجارة الآتية من الشام ، وجمرك بولاق للبضائع الآتية من الوجه البحرى ، ويتبعه جمرك مصر العتيقة للبضائع الواردة من الصعيد ، وجمرك البهار « شرقى القاهرة » فى طريق السويس للتجارة الواردة عن طريق البحر الأحمر .

وكانت رسوم الدواوين « الجمارك » تباع عن طريق ديوان الروزنامة الى الملتزمين ، وهؤلاء يعهدون بادارة كل منها الى مدير باسم « جمركى » أو « أمين الجمرك » أو « معلم الجمرك » .

وكان اليهود قبل عهد على بك الكبير هم الذين يتولون ادارة هذه الجمارك وكانت أقوامهم قد ثبتت فى تلك المراكز بما أكتسبوه من خبرة

---

(٧١) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العربية ، سجل رقم ٦٨ ، مادة ١٩٤ ، صحيفة ١٢٠ ، مؤرخة ١٢ محرم ١١٠٢ هـ .

(٧٢) المصدر السابق ، سجل رقم ١٢٧ ، مادة ٢٨٣ ، صحيفة ٢٣١ ، مؤرخة ٢٧ ربيع الثانى ١٢٠١ هـ .

(٧٣) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات الباب العالى ، سجل رقم ٢٠٧ ، مادة ١٠٤٧ ، صحيفة ٣٤٧—٣٤٨ ، مؤرخة غرة شعبان ١١٣٧ هـ.

بمضى الزمن ، الا أنهم تغالوا فى فرض رسوم غير محتملة على التجار الأجانب انفردوا بها لحسابهم الخاص ولما كان على بك الكبير يهتم بترويج التجارة ، فقد قبض على معلم دواوين الاسكندرية « يوسف ليفى » ومعلم دواوين بولاق اسحق اليهودى ، وصادر أموالهما وأعدمهما وعزل بقية معلمى الدواوين من اليهود ، وعهد بالاشراف على ادارتها الى رجال من الشوام المسيحيين الكاثوليك ، الذين هاجر بعضهم الى مصر فى أوائل القرن السابع عشر[٧٤] •

وكان أول أولئك الشوام من معلمى الدواوين « الجمارك » المعلم ميخائيل فرحات الذى تولى ادارة جمرك الاسكندرية بدلا من يوسف ليفى اليهودى[٧٥] ثم تولاه بعد ذلك المعلم ميخائيل الجمل ، وعندما غضب على بك الكبير على ميخائيل الجمل ، أقام مكانه يوسف البيطار الحلبى ، فالتجأ ميخائيل الجمل بابراهيم الصباغ طبيب ومستشار الشيخ طاهر العمر ، فتوسط له الشيخ ظاهر لدى على بك ، فأعاده على بك الى منصبه بالاشتراك مع يوسف البيطار المذكور[٧٦] •

وعندما تسلم الشوام المسيحيون ادارة الجمارك لم يكتفوا بجمع الرسوم على البضائع الخارجة بل أخذوا يشترون لحسابهم التجارة من الخارج ، ثم يوزعونها على التجار بالجملة بواسطة عملاء من أبناء بلدتهم • وكان معلم الدواوين « الجمارك » يعين وكلاء عنه فى المدن والثغور لجباية الرسوم الجمركية ، وكان يختارهم بطبيعة الحال من بنى جنسه • وكانت الحكومة تضع سلطتها تحت تصرفهم • ومن هنا نشأت أهمية هذا المركز من الناحيتين الادارية والاقتصادية • وأدى

---

(٧٤) محمد رفعت رمضان ، على بك الكبير ، ص ٨٩ـ٩٠ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٠ •

(٧٥) الخورى بولس قرالى ، السوريون فى مصر ، القسم الأول ، ص ٨٥ •

(٧٦) المصدر السابق ، ص ٨٦ •

ذلك بالطبع الى احراز مسيحى الشام مركزا مرموقا ، وأن يتكاثروا فى المجتمع المصرى ، بعد أن كانوا فى أول الأمر قليلين ضعفاء ، فقد وصل عددهم فى أواخر على بك الكبير الى نحو ٣ آلاف شخص فى القاهرة وحدها(٧٧) .

وقد لعب الشوام الكاثوليك فى مصر فى القرن الثامن عشر ، دورا كبيرا فى التقارب بين على بك الكبير والشيخ ظاهر العمر ، وذلك أنه عندما غضب على بك على ميخائيل الجمل ، خرج الأخير منفيا الى عكا التى كان قد استقل بها الشيخ ظاهر العمر ، وخرج على الدولة العثمانية، وقد نزل ميخائيل الجمل ضيفا على ابراهيم الصباغ طبيب ومستشار الشيخ ظاهر ، الذى قابله بالشيخ ظاهر العمر ، وقد أخبر ميخائيل الجمل الشيخ ظاهر أن على بك فى مصر قد جاهر بعداوة الدولة وخرج عن طاعتها وقد توسط الشيخ ظاهر كما رأينا لدى على بك لارجاع ميخائيل الجمل الى مكانه ، وقبل على بك هذه الوساطة ، ومن هنا بدأت الصلة والتحالف بين الرجلين(٧٨) .

وبعد وفاة يوسف البيطار وميخائيل الجمل فى عام ١٧٧٤ ، حل مكانهما أنطون فرعون(٧٩) . وأسرة فرعون أحد فروع أسرة يقال لها بيت الأحمر أو بيت الاحمرى ، وهى مسيحية كاثوليكية كانت تعيش فى حوران . وكان الجو الأعلى لأسرة فرعون يسمى « نعمة » أما اسم فرعون الذى اشتهرت به الاسرة فقد جاء من أن « نعمة » الجد الأكبر لهذه الاسرة كان له ابن يدعى « ميخائيل » كان يعيش فى القرن الخامس عشر ، وكان كاهنا نجله ويحترمه الشيوخ والأكابر ، ويخشاه الأشقياء والشبان الجهال ، كما كانت له مكانة كبيرة عند البطريك ،

---

(٧٧) المصدر السابق ، ص ٨٥ .

(٧٨) ميخائيل نقولا الصباغ ، تاريخ الشيخ طاهر العمر الزيدانى ، ص ٩٠-٩٥ ، حريصا ، مطبعة القديس بولس ، ١٩٣٢ .

(٧٩) الخورى بولس قرالى ، المصدر السابق ، ص ٨٦ .

فكن اذا ضاق البطريرك صبرا باصلاح قوم ، هددهم بالقس ميخائيل ، ولذا فقد غلب اسم فرعون عليه وعلى أسرته[٨٠] •

وبعد أن استولى العثمانيون على الشام ، هاجرت أسرة فرعون من حوران الى دمشق[٨١] ، وبعد أن أشتدالاضطهاد الدينى ضد الكاثوليك فى بلاد الشام فى أوائل القرن الثامن عشر ، اضطرت أسرة فرعون الى الهجرة الى مصر مع غيرها من العائلات الكاثوليكية الشامية • وقد هاجر مع أسرة فرعون من الشام الى مصر ، القس ابراهيم فرعون — والد أنطون فرعون — مع زوجته وأبنائه الثلاثة ، أنطون ويوسف وفرنسيس[٨٢] •

وكان القس ابراهيم فرعون يقوم بالرعاية الدينية للروم الكاثوليك المهاجرين معه من دمشق من آل فرعون وغيرهم ، وصار بوجه عام خورى الشام الكاثوليك فى مصر • وأصبح له نتيجة لذلك وجاهة واحترام بين أفراد طائفته وغيرها • وكان ذلك من أهم العوامل التى أدت الى تقدم أولاده ونجاحهم فى تجارتهم ، فقد ساعدهم كبار التجار وتعاونوا معهم لمنزلة والدهم عندهم[٨٣] •

وقد التزم أنطون فرعون وهو الابن الأكبر للقس ابراهيم فرعون بضمان جمارك مصر فى الفترة ما بين ١٧٧٤—١٧٨٤ ، أى لمدة عشر سنوات ، وذلك فى عهد كل من : على بك الكبير ، ومحمد بك أبى الذهب، وابراهيم بك ومراد بك • وقد رفع بدل ضمانة حينما تولى ادارة الجمارك من ثلاثين كيسا الى مائة كيس ، وازداد هذا البدل تدريجيا حتى بلغ ألف كيس[٨٤] •

---

(٨٠) قسطنطين الباشا المخلص ، تاريخ أسرة آل فرعون بأصولها وفروعها ص ١١—١٣ ، مطبعة القويس بولس ، حريصا ، ١٩٣٢ •
(٨١) المصدر السابق ، ص ٣٣ .
(٨٢) المصدر السابق ، ٥٧—٦٧ .
(٨٣) المصدر السابق ، ص ٦٧—٦٩ •
(٨٤) المصدر السابق ، ص ٧٣ •

وقد أتخذ أنطـــون فرعون من أخوته وأقاربه وأبنـــاء طائفته من الشوام الكاثوليك أعوانا له من كتا بونظار وعمال ، فى كل فـــروع الجمارك[٨٥] • فكان أخوه يوسف معلم ديوان « جمرك » دمياط ، وأخوه فرنسيس معلم جمرك بولاق ومصر القديمة ، وابن عمه اليـــاس فرعون معلم جمرك الاسكندرية[٨٦] •

وقد جمع أنطون فرعون من خلال التزامه لجمارك مصر ، والتى لم تزد عن عشر سنوات ثروة ضخمة بلغت ثلاثة ملايين فرنك ، وهو مبلغ كبير لا نظن أن أحدا من المسيحيين كان يحرزه فى الدولةالعثمانية لذلك العهد[٨٧] •

وفى أواخر القرن الثامن عشر ، ازدادت الامبراطورية النمساوية، السيطرة على تجارة الشرق وتحويلها الى الطريق البرى عبر الأراضى المصرية تحت أشرافها وانتدبت لذلك كارولو روسيتى التاجر البندقى الشهير فى مصر ، فى ذلك الوقت وأنطون فرعون معلم الجمارك فى مصـــر[٨٨] • ومن أجل ذلك فقد وضع أنطون فرعون تحت حمـــاية الامبراطورية النمساوية « الرومانية المقدسة »[٨٩] • وأنعم عليـــه الامبراطـــور « جـــوزيف الثـــــانى » بلقـــــبى « بارون » و« كونت » وعندما رأى أنطون فرعون أن المشروع مصيره الفشـــل ، خشى من غضب مراد وابراهيم[٩٠] ، وقرر الهروب من مصر • ولذا فانه

---

(٨٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(٨٦) المصدر السابق ، ص ٧٩ .
(٨٧) المصدر السابق ، ص ٨٠ .
(88) Hoskins, Halford, Lanca Ter : British routes to India, p. 26 — New York, London, Toronto, 1928.
ومحمد فؤاد شكرى ، بناء دولة مصر محمد على ، ص ١٦ .
(89) Hoskins, op. cit., p. 26.
(٩٠) قسطنطين الباشا ، المصدر السابق ، ص ٩١ ، الشـــيال ، المصدر السابق ، ص ٥٤ .

فى عام ١٧٨٤ غادر أنطون فرعون الاسكندرية الى ايطاليا مدعيا أنه ذاهب للحج ، وبمغادرته مصر انتهى المشروع النمسوى[٩١] •

وقد غادر أنطون فرعون مصر الى ايطاليا مع زوجته تقلا أبنة موسى جبارة ، ثم لحقه بعد فترة أخوه يوسف بعائلته ، وأقاموا أول الأمر فى ليفرنو ، التى كانت الميناء الايطالى والأقرب للشرق ، والتى كان يفزع اليها كل من خاف على نفسه وماله من الشرقيين ، مثل الأمير فخر الدين المعنى الثانى الذى فزع اليها عام ١٦١٣ ، وبعد أن قام بها مدة انتقل الى فلورنسا عاصمة توسكانا فأقام فيها بضع سنوات ثم عاد الى لبنان[٩٢] •

وبعد أن أقام أنطون فرعون مدة فى ليفورنو أنتقل الى تريستا • واستمر أخوه يوسف وأولاده فى ليفورنو • أما أخوه فرنسيس فقد ظل فى مصر مع والدته وزوجته وأولاده[٩٣] • وفى تريستا أفتتح أنطون فرعون محلا تجاريا ، وكان يستورد بواسطة أصدقائه فى مصر البضاعة الشرقية ، مثل اللؤلؤ والمرجان والعاج والالماس والتوابل ويبيعها لكبار التجار فى أوروبا • كما كان يورد الى أصدقائه فى مصر منتجات المصانع الأوربية من الجوخ والحرير والقصب والأوانى الفضية والذهبية وأنواع الأسلحة على اختلافها[٩٤] •

وعندما خرج المعلم يعقوب القبطى من مصر مع الحملة الفرنسية عام ١٨٠١ لعرض مشروعه لاستقلال مصر ، طلب أن تكون مخابرات انجلترا مع الوفد شفهية وعن طريق الكونت أنطون فرعون قسيس

---

(91) Hoskins; op. cit., p. 27.

(٩٢) قسطنطين الباشا ، المصدر السابق ، ص ٩١–٩٤ .

(٩٣) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(٩٤) المصدر السابق ، ص ١٣٦ •

المقيم فى تريستا[٩٥] • وقد توفى أنطـون فرعون بتريستا عام ١٨٠٥[٩٦] •

وقد تولى يوسف جبرائيل فرعون التزام الجمارك فى مصر بعد مغادرة أنطون فرعون مصر[٩٧] • وقد استمر هذا المركز فى يد الشوام الكاثوليك الى أيام محمد على[٩٨] •

وعمل بعض الشوام فى وظائف الدولة ، فقد كان جرجس بن عبد المسيح الطورى كاتبا لجمرك البهار[٩٩] وتادرس بن سعد الخياط كان كاتبا فى أحد الدواوين[١٠٠] •

وكان هناك بعض الشوام فى الفرق العسكرية العثمانية « الأوجاقات » فى مصر ، فيذكر أحمد حلبى ضمن حوادث ١١٢٠ هـ/ ١٨٠٨ م« ان مملوكا من مماليك رجل من اختيارية الجاويشية يقال له محمد جاويش الحلبى »[١٠٢] كما يذكر أحمد حلبى أيضا ضمن حوادث

---

(٩٥) محمد شفيق غبريال ، الجنرال يعقوب والفارس الاسكارس ، ص ٣٦ ، القاهرة ، مطبعة المعارف ١٩٣٢ ، وقد اعتقد استاذنا شفيق غبريال بأن أنطون فرعون قبطى مصرى ، فقد ذكر عند التعريف به ، تحت هذا الاسم ولقب النيل الغربيين تستر مصرى قبطى اسمه « أنطون قسيس » أنظر المصدر السابق الصفحة نفسها ، هامش ٢ .

(٩٦) قسطنطين الباشا ، المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

(٩٧) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٩٨) المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(٩٩) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلا تالباب العالى ، سجل رقم ٢٠٢ ، مادة ٢٢٣ ، صحيفة ٧٨ ، مؤرخة ٢٨ ربيع أول ١١٤١ هـ .

(١٠٠) المصدر السابق ، سجل رقم ٢٢٧ ، مادة ٣٠٩ ، صحيفة ١٥٥، مؤرخة غرة رجب ١١٥٦ هـ .

(١٠١) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العربية ، سجل رقم ١٢٧ ، مادة ٢٨٣ ، صحيفة ٢٣١ ، مؤرخة ٢٧ ربيع الثانى ١٢٠١ هـ.

(١٠٢) أحمد حلبى ، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر من الباشات والوزراء ، ص ٢١٧ ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، القاهرة .

١١٣٤ هـ/١٧٢٢ م « وفى ذلك اليوم عمل كتخدا اسماعيل بيك أغاة الجملية الذى هو عبد الله الشامى ... »[١٠٣] .

ويذكر الجبرتى ضمن أحداث ١١٨٤ هـ/١٧٧٠ ، أن على بك الكبير استكتب بمناسبة تجهيز حملته على الحجاز ، أضاف العساكر أتراكا ومغاربة وشواما ومتاولة ودروزا ... وغير ذلك[١٠٤] .

وكان هناك أيضا بعض الشوام الذين كانوا ينضمون الى بعض الفرق العسكرية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، دون أن يكونوا جنودا بها ، فنجد فى أحدى وثائق المحكمة الشرعية ذكر « الخواجا سليمان ابن المرحوم الخواجا على الحلبى من طايفة عربان »[١٠٥] كما يرد ذكر « الخواجا على ابن المرحوم الخواجا أحمد المعروف بالعاقل الشامى التاجر بخان الحمزاوى من طايفة مستحفظان كان »[١٠٦] بل أننا نجد أن أحد التجار الشوام فى مصر فى ذلك الوقت ، كان أخا لأحد الأمراء المماليك فى مصر ، فنجد فى سجلات الباب العالى ، ضمن وثائق المحكمة الشرعية ذكر « الخواجا سليمان ابن المرحوم الخواجا على الحلبى من طايفة عزان ان له أخ يدعى الأمير حسين أغا مصر »[١٠٧] .

ثروات الشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر

وقد استطاع الشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر وخاصة المشتغلين منهم بالتجارة وادارة جمارك مصر أن يجمعوا ثروة كبيرة .

---

(١٠٣) المصدر السابق ، ص ٣٤٥ .

(١٠٤) الجبرتى ، ج ١ ، ص ٣٥٠ .

(١٠٥) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العربية ، سجل رقم ٧٠ ، مادة ١٥٦ ، صحيفة ٩٢ ، مؤرخة ٧ صفر ١١٠٦ هـ .

(١٠٦) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل رقم ٩٤ ، مادة ١٧٤ ، صحيفة ٢٠١ ، مؤرخة ٨ محرم ١١١٣ هـ .

(١٠٧) وثائق المحكمة العسكرية ، سجلات الباب العالى ، سجل رقم ٧٠ ، مادة ١٥٦ ، صحيفة ٩٢ ، مؤرخة ٧ صفر ١١٠٦ هـ .

فقد رأينا كيف أستطاع انطون فرعون أن يجمع ثروة ضخمة ، قدرت بثلاثة ملايين فرنك[١٠٨] ، كذلك ترك السيد الشريف عبد الرحمن بن سليمان الحمصى عند وفاته ثـروة تقـدر بـ ١ر٣٦٤/٤٩٧ نصـف فضة[١٠٩] وترك الخواجا على بن الخواجا أحمد المعروف بالعـاقل الشامى عند وفاته ، ثروة تقدر بـ ٨٩٧/١٣٥ نصف فضة[١١٠] وترك الخلع زين الدين بن المرحوم كمال الدين الشامى ، ثروة تقـدر بـ ٥١٥ر٩٣٦ نصف فضة[١١١] .

وكان أغنياء الشوام يمتلكون عبيد وجوارى وعتقاء ، فقد كان الخواجا عمر الحمصى لديه جوارى وعتقاء[١١٢] . وكان لدى الحاج عبد الله المشهدى التاجر الشامى الشهير فى مصر فى ذلك الوقت ، مجموعة كبيرة من العتقاء وهم : حسن أوده باس عزبان ، وبرهان الدين ابراهيم عزبان ، وزين الدين مصـطفى ، وزين الدين اسـماعيل ، وعلم الدين سليمان بن عبد الله « الجرجى الجنس » كل منهم . هو الى جانب عدد آخر من المعتوقات وهم : المصونة فاطمة بنت عبد الله البيضاء الجرجية الجنس « أى اليونانية » والحرمة سمور بنت عبد الله

---

(١٠٨) قسطنطين الباشا ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(١٠٩) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل رقم ١١٧ ، مادة ٤٥١ ، صحيفة ٣٤١ ، مؤرخة ١٨ رجب ١١٣٢ هـ .

(١١٠) المصدر السابق ، سجل رقم ٩٤ ، مادة ٥٠٩ ، صحيفة ٣٧٨، مؤرخة ١٥ جماد أول ١١١٣ هـ .

(١١١) المصدر السابق ، نفس السجل ، مادة ٦٢٧ ، صحيفة ٤٧٠ــ ٤٧١ مؤرخة أول شعبان ١١١٣ هـ .

(١١٢) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات الباب العالى ، سجل رقم ١٨٣ ، مادة ١٥٥٤ صحيفة ٩٧ ، مؤرخة ٢١ جماد الأول ١١١٠ هـ .

(١١٣) كلمة عبد الله كانت تضاف الى الجوارى والمماليك والعتقاء ، اشارة الى عدم معرفة الأب .

السوداء ، والحرمة غزال بنت عبد الله السوداء ، والحرمة حلفا بنت عبد الله السوداء ، والحرمة مريم بنت عبد الله السوداء[١١٤] .

سكن الشوام بالقاهرة فى القرن الثامن عشر

وكان الشوام الكاثوليك يسكنون فى القاهرة فى أول الأمر فى مصر القديمة « العتيقة » ، ثم انتقلوا فى أوائل القرن الثامن عشر الى القاهرة الحديثة ، أى الى أحياء الموسكى والخليج وما جاورهما[١١٥] . وهذه المناطق هى مناطق التجارة فى القاهرة أى انهم سكنوا بالقرب من عملهم . وكذلك سكن الشوام المسلمون بالقرب من هذه الأحياء أو بها ، حيث يزاولون تجارتهم ، فعلى سبيل المثال كان الخواجا على ابن أحمد المعروف بالعاقل الشامى التاجر بخان الحمزاوى يسكن بخان الحمزاوى[١١٦] .

كما كان زين الدين بن كمال الدين الشامى يسكن بالجودرية[١١٧] وهى أماكن كلها متقاربة ومركز الحركة التجارة فى مصر فى القرن الثامن عشر . ولازالت الى الآن تحتفظ بطابعها التجارى .

أوقاف الشوام

وقد أوقف الشوام الكاثوليك بمصر فى القرن الثامن عشر الأوقاف لبناء الكنائس والاديرة أو لخدمة الكنائس والاديرة سواء فى مصر أو خارجها ، فى بلاد الشام أو أوربا . فعلى سبيل المثال ، أوقف موسى

---

(١١٤) المصدر السابق ، سجل رقم ٢٠٥ ، مادة ٤٦٠ ، صحيفة ٢١٦ ، مؤرخة ٦ جماد آخر ١١٣٥ هـ .

(١١٥) قسطنطين الباشا ، المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(١١٦) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل رقم ٩٤ ، مادة ٥٠٩ ، صحيفة ٣٧٧ ، مؤرخة ١٥ جماد أول ١١١٣ هـ .

(١١٧) المصدر السابق ، مادة ٦٢٧ ، صحيفة ٤٧٠ ، مؤرخة أول شعبان ١١١٣ هـ .

جرجس الشهير بسمنة الطربلسى التاجر فى الدخان فى عام ١١٧٣ هـ/ ١٧٥٩ م • جميع المكان الكائن بالقاهرة بخط باب النصر ، داخل حارة الجوانية ، بخوخة القطانين ، على نفسه أيام حياته ، ثم بعد وفاته يكون ٣/٤ هذا المكان « ١٨ قيراطا » وقفا على فقراء النصارى « الواردين والمقيمين » بدير البنات المعروف بقصر الشمع بمصر القديمة • أما الربع الباقى (٦ قراريط) فيكون وقفا على فقراء النصارى « الواردين والمقيمين » بدير طور سيناء • فاذا تعذر ذلك صرف ربع هذا المكان لفقراء النصارى بمصر(١١٨) •

وأشترى أنطون فرعون أثناء تولية ادارة جمارك مصر ، أرضا واسعة فى مصر القديمة بجوار كنيسة المعلقة الشهيرة للاقباط ، وأنشأ بها دارا فاخرة ، وأقام بها أيضا كنيسة ، جعلها تابعة لبطريرك الروم الكاثوليكى ، لا شأن لبطريرك الروم الاسكندرى بها كما جعلها مستقلة عن كنيسة الفرنسيسكان وغيرهم • وعين لها كاهنا ليقوم بخدمة أفراد أسرته من آل فرعون ، وأبناء طائفته من الشوام الروم الكاثوليك • وكانت هذه الكنيسة التى أنشأها أنطون فرعون أول كنيسة للروم الكاثوليك فى مصر ، خاضعة للبطريرك الانطاكى •

كذلك أنشأ أنطون فرعون بجوار هذه الكنيسة مقبرة لدفن الموتى الشوام الكاثوليك وقد أوقف أنطون فرعون بعد هربه لايطاليا الدار السابقة وما يحيط بها من الأراضى الواسعة كلها على دير الخلص بلبنان(١١٩) •

ودفع أنطون فرعون الى الآب اثناسيوس الدباس خمسماية ريال رومانى لشراء دار الوكالة الرهبانية المخلصية فى روما • وقد جعل له

---

(١١٨) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات الباب العالى ، سجل رقم ٢٥٥ ، مادة ٣٧ ، صحيفة ٢٠٦ ، مؤرخة ٣ جماد آخر ١١٧٣ هـ .

(١١٩) قسطنطين الباشا ، المصدر السابق ، ص ٨١ .

الآب المذكور ، فى نظير ذلك خمسة قداسات تقام كل عام فى كنيسة القديس كيرلس ، على الدوام ، فى الدار المذكورة[١٢٠] .

وأوقف كل من تادرس الكاتب بن سعد الخياط وزوجته بربارة بنت عطا الله الحريرى ، جميع الحصة التى قدرها النصف « ١٢ قيراطا » من كامل المكان الكائن بالقاهرة ، لفقراء النصارى « القاطنين والواردين والمترددين » بدير الياس بجبل الكرمل بالقرب من مدينة حيفا ، ببلاد الشـــام[١٢١] .

علاقات الشوام الاجتماعية فى مصر فى القرن الثامن عشر

وقد ارتبط الشوام الكاثوليك فى مصر ، فى القرن الثامن عشـــر ببعضهم ، ارتباطا شديدا ، وتوثقت فيما بينهم أواصر الألفة ، فاشتركوا مع بعض فى أعمال التجارة والمهن المختلفة ، كما أرتبطوا عن طــريق المصاهرات حتى صاروا مجتمعا مترابطا فى مصر[١٢٢] وكانوا يساعدون بعضهم فى الاجازات وخاصة فى دفع الغرامات التى كان يفرضها عليهم الامراء المماليك . فقد كان أنطون فرعون وأخوته بالاضافة الى اشتراكهم مع أبناء طائفتهم فى دفع الغرامات والاعانات المالية ، كانوا يبذلون ما فى وسعهم لتخفيف ثقلها عن أبناء طائفتهم ما أمكنهم ذلك[١٢٣] .

وقد تزوج الشوام الموارنة فى مصر من طوائف مختلفـــة فقد تزوجوا من نساء شوام موارنة مثلهم ، أى أنهم تصاهروا مع بعضهم ، وكان ذلك فى بداية استقرارهم بمصر فى بدايات القرن السابع عشر .

---

(١٢٠) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(١٢١) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة القسمة العسكرية ، سجل رقم ١٢٧ ، مادة ٢٨٣ ، صحيفة ٢٣١ ، مؤرخة ٢٧ ربيع الثانى ، ١٢٠١ هـ .

(١٢٢) قسطنطين الباشا ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(١٢٣) المصدر السابق ، ص ٨١ .

ففى ٢ أغسطس ١٦٤٣ تزوج السيد موسى المارونى من السيدة مريم حسام المارونية[١٢٤] • كما تزوج فى أول يناير ١٧١٣ ، عبد الرازق ابن عبد الحى الحلبى من ترزيا بنت بطرس المورور الحلبى[١٢٥] •

وتزوج بعض الشوام الموارنة من مصريات ففى عام ١٧١٧ تزوج سعد بن ابراهيم الكاثوليكى من بيت لحم من شلبية بنت سكرمالله القبطية[١٢٦] • كما تزوج بعض الأقباط المصريين من نساء شاميات كاثوليك ، فقد تزوج المعلم يعقوب فى عام ١٧٨٢ ، بعد وفاة زوجته الأولى ، من مريم بنت نعمة الله الحلبى • ويبدو أن رجال الدين الأقباط « الارثوذكس » فى مصر ولا سيما البطريرك لم يرضوا عن هذه الزيجة ، فعندما مات المعلم يعقوب فى عام ١٨٠١ لم تكن أرملته تملك وثيقة بزواجها ، فحصلت فى عام ١٨١٨ على وثيقة بذلك من مسجلى العقود بمرسيليا[١٢٧] •

وتزوج بعض الشوام سواء من المسلمين أو الموارنة من نساء كن فى الأصل جوارى بعد أن أعتقوهن وأدخلوهن فى ديانتهم • والواقع فان السجل المارونى يذكر فى هذه الفترة أكاليل كثيرة بين أرقاء اعتقوهن الشوام وتزوجوا بهن[١٢٨] • كما نطلع فى وثائق المحكمة الشرعية ، على زيجات لبعض المسلمين الشوام من هذا النوع والواقع فان هذه الظاهرة كانت منتشرة فى المجتمع المصرى فى ذلك الوقت وبالطبع بين أغنياء المصريين الذين كان فى استطاعتهم شراء الجوارى وأعتاقهن بعد ذلك والزواج منهن •

---

(١٢٤) الخورى بولس قرالى ، المصدر السابق ، ص ٩٥ .
(١٢٥) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .
(١٢٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(١٢٧) محمد شفيق غبريال ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .
(١٢٨) الخورى بولس قرالى ، المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

فبالنسبة للشوام الكاثويك فقد تزوج فى يناير ١٦٦٧ حنا بن موسى المارونى من مريم الحبشية معتـــوقة السيدة خيـــلانة زوجة زناتى التاجر[١٢٩] • وتزوج أراكيل سلامون الأرمنى الكاثوليكى فى ٢٩ مارس ١٦٨٥ من سيدة التى كانت فى الأصل جارية عند أحد الأتراك[١٣٠] • كما تزوج جبرائيل المارونى الحلبى فى أول يناير سنة ١٧٧٣ من مرغريت بنت سركيس الارمنى الارثوذكسى من بلاد العجم • ويذكر السجل أن « هذه كانت رقيقة بين أيدى الأتراك » فأقتداها جبرائيل هذا وأعتقها وأدخلها فى المذهب الكاثوليكى ثم أتخذها زوجة له[١٣١] •

أما بالنسبة للشوام المسلمين ، فقد كان الحاج زين الدين بن كمال الدين الشامى التاجر بوكالة « قاسم كتخدا » متزوجا من عايشة خاتون بنت عبد الله الجرجية الجنس ، وشهباز خاتون بنت عبد الله البيضاء الجركسية الجنس[١٣٢] • وكان الخواجا على بن الخواجا أحمد المعروف بالعاقل الشامى ، متزوجا من عايشة خاتـــون بنت عبد الله « البيضا » معتوقة أخيه الخواجا محمد العاقل الذى كان قد توفى[١٣٣] • كما كان الحاج أبو بكر بن عمر الشامى التاجر بوكالة « ذو الفقـــار كتخدا » بخط رؤوس الجمـــالية ، متزوجـــا من وردة بنت عبد الله السوداء[١٣٤] •

كذلك تزوج بعض الشوام المسلمين من الأسر التركية ، فقد تزوج

---

(١٢٩) المصدر السابق ، ص ٩٦ •
(١٣٠) المصدر السابق ، ص ٩٧ •
(١٣١) المصدر السابق ، ص ١٠٧ •
(١٣٢) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل رقم ٩٤ ، مادة ٦٢٣ ، صحيفة ٤٦٦ ، مؤرخة ٥ ارجب ١١١٣ هـ •
(١٣٣) المصدر السابق ، نفس السجل ، مادة ٥٠٩ ، صحيفة ٣٧٧ ، مؤرخة ١٥ جماد أول ١١١٣ هـ •
(١٣٤) المصدر السابق ، سجل رقم ١١٤ ، مادة ٢٣٧ ، صحيفة ٤٤ ، مؤرخة ٨ ربيع أول ١١٣١ هـ •

الخواجا على بن الخواجا أحمد المعروف بالعاقل الشامى من فاطمة خاتون بنت اسماعيل الروسى(١٣٥) .

وقد تزوج الشوام الكاثوليك من بعض الجاليات الأوربية فى مصر وخاصة الفرنسيين ففى أواخر القرن السابع عشر بين عامى ١٦٩١ — ١٦٩٥ (١٣٦) — تزوج ابراهيم بن موسى من ماريا بنت فرنسيس بيير الفرنسية(١٣٧) .

كذلك صاهرت بعض الاسر الشامية الكاثوليكية ، بعض الاسر الايطالية ، ففى ٥ مايو ١٦٣٤ خطبت حنة بنت عبد الحى الارمنية الى يوسف روما نودلا براتا Della Prata (١٣٨) . وفى ٣ نوفمبر ١٦٨٤ تزوج الخواجا ليورنسو جيويا Gioia البندقى من بربارة بنت المعلم ميخائيل الشاوى المارونى(١٣٩) .

وبالاضافة الى هذه المصاهرات السابقة بين الشوام الكاثوليك والجاليات الأوربية بمصر فى القرن الثامن عشر ، فقد كان للشوام الكاثوليك علاقات اجتماعية أخرى مع هذه الجاليات الاجنبية الأوربية، تمثلت فى حضور أفراد هذه الجاليات وقناصلهم حفلات زواج الشوام الموارنة ، ففى ٢٨ مايو ١٦٨٤ ، حضر بطرس ده رنان من مرسيليا والسيدة حنة ده روازريو ، والخواجا اوثان الترجمان المرسيلى حفل

---

(١٣٥) المصدر السابق ، سجل رقم ٩٤ ، مادة ٥٠٩ ، صحيفة ٣٧٧، مؤرخة ٥ اجماد أول ١١١٣ هـ .

(١٣٦) لا يذكر السجل العام بالضبط ولكن الاب بولس قرالى ، يرجح أن هذا الزواج قد تم بين عامى ١٦٩١ — ١٦٩٥ . انظر ، بولس قرالى ، المصدر السابق ص ٩٨—١٣٧ المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(١٣٨) المصدر السابق ص ٩٥ ، وقد جاء فى سجل الاباء الفرنسيسكان بعد ذلك أن هذه الخطوبة قد فسخت لاسباب لا يذكرها ، وأن المذكورة زفت الى الخواجا يوسف الرودسى فى ٢٨ نوفمبر ١٦٣٧ . انظر المصدر السابق، الصفحة نفسها .

(١٣٩) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

زواج بطرس بن موسى الهدنانى وحنة هلال ، من الموارنة[١٤٠] . كما حضر قنصل « الفلانور » « بلجيكا » فى ٢٣ سبتمبر ١٦٨٨ حفل زواج منصور ابن خليل من بيت لحم من نصرية بنت حنا ، وهى من بيت لحم أيضا[١٤١] .

ووقف بعض أفراد الجاليات الأجنبية الأوربية ، عدا تبين لبعض الشوام الكاثوليك عند تعميد أطفالهم . ففى ٦ ديسمبر ١٧٠٦ عند عماد أحد أبناء الشوام الكاثوليك كان من ضمن العرابين المسيو أوربيك التاجر البندقى[١٤٢] وفى ٣ مايو عام ١٧١٥ عند عماد مبارك بن قزمان الياس، كان أحد العرابين المسيو لمير الفرنسى[١٤٣] .

كذلك وقف بعض الشوام الكاثوليك عرابين لعماد أطفال بعض الانجليز ، ففى ٨ يناير ١٧٥٤، وقف الخواجا يوسف بن بكتى بن الخواجا نعمة الله الملكى الدمشقى ، عرابا لأحد أبناء المستر برودرين الانجليزى بالاسكندرية وفى ٩ ابريل يقف الخواجا يوسف فرنجى الدمشقى عرابا لأحد أبناء المستر برودرين الانجليزى أيضا[١٤٤] .

وكان لكبار التجار الشوام علاقات اجتماعية مع الامراء المماليك ، فقد اتخذ بعضهم وكلاء لهم من الامراء المماليك ، فقد كان الامير اسماعيل أفندى أوده باشا طائفة عزبان وكيلا شرعيا عن الحاج عبدالله المشهدى الشهير بالشامى ، والذى كان من أعيان التجار فى البن[١٤٥] .

وكان لبعض تجار الشوام علاقات مالية مع بعض أمراء المماليك،

---

(١٤٠) المصدر السابق ، ص ٩٦—٩٧ .
(١٤١) المصدر السابق ، ص ٩٦ .
(١٤٢) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .
(١٤٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(١٤٤) المصدر السابق ، ص ١٢٠ .
(١٤٥) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات الباب العالى ، سجل رقم

فكان التجار الشوام يقرضونهم الأموال ، فقد كان الحاج زين الدين ابن كمال الدين الشامى بذمة الأمير سليمان حوربجى توفكجيان مبلغ ١٥ ألف نصف فضة[١٤٦] .

كما كان للسيد الشريف عبد الرحمن الحمصى ، ديون على عدد كبير من الأمراء بلغت جملتها ١٠٨٠ر٣٢٦ر١ نصف فضة[١٤٧] . وهو مبلغ ضخم لا شك فيه ، ويبين حجم الثروات التى جمعها بعض التجار الشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر .

الرهبانية الحلبية المخلصية فى مصر

بعد أن كثر عدد الموارنة فى دمياط أخذوا يطلبون منذ عام ١٧٢٥ من الرهبانية الحلبية المخلصية ببلاد الشام أن ترسل اليهم بعض رجال الدين لكى يتولوا رعايتهم الروحية . الا أن الرهبانية لم تستطع أجابة طلبهم فى أول الأمر ، لقلة عدد الآباء فيها ، ولكثرة الاشغال الملقاة على عاتقهم فى لبنان[١٤٨] . ولكنها استجابت لهم فى عام ١٧٤٥ ، فأرسلت اليهم القس موسى هيلانة الشامى ، الذى وصل ثغر دمياط فى شهر يوليو من نفس العام[١٤٩] .

ولم يكف للموارنة ولا لسائر الطوائف الكاثوليكية كنيسة فى دمياط، ولذا فقد أخذ الآب موسى هيلانة الشامى أحد بيوت أبناء الطائفة مكانا

---

٢٠٦ ، مادة ٣١٨ ، صحيفة ١٤٥ ، مؤرخة ١٨ ربيع آخر ١١٣٥ هـ .

(١٤٦) وثائق المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسكرية ، سجل رقم ٩٤ ، مادة ٦٢٣ ، صحيفة ٤٦٦ مؤرخة ١٥ رجب ١١١٣ هـ .

(١٤٧) المصدر السابق ، سجل رقم ١١٧ ، مادة ٤٥٥ ، صحيفة ٣٤١ ، مؤرخة ١٨ رجب ١١٣٢ هـ .

(١٤٨) اليوبيل القرنى الثانى للرهبانية الحلبية المارونية فى وادى النيل ، ١٧٤٥–١٩٤٥ ص ٩ .

(١٤٩) القس بطرس خويرى ، تاريخ الرسالة المارونية فى القطر المصرى ١٧٤٥–١٩٢٧ ص١٣–١٤ . القاهرة ١٩٢٧ .

لاقامة الشعائر الدينية ، وكان يدعو اليه أبناء الطوائف الكاثوليكية الأخرى • ثم أخذ يسعى لايجاد كنيسة للشوام الكاثوليك ، وقد استأجر من أجل ذلك بناء كبير يعرف باليارحة على شاطىء البحر ، فى خط النط من أوقاف الحاج ابراهيم خفاجى ، وقد توفى الآب موسى هيلانة فى عام ١٧٤٨ (١٥٠) •

ولما كانت البارحة وقف اسلامى أو لم يصدر فيه فرمان نجيز للموارنة أقامة معبد بنى فيه ، فقد أصدر مراد بك فى عام ١٧٩٦ أمر اغلاق كنيسة البارحة فى دمياط ، وحرم على الكاثوليك القيام بشعائرهم الدينية ، وأمر بحبس القس يوسف السمعانى المقيم بالبارحة هو وتسعة أنفار من الشوام الكاثوليك معه ، ووضعوا فى السجن لمدة عشرة أيام ، وطلب منهم أن يدفعوا ثلاثين ألف ريال (١٥١) •

وقد رفع الآب يوسف السمعانى وأعيان الطوائف المسيحية الكاثوليكية بمساعدة القنصل الفرنسى عرائض الاسترحام الى السلطان سليم الثالث الذى أصدر فرمانا بعدم التعرض لهم ولا لبارحتهم بشىء مغاير للشرع الشريف ، وسمح للكاثوليك أن يصلوا يالبارحة حسب عوائدهم السابقة ، وطلب من الهيئات الحاكمة فى مصر مراعاة ذلك واعطاء الكاثوليك تصريحا بذلك (١٥٢) •

أما فى القاهرة فانه لا يعرف على وجه التحديد ، متى وصل اليها أول كاهن مارونى يتبع الرهبانية الحلبية ، وأن كان يمكن القول أنه وصل اليها بعد عام ١٧٤٥ ، وهو تاريخ وصول أول قس حلبى الى دمياط ، وقبل عام ١٧٨١ ، فقد جاء أوراق الرهبانية الحلبية المحفوظة بدير اللويزة بلبنان : « فى ٥ شباط سنة ١٧٨١ ، توفى بمرض الطاعون

---

(١٥٠) المصدر السابق ، ص ١٤ •
(١٥١) المصدر السابق ، ص ٢٤—٢٥ •
(١٥٢) المصدر السابق ، ص ٢٥—٣١ •

فى القاهرة القس مخايل كترون أثناء مباشرته أعمال الرسالة » ويستدل من ذلك أن الرهبانية الحلبية كانت ترسل كهنة الى القاهرة قبل عام ١٧٨١ . أما أول قس « حلبى » تذكره سجلات الرهبانية ، فهو القس بطرس ذكره ، الذى عين فى عام ١٧٨٨ ، والذى مات فى عام ١٧٩٧ ، بمرض الطاعون[١٥٣] .

مدافن الشوام الكاثوليك فى مصر

عندما هاجر الشوام الكاثوليك الى مصر فى أوائل القرن السابع عشر ، كان الآباء الفرنسيسكان هم المتولين دفن أموات كل الطوائف الكاثوليكية فيها ، واستمر هذا الوضع الى منتصف القرن التاسع عشر[١٥٤] ، ولذا فعندما بنى أنطون فرعون مقبرة لابناء طائفته ، أضطر أن يسلمها الى الآباء الفرنسيسكان ، الذين كان يعترف بهم المماليك دون غيرهم من الطوائف الأخرى ، ويعتبرونهم مسئولين عن شئون جميع الكاثوليك بمصر من أوربيين وشرقيين[١٥٥] .

وفى عام ١٧٧٤ ، استقلت طائفة الروم الكاثوليك فى مصر بشئونها الروحية من الآباء الفرنسيسكان[١٥٦] . وعندئذ منعها هؤلاء من الدفن فى مقبرتهم بالاضافة الى المقبرة التى بناها أنطون فرعون لابناء طائفته من الشوام الكاثوليك ، وسلمها لهم ، بحجة أنها من أملاكهم ، فشكا الشوام الكاثوليك أمرهم الى المجمع المقدس فحكم لهم فى عام ١٧٩٤ بحق الدفن فى هاتين المقبرتين . ثم عاد فأمر الفرنسيسكان بتسليم المقبرة التى بناها أنطون فرعون للروم الكاثوليك « الشوام الكاثوليك »[١٥٧] .

---

(١٥٣) اليوبيل القرنى الثانى ، ص ٤ .
(١٥٤) الخورى بولس قرالى ، المصدر السابق ، ص ٩٤ .
(١٥٥) المصدر السابق ، القسم الثانى ، ص ٥ .
(١٥٦) المصدر السابق ، القسم الاول ، ص ٩٤ .
(١٥٧) المصدر السابق ، ص ١٢٢ ، القسم الثانى ، ص ٢ .

هروب الشوام من مصر فى أواخر القرن الثامن عشر

وفى أواخر القرن الثامن عشر ، وخاصة عهد مراد وابراهيم ، فزع من مصر الى ايطاليا عدد كبير من الشوام الكاثوليك ، وذلك لازدياد اضطهاد المماليك لهم ، فقد أغرق اسماعيل بك ، يوسف كساب الشامى فى النيل[١٥٨] • فخرج من مصر عدد كبير من الشوام الكاثوليك ، كان من بينهم كما رأينا أنطون فرعون • ولما كانت موانى مصر الشمالية على اتصال تجارى دائم بموانى ايطاليا ، وخاصة جنوة والبندقيـــة وليفورنو التى كانت تضم منذ القرن الخامس عشر جاليات شرقية كبيرة، فقد تجددت رحلة الشوام الكاثوليك من مصر فى أواخر القرن الثـــامن عشر ، للتجارة أحيانا وهربا من اضطهاد المماليك أحيانا أخرى[١٥٩] •

الشـــوام فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية

١٧٩٨ م ــ ١٨٠١ م

يتبوأ الشوام الكاثوليك فى مصر فى عصر الحملة الفرنســـية ، مركزا مرموقا فى المجتمع المصرى ، واذا كان بعضهم قد خرج فى عهد مراد وابراهيم ، فان هذا البعـــض قد عاد الى مصر أثنـــاء الحملة الفرنسية •

الشوام تراجمة فى جيش بونابرت فى مصر

ومن أهم الأعمال التى مارسها الشوام فى مصر ، أثناء الحملة الفرنسية وظيفة الترجمة ، ذلك أن الحملة الفرنسية كانت فى أشـــد الحاجة الى مترجمين دائمين ، ينقلون عنها الأوامر ويترجمون المنشورات ويسجلون محاضر الدواوين ويكونون وسطاء فى نقل الحديث بين الحكام

---

(١٥٨) قسطنطين الباشا ، المصدر السابق ، ص ٩٠ .
(١٥٩) جمال الدين الشيال ، المصدر السابق ، ص ٥٣ ، ٧٣ •

والمحكومين • هذا بالاضافة الى أن الفرنسيين بعد أن استقروا فى القاهرة ، أخذوا يتتبعون من بقى من عائلات المماليك ، ويهاجمون بيوتهم ويستولون على أموالهـم ، وكانوا فى تنقلاتهم يسـتصحبون معهم المترجمين ليقوموا بنقل الحديث بينهم وبين زوجات الامراء وأولادهم وخدمهم[١٦٠] • فيذكر الجبرتى فى حوادث شـهر ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ ، ان جماعة من جنود الفرنسيين ذهبوا الى « بيت رضـوان كاشف ••• وصحبهم ترجمان ومهندس »[١٦١] •

وقد وجد الفرنسيون ضالتهم فى الشـوام الكاثوليك لاجادتهم اللغتين الفرنسية والايطالية الى جانب معرفتهم باللغة العربية ، ولاتفاق الطائفتين ــ الفرنسية والشامية ــ فى اعتناق دين واحـد ومذهب واحد[١٦٢] •

وقد اصطحب بونابرت معه فى حملته على مصر ، مترجمين شوام، أغلبهم من رهبان المدرسة المارونية الشهيرة فى روما • ومن هؤلاء ، الياس فتح الله ويوسف مسابكى[١٦٣] • والراهب أنطون مشـحرة الحلبى الذى نزع الاسايم والثوب الرهبانى وتقلد السلاح[١٦٤] •

وبالاضافة الى هؤلاء المترجمين الشوام الكاثوليك الذين أتوا مع الحملة ، فقد استعانت الحملة بمجموعة كبيرة من الشوام الكاثوليك ، المقيمين بمصر • ومن هؤلاء التراجمة الشوام الذين اسـتعانت بهم الحملة فى أعمالها الرسـمية ، نصر الله النصرانى ترجمـان قائمقام

---

(١٦٠) المصدر السابق ، ص ٣٦ــ٣٧ •

(١٦١) الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ١٦ •

(١٦٢) الشيال ، المصدر السابق ، ص ٥٦ •

(163) Correspondance de Napoléon 1er, Tom. V. pp. 64 — 5, Paris, 1858 — 1864.

(١٦٤) الخورى بولس قرالى ، المصدر السابق ، القسم الثانى ، ص ٧٤ •

بليار[١٦٥] • وعبود وميخائيل الصباغ حفيدا ، ابراهيم الصباغ ، طبيب ومستشار الشيخ ظاهر العمر ، وفى مصر نشأ الاخوان وعندما دخل الفرنسيون مصر اتصلا بهم • وقد خرجا مع الحملة فى عام ١٨٠١ وذهبا الى فرنسا[١٦٦] • وفى فرنسا اتصل ميخائيل بالمستشرق الكبير دى ساسى فى باريس • وعين مصححا للمطبوعات العربية فى المطبعة العربية بباريس ، ثم ناظرا للمحفوظات الشرقية فى المكتبة الأهلية • وقد توفى ميخائيل الصباغ بباريس عام ١٨١٦[١٦٧] •

ومن المترجمين الشوام الذين اتصلوا بالحملة الفرنسية فى مصر ، الياس حنانيا فرعون من أسرة فرعون الشهيرة التى غادر معظم أفرادها فى عهد مراد وابراهيم وكان الياس فرعون وقت دخول الحملة الفرنسية مصر ، معلم الجمارك بالبلاد وكان يجيد اللغات الايطالية والفرنسية والتركية واليونانية الى جانب معرفته بالعربية • وقد اتخذه بونابرت ترجمانا خاصا وكاتما لاسراره ، عوضا عن المستشرق الفرنسى الشهير Venture أكبر تراجمة الحملة الفرنسية ، ومن أعضاء المجمع العلمى الفرنسى الذى أنشأه بونابرت فى مصر ، والذى مات بالدوسنتاريا على أبواب عكا ١٧٩٩[١٦٨] •

وقد استمر الياس فرعون بعد رحيل بونابرت عن مصر ، مترجما خاصا ، لكل من كليبر ومنو ، وعند خروج الفرنسيين من مصر عام ١٨٠١ لم يشأ أن يخرج معهم وفى عام ١٨٠٢ عندما أرسل بونابرت سبسيانى سفيرا للشرق طلب منه أن يسأل عند وصوله الاسكندرية عن الياس فرعون وأن يستعلم منه عن أحوال مصر بعد خروج الفرنسيين

---

(١٦٥) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(١٦٦) خليل مرزم ، أعيان القرن الثالث عشر ، فى الفكر والسياسة والاجتماع ص ٢٠٤ ، بيروت ١٩٧١ .

(١٦٧) يوسف أليان سركيس ، معجم المطبوعات العربية والمصرية ١١٩٣ــ١١٩٤ .

(١٦٨) قسطنطين الباشا ، المصدر السابق ، ص ١١٣ــ١١٤ .

منها ، وأن يدعوه الى فرنسا باسم القنصل الأول ليعينه فى أحد الوظائف هناك وبالفعل سافر الياس فرعون الى فرنسا وقابل بونابرت الذى عينه فى أحد وظائف وزارة الخارجية ، ورتب له معاشا سنويا قدره ستة آلاف فرنك لمدى الحياة ، ومنحه لقب قنصل فرنسا فى جـزائر اليونان ، واستقدم الياس زوجته وأخاه يوسف من مصر واستوطن باريس ، الا أنه لظرف ما لم يتمكن من تولى الوظيفة التى عينه فيها بونابرت[١٦٩] .

ومن التراجمة الشوام الذين استعانت بهم الحملة الفرنسية فى مصر فى أعمال الترجمة الشاعر نقولا الترك ، صاحب سـيرة نابليون والمديحة المشهورة فيه[١٧٠] . وكان والده من القسطنطينية ، وأرتحل الى دير القمر وهناك ولد له نقولا الذى نبغ فى الأدب شعرا ونثرا وأتصل بخدمة الامير بشير الشهابى ، وله فيه مدائح كثيرة . وعندما دخل الفرنسيون مصر ، سافر الى هناك ، وقيل أن سيده الأمير بشير الشهابى هو الذى أرسله الى مصر ، ليدرس عن كثب مدى ما ترمى اليه أطماع الفرنسيين وفى مصر اتصل نقولا الترك بالفرنسيون وترجم لهم[١٧١] .

ويعتقد البعض أن نقولا الترك قد غادر مصر مع الحملة الفرنسية، فى حين ظل بدمياط حتى عام ١٨٠٥ ، فان الخورى بولس فرالى يذكر أن القس أنطون مارون ذكر فى مذكراته الخاصة أنه كان « يرسل الى

---

(١٦٩) المصدر السابق ، ص ١١٦ــ١١٨ .

(١٧٠) الخورى بولس قرالى ، المصدر السابق ، القسم الأول ، ص ٩٠ .

(١٧١) الشيال ، المصدر السابق ، ص ٦٠ . الف الترك كتـــابا بالعربية عن تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر والشام ، بعنوان « ذكر تملك جمهور الفرنساوية للاقطار المصرية والبلاد الشامية » . وقام بنشر النص العربى وترجمته للفرنسية فى باريس المسيو ديجرانج Desgranges فى عام ١٨٣٩ ، انظر : سركيس ، المصدر السابق ، ٦٣٠ــ٦٣٢ .

رئيسه العزام بدير اللويزة ما يفيض عن نفقته من منسوجات القطـر المصرى وارداته ، تارة بواسطة الخواجا نقولا الترك الشاعر الكاتب الشهير ، لما سافر من مصر الى دمياط وتوجه الى بر الشام فى أب ١٨٠٤ وكانون الأول ١٨٠٥ ، وطورا بواسطة يوسف عيروط »[١٧٢] • ويذكر الخورى بولس قرالى أيضا ، أنه قد ورد فى سجل العماد السنة ١٨٠٥ بكنيسة دمياط الكاثوليكية اسم الطفل لميخائيل الترك ، فلعله ابن رزقه نقولا[١٧٣] •

وكان من ضمن المترجمين الشوام للحملة أيضا ، القس جبرائيل الطويل وقد غادر مصر مع الحملة ، وبقى فى فرنسا سنوات الى أن عين استاذ اللغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس ، خلفا للاب رفائيل زاحور راهبة[١٧٤] •

وهناك مترجم شامى آخر هو يعقوب بن يوسف ، الترجمان الحلبى المارونى وقد استمر فى مصر بعد رحيل الحملة ، وتوفى بها عـام ١٨٠٣[١٧٥] •

ومن أشهر التراجمة الشوام الذين استعانت بهم الحملة الفرنسية ، هو الأب انطون رفاييل زاخور راهبة المخلص ، وكانت اسرة رفائيل من طائفة الروم الكاثوليك الملكانيين ، وقد رحلت من حلب الى مصر فى أوائل القرن الثامن عشر[١٧٦] ويعود نسب هذه الاسرة الى امرأة بعد أن ترملت بموت زوجها ، ظلت تلبس ثوب الحداد الاسـود وكانت

---

(١٧٢) الخورى بولس قرالى ، المصدر السابق ، ص ٨٧ •

(١٧٣) المصدر السابق ، ص ١٣٣ •

(١٧٤) الشيال ، المصدر السابق ، ص ٦٠ •

(١٧٥) الخورى بولس قرالى ، المصدر السابق ، ص ١٢٧ •

(١٧٦) الشيال ، المصدر السابق ، ص ٦٩ •

بحشمتها وحسن سلوكها كأنها راهبة ، ولذلك غلب على أولادها لقب « بنى الراهبة »[١٧٧] .

وقد ولد أنطون رفاييل زاخور فى القاهرة فى مارس ١٧٥٩ ، وفيها نشأ نشأة دينية ، والتحق بدير الآباء الفرنسيسكان ، وفى عام ١٧٧٤ ، سافر الى روما ليتم علومه الدينية هناك ،وقد استغرقت رحلته الى روما مائة يوم ، فوصلها فى أواخر يناير ١٧٧٥ ، والتحق هناك بمدرسة القديس أثناسيوس الاكليريكية المخصصة لذوى الطقس اليونانى ، ولذا يقال لها مدرسة اليونان ، وأستمر فى هذه المدرسة خمس سنوات أى الى عام ١٧٧٩ ، أتم فى خلالها دراساته الدينية ، ثم مكث سنتين أخريين فى احدى الجامعات لدراسة اللغات وخاصة اللغة الايطالية .

وقد غادر رفاييل روما فى عام ١٧٨١ ، وذهب الى صيدا والتحق بدير المخلص وهناك اشتغل بترجمة بعض الوثائق المحفوظة فى هذا الدير، وبعض الكتب الدينية من الايطالية الى العربية من تأليف الآب يوحنا بطرس بينا متى اليسوعى وهى : القلب المتخشع ، والمرأة التى لا تغش، والصليب الحقيقى ، والحكمة الحقانية . وظل يرتقى فى المناصب الدينية ، فعين فى عام ١٧٨٢ شماسا ثم كاهنا فى عام ١٧٨٥ . ثم أرتحل الى روما فى عام ١٧٨٨ ، فى سفارة دينية مع السيد أغناطيوس صروف مطران بيروت كمترجم وكاتم أسرار وساعد له فى الدفاع واثبات صحة انتخاب السيد أثناهير جوهر بطريركا فى تلك السنة . وفى روما قام القس روفائيل بترجمة أعمال مجمع الانتخاب من العربية الى الايطالية. وبتعريب البراءة البابوية بتثبيت البطريرك المذكور ، وجميع المراسلات التى صدرت حينئذ من روما بهذا الشأن الى البطريرك المذكور وغيره من المطارنة .

---

(١٧٧) الخورى بولس قرالى ، المصدر السابق ، القسم الثانى ، ص ٩٤ .

وبعد انتهاء هذه السفارة غادر رفاييل مع المطـران أغناطيوس صروف روما وعرجا فى طريقهما على مصر بقصادة رسولية لاصلاح الخلاف الذى كان جاريا بين الآباء الفرنسيسكان وبين كهنـة الروم الكاثوليك الذين كانوا يقدمون لابنـاء طائفتهم فى كنيسـة الآبـاء الفرنسيسكان ، وبعد الانتهاء من هذه المهمة يبدو أن المطران قد عاد بمفرده الى بيروت ، وظل الآب روفاييل فى مصر ، لأنه لم يكن للقس رفاييل أدنى ذكر فى المجمع الذى انعقد فى دير المخلص فى عـام ١٧٩٠ ، من البطريرك المذكور ومطارنته مع الآباء من تلاميذ مدرسة روما• فى حين أنه قد جاء ذكر اسمه بين الكهنة الذين كانوا فى مصر فى عام ١٧٩٤ ، ولعله استقر بمصر حتى أن وصلت الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨، فكانت أعمالها ميدانا طيبا لاشباع طموحه وتحقيق آماله العريضة •

وعندما انشأ بونابرت المجمع العلمى فى مصر ، اختير الآب أنطون رفاييل زخور راهبة ليكون مترجما فى المجمع ، وعضوا فى لجنة الآداب والفنون الجميلة بالمجمع ، فكان العضو الشرقى الوحيد به • وقد قام الآب انطون رفاييل بنصيب كبير من أعمال هذا المجمع ، غير أعداد كثير من الأبحاث وترجمة كثير من الوثائق التى كان يجمعها علماء الحملة الفرنسية ليصنفوا منها كتاب « وصف مصر » وليضعوا على ضوئها النظم الجديدة السريعة لادارة البلاد • ويبدو أيضا ، أن رجال الحملة الفرنسية قد عهدوا اليه بترجمة كثير من المراسيم والفرمانات والقوانين الصادرة منهم الى الشعب المصرى ، فعندما وصلت القوات الفرنسية الى العريش — أثناء حملتها على بلاد الشام — وصل من « برتييه » الى الجنرال « دوجا » منشور باللغة الفرنسية موجه الى أعضاء ديوان القاهرة ، وقد قام رفاييل بترجمة هذا المنشور الى اللغة العربية •

وبعد رحيل بونابرت الى فرنسا ، وانتقال قيادة الحملة الى كليبر ، أصدر كليبر فى ٢٥ نوفمبر ١٧٧٩ ، أمر بتكوين لجنة لجمع المعلومات عن مصر ، تتكون من ثمانية أعضاء ، كان رفاييل من بينهم • وعندما قتل

كليبر فى ١٤ يونية ١٨٠٠ انتقلت مقاليد الأمور الى منو . أعاد منو تكوين الديوان الذى أنشأه بونابرت فى صورة جديدة ، من تسعة من المشايخ المسلمين يشترك معهم « فورييه » بلقب « قومسير » أو مدير سياسة الاحكا مالشرعية كما يسميه الجبرتى ، وفى هذا الديوان عين رفاييل « ترجمان كبير » للديوان الجديد . وقد تمكنت الصداقة فى هذه الفترة بين القس رفاييل والقومسير « فورييه » فكانا يسكنان معا فى بيت رشوان بك بعابدين ، حيث كانت تعقد جلسات الديوان .

وقد تم العثور فى محفوظات المجمع العلمى المصرى على وثيقتين هامتين من ترجمة «رفابيل» أثناء قيامه بوظيفة المترجم الاول للديوان ، أولى هاتين الوثيقتين ، ترجمةعربية بخط «رفابيل» للائحة قضائية أصدرها الجنرال مينو لتنظيم المحاكم المصرية ، مؤرخة فى أول اكتوبر سنة ١٨٠٠ ، والوثيقة الثانية ترجمة أمر يومى صادر من الجنرال مينو فى ٢٣ أغسطس ١٨٠١ يتعلق بطريقة اختيار مشايخ البلاد وحقوقهم ، ومكتـوبة بخط « رفاييل » أيضا .

واستمر « رفاييل » على نشاطه المعهود يقوم بترجمة الرسـائل والمراسيم والفرمانات ويقرأها بنفسه على أعضاء الديوان ، ففى جلسة ٢٥ شعبان ١٢١٥ هـ أرسل حصار عسكر « مينو » كتابا الى مشـايخ الديوان قرأه رفاييل « الترجمان » الكبير فى هذا الكتاب وجه « مينـو » الشكر الى المشايخ لتهنئتهم له بالمولود الذى رزقه من زوجته المسلمة « زبيدة »[١٧٨] .

وقد مارس « رفاييل » قرض الشعر باللغة الفرنسية الى جانب عمله فى الترجمة فعندما وصل الى مصر فى ١٤ سبتمبر ١٨٠٠ خبر مـوت الجنرال « ديزيه » الذى توفى فى ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ ، وكان المعلم

(١٧٨) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ ، ١٨٨ــ١٨٩ .

يعقوب قد اشترك معه فى احدى المعارك فى الصعيد ضد جماعة من المماليك وأبلى فى هذه المعركة ، مما دفع « ديزيه » الى تقليده سيفا تقديرا لشجاعته •

وقد تألم المعلم يعقوب لهذا الخبر ألما شديدا ، وأرسل الى الجنرال مينو يعرض عليه رغبته فى دفع ثلث نفقته الاثر المزمع اقامته لتخليد ذكرى « ديزيه » كما طلب من صديقه « رفاييل » أن ينظم له قصيدة شعرية يعزى بها الحكومة الفرنسية ، وقد نظمها له « رفاييل » من أربعين بيتا فى ثلاثة أيام •

كذلك لم تشغل « رفاييل » الترجمة الرسمية تماما فى العهد الأخير عن الترجمة العلمية فقام فى شعبان ١٢١٤ « يناير ١٨٠٠ » بترجمة رسالة طبية صغيرة ألفها « ديجنيت » كبير أطباء الحملة الفرنسية عن مرض الجدرى[١٧٩] ، وطرق علاجه وقد طبعت هذه الترجمة مرتين فى مطبعة الحملة • وكان عنوان الطبعة الأولى « هذا تنبيه فيما يخص داء الجدرى المتسلط الآن ، وذلك بشرح موجه الى أرباب الديوان بمصر القاهرة ، من قبل البادى دجنخط رئيس الأطباء فى الجيش الفرنساوى بجهة الشرق بمصر القاهرة ، بدار المطبعة ، الجمهور الفرنساوية فى يوم ٢٠ من شهر شعبان سنة ١٢١٤ هجرية »• أما الطبعة الثانية لترجمة هذه الرسالة الطبية ، فكانت فى ٩ شعبان سنة ١٢١٥ هـ « ٢٦ ديسمبر ١٨٠٠ » تحت عنوان « هذا تنبيه فيما يخص داء الجدرى المتسلط الآن ، وذلك بشرح موجه الى أرباب الديوان بمصر القاهرة ، من قبل السبتون دجنط رئيس الأطباء فى الجيش الفرنساوى بجهة الشرق فى ٢ من شهر شعبان سنة ١٢١٤ هجرية ، مصر القاهرة ، طبع ثانيا بدار مطبعة الجمهور

---

(١٧٩) كان عنوان الرسالة بالفرنسية :

Avis sur la petit vérale régnante, adrasse au Deviau arient, Aukaire de L' M, Pr 1 merie du Kaire, par Le Cen Desgenette, Premier medecin de l'Armés National, Le 27 nivose an VII!».

الفرنساوى فى ٩ من شهر شعبان هجرية ، مصر القاهرة طبع ثانيا بدار مطبعة الجمهور الفرنساوى فى ٩ من شهر شعبان سنة ١٢١٥ ـ قد نقلها وترجمها باللغة العربية القس رافايل راهب مصر » •

وعند رحيل الحملة الفرنسية عن مصر لم يشأ الأب انطون رفاييل زاخور راهبة أن يرحل معها ، بل ظل فى مصر نحو سنتين أخريين ، عمل فى أثنائها سكرتيرا لرئيس طائفته الدينية الآب باسيليوس عطاالله • وفى ١٨٠٣ غادر ابيل مصر الى باريس ، وهناك اتصل ببونابرت الذى عينه استاذا مساعدا بمدرسة للغات الشرقية بباريس ، على أن يقوم بالقاء دروس فى اللغة العامية ، وترجمة للمحفوظات العربية الموجودة فى المكتبة الخاصة بالأدب والتاريخ المصرى • وقد استفادت من هذه الترجمات اللجنة التى كانت تعمل لاخراج المؤلف الكبير « وصف مصر » •

وظل رفاييل بباريس حتى عام ١٨١٢ ، فعاد الى مصر ، واتصـــل بدولة محمد على ، وعمل مترجما فى خدمته ، وقد توفى رفاييل فى ١٣ أكتوبر ١٨٣١بالقاهرة[١٨٠] •

الشوام وعضوية الديوان فى عهد الحملة الفرنسية

اشترك الشوام الكاثوليك فى الديوان الذى أنشأه بونابرت ، فقد كان من بين أعضائه اثنان من الشوام الكاثوليك هما ، يوسف فرحات وميخائيل كحيل[١٨١] •

---

(١٨٠) عن ترجمة أنطون رفائييل زاخور راهبة ، انظر : الترجمة التى ترجمها له قسطنطين الباشا ، التى نشرها الخورى بولس قرالى ، السوريون فى مصر ، القسم الثانى ، ص ٩٤ـ٩٨ ، لويس شيخو اليســـــوعى ، المحفوظات العربية لكتبة النصرانية ، ص ١٠٩ ــ ١١٠ ، يوسف الياس سركيس ، معجم المطبوعات العربية والمصرية ، ٨٩٥ ــ ٨٩٦ ، جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ، ص ٦٥ــ٨٠ ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، ص ٧٤ــ٨٣ .

(١٨١) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .

وعندما أعاد مينو تشكيل الديوان ، جعله على نسق غير الأول ، فجعله من المتعممين فقط ، ولذا فلم يدخله الشوام أو غيرهم وفى ذلك يقول الجبرتى ضمن أحداث شهر جمادى الثانى ١٢١٥ هـ « وفيه شرعوا فى ترتيب الديوان على نسق غير الأول من تسعة أنفار متعممين لا غير وليس فيهم قبطى ولا وجاقلى ولا شامى والا غير ذلك »[١٨٢] .

وقد عين مينو لهذا الديوان مترجمين شاميين ، هما القس رفاييل زاخور راهبة الذى أشرنا اليه من قليل ، « ترجمان كبير » والياس فخر الشامى « ترجمان صغير »[١٨٣] .

وقد وصف الجبرتى كيفية انعقاد جلسات الديوان ، وعمل هذين المترجمين فقال « اذا تكامل حضور المشايخ يخرج اليهم الوكيل فورييه وصحبته المترجمون له ، فيجلس معهم ، ويقف الترجمان الكبير روفائيل، ويجتمع أرباب الدعاوى فيقفون خلف الحاجز عند آخر الديوان ... وعنده الجاويش ، ويدخلهم بالترتيب الاسبق فالاسبق ، فيحكى صاحب الدعوى قضيته فيترجمها له الترجمان »[١٨٤] .

وكان عمل « المترجم الأول » رفاييل ، فى هذا الديوان يشبه عمل سافة فى ديوان بونابرت ، اذ كان يقوم الى جانب الترجمة بقراءة الأوامر والرسائل والفرمانات فقد ذكر الجبرتى فى حوادث شعبان ١٢١٥ — ديسمبر ١٨٠٠ — يناير ١٨٠١ أن صارى عسكر أرسل الى مشايخ الديوان كتابا وقرأه الترجمان روفائيل »[١٨٥] .

تعاون مسيحى الشوام مع الحملة الفرنسية

وقد تعاون الشوام المسيحيون فى مصر مع جيش بونابرت ، فبعد تحطيم الاسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير البحرية ، واليأس

---

(١٨٢) المصدر السابق ، ص ١٣٧ .
(١٨٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(١٨٤) المصدر السابق ، ص ١٣٨ .
(١٨٥) المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

من وصول أى مدد من فرنسا أنشأ بونابرت فرقة عسكرية من مسيحى الشـــوام والأروام ، وقام الجنــرال كليبر بتنظيم هذه الفــرقة وتدريبها[186] ، وجعلها بقيادة يوسف الحموى[187] ، وقد اشتركت هذه الفرقة فى الزحف على عكا عندما قام بونابرت بحملته على بــلاد الشــام[188] .

وعندما حاول بونابرت اكتساب ود وصداقة أحمد باشا الجزار والى عكا ، أستعان من أجل ذلك ببعض مسيحيى الشوام للقيام بعملية الواسطة بينه وبين (أحمد باشا الجزار) ، فأرسل بونابرت اليه بهدية مع أحد الفرنسين وبصحبته بعض مسيحى الشوام على هيئة تجار ، لكن أحمد باشا الجزار رفض مقابلة الفرنسى ، وأمره بالرجوع من حيث أتى ، وأستقى عنده مسيحيى الشوام المصاحبين له[189] .

وقد قبض الجزار بعد ذلك على بعثة أخرى وقعت فى يده مؤلفة من تجار شوام ومصريين ، يبلغ عددها الاربعين ، كان من بينها كاهن مارونى من أسرة قيالة ، كان قادما من مدرسة الموارنة بروما[190] .

ويبلغ من تعاون مسيحيى الشوام فى مصر مع الحملة الفرنسية ، أنهم كانوا يشون بالمصريين لدى الفرنسيين ، فالجبرتى يذكر ضمن أحداث رمضان ١٢١٣ هـ فبراير ١٧٩٩ وأنه « فى يوم الثلاثاء سابعة انتدب للنميمة ثلاث من النصارى الشوا موعرفوهم أن المسلمين قاصدين الوثوب على الفرنسيين فى اليوم الخميس تاسعة فأرسل قائمقــام

---

(١٨٦) نقولا الترك ، ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصــرية والبلاد الشامية ص ١٨٠ــ١٨١ ، باريز ، المطبعة السلطانية ١٨٣٩ .

(١٨٧) الخورى بولس قرالى ، المصدر السابق ، القسم الأول ، ص ٩٢ .

(١٨٨) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(١٨٩) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ١٥ .

(١٩٠) الخورى بولس قرالى ، المصدر السابق ، ص ٩٠ .

خلف المهدى والاغا فأحضروهما وذكر لهما ذلك فقالا له هذا كذب لا أصل له ، وأنما هذه نميمة من النصارى كراهة منهم فى المسلمين ، وفحص عمن أختلق ذلك فوجدوهم ثلاثة من النصارى الشوام فقبضوا عليهم وسجنوهم بالقلعة حتى مضى يوم الخميس ، فلم يظهر صحة ما نقلوه فأبقاهم فى الاعتقال »[١٩١] .

الوضع الاجتماعى لمسيحيى الشوام

فى أثنـــاء الحملة الفرنسية

تمتع مسيحيو الشوام فى مصر فى أثنآء الحملة االفرنسية على مصر بوضع اجتماعى ممتاز ، ذلك أنه فى أثناء الحملة قد تحـــرر غير المسلمين من وطنيين وأجانب من القيود التى كان يفرضـــها عليهم المسلمون . وقد أساء هذا التحرر الى الشعور الاسلامى بمصر . وقد عبر الجبرتى عن ذلك فذكر فى حوادث شعبان ١٢١٣ ينـــاير ١٧٩٩ ومنها ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهـــود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيين ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستذلال المسلمين[١٩٢] .

وقد أدرك بونابرت ما فى هذا التحرر من اساءة للشعور الاسلامى وبين فى مذكراته تقديره أهمية هذا الأمر فقال : « لا فائدة فى اظهارنا الاحترام العميق لدين الاسلامى اذا كنا نسمح للأقباط والروم المسيحيين الغربيين بقدر من التحرر يغير من منزلتهم الماضية ، وقد أردت أن يكونوا أكثر خضوعا وأكثر احتراما لكل ما يتعلق بالاسلام وبالمسلمين مما كانوا فى الماضى »[١٩٣] . ولذا فقد أمرهم الفرنسيون فى أول الأمر بالتزام

---

(١٩١) الجبرتى المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(١٩٢) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(١٩٣) محمد شفيق غبريال ، الجنرال يعقوب والفارس لاسكارس ، ص ١٣ .

عاداتهم القديمة مع المسلمين مثل عدم لبس العمائم البيضاء وأن يلبسوا العمائم السوداء والزرقاء ، وعدم التجاهر بالأكل والشرب فى الأسواق وشرب الدخان فى رمضان »[١٩٤] .

فيذكر الجبرتى فى حوادث رمضان ٢٢١٣ فبراير ١٧٩٩ م « أن نصارى الشوام رجعوا الى عاداتهم القديمة فى لبس العمائم السود والزرق وتركوا لبس العمائم البيض والشيلان الكشميرى الملونة والمشجرات وذلك بمنع الفرنسيين لهم من ذلك »[١٩٥] .

ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلا ، فلم يكن استمراره ممكنا وطبيعيا فى ظل حكم غربى جمهورى شعاره المساواة والحرية الدينية ، هذا الى حاجة الفرنسيين لغير المسلمين لاموالهم ودراياتهم بأحوال البلاد ونظمها وعادات أهلها ولامكان الوثوق بهم لفائدتهم المشتركة[١٩٦] . ولهذا فقد عاد غير المسلمين — ومن بينهم مسيحيو الشوام — الى تحررهم من القيود ، فيذكر الجبرتى فى أحداث ذى الحجة ١٢١٣ هـ/ مايو ١٧٩٩ وفى ذلك اليوم — أول أيام عيد الأضحى — مر نصرانى من الشوام على المشهد الحسينى وهو راكب على حماره فرآه ترجمان ضابط الخط ويسمى السيد عبد الله فأمره بالنزول أجلالا للمشهد على العادة فأمتنع فانتهره وضربه وألقاه على الأرض ، فذهب ذلك النصرانى الى الفرنسيين وشكا اليهم السيد عبد الله المذكور ، فأحضروه وحبسوه فشفع فيه مخدومه فلم يطلقوه ، وأدعى النصرانى أنه كان بعيدا عن المشهد وأحضر من شهد له بذلك ، وأن السيد عبد الله منهور فى فعله ، وأدعى أنه ضاع له وقت ضربه دراهم كانت فى جيبه ،

---

(١٩٤) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(١٩٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(١٩٦) محمد شفيق غربال ، المصدر السابق ، ص ١٣ .

واستمر الترجمان محبوسا عدة أيام حتى دفع تلك الدراهم وهى ستة آلاف درهم »[197] .

وكان لابد وأن يؤدى هذا التحرر الى أثارة شعور المسلمين بمصر، وبالتالى الى وقوع الخلاف والنزاع بينهم وبين مسيحيى الشوام ، من ذلك ما يذكره الجبرتى فى أحداث ربيع الثانى ١٢١٣ هـ/سبتمبر ١٧٩٨م فيقول : « وفيه وقعت حادثة جزئية من حملة الجزئيات ، وهو أن رجلا صيرفيا بجوار حار ةالجوانية وقع من لفظة أنه قال السيد أحمد البدوى بالشرق والسيد ابراهيم الدسوقى بالغرب يقتلان كل من يمر عليهما من النصارى ، وكان هذا الكلام بمحضر من النصارى الشوام فجاوبه بعضهم وأسمعه قبيح القول ووقع بينهما التشاجر فقام النصرانى وذهب الى دبوى وأخبره بالقصة فأرسل وقبض على ذلك الصيرفى وحبسه وسمر حانوته وختم على داره ، وتشفع فيه المشايخ عدة مرار ، فأطلقوه بعد يومين وأرسلوه الى بيت الشيخ البكرى ليؤدب هناك بالضرب أو يدفع خمسمائة ريال فرا منه فضرب مائة سوط وأطلق الى سبيله»[198] .

ومن ذلك أيضا ما ذكره الجبرتى فى أحداث صفر ١٢١٤ هـ/يوليو ١٧٩٩ م حيث قال : « واتفق أنه تشاجر بعض المسلمين بحارة البرابرة بالقرب من كوم الشيخ سلامة مع بعض نصارى الشوام فقال المسلم للنصرانى ان شاء الله تعالى بعد أربعة أيام نشتفى منكم وكلام من هذا المعنى . فذهب ذلك النصرانى الى الفرنسيين مع عصبة من جنسه وأخبروهم بالقصة وزادوا وحرفوا وعرفوهم أن قصد المسلمين اثارة فتنة فأرسل قائمقام الى الشيخ المهدى ، وتكلم فى شأن ذلك وحاججه ، وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان فقام المهدى خطيبا وتكلم كثيرا ، ونفى

(١٩٧) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ١٦٦ .
(١٩٨) المصدر السابق ، ص ٢١—٢٢ .

الريبة وكذب أقوال الاخصام وشدد فى تبرئة المسلمين عما نسب اليهم، وبالغ فى الحطيطة والانتقاص من جانب النصارى وهذا المقام من مقاماته المحمودة ثم جمعوا مشايخ الاخطاط والحارات وحبسوهم »[١٩٩] .

ونتيجة لهذا الموقف المنحاز للفرنسيين من جانب مسيحيى الشوام فى مصر وتطاولهم على المسلمين وخروجهم على القيـــود التى كانت موضوعة عليهم ، فقد صب المسلمون عليهم فى مصر جام غضبهم ، فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية فيذكر الجبرتى أن الثوار فى ثــورة القاهرة الأولى قد « أمتدت أيديهم الى النهب والخطف والسلب وهجموا على حارة الجوانية وذهبوا دور النصارى الشوام والاروام .. »[٢٠٠] كما يذكر الجبرتى أيضا أن الثوار فى ثورة القاهرة الثانية قد « استطالوا على من كان ساكنا ببولاق من نصارى القبط والشوام فأقعوا بهم بعض النهب وربما قتل منهم أشخاص »[٢٠١] .

وقد انتقم مسيحيو الشوام من المسلمين بعد قضاء كليبر على ثورة القاهرة الثانية فتطاولوا عليهم بالسلب والضرب وفى ذلك يقول الجبرتى « وتطاولت النصارى من القبط ، والنصارى الشوام عــلى المسلمين بالسب والضرب ، ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم ولم يبقوا للصلح مكانا وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين[٢٠٢] » .

وبلغ الأمر بغير المسلمين ومن بينهم مسيحيو الشوام ، بعــد القضاء على ثورة القاهرة الثانية ، أنهم كانوا يأمرون المسلمين بالوقوف لعظمائهم عند مرورهم احتراما لهم وفى ذلك يقول الجبرتى فى أحداث ربيع الأول ١٢١٥ هـ/أغسطس ١٨٠٠ م ونزل بالرغبة الذل والهوان

---

(١٩٩) المصدر السابق ، ص ٧٥ .
(٢٠٠) المصدر السابق ، ص ٢٥ .
(٢٠١) المصدر السابق ، ص ٩٦ .
(٢٠٢) المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

وتطاولت عليهم الفرنساوية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى البلد الأقباط والشوام والأروام بالاهانة حتى صاروا يأمرونهم بالقيام اليهم عند مرورهم ثم شددوا فى ذلك حتى كان اذا مر بعض عظمائهم بالشارع ولم يقم اليه بعض الناس على أقوامه رجعت اليه الأعوان وقبضوا عليه ، وأصعدوه الى الحبس بالقلعة واستمر عدة أيام فى الاعتقال ثم يطلق بشفاعة بعض الأعيان »[٢٠٣] .

وفى الوقت الذى تعاون فيه مسيحيو الشوام بمصر مع الحملة الفرنسية ، ووقفوا ضد المصريين المسلمين ، اختلف موقف مسلمى الشوام عن اخوانهم المسيحيين فقد تعاطفوا مع أخوانهم المصريين لوحدة الدين ، وقاموا الغزو الأجنبى — المختلف فى الدين عنهم . من ذلك أنه عندما قام المصريون بثورتهم الأولى ضد الفرنسيين شارك أحد المشايخ الشوام فيها ، وهو الشيخ بدر الدين المقدسى الذى كان يقوم بالقاء درس للحديث بالمشهد الحسينى ، فجمع جموعه من أهالى الحسينية لمقاومة الفرنسيين ، وبذل فى ذلك جهدا كبيرا . وبعد أن قضى الفرنسيون على هذه الثورة شعر بالخطر الذى يتهدده من جانبهم ففر الى بلاد الشام ، وبحث عنه الفرنسيون ، وأرسلوا خلفه الجواسيس فلم يدركوه ، فعند ذلك ذهبوا داره وهدموا طرفا منها ، وخربوا مسجدا كان قد أنشأه بالقرب من داره . وقد استمر السيد بدر الدين مقيما بالشام الى أن خرج الفرنسيون من مصر ، ومن ثم فقد عاد الى مصر[٢٠٤] .

كما نجد سليمان الحلبى يقوم بقتل كليبر ، واعتبر ذلك مغازاة فى سبيل الله[٢٠٥] .

---

(٢٠٣) المصدر السابق ، ص ٣٥ ١ .

(٢٠٤) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٧٤ .

(٢٠٥) كرستولر هيريلد ، بونابرت فى مصر ، ترجمة فؤاد اندراوس ، ص ٤٩٥ ، القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ .

وبالرغم من تعاون مسيحيى الشوام فى مصر مع الفرنسيين فانهم لم يسلموا من دفع القروض الاجبارية ، شأنهم فى ذلك شأن جميع الطوائف الأخرى ، فيتضح من الحساب الذى قدمه الخازندار ستسف فى ٢١ سبتمبر ١٧٩٨ ، عن الايرادات والمصروفات أن الفرنسيين قد فرضوا القروض الاجبارية على جماعات التجار الأوربيين والشـــوام والقبط واليهود والمسلمين[٢٠٦] • كما يذكر الجبرتى فى أحداث محـــرم ١٢١٤ هـ أن الفرنسيين فى ٧ محرم ١٢١٤/١١ يونية ١٧٩٩ م « طلبوا من طوائف النصارى دراهم سلفة مقدار مائة وعشرين ألف ريال » وأن هذا القرض كان من ضمن الأسبا بالتى أدت الى وفاة ميخائيل كحيل التاجر الشامى الشهير ، الذى كان عضوا فى الديوان الذى أنشـــأه بونابرت لأنه تقرر عليه مبلغ كبير قيمته ٦ آلاف ريال فرنسية • وفى ذلك يقول الجبرتى : « وفى تاسع عشر هلك مخاييل كحيل النصرانى الشامى، وهو من رجال الديوان الخصوصى فجأة وذلك لقهره ، وسبب ذلك أنهم قرروا عليه فى السلفة ستة آلاف ريال فرانسة وأخذ فى تحصيلها ، ثم بلغه أحمد باشا الجزار قبض على شريكه بالشام وأستصعنى ما وجده عنده من المال فورد عليه الخبر ، وهو جالس يتحدث مع أخوانه حصة من الليل فخرجت روحه فى الحال »[٢٠٨] •

خرو جمسيحيى الشوام مع الحملة الفرنسية فى عـــام ١٨٠١

عند جلاء الفرنسيين عن مصر فى عام ١٨٠١ ، خرج معهم عدد كبير من الشوام المسيحيين الذين خشوا على أنفسهم من الاقامة فى مصر بعد رحيل الحملة الفرنسية[٢٠٩] • خوفا من أضطهاد كانوا يتوقعونه

---

(٢٠٦) المصدر السابق ، ص ٢٤٤–٢٤٥ .

(٢٠٧) الجبرتى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ٧٠ .

(٢٠٨) المصدر السابق ، الصفحة نفسها •

من العثمانيين بعد استعاد تمصر[٢١٠] ، وفى ذلك يقول الجبرتى أنه خرج معهم جماعة « كثيرة من القبط وتجـار الافرنج والمترجمين ، وبعض مسلمين ممن تداخل معهم وخاف على نفسه بالتخاف وكثير من نصارى الشوام والاروام »[٢١١] .

وكان السواد الأعظم من هؤلاء المهاجرين الشوا ممن أفراد الفرقة العسكرية الشامية والتى أشرنا اليها من قبل — وذويهم ، وكان عددهم يربو على الخمسمائة ومعهم كاهنهم الخورى جبرائيل طويل . وقـد استوطنوا مرسيليا[٢١٢] .

وقد شاهدهم رفاعة الطهطاوى فى مرسيليا ،وتحدث عنهم فى رحلته الشهيرة فقال : « يوجد فى مدينة مرسيليا كثير من نصـارى مصر والشوام الذين خرجوا مع الفرنساوية حين خروجهم من مصر ، وهم جميعا يلبسون لبس الفرنسيين وفور وجود أحد من الاســلام الذين خرجوا مع الفرنسيين فان منهم من مات ومنهم من منتحر والعياذ بالله خصوصا المماليك الجورجية والجركسية ، والنساء اللواتى أخذهن الفرنسيين صغار السن »[٢١٣] .

أما من ظل فى مصر من مسيحيى الشوام ولم يخرج مع الحملة ، فقد عفا عنهم السلطان ، ولم يشأ أن يعاقبهم ، بل اتخذ لهم العـذر فى تعاونهم مع الفرنسيين وأنهم كانوا مدفوعين فى ذلك بغرض صيانة أعراضهم وأموالهم ، فيذكر الجبرتى أنه نودى فى القاهرة يوم الاحد

---

(٢٠٩) نقولا الترك ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

(٢١٠) جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، ص ٧٣ .

(٢١١) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

(٢١٢) الخورى بولس قرالى ، المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٢١٣) رفاعة بدوى رافع الطهطاوى ، تخليص الابريز الى تلخيص باريز ، ص ٤١—٤٢ ، مطبعة دار التقدم ، القاهرة ١٩٠٥ .

٨ ربيع الأول ١٢١٦ هـ/١٩ يوليو ١٨٠١ بأن لا أحد يتعرض بالأذية لنصرانى ولا يهودى ، سواء كان قبطيا أو روسيا أو شاميا فانهم من رعايا السلطان والماضى لا يعاد »[٢١٤] . كما يذكر الجبرتى أيضا أنه فى يوم الخميس ٣ ربيع ثانى ١٢١٦ هـ/١٣ أغسطس ١٨٠١ « كتبت فرمانات باللغة العربية بترصيف صاحبنا العلامة اسمعيل الوهبى المعروف بالخشاب وأرسلت الى البلاد الشرقية والمنوفية ، والغربية مضمونها الكف عن أذية النصارى واليهود وأهل الذمة وعدم التعرض لها أو من ضمنه آيات قرآنية وأحاديث نبوية والاعتذار عنهم بأن الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية صيانة أعراضهم وأموالهم »[٢١٥] .

* * *

بعد أن استعرضنا نشاط الشوا موأحوالهم فى مصر فى القرن الثامن عشر وعهد الحملة الفرنسية ، نستطيع القول بأن الشوام كانوا يعتبرون مصر وطنهم الثانى بعد بلاد الشام ، والصدر الحنون الذين يلجأون اليه هربا من الاضطهاد العثمانى المتسلط عليهم فى بلاد الشام. ولسوف تظل مصر الصدر الحنون للشوام أيضا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، حينما يلوذ اليها الشوام خوفا من الاضطهاد العثمانى ، وذلك حين بدأ الشوام مقاومة التسلط العثمانى ، ومطالبتهم بالحكم الذاتى للحرب فى ظل الدولة العثمانية فكانت القاهرة ، وباريس هما المركزين الذين لجأ اليهما الشوام فى ذلك الوقت . وفى القاهرة عمل الشوام على مهاجمة الظام العثمانى وخاصة الحكم الحميدى ، وبعد ذلك الاتحاد والترقى .

كذلك يتضح لنا أن الشوام فى القرن الثامن عشر قد شاركوا أخوانهم المصريين فى النشاطين الثقافى والاقتصادى ، وأنهم بالرغم

---

(٢١٤) الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ١٩٠ .
(٢١٥) المصدر السابق ، ص ١٩٣ .

من تكوينهم ثروات كبيرة ووضع اجتماعى ممتاز ، فانهم لم يتميزوا على اخوانهم المصريين فى شىء من هذين الميدانين ، سواء فى مجالين ، الأول هو ادارة المجارك التى شغلوها منذ عهد على بك الكبير ، وحلوا محل اليهود ، والثانى هو ميدان الترجمة واجادة اللغات الأوربية وخاصة الفرنسية والايطالية ، وكان هذا راجعا بالطبع الى صلاتهم المستمرة بأوروبا وخاصة روما حيث كرسى البابوية •

واذا كان الشوام قد لاقوا عنتا فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وخاصة فى عهد مراد وابراهيم ، فان ذلك كان أزمـــة طارئة لم يتعرض لها الشوام من قبل منذ هجرتهم الى مصر منذ أوائل القـــرن السابع عشر ، وهم لم يعانوها بمفردهم فقد شاركهم فيها المصريون •

وفى عهد الحملة الفرنسية نال مسيحيو الشوام مركزا ممتازا فى مصر ، وتحرروا من القيود التى كان المجتمع الاسلامى قد وضعها حول أهل الذمة من المسيحيين واليهود ، وأنهم تعاونوا مع المحتل الأجنبى الذى يتفق معهم فى الدين والمذاهب وبالرغم من ذلك فاننا لا نستطيع أن نلومهم على ذلك ، فالوقت كان عصر التعصب الدينى ، ولم يكن التسامح الدينى معروفا فيه • على أن الأمور سرعان ما تعـــود الى مجراها الطبيعى عند عودة الحكم العثمانى الاسلامى الى مصر ، ويعفو السلطان عن مسيحيى الشوام ويأمر بعدم التعـــرض لهم فهم رعايا السلطان ، وعفا الله عما سلف ويعيش الشوام بقسميهم مســــلمون ومسيحيون مع اخوانهم المصريين فى أمن وسلام •

دور مصر الحضارى فى هرر وملحقاتها

١٨٧٥ ــ ١٨٨٤

د٠ محمد المهدى صديق

كلية آداب سوهاج ــ جامعة أسيوط

لمصر التزام تاريخى تجاه الصومال منذ فجر التاريخ ، ولازال لمصر هذه القدم الراسخة فى ربوع القارة الافريقية حتى وقتنا الحالى• اذ أن مصر تلعب دور ناشر الحضارة فى تلك القارة بحكم أنها صاحبة أعرق وأقدم حضارة أفريقية •

ومن هذا المنطلق وقع اختيارى على هرر ، كبلد من بلدان القــرن الافريقى الذى له ارتباط أزلى مع مصر •

وبالطبع حددت لبحثى فترة زمنية محددة ، لا تزيد على عقد من الزمان ، وقعت فيه هرر فى ظل السياد ةالمصرية فى عهد اسماعيل ، ونتبين من تلك الحقبة القصيرة الأجل ، الجليلة الأثر ، مدى ما بذلته مصر من جهود فى سبيل تحضير وتمدين هذا البلد ، وانعكس أثر هذه السياسة بشكل واضـ حوملموس ، فيما استحدثته الادارة المصرية من متغيرات حضارية واجتماعية شهدها أهل هرر[1] •

وأول نقاط مبحثى هو معالجة سياسة مصر العربية والاسلامية ازاء هرر فى عهد اسماعيل ، وبالطبع لم ينهج هذا النهج من فراغ ، حيث

(1) Earl of Cromer. Modern Egypt. pp. 272—77.

كانت هناك علاقات ثقافية بين الازهر الشريف وهرر منذ فترة مبكرة .

وعلى العموم تبلورت سياسة مصر العربية فى شرق القارة ، واتضحت معالمها فى عهد اسماعيل ، اذ أنه بعد أن اشترى الخديوى زيلع وملحقاتها من تركيا نظير مبلغ سنوى يدفع لها[٢] أخذ يتطلع الى فتح الأقاليم المجاورة ، وعلى الأخص هرر .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، أخذ يتعرف الطرق المؤدية اليها ، ويستطلع أحوال أهلها ، وأرسل حملة عسكرية لفتحها فى سبتمبر ١٨٧٥ ، وأعلنت الحملة ضمها للحكومة المصرية[٣] وأظهر الحكم المصرى مقدرة فائقة فى ادارة هرر ، فاتبعت سياسة اللين والرفق بالأهالى حتى مالوا الى الحكم المصرى .

وأخذت تدرب الأهالى على الأعمال العسكرية ، وتشجعهم على استثمار موارد بلادهم ، والاشتغال بالتجارة والزراعة . واعتبر بحق عصر اسماعيل من أزهى العصور التى شهدتها هرر طوال تاريخها . اذ قويت فيها عملية الاستعراب ، وتدفقت فيها الدماء العربية ، ووضحت المؤثرات اللغوية مع تزايد نشاط العناصر العربية . ولولا التدخل المصرى فى هرر وغيرها من المدن المطلة على الساحل الصومالى ، لابتلعتها الحبشة ، اذ كانت تنظر باستمرار بعين الريبة والشك والجزع والخوف ازاء التوسع المصرى فى هذه الجهات فى عهد اسماعيل[٤] اذ أصبح لمصر سياسة افريقية واضحة المعالم .

---

(٢) محمد صبرى (د) مصر فى أفريقيا الشرقية هرر وزيلع وبربرة ص ص ١٤—١٥ .

(٣) جلال يحيى (د) مصر الافريقية والأطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ص ١٥٩ .

(٤) السيد يوسف نصر (د) الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى أفريقيا فى القرن ١٩ ص ص ٧—١٣ .

وظلت هرر امارة اسلامية حتى ضمتها اليها الامبراطورية المصرية الافريقية ، عندما وقع سلطان هرر على وثيقة يعلن فيها انضمامه للحكم المصرى • ونستطيع هنا أن نبين أن الحكم المصرى فى هرر حفظ لها عروبتها ووجهها الاسلامى ، وأبعد عنها الخطر الحبشى ، ولأدل على ذلك ، أنه بمجرد أول فرصة سنحت للحبشة ، بعد انهيار الامبراطورية المصرية الافريقية ، فان الحبشة لم تتردد لحظة عن الاستيلاء على هرر سنة ١٨٨٧[٥] •

وللاستدلال على أن الحكم المصرى جعل هرر تنعم بنوع من الاستقرار ساعدها على الازدهار ، فلابد أن نلقى بعض الضوء على الصراع الذى دام طويلا بين الولايات الاسلامية والولايات المسيحية فى الحبشة ، وكيف أن هرر كانت من بين الولايات الاسلامية التى عانت طويلا من جراء ذلك الصراع ، ولذا فليس بمستغرب أن تجد أهالى هرر أول من رحب بقدوم المصريين معلنين تأييدهم للحكم المصرى الجديد[٦] •

فالناظر الى الحبشة من ناحية التضاريس ، يجد أنها تتكون من عدة ولايات ، بعضها ساحلى يقع على ساحل البحر الأحمر أو من ولايات سهلية تتكون من السهول ، والبعض الآخر يقع فى الداخل عبارة عن ولايات جبلية[٧] •

وعندما نذكر الحبشة ، نقصد بها الحبشة بمعناها الواسع ، أى الأراضى التى تكون الولايا تالواقعة بين السودان والبحر الأحمر • وبعض أجزائها الآن خارج حدود الحبشة ، يسود بعض هذه الولايات الدين الاسلامى وعلى رأسها هرر ، ويغلب على البعض الآخر طابع المسيحية •

---

(٥) زاهر رياض (د) مصر وافريقية ص ص ١٥١ــ١٦٠ •
(٦) زاهر رياض (د) الاستعمار الأوربى لافريقيا ص ٨٨ •
(7) Bennett, E. N. The Question of The Sudan. pp. 3--11.

بصفة عامة يمكن أن نقول أن الولايات الاسلامية هى التى تقع غرب ساحل البحر الأحمر مباشرة وتلك التى تقع خلفه فى السهول أيضا ، بينما تنعزل الولايات المسيحية فى المنطقة الداخلية الجبلية .

وعلى العموم ، لكل بلد من بلدان الفريقين ميزاته . فمميزات الولايات الاسلامية واضحة ، خصوصا من الناحية الاقتصادية ، فقد وهبها وقوعها على الساحل أو بالقرب منه ، ميزة التحكم فى منافذ التجارة ، وأصبح لزاما على أى تجارة تعبر من الداخل الى الساحل ، أن تمر على هذه الولايات الاسلامية ، كما توجد فى البلاد السهلية كذلك زراعات هامة ، اذ تتمتع هرر على سبيل المثال بمحاصيل نقدية ضخمة وفى مقدمتها البن ، وخلاصة القول ، تتمتع الولايات الاسلامية بميزة التفوق من الناحية الاقتصادية . فى حين تتميز الولايات المسيحية بميزة استراتيجية وهى ميزة الارتفاع نظرا لطبيعتها الجبلية التى جعلت مهمة الوصول اليها أمرا صعبا وبالتالى تجعل من التغلب عليها شيئا مستعصيا فضلا عن أن هذا الارتفاع يعطيها ميزة التسلط على الولايات المنخفضة .وقد أثبت ذلك حوادث التاريخ المختلفة[٨] .

ومن هذا المنطلق أرادت الحبشة أن تحقق نصرا حاسما على الولايات الاسلامية ، فانتهزت فرصة نشوب الحروب الصليبية ، فحاولت أن تلعب دورا فى الصراع على بلاد الشام ومصر . اذ أرادت الحبشة وأراد معها الأوربيون أن يفتحوا ميدانا آخر للصراع بين الاسلام والمسيحية فى الحبشة ، وبذلك تتشتت جهود مصر وتنشغل بالصراع من ناحية الجنوب فى أراضى الحبشة لأنها حصن المسيحية فى تلك القارة المظلمة . اذ ثبت للاوربيين أن مصر البلد الاسلامى التى استطاعت الدفاع عن الاسلام فى الشرق الاسلامى أيام الصليبيين والمغول على حد سواء ، ولذا فانه كان يهم الأوربيون بصفة عامة أن يؤلبوا الحبشة ضد

---

(٨) حسن أحمد محمود (د) الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ص ص ٣٧٩ — ٣٨٩ .

مصر خاصة وأن العلاقات المصرية الحبشية قديمة ويغلب عليها الطابع الروحى • اذ أن المسيحية فى الحبشة مرتبطة بالكنيسة المصرية فعندما كان يخلو منصب رئيس الكنيسة الحبشية أى مطران الحبشـــة ، كان النجاشى يرسل كتابا الى سلطان مصر المسلم يلتمس فيه اجراء اتصال بالبطريرك من أجل تعيين مطران للاحباش ، وبالطبع أوجد هذا صـــلة روحية بين الأقباط فى مصر والأحباش المسيحيين ، ولم يقتصر الأمــر عند هذا الحد ، بل انه عندما كان يحدث اضطهاد للمسيحيين فى مصر فى عهد بعض سلاطين المماليك ، كان النجاشى يحتج ويهدد مصر[٩] •

ومن أهم وسائل التهديد التى كان النجاشى يلتجىء اليها هو أنه كان يعلن عن عزمه فى تحويل مجرى النيل بحيث يبطل ارسال مياه النهــر الى مصر ، فيحل بها القحط والمجاعة ، وتصبح صحراء جرداء • وطبيعيا أن ينعكس صدى تلك العلاقات على الولايات الاسلامية التى تكاد تحيط بالحبشة والتى كان النجاشى يعتبرها تابعة له أو ينبغى أن تكون تابعة له • بينما كانت تلك الولايات الاسلامية ــ وفى مقدمة صفوفها هرر ــ تعتبر نفسها مستقلة • لم يكن هذا الصراع مجرد صراع دينى فقط وانما كان صراعا اقتصاديا أيضا • اذ كانت الولايات المسيحية تحس بأنهــا تختنق ، لأن طريقها الى البحر يتحكم فيه المسلمون ، أرادت الحبشة أن تفك هذا القيد ، بربط نفسها بفلك الثورة الاقتصادية الكبيرة التى حدثت فى أواخر القرن ١٥ والناجمة عن كشف طريق رأس الرجاء الصالح • فحاولت الاستفادة من ذلك الصراع الكبير الذى تقوده البرتغال فى مياه البحار الشرقية ، لتحقق من وراء ذلك نصرا حاســما على الامارات الاسلامية المحيطة بها[١٠] •

وبالفعل أرسل النجاشى بعثة الى البرتغال ، وأرسلت البرتغال بعثة الى النجاشى ، ووصل الأمر بالبرتغال عندما أرسلت قوادها الى البحار

---

(٩) زاهر رياض (د) مصر وأفريقيا ص ص ١٥٢ــ١٥٨ •

(١٠) جلال يحيى (د) مصر الحديثة ص ص ٥٥ــ٥٩ •

الشرقية ، أن زودتهم بتعليمات مؤداها ضرورة الاتصال بالنجاشى من أجل مساعدته فى موقفه ضد المسلمين وعلى وجه الخصوص مسلمى هرر ، وكذلك دراسة الموقف فى هذا الجزء من أفريقية المحيط بالبحر الأحمر والمطل على مياه المحيط الهندى ، وهو موقع هام جدا فى دائرة النزاع البرتغالى الاسلامى الكبير .

وفى هذه الأثناء كانت قد انتعشت هرر كقوة اسلامية على قدم وساق ضد الحبشة بفضل ظهور أحد أمرائها المجاهدين أحمد بن ابراهيم حرى .وحقق انتصارات كثيرة على الأحباش الى أن استطاعوا فى النهاية أن يلحقوا به هزيمة بمساعدة البرتغاليين ، واستشهد حوالى عام ١٥٤٢[١١] .

ومن المعروف أن مدينة هرر قد دخلها الاسلام فى القرون الأولى للهجرة ، وظهرت هرر فى القرن الثالث عشر الميلادى كأقوى مركز اسلامى فى شرق أفريقيا ومركز للفقه والتعاليم الاسلامية فى الصومال وخارجه وقد امتد نشاطها فى الدعوة خارج حدود الصومال الى ما يبلغ نحوا من ٦٥٪ من مساحة الحبشة كلها وبها مؤلفات ومخطوطات نادرة وعرفت بانها المنارة الاسلامية للصومال وجيرانها من دول شرق أفريقيا[١٢] .

وعلى أى حال ، فقد أدى تدخل البرتغال فى الحبشة الى زيادة اهتمام العثمانيين عقب فتحهم لمصر بمنطقة البحر الأحمر واليمن والبحار الشرقية عامة لمدافعة البرتغاليين[١٣] . وفعلا استولى العثمانيون على سواكن

---

(١١) عبد الرحمن النجار : الاسلام فى الصومال ص ٦٥ .
عنايات الطحاوى (د) افريقيا الاسلامية ص ص ١٩٨—٢٠٠ .

(12) Trimingham. Islam In Ethiopia. p. 209
Oliver Roland and Mathew Gervase. History of East Africa. vol. 1. pp. 99—101.

(13) Denis De Rivoyre. Mer Rouge et Abyssinie pp. 101—166.

عام ١٥٢٠ أهم ميناء للتجارة الافريقية ، ثم استولوا على زيلع ومصوع والمراكز الأخرى الصغرى •

ومما يلفت النظر أن استيلاء العثمانيين على هذه المراكز الاسلامية قد تم بدون حرب ، لأن المسلمين فى هذه الجهات رحبوا بالقـــوة العثمانية ، كقوة اسلامية فتية ، حققت انتصـــارات هائلة على الدولة البيزنطية المسيحية (الرومانية الشرقية) هذه الأعمال المجيدة هلل لها المسلمون فى هرر والحبشة • اذ أوجدت للعثمانيين دعاية طيبة فى نفوس هؤلاء المسلمين الذين كانوا فى صراع عنيف ضد النجاشى • ومما هو جدير بالملاحظة أن اهتمام الأتراك العثمانيين كان مركزا على الساحل ليعطيهم قواعد هامة فى هذا الصراع الكبير ، فضلا عن الموارد الهامة التى تتمتع بها الموانىء الساحلية (ايرادات الجمارك) ثم تعرضـــت أفريقيا لموجة استعمارية شرسة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر •

ومن الجدير بالملاحظة أنه فى خلال الفترة التى تطلعت فيها مصر الى مد ادارتها الى ساحل الصومال وهرر فى عصر اسماعيل ــ كانت أوربا قد وضعت يدها على كل مناطق الساحل الافريقى فى الجنوب والغرب ، وفى جزء كبير من شرق أفريقيا ولم يبق أمام دول أوربا الاستعمارية الا ساحل البحر الأحمر الغربى والجزء الأعلى من ساحل أفريقيا • وكانت مناطق الصومال وهرر من المناطق التى يهم مصر ألا يصل اليها النفوذ الأوربى لأنها متصلة بحوض النيل • ووجود جســم أجنبى غريب عنها سيؤدى الى تهديد سلامة وادى النيل • فضلا عن أن هذا الجزء ــ هو الجزء العربى الاسلامى من أفريقية الشرقية أو على حد تشبيه بعض المؤرخين ــ شبه الجزيرة العربية على ساحل افريقية الشرقى(١٤) وعلى هذا الأساس حرصت مصر على ابعاد هذه المناطق

(١٤) محمد المعتصم سيد (د) دول اسلامية فى شرق أفريقيا « هرر والصومال » ص ٦٢ •

عن النفوذ الأجنبى • وكان أسلم طريق لذلك وضع مناطق الصومال وهرر تحت الادارة المصرية • فقد رأت مصر أن احتلال انجلترا لعدن يعطيها ميزة التعامل مع رؤساء الحبشة أو الاتجار معهم أو الحصول على مزايا استراتيجية فى بلادهم ، باتخاذ بلادهم المرتفعة مكانا تشرف منه على وادى النيل •ولقد تأكد ذلك لمصر ، بعد استيلاء الانجليز على جزيرة باب المتحكمة فى مدخل قبة الخراب ، ثم على جزيرة ايفات المشرفة على ميناء زيلع أو على جزر موسى المتحكمة فى طريق تجارة القوافل المتوغل مع وادى الحواش فى بلاد الحبشة ، كما كان لفرنسا أيضا مطامع فى هذه الجهات •

وقد علل البعض اتجاه مصر فى سياستها الخارجية الى أفريقيا والى ساحل الصومال وهرر ، يعنى أنها تركت الاتجاه العربى كلية ، لكن هذا الاتجاه الجديد فى السياسة المصرية ، كان يخضع لاعتبارات سياسية ، فقد كان تمصر فى سياستها الافريقية تتجه اتجاها عربيا صرفا ، هذا الاتجاه يتمثل فى اهتمام مصر بالسودان والصومال العربى وهرر الاسلامية ، وكل ما حدث هو أن مصر حولت اتجاهها العربى جغرافيا من آسيا الى افريقيا ، فبدلا من أن يكون اتجاها عربيا أسيويا ، أصبح اتجاها عربيا أفريقيا • وكون مصر تلتزم بهذا النهج الافريقى ، فهو نهج دفعها اليه قدرها ، اذ كان لمصر علاقات بدول وادى النيل والصومال منذ فجر التاريخ وتعتبر نفسها صاحبة أقدم وأعرق حضارة ومسئولة عن توصيل أسباب تلك الحضارة الى البلدان الافريقية التى تربطها معها علاقات اقتصادية وثقافية • وهكذا عندما تتجه مصر الى هذه المناطق الافريقية للحفاظ على وجهها العربى والاسلامى فى عهد اسماعيل ، فهو اتجاه من منطلق حضارى ومصيرى • وكان اسماعيل فى خطاباته المرسلة الى حكامه فى هرر وغيرها من الفتوحات الافريقية ، يذكرهم بالتزام مصر الدينى نحوها بالرغم مما كانت تعانيه مصر من ضائقة مالية •

وكان محمد على من قبل من الحنكة السياسية ، وبعد النظر ، أنه لم يرسل الى تلك الجهات الافريقية الحملات العسكرية المجردة ، بل عمل على أن يطعمها باستمرار بخيرة علماء المسلمين ، حتى يؤتى الفتح ثماره المرجوة ، فعمل على أن يكون الوافد الاسلامى قويا ، فمنذ أن أرسل محمد على حملاته العسكرية لفتح السودان ، أرسل ثلاثة من العلماء المسلمين يدعون الأهالى للانخراط سليما ، فى ظل الحكم المصرى صونا لارواحهم ، وحقنا من اراقة الدماء ، وكان هؤلاء العلماء الثلاثة هم الشيخ محمد أفندى ، قاضى أسيوط ، الحنفى المذهب ، والشيخ أحمد البقلى الشافعى ، والشيخ السلاوى المغربى المالكى ، وهؤلاء العلماء الثلاثة يمثلون المذاهب الاسلامية الأوسع انتشارا فى ممتلكات عصر الافريقية[١٥] .

اذا فواجب مصر تجاه هرر فى عصر اسماعيل كان نابعا من خلال التزام عربى اسلامى . ولقد شهدت هرر بالفعل تغيرات اجتماعية وحضارية سنحاول تناولها فى الموضوعات الرئيسية التالية :

أولا ــ أسلوب الحكم المصرى فى هرر وملحقاتها :

لما افتتحت الحكومة المصرية اقليم هرر ، وجدت أنه من الأنسب اعادة تنظيم ادارة الاقليم سعيا وراء تقدمه ، ورفاهية أهله ، وامتد أشراف الاقليم على تاجورة وزيلع وبربرة التى صارت تلقب بلقب ملحقا تهرر وأنيط أمر الاشراف على هرر وملحقاتها للقائد المصرى الذى افتتحها ، وكان هذا القائد هو رءوف باشا بعد أن أنعم عليه الخديو اسماعيل بلقب فريق . وكان يساعده فى أمر تصريف هذه الاقاليم الواسعة الأرجاء ، جماعة من المحافظين والحكام الذين يختارون فى الغالب من أبناء البلاد الاصليين . وعموما صدرت أوامر تعيينات حكمدارية هرر على الوجه التالى :

---

(١٥) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ١٣٥ .

١ — رءوف باشا حكمدار لهرر وملحقاتها (تاجورة وزيلع وبربرة) .

٢ — جمالى باشا محافظ بربرة (مؤقت غير مرضى عنه) .

٣ — أبو بكر شحيم (الصومالى) محافظ زيلع .

٤ — محمد بن عبد الشكور الهررى ، محافظ هرر .

٥ — عبد الوهاب بك ، وهو مدير بنى سويف وكيلا لمحافظة هرر . وكان عبد الوهاب بك هذا ينوب عن رءوف باشا فى تسيير دولاب عمل هذه الولايات الاسلامية حال غيابه ، كما كان له حق رئاسة مجلس الحكمدارية فى تلك الأثناء(١٦) . وكان يراعى فى اختيار المحافظين بالطبع أن يكونوا موالين للحكم المصرى ، وأن يكونوا محمودى السيرة وأن يتمتعوا كذلك بالقدر اللازم على تصريف الأمور .

فمثلا وافقت الحكومة المصرية على اعادة تعيين محمد بن عبد الشكور سلطان هرر السابق ، الظالم المستبد ليكون محافظا عليها مرة أخرى فى ظل الحكم المصرى ، وذلك بعد أن أعلن ولاءه للحكم المصرى ، ولم تكتف تلك الحكومة منه بذلك ، بعد أن تعهد لها على تخليه عن قسوته القديمة ، وطلبت منه أن ينهج نهج العدالة فى حكمه بين العباد ، وأن يعامل أهل هرر بالرفق ، وأن يسهر على رعاينهم ، عملا على زيادة النهضة العمرانية ، وتقدم البلدان .

وكان رءوف باشا قد لفت نظر مصر الى أنه مضطر للاحتفاظ بالأمير السابق ، وذكر أنه ينطوى على أمور غير لائقة . فعملت مصر من ناحيتها على تقييد سلطة عبد الشكور ، بأن جعلته تحت رقابة سمع وبصر عبد الوهاب وهبى الذى كان مرءوسا لمحمد عبد الشكور فى

---

(١٦) شوقى عطا الله الجمل « الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ١٨٦٣—١٨٧٩ ص ٢٨٣ .

الظروف العادية ، ورئيسا له فى الظروف الطارئة لكونه نائبا للحكمدار العام . اذ كان عبد الوهاب من رجال الحكومة المصرية المعول عليهم وسبق له القيام بمهمات خاصة . وله دراية بالشئون العامة . وعهدت اليه بادارة كل جوانب حركة المدينة من ضبط وربط وادارة[17] .

وعلى العموم كان هؤلاء الحكام والمحافظين مسئولين مسئولية مباشرة أمام الحاكم العام المصرى الجنسية الذى كان يقوم بالمرور على كافة جهات الحكمدارية من وقت لآخر نظرا لاتساع أرجائها ، ليتفقد أحوال الرعية ، والوقوف على مدى تطبيق العدالة ، وفق الفرمانات الصادرة اليه من الخديو والتى كانت تصدر اليه من آن لآخر ، اذ تعتبر الفرمانات الخديوية توضيحا لسياسة الحكومة المصرية التى ستنتهجها فى هذه اللبدان . مثل نشر التعليم ، وتنشيط الحركة التجــارية ، وتحسين الانتاج الزراعى[18] . فالحكمدار العام هو الممثل الشخصى للخديو فى تلك البلاد ومسئول أمامه مسئولية مباشرة ، فهو همزة الوصل الحقيقية بين مصر وهرر .

حقيقة أن رءوف باشا ساوى بين المصريين والصــوماليين فى المزايا والحقوق والواجبات[19] وكان رءوف محبوبا لدى الأهــالى . وقد نزل من قلوبهم منزلة جعلتهم يلقبــونه « بالوالد » ، ودللت الفرمانا تالخديوية عامة ، أنها كانت صادقة العزم على النهــوض بتلك البلاد وأهلها ، وعلى سيادة القانون والعدل ، اذ اصطبغت تلك الفرمانات بالروح الاسلامى لأنها كانت تسير وفقا لاحكام الشريعة الاسلامية[20] .

---

(١٧) جلال يحيى (د) مصر الافريقية والأطماع الاستعمارية ص ١٦٥ .
(١٨) عبد الله حسين : السودان القديم والجديد ص ص ١٤٢—١٤٩ .
(١٩) دفتر نمرة ٢٤١٤ دار حكمدارية هرر — ص ٨ رقم ٢٨ فى ١٨ رمضان ١٢٩٢ .
(٢٠) على ابراهيم عبده (د) مصر وأفريقية فى التاريخ الحديث ص ص ١١١—١١٢ .

وللدلالة على ذلك أن أول فرمان صدر من الخديوى اسماعيل بعد فتحه لهرر مباشرة ، استهله بشرح سياسة الحكومة المصرية تجاه الاقليم وأكد فيه أن المرجع فى الأحكام سيكون للشريعة المحمـدية التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وأن الادارة المصرية ستعمل على سيادة العدل والانصاف ليستوى فى الحقـوق الأدانى والأشراف . والمعاملة بالتلطيف والاستحسان ، وان اختلفت الأديان ، وأعرب عن ابتهاجه لترحيب الأهالى بهذه الوحدة مع مصر . وأبلغهم أنهم أصبحوا كالمصريين تماما ، ويتمتعـون بكافة الحقوق والامتيـازات مثلهم . يتساوى الضعيف فى الحقوق والقوى ، والكل يسلك المنهج القويم السوى . ووعدت القاهرة بالعمل على نشر التعليم وازدهار الزراعة ، وتوسيع نطـاق التجارة والصناعة ، وحثت الأهالى على التعاون فى استخراج خيرات الأرض .

وعلى طاعة الله والرسول « وأولى الأمر » منهم[٢١] .

ولكى يكون هذا الفرمان بمثابة ميثـاق عمل يلتـزم به الراعى والرعية ، أقام رءوف باشا احتفالا عسكريا دعى اليه الأمير والقضاة والعلماء والتجار والأعيان ليقرأ عليهم هذا المرسوم حتى يصل الى مسامع الكل فيقفون على ما جاء به ، ولاعطائه أيضا الصفة الرسمية اللائقة بهذه المناسبة .

وفى الحال رؤى ترسيخا لمبدأ الشورى فى اقليم هرر أن يتكون مجلس الحكمدارية ، على ألا تقتصر العضوية فيه ، على علية القـوم من المحافظين والحكام فقط ، بل يمتد لتشمل دائرة اختصاصه عناصر أخرى ، وكان من بين أعضائه القضاة والعلماء والتجار والأعيان ، وبدأ المجلس بهذه الصورة أن تمثيله الشعبى كان واضحا وكانت وظيفته

---

(٢١) دفتر رقم ١٠ أوامر عربى — ص ٢٦ رقم ٢ فى ١٢ شوال ١٢٩٢ .
شوقى عطا الله الجمـل (د) الوثائق التاريخية مرجع سـبق ذكره ص ٢٨١ .

النظـــر فى الدعاوى المتعلقة بالحــكمدارية ســـواء أكانت شرعية أو سياسية[٢٢] •

وفى ظل الحياة الديمقراطية التى نعمت بها هرر أثنـــاء الادارة المصرية ، لم يستطع محمد بن عبد الشكور ، أن يتمشى مع روح العصر الجديد ، فتوقف عن مسايرة الركب الحضارى ، اذ عز عليه عدم تسلطه على الاقليم • كما عز عليه عدم موافقة مصر على احتفاظه بســـلطة الادارة الفعلية الوراثية ، فضلا عما حرم منه من احتكارات كانت تدر عليه الأرباح الطائلة ، وظهر قصور تفكيره وتأخره عن متابعة الأحداث، وعدم قدرته على مسايرة التطور ، واصراره على مصلحته الشخصية ، ظهر ذلك فى تحريضه قبائل الجالا ، ودفعهم الى مهاجمة المصريين • مما اضطر رءوف باشا الى الخروج ومجابهة هذه الحركات ، فتقدم ابنه الحاج عبد الله ، بعد ذلك بطلب الأمان والاذن له بالحضور الى القاهرة• ورتبت له الحكومة المصرية معاشا ، ثم اختار زيلع مقاما له • وأوصت سلطات هرر بعد مالتعرض لأملاكه • وهكذا أصبح اقليم هرر تحت ادارة مدينة جديدة دون وجود طبقات تتحكم فى أمره •

وظهر أن الاقليم قد أخذ فى الاستجابة لتلك البذور الديمقراطية التى أخذ اخوانهم من أبناء شمال القارة يبذرونها بينهم •

وهذه الأنظمة الديمقراطية ، المشار اليها ، اســـتحدثتها الادارة المصرية الجديدة ، أثناء حكمها لهذه البلدان ، ومع ذلك فقد أبقيت على بعض الأنظمة التقليدية التى كانت شائعة بينها قبل التواجد المصرى ، مثل المجالس القبلية ، حيث أن القبيلة كانت تلعـــب دورا كبيرا فى مجريا تالأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فقد كانت هرر تتميز بروح فريدة ، اذ أن جميع قبائلها متحدة[٢٣] ، يسودهم روح

---

(٢٢) جلال يحيى (د) مصر الافريقية مرجع سبق ذكره ص ١٦٩ •

(٢٣) السيد يوسف نصر (د) جهود مصر الكشفية فى أفريقيا فى القرن التاسع عشر ص ص ١٢٧ــ١٣١ •

التضامن ، وهم بخلاف الوضع القبلى القائم فى السودان التى كان يسودها العداء ، وبذلك يمكن لأى مأمور من طرف الدولة الخديوية ، أن يتحد مع من يريد من القبائل ، ويجرى اشعاله حسب اللزوم ، أما كيفية حكم هرر ، فقد كان لكل لقبيلة مجلس مكون من مائة عضو ، ويحل هذا المجلس هو ورئيسه الذى كان يلقب « بالبوكو » كل عام • وكان يرأس تلك المجالس القبلية ، مجلس آخر له الهيمنة والسيطرة على شئون تلك المجالس ، وكان مكونا من ثلاثمائة عضو ، ويلقب رئيسه بالبوكو الكبير ، وقرارات هذا المجلس ملزمة بين جميع القبائل •

ولقد كانت الادارة المصرية فى هرر مستنيرة حقا ، وكان يقيم فيها نحو ١٥ ألف من المصرين من مدنيين وعسكرين ، تزوج عدد منهم من أهل المدينة واقتنوا أملاكا ، وبنوا بيوتا بأوامر الحكومة التى كانت تريد أن تعطى مثلاً للسكان ليتنافسوا فى الأخذ بأسباب العمران • ولقد اعترف الرحالة الأجانب بمآثر الادارة المصرية فى هرر • من ذلك ما كتبه الرحالة النمساوى (فيليب بولتشكة) الذى زار هرر أيام الادارة المصرية ووصف حالتها قبل الحكم المصرى ، وما أدخله المصريون من ضروب الاصلاح ، كتب يقول : « ان الوجود المصرى حادث كبير فى تاريخ هرر ، وكيف لا يكون كذلك ، وقد تمكن المصريون من ادخال ثقافة شرقية فى بلد همجى ، ونشروا التجارة ، وأمنوا السبل ، وبالجملة أحدثوا انقلابا خطيرا فى أحوال هرر ، وان الذى يعرف الشرق — ولا سيما البلاد الافريقية الخالية من أبسط مبادىء الثقافة — لا يسعه أن يقرر أن المدنية المصرية تحتل مكانة عالية من المدنية عامة •

ومن الثابت أن استيلاء المصريين على هرر وزيلع وبلهار وبربرة وجميع الساحل لغاية رأس حردفوى كانت له فى مجموعة نتائج ثورية ، لا فى هرر فحسب ، بل فى جميع القسم الشمالى من أفريقية الشرقية ، نتائج لا أظن أن احتلالا آخر وصل اليها فى افريقية » •

ومما يدل على عظمة الحكم المصرى وجلاله ، أن اتصف حكم عبد الشكور بالتعسف والجور والرجعية ، بالرغم أنه كان هرريا من أبناء البلاد ، فكان يمنع الأهالى من زراعة البن[٢٤] ويحتفظ بها احتكارا لنفسه ، خوفا من أن يغتنى الأهالى ويخرجون بالتالى على طاعته • كما كان يحتكر التجارة فى العاج وريش النعام ، وكانت عملته مغشوشة مضروبة فى هرر مدة أزمان مختلفة • وكلها نحاس ، على حد قول المصريين ، أى أن قيمتها الفعلية كانت أقل من القيمة النقدية التى كانت متداولة بها • وبلغ من تعسفه أنه كان يمنع نساء الشعب من لبس النعال ، والرجال من لبس أى شىء على رءوسهم • وكان يجلد كل من يتجاسر على تغطية رأسه ، ولو بالثوب التالف هو فيه لوقاية رأسه من حرارة الشمس أو من البرد • كما كان يمنع الأهالى من أكل الأرز ، وأكل التمر ويقول « أن هذا أكل الأمراء والسلاطين ومن أين لكم أن تتوصلوا لأكل طعامنا ، بل وكان يمنعهم من أكل أى غداء حلو ، وما هذا الا نتيجة جهله وتجبره وطغيانه على عباد الله »[٢٥] •

ولكن مجىء المصريين غير من هذه الأحوال ، اذ أنهم قضوا على احتكار زراعة البن • وعملوا على محاربة البدع والعمل على تقدم البلاد وأهلها « فأخذ الأهالى فى لبس تاج الاسلام ، وصاروا يدعون للدولة المصرية الاسلامية وأبنائها الكرام ، حيث خلصتهم مما كانوا فيه من الظلم والاحتقار » •

ولم يقل استعداد أهالى هذه المناطق للتقدم والرقى عن استعداد غيرهم من الشعوب • وعلى الرغم من قصر المدة التى خضعت فيها هرر وملحقاتها للادارة المصرية ، فقد عملت هذه الادارة على تعميرها واستتباب الأمن بها ، فأجرت الصلح بين القبائل المتنافرة ، وشعر الأهالى بأن هناك قوة تصون الأمن وتحفظ النظا موالأرواح والممتلكات•

---

(٢٤) على ابراهيم عبده (د) مصر وأفريقية ص ص ١١٠ — ١١١ •
(٢٥) جلال يحيى (د) مصر الافريقية ص ١٦١ •

ولقد استهل حكمدار عام هرر حكمه للبلاد ، بأن طلب من الحكومة المصرية أن توفد له على جناح السرعة عددا كبيرا من المهندسين والبنائين والنجارين والموظفين والفلاحين المهرة .

لقد تضمن نظام الحكم المصرى فى هرر وملحقاتها فى هذه الفترة عدة مظاهر حضارية ، كانت على جانب كبير من اهمية ، وكان من بين هذه المظاهر ، انتشار الأمن فى ربوع البلاد . اذ أن أسس المدنية والعمران تتركز على أمرين :

الأول : حفظ الأرواح والأعراض والأموال (الامن العام) .

والثانى : توسيع دائرة الزراعة والتجارة والصناعة .

ولما كان الأمن ضروريا لحماية أفراد المجتمع وممتلكاتهم من السلب والنهب ومن عبث الخارجين على القانون والسلطة ، فقد نشط اسماعيل فى حفظ واستقرار الأمن فى ممتلكاته الافريقية ، بقطع دابر الأشقياء والأشرار ووضعهم فى السجن ، وعزل الحكام المتهاونين فى تنفيذ بنود الأمن . وكان اهتمام اسماعيل بهرر بعد خضوعها للسيادة المصرية كبيرا[٢٦] .

اذ أن هرر التى كان سكانها من البدو ، يأتون اليها كل أسبوع ، وذلك ليعيشوا بين سكانها بعض الوقت . وكانوا يحصلون فى أثناء تلك المدة على بعض الكساوى (ثمانية أذرع من القماش) كنوع من الاحسانات أو الأتاوات الى جانب حصولهم على المأكل والمشرب والنقود . ولكن لما خضعت هرر للسيادة المصرية ، حرم هؤلاء من مجيئهم اليها ، فربما يرجع ذلك الى تخوف هؤلاء البدو من السلطة الجديدة ، فاضطروا الى مهاجمة المدينة ، فأمر اسماعيل حاكم هرر أن يجتذب هؤلاء البدو عن

---

(٢٦) دفتر ١٠ أوامر عربى ص ٣٧ رقم ٤ ملحقاتها فى ١٢ شوال ١٢٩٢ هـ .

دفتر صادر معية عربى بدون نمرة ص ٣٤ فى ١٢ شوال ١٢٩٢ هـ .

طريق تجنيدهم فى الجيش ، بحيث لا يعطون سلاحا ، بل يساحون بأسلحتهم التقليدية (الحراب والنيبال) حتى يمكن الاستفادة بهم فى حفظ الأمن وحتى لا يقومون بالسرقات ، كما أمر اسماعيل أيضا أن لا تقوم القوات النظامية بممارسة تدريباتها بالقرب من أماكن اقامتهم حتى لا يظنوا سوءا بالحكومة ، من أنها ستقوم بمهاجمتهم •

بالاضافة الى ما سبق ، فان اسماعيل أمر بتصفية الخلافات القائمة بين القبائل ، وذلك بارسال مندوبين من طرفه الى الجهات التى تحدث فيها خلافات ومنازعات قبلية • وقد أدت هذه السياسة بالتالى الى استتباب الأمن ، ونشر الطمأنينة بين السكان ، وأدت أيضا الى رواج التجارة وازدهار الزراعة • اذ حرصت الادارة المصرية دائما على مراعاة مصالح السكان • وقد وجدنا عدة تعليمات للعساكر المصريين توصيهم بحسن معاملة الأهالى ، بل كانت تعليمات الحكومة المصرية دائما للقائمين بالأمر فى هذه الجهات تقضى بأن يعاملوا السكان بالعطف والحسنى ، وألا يلجأوا الى الشدة الا للضرورة القصوى • وقد أدى ذلك فعلا الى التآلف بين الأهالى والمصريين حتى أن رءوف باشا ذكر فى أكثر من تقرير له أن كل واحد من الأهالى كان يعتبر نفسه سعيد الحظ ، اذا ظفر بتزويج احدى بناته لجندى من الجنود المصريين[٢٧] •

والأكثر من ذلك حينما نمى الى علم الحكمدار العام عن رغبة جنده فى شراء حاجياتهم خارج نطاق المدينة المعسكرين بها ، جاءتهم التعليمات المشددة فى الحال ، بضرورة عدم شراء شىء من خارج البلدة ، والزامهم بشراء مستلزماتهم من السوق المعدة لذلك بالمدينة • وكذلك التنبيه عليهم بعدم اغتصاب بيع أو شراء من الباعة ، كما هى

---

(٢٧) دفتر نمرة ١٠ أوامر عربى ص ص ٣٣—٣٤ نمرة ٥ فى ٩ ربيع أول ١٢٩٣ هـ •

القوانين السياسية • ومن يخالف هذه التعليمات سيجازى أشـــد الجزاء ، مع توصيتهم بضرورة معاملة الأهالى باللطف والحسنى ، حتى تنجذب قلوبهم الى حب العساكر •

وفى نفس الوقت ، اهتمت الحكومة العامة بقبائل الجالا المحبة للحرب ، وعملت على استمالتهم ، وبذر بذور الحضارة فيما بينهم • ووضع رءوف باشا مشروعا لادخال بعضهم فى الجندية ، اشباعا لنزعتهم الحربية ، والاستفادة من استعداداتهم الطبيعية ، فى خدمة القـانون العام • ورأى أن تحتفظ هذه القوى المحلية بأسلحتها التقليدية ، وأن تصرف لهم رواتب أو ترتب لهم كمية من الأقمشة والتموين ، علاوة على دفع رواتب لشيوخهم ورؤسائهم •

ت ولقد عنيت الحكومة المصرية بارسال عدد من الصنايعية لتشغيلهم فى الانشاءات العسكرية اللازمة مثل اقامة الثكنات فوق الجبل المسمى (حاكم) وفى الأشغال التى تقدم خدمات معاونة ، مثل الترزية والمكوجية وغيرهم(٢٨) •

وبلغ من خصائص الادارة المصرية فى هـذه البلدان أنها كانت حريصة فى أن تتحرى معرفة كل شىء بالتفصيل عن السكان فيما يتعلق بأصلهم وعاداتهم وتقاليدهم وديانتهم ولغتهم وأعمـالهم من زراعة وتجارة أو رعى وكذلك عن مناخ هذه الجهات •

لا شك فى أن اهتمام الحكومة المصرية بمعرفة عوايد الســكان وأخلاقهم ومصادر رزقهم وخلافه من البيانات المطلـوبة لتراعى فى معاملتهم كل دقة • ومما يدل أيضا على أن الادارة المصرية بلغت فى ذلك الوقت من التقدم درجة لم تصل اليها أرقى الادارات الأوربية ، وأن

---

(٢٨) جلال يحيى (د) مصر الافريقية والأطماع الاستعمارية فى القـرن التاسع عشر ص ص ١٦٧ــ١٧٠ •

المصريين لم يهدفوا استغلال هذه البلاد وأهلها ، بل النهوض بهم وتهذيب أحوالهم مع المحافظة على الصالح من عاداتهم •

وهكذا سادت العدالة هذه البلاد فى ظل الادارة المصرية والتى كانت لا تدخر وسعا فى انزال أقسى العقاب بالجند والعسكر المصريين اذا أخلوا بواجبا توظيفتهم ، فمثلا اذا تعدى أحد العسكر ، ودخل بستانا لأحد الأهالى ، وقطع منه فرع شجرة واحد سواء أكان نافعا أو غير نافع وضبط ــ فانه كان يقطع من ماهيته شهر واحد ، ويعوض صاحب البستان فيما جرى له من اتلاف • وكان ينبه على الجند بعدم تعديهم على بساتين الأهالى •

يدل ذلك على مدى حرص الادارة المصرية بهذه الجهات ، على ألا يصيب السكان أى ضرر أو ظلم ، وكما سبق أن ذكرنا كانت الادارة المصرية تحرص على أن تسود الألفة والمحبة بين السكان والجنود المصريين[٢٩] •

وبناء عليه لما أقدمت الادارة المصرية على الانسحاب من هرر تقدم الأعيان والعلماء والأهالى والتجار الوطنيين بهرر ، بعريضة الى حكمدار عموم هرر ، معبرين فيها عن حزنهم العميق حينما بلغتهم من اشاعات عن عزم الحكومة اخلاء هذه البلدة وملحقاتها وذكروا : « أننا نعرض لفخامة عطوفتكم ــ بأنه لو حصل ذلك يكون سببا لاراقة الدماء ، وعدم وجود الأمن فى الأرواح والأموال • وذلك لعدم وجود المنصف الذى يأخذ حق الضعيف من القوى • وفى الأزمان السالفة بقيت هذه البلاد نحو خمسين سنة لغاية استيلاء الحكومة المصرية عليها ، على يد أعداء فى حالة من التوحش ولم يكن ينقطع منها سفك الدماء ولا السلب والنهب ولم يكن أحد يستطيع الوصول اليها من الجهات المتمدنة • حتى أن المولى سبحانه وتعالى من علينا بالحكومة الخديوية فكانت سببا فى

---

(٢٩) دفتر صادر معية عربى بدون نمرة ص ٣٤ فى ١٢ شوال ١٢٩٢ هـ •

انتظام أحوالنـــا حتى صرنا فى عصرنا نأمن على أرواحنـــا وأموالنا وعيالنا ، وانقطع النهب والسلب وازهاق ارواح ، وانتظمت لنا الحالة ، وصارت هذه المدينة مركزا تجاريا يهرع اليه التجار من كافة الأقطـــار فزدنا التشكر لمولانا الكريم على ذلك • وكنا على الدوام ولم نزل نرفع الدعوات الصالحة لولى نعمتنا الخديو الأفخم ولأنجاله الكرام ، ورجال دولته بدوام العز والنصر والتأييد • ولما بلغنا هذه الاشاعات صرنا فى غاية من الأسف ، وحزنا فى أمرنا وما سيطرأ علينا ، ونفزع مما نتوقع حصوله فى المستقبل من أعدام أرواحنا وعيالنا وسلب متاعنا ، وخراب هذه المدينة وهدمها بالكلية • وعلى ذلك لا يكون لنا ملجأ سوى أن نلجأ للحكومة الخديوية التى كانت السبب فى نظام بلادنا منذ تسع سنوات من مدة استيلائها عليها •

فلا يمكن أن تتركنا هباء منثورا لأنه لو تحقق هذا الأمر ، تكون الحكومة هى المتسببة فى اهراق دمائنا واعدامنا بالكلية •

بناء عليه فقد تجاسرنا بالعرض لننظر فيما يتسبب حفظ أرواحنا ومتاعنا ، وأملاكنا وأعراضنا طالبين عدل الحكومة ، واحسانا من عدالة ولى نعمتنا الخديو الأعظم التكرم علينا بما يطمئننا فى هذه المسألة المعكرة ، والا فستكون مضطرين للمهاجرة ضمن العساكر للاقطـــار المصرية • وأن عدل الحكومة السنية ، يمنحنا ما نحتاجه لمعيشتنا حيث أننا سنترك أموالنا وأملاكنا التى ورثناها من آبائنا ، وأجدادنا » •

كما تقدم الأوربيون والأجانب المقيمون فى البلاد بعريضة هم الآخرون ، عندما وصل الى مسامعهم نبأ اخلاء المصريين لهرر • ولقد فاضت هذه العريضة هى الأخرى بالحسرة والأسى الكبير ، نظرا لمـــا يلحق تجارتهم ويصيب ممتلكاتهم من أضرار بالغة عند مغادرة الحـــكومة المصرية لتلك الجهات •

لا شك فى أن هذه العرائض المتقدمة من التجـــار الأجانب ومن

العلماء والأهالى والتجار الوطنيين ، فى الوقت الذى تأكدت أخبار اخلاء الحكومة المصرية لهذه الجهات ، تدل دلالة واضحة على مدى ادراك هؤلاء القوم لحقيقة الأمر • بعكس هؤلاء الذين ضغطوا على الحكومة المصرية لاخلاء جهات آمنة مستقرة دون سبب قوى يبرر اخلاءها • فقد كان الوضع فيها يغاير الحالة فى سائر جهات السودان الأخرى • ويصف لنا رضوان باشا حالة البلاد والأسى الذى عم الجميع أثناء اخلاء الادار ةالمصرية[٣٠] •

ثانيا : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى هرر وملحقاتها فى ظل الادارة المصرية :

قام المصريون بحركة اصلاح واسعة النطاق وعملوا على رفع مستوى أهل هرر الاقتصادى فعنوا بالزراعة وعلى رأس المحاصيل الزراعية التى حظيت بها هرر فى ظل السيادة المصرية هو توسيع الرقعة الزراعية بنا وكان هذا بمثابة ثورة فى الحياة الاقتصادية • اذ أن السياسة الزراعية للبن كانت قائمة على فلسفة احتكارية قاصرة على أمراء هرر فقط ، لا ينازعهم فيها أحد • وكانت تلك الفلسفة مردها ، أنه لو عمت زراعة البن ، فان هذا يؤدى الى القضاء على تراكمات الثروة التى يتمتع بها حفنة قليلة ، واذا ما شاع الغنى بين الأهالى نتيجة اقدامهم على زراعة البن ، فانه يخشى من خروجهم على حد الطاعة[٣١] •

ومن هذا المنطلق حرم أمراء هرر على الأهالى زراعة البن ولذلك كان أول عمل بادرت فيه الادارة المصرية هو السماح للاهالى والعربان بزراعة البن ، واعطائهم رخصا لمزاولة زراعته ، وأخذت الادارةالجديدة

(٣٠) شوقى عطا اله الجمل (د) الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ص ٣٢٨ •

(٣١) السيد يوسف نصر (د) الوجود المصرى فى أفريقيا فى الفترة من ١٨٢٠—١٨٩٩ م ص ص ١٥٧—١٩٤ •

تقيد هذا الاعلان مرات أخرى ، حتى يتعود الأهالى على سماعه ، ويتعرفون على مدى الفوائد التى ستعم عليهم ، وقام رجال الادارة المصرية بعمل دعاية واسعة للسياسة الزراعية الجديدة التى قضت على أسلوب الاحتكار •وأخذت فى ترغيب وتشويق الأهالى على الاستجابة لزراعة البن حتى تشيع الرفاهية بين عدد كبير من الأهالى ، وأعربت الحكومة المصرية عن استعدادها فى احضار أهل الخبرة فى زراعة المحصول من المرشدين الزراعيين الذين لهم المام ومعرفة بتحسين زراعته • ويعلمون الأهالى أحدث الأساليب وأنجحها ، وبذلت الادارة المصرية قصارى جهدها لترغيب السكان فى زراعة البن • بل بلغ الأمر بالحكومة المصرية أن أعلنت عن رغبتها فى احضار خبراء من الهند لارشاد السكان لأنجع الطرق لزراعته ، وللوقوف على مدى استجابة الأهالى واقبالهم على زراعة البن ، صدرت الأوامر من الخديو اسماعيل الى حكمدار عام هرر ، بأن يقوم بنفسه بالمرور على جميع جهات الحكمدارية للعمل على حث القبائل على الزراعة وخاصة البن ، وتلاحظ لرءوف باشا أثناء تفقده لتلك البلاد أن كل قبيلة تزرع نصف الأرض وتترك النصف الآخر الأكثر جودة والذى تغزر به المياه دون زراعة ، مما جعله يفكر فى الحال فى استزراع تلك الأراضى المتروكة والمهملة باعادة توزيعها ، فأنشأ ٢٥٠ بلدة زراعية وأعطى لكل عمدة من عمد تلك البلاد ألف فدان • وأعطى شيخ البلد خمسمائة فدان وذلك من الأراضى المتروكة دون زراعة • وأخذ رءوف يرغب الأهالى فى زراعة البن ، وبين لهم أنه لا يمكن ترك الأرض دون زراعة ، وبالفعل بدأت أغلب القبائل فى زراعة البن[٣٢] •

وباقبال الأهالى على زراعة البن ، أصبحت هرر صاحبة ايراد عظيم من هذا المحصول ، بعد ثلاث سنوات • وبالفعل جادت هرر بزراعة البن الممتاز على نطاق واسع جدا ، وصدر الى الخارج بكميات

---

(٣٢) اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ص ٢٦٤ .
دفتر ١٠ أوامر عربى ص ٣٧ رقم ٤ وملحقاتها فى ١٢ شوال ٩٢ .

كبيرة ، وذاع صيته فى تلك الأسواق الخارجية ، وعلى الأخص فى عدن وأخذت تنافس البن اليمنى ، وأصبح تجار عدن والأوربيون يرجحون البن الهررى ، ويشترونه بأثمان غالية عن ثمن البن اليمنى •

لم يقتصر اهتمام حكومة مصر على الاهتمام بمحصول البن ، بل انها جلبت تقاوى المزروعات من مصر ، وعمم المصريون فى هرر زراعة الكروم واللوز والخوخ والليمون والبرتقال والمشمش والموز والقمح وقصب السكر والبطاطس والقرع والبنجر الشمام والبطيخ والخيار وغير ذلك من الخضراوات والفاكهة التى كانت نادرة الوجود أو لم تكن موجودة بها قط •

أما الصناعات فى هرر فكانت قليلة الانتشار ، ولم يكن بها الا خراط واحد حضرمى الأصل وجملة حدادين • فأخذت الادارة المصرية الصوماليين على مختلف الصناعات على أيدى النجارين والحداوين تعنى بالصناعات المحلية وتعمل على انتشارها ودربت عددا من والخياطين والسروجية الذين كانوا مرافقين للحملة المصرية • كما أنها رغبت الأهالى فى تعليم الصناعات بشتى الطرق • ولترغيبهم فى صناعة الأقمشة كان الحاكم وكبار الموظفين من المصريين يلبسون ملابس مصنوعة فى المدينة ليقتدى بهم السكان فيقتنوا ملابس مفصلة بدلا من الأثواب أو الشقق التى كانوا يتلفعون بها[٣٣] •

وكانت هرر بلد تجارية هامة لموقعها الجغرافى ، وكانت بربرة الميناء الطبيعى لها وللاقاليم المجاورة وكان أهالى زيلع وبربرة والحضرميون يشترون بعض الحرير المختص بلبس الأمراء وأجناس الخزر وبرادة النحاس والأرز الهندى والسكر والشاى والبلح والأقمشة القطنية من بلاد العرب ويبيعونها فى هرر ويشترون منها كثيرا من البن الجيد والجلود المدبوغة وغير المدبوغة • وكذلك يشترون منها بضائع مما يرد اليها من

---

(٣٣) محفظة ٣ عابدين وارد معية رقم ٤ فى ٣ محرم ١٢٩٣ •

خارجها كجلد النمر وريش النعام وسن الفيل والتبغ والمسلى ، وعسل النحل ، ويرسون كل هذه البضائع الى الجهات المختلفة فيكون لهم مكسب عظيم •

ولكن التعامل ، قبل السيادة المصرية على هرر ، كان يتم بطريق المقايضة ، لأن العملة كانت قليلة الاستعمال ، كما أن عدم توفر الأمن كان من شأنه شل الحركة الاجتماعية والاقتصادية • فان القوافل الآتية من الداخل كانت تدفع الضرائب الفادحة لأمير هرر والقبائل التى تمر بها ، وكان تجار الخارج هدفا لقبائل الساحل التى كانت ترغم كلا منهم على اصطحاب رجل من العشيرة يسمى (القبان) كان يقاسمه ربحه نظير حمايته له • وكانت البضائع أحيانا ، بدلا من أن تصل من هرر الى الساحل فى خمسة عشر يوما تقطع الطريق فى عام ونصف أو عامين •

ونتج عن ذلك أن أصبحت هرر مدينة محصنة مقفولة تحيط بها الأسوار من كل جانب لتحمى نفسها من خطر المغيرين عليها ، وكان لها خمسة بوابات لتتحكم فى التجارة الواردة والخارجة منها •

ولم يستطع أجنبى أن يطأ أرض هرر ، فلم يدخلها أوربى سوى الرحالة رينتشارد بيرتون عام ١٨٥٤ بعد أن تزى بالزى العربى وأقام بين أهلها عشرة أيام[٣٤] •

ومما ساعد على نمو الحركة التجارية فى هرر ، ما استحدثته الادارة المصرية من أنظمة مالية بشأن العملة المستخدمة ، اذ رغبت الادارة الجديدة فى احلال العملة المصرية ، محل العملة القديمة المغشوشة ، اذ أصدر رءوف باشا أمرا بابطال عملة الأمير ، واحلال العملة المصرية محلها، وأرسل عينة من عملة هرر القديمة لمصر لتحليلها ومعرفة مقدار الفضة فيها تمهيدا لشرائها من الأهالى •

---

(34) Encyclopedia Britannica. vol. 10. p. 139.

ورأت مصر الأخذ بسياسة استبدال العملة بالتدريج حتى لا تقف حركة البيع والشراء ، وأخذت فى ارسال كميات من العملة المصرية الى هرر لكى تحل محل العملة القديمة ، وصار استعمال العملة القديمة بقيمتها التى ظهرت من فحصها باعتبار أن الريال الواحد يساوى ٣٢١ محلقا(٣٥) •

واستصوب رءوف باشا جعل التجارة مع الأهالى ، والاكتفاء بالضرائب التى يدفعونها ، على أن يتم ذلك على أساس النصف بالمبادلة، والنصف الآخر بالشراء العملة ، خصوصا وأن الأهالى كانوا غير معتادين على التعامل بالنقود ، ولكن الحكومة وجدت أن هذا الأمر قد ينشأ عنه بعض الارتباك ويتطلب اقامة المخازن فى الأقاليم ، فقررت أن تجعل تجارة البن فى يدها وحدها ، تقوم بشرائه من الأهالى بعد أن شجعت الجميع على زراعته ، وتشتريه بالعملة ، توحيدا للتجارة مع الخارج ، وتعويدا للاهالى على استخدام العملة ، أما الضرائب المحلية التى قد تفرض على المواشى والأغنام والمحصولات ، فان مصر قد خشيت من استحداث نظم جديدة فيها مما قد يترتب عليه معارضة من جانب الأهالى • فأوصت الحاكم العام بعدم تقرير أى زيادة مفاجئة على عوائدهم السابقة • وبأن يحصل الايرادات بنفس الطريقة التى سارت عليها الحكومة السابقة ومع الاستمرار فى ذلك مدة حتى يألفوا الادارة الجديدة ونظمها شيئا فشيئا •

وبعثت مصر بالكتاب والحساب وبصراف لمنطقة هرر وبربرة ومأمور للوزن ومكاييل وموازين لضبط عملية البيع والشراء •

ولما كان أهالى هرر يحصلون على المياه الضرورية لهم من الغدران البعيدة عن المدينة ، حفرت الادارة المصرية قناة لجلب المياه الى داخلها حتى توفر على أهاليها المشقة والجهد • اذ كانت مياه الشرب قبلئذ قاصرة على تسع عيون منها أربع فى الجانب البحرى ، وخمس فى

---

(٣٥) دفتر ١٠ أوامر عربى ص ٢٣ رقم ١ فى ١٢ شوال ١٢٩٢ هـ •

الجهة القبلية ، وكان أبعدها عن هرر يوجد على مسافة ستة آلاف متر ، وكان أقربها الى هرر يوجد على بعد ألفى متر[٣٦] .

وكان متوسط عمق هذه العيون يبلغ حوالى أربعين سم ويتراوح عرض العين منها من أربعة الى ثمانية أمتار .

وقد شيدت الادارة المصرية ١٠٢ منزلا بالاضافة الى عدد من الدكاكين ، ومبنى ديوان المحافظة . وقد زينت بالحدائق العامة الجميلة ، وأنشىء بها أيضا طاحونة لطحن الغلال بدلا من استخدام الرحى . وقد اشترك فى بنائها عمال مصريون . وكان هؤلاء العمال قد قاموا بتعليم أبناء هرر كيفية تشغيل هذه الطاحونة وأنشىء بها أيضا مسجد ليؤدى فيه الناس الشعائر الدينية . ولقد نال التعليم فى هرر اهتمام الخديو اسماعيل . ففى عام ١٨٧٦ طلب اللواء محمد نادى من سيادته أن يوافق على انشاء مدرسة فى هرر وذلك لتعليم أبنائها القراءة والكتابة واستند اللواء نادى فى ذلك على النقاط التالية :

١ — وجود مكان واسع فى هرر ، يصلح لأن يكون مدرسة .

٢ — تتعهد المديرية بانشاء الكراسى والأرائك اللازمة للتلاميذ وذلك لوفرة الأخشاب .

٣ — تتكفل الحكومة المصرية بتكملة التعليم لهؤلاء التلاميذ فى مصر ، بعد انتهائهم من دراسة المرحلة الابتدائية فى مدرسة هرر .

٤ — يصرف كل تلميذ كل أسبوع قرشا واحدا ونصف مرتب جهادى ، بالاضافة الى منحه فى كل سنة طاقيتين وطربوش وجلابية متوسطة الطول ، ومحاط أسفلها وياقتها بدائر حمراء وسروال شبيه بالبنطلون .

---

(36) Encyclopedia Britanica. op. cit., p. 138.

٥ ــ تقوم المدرسة بتدريس علم الزراعة والخط والحساب والقرآن الكريم والعقائد الدينية • ويتم ذلك بواسطة المدرسين الذين يعينهم ديوان المعارف •

٦ ــ بلغ عدد تلاميذ المدرسة مائتى تلميذ[٣٧] •

وعموما كان محمد نادى باشا حاكما متازا وفى عهده عين أحد بك وعدى رئيسا لأركان حرب الجيش فنجح فى ادخال قبائل كثيرة فى حوزة الحكومة • ولقد زار الرحالة الايطالى « أنطوان سيكى » هرر فى أيام نادى باشا (١٨٨١) فلاحظ رفاهية المدينة وتبين له « أن حالتها المعنوية تطابق حالتها المادية • وأن المصريين تبدو سمات الفاتحين الرافعين لواء الحضارة • اذ يعلمون الأطفال القراءة والكتابة والفتيان الصلاة والشريعة السمحاء ، ولا ينكر انسان أن الطريقة التى يتعهدون الأمن فى المدينة وضواحيها جديرة بكل اعجاب ومن التحسينات الكبيرة التى أدخلوها النظام القضائى الذى أصبح ــ على الضد من نظام الأمراء السابقين ــ يقضى بالعدل من غير هوادة ولا ابطاء »[٣٨] •

وكان آخر حكام هرر من المصريين على رضا باشا (ديسمبر ١٨٨٢ ــ أكتوبر ١٨٨٤) واليه يرجع الفضل فى مطاردة المتطببين والمشعوذين•

وقد كتب على الحكم المصرى ألا يدوم طويلا اذ بينما كانت مصر مجدة فى بث حضارتها أرغمتها انجلترا على اخلاء هرر وبربرة وزيلع ١٨٨٤ • فاستولت هى على الساحل ومنية أمام عدن[٣٩] واحتلت الحبشة هرر فى ١٨٨٧ •

وليس فى مقدور الحبشة ولا فى مقدور أية دولة أوربية أن تفعل

---

(٣٧) محفظة فى مجلس الوزراء السودان ١٨٧٦ •

(٣٨) محمد صبرى (د) مصر فى افريقية الشرقية هرر وزيلع وبربرة ص ص ٦٧ــ٦٨ •

(٣٩) محمد صبرى (د) نفس المرجع السابق ص ٦٨ •

ما فعلته مصر فى هرر . وليس أدل على ذلك من قول بوريللى الايطالى الذى كان يعيش فى هرر مدة عشرة سنوات . فعاصر عهد الادارة المصرية وعهد الحبشة فى هرر : فقد ذكر « ان اللحم قد اختفى من السوق ، وأن هذه الفوضى الحبشية ستنتهى حتما فى يوم من الأيام ، ولكن الموقف سيظل لا يطاق والى أن تنتهى الأزمة سأترك هذه المدينة البائسة التى حولها الأمهريون الى حفر للقاذورات »[٤٠] .

كما شهد بذلك أيضا رجل فرنسى يدعى شارل ميشيل كان أحد أعضاء بعثة بونشامب Bonchamp التى زارت هرر عام ١٨٩٧ ، أى بعد مرور اثنتى عشر سنة على خروج المصريين منها اذ يقول « لقد عادت الفوضى الى البلاد وعاد معها نظام الانقلابات وضاع الأمن التى عانت منه المدينة قبل مجىء المصريين ، وأغلقت أسواق المدينة وهرب التجار الى الريف القصى[٤١] .

وهكذا يتبين لنا أن هرر وملحقاتها قد شهدت تحولا اجتماعيا واقتصاديا هائلا نعم به الأهالى فى ظل الادارة المصرية .

---

(٤٠) حمدى السيد سالم : الصومال قديما وحديثا ، الجزء الثانى ص ١٢٥ .

(٤١) عبد المنعم عبد الحليم : الجمهورية الصومالية ص ٤١٧ .

التنافس على الخديوية المصرية

بين الامير حليم والخديو توفيق

د . عبد المنعم الدسوقى الجميعى
كلية التربية بالفيوم — جامعة القاهرة

بعد أن تولى اسماعيل عرش مصر وجه جهوده الى تغيير نظام توارث العرش الذى فرضته تسوية ١٨٤١ والذى يقضى بأن يؤول حكم مصر الى الاكبر فالاكبر من ذرية محمد على ، فسعى الى الباب العالى حتى ينحصر حكم مصر فى ذريته .

ويدفعنا رغبة اسماعيل فى تغير نظام الوراثة الى التساؤل عن الباعث الذى كان وراء ذلك ؟

لقد كانت هناك خلافات حادة بين اسماعيل من ناحية وبين أخيه من أبيه مصطفى فاضل وعمه عبدالحليم[١] من ناحية أخرى ولم يكن اسماعيل يخفى كرهه لهما وحقده عليهما ، وكان الاميران أيضا لا يكتمان من ناحيتهما كراهيتهما لاسماعيل ، ومن أجل ذلك سعى فى حرمانهما من وراثة العرش وجعلها فى ذريته من صلبه[٢] فاتصل بحاشية السلطان وأخذ ينفق الاموال الطائلة ويجزل العطايا لأرباب

---

(١) هو الأمير محمد عبد الحليم بن محمد على الكبير . وقد ولد فى عام ١٨٢٦ وكان بحسب فرمان الوراثة الأول أحق بالعرش من الخديو توفيق للتفاصيل انظر : الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، القاهرة — النهضة المصرية . الطبعة الثانية ص ٦٦ .

(٢) نفســه ص ٧٤ .

الدولة ويتزلف الى أصحاب الحل والعقد هناك ويشكو لهم ما يدبره أخوه وعمه له من مكائد ، واتهمهما بأنهما يعملان على قتله .

وقد اغتنم حكام الآستانه فرصـــة التنـــافس على الســـلطة بين اسماعيل وأخيه وعمه فأخذوا يبتزون الأموال من سائر المتنافســـين ولكن اسماعيل هو الذى فاز فى مسعاه لأنه كان أكثر مالا وأرسل اليه السلطان فرمانا يقضى بأن تنحصر خديوية مصر فى ذريته ونتيجة للصراع بين اسماعيل وابن أخيه وعمه آثر أخوه مصطفى فاضل مغادرة البلاد والاقامة فى باريس تارة والآستانة تارة أخرى ومع ذلك لم يهدأ للخديو اســـماعيل بال حتى باع له أخوه كل ما يملكه من أراضى وأمـــلاك فى مصر(٣) .

وقد أخذ الأمير مصطفى فاضل يحيك الدسائس لأخيه من الخارج كما أنه نقم أيضا على حكومة السلطان لتغييرها فرمان الوراثة فانضم الى أحرار تركيا الذين كانوا يعملون على قلب نظام الحكم ، والتخلص من استبداد السلاطين ، ثم ما لبث أن اعتراه مرض الاستسقاء فمات فى عام ١٨٧٥(٤) .

أما البرنس حليم فقد ظل فى قصره بشبرا ممـــا أثار مخـــاوف الخديو اسماعيل منه فأخذ يضيق عليه وعلى حاشـــيته والمقربين اليه حتى انزوى بعيدا عن الناس(٥) ، ولم يكتف اسماعيل بذلك بل طلب

---

(٣) أمين سامى: تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا . المجلد الثانى من الجزء الثالث . القاهرة ــ دار الكتب المصرية ١٩٣٦ ، ص ٤٥٠ .

(٤) الياس زاخورة : مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال فى مصر ج ١ القاهرة ــ المطبعة العمومية ١٨٩٧ ص ٥٩ .

(٥) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ج ٤ ص ١٤٤ .

Douin : Histoir Du Regne Du Khedive Ismail. voi II Souiété Royale De Géographie D' Egypte le Caire. 1933 p. 90.

من عمه مغادرة البلاد ، ولما رفض طلبه اتهمه اسماعيل بالتآمر ضده ، وأصدر أمرا بابعاده « عن الديار المصرية والسفر الى المكان الذى يريده » بحجة أن تواجده فى مصر يتسبب عنه اختلال الأمن ، وتدهور النظام فى البلاد .

وقبل أن يغادر حليم البلاد باع جميع أملاكه للخديو اسماعيل بحجة كتبت فى ١٤ أبريل ١٨٦٦ ، كما باع له أيضا جميع أملاكه المنقولة التى يملكها فى القطر المصرى[٦] . وفى مقابل ذلك حدث اتفاق بين اسماعيل وحليم فى ١١ يوليو ١٨٧٠ يقضى بأن يتقاضى البرنس حليم مبلغ ثلاثين ألف جنيه تصرف له بمقتضى ثمانين « بون » يتم صرفهم على أربعين سنة بواقع بونين سنويا فى نظير أن يتنازل البرنس عن أراضيه وامتيازاته وحقوقه فى المواريث الشرعية التى تؤول اليه من الأقارب[٧] ، وألا تطأ قدمه أرض وادى النيل .

ونتيجة لهذا الاتفاق غادر البرنس حليم القاهرة الى الاسكندرية قاصدا الاستانة[٨] ، وبذلك تخلص اسماعيل من منافس أرق عليه

---

(٦) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ القاهرة ـ الطبعة الأولى ص ٣٧١ .

(٧) دار الوثائق . محافظ مجلس النظار . محفظة رقم ٥ أ محاضر جلسات مجلس النواب من أكتوبر ١٨٧٨ الى ديسمبر ١٨٧٩ تحت عنوان « مسئلة البرنس حليم باشا » .

(٨) الوقائع المصرية العدد ٤٧٧ فى ١٠ أكتوبر ١٨٧٢ .

وقد حافظ اسماعيل على تنفيذ هذا الاتفاق حتى عندما اتخذ الأوربيون من حليم أداة ارهاب ضد الخديو ، ولكن هذا الاتفاق لم يلبث أن ألغى بعد عزل اسماعيل ، فقد قرر مجلس النظار ايقاف صرف البونات الموجودة طرف البرنس حليم ابتداء من عام ١٨٨٠ ، واعادة حقوق المواريث التى كان قد تنازل عنها الى الخديو اسماعيل ابتداء من مايو ١٨٨٠ .

انظر : محافظ مجلس النظار ، المحفظة السابقة الذكر .

وقد احتج حليم على ايقاف ما تم الاتفاق عليه لدى بعض الحكومات الأوربية وطلب الحضور الى مصر ليعرض قضيته بنفسه ، ولكن الخديو ورجال حكومته رفضوا طلبه ، ورغم أن بعض أنصاره روجوا له هذه الفكرة فى أوربا فان احتجاجه ذهب سدى .

روز شتين : المرجع السابق ص ١٠٤ .

حياته ، وكان تواجده بمصر مصـــدر ازعاج له وسيف مســـاط فوق رأســــه .

ورغم ذلك فلم يهنأ اسماعيل بالاستمرار فى حكم مصر فبسبب سوء ادارته للبلاد حاولت الدول الأوربية اقناعه بالتنازل عن العرش لابنه توفيق ، كما رغب السلطان فى خلعه وتوليه البرنس حليم مكانه ، واعادة نظام الوراثة الأول طبقا لتســوية ١٨٤٠ ــ ١٨٤١ ، ولكنه رأى أن ذلك يتطلب تعضيدا معنويا من جانب فرنسا وانجلترا خاصــة اذا ما توجه حليم الى مصر فى حراسة قوة عثمانية لاحلاله بالقوة محل اسماعيل[٩] .

ولمـــا رفض اسماعيل طلب انجلترا وفرنسا رســميا التنازل عن الحكم لابنه توفيق لجأت الدولتان وانضمت اليهما المانيا الى تهــديده بتغيير نظام وراثة العرش فى غير صالح ابنه توفيق ، وذلك بتوليــه البرنس حليم بدلا منه[١٠] .

وعلى كل حال فقد حسم الأمر بصــدور قرار الســلطان بخلع اسماعيل لسوء حكمه واسرافه ، وتولية ابنه توفيق مكانه ، ونتيجة لذلك تجددت آمال البرنس حليم فى اعتــلاء عرش مصر ، حيث كان حليم يعتقد أنه أكثر كفاية من توفيق فى تولى هــذا المنصب ، ومن هنا بدأ الصراع بينهما ، وقد انتهــز حليم فرصــة أن الخــديو توفيق كانت تنقصه التجــارب فى حــكم البــلاد ، ويتردد فى اتخــاذ القرارات ، ويستسلم فى بعض الأوقات الى حد الاستكانة[١١] يضــاف الى ذلك

---

(٩) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ٢٠٥ .

(١٠) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ــ تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ ــ ١٨٩٩ القاهرة ــ دار المعارف ١٩٦٣ .

(١١) دار الوثائق : الارشيف النمساوى ، محفظة رقم ١٧ ملحق تقرير الكونت هنجلمولار ص ٧ .

كراهية العسكريين له واتهامهم اياه بعدم الكفاية لادارة الحكومة ، وعدم انصافه بحرمان المصريين من الرتب العسكرية ومحاباة الأتراك وغيرهم بها[١٢] .

انتهز حليم موقف الضعف هذا من جانب توفيق وأخذ يسعى للعودة الى مصر ، ومن أجل ذلك أخذ يتصل برجال المابين لاقناع السلطان بذلك .

وخطى حليم خطوة أخرى لتحقيق أهدافه ، فعندما قامت الثورة العرابية حاول استغلال أحداثها للوصول الى عرش مصر فجند بعض أتباعه أمثال يعقوب صنوع وحسن موسى العقاد وعبد السلام المويلحى للاتصال بالعرابيين وترويج أفكاره واظهار أحقيته بعرش مصر من توفيق ، وقد قام يعقوب صنوع بالدعاية للبرنس حليم عن طريق جريدته « أبو نظارة زرقاء » التى كان يصدرها من باريس و « تدخل مصر بطرق مختلفة وتوزع سرا ومجانا بين صفوف الجيش المصرى »[١٣] .

وكانت هذه الجريدة تبث الدعاية للبرنس حليم ، وتهاجم توفيق ونشر يعقوب صنوع فى جريدته ثلاثة صور رمزية احداها تمثل الماضى (اسماعيل) والثانية تمثل الحاضر (توفيق) والثالثة تمثل المستقبل وهى صورة حليم باشا ، كما أنه هاجم الخديو توفيق ونعته بأقبح النعوت مثل « الواد الأهبل الخسيس » والذى « خان الأوطان وباع

---

(١٢) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٣ قضايا المتهمين — دوسيه ٢٣٠/جـ .

(١٣) دار الوثائق : البرقيات المتبادلة بين القاهرة والاستانة اثناء الثورة العرابية .

رعيته كالغنم للانكلشمن »[١٤] أما عن البرنس حليم فقد وصفه بالسيد الحبيب القريب الى قلب سائر المصريين[١٥] وبأنه فريد عصره[١٦] ، كما ذكر المصريين بأنه ابن المؤسس الأول للحكومة المصرية[١٧] يضاف الى ذلك أنه أشاد بحليم وندد بالخديو توفيق فى أسلوب رمزى قائلا: « ربنا كريم حليم يجيب لنا الفرج عن قريب لأن « توفيق » فرعون ما احتاش عاوزينه دا واد أهبل »[١٨] .

ولم يقتصر نشاط يعقوب صنوع على التشهير بالخديو توفيق والدعوة لحليم فى الصحف بل تطرق ذلك النشاط الى المسرحيات ففى مسرحية « الواد المرق وأبو شادوف الحدق » أوضح يعقوب صنوع عن أمله فى انتصار الفلاحين المصريين على يد البرنس حليم وندد بالخديو توفيق ، وذكره بما حدث لوالده وأشاد بحليم فقال « الظالم يا توفيج آخرته ده والكريم الحليم يحميه رب البرية »[١٩] .

---

(١٤) جيمس سانوا : مصر للمصرين . باريس ــ العدد العاشر ١٨٨٩ كما أطلق يعقوب صنوع على الفلاح المصرى اسم « أبو الغلب » وصور مصر بالبقرة الحلوب وتوفيق بيحلبها ، وفى يده كوز ويقول لوالده اسماعيل: « يابابا ما بينزلش من بزها ولا نقطة لبن » فقام أبو الحلم (يقصد البرنس حليم) بنتشه من ذراعه وهو يقول له حرام عليك يا كافر خليها تشم نفسها . ده أبوك مش حلبها بس دا مصها والا ما كانش يتنازل عنها ويتركها لك يا مطيور » .

انظر : جيمس سانوا . أبو نظارة زرقاء ــ العدد الأول من السنة الثالثة فى ٢١ مارس ١٨٧٩ .

(١٥) أبو نظارة زرقاء : العدد الرابع فى ٢٤ أبريل ١٨٨٦ تحت عنوان « حلم ابى نظارة » وأيضا د. ابراهيم عبده : أبو نظارة امام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح فى مصر ١٨٣٩ ــ ١٩١٢ القاهرة ــ مكتبة الآداب . الطبعة الأولى ١٩٥٣ ص ٥٥ .

(١٦) أبو نظارة زرقاء العدد الثانى عشر فى ١٨ ديسمبر ١٨٨٦ .

(١٧) أبو نظارة زرقاء . عدد ٩ يونيو ١٨٨٢ .

(١٨) د. ابراهيم عبده : المرجع السابق .

(١٩) عبد الحميد غنيم : صنوع رائد المسرح المصرى ، القاهرة ــ الدار القومية للطباعة والنشر ص ٥٣ــ٥٨ .

أما حسن موسى العقاد فقد كان يجمع التوقيعــات من الأهالى بعزل الخديو توفيق وتولية البرنس حليم ويرسلها الى السلطان وكان يجرى الترتيبات اللازمة لقدوم حليم باشــا الى مصر(٣٠) ويتصــل بالعرابيين من أجل ذلك ، كمــا أنه كان ينشر الشــائعات بين الأهالى بخصوص موافقة السلطان والدول الأوربية على تولية حليم باشا وعزل توفيق(٣١) ، وكانت الأميرة زينب هانم شقيقة الأمير حليم ترسل اليه «مبالغ وافرة بحوالات على يد وكيلها عثمــان فوزى باشــا لأجل أن يدفعها لكبار رجال الحزب الوطنى حتى يكونوا مع حليم باشا » وكان حسن موسى العقــاد يقــدم هــذه المبــالغ فى شــكل هــدايا(٣٢) . مودعة به من جانب الأميرة زينب هانم وعثمان فوزى لحســاب حسن موسى العقاد ولتكون هذه الأموال تحت تصرفه من أجل استخدامها فى الاعداد لعودة حليم الى عرش مصر(٣٣) .

وقد يدفعنــا اتصــال حسن موسى العقــاد بالبرنس حليم الى التساؤل عن الطريقة التى تم بها ذلك ؟

الواقع أن حسن موسى العقاد كان ضمن أعضاء جمعية المعارف التى تكونت فى عام ١٨٦٨ ، وأنه عن طريق محمد عارف باشا رئيس هذه الجمعية تمت الاتصالات بين العقاد وغيره من أعضــاء الجمعية بالبرنس حليم(٣٤) .

---

(٢٠) محافظ الثورة العرابية ، محفظة رقم ١٠ دوسيه ١٢٣/ب .
(٢١) نفســه .
(٢٢) اسماعيل سرهنك : المرجع السابق ج ٢ ص ٤١٣ .
وللامثلة على ذلك انظر : محافظ الثورة العرابية ــ محفظة رقم ١٠ دوسيه ١٢٣/ب .
وأيضــا :
Broadley : How We Defended Arabi and his Friends p. 359.
(٢٣) د . لطيفة سالم : القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية . القاهرة الهيئة العامة للكتاب ١٩٨١ ص ٣٤٦ .
(٢٤) الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٤٤ .

وقد ترددت الشائعات بأن عزل الخديو متفق عليـــه بين نواب الأمة ، وأن هؤلاء النواب سوف يصدرون قرارا من الأمة المصرية بخلعه وتنصيب حكومة جمهورية يكون عرابى رئيسها(٢٥) • وقال البعض أن الباب العالى سيقوم بتنصيب الأمير عباس حامى نجل الخديو توفيق مع تعيين قائمقام ينوب عنه فى الوزارة ، وذهب البعض الآخر الى أن الدول الأوربية عدا فرنسا ترغب فى اعادة الخديو السابق اســماعيل الى الحكم(٢٦) ، وقال آخرون أن البرنس حليم هو الذى سيعين خديويا على مصر والدول الأوربية موافقة على ذلك عدا انجلترا(٢٧) وان البرنس حليم سيصل من الآستانة الى القاهرة(٢٨) بعد اقناع انجلترا بذلك ،

---

(٢٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة رقم ٨ دوسيه ٧/٢/٥٣ .

(٢٦) محافظ الثورة العرابية : المحفظة السابقة الذكر .

والواقع أن الشائعات حول عودة الخديو السابق اسماعيل قد ترددت فى تلك الفترة ، وقد ذكرت هذه الشائعات إن اسماعيل اعتزم العودة الى مصر بتأييد من الأجانب ليعلن استقلاله ، كما أنه حرض الشريف عبد المطلب لاعلان خلافته فى الحجاز ، وأنه أرسل شخصا اسمه واصف الى لنـــدن لشراء أسلحة .

انظر : محافظ أبحاث ، محفظة ١٦٤ عابدين ــ ملف ثابت باشـــا مذكرة من ثابت باشا بتاريخ ٧ محرم ١٢٩٩ .

كما ذكرت شائعة أخرى أن شخص اسمه بارات أوفد من طـرف اسماعيل الى مصر ، وهناك شائعة تذكر أن اسماعيل أرسل أسلحة الى جمارك مصر .

محافظ أبحاث ــ محفظة ١٦٣ عابدين ــ ملف ثابت باشا . تلغراف من الخديو الى ثابت باشا .

ويذكر أحمد شفيق أن المسيو ماكس لافيزون الفرنسى ، والشـــيخ البحراوى من العلماء ، ومحمد راتب السردار وغيرهم كانوا يسعون لاعادة اسماعيل الى عرش مصر .

أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ القاهرة ــ مطبعة مصر ١٩٣٤ ص ١٢٣ .

(٢٧) محافظ الثورة العرابية ، محفظة رقم ١٠ دوسيه ١٢٣/ب تحت عنوان الأوراق المضبوطة لدى حسن موسى العقاد .

(٢٨) نفســـه .

وذهب البعض الى أن عثمان باشا نجل الامير مصطفى فاضل قد ذهب الى أوربا لاقناع بعض دولها على تقليده عرش الخديوية موضـحا أحقيته فى ذلك[٢٩] .

والواضح أن أكثر الشائعات ذيوعا كانت الشائعة الخاصة بحضور البرنس حليم الى مصر فقد كانت هذه الشائعة تقع بين الناس موقـع القبول والصدق ، وكانوا ينتظرون حصولها من وقت لآخر[٣٠] وساعد على ذلك أن البرنس حليم كان له اتباع كثيرون فى مصر يروجون له بين الناس هذه الشائعات[٣١] حتى بلغ امر بأن تبنى دعوتهم أحد علمـاء الازهر وهو الشيخ عليش مفتى السادة المالكية الذى طالب بالدعوة الى تعيين حليم باشا خديويا على مصر بدلا من توفيق[٣٢] .

ونتيجة لتداول الشائعات ضد الخديو توفيق فى مصر أبلغ الخديو قناصل الدول بالموقف وأوضح لهم أن أخبارا وصلته تبين أن العسكريين ينوون عزله واعلان حليم باشا خديويا على مصر[٣٣] .

كما أرسل الخديو تلغرافا الى الاستانة يعبر عن استيائه من هذه الشائعات ، ويؤكد وثوقه كل الثقة « بالحضرة السلطانية وبجميع أركان دولته العظام » . كما أوضح الخديو فى تلغرافاته أن « حليم باشـا مكروه ومبغوض عند جميع أهل مصر ، ومعروف عند جميع العلماء بأنه

---

(٢٩) محافظ الثورة العربية ، محفظة رقم ٨ دوسيه ٥٣/د/٧ .

(٣٠) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٠ دوسيه ١٢٣/ب .

(٣١) محافظ أبحاث . ملف ثابت باشا ، تلغراف من الخديو الى ثابت باشا فى ٥ محرم ١٢٩٩ .

(٣٢) محافظ أبحاث ، محفظة ١٦٣ عابدين ، تلغراف بتاريخ ٦ يونية ١٨٨٢ .

(33) Blunt : Secret History of the English Occupation of Egypt London p. 297.

لا دين له[٣٤] وأن العلماء فى مصر قد عقدوا اجتماعا أوضحوا فيه ذلك[٣٥] ثم عبر الخديو عن خضوعه وولائه التام للسلطان حتى ذكر أنه « راغب فى أن يمسح وجهه فى تراب قدمى جلالة السلطان »[٣٦] .

والواضح أن السلطان عبد الحميد لم يكن لديه أى نوع من الثقة فى الخديو توفيق ، وانه كان يرغب فى احلال حليم محله[٣٧] ، وقد ساعد على ذلك وجود حليم فى الاستانة واتصالاته برجال المابين .

ومن وثائق الثورة العرابية يتضح أن مجلس النظار العثمانى اجتمع للنظر فى مسألة عزل الخديو توفيق ، وتولية البرنس حليم وبعد المداولة فى هذا الأمر استقر الرأى على وجوب خلع الخديو توفيق من الخديوية المصرية وتولية البرنس حليم ، وتم عمل قرار فى هذا الخصوص ولكن معارضة فرنسا الشديدة لتدخل السلطان فى شئون مصر[٣٨] واقتراحها بعقد مؤتمر فى الاستانة لتسوية المسألة المصرية ، وموافقة انجلترا على هذا الطلب جعل السلطان يعدل عن قرار عزل الخديو توفيق ويحتفظ بالأحوال الراهنة فى مصر حتى لا يعطى للدول الأوربية مجالا للتدخل ، فقد اعتبر أن المسألة المصرية مسألة داخلية لا يصح لفرنسا أو انجلترا التدخل فيها ، وعلى ذلك رفض السلطان اقتراح عقد مؤتمر فى الاستانة ، وقام بتأييد سلطة الخديو توفيق حتى يثبت للدولتين أن الأحوال فى مصر مستقرة .

ولكى ينال البرنس حليم موافقة الدول الكبرى على تعيينه خديويا

---

(٣٤) دار الوثائق : محفظة ١٣٠ أبحاث . التلغرافات الواردة .

(٣٥) محافظ أبحاث ، المحفظة ١٠٦ كراسة طلعت باشا ص ٢ .

(٣٦) نفسه ، برقية رقم ١٤ ص ١٩ .

(37) Blunt : op. cit., p. 305.

(38) Ibid p. 262.

على مصر ، قام هو وزوجته بزيارة السفارات الأجنبية بالاستانة[٣٩] • وعرض آراءه ومقترحاته حول الحالة الحاضرة فى مصر[٤٠] •

ونتيجة لذلك تباحثت الدول فى أمره[٤١] حتى وصل الأمر أن دى فريسينيه كتب بصفة سرية الى جرانفيل يقترح عليه استبدال توفيق بالبرنس حليم ، ولكن هذا الاقتراح رفضه جرانفيل[٤٢] كما أن النمسا وألمانيا وجدا أن العلاج الناجح لحل المسألة المصرية هو استبدال توفيق بحليم خصوصا وأن المصريين كانوا سيقبلون هذا الوضع بارتياح[٤٣] فعدد كبير منهم كانوا يعرفون أن حليم شخص أكثر ذكاء وأسمى فى آرائه السياسية والليبرالية من توفيق[٤٤] وبرغم ذلك فان العرابيين لم يعتبروا تولية حليم الحل الأمثل للموقف فى مصر[٤٥] •

وحاول حليم السفر الى أوربا لعرض قضيته والتباحث فى أمر تعيينه خديويا مكان توفيق لكن السلطان رفض السماح له بالسفر[٤٦] مما سر توفيق ، واعتبر ذلك بمثابة بعد نظر وسداد رأى من جانب السلطان[٤٧] فأرسل الى السلطان يعبر عن شكره على كريم عطفه

---

(٣٩) محافظ أبحاث ، محفظة ١٦٤ عابدين ، برقية من ثابت باشا الى طلعت باشا •

(٤٠) البرقيات المتبادلة بين القاهرة والاستانة اثناء الثورة العرابية برقية من القبوكتخدا بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٨٨١ •

(٤١) محافظ أبحاث ، محفظة ١٦٤ عابدين من ثابت باشا الى طلعت باشا •

(٤٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ج ١ ص ١٢٣ •

(43) Blunt : op. cit., p. 276.

(44) Ibid p. 262.

(45) Ibid.

(٤٦) محافظ أبحاث ، محفظة ١٦٤ عابدين • من ثابت باشا الى طلعت باشا •

(٤٧) محافظ أبحاث ، محفظة ١٦٣ عابدين ، برقية من الخديو الى ثابت باشا بتاريخ ١٦ محرم ١٢٩٩ هـ •

ولطفه ، موضحا أنه يريد أن يمرغ وجهه ونظره فى تراب الاعتاب السلطانية حتى يفوز بالشرف[٤٨] .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل كان قادة الثورة العرابية على اتصال بالبرنس حليم ، ومستعدون لتوليته اريكة الخديوية بعد عزل توفيق ؟

أوضح سليم النقاش أن عرابى لم يرتبط بأى صلات مع البرنس حليم[٤٩] .

كما ذكر الرافعى أنه عندما تكلم البعض مع عرابى فى ذلك الموضوع « صرح غاضبا بأنه من الواجب التخلص من أسرة محمد على بأكملها »[٥٠] .

والواقع أن عرابى لم يكن ينتمى الى مجموعة حليم فى مصر ، وفى نفس الوقت لم يكن يعارضها خصوصا بعد أن ظهر انحياز الخديو للانجليز[٥١] لذلك تمت اتصالات سياسية بين العرابيين وحليم ، وكان من رأى العرابيين اتخاذه كورقة سياسية يمكن استعمالها فى الوقت المناسب ويؤكد وجهة نظرنا أن الخديو توفيق قد أكد فى برقية منه الى ثابت باشا أن عرابى وبعض أمراء الآلايات تقابلوا مع مندوب البرنس حليم ، كما أنه قد حدثت مقابلات أيضاء بين رفقاء عرابى وحليم باشا[٥٢] .

---

(٤٨) نفسه .

(٤٩) سليم النقاش : مصر للمصريين جـ ٧ .

(٥٠) الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، القاهرة — النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ص ٢٦٤ .

(51) Blunt : op. cit., p. 262.

(٥٢) محافظ ابحاث !! المحفظة ١١٦ تلغراف من الخديو الى ثابت باشا بتاريخ ١٤ فبراير ١٨٨٢ .

وتوضح وثائق الثورة العرابية أن محمود سامى البارودى اتصل بعثمان باشا فوزى أحد أعوان البرنس حليم وسأله عن سن حليم باشا وطلب منه صورة له فأعطاه ثلاثة رسومات احتفظ البارودى بواحدة وأعطى لعرابى واحدة أما الصورة الثالثة فاعطاها البارودى لأحد الضباط[٥٣] .

وقد أكد ميخائيل شاروبيم أن البرنس حليم تقرب من عرابى ورجاله بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة عن طريق أحد خدام بيت أبيه حتى « يستفزه الى نصرته برد تاج الوراثة اليه .. وكان عرابى يسايره ويتكلف فى الرد عليه ويمنيه بالأمانى الكثيرة »[٥٤] .

ومما يوضح أن العرابيين كانوا على اتصال بأعوان البرنس حليم كما أنهم لم يستبعدوا تماما فكرة تعيينه على الخديوية المصرية مكان الخديو توفيق اذا اضطرتهم الظروف الدولية الى ذلك ، فكان تولية حليم هو أحد البدائل أمامهم ، وورقة سياسية يلعبون بها أمام كل من الخديو وأوربا . فعندما احتدم النزاع بين الخديو والعرابيين حول التصديق على الأحكام الصادرة على الضباط الجراكسة فى المؤامرة الجركسية ضد العرابين جاهر بعض العرابيين برغبتهم فى خلع الخديو توفيق وتعيين البرنس حليم مكانه .

وبعد استقالة وزارة البارودى كتبت عرائض فى منزل عرابى وقع عليها الأهالى بخلع الخديو وتعيين البرنس حليم[٥٥] .

---

(٥٣) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٣ دوسيه ٢٣٠ جـ . محضر استجواب عثمان باشا فوزى وكيل دائرة دولتلو زينب هانم وأنجه هانم .

(٥٤) ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث جـ ٤ . القاهرة ، المطبعة الاميرية ص ٢٧٣ .

(٥٥) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٦٧ ، اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ ص ٣٨٩ .

ولما تطورت الأمور بين عرابى والخديو توفيق الى الحد الذى رفض فيه عرابى تنفيذ أوامر الخديو واتهمه بمخالفة الشرع والقانون هدد العرابيون بالدعوة الى أن يحل حليم مكان توفيق .

واستمر العرابيون يتخذون من حليم باشا ورقة للمساومة ولكن نتيجة لتطور الأمور وانكسار الثورة العرابية واحتلال الانجليز مصر أصبحت السيطرة الحقيقية فى يد المعتمد البريطانى واستند الخديو توفيق على ذراع انجلترا القوى فأصبح فى مأمن من مؤامرات الاستانة، وبذلك حسم الصراع لصالحه .

وابتعد حليم عن الشئون المصرية ورضى بتعيينه عضوا فى مجلس شورى الدولة بالاستانة(٥٦) ، وبعد تولى عباس الثانى اريكة الخديوية المصرية عام ١٨٩٢ قام بتحسين العلاقة مع البرنس حليم وكان يزوره فى الاستانة كلما سافر الى هناك(٥٧) وظل حليم مقيما فى الاستانة حتى أدركته المنية فى يونية ١٨٩٤ ، فأمر الخديو بنقل جثمانه الى مصر حيث دفن فى مقابر العائلة الخديوية(٥٨) .

---

(٥٦) الياس زاخورة : المرجع السابق ج ١ ص ٥٤ .

(٥٧) أحمد شفيق : المرجع السابق ج ٢ ص ١٠٠ .

(٥٨) د. رءوف عباس حامد : مذكرات محمد فريد . القسم الأول ــ تاريخ مصر من ابتداء ١٨٩١ . القاهرة ــ عالم الكتب ١٩٧٥ ص ٢٠٦ .

الصراع العسكرى بين الدولة العثمانية وبريطانيا

فى مصـــر

(١٩١٤ ــ ١٩١٨)

د٠ لطيفة محمد ســالم

جامعة الزقازيق ــ فرع بنها

مع بداية القرن العشرين نمى العداء بين الدولة العثمانية وبريطانيا وذلك منذ أن أحست بريطانيا بتفوق النفوذ الألمانى فى الدولة العثمانية، تلك التى أيقنت بانحيازها تجاه الجانب الألمانى ستتخلص من الامتيازات الأجنبية التى أطبقت على صدرها ، بل وستسترد قوتها التى يمكن بهـا أن تقف أمام أعدائها ، وأن تستعيد ممتلكاتها التى فقدتها ، وتصــبح سيدة الشرق والزعيمة الحقيقية للخلافة الاسلامية • وبعد ذلك الاختيار الذى مالت اليه كان لابد من التنفيذ •

وباعلان الحرب العالمية الأولى ساءت العلاقة بين البلدين خاصة بعد تلك الاجراءات التى اتخذتها كل منهما تجاه الأخرى فى المجــال البحــرى •

واشتغل الساسة الألمان والأتراك بمسألة مصر والسعى فى ضرورة انتزاعها من أيدى بريطانيا ولذا كان عليهم أن يحققوا ذلك عن طريق الحرب ، وأعدت الخطة التى شملت الزحف على جميع الجهات المصرية فى الشرق والغرب والجنوب •

أولا — الحملة العثمانية الأولى على قناة السويس .

بعد أن رئى ضرورة اعلان الموقف صراحة بحتمية الاستيلاء على مصر تعانقت المصالح العثمانية والألمانية من أجل تحقيق المصلحة . فالدولة تواقة وبكل رغبة فى اعادة مصر اليها خاصة وأن هناك من سيقدم لها المعونة لتحقيق ذلك وكثيرا ما كان يتردد على مسامعها قول الامبراطور الألمانى « خذوا مصر فليس أمامكم سوى قناة السويس تجتازوها »[١] . كذلك فان فى الحملة أحداث الارتباك لبريطانيا والسيطرة على قناة السويس الشريان الحيوى للامبراطورية البريطانية ، وهذه النقطة راقت ألمانيا التى كثيرا ما رأت ضرورة ضرب بريطانيا عن طريق مصر ولطالما دارت بخلدها هذه الفكرة . ومن هنا كان اللقاء فى ضرورة اصابة المواصلات البريطانية بالشلل وبذلك يكون من السهل التأثير على موقف انجلترا السياسى ازاء أملاكها هذا من ناحية ، وارهاقها من الوجهة الاقتصادية بعد تحويل طريقها الى رأس الرجاء الصالح[٢] من ناحية ثانية ، ومنعها من تجميع واعاشة احتياطى استراتيجى كبير وهو ما كانت تأمل أن تجمعه فى مصر واعاقتها فى تنفيذ تعهداتها فى الجبهة الغربية من ناحية ثالثة . ويجب أن نذكر أن ألمانيا نفسها كثيرا ما راودتها فكرة السيطرة الألمانية على مصر واحلال نفسها محل بريطانيا . .

أظهرت كل من الدولة العثمانية وألمانيا للمصريين فى الاستانة أن الهدف من تكوين حملة على مصر هو ارجاع الحالة فيها الى ما كانت عليه قبل الاحتلال الانجليزى والاحتفاظ لمصر بالامتيازات التى خولتها لها الفرمانات[٣] . وصرح السفير الألمانى فى الاستانة بأن طرد الانجليز من مصر لا يترتب عليه جعلها ولاية عثمانية بل انها ستكون مستقلة فى اعمالها الداخلية وانما عليها أن تستأذن الباب العالى فى بعض المسائل

---

(١) على فؤاد : الحملة المصرية ، ص ٤٤ .

(٢) الاهرام ٤ فبراير ١٩١٦ .

(٣) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٣ ، ص ص ٢٣ ، ٢٨ .

الخارجية ، وأن تحفظ فيها الامتيازات الخديوية ، وأن تكون مصر بالنسبة للدولة العثمانية كبفاريا بالنسبة لألمانيا[٤] .

وهناك يجب أن نذكر بأن الآمال تراودت واتسعت بامكانية ثورة المصريين على الانجليز ومساعدتهم للحملة أثناء زحفها على أرضهم .

وبالرغم من استعدادات الدولة لهذا المشروع فان الصدر الأعظم انكــر قطعيا للسفير الانجليزى قصد الهجوم على مصر ولكن جاءت التقارير من شبيتهام بمصر الى جراى لتؤكد حتمية الحملة العثمانية على مصر ، ففى ٢٤ سبتمبر ١٩١٤ أرسل اليه يقول « ان بعض العــربان السوارى المتسلحين اجتازوا الحدود المصرية ويقال انهم محرضون من الجنود العثمانية ، وان خط الحجاز محفوظ لمرور العساكر » ثم كتب فى ٢٥ سبتمبر عن التجهيزات العثمانية « ان ألفين من العساكر مروا على غزة فى ليلة ١٩ سبتمبر ومعهم مهمات حربية متجهين الى الحدود عن طريق شاطىء البحر » وفى نفس التاريخ يقــول « ان شخصين ألمانيين من مستخدمى سكة بغداد أحدهما من الخبــراء العالميين فى العمليات الفقاعية ووضع الألغام تركا حلب فى صباح اليوم قاصــدين الشام ، وأخبر الثانى خادمه أنهما فى الطريق للعقبة وكان معهما ألف وستمائة خرطوشة من الديناميت وألف وخمسمائة مترا من الأســلاك المفرقعة » ، وفى تقرير له فى ١٥ أكتوبر يسجل « أرسل جملة ضباط ألمان الى بر الشام لملاحظة الجنود هناك وتعليمهم لأجل الحرب ولجمع المهمات واللوازم وتجهيز خطوط المواصلات وأخــذ التدابير اللازمة للدفاع عن الشاطىء » وفى ١٦ أكتوبر يبلغ لندن « أن حكومة يافــا المحلية وزعت عشرة آلاف بندقية على العرب واستخدام بعض العربان فى حفر الآبار وبأن المحل المقصود الآن هو العقبة »[٥] .

---

(٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ .

(٥) ادوارد كوك : تلخيص أسباب انقطاع العلاقات الودية بين بريطانيا العظمى والدولة العثمانية المدونة بالمكاتبات الرسمكة المنشــورة من وزارة الخارجية البريطانية بلندن صص ١٤ ، ١٥ .

ومضت الدولة فى تعبئة جيوشها وراحت بريطانيا تلفت نظرها أمام تلك الاجراءات التى تتخذها وانها مسئولة امام الدول على سلامة قناة السويس ، كما أنها عددت الخطوات التى تقوم بها الدولة تمهيدا للحملة على مصر ، وحذرت من محاولات اثارة المصريين(٦) . ولم يفت ذلك فى عضد الدولة وراح الجناح العسكرى الألمانى يتعاون مع عسكريها فى وضع الخطط للغزو المشترك لمصر .

وظهر جليا الاتجاه الألمانى العسكرى الذى مثله Van Saunders اذ رأى ضرورة حجز أكبر قوة بريطانية فى مصر والعراق وذلك للوقوف أمام الوصول الى منطقة العمليات الرئيسية ، وأن مجرد تهديد القناة سيضطر البريطانيين لتركيز قوات كبيرة فيها للدفاع .

وحاولت الاستانة استغلال وجود عباس لديها لاشراكه فى الحملة وذلك حتى يسهل لها الأمر عند دخول مصر ، وكان ذلك وفقا لرغبة المصريين فيها ولكن بعد التفكير وعند الاعداد النهائى للحملة استقر رأى الدولة على استبعاد عباس حيث كان يخشى أن « يحدث اتفاق بين العساكر الشامية والخديو والمصريين ، فلذا كان الصدر يريد ابعاده عن القيادة »(٧) .

ويرجع محمد فريد أسباب ذلك الى أن أنور باشا كان يخشى تداخل عباس فى القيادة لعدم استعداده العسكرى ، وكان يرى ألا يسافر الا بعد أن يتم النصر للجيش العثمانى(٨) وأخيرا رأى أنور باشا أن يكون جمال باشا هو القائد .

طلب جمال باشا من عباس خرائط مصر فرفض الأخير وتأكد رفضه عندما علم أن ما أبداه من ضرورة تعيين عمه البرنس ابراهيم حلمى فى

---

(٦) نفس المصدر ، ص ١٦ .
(٧) أحمد شفيق : المرجع السابق ، صص ٣٨٨ ، ٣٨٩ .
(٨) محمد فريد : مذكرات مخطوطة ، الكراسة الثالثة ، ص ٩٧ .

الحملة ليدخل مصر نائبـا عنه قد قوبل بعدم الرغبـة من الجـانب التركى[٩] •

وقع الاختيار على Kress van, kressentien الألمانى ليكون رئيسا لهيئة أركان الحرب فى الحملة ومنذ اللحظة الأولى راح يدب الحماس فى الجنود « حماتكم ستزحف على سيناء وتجتاز الحدود المصرية فاذا وصلتم الى القناة لن يبقى أمامكم الا بضع ساعات ، فلا تدعو أقل فكرة فى الارتداد تخطر ببالكم ، واذا ارتدتم عن القناة فاعلموا انكم ستلاقون الموت الذى لا مفر منه ان لم يكن من الصحراء فمن يد الجيش الاحتياطى الذى يسير وراءكم »[١٠] •

كان الجيش العثمانى منظما على أسس خمس عشرة فرقة ، وشمل خليطا من الأجناس أرمن ، كرد ، سوريين ، شراكسة وهم على قسط ضئيل من التعليم فيستطيعون القراءة والكتابة وفهم الأوامر الصادرة اليهم من رؤسائهم[١١] • وبالرغم من وجود حوالى الثلاثة آلاف من العسكريين الألمان[١٢] الا أن الجيش العثمانى لم يكن قد أعد الاعـداد الكامل للحرب ، هذا بالاضافة الى أنه كان من العسير على هذا الجيش فهم العقلية الألمانية التى تميل الى الدقة والنظام •

وفى أكتوبر ١٩١٤ كان الفيلق التركى الثامن بقيادة جمال باشا مكونا من ثلاث فرق تصحبه بعض قوات من الفيلق الثانى عشر وقوات الخط الثالث يتخذون من سوريا قاعدة لهم[١٣] •

---

(٩) نفس المصدر ، ص ١٠٢ •

(١٠) الاهرام ٨ فبراير ١٩١٥ •

(11) Kearsy : The operation in Egypt and Palestine, p. 3.

(١٢) الاهرام ٢٩ يناير ١٩١٥ •

(13) Wavell : The Palestine compaigns, p. 28.

وتألفت الطليعة من فرقة رديف عربية أخذت من بدو شبه الجزيرة بلغت عدتها ما بين ثمانية وعشرة آلاف وحشدت بين القدس والعقبة ولم تكن مدربة على الفنون العسكرية[١٤] .

وألحقت بالحملة الفرقة العاشرة وبعض المدفعية الثقيلة وبراطيم وقولات ذخيرة[١٥] ، وجهزت بعجلات عرض دائرتها ٦ بوصة ، والقصد من تعريضها توزيع ثقل المدافع فلا تغرز فى الرمال ، وكان بصحبتها ثمانية آلاف جمل ، ألفان منها لجر الأحمال التى وضعت فى مركبات زحافة على الرمل وستة آلاف لحمل الزاد والذخيرة ، وكان معها جسر مؤلف من ستة وثلاثين زورقا حديديا لمده على قناة السويس[١٦] .

وصحب الحملة طلبة مصريون كانوا قد حضروا من لندن وقت اعدادها وتقدموا الى وزارة الحربية العثمانية للتطوع فى القسم الطبى للحملة[١٧] . وقبل أن تمضى الحملة فى طريقها كان اللقاء بين قائدها وأفرادها والذى تردد فيه ضرورة تحرير مصر وديعة الاسلام من أيدى المغتصبين الانجليز[١٨] ، كما أعلن القائد انه لن يعود الى عاصمة بلاده قبل أن يدخل القاهرة[١٩] وأعقب ذلك بأن أصدر أوامره بخصوص المكافآت التى ستصرف لمن يقع فى ميدان الحرب سواء أكانت عالية أو رتب عسكرية أو أشياء عينية[٢٠] .

---

(١٤) تاريخ الحرب العظمى ، ج ٧ ، ص ٤٦ ،
Manifold : An out line of The Egyptian and Palestine Compaigns 1914 — 1918, p. 7.

(15) Ibid, Kearsy : op. cit., p. 2.

(١٦) تاريخ الحرب العظمى : المرجع السابق .

(١٧) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ٣٩٠ .

(١٨) جمال باشا : مذكرات ، ص ٢٣٧ .

(19) Elgood : The transit of Egypt, p. 218.

(٢٠) الاهرام أول نوفمبر ١٩١٥ .

وفى ١٥ نوفمبر ١٩١٤ كانت هناك قوة من الأتراك تبلغ حوالى خمسة آلاف من المشاة ، وثلاثة آلاف من البدو المساعدين قد وصلت الى العريش ، ولم يمض الا أبعة أيام الا وكانت فى العبد وانتقلت منها الى بيرالنوس ، وعندما علمت الاستانة بهذا التقدم أعلنت أن احتلال قناة السويس قد تم[٢١] . كذلك أرسلت قوة تركية فاحتلت العقبة فى ١٧ نوفمبر وثبتت الألغام فى خليجها ، ومنذ ٢٠ نوفمبر بدأ المناوشات على الحدود بالقرب من العريش مع حرس الحدود ، وتمكن الأتراك من أسر كتيبة مصرية ، وقد استشهد الملازم محمد أنيس فى هذه اللقاءات[٢٢] .

وفى يناير ١٩١٥ تجمعت القوات فى بيرشيبا التى اختيرت كقاعدة للتقدم وهى على حدود الصحراء الفاصلة بين مصر وفلسطين ، وكانت الخطة التركية هى التقدم تجاه القناة وكان لدى جمال باشا نحو مائة ألف من القوات فى الشام ، وكان عليه أن يختار بين الطرق الثلاثة : الأول وهو الطريق الساحلى من العريش مارا ببير العبد وقاطية الى القنطرة ، والثانى هو عبر تلال سيناء ويمتد من بير شـــيبا والعوجة مارا بالحسنة والجفجافة وبيرحمه ووادى المخشب الى الاسماعيلية ، والثالث هو طريق الحجاج من القسيمة ونخل الى السويس[٢٣] .

أنيط الزحف على القناة بالفرقة الخامسة والعشرين مضافا اليها كتيبة من الضباط والجنود أما عن الفرقتين الثامنة والعاشرة ، فاحداهما لمهاجمة القناة والأخرى للقيام بالخفارة . وكان على القلب أن يتوجه من بير سبع الى الاسماعيلية ، والجناح الأيمن يتبع طريق غزه ــ العريش ــ

---

(21) Manifold : op. cit., p. 11 .

(٢٢) لمزيد من التفصيلات : العدل ٢٥ نوفمبر ١٩١٤ ،
The Times, Nov. 25, 1914

(23) Tonnele : L'Angleterre en Miditeranne, p. 163, Hallberg : The sues canal, p. 341, Wavell : op. cit., p. 29, Manifold : op. cit., p. 8.

القنطرة ، أما الجناح الأيسر فعليه أن يسير من قلعة النخل والسويس ، ولم يتيسر لمعظم الجيش محازاة الساحل بسبب قبض البريطانيين على زمام السيادة البحرية ، ولم يكن له غير الامعان فى قلب الصحراء بدون طرق واضحة ولا خريطة منظمة (٢٤) .

كان الطريق الرئيسى اذن هو طريق الوسط وقد اجتيز بقوة قدرت بستة آلاف من المشاة وبعض المدفعية والبراطيم فى مواجهة سيرا بيوم وطوسوم ، وقد وضعت قوة مماثلة فى مواجهة معدية الاسماعيلية . أما بالنسبة للشمال فقد أنيط لثلاثة آلاف من المشاة ومعهم بعض الفرسان وبعض المدافع فى مواجهة القنطرة والفردان ، كذلك فى الجنوب وجد ثلاث كتائب وبطارية مدفعية جبلية (٢٥) .

وصمم جمال باشا على أن يستعمل الطرق الثلاث للوصول الى قناة السويس ، فالطريق الساحلى خصص له كتيبتان وبعض الفرسان ووحدة من المدفعية يتألف مجموعها من ثلاثة آلاف جندى ، والطريق الأوسط عبر سيناء فجعل الهجوم منه لأنه ـ وكما سبق القول ـ أقل تعرضا لسفن الأعداء كما أنه أقل الطرق احتمالا للهجوم فى نظر البريطانيين ، هذا بالاضافة الى أن سطح هذا الطريق أصلب من الطريق الشمالى ، وأخيرا فان مدينة الاسماعيلية والترعة الحلوة تقعان فى نهاية هذا الطريق وعليه فالأمر سهل للقاهرة ، فخصصت له ست كتائب من المشاة والمدفعية الثقيلة ووحدات الكبارى ، أما الطريق الأخير من نخل الى السويس فقد خصص له ثلاث كتائب وبطارية مدفعية جبلية (٢٦) .

وفى ١٣ يناير ١٩١٥ وصلت القوات الزاحفة الى العوجة والقسيمة ، ووصل الى بير العبد سبعمائة جندى تقدموا تجاه دويدار وهاجموا نقطة

(٢٤) على فؤاد : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(25) Kearsy : op. cit., p. 9

(26) Ibid, p. 41.

التل وأصبحوا فى طريقهم للقنطرة ، ووصل الجناح الأيمن الزاحف من العريش تجاه القنطرة ، بينما الجناح الأيسر تقدم ووقف مقابل السويس، وراح جمال باشا يشجع جنوده ويحثهم على الجهاد فى سبيل الله وراحت الموسيقى والأغانى تردد « الراية الحمراء تخفف فوق القاهرة » [٢٧] •

من هنا نرى أن الأتراك أصبح لهم أربع نقاط ارتكاز فى سيناء ومنها تقدمت طلائعهم نحو القناة ، الأولى فى بير قطية — تبعد عن القنطرة ٤٧ ك • م — والثانية فى بير الدوار — على مسافة قريبة من السابقة — والثالثة فى مياة حاراب على بعد ١٠٠ك•م جنوب الاسماعيلية— والرابعة فى بير مابيوم — بين السويس ونخل ، وبذلك تحكموا فى جميع تلك الطرق [٢٨] •

كانت العوامل المتحكمة فى اختيار الطرق تتوقف الى حد كبير على المياة وعلى التسهيلات المتوافرة لنقل المدافع ، لذا كان قرار الأتراك فى استعمال الطريق الأوسط للتقدم منه صوب القناة • وفى ٢٦ يناير ١٩١٥ تقدمت القوات وراحت تزداد وتم الاستيلاء على القنطرة [٢٩] واعتقدوا أنه بنجاح هجماتهم سيكون بالامكان قطع السكة الحديدية التى تصل القناة بالنيل ويصبح الطريق سهلا للقاهرة •

واذا انتقلنا على الأرض المصرية نجد أن القيادة العامة للقوات البريطانية فى يد جون مكسويل وهو لم يكن غريبا عن مصر اذ قضى بها ثلاثين عاما [٣٠] ، ومن هنا راح يخطط للأعمال الحربية ، فجعل الدفاع عن منطقة القناة مستقل وجعل مقره الاسماعيلية وقائده جنرال

---

(٢٧) جمال باشا : المرجع السابق ، ص ٢٦٣ ،
Manifold : op. cit., p. 12.

(٢٨) الاهرام ٤ فبراير ١٩١٥ •

(29) Manifold : op. cit.

(30) Wavell : op. cit., p. 25, Arthur : Life of lord Kitchener, vol. III, p. 96, Ma-cmunn : Military operation, p. 127.

ولسون [٣١] وعندما رأى أن تلك المنطقة ممتدة امتدادا طويلا أمر بغمر جزء كبير منها بالمياة ما بين بورسعيد والقنطرة وذلك لحصر خط القتال ، ولم يحاول الاحتفاظ بالمنطقة الشرقية من القناة ماعدا بعض المراكز الدفاعية التى أقيمت على ضفة القناة الشرقية ، أما الغربية فقد حفرت الخنادق على امتدادها ، ونظمت الحراسة على طول القناة فى شكل داوريات [٣٢] .

كانت دفاعات القناة مقسمة الى أربع قطاعات « الشط ، الكوبرى ، جنيفة » والدفرسوار ، سيرابيوم « ثم » المعدية ، الفردان ، البلاح « وأخيرا » القنطرة ، ملاحات بورسعيد [٣٣] .

علمت القيادة البريطانية الخطط الحربية التى تحاك ضد الانجليز ، وكانت لديها كل المعلومات عن التحركات الجارية بناء على ماقامت به الوحدة الجوية البريطانية ، وتلك التقارير التى كانت تصل القيادة عن استعدادات حملة الأتراك على القناة سواء فى مسألة مخازن التموين أو عدد القوات أو الطرق المعدة لزحفهم . وبناء على ذلك وزع ولسن على القناة قواته فهناك الفرقة العاشرة والحادية عشر الهنديتين ثم لواءات الفرسان الامبراطورى وفيلق من الهجانة البيكانير ، وثلاث طوبجية مدفعية جبلية وبطارية مدفعية مصرية [٣٤] ، وصدرت الأوامر للسفن الحربية البريطانية والفرنسية — سبع بريطانية واثنين فرنسية باحتلال مواقعها المخصصة للدفاع عن القناة [٣٥] . وبذلك سهلت

---

(31) Manifold : op. cit., p. II, Douin : L'attaque du canal de suez, pp. 64, 65.

(٣٢) تقرير جون مكسويل عن الدفاع عن القطر المصرى منشور بلندن جازيت ونقلته عنها الاهرام فى ٨ يوليو والعدل فى ١٢ يوليو ١٩١٦ .

(33) Kearsy : op. cit., p. 41.

(34) Macmunn : op. cit., pp. 22, 23, Manifold : op. cit., p. 10, Wavell : op. cit., p. 27.

(35) Tonnele : op. cit., p. 163, Kearsy : op. cit., pp. 22, 42.

المراقبة وعززت قوة المدفعية ، وقللت المواجهة التى كان على الجيش المحافظ عليها بمقدار ٣٠ ميل ، ونظمت فوق ذلك لانشات مساحة يقودها رجال السلاح البحرى الملكى (٣٦) .

كانت هناك فى القيادة البريطانية وجهتا نظرا مختلفين أولهما ترى الدفاع عن خارج منطقة القناة وذلك فى صحراء سيناء وما بعدها وثانيهما يدعم فكرة ادفاع عن القناة فى منطقة القناة نفسها ، وتغلب الرأى الثانى خوفا من أن القوات قد يضعف انتشارها فى الصحراء من كفاءتها (٣٧) .

أنشىء خطان للدفاع عن القناة الأولى فى شرقيها والثانى فى غربيها والأخير خصص للدفاع الحقيقى ، أما الشرقى فكان للحراسة والمراقبة ، وأعد نظام كامل للمواصلات السلكية واللاسلكية لربط جميع النقط بمراكز الرئاسة (٣٨) .

وفى حقيقة الأمر فانه منذ اعلان الحرب ، أعدت بريطانيا للامر عدته ، فأخذت تتوافر على مصر قواتها المختلفة وخاصة من الهند ، ولم يأت آخر ديسمبر ١٩١٤ الا وكان مجموع القوات البريطانية يبلغ حوالى السبعين ألفا ، ومالبث الأمر أن ازدادت تلك الأعداد ، واستتبع ذلك أن أصبحت مصر قاعدة للعمليات الحربية للحلفاء فى الشرق الأوسط Levant Base (٣٩) .

كانت الخطة البريطانية ترى انهاك قوى القوات المهاجمة فى الصحراء ثم التربص لها على القناة ، هذا فى الوقت الذى كتب فيه مكسويل

---

(36) Manifold : op. cit., Wavell : op. cit.
(37) Rovue de deuse mondes, Jan. 1, 1926 p. 151.
(38) Hallborg : op. cit., p. 342, Kearsy : op. cit., pp. 12, 22.
(39) Manifold : op. cit., p. II, Arthur : Kitchener et la guerre, p. 127.

الى وزارة الخارجية يعلمها بخطوات الأتراك وحلفائهم ويوضح ماوصلوا اليه من ضم بدو سيناء فى الشرق واتباع السنوسى فى الغرب ويطالب ضرورة التقرب من عرب مكة واليمن حتى يتمكن من ضمان نجاح عملياته العسكرية (٤٠) .

وفى ٣٠ يناير ١٩١٥ وصلت الطلائع العثمانية الى أقرب النقط من الاستعدادات الحربية التى أقامها الانجليز على القناة ، وحدث الاشتباك الأول فى أول فبراير بين البريطانيين والأتراك على طول الطريق من سيرابيوم الى الفردان ، واستمر هجوم الأتراك عند الاسماعيلية والمعدية والكوبرى الا أن اعصارا شديدا جعل الرؤية متعذرة فتوقف القتال(٤١) .

حدد جمال باشا ليلة ٢/٣ فبراير للهجوم فجعل قوة للاستيلاء على القنطرة ، والآلاى الثامن والستين خصص للفردان والاسماعيلية ، وقوة أخرى تتركز على منطقة السويس ، وتزحف الهجانة على سيرابيوم ، هذا بالاضافة الى القوة الاحتياطية ، كما نظم مسألة المدفعية وخصصها لتحطيم سفن بريطانيا فى بحيرة التمساح (٤٢) .

ووقعت المعركة الرئيسية عند محاولة الأتراك اجتياز القناة فى طوسوم وذلك ان عقب صدور القرار التركى باجتياز القناة بواسطة كوبرى نقالة وأطواف تحت حماية المدافع تظاهرت القوات البريطانية بالضعف ــ كما يؤخذ من البلاغ الرسمى ــ حتى تمكن الأتراك من مد الكوبرى (٤٣) .

وبدأ الأتراك يعبرون القناة ، وفى بادىء الأمر خيل الى جمال باشا أنه دخل مصر ، فأبرق للاستانة بذلك وهناك وعلى الفور أقيمت

---

(40) Ibid.

(41) Kearsy : op. cit., p. 24, Manifold , op. cit., p. 12.

(٤٢) الاهرام أول نوفمبر ١٩١٥ .

(٤٣) نفس المصدر ٤ فبراير ١٩١٥ .

الزينات ورفعت الأعلام فرحة بهذا النصر [٤٤] . وأثناء الزحف كانت مدفعيتهم تطلق نيرانها على طوسوم وسيرابيوم ولكن المدفعية البريطانية ردتها ، ولعبت المدفعية المصرية دورها اذ كان الملازم أول أحمد حلمى من بين الوحدات المصرية فقام بخدعة حربية عندما ترك الأتراك يعبرون الكوبرى ، وعندما توسطت قواتهم فاجأهم بنيران مدافعه ولقى حتفه فى هذه المعركة [٤٥] .

ومن الطريف أنه كان هناك من الأتراك من اجتاز سباحة اذ كان جمال باشا قد وعد الجندى الأول الذى يركز العلم العثمانى على رأس مصر بجائزة [٤٦] ، ولكنهم أسروا فى الحال . كذلك تمكنت ثلاث براطيم وقارب من الجناح التركى من عبور القناة ولكن قضى عليهما ، وواصل الأتراك الهجوم حتى تمكنوا من الوصول الى قرب مواقع الانجليز الذين أفلحوا فى القيام بهجوم مضاد أرغم الأتراك على الانسحاب ولكنهم مالبثوا أن عادوا وردوا مرة أخرى ، ثم أعادوا الكرة وضربوا النقط البريطانية التى فتحت نيرانها عليهم ، وأخيرا وفى مساء ٣ فبراير أمر جمال باشا قواته بالانسحاب وأعلن أن ماقامت به قواته لم يكن القصد منه الا استطلاع دفاعات القناة [٤٧] ، ومما لاشك فيه أن جمال باشا قد حقق ما أراده الألمان ألا وهو احتجاز قوات بريطانية كبيرة على القناة وتأجيل حملة الدردنيل . هذا وكان الأمل مازال يسيطر عليه فى مساعدة المصريين للاتراك والذين قال عنهم أنهم سيثورون ضد بريطانيا بمجرد أن تصل جيوشه الى القناة ويقع الانجليز بين نارين العدو فى الخارج والثورة فى الداخل [٤٨] . صاحب الفشل جمال باشا

---

(٤٤) جميل جبران تودم : مذكرات معتقل ، ص ٣٧ .

(٤٥) الاهرام ٤ فبراير ١٩١٥ ، وادى النيل ٢٦ فبراير ١٩١٥ .

(٤٦) جميل جبران تودم : نفس المرجع .

(47) Wavell : op. cit, pp. 30, 31, Manifold : op. cit., pp. 12, 16, Arthur : op. cit., p. 107, Kearsy : op. cit., pp. 24, 43, 44, 45.

(48) Douin : op. cit., p. 88.

والذى تعددت وجوهه ، فلم يكن هناك احتمال للحصول على السرية والمفاجأة وذلك لطول المسافة [٤٩] ، ثم صعوبة المواصلات خاصة فى سيناء تلك التى عبر عنها مكسويل لاحد جنرالاته بأنها حليفة للانجليز وبأن نهاية الأتراك ستكون على يديها [٥٠] ، والمياه فيها قليلة حتى كان الضباط يمنعون الجند من استعمال الماء هؤلاء الذين ازدادت أعباؤهم بجر المدافع والعربات حيث ان الحيوانات كانت تغرز حوافرها فى الرمال فساءت حالتهم حتى لقد قال البعض « ان اتساخ أجسامنا وماعلق بها من البراغيث والقمل كان أشد على أنفسنا من الموت » [٥١] ، وهــذا وقد فتكت الأمراض بمعظمهم وساعدت على ذلك قلة الأطباء ونقص الأدوية وسوء التغذية [٥٢] .

وبذلك انهارت نفسية الجنود فيقول شاهد عيان « تألفت الحملة على مصر بحماس شديد فى جميع البلاد وكانت خطب الحض على فتح مصر تلقى على الناس فى كل مكان ، فخيل للكثيرين أن الحرب دينية ، وعلقت على سواعد الجند رقع كتب عليها الى مصر » [٥٣] وفى حديث لضابط عثمانى أسير يدل على ماكان مخطط له يقول « ان الألمان خدعونا خداعا مرا بقولهم أن قوة الانجليز على القناة قليلة لايعتد بها ، وأننا سنتمكن من عبور القناة بسهولة وحالما نشرف عليها يثور عرب مصر كلهم ويزحف السنوسى من الغرب على مصر بل لم يكن عندنا ريب فى أننا حالما نهاجم القناة سنجتازها ونستولى على مصر » [٥٤] .

ورغم ذلك فان المجهود الذى قام به الأتراك ــ وعلى حد قول أحد أعدائهم ــ جدير بالاعجاب فان حملة قوامها نحو خمسة آلاف من الجنود

---

(٤٩) الاهرام ٤ مارس ١٩١٥ .

(50) Massey : The desert compaigns, p. 20.

(٥١) الاهرا م١٥ فبراير ١٩١٥ .

(٥٢) جميل جبران قودم : المرجع السابق ، ص٣٦ .

(٥٣) نفس المرجع ، ص ٣٧ .

(٥٤) الاهرام ٢٦ فبراير ١٩١٥ .

تتقدم مايقرب من ١٤٠ ميلا لعمل عسكرى فى اقتحام جبهة يدافع عنها حوالى السبعين ألفا يرتكزون على قاعدة ثابتة ليعد عملا جريئا (٥٥) .

وحاول الأتراك عقب ذلك امتهان طريقة القناصة لكنها لم تثمر معهم وفشلت على الأيدى البريطانية وطلبت القيادة البريطانية فى قناة السويس من القاهرة قوات اليومنرى التى كانت مخصصة لمواجهة ما قد يحدث من ثورات فى مصر لصالح الدولة العثمانية (٥٦) وذلك لتعزيز مركزها على القناة .

وجاء بلاغ سلاح الطيران البريطانى بأن قوات الأتراك على الطريق تتقهقر ، ومالبث الأمر أن انسحبت آخر القوات الى القرب من نخل والعريش تاركة جماعة صغيرة تبلغ حوالى الأربعمائة قرب البحيرة المرة لتجبر البريطانيين على الاحتفاظ بقوات هناك .

وحدث أن أبلغ قائد الجنود الأتراك فى نخل أن الطور ليس فيها قوة تحميها فأوفدت اليها قوة من خمسين رجلاً وضابطين ألمانيين لاحتلالها ولكن عندما اتضح أنه ليس من السهل الاستيلاء عليها عززت قوتها بمائتين من الجند فاحتلوا شمال الطور ولم يتمكنوا من الاستمرار اذ انتصر عليهم البريطانيون وذلك بفضل مساعدة الأورطة الثانية المصرية تحت رئاسة مصطفى حلمى (٥٧) .

وفى ١٥ يناير ١٩١٥ عاد مركز القيادة التركى الى بير سبع ، ولم يمض أسبوع حتى أنزلت الطرادة الفرنسية « دوزية » عدد من

---

(55) Manifold : op. cit., p. 16.

(٥٦) الاهرام ٥ فبراير ١٩١٥ ،
Kearsy : op. cit., pp. 24, 25, Macmunn : op. cit., p. 48, Manifold: op. cit., p. 13.

(٥٧) الاهرام ١٤ ، ٢٥ فبراير ١٩١٥ ،
Elgood : Egypt and the army, p. 142.

البحارة عند العقبة حيث تمكنوا بمساعدة المدفعية من طرد الأتراك (٥٨)، ولم يأت أول مارس حتى كان الضباط الألمان المرافقين للحملة قد عادوا الى الاستانة (٥٩) • ليبدأوا من جديد فى التخطيط مرة أخرى •

جاءت نتيجة هذه الحملة بأن ازدادت الاحتياطات خشية تجدد هجوم آخر ، فكانت الملاحة فى القناة تعطل ليلا ، وتحتم على كل سفينة عابرة أن تحصل على تصريح من السلطة العسكرية ، وزيدت القوات فى منطقتها ، وبذلك يتضح لنا كيف أن أحكام معاهدة ١٨٨٨ الخاصة بحياد القناة قد خولفت نصا وروحا من جانب الحلفاء ، فقد حشدت انجلترا كل قواتها على القناة ، ورابطت السفن الحربية فيها ، وكان هذا خرقا لقرار الخامس من أغسطس عام ١٩١٤ فالمادة الحادية والعشرون تأتى بأن الحقوق الحربيـــة فى جميع موانى مصر لن تباشرها بريطانيا الا دن حدود أحكام المعاهدة السابقة (٦٠) • وينطبق هذا الأمر أيضا على الدولة العثمانية عندما هاجمت قناة السويس •

ولم تقتصر الاحتياطات على أرض القناة اذ انتشرت المعسكرات فى كل مكان ، ففى الاسكندرية التى أصبحت منذ بداية عام ١٩١٥ قاعدة حربية لحملة البحر الأبيض المتوسط كانت هناك معسكرات فى مصطفى باشـــا وســـيدى بشر والنزهة والقبارى والورديان ورأس التين وفيكتوريا (٦١) ،كذلك استدعيت الجند الفرنسية فوصلت الى الاسكندرية فى مارس ١٩١٥ ووزعت بين كامب شيرار والشاطبى والمكس (٦٢) •

---

(58) Macmunn : op. cit., p. 54, Kearsy : op. cit.

(٥٩) الاهرام ٤ مارس ١٩١٥ .

(60) Elgood : op. cit., p. 150.

(٦١) الاهرام ٢١ أغسطس ١٩١٤ .

Briggs : Through Egypt in war time. pp. 15, 16.

(62) La Bourse Egyptienne, 13 Mars, 1915.

وبالنسبة للقاهرة فقد خصصت المعادى للجنود الانجليز وهليوبوليس للنيوزيلانديين والأهرام للاستراليين [٦٣] ، وبالاضافة الى ذلك فقد عسكرت قوات كبيرة فى الصحراء • وأخيرا فقد استقبلت مصر كثيرا من القوات الهندية والاسترالية والأفريقية التى اتخذتها كاستراحة Half Way house لحين وصولها الى مسارح العمليات الحربية فى أوربا [٦٤] •

ثانيا : السنوسيون وتهديد غرب مصر : ـ

نجحت الدولة العثمانية فى جذب القوة السنوسية على حـدود مصر الغربية ، واستخدمتها بالتعاون مع ألمانيا ضد بريطانيا ، واعتمـدت فى ذلك على العلاقة التى تربط بين السـنوسية والجامعة الاسلامية •

ومنذ أن أعلنت الحرب تيقنت بريطانيا لذلك ، فأحكمت الرقابة على سواحل مصر الغربية خاصة بعد أن ألقت القبض على ألمان وأتراك متخفين فى زى الأعراب وبعد أن ضبطت ستة وثلاثين طرد أسلحة مهربة من حدود قسم دمياط الى الساحل الغربى ، وتبعا لذلك رصدت المكافات ـ بلغت خمس جنيهات ـ لمن يبلغ عن أى شخص تركى أو ألمانى بالساحل الغربى [٦٥] •

كذلك فرضت الرقابة على المراكب الشراعية خوفا من أن تكـون محملة اما بالسلاح أو بالمنشورات التى تروج للدعاية العثمانية والألمانية،

---

(63) Himaya : La condition international de l'Egypte depius 1914, p. 63.

(64) Arthur : life of lord Kitchener, vol II, p. 96.

(٦٥) الحكومة المصرية : دفتر كوبيا السواحل الغربية عام ١٩١٤ فى ٢٧ ، ٣٠ أغسطس ، ١٣ سبتمبر ، ٣ أكتوبر ، ٢٠ نوفمبر ١٩١٤ ، صص ٢١٠ ، ٢٥٠ ، ٢٧٥ ، ٣٧٩ ، ٤٦٥ .

فكان يكفى أن تكون المركب رافعة العلم العثمانى ، فعلى الفور تتخذ ضدها الاجراءات فقد حدث ـــ على سبيل المثال ـــ أن ضبط رجال مصلحة الحدود مركبا شراعيا حمولتها ٤٩ طن مشحونة رمانا وقادمة من قبرص تدعى « قاصد كريم » ورئيسها تركى ومعه خمسة أشخاص بصـــفة طاقم للمركب وكانت رافعة العلم العثمانى ففى الحال أوقفت ووضـــعت تحت الحراسة [٦٦] • وكانت قد ضبطت مركب أخرى تسعى فى تنزيل ديناميت على الساحل الشمالى بالجهة الغربية من الاسكندرية [٦٧] • وبذلك توصلت بريطانيا الى فهم المخطط المعادى لها •

كان للشيخ السنوسى تأثير دينى كبير ، ليس فقط فى شـــمال أفريقيا ولكن أيضا على كل قبائل العرب القاطنة فى غربى مديرية البحيرة والفيوم ، فرجالة فى تلك المنطقة أكثر من ١٢٠٫٠٠٠ رجل لذا كان يخشى من مشاغباتهم داخليا وخارجيا [٦٨] •

ونتيجة لذلك أقدم الانجليز على حركة اعتقالات واسعة النطاق فى هذه المنطقة ، هذا من ناحية وقام مكسويل بزيارات لشيوخ العرب فيها محاولة منه لضمهم لصفوف بريطانيا من ناحية أخرى •

وفى الأيام الأولى من شهر مايو ١٩١٥ ظهرت علامات تدل على أن ضغوط الحزب التركى بطرابلس تحت نفوذ نورى بك قد أخذت تظهر فى بوادر تلك الأعمال التى قام بها السنوسى ، وبدأت المخابرات بينه وبين ألمانيا تأخذ دورها الجدى وذلك بعد أن خطط أنور باشا فقرر أن يقوم السنوسيون بالهجوم على حدود مصر الغربية ليصبح الانجليز

(٦٦) نفس المصدر ، ١١ نوفمبر ١٩١٤ ، ص ١٩٩ •

(٦٧) نفس المصدر ، ٢٨ أكتوبر ١٩١٤ ، ص ٤٦٩ •

(68) Macmunn : op. cit., p. 102, Wavell : op. cit., p. 35, Dane : British Compaigns in the Near East 1914—1918, vol II, p. 13.

La Bourse Egyptienne, 16 Juillet, 1916, The Times June 22, 1916.

بين فكى كماشة بالاضافة الى تقسيم قواتهم شرقا وغربا وبذلك يصعب الصمود على أرض القناة (٦٩) ، ويكون النجاح من نصيب الأتراك .

وجاء جعفر باشا ــ صاحب الميول والتعاليم الألمانية ــ ليفاوض السنوسى ومعه كميات كبيرة من الأسلحة والمهمات الحربية والأموال الكثيرة تصاحبه وتسانده الصيحة الدينية التى كان لها صداها فى شمال افريقيا فاذا ما أعلن نداء الاسلام بالجهاد فى سبيل الله التف حول هذا النداء . وكان من نتيجة تلك المؤثرات أن تحول السنوسى كلية تجاه الأتراك وذلك بالرغم مما أقدم عليه الكولونيل « سنو » قائد الواحات الغربية من اجتنابه لعاداة السنوسى ومحاولات التقرب منه الا أن محاولاته ذهبت سدى ، وعندما رأى الانجليز ارسال السيد محمد الادريس ــ نائب السنوسى فى مصر ــ لاستمالته وأعطى له الأموال من أجل اغراء السنوسى للتخلى عن الأتراك والانضمام اليهم لم يأت هذا بفائدة (٧٠) .

وفى أغسطس ١٩١٥ التجأت غواصتان بريطانيتان الى ساحل القيروان بسبب رداءة الطقس فأطلق رجال السنوسى النيران عليهما ، واعتذر السنوسى مدعيا أن رجاله كانوا يجهلون أنهما بريطانيتان ، وواصل عداءه وعدوانه فارسل عشرة آلاف من الطوارق عن طريق الصحراء للانتقام من الانجليز فهاجموا معسكر الاستراليين وانضم اليهم مجاهدون وقطعوا السكة الحديدية وفتكوا بالكثير (٧١) .

وعندما أغرقت الغواصات الألمانية باخرتى الحلفاء « تارا ، مورينا » على سواحل طرابلس الغرب ، ماكاد نوتيتهما يصلان الى الشاطىء حتى أسرهم السنوسييون (٧٢) .

---

(٦٩) الافكار ٤ ابريل ١٩١٥ .
(٧٠) نفس المصدر ٩ يوليو ١٩١٦ ، العدل ١٠ يوليو ١٩١٦ .
(٧١) الافكار ٤ ابريل ١٩١٥ .
(٧٢) الاهرام ٨ يوليو ١٩١٦ .

أعقب ذلك أن أعلن الجهاد ضد أعداء الاسلام [٧٣] ، والوقوف مع الدولة صاحبة الخلافة الاسلامية ، هذا ومما ساعد على انضمام السنوسى لألمانيا وحلفائها دخول ايطاليا الحرب بجانب الحلفاء .

كانت خطة الأتراك والألمان أن يتقدم السنوسى لمهاجمة مصر عن طريقين الطريق الساحلى وطريق الواحات الغربية [٧٤] ، وقيام القناصة النظاميون التابعون لقوات السنوسى باغارة على مينائى السلوم والبرانى وهجموا على مراكز الحراسة المصرية وعلى النقط التى تبعد ٣٠ ــ ٥٠ ميلا شرقى السلوم . وهنا تخوف الانجليز من أن يفلت الزمام من يدهم خاصة وهم فى حالة حرب على الجبهة الشرقية ، كما أرادوا أن تكون دائرة القتال بعيدة عن الدلتا قدر استطاعتهم ، فبدأوا يسحبون القوات من المراكز الواقعة على حدود مصر الغربية الى مرسى مطروح وحشدها بالقوات الكافية للتمكن من صد السنوسيين وايقاف زحفهم ، وليكون من السهل مهاجمتهم من البر على أرض تسهل فيها المواصلات وتكثر بها المياه وتتناسب عليها حركات النقل ، هذا بالاضافة الى سهولة حماية بدو الساحل من المصريين اذا والوا الانجليز ومعاقبتهم اذا شقوا عصا الطاعة [٧٥] .

بناء على هذه الاعتبارات حشدت القوات الانجليزية فى مرسى مطروح من ٧ ديسمبر ١٩١٥ ، وأخليت السلوم وسيدى برانى وبقبق باعتبارهما من المراكز الأمامية [٧٦] وسحب باقى القوات من نقط الصحراء ، وأمنت سكة حديد الاسكندرية ــ الضبعة ، وتم احتلال وادى

---

(73) Macmunn : op. cit., p. 67.

(74) Wavell : op. cit., p. 35.

(75) Macmunn : op. cit., p. 107.

(76) Dane : op. cit., p. 14, Wavell : op. cit., p. 37, Manifold : op. cit., p. 16.

النطرون والفيوم كاجراء احتياطى ، ومضت عملية المراقبة بواسطة الاستطلاع الدقيق والمستمر لواحة المغارة [٧٧] .

وفى أثناء هذه العمليات التنقلية انسحب عدد من فرقة الهجانة من رجال خفر السواحل المصرية فى الصحراء الغربية وانضموا علنا بأسلحتهم لقوات السنوسى « وبلغ مجموعهم اثنى عشر ضابطا وتلميذين من تلاميذ الحربية ومائة وعشرون رجلا من المراتب الأخرى مصطحبين معهم مائة وست وسبعون جملاً » [٧٨] .

وأصبحت السلوم وسيدى برانى وواحات سيوة والداخلة والبحيرة والخارجة فى أيدى السنوسيين بعد أن انضم اليها عربان الصحراء الغربية [٧٩] .

رأت القيادة البريطانية أنه من الضرورى اتباع خطة للهجوم فى منطقة مرسى مطروح وبناء على ذلك وفى ١١ ديسمبر ١٩١٥ قام من مرسى مطروح آلاى يومنرى ومدفعية خيالة وفصيلة سيارات مصفحة عندما أبلغ أن هناك قوة من السنوسيين تبلغ ألفا وخمسمائة عند وادى سناب ، وكلف القائد الانجليزى بالالتفاف حولهم مما جعلهم غير قادرين على الثبات فى موقعهم فاضطروا للانسحاب [٨٠] ، وواصل المشاة من الانجليز زحفهم ، وبالقرب من الضفة الشرقية لوادى خشيفيات وجدوا أنفسهم تحت نيران السنوسيين ولكن مالبث الأمر أن وصلت الامدادات للانجليز [٨١] .

أيقن البريطانيون أن السنوسيين فى موقع حصين عند تل « جبل مدورة » — على بعد ستة أميال جنوب غرب مرسى مطروح — وقد بلغ

---

(77) Manifold : op. cit., Kearsy : op. cit., p. 28.

(٧٨) العدل ١٠ يوليو ١٩١٦ .

(٧٩) العالم الاسلامى ، ١٧ مايو ١٩١٩ ، ص ٦ .

(80) Macmunn : op. cit., p. 110.

(81) Kearsy : op. cit., pp. 64, 65.

عددهم حوالى خمسة آلاف تحت قيادة جعفر باشا ، فاقتربوا من هذا الموقع ، وقسمت القوات البريطانية وخطط بقصد قطع خط الرجعة عليهم ، ونجحوا فى ذلك وتم انسحاب السنوسيين والأتراك وأخلى وادى المجيد ، هذا وقد عاونت السـفن الحـربية بمدافعها فى هذه المعركة [٨٢] .

تراجع السنوسيون الى « انجيلا ، بيرتونس » وقد اتبع السنوسى طريقة الحرب النظامية بدلا من حرب العصابات ، ولو أنهم تفرقوا وكروا على خطـوط المواصـلات البريطانية مسـتخدمين خفة الحركة لكانت الصعوبات التى واجهت الانجليز أشد وأعظم [٨٣] .

وفى ١٩ يناير ١٩١٦ اكتشفت الطائرات البريطانية مراكز السنوسى وتوزيع قواته [٨٤] ، ولم يمض يومان حتى نشبت بين الطرفين معركة كبيرة ، فقوة السنوسيين تألفت من ألفى جندى نظامى وأربعة آلاف من البدو وعسكرت على بعد خمسة وعشرين ميلا من مرسى مطروح قاعدة الانجليز ، أما القوة المضادة فتألفت من أربعة آلاف من المشـاة وخمسمائة خيال وبطارية ومدفعين ثم انضمت اليها فرقة من جنـوب أفريقيا ، وكان الفصل شتاء وهطول الأمطار قد سبب صعوبات كبيرة للانجليز ، وعند فجر يوم ٢ ٢يناير سار مشاة الانجليز فى الأوحال حتى وصلوا الى مسافة قريبة من معسكر السنوسيين ، وقرر قائد الانجليز الهجوم ولم يتزعزع السـنوسيون بل أطلقوا مدافعهم على الخيالة الانجليز فأجبروهم على التراجع ، ورغم انضمام القوات النيوزيلاندية فقد ظل السنوسيون ثابتين فى مراكزهم واستمر القتال عنـدما أراد القائد الانجليزى القيام بحركة تطويق لم يكتب له النجاح ، والواقع أن السنوسيين حاولوا أن يقهروا الانجليز بنفس طريقتهم ، ولكن وصول

---

(٨٢) الاهرام ٢٩ ديسمبر ١٩١٥ .
(83) Kearsy : op. cit., p. 28.
(٨٤) الاهرام ٨ يوليو ١٩١٦ .

الامدادات من الاسكندرية رجحت كفة الانجليز (٨٥) ، كما أنهم قاموا بتغيير الخطة وكان لهم الفوز (٨٦) .

واستعاد السنوسيون نشاطهم ، ففى ١١ فبراير ١٩١٦ أستولت قوة منهم على الواحة البحرية وانشأوا قاعدة عند « عنجيلة » وذلك بعد أن أحسوا أنهم أخفقوا فى الطريق الساحلى فكان لابد من اتبـاع طريق الواحات فزحفت القوات واحتلت سيوة والفـرافرة والداخلة والخـارجة وكان هـذا مبعثا لقـلق الانجليز فغيروا هم الاخـرين خطتهم وتسلم ماكسويل قيادة العمليات فى غرب مصر (٨٧) .

أفادت التقارير الانجليزية بوجود قوة سنوسية عند « عجاجيا » — على بعد خمسة وستين ميـلا غرب مرسى مطروح — فكان لابد من الاشتباك معها ، فهجمت القوات الانجليزية عليها ، وبالرغم من أن المعركة كانت تقع فى أرض مكشوفة وأن السنوسيين قاموا بهجوم مضاد حول الجناح الأيسر البريطانى ، الا أن النهاية كانت فى صالح الانجليز الذين هزموا السنوسيين ، وقتل نورى بك قائد القوات ، وأسر جعفر باشا رئيس الأركان (٨٨) .

بعد أن أحس الانجليز بخطورة الموقف — رغم انتصارهم — رأوا أن يعطوا الرقابة المزيد من الأحكام فانشىء نظام جديد لداوريات من الفيوم الى أسيوط ، ووضعت قوات خفيفة الحركة عند بنى سويف ، وتمكنت البحرية البريطانية من انشاء قاعدة للتموين عند برانى ، ثم

---

(85) Dane : op. cit., p. 15.

(٨٦) وادى النيل ٧ مارس ١٩١٦ .

(87) Massay : op. cit., p. 136, Manifold : op. cit., p. 17.

(٨٨) الاهرام أول مارس ١٩١٦ ،
Dane : op. cit., p. 17, Kearsy : op. cit., pp. 29, 68, Macmunn : op. cit., p. 126, Manifold : op. cit., p. 17, The Times, Feb. 29, 1916, The Daily Telegraph, June 28, 1916.

أنشئت حكومة جديدة خاصة بالحدود الغربية سميت محافظة الغرب وشملت من الشمال فى الحدود المصرية الغربية مراكز : مرسى مطروح ، الضبعة ، سيدى برانى ، ســـــيوة ومن الجنوب : الواحات البحرية ، الفرافرة الملحقة بمديرية المنيــا والواحات الداخلة والخـــارجة الملحقة بمديرية أسيوط ، وعين على هذه الحكومة اللواء « هانتر باشا » رئيس ادارة حرس الحدود ، وأخضعت للاحكام العرفية ، وتقرر الحـــاقها بالسلطة العسكرية رأسا [٨٩] • وانتشرت لواءات المشاة على طول غرب النيل ، وكونت جزءا من قوة الحدود الغربية وأصبحت واحة الفيوم من المراكز الدفاعية المهمة ، ووضعت حاميات كبيرة بين الفيوم وأسوان [٩٠] •

وفى ١٤ مارس ١٩١٦ تم استعادة ماتبقى فى أيدى الســـنوسيين من مواقع ، ولم تكتف بريطانيا بذلك اذ أرادت المزيد من تأمين موقفها فرأت أن تقوم مع ايطاليا بعمل مشترك ضد السنوسيين حتى تكسر شوكتهم نهائيا كانت من نتيجة ذلك أن نزلت قوة ايطالية فى مايو ١٩١٦ بمنطقة « مرسيا » فأغلقت الطريق نهائيا فى وجه السنوسيين الى وادى النيل [٩١] ، كما أنها ضيقت الخناق عليهم حتى لايفكروا الا فى الخضوع والاســـــتكانة •

ثالثا : الضغط على الجبهة الجنوبية : ــ

لم تكن خطة الأتراك وحلفائهم الألمان قاصرة على حـــدود مصر الشرقية وعبور القناة ودخول القاهرة وطرد الانجليز ، ولا على تشجيع السنوسى فى الهجوم على الحدود الغربية لمصر بل شملت أيضـــا ضرورة اشغال الانجليز بجنوب مصر وذلك حتى تضمن بل وتتمكن من اقامة سياج عدوانى مسلح من جميع الجهات تكون نهايته النصر لها •

---

(89) La Bourse Egyptienne, 28, Mars 1916.

(90) Briggs : op. cit., p. 44, Manifold : op. cit., Wavell : op. cit., p. 38.

(٩١) الهلال ، نوفمبر ١٩١٦ ، ص ١٦٤ ، مارس ١٩١٧ ، ص ٥١٠ .

رأت الدولة العثمانية فى شخصية على بين دينار سلطان دارفور القدرة والكفاءة على مناوأة أعدائها فى الوقت الذى يكون التقدم لها على جميع الجبهات المصرية • وبدأ التنفيذ حيث تسلم ونجت سرادر الجيش المصرى وحاكم السـودان رسائل تهديدية بعث بها على بن دينار الى حكومة الخرطوم معلنا العصيان لخروج الحكومة عن أمر الخليفة منذرا بحرب شعواء وجهاد فى سبيل الله ضد الانجليز (٩٢) ، وفى ١٠ فبراير ١٩١٦ أعلن انضمامه لأعداء بريطانيا وامتنع عن دفـع الجزية وبدأ يتقدم تجاه الخرطوم (٩٣) •

وكان أمر هذه الجبهة سهلا تمكن ونجت من اعداد حملة مصرية تمكنت وبمهارة من حرب الثأر وجاب الانتصار لبريطانيا فى هذه المنطقة فاحتلت « النهود ، جبل الحلة » (٩٤) وعندما استولت على « الفاشر » تمكن على بن دينار من الهرب ولكن مالبث الأمر أن قتـل على أرض المعركة بين اقليم جبل « المورا ودارسولا » (٩٥) ، واستسلم أولاده وأتباعه لقائد القوة المقاتلة « هولستون » ، وفى أول أغسطس من نفس العام أعلن حاكم السودان خلع سلطان دارفور وضم مملكته الى السودان وبذلك فشل التخطيط المعادى لبريطانيا ولم يحقق الهدف المنشود •

رابعا : الحملة العثمانية الثانية على قناة السويس : —

أصبح واضحا عقب هزيمة الأتراك على قناة السويس أنهم سوف يعودون مرة أخرى لنفس الغرض ، ومن ثم كان من رأى كتشـــنر وزير الحربية أن تقوم بريطانيا بالهجوم بحريا على الدردنيل كوسيلة

---

(٩٢) العالم الاسلامى ، ١٧ مايو ١٩١٦ ، ص ٧ •
Wingate : Wingate of the soudan, p. 183.

(93) Macmunn : op. cit., p. 148.

(٩٤) حسن قنديل ، فتح دارفور ، صص ٦—١٠ •

(٩٥) ديوان رئيس الجمهورية ، وارد افرنجى ،
No, 1743, 1922, 1958, Nov. 12, 13, 1916.

لابعاد تركيا عن قناة السويس ، وكانت هذه المسألة معارضة من اسكويث رئيس الوزراء الانجليزى وجراى وزير خارجيته [٩٦] • ولكن مضى كتشنر فى تنفيذ العملية وبالرغم من عدم نجاحه فيها الا أنه واصل اهتمامه فغادر لندن الى مدروس واجتمع بالقادة فى غاليبولى وأوضح لهم مدى الأخطار التى يمكن أن تتعرض لها بريطانيا فى مصر اذا ماأخلى الانجليز غاليبولى [٩٧] •

وفى أغسطس ١٩١٥ كان الهجوم النهائى فى غاليبولى ، وانحصرت المشكلة فى ضرورة ارسال الامدادات من مصر ، كما اضطرت الظروف الى تغيير نظام القيادة فى مصر ، فأصبح الجنرال مكسويل قائدا للقوات الانجليزية ومقره القاهرة ، وانشئت فى الاسكندرية ادارة امدادات وتموين من قبل وزارة الحربية البريطانية كانت مسئولة عن امدادات غاليبولى وسالونيكا والعراق [٩٨] •

واختلفت الاراء وحدث الخلاف بين كتشنر واسكويث ، فبينما أراد الأول ضرورة مرابطة القوات قرب الاسكندرية كعمل دفاعى لقناة السويس ومنع الأتراك من التقدم ناحيتها رأى الثانى أن الدفاع عن مصر خير أن يتم عند قناة السويس بل وطلب من وزير الحربية ضرورة الاخلاء التام لغاليبولى [٩٩] • هذا فى الوقت الذى عين فيه الأتراك القائد الألمانى Liman Van Sanders قائدا عاما للمنطقة ، فأخذ يعد العدة للدفاع ويحصن السواحل مما جعل الأمر صعبا لذا قرر الحلفاء الانسحاب من غاليبولى نهائيا فى أوائل عام ١٩١٦ •

على أثر ذلك اجتمع كتشنر بقائد القوات البريطانية فى مصر ، وأوضح عدم جدوى الدفاع عن القناة من الضفة الغربية لها وأنه

---

(96) Magnus : Kitehener, p. 313.
(97) Ibid, p. 296.
(98) Kearsy : op. cit., p. 27.
(99) Magnus : op. cit., p. 366.

يجب الدفاع من نقط أمامية فى شرقيها ، وأعقب ذلك تنظيم القيادة فى مصر فقسمت الى ثلاث : الاسكندرية ، الاسماعيلية ، القاهرة وأصبحت مصر مسرحا للعمليات الحربية (١٠٠) .

رفعت التقارير الى هيئة أركان حرب الامبراطورية توضح أن الدفاع السابق عن القناة كان مضيعة للرجال والسلاح وان القاعدة الاستراتيجية التى يمكن الدفاع منها هى بين العريش والقسيمة ، وضرورة وجود قوة عند العريش لتعطيل الأتراك ومنها يمكن مهاجمتهم وفى منتصف مايو ١٩١٦ تم مد السكك الحديدية من القنطرة الى رومانة ، ومن بورسعيد الى نقطة المحمدية شرقا على ساحل المتوسط ، ومن المحمدية الى رومانة (١٠١) .

وبدأت الظروف تعاكس بريطانيا بعد أن أخليت غاليبولى ، وراح الألمان يرسلون غواصاتهم الى البحر المتوسط لمهاجمة سفن الحلفاء ، ففى نهاية فبراير ١٩١٦ ضربوا ثلاثا وستين سفينة تجارية انجليزية ، ولهذا حولت بريطانيا سفنها الى طريق الكاب (١٠٢) ، ومضى استعداد الدولة العثمانية لحملة ثانية على قناة السويس .

كانت بريطانيا على يقين من أعمال الدولة العثمانية ، فأرادت أن تضمن عدم مهاجمتها من الجنوب الشرقى — من أراضى شبه الجزيرة العربية — أثناء تقدمها ، هذا بالاضافة الى أنه من الممكن للاتراك أن يسدوا ضرباتهم للسفن البريطانية فى البحر الأحمر من شواطىء الحجاز واليمن ، ولذا كان السعى للاتفاق بين الانجليز والشريف حسين ، فبايعاز من كتشنر فوض مجلس الوزراء البريطانى مكما هون فى أن يصدر تصريحا أذيع فى أول يونيو بأن بريطانيا بعد انتهاء الحرب ستساعد

---

(100) Manifold : op. cit., p. 19, Macmunn : op. cit., p. 154, House of commons, vol IXXVII, Jan, 13, 1916, p. 1742.

(101) Wavell : op. cit., pp. 42, 43.

(102) Hallberg : op. cit., pp. 345, 346.

العرب فى نيل استقلالهم والاعتراف بالخلافة العربية بدلا من الخـــلافة الاسلامية (١٠٣) •

صدر هذا التصريح فى وقت لم تكن الحرب فيه لصالح بريطانيا : الأتراك متحصنون فى غاليبولى ، وقناة السويس معرضة للهجوم عليها ، والسنوسى فى ليبيا أعلن وقوفه مع الأتراك ، وسلطان دارفور استجاب لدعوة الجهاد الاسلامى ، والقوات التركية تتقدم فى عدن الواقعة تحت النفوذ البريطانى • وبذلك يمكن القول أنه فيما عدا التقدم الذى تم للانجليز جنوب العراق كانت القوات البريطانية فى الميـــدان الشرقى تقف موقف المدافع •

ومضت القيادة البريطانية فى مصر تعمل ما فى وسعها لتضمن النصر، فأعيد توزيع المهمات واراحة وتدريب القوات واتخاذ مايلزم من خطوات فى سبيل زيادة دفاعات القناة ، هذا مع الاقتصـــــاد فى قوة الرجال والاحتفاظ بأكبر قوة ممكنة احتياطية للميدان الغربى من ناحية وللعمليات الهجومية على فلسطين من ناحية أخرى ، وتمت الترتيبات الخاصـــة بالتقدم الى العريش عبر سيناء فنظم فيلق العمال المصريين ووحدات الحملة وقوافل التعينات والمياة •

اعتبر مرى ــ القائد العام للقوات البريطانية ــ أن آبار القسيمة والعريش مفتاحا لصحراء سيناء وأنه لابد من حراسة المنطقة بينهمـــا اذ رأى أن الصحراء عائق قوى بل وساتر عظيم القيمة ، وأنه اذا تقدم الأتراك عن طريق شمال سيناء لأمكن مقاومتهم من العريش واذا حاولوا التجمع فى جنوب فلسطين يتم الهجوم عليهم (١٠٤) •

ونجح القائد فى هذا التخطيط فاستولى على منطقة « قاطية ــ

(103) Antonius : The Arab awaking, p. 106.

(104) Manifold : op. cit., p. 20, Macmunn : op. cit., p. 90, Kearsy : op. cit., p. 17.

رومانة » وهى يسيره المواصلات وجعل فيها فرقة من المشاة وبعض وحدات من الجنود ، وبذلك تمكن من ترك منطقة شرق القناة وستكون النتيجة اقتصاد فى القوات ، وهذا ماتم فقد أمكن ارسال تسعة عشر فرقة من مصر الى مسرح الحرب الخارجى (١٠٥) .

أما عن الدولة العثمانية فقواتها موزعة فى القوقاز والعراق وبلاد العرب ، وكانت تزودها امدادات خاصة عرفت باسم « تشكيلات الباشا» شكلت فى ألمانيا بهدف القيام بحملة على مصر (١٠٦) .

رأى الألمان ضرورة ضغط الأتراك على الجبهة المصرية لاجبار بريطانيا على سحب جزء من قواتها المرابطة فى الميدان الغربى ، ومن هذا المنطلق كان قرار الهجوم على جبهة مصر الشرقية وفى هذه المرة كان لابد من تفادى أخطاء الحملة السابقة بل والاستفادة من تلك التجربة سواء فى الطرق والمواصلات أم فى المياة أم فى اختيار الوقت المناسب للقيام بالعملية .

ونشطت حركات الانجليز من انشاء خط السكة الحديد « قنطرة — قاطية » ، ومد خطوط أنابيب المياة العذبة من ترعة الاسماعيلية ، وانشاء محطة ترشيح فى القنطرة (١٠٧) .

وقسمت القناة الى ثلاث مناطق دفاعية : الجنوب من السويس الى كبريت ومركز القيادة السويس ، الوسط من كبريت الى الفردان ومركز القيادة الاسماعيلية ، الشمال من الفردان الى بورسعيد ولها قيادتها ، ووزعت الفرق على تلك المناطق (١٠٨) . أما القنطرة وهى تلك

---

(105) Ibid.

(106) Kearsy : op. cit., p. 16.

(107) Wavell : op. cit., p. 43.

(108) Macmunn : op. cit., p. 156.

المنطقة التى كان يتوقع نشوب القتال عندها فجعل لها قيادة مستقلة ، كذلك كانت هناك قوة تمركزت فى التل الكبير [١٠٩] .

أعدت الدولة العثمانية حملتها ، وعهدت بقيادتها الى القائد الألمانى Von Kress ، وفى يوم ٢٣ أبريل ١٩١٦ قامت قوة منها بهجوم ناجح على النقط البريطانية المتقدمة عند قاطية وأسرت ثلاث أورط من وحدات الفرسان ، واستتبع ذلك الهجوم من ثلاث جهات فاستسلمت قوات قاطية وأصيب البريطانيين بخسائر ولكن لحقتهم الامدادات السريعة فاستعادوا قاطية وبعض المناطق الأخرى التى كان الأتراك قد استولوا عليها [١١٠] .

وقرر قائد الحملة العثمانية ضرورة القيام بعملية قوية وسريعة على امتداد طريق القوافل من العريش الى قاطية تعززها الطائرات والمدفعية ، وتحول بقواته تجاه القناة هادفا التمكن من احتلال أى نقطة يمكن منها تخريبها والسيطرة عليها وحرمان الانجليز من استخدامها .

وخصصت قوة للهجوم على منطقة رأس السكة الحديدية فى رومان ، وفى ٩ يوليو خرجت القوات التركية من بير سبع واستقرت فى بير العبد التى أصبحت قاعدة أمامية لهم [١١١] .

وفى ٣ أغسطس ١٩١٦ بدىء فى التقدم والاغارة على الخط البريطانى « رومانة المحمدية » مما أدى الى انسحاب قوات ذلك الخط ، وكانت النية ترمى الى القيام بحركة التفاف حول الجناح الجنوبى

---

(109) Kearsy : op. cit., p. 32, Manifold : op. cit., p. 22, Macmunn: op. cit., p. 156.

(110) Manifold : op. cit., p. 20, Kearsy : op. cit., p. 31, wavell: op. cit., p. 45, Macmunn : op. cit., pp. 162, 163.

(111) Manifold : op. cit., p. 21, Kearsy : op. cit., pp. 32, 48.

للانجليز والنفوذ الى الخط الحديدى ، وتم الأمر وتراجعت القوات البريطانية واستمر هجوم الأتراك وتقدمهم ، وهدف القائد الانجليزى من وراء ذلك جذب الأتراك وجعلهم يتقدمون فوق الرمال الثقيلة الناعمة حتى تنهك قواهم [١١٢] ، وهذا ما أقره القادة الانجليز فى كتاباتهم عن الحرب ولكن مما لاشك فيه أنه لولا وصول الامدادات المستمرة لدارت الدائرة على الانجليز ، وفى هذه المرة عززت المواقع البريطانية بتلك اللواءات التى حضرت على وجه السرعة وكانت النتيجة انسحاب الأتراك وتتبع القوات البريطانية لهم بعد هزيمتهم فى معركة « رومانة » وبعد أن قتل وجرح منهم ماقدر بـ ٥٠٪ [١١٣] • وتحقق الانجليز من حتمية نقل مسرح الحرب الى فلسطين بعد أن بدى واضحا أن فكرة استخدام صحراء سيناء غير موفقة ، حيث تمكن الأتراك مرتين من اجتيازها وتهديد القناة ، وزحفت القوات البريطانية واستولت على العريش بعد أن أخلاها الأتراك ، كذلك ضمت منطقة « المغضبة » — على بعد ٢٠ ميلا جنوب العريش — وكانت بها نقط دفاع الأتراك فتداعت وأسر من فيها [١١٤] •

تلى ذلك معركة رفح فى ٩ يناير ١٩١٧ ، فقد أفادت التقارير بأن الحامية التركية تحتل أربع استحكامات قوية جنوب غرب رفح وهنا هجمت القوات البريطانية وقامت بسد منافذ الطرق وقاوم الأتراك مقاومة عنيفة رغم وصول المعونات لهم الا أنهم استسلموا فى آخر الأمر ، وفى أواخر يناير أعاد الأتراك انشاء نقط صغيرة فى « نخل ،

---

(112) House of commons, vol LXXXVI, Oct. 10, 1916, p. 99.

(113) Kearsy : op. cit., pp. 32, 50, Wavell : op. cit., p. 50, Manifold : op. cit., p. 22, Macmunn : op. cit., pp. 178, 185, 187, The Times, Aug. 7, 1917.

(١١٤) ديوان رئيس الجمهورية ، وارد افرنجى ، No, 618, 629, 653, Dec, 23, 1916.

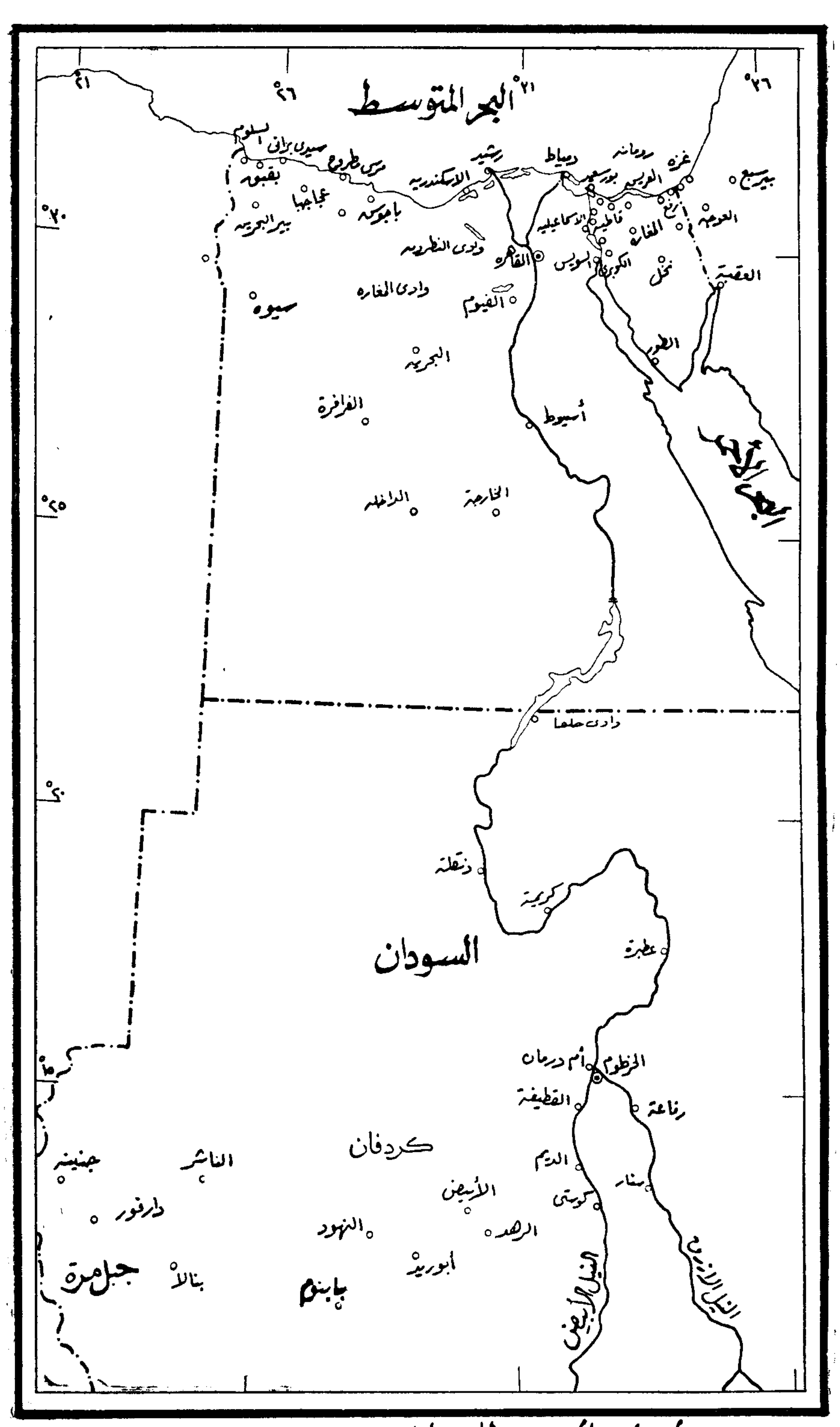
الحسنة » — ٥٠ ميلا جنوب العريش — ولكنها أبيدت فى الرمال وهزمت حاميتها وأسر رجالها (١١٥) .

وبذلك أصبحت سيناء خالية من الأتراك ، وبدأ الانجليز فى التقدم نحو غزة ولكنهم فشلوا مرتين فى الاستيلاء عليها ، وعندئذ عدلوا خطتهم وتولى القائد اللنبى المهمة ، وكان عليه التقدم الى الشام ووضع لهذا الأمر أهميته ، وعمل على تأمين قواته وحمايتها ، وبناء على ماسبق من اتفاق بين الانجليز وشريف مكة وما للعقبة من أهمية اســتراتيجية عند التقدم شمالا ، عهد اللنبى بمهمة احتلالها لفيصل ابن الشريف حسين بعد أن تعانقت مصالح الطرفان وتم ذلك ، وتقدم اللبنى فاستولى على القدس فى ديسمبر ١٩١٧ ، واستتبع ذلك دخوله دمشق فى أكتوبر ١٩١٨ والاطاحة بالنفوذ العثمانى فى هذه المنطقة بعد هزيمة الأتراك .

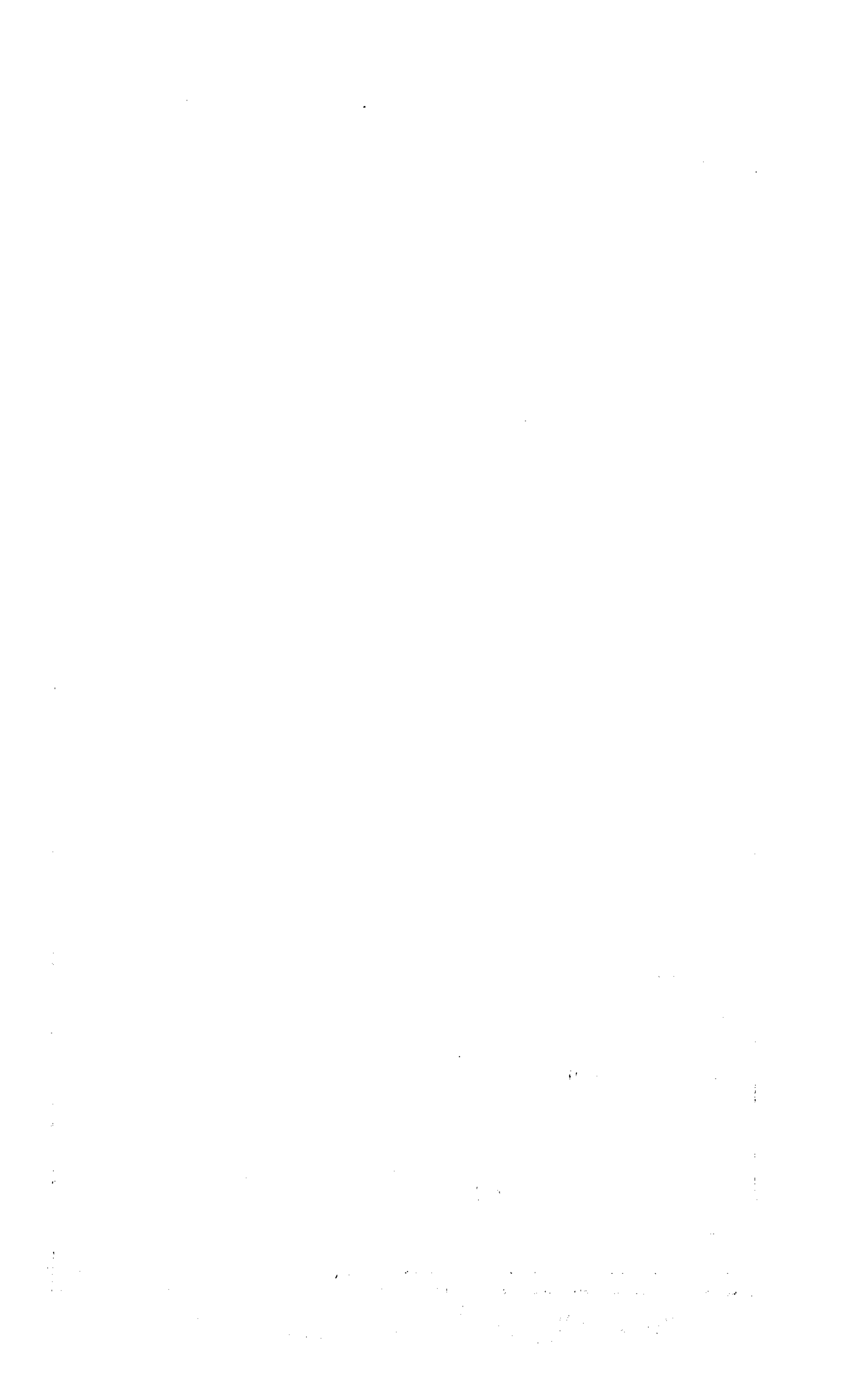
وهكذا انتهت تلك العلاقة الطويلة التى ربطت بين الدولة العثمانية وبريطانيا ، والتى كانت لها الفروع المتعددة والتى تأرجحت بين الرضا تارة والحقد تارة أخرى طوال سنوات وســـنوات انى ذلك الصراع العسكرى والذى شاء لمصر أن يجرى عليها لتشهد دماء الطرفين على أرضها . وأخيرا يتضح لنا بعد تلك الدراسة أن الأمل الذى راود الدولة العثمانية فى امكانية البقاء والاستحواذ على ماكانت تشـــعر كل يوم أنها تفقد جزءا منه قد ذهب سدى ، وأن المسألة الشرقية التى استمرت فترة طويلة آن لها أن تزوى بعد ذلك الصراع الحربى ، ولو كان ماخططته السياسية العثمانية مع حليفتها ألمانيا قد نجح بالقوة العسكرية بالانتصار فى الجبهة الشرقية وبفرض نفوذها على الجبهة الغربية بل وباثارة القلاقل أمام بريطانيا فى الجنوب لتغير وجه التاريخ .

---

(115) Wavell : op. cit., p. 65, Kearsy : op. cit., pp. 36,54, Manifold : op. cit., p. 24, Macmunn : op. cit., p. 262.



الجهات الحربية للبريطانيين في مصر ١٩١٤ - ١٩١٨



مصـــادر الدراسة : ـ

أولا : الوثائق : ـ

(أ) غير المنشورة : الحكومة المصرية ، دفتر كوبيا السواحل الغربية ، عام ١٩١٤ ٠

ديوان رئيس الجمهورية ، وارد أفرنجى ، عام ١٩١٦ ٠

(ب)منشورة : تقرير جون ماكسويل عن الدفاع عن القطر المصرى ، نشرته لندن جازيت ونقلته الأهرام والعدل / يوليو ١٩١٦ ٠

House of commons, vols, LXXVII, LXXXVI.

ثانيا : المذكرات : ـ

(أ) غير المنشورة : مذكرات محمد فريد ، الكراسة الثالثة ٠

(ب) منشورة : مذكرات جمال باشا تعريب على أحمد شكرى ، ١٩٢٣ ذكرات معتقل لجميل جبران قودم ، الاسكندرية ١٩٥٥ ٠

ثالثا : الدوريات : ـ

الأفكار ـ الأهرام ـ العالم الاسلامى ـ العـــدل ـ الهـــلال ـ وادى النيل ـ

The Daily Telegraph — The Times — La Bourse Egyptienne — Revue de Deux Mondes.

رابعا : المراجع :

(أ) العـــربية : ـ

* أحمد شفيق : مذكراتى فى نصــــف قرن ، الجزءان الثانى والثالث ، مصر ١٩٣٦ ٠
* ادوارد كوك : تلخيص أسباب انقطاع العلاقات الودية بين بريطانيا العظمى والدولة العثمانية المدونة بالمكاتبـــات

الرسمية المنشـــورة من وزارة الخارجية البريطانية ، لندن ١٩١٥ • (مترجم)

* تاريخ الحرب العظمى : ترجمة وطبع المقتطف والمقطم ، الجزء الســابع •
* حسن قنديل : فتح دارفور ، الاسكندرية ١٩٣٧ •
* على فؤاد : الحملة المصرية ، حماه ١٩٢٢ •

ب ـ الأجنبيــة :

— Antonius, george : The Arab awaking, Beirut 1955.
— Arthur, george : (A) Life of Lord Kitchener, vol II, London, 1922.
(B) Kitchener et la guerre 1914—1916, Paris, 1921.
— Briggs, Martin : Through Egypt in war time, first Published, London, 1918.
— Dane, Edmund : British compaigns in the Near East 1914—1918, second edition, London 1919.
— Douin, george : L'Attaque du Canal de suez, Paris 1922.
— Elgood, P. G. : Egypt and the Army, London 1924, The Transit of Egypt, London 1928.
— Hallberg, Charles : The suez Canal, New York 1931.
— Himaya, Latif : La Condition international de l'Egypte depuis 1914, Paris 1922 .
— Kearsy : The operation in Egypt and Palestine 1914 to June 1917, London.
— Macmunn, G. : Military operation, Egypt and Palestine, London 1928.
— Magnus, Philip : Kitchener, New York 1959.
— Manifold : An out line of the Egyption and Palestine compaigns 1914 — 1918, Eighth edition 1932.
— Massey, W. : The Desert compaigns, London 1918.
— Tonnele', Jean : L'Angleterre en Mediteranne, Paris 1952.
— Wavell, Archibald : The Palestine compaigns, Third edition, London 1941.
— Wingate, Ronald : Wingate of the Sudan, First Puplished, London 1955.

المســألة الطائفية فى مصر
بين الولاء الوطنى والانتماء الدينى
(١٩١٠ ــ ١٩١٢)

بقــلم
دكتور محمد كمال يحيى
كليــة السياحة ــ جامعة حلوان

ان الباحث ليستشعر كثيرا من الحرج والمســئولية ، عندما يتناول قضية كقضية الوحدة الوطنية ــ وتبلغ درجة الحرج والمسئولية حد الدقة والحساسية عندما يتعرض للعقيدة الدينية ، والانتماء الوطنى • لكن الدراسة الجادة والمنهج الموضوعى للبحث ، بالاضــافة الى الرغبة الصادقة فى الوصول الى الحقيقة المجردة ييسر الكثير من هذه الصعوبات•

فمن المعروف أن مصر قد رزحت تحت الاحتلال الرومانى فى عام ٣٠ قبل الميلاد ، وأصــبحت ولاية ضـــمن الامبراطورية الرومانية ، عاصمتها الاســكندرية • وفى النصف الأول للقرن الميلادى الأول ، انتقلت المسيحية الى مصر على يد القديس مرقص ، الذى كان من أشد المؤمنين برسالة المسيح ، وأحد الانجيليين الأربعة ، فكتب الانجيل باللغة اليونانية واســتقر به المقام فى الاسكندرية ، وسمى أتبــاعه بالأقباط • وعلى مدى العقود التالية ، لقى الأقباط فى مصر على أيدى الرومان الشىء الكثير من الظلم والاضطهاد ، حتى جاء الفتح الاسلامى، فمنحهم حرية العقيدة ، وممارسة طقوسهم الدينية ، فى اطار الدولة الاسلامية الكبرى •

وتعايش المسلمون فى مصر ، جنبا الى جنب مع اخوانهم الأقباط لايكدر صــفو العلاقات بينهم انتماء أحدهم الى عقيــدة دينية تختلف عن الاخر ، بل استشعر الجميع انتماءهم الى وطن واحد يجمع بينهم ويشــد بعضهم الى بعض ـ بل ان الكوارث التى كانت تنزل بالبلاد كانت لا تفــرق بين مســلم وقبطى ، كما أن كثيرا من الاحتفــالات العامة كان يشترك فيها الجميع ، مثل استقبال الولاة الجدد ، ووفاء النيــــل •

ومع ذلك ، فاننا نجد أن بعض الأحياء ، فى نهاية القرن التاســع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، كانت لازالت مقصورة على المســلمين ، مثل حى الخليفة ، وحى السيدة زينب فى القاهرة ، أو منيــة البصل فى الاسكندرية • أما فى المدن الصغيرة ، فقد ظلت التفرقة الدينيــة صامدة بشكل أكبر ـ وكانت الغالبية الســاحقة من الأقباط يعيشون فى قرى مختلطة ، وليس فى قرى مقصورة على الأقباط ـ ولكن عادة ماكان المســلمون والأقباط يســكنون فى أنحــاء خاصة بهم من القرية • هذا ، وقد احتفظت الجماعات الدينية فى هذا المجــال ، وكذلك فى المجــالات الأخرى بقدر كبير من أهميتها الاجتماعية طوال القرن التاسع عشر •

وبوجه عام ، كان جميع الأشخاص الذين يمارســون مهنة حضرية معينة ينتمون الى جماعة واحدة ، بينما التجارة ، كان يمارسها أناس ينتمون لأكثر من جماعة واحدة ـ وكانوا فى العادة يكونون طوائف حرفية منفصلة • واذا كانت الجماعة الدينية قد احتفظت بحيويتهــا كوحدة اجتماعية ، الا أن الوضع الاقتصادى ، والحــالة الاجتماعية ، والنفوذ الســياسى لرؤساء وموظفى المؤســسات الدينية قد اضمحل بشــكل كبير خلال القرن التاسع عشر ، ولم تعــد الجماعات الدينيــة تشــكل هيئة عامة من أجل أغراض ادارية • ففى يناير عام ١٨٥٥ ـ صدر قرار بالغاء الجزية ـ وهى ضريبــة خاصــة كانت تفرض على الجماعات غير المسلمة ـ وقد أدى هــذا الى حرمان الموظفين الدينيين

التابعين للاقليات من كثير من مهامهم الادارية • كما ضعف رجال الكهنوت الأقبــاط ، بســبب الدسائس والمؤامرات والمشاجرات المســتمرة ، وبسبب تزايد نشـــاط المبشرين من البروتستانت والكاثوليك [1] •

على أن الشــعور بالخلاف الحاد بين الأقباط والمسلمين ، بــدأ فى أواخر عصر الحكــم العثمانى لمصر ، وســعى الدول الأوربيــة الى اقتطاع أجزاء من أملاكها المترامية الأطراف ــ فكان أن أصــــدرت الدولة (الخط الهمايونى) المؤرخ فى ٦ فبراير ١٨٥٦ لتنظيم شــئون الطوائف المســـيحية الداخلة فى نفوذها ــ حيث أباح اقامة الكنائس ، أو ترميمها بترخيص من الباب العــالى ــ وقد ورد فى هــذا الشأن ، النص الاتى :

« ولا ينبغى أن يقع موانع فى تعمير وترميم الأبنية المختصــــة باجراء العبادات فى المدن والقصبات والقرى التى جميع أهاليها من مذهب واحد ولا باقى محلاتهم ، كالمكاتب ، والمستشفيات ، والمقابر ، حتــى هيئتها الأصــلية ــ لكن اذا لزم تجديد محلات نظير هذه ، فيلزم ، عندما يستصوبها البطرك ، أو رؤساء الملة ، أن تعرض صــورة رسمها أو انشائها الى بابنا العالى ، لكى تقبل الصــورة المعروضــة ، ويجرى اقتضاؤها على موجب تعلق ارادتى السنية الملوكانية ، أو تبين الاعتراضات التى ترد فى ذلك الباب بظرف مدة معينة ــ واذا وجد فى محل جماعة أهل مذهب واحــد منفردين ، يعنى غيرمختلطين بغيرهم ، فلا يقيــدوا بنوع ما من اجراء الخصــومات المتعلقة بالعبادة فى ذلك الموضــوع ظاهرا وعلنا ــ أما فى المدن والقصبات والقرى التى تكون أهاليهــا مركبــة من جماعات مختلفة الأديان ، فتكون كل جماعة مقتدرة على تعمير وترميم كنائسها ومســتشفياتها ومكاتبها ومقابرها اتباعا للاصول السابق ذكرها

---

(١) ج بير ، ترجمة الدكتور عبد الخالق لاشين ، وعبد الحميد الجمال « دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة » ــ القاهرة ١٩٧٦ ، ص٤٠٤

فى المحلة التى تسكنها على حدتها ـ لكن ، متى لزم أبنية يقتضى انشاؤها جديدا ، يلزم أن يستدعى بطاركتها ، أو جماعة مطارنتها الرخصة اللازمة من جانب بابنا العالى ، فتصدر رخصتنا السنية عندما لاتوجد فى ذلك موانع ملكية من طرف دولتنا العلية والمعاملات التى تتوقع من طرف الحكومة فى مثل هذه الأشغال لا يؤخذ عنها شىء » (٢) .

ويبدو أن الحصول على تراخيص لاقامة كنائس جديدة لم يكن بالأمر الهين من وجهة النظر القبطية ، فكان الأقباط يلاقون صعوبات جمة ، بالاضافة الى التعقيدات الادارية التى توافرت فى دولاب العمل الحكومى تحت الادارة العثمانية ـ حتى اذا ذاعت دعوة السيد جمال الدين الأفغانى الاصلاحية ، اهتبلها السلطان عبد الحميد الثانى فرصة لمساندة دعوته الى الجامعة الاسلامية ، باعتباره خليفة للمسلمين . وكان هنا رد الفعل لدى الأوساط القبطية ، وماسيكون عليه وضعهم ، أمام هذا الخلل الذى حدث فى التوازن القائم بين الأغلبية المسلمة ، والأقلية القبطية .. وانبرى الفكر القبطى يدعو الى أن دور مصر الحضارى ، هو استمرار لوجودها القديم منذ العصر الفرعونى ، بصرف النظر عن الديانات التى تعاقبت عليها ـ وأن المواطن القبطى سليل العنصر المصرى القديم ، وأنه الوريث الوفى لحضارة مصر القديمة ، وأن عليه أن يعمل على احياء هذه الحضارة فى مختلف الحياة ، كالفن والأدب وأساليب الحياة اليومية ـ ووقفه تلامذة جمال الدين الأفغانى ، الذين تشربوا فكرة الجامعة الاسلاميه أمام هذه الدعوة للحفاظ على وحدة العالم الاسلامى ، ورأوا أن مصر تستمد مقوماتها الفكرية والحضارية والوجدانية من الاسلام ، وأن الانتماء الطبيعى هو للجامعة الاسلامية ، التى تضم كل

---

(٢) جمال بدوى ، الفتنة الطائفية فى مصر ، جذورها وأسبابها (د . ت) ـ القاهرة ، ص ص٧٣ ـ ٧٤ .

الشعوب التى تعتنق الاسلام ، بصرف النظر عن انتماءاتها العرقية أو القومية ــ وأن عقيدة الاسلام قد نسخت كل ما سبقها من عقائد وأديان •

وقد أسهمت هذه العوامل التاريخية والموضوعية فى تباعد عنصرى الأمة المصرية ، والى وجود روح التنافر بينهما ــ حقيقة أن العنصرين قد اتحدا فى ثورة ١٨٨١ الوطنية ، فشاركا فى العريضة التى طالبت بطرد الأجنبى سنة ١٨٧٩ ــ الا أن ما صاحب هزيمة الثورة العرابية من مهاجمة المتظاهرين والقوات المتقهقرة فى الهجوم على الأقباط ، قد جعلهم يبتعدون عن الحركة الوطنية ــ واستغل الاستعمار هذه الظروف من التناقض بين الطائفتين فى زيادة اضرام نيرانها ، وأوعز بأن الحركة الوطنية تعنى اخضاع الأقلية القبطية لحكم اسلامى يضطهدها •

وتمادى المحتلون فى استغلال هذا الانقسام ، وعملوا على تصعيد الخلافات بين الجانبين ، وفضلوا فى بداية الأمر تعيين المسيحيين من أهل الشام فى الوظائف الكبرى ــ وهم الذين كانوا قد هربوا من سيطرة واضطهاد السلطان عبد الحميد ، وتدخل اللورد كرومر فى الأمر ، وعدل اللوائح ، بحيث تقضى بأن يعامل السوريون فى هذا المجال على قدم المساواة مع المصريين ، اذا كانوا قد ولدوا فى مصر ، أو مضى على اقامتهم بها خمسة عشر عاما • ويعزو كرومر تذمر المصريين من السوريين المسيحيين ، الى العامل الدينى ــ لكن يلاحظ هنا أن الأقباط المصريين كانوا يشعرون بنفس الاستياء ــ خاصة وأن السوريين المسيحيين كانوا ، هم واليونانيون ، يكونون فئة المرابين المكروهة ، والمنتشرة فى الريف المصرى ــ وكان بعضهم وكلاء لأصحاب رؤوس الأموال الأجنبية والساعين من الأجانب الى الحصول على عقود استغلال ، حين بدأ رأس المال الأجنبى يتدفق على مصر ، ويثير حسد ومخاوف المصريين • وكان بعضهم يعملون عملاء

للاحتلال ، وآخرون أشد تحمسا للاحتلال من المحتلين أنفسهم ، ويبدون عداء سافرا للحركة الوطنية فى مصر . من هؤلاء ، كان أصحاب جرائد المقطم ، والمشير فى الصحافة ــ وكان منهم فى خدمة الحكومة المصرية ، مثل : عبد الله صغير ، رئيس البوليس السرى ، وملحم شكور ، وكيل المخابرات الحربية ــ وكان بعضهم يشغل وظائف عليا ، الأمر الذى أثار حسد المصريين ، مثل سابا باشا ، مدير عام مصلحة البريد [٣] ــ وهوارى بك ، ومشاقة بك فى نظارة المالية وفريد بك بابا زوغلى فى نظارة الاشغال [٤] .

---

(٣) ذكر القنصل الأمريكي بالقاهرة ، فى رسالة بعث بها الى حكومته فى واشنطن ــ أن جوزيف سبا باشا هذا قد منح لقب (سير) من الحكومة البريطانية وأنه قد عين فى وزارة محمد سعيد باشا التى أعقبت وزارة بطرس باشا غالى كوزير للمالية . وفى نبذة عن حياته ذكر التقرير أنه مصرى المولد ، سورى الأصل ، مسيحى الديانة ، على المذهب الكاثوليكى ، وأنه المسيحى الوحيد فى وزارة سعيد باشا ــ فى حوالى ٥٨ من عمره ، وله صلات بالأعمال البريدية ــ وكان آخر عمل له قبل توليه وزارة المالية ، مدير عام مصلحة البريد منذ عام ١٩٠٧ ، بعد خدمة قضاها فى هذا المجال بلغت عشرين عاما ومثل القطر المصرى ثلاث مرات فى مؤتمرات الاتحاد الدولى للبريد ونتيجة لخدماته ، منحته الحكومة المصرية (الوسام المجيدى) ، ثم (الوسام الاسماعيلى) ، ثم منحته الحكومة البريطانية « نوط » قائد الفرسان من درجة (سان ميشيل) ، ثم من درجة (سان جورج) ثم منحته ايطاليا (الوسام العظيم) لايطاليا ، ومنحته النمسا وسام جوزيف ذات النجمة ومنذ احالته الى التقاعد من خدمة البريد ، استغل نشاطه فى شركة مياه القاهرة ، الذى سبق تنظيم مرفق البريد فى تركيا ، لكنه اعتذر عن قبول الدعوة .

حول هذه التفاصيل وغيرها ، أنظر :

National Archieves Microfilm Pubiications,
Microfilm Copy, No. 571 - Roll 2 - 883.,
O.O 17 - 180. No. 629, February 26, 1910.
Subject : (The New Egyptian Government).

(٤) دكتور محمد جمال الدين المسدى ــ الاحتلال والحركة الوطنية فى مصر فى أوائل القرن العشرين . المجلة التاريخية المصرية ــ المجلد ٢٢ سنة ١٩٧٥ ، ص٨١ .

وفى مرحلة تالية ، سعى كرومر الى تقريب الأقباط اليه بتعيينهم فى بعض المصالح الأميرية ، خاصة وأن الكثيرين منهم كانوا قد تلقوا تعليما فى المدارس الأجنبية ، وساعدت هذه السياسة الاستعمارية فى خلق جيل من الأقباط مال الى الانجليز بحكم الثقافة الاستعمارية التى تشربها •

ولم يكتف كرومر بذلك ، بل أثار المسلمين ، بأن رمى الاسلام بأنه « يحول دون المشاركة فى حياة الحضارة الانسانية » — وشاركه فى ذلك كتاب كثيرون من الاستعماريين ، الذين حرصوا حرص كرومر على تكريس الشقاق الدينى ، والعمل على بلورة أيديولوجية دينية مسيحية معادية للاسلام ، لشق الصف الوطنى — ومن هؤلاء (ستانلى لين بول) — الذى هاجم الاسلام أيضا ، وعده فاشلا عن التطور بما « يتلاءم مع تطور العصر » • ومنهم كاتب استعمارى آخر ، هو (ديزى) — الذى حرص على أن يثير الأقباط بترديده أن الصحف الوطنية كانت مستحسنة اضطهاد الأقباط واحتقارهم [٥]

وفى الوقت الذى عمل فيه الاستعماريون على نسبة كل شىء الى التعصب الدينى ، خاصة مع انبعاث الحركة الوطنية ، كان الاحتلال قد خلق صحافة قبطية تدعو الى الاحتلال وتمجده — مثل جريدة (الوطن) التى لعبت دورا خطيرا من بعد فى اشعال نار الأحقاد الدينية ، بل والعمل على ايجاد فتنة فى البلاد • ويؤكد الخديوى عباس حلمى الثانى فى مذكراته [٦] سعى الانجليز الى التفرقة بين عنصرى الأمة ، بقوله : « أن سياسة (فرق تسد) ليست حكمة انجليزية ، ولكنها احدى القواعد النادرة التى شاءت انجلترا أن تقبلها من العالم اللاتينى

---

(٥) مصطفى النحاس جبر — سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ، ١٩٧٥ — ص١٠٠ •

(٦) التى نشرت بجريدة « المصرى » — مايو — يوليو — ١٩٥١ •

•• ولقد كان الانقســـام والفرقة شاملة فى مصر بفضل اللورد كرومر ــ وكان جواسيس قلم المخابرات البريطانية يعرفون كيف يفتحون لأنفسهم كل الأبواب وكنت تجدهم فى كل طبقات المجتمع » •

كان من نتيجة هذا الانقسام الحاد الذى أحدثته السياسة الانجليزية فى وحدة الكيان المصرى ، أن ظهرت جريدة (مصر) لتعبر عن الثقافة المصرية القديمة ، مدعية أن الأقباط هم ورثة هذه الثقافة وتزعم هـــذا الاتجاه (أخنوخ فانوس) ــ أحد خريجى الجامعة الأمريكية ببيروت ، وقائد حركة الشبيبة القبطية الذى دعا الى احياء اللغة القبطية التى اندثرت فى أعقاب الفتح العربى الاسلامى ــ وفى مايو ١٨٩٧ ، بعث فانوس الى كرومر بمذكرة ، تضمنت مطالب الأقباط المصريين ، ونادت بوجوب جعل الأحد من كل أســبوع عطلة ، كما أرسلت صيحاتها بجعل الأعياد المسيحية أعيادا قومية (٧) • ثم توج فانوس عمله الانقسامى ، باعلان تأسيس الحزب المصرى بزعامته ، والذى جاء برنامجه صورة من الدعاوى الاستعمارية ، التى وضع أســـاسها كرومر (٨) • وكان معظم رجال الحزب المصرى ينحدرون من العائلات القبطية الثرية ، التى تراكم رأس المال فى أيديها نتيجة الاشـــتغال بالتجارة الخارجية • وقد أعلنت الدوائر الاستعمارية عن ابتهاجها بتكوين ذلك الحزب ، كوســـيلة لانقسام الوطنيين ، وأكدت ارتباط المبادىء التى نادى بهـــا فانوس ، بما نادى به كرومر فى الكتاب الأزرق (٩) •

كان توقيت الاحتـــلال لتعيين بطرس غالى رئيســـا للوزراء فى

---

(7) Dr. Raouf Abbas Hamed, The Copts under British Rule in Egypt (1882—1914) - Egyptian Historical Review, vol. 26—1979- p. 53.

(٨) انظر نص برنامج الحـــزب ــ نقلا عن جريدة المقطم ــ فى « الطليعة » عدد فبراير ، ١٩٦٥ .

(٩) مصطفى النحاس جبر ــ المصـــدر السابق ، ص١٠٧ .

١٢ نوفمبر ١٩٠٨ فى وقت تصـاعدت فيه الأزمة بين الطائفتين ، تصعيدا جديدا لسـياسة التفرقة ، عمق من شـكوك المسلمين تجاه الأقباط — كما أن تعيينه لم يكن تنفـيذا لسياسة السعى فى ترضـية المصريين باصـلاحات زهيدة القيمة كما ذهب البعض — وانما كان لأن جورسـت أراد بتعيينه « ايجاد هوة كبيرة بين عناصر الأمة المصرية » — ويعترف ستورز ، بأن جورست هو الذى نصح الخديوى بتعيين بطرس غالى فى هذا المنصـب • وكان استورز ، وأمثاله من الاسـتعماريين ، يعرفون الى أى مدى يمكن أن يثير تعيين واحد مثل بطرس الشـعور الاسلامى فى مصر ، ليس فقط لأن بطرس كان مسيحيا فحسب ، وانما لأن المصريين كانوا يعتبرونه خائنا ، فهو الذى سافر مع الخديوى الى لندن فى صيف عام ١٩٠٨ ، وتفاهم مع الانجليز حول السـياسة الجديدة فى أعقاب تعيين جورست — وكان من قبل مستشاره وسـفيره فيما كان ينشـب بينه وبين كرومر من خلاف — وهو الذى وقع اتفاقية ١٨٩٩ ، حين كان وزيرا للخارجية — كما أنه هو الذى أصدر قرارا بتشـكيل المحكمة « المخصوصة » ، الخاصـة بحادثة دنشـواى حين كان وزيرا للعدل بالنيابة ، ورأس هذه المحكمة بنفسـه •

وقد كان موقف الزعيم محمد فريد من تعيين بطرس باشا غالى هو الترقب والانتظار — وعبر عن موقفه هذا بما كتبه فى « اللواء » بتـاريخ ١٧ نوفمبر ١٩٠٨ — حيث قال : « اختار سمو الأمير ، سعادة بطرس باشا غالى لرياسة الهيئة الحكومية الجديدة ، ووافقـه المعتمـد البريطانى ، بعد استشارة نظارة خارجية انجلترا على ما يقـال — ولم يختره سموه الا لثقته به ، وخبرته له السـنين الطوال ، اذ كان يعتمد على سـعادته فى حل كثير من المشـكلات التى كانت تقع بين سموه ، وبين اللورد كرومر • ونحن لانبدى رأيا فى سعادة الرئيس الجديد ، بل نجتهد فى نسـيان ماضيه ، ونأمل أن يمحو بخدماته الجديدة مانقش

فى الأذهان من تأثير أعماله الماضية ، ونحكم على أعماله فى مركزه الجديد » [١٠] .

وقد استهل بطرس باشا عمله فى الوزارة التى رأسها ، بكبت الحريات فأعاد فى مارس ١٩٠٩ العمل بقانون المطبوعات القديم ، الذى فرض على كل صاحب مطبعة وصاحب جريدة ، بأن يحصل على رخصة من وزير الداخلية ، نظير ضمانة جسيمة ، فاذا لم يفعل ذلك ، عوقب بعقوبات صارمة ، وقد يعاقب بمصادرة ماله فى أحوال معينة ــ وهذه الرخصة قد لاتعطى ، وقد تسحب ، على حسب الارادة ــ وقد تعطل الصحف بمجرد أن يصدر من وزير الداخلية أمر بذلك ، بعد انذارين ،أو بقرار من مجلس الوزراء بدون أى انذار [١١] .

وقد كان لاحياء قانون المطبوعات القديم من الأثر فى ازدياد الهياج ، ماكان لمشانق دنشواى ذاتها ــ فقد عطل ، وأوقف عدد كبير من الصحف الوطنية ، وحكم على محرريها وكتابها بالسجن . وأول جريدة ذهبت ضحية لقانون المطبوعات ، هى « اللواء » ــ التى أرسل محررها ــ عبد العزيز جاويش ــ الى السجن فى الحال ، ثم مالبثت أن عطلت ، وأوقفت جرائد وطنية أخرى .

كان اضرابات عمال ترام القاهرة فى أخريات عام ١٩٠٨ ، واضراب الأزهريين فى عام ١٩٠٩ ، مؤديا بالحكومة الى اتباع سياسة سن قوانين الارهاب ضد الصحافة ــ وكان بطرس غالى ، ومن ورائه الجرائد القبطية ، من أكثر مؤيدى قانون المطبوعات ــ وأخذت جريدة « مصر » تبرر صدور هذا القانون الرجعى ، بأنه نتيجة سياسة

---

(١٠) عبد الرحمن الرافعى ــ محمد فريد ، رمز الاخلاص والتضحية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٢ ــ ص٩٨ .

(١١) دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ــ تاريخ مصر السياسى ، من الاحتلال الى المعاهدة ــ القاهرة ، ١٩٦٧ ــ ص٧٣ .

« الطيش والحماقة » ثم تبعت جريدتنا « مصر والوطن » ذلك بتأييد وسائل القمع البوليسية ضد مظاهرات الجماهير احتجاجا على القانون — ثم شغلت الخلافات الداخلية الأقباط فى شهرى مايو ويونيو ١٩٠٩ — ولكن الجريدتين سرعان ما عادتا الى مسرح الأحداث السياسية ، عندما كان الاحتلال يشن حملاته على سياسة مجلس الشورى ، ومطالبته المستمرة بالدستور • ورغم أن المناقشة فى مجلس الشورى لم تكن تتعلق بحقوق الأقباط أو المسلمين ، فان حملة الجريدتين لم تتوقف ، وسارت فى اتجاه واحد مع الجرائد الاستعمارية فى الادعاء بعدم أحقية مصر للدستور [١٢] •

على أن السياسة الخرقاء التى اتبعها بطرس غالى فى معالجة تعاظم الوعى القومى ، أدت الى زيادة الأمور تعقيدا — فأصدر قانون النفى الادارى ، الذى وضع فى يد السلطة الادارية حق نفى الأشخاص ، الذين ترى أنهم خطرون على الأمن العام ، الى جهة نائية بالقطر — ثم ختم حياته السياسية بدخوله مع شركة قناة السويس فى مفاوضات لمد أجل امتيازها أربعين سنة أخرى ، فى مقابل أربعة ملايين من الجنيهات ، ونصيب سنوى من الأرباح •

وقد أثبتت الدراسات المستفيضة حول هذا الموضوع ، أن السير ألدون جورست ، كان وراء هذا المشروع — اذ رأى ، بعد مرور عام على تعيينه بالقاهرة ، أن يعاون المستشار المالى فى ايجاد حل للموقف الصعب الذى أوقع نفسه فيه ، بتصرفه فى أموال الاحتياطى الخاص بصندوق الدين ، وذلك من غير أن يلجأ الى الاقتراض ، خاصة وأن سلفه قد شغل منصبه خمسا وعشرين سنة ، دون أن يتبع ذلك الأسلوب — فبدأ يتخابر مع شركة القناة ، كى تعطى مصر المال اللازم ، لقاء مد أجل الامتياز مدة جديدة • وعندما عرض هذا

---

(١٢) مصطفى النحاس جبر ، المصدر السابق ، ص١٠٨ •

الحل على الحكومة المصرية ، اعترض عليـه بعض النظار [١٣] • ثم تسربت أنبـاء هذا المشروع ، وعده المصريون تحديا كبيرا لمشـاعرهم واسـتطاع محمد فريد أن يحصـل على نسخة منه ، نشرها فى جريدة « اللواء » ، وعلق على المشروع فى مقالين ، وبين الخسارة التى تعود على مصر من تنـفيذه ، وفند الأسباب التى بنى عليها المسـتشار المالى تبريره لعقده — ولم يكتف بذلك ، بل أرسل برقيات لكل من الخديوى ورئيس النظار والأمير حسين كامل رئيس الجمعية العمومية ، يحذرهم فيها من الخطر الداهم الذى يصيب البـلاد من ابرام هذا الاتفاق •

وقد أحدثت مقالات وبرقيات محمد فريد ضجة كبيرة فى البلاد وأثارت ثائرتها ، فقامت صحافتها وطوائفها ومثقفوها ، ينادون بوجوب عرض المشروع على الجمعية العمومية قبل البت فيه [١٤] •

واجتاحت البلاد هذه الموجة العارمة من المعارضة ، وأن تركزت بشـكل أساسى على شخصية بطرس غالى ، الذى لم يكن خافيا على أحد أنه آلة فى عجلة الانجليز ، فى الوقت الذى شاع تأييده القـوى للمشروع — واتفقت كلمة الوطنيين على جعل الكلمة النهائية للجمعيـة العمومية فى حسم هذا الموضوع • وفى الجلسة التى عقدتهـا الجمعية فى ١٠ فبراير ١٩١٠ لمناقشـة الأمر ، احتد النقاش بين الأعضـاء ، وأهان بعضهم البعض الاخر ، وحضر هذه الجلسة — ابراهيم الوردانى — الذى كان ناقما على رئيس الوزراء لأعماله السـياسية • وقد اعترف

---

(١٣) من المدهش حقا ، أن سعد زغلول ، كان من بين الذين اعترضوا على المشروع فى البداية ، لكنـه بعد تغيير الوزارة فى أعقاب مصرع بطرس غالى ، نجح جورست فى حمله على الدفاع عنـه ، مما جر عليـه غضب الرأى العام . أنظر :

عبد الخالق لاشين ، سعد زغلول — دوره فى الحياة السياسية حتى ١٩١٤ — دار المعارف ، ١٩٧٠ — ص١٨١ .

(١٤) شحاتة ابراهيم ، عظماء الوطنية فى مصر فى العصر الحديث — الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ — ص٢٢٩ .

الوردانى فيما بعد ، بأنه فكر فى قتل بطرس غالى من زمن ، ثم صمم على قتله قبل الحادث بأسبوع — وفى ١٩ فبراير ، خارت قواه عن تنفيذ اغتيال بطرس ، وفى يوم ٢٠ فبراير ١٩١٠ ، نفذ الاغتيال (١٥) .

وقد وصف القنصل الأمريكى بالقاهرة حادث الاغتيال — كشاهد عيان — فى تقرير بعث به الى حكومته بواشنطن ، قال فيه :

« كان الوزير فى حوالى الساعة الواحدة من ظهر يوم الأحد الموافق ١٩١٠/٢/٢٠ ، يهبط الاثنين أو الثلاث درجات التى تنتهى بها وزارة الخارجية ، ليستقل عربته ، التى كانت واقفة عند نهاية هذه السلالم وكان بصحبته وزير التعليم ، ووزير العدل ، ومعهما واحد أو اثنين من السكرتارية ، وبعض الخدم — وكان المجنى عليه فى مقدمة هذه المجموعة ، عندما وقف شاب فى مواجهته عند (الدرابزين) — بحيث لايتيسر ملاحظته — ومن مسافة بضعة أقدام — أطلق عليه الرصاص فى جانبه الأيسر من مسدسه . وبينما كان الوزير يترنح ، تقدم القاتل نحوه ، واضعا يده على كتفه ، وأطلق أربع طلقات أخرى فى كتفه ورقبته ، وسمعت طلقة سادسة ، لكن لم يتم العثور على الطلقة الفارغة . وفى هذه اللحظة ، قفز الحوذى ، وقبض على القاتل ، ونقل الباشا الجريح الى المستشفى ، حيث فاضت روحه فى اليوم التالى .

لقد اخترقت الطلقة الأولى الكبد والمعدة ، وخرجت من الجهة الأخرى . وأسم القاتل ، ابراهيم الوردانى ، يبلغ من العمر اثنان وعشرين عاما ، مسلم ، من عائلة محترمة — توفى والده ، وترك بضعة آلاف من الدولارات ، أنفقها فى لندن وسويسرا ، فى دراسة الصيدلة ، وفى الانضمام الى بعض المجموعات السياسية ، المثيرة للهياج . وقد افتتح منذ وقت قريب صيدلية فى القاهرة ، أهملها ، واتجه الى اهتماماته السياسية . وأصدقاؤه هنا من السياسيين المحليين،

---

(١٥) مصطفى النحاس جبر ، المصدر السابق — ص١١٠ .

ممن يطلقون على أنفسهم « الوطنيين » ـ (الحزب الوطنى) ـ وتنطق صحيفة « اللواء » بلسانهم • وجريدة اللواء ، صحيفة قومية ، لازالت تطبع فى صفحتها الأولى اسم منصور رفعت ، المتجنس بالجنسية الأمريكية كمدير سياسى للجريدة ـ وقد غادر القطر المصرى فى يونيو الماضى وهو لهذا ليس متورطا مع الوردانى فى ارتكاب هذه الجريمة •

لقد أعربت لحكومة الخديوى رسميا ، عن أسفنا لوفاة رئيس الوزراء باسم حكومتنا فى واشنطون [١٦] •

ويذكر الرافعى ، فى هذا الصدد ، أن البلاد قد جزعت لهذا الحادث الخطير ، وأثار دهشة الناس كافة ـ اذ لم يسبق أن تقدمه اعتداء مثله ، أو يشبهه ، ولم يكن الناس فى مصر قد عرفوا حوادث القتل السياسى منذ عهد بعيد • واذا كان القاتل من شباب الحزب الوطنى ، فقد تشعب التحقيق ، واتجهت تهمة الاشتراك فى الجناية الى لفيف من شباب الحزب [١٧] ـ وقبض على كثيرين منهم ، ثم أفرج عن بعضهم ـ وأقامت النيابة الدعوى العمومية على ابراهيم الوردانى ، وعلى ثمانية ، بتهمة مشاركته فى الجريمة ، باعتبارهم جميعا أعضاء فى جمعية من مبادئها استعمال القوة فى الوصول الى أغراضها ـ وأن جريمة القتل كانت نتيجة محتملة لهذا الاتفاق • وهؤلاء الثمانية هم : على أفندى مراد (مهندس) ـ محمود أفندى أنيس (مهندس) ـ شفيق أفندى منصور و عبده أفندى البرقوقى (طالبان بمدرسة الحقوق) ـ عبد العزيز أفندى رفعت (مهندس تنظيم) ـ عبد الخالق أفندى عطية (محام) ـ محمد أفندى كمال (طالب بمدرسة المهندسخانة) حبيب أفندى حسن (مدرس) •

National Archieves Microfilm Publications., Microfilm Copy, No. 571 - Roll 2 - 883. OO. 17 - 180 - No. 628, February 25, 1910. Subject : (Assassination of Butros Pasha Ghali).

(١٧) انظر : ملفات التحقيق فى قضية اغتيال بطرس غالى ، المودعة بدار « القضاء العالى » ـ بالقاهرة .

وقد أحيلوا جميعا الى قاضى الاحالة بمحكمة مصر — متولى بك غنيم ، توطئه لاحالتهم الى محكمة الجنـايات • ونظرت القضـية أمامه يوم ٢٢ مارس ١٩١٠ ، وتولى الدفاع عن المتهمين : أحمد بك لطفى ، ومحمود بك أبو النصر وعبد العزيز بك (باشا) فهمى ، وابراهيم بك الهلباوى ، وعمر بك لطفى ، واسماعيل شيمى بك ، ومحمود بك فهمى حسين ، ومحمد على علوبة بك (باشا) ، والأستاذ محمود بسيونى وأحمد عبد اللطيف بك ، والأستاذ مصطفى عزت • وجلس فى كرسى النيابة عبد الخالق ثروت النائب العام •

وبعد أن سمع قاضى الاحالة مرافعات النيابة ، والمحامين ، أصدر قراره باحالة الوردانى الى محكمة الجنـايات ، بتهمة القتل ، وبأن لا وجه لاقامة الدعوى قبل الثمانية المتهمين بالاشتراك معه •

وحوكم الوردانى أمام محكمة جنايات مصر — وكانت برياسـة المستر دليروجلى ، وعضوية أمين بك عبد الحميد ، وعبد الحميد بك رضا ، المسـتشارين ، وجلس فى كرسى النيابة عبد الخالق باشا ثروت ، النائب العام • وتولى الدفاع عن المتهم كل من أحمد بك لطفى ، وابراهيم بك الهلباوى ، ومحمود بك أبو النصر • وبعد أن سمعت المحكمة الشهود والمرافعات ، أصدرت حكمها يوم ١٨ مايو ١٩١٠ ، باعدام المتهم [١٨] •

ومرة أخرى ، تابع ادوارد بيل — القنصل الأمريكى العام بالقاهرة هذه الأحداث ، وبعث الى حكومته بواشنطن بتقرير بالغ الأهمية ، مؤرخ فى ٢٥ أبريل ١٩١٠ ، قبل صدور الحكم على الوردانى بثلاث أسابيع ، جاء فيه [١٩] : « •• يسرنى أن أخبركم ، أنه اعتبارا من ٢١ أبريل (الجارى) بدأت محاكمة قاتل رئيس الوزراء السـابق — الشاب المسلم ، الوطنى ، ابراهيم الوردانى — ومنذ أن ارتكب الجريمة

---

(١٨) الرافعى ، محمد فريد ، المصدر السابق ، ص١٨٧ •

(19) National Archives Microfilm Publications., op. cit., No. 660 — April 25, 1910 — Supject : (Trial of the late Late Prime Minister's Assassin).

فى العشرين من فبراير (الماضى) ــ يسعى أفراد الحزب الوطنى الى أبعاد الشبهة عنهم ، ويدفعون انتماء ابراهيم الوردانى لحزبهم وقدسرت هنـــا فكرة مؤداها أن انجلترا ســـوف تســـــعى للانتقام لمقتل رئيس الوزراء ، الذى كان يعضد الحكم البريطانى فى مصر ، ومن ثم نبتت فكرة ايفاد لجنة برئاسة كتشنر باشا ليضرب بيد قوية ، ويعيد للسلطة الانجليزية مكانتها فى البلاد • من ناحية أخرى ، بدأت صحافة الحزب الوطنى نوع من تبرير وقوع الجريمة ، وتقديم المعاذير عنهـــا ــ تتلخص فى أن الوردانى شاب صغير جدا ، وربما كان به خلل عقلى • وفى الوقت الذى لم تظهر فيه أية اعتراضات على هذه التبريرات من جانب المسئولين فقد أدى كثرة الحديث حول هذا الموضوع الى أن أصبح القاتل بطلا شعبيا ووطنيا عظيما ــ ثم بلغ الأمر ذروته فى تأليف منظومة شعرية تمجد هذا العمل ، نشرت فى الصحف والمجلات المدرسية، مزينة بصورة الوردانى كبطل وزعيـــم وطنى ــ الأمر الذى ينجم عنـــه متـــاعب حقيقية فى الأقـــاليم • وقد انقضى الشهران ، بين وقوع الجريمة ، وبداية التحقيق فيها من جانب المسئولين ، مضـــت فى البحث عن شركان الوردانى ، وهـــذا فى حد ذاته أدى الى عـــدم جـــدوى مثل هذه الاجراءات • وقد اتخذ فى خلال هذه الفترة قرار الحكومة من أن كلمة الجمعية العمومية ، ستكون قاطعة فى مسألة قناة السويس ، والذى عرضه عليها أعضاء الحزب الوطنى لاضعاف الحكومة ، ودليل على الثقة بالنفس • وبالرغم من أن الوردانى قد اعتـــرف بجريمته بمحض ارادته فان الاعداد للدفاع عنه قد اتخذ بعناية فائقة • وفى بداية المحاكمة ، قدمت البراهين على أن بطرس غالى كان قد توفى ، ليس بسبب الاصابات التى سددها له الوردانى ، ولكن نتيجة لعملية جراحية قد أجريت له مؤخرا على يد أحد الأطباء الانجليز المشهورين ــ وتطلب ذلك أن تقدم الاثباتات من كلا الجانبين ــ وكان على ثلاث من القضاه دراسة القضية ــ ذلك لأن نظام المحلفين لايجرى العمل به فى مصر : قاض رئيس المحكمة أوربى ، واثنين آخرين من القضـــاه

المصريين كمستشارين [٢٠] قوبلوا جميعا بطوفان من التهديدات أرسلها لهم أصدقاء الوردانى • وبعد سماع التقرير الطبى ، أعلن رئيس المحكمة تأجيل القضية فى اليوم التالى ، وحدد لجنة من أحد المصريين واثنين من الانجليز ، لاعداد تقرير عن شهود الاثبات • على أية حال ، فان ذلك مثل جيد على قدرة الاجهزة المصرية على التملص من المسئولية والقائها على أطراف أخرى — فاذا كان التقرير الطبى قد أيد أن وفاة بطرس باشا كانت بسبب اصابته ، فان الدفاع سيعد العدة ليسقط المسئولية عن الوردانى بسبب الخبل وحالة الجنون التى يعانى منها والتى ورثها عن أسرته — ولايمكن أن تستأنف اجراءات نظر القضية قبل السابع من مايو المقبل — ومن الممكن فى خلال هذه الفترة أن ينبش قبر رئيس الوزراء الراحل • ولايعتقد أحد هنا أن الوردانى سوف يشنق•• وفى خلال هذه الفترة ، القلق على أشده ، والأقباط المصريون فى غاية العصبية • وفى خلال اليومين الأولين لبداية المحاكمة ، اتخذت احتياطات أمن مشددة غير عادية للحيلولة دون وقوع أية اضطرابات، خاصة بعد الهتافات العدائية التى أطلقها طلبة الأزهر فى الشوارع ضد الوجود الانجليزى • ويوجد تيار قوى بين الأوربيين الان يقرر أن روح التعصب الدينى والكراهية قد ازدادت حده عما كانت عليه فى أى وقت مضى منذ الثورة العرابية فى عام ١٨٨٢ — الاختلاف الوحيد ، هو أن شعار العرابيين كان (مصر للمصريين) ، أما اليوم ، فالمهيجون يحملون شعار (مصر للمسلمين) •

وبعد صدور حكم الاعدام على الوردانى — بيوم واحد — بعث القنصل الأمريكى بتقرير الى حكومته ، ذكر فيه أن اللجنة التى شكلت لفحص التقرير الطبى قد قررت التصديق على ما جاء به ، من أن الوفاة كانت نتيجة لطلقات ابراهيم الوردانى على القتيل — وفى اليوم التالى — ١٨ مايو — صدر قرار ادانة القاتل ، وأرسل لتنفيذ

---

(٢٠) كان رئيس المحكمة « دليروجلى » ، والمستشارين هما ، أمين على بك ، وعبد الحميد رضا بك •

حكم الاعدام • وأنه لمن الطريف ــ أن نشير الى أن محمد بك فريد ، زعيم الحزب الوطنى ، قد غادر مصر الى أوروبا قبل انتهاء المحاكمة (٢١) ــ كما أنه من الجدير بالذكر أن الدفاع قد أستأنف الحكم بالنقض ، وقد يتم التنفيذ فى الأيام الأولى من شهر يونيو • وبالرغم من أن الكثيرين هنا يعتقدون أن الوردانى قد يفلت من تنفيذ حكم الاعدام ، فان السير ألدون جورست قد أخبرنى أنه يعتقد أن محكمة النقض ستؤيد الحكم الصادر بالاعدام على الوردانى ــ كما أنه مقتنع بأن الخديوى لن يعفو عنه (٢٢) •

وبعد تنفيذ حكم الاعدام فى الوردانى ــ بيوم واحد أيضا ــ بعث القنصل الأمريكى بتقرير ، جاء فيه : « •• وكما سبق أن ذكرته من قبل ، فانه قد صدر حكم الاعدام فى ١٨ مايو ــ لكن الحكم استؤنف أمام محكمة النقض وقد وضع الدفاع أحد عشر اعتراضات أمام هيئة المحكمة ، لعل أهمها ذلك الاعتراض الذى دفع به لطفى بك ، أحد أعضاء هيئة الدفاع فى أثناء مرافعته ــ فقد استمعت له هيئة المحكمة على مدى ساعتين كاملتين فى الحادى عشر من يونيو ــ وطبقا للقانون المصرى ، يحق للوردانى مدة أسبوعين ، يعترض خلالها لدى عدالة سمو الخديوى ــ لكن سموه كان قد غادر مصر لقضاء الصيف فى الخارج ، لذلك وقع عبء النظر فى ذلك الاعتراض على عاتق محمد سعيد باشا ، رئيس الوزراء ووزير الداخلية • لكنه رفض

---

(٢١) غادر محمد فريد مصر فى أوائل مايو ، قبل انعقاد مؤتمر بروكسل فى سبتمبر ١٩١٠ ــ وزار لندن ، حيث ألقى خطابا ضافيا أشار فيه الى حادث مقتل بطرس باشا ، قائلا : « لايجوز اتخاذ عمل ارتكبه فرد من أبناء الأمة ، وكفر عنه ، ذريعة لاتهام هذه الأمة كلها بالارهاب والفوضوية ــ ان الجرائم السياسية ترتكب كل يوم فى أوروبا وامريكا دون أن تتحرك لها الانسانية بأسرها .. ولم تفكر الأمم الأخرى فى احتلال بلادهم أو الاغارة عليها » .

(22) National Archives Microfilm Publications., p. cit., No. 4 (May 20, 1910) — Subject : (Trial of the Late Prime minister's Assassin).

العفو عن الوردانى ، أو حتى تخفيف العقوبة لذلك ، فقد تم تنفيذ حكم الاعدام على القاتل فى تمام الساعة السادسة من صبح يوم ٢٨ يونيو (الجارى) بسجن محكمة الاستئناف الوطنية بالقاهرة •

لقد أبرزت هذه القضية عدة ملاحظات : فقبل أن يمثل الوردانى أمام المحكمة فى أبريل الماضى ، اعتقد أقلية من الناس ، وطنيون وأجانب أنه سوف يعدم ، فى الوقت الذى كان فيه أعضاء الحزب الوطنى واثقون من أنه سيفلت من عقوبة الاعدام ، ولم يبذل الانجليز أى جهد لاخفاء شعورهم • لقد كان الاتجاه العام ، الذى يشارك فيه المقيمون الأجانب هو أن الوردانى سيقف أمام محكمة عسكرية ، ثم يعدم فى ميدان قصر عابدين فى اليوم التالى لمصرع بطرس باشا غالى • ومهما يكن من أمر ، فان السلطات الانجليزية ، والحكومة المصرية ، قررتا أن تتيح للوردانى الفرصة كاملة للدفاع عن نفسه ، وأن تتخذ كافة الاجراءات القانونية المتبعة فيما عدا يوم تنفيذ الحكم ، فقد منع مندوبو الصحافة من الحضور • وعلى الرغم من أن السير ألدون جورست ظل طيلة الوقت معتقدا أن الوردانى سيعدم ، فانني ، مع بعض كبار موظفى الحكومة المصرية ، والرسميين الانجليز ، وحتى قبل تأجل جلسات المحكمة لبحث دلائل الاثبات بمعرفة اللجنة الطبية ، كنا فى غاية الضيق للنتيجة التى أسفرت عنها المحاكمة وكنا نرى ضرورة عقد مثل هذه المحكمة العسكرية • نقط أخرى — وهى أنه كان يجلس فى كرسى رياسة محكمة النقض ، المستر بوند ، الذى كان أحد أعضاء محكمة دنشواى الشهيرة ، والذى كان بطرس غالى من بين أعضائها أيضا ، والتى أصدرت حكمها فى الثامن والعشرين من يونيو (نفس تاريخ اعدام ابراهيم الوردانى) عام ١٩٠٦ — والذى كان يقضى بالاعدام على أربعة من المواطنين ، وبالسجن مددا مختلفة على عدد آخر لقتلهم ضابط انجليزى • وقد كان هذا واحدا من الأسباب التى أبداها الوردانى ، واعتبر بطرس غالى خائنا لوطنه ، ويستحق الموت • وقد نشط محامو الوردانى فى الاعتراض على تولى المستر

بوند رئاسة محكمة النقض ، باعتباره الزميل الأول لبطرس غالى فى محكمة دنشــواى ، وأن ذلك مدعاة لأن ينحاز فى الحكم الى صــف زميله المتوفى ضد السجين [٢٣] .

كتب الوردانى ، بخطه ــ قبل اعدامه ــ اقرارا بأنه قد قتــل بطرس غالى لأنه خائن لوطنه ــ وأعلن بأنه غير نادم على فعلتــه ، لأنه خدم البــلاد . واذن ، فقد كانت هذه الجريمة ، جريمة سياسيةــ لكن الاستعمار لم يكن ليترك فرصــة كهذه تفوته ، ليحاول بها الاجهاز على الحركة الوطنيــة ــ فشنت الصحف الاستعمارية هجوما عنيفــا لاتهام الوطنيين بالتعصب ، فقالت « الجازيت » ، بأنه (حادث دينى)ــ وأشارت الى ماكان قد كتبته « اللواء » فى عام ١٩٠٨ من تهديد للاقباط ودعت الى ايجاد فرق من الاحتلال فى مدن الوجهين ، لأن الجــرائد « المتطرفة » تحرض على كراهية الأقباط والمسيحيين علنا . وقد ذهبت أغلب الصحف الاســتعمارية الى مثل هذا الاتجاه المحرض على الفتنةــ فدعت « ديلى جرافيك » الأقباط الى القيام بعمل يؤمنهم على أى طريق . وأعلنت « البورص » جهارا بأن بطرس قد قتل لأنه مسيحى .

وهكذا ، لم يمض الا قليــل ،حتى كانت البلاد تشــــهد موجة من الفتنة والصراع الدينى لم تشــهد لها مثيلاً من قبل ــ وأعــان الأقباط تأجيل مؤتمرهم المنشــود فى فبراير ١٩١٠ ، والذى كان محددا لحل خلافاتهم الطائفية ، الى أجل غير مسمى . كما أعلنوا عن عزمهم على الالتجاء الى دولة قوية ، تكون عضــدا لهم فى المستقبل ، ورفعوا أعلام الحداد السوداء فوق منازلهم ، وعلت أصواتهم بالتظاهر احتجاجا على الحــادث ، وغلفوا الدعوة بطلب توخى الحكمة والاعتدال من المتظاهرين وهو أمر لم يكن ممكنا فى ظل صــيحات الانتقام التى انطلقت

---

(23) National Archives Microfilm Publications., op. cit., No. 35 (June 30, 1910) — Subject : (Excution of the Prime Minister's Assassin).

والبرقيات التى تقاطرت من كل أنحاء البــلاد ، منادية بالمواجهة المنظمة والشديدة مع المســلمين ، واعلان الحكم العرفى • وقد كان بعــض الأقباط ومن ورائهم الاســتعمار ، يعلمون جيدا أن هذه الجريمة سياسية وليست جريمة دينية ــ حتى أن المستر جراى ، اضــطر الى التصريح « بأن الحادث جريمة سياسية محضة » ــ لكنه ترك للجرائد الاستعمارية مهمة الاســتفادة من هذا الحادث ، كما ترك ذلك أيضا للمتعصــبين من الأقباط والعملاء ــ فشــدد هؤلاء حملتهم على الحزب الوطنى ، ومهدوا لسياسة أكثر ارهابا ، فقالوا بأن الخطر قادم ، وأن الحركة الوطنيــة قد انتشرت فشملت محامين ومهندسين وأطباء وطلاب وكتاب وصناع ، بسبب ســياسة اللين • وحاولوا أن يثيروا فى الخديوى النزعة الى الارهاب ، وقالوا ، أن المظاهرات ستمتد لتشــمل بعد النظار ، الخديوى نفســه •

والخلاصــة أن متعصبى الأقباط قد جعلوا من الحادث مأتمــا قائما ، ودعوة الى الثأر والانتقــام ، ونداء للاســتعمار للحــكم المباشر والغاء الجيش المصرى ، وزيادة قوات الاحتــلال ــ الأمر الذى أزعج أنصــار الخديوى ــ فنشرت « المؤيد » برقيات من الأهالى الأقبــاط والمسلمين ، باســتنكار هذه الدعــوة المفرقة ، لأن الدعوة للحــكم الاســتعمارى المباشر التى صــــدرت من الأقبــاط ، لا تلائم مصالح الخديوى [٢٤] •

على أن القنصــل الأمريكى بالقاهرة ، اتبــع أســلوبا آخر فى قياس مشاعر المصريين خلال تصاعد هذه الموجة من الفتنــة الطائفية ، مســتغلا فى ذلك أعضاء البعثة التبشيرية الأمريكية فى مصر ، وبعث الى حكومته يخبرها أنه « قد أرسل خطابا (دوريا) الى عشرين من الأعضاء البارزين للبعثة التبشيرية الأمريكية فى مختلف المناطق ، للافادة عن

---

(٢٤) مصطفى النحاس جبر ، المصدر السابق ، ص١١١ •

الأوضاع السياسية والدينية لدى جيرانهم » (٢٥) ــ كما ذكر أن هؤلاء الأعضاء يتمتعون بذكاء وافر ، وأنهم على اتصـــال دائم بالناس ، وآن معظمهم غير مقيدة أسماؤهم فى السفارة .

وقد جاء رد هؤلاء على خطاب القنصـــل الأمريكى ، شـــكل تقرير يتضمن انطباع كل منهم عن الحالة الســائدة فى منطقتـــه ــ فعلى ســبيل المثال ، جاءه تقرير عميله فى أســيوط ، يقول :

« ان الاحتياطات قد اتخذت من جانب المسئولين والحكـــام فى

---

(25) National Archives Microfilm Publications., op. cit., No. 651 (April 11, 1910) — Subject Political and Religious in Egypt).

وقد أورد القنصـــل ضمن تقريره الى الحكومة الأميكية ، نمـــوذج للخطاب الدورى الذى أرسله لأعضاء البعثة التبشيرية فى مصر ، جاء فيه :

« سوف أسعد كثيرا ، فى الوقت الذى أتمكن فيه من خدمة حكومتنـــا اذا أرسلت لى خطابا عاجلا ، تصف فيه حالة الشعور العام لدى جماعة المواطنين لديكم ؟

* هل هى نفس الحالة التى كانت عليها منذ سنوات ، أم أن شعور الكراهية بين الطوائف المختلفة قد ازدادت حدته مؤخرا ؟
* هل لديك أية دلائل تشير الى وجود نوع من التعصـــب ؟
* هل هناك زيادة فى الكراهية نحو الانجليز عما كانت عليه ؟
* هل توجد أعتقالات أو متاعب متوقعة اذا سارت الأمور على ماهى عليه الان ؟

ــ مع الشـــكر مقدما

ومن المدهش حقا ،أمرهذه البعثات التبشيرية الأمريكية ــ فمن خلال الوثائق العديدة التى تم فحصها ، والتى لايتسع المقام لعرض تفاصيلها ، يتبين أنها كانت تتخـــذ من الدين ستارا تخفى وراءه دوافع سياسية ــ وأن أعضاءها كانوا موزعين فى القطر فى طول البلاد وعرضها ، توزيعـــا يكاد يغطى جميع المناطق الســـكانية . كما أن أفرادها كانت لهم بعض الحرف التى تتصل بالجماهير ، كالدين ، والطب ، والتدريس ــ وعن طريق هذا الاتصال بالناس ، ، كانوا يســـتطيعون مد السفير الأمريكى فى القاهرة بأدق المعلومات وأوفرها ، واســـتطاعت أمريكا بالتالى عن طريق هؤلاء ، معرفة مركز بريطانيا فى البلاد ، فى الوقت الذى كانت فيه ترقب كل حركتها .

الأقاليم لتهدئة حالات الكراهية التى ظهرت مؤخرا ، خاصة فى الأسبوعين الماضيين وبالذات فى أعقاب اغتيال رئيس الوزراء — وما زالت هناك بعض الفوضى تجتاح بعض الأماكن ، فى الوقت الذى تتخذ فيه بعض الاحتياطات ، حتى لاتزداد اشتعالا • وقد وصلتنا أخبار عديدة فى الأيام القليلة الماضية عن أشخاص مهددين بالقتل ، لكننا لم نسمع ، فيما عدا واحدة فقط بعيدة عن منطقتنا ، ان هوجم أى من هؤلاء المهددين ، وأن الحالة هادئة تماما • على أن الكلمات المعادية للانجليز قد ازدادت حدتها عما كانت عليه من قبل ، ونعتقد أن المتاعب ستعود مرة أخرى ، اذا لم تضع السلطات يدها على هؤلاء المثيرين للشغب ، خاصة أولئك المتعصبين من محررى الصحف ، التى يقرؤها ويناقش محتواها أعداد هائلة من الجهلاء الذين يستمعون الى طرف واحد فقط ، وأصبحوا ممتلئين بكراهية التعصب لكل ما هو أجنبى • وفى حالة وجود أحد الزعماء الدينيين ، تزداد نبرة « الحرب المقدسة » — ويكون ذلك فى دائرة محلية ، وليس بصفة عامة • وقد وصلتنا أنباء هنا ، تقول أن زعماء الحزب الوطنى فى القاهرة قد دعوا أفراد الحزب فى جميع المناطق لعقد مؤتمر اسلامى كبير — ونعتقد أن هذه الدعوة جادة •

ومن عضو البعثة فى « الفجالة » — بالقاهرة ، وصل الى القنصل الأمريكى تقرير ، يقول : « ردا على خطابكم للاستعلام عن الشعور القومى لدى السكان ، أود أن أشير الى أن أغلب اتصالى كان مع عينات من المسيحيين — ووجدت أن الاتجاه العام كان عدائيا من جانب قطاع من المسلمين نحو هؤلاء المسيحيين ،وأن هذا العداء قد زاد زيادة ملحوظة نتيجة للاحداث الأخيرة » •

ومن بنى سويف — جاء تقرير آخر يقول : « أن هناك اجماع عام واتفاق على كراهية العناصر المسيحية—حقيقة أنه لاتوجد أية فوضى أو اضطرابات حتى الان فى منطقتنا ، لكننا سمعنا عن وجود تهديد عظيم للاقباط فى الأرياف المحيطة بنا ، من جانب المسلمين ، والذى سينفذ

ضدهم اذا ما أعدم الوردانى — وبطبيعة الحال ، توجد كراهية كبيرة للانجليز ، خاصة من جانب الجرائد الاسلامية • ونحن هنا لم نصادف أية متاعب ، وجميع العناصر تعاملنا بالأدب — لكننى أعتقد أنه ستنشأ مثل هذه المتاعب اذا تهاونت الحكومة • ويعتقد الكثيرون أن ما أصاب الانجليز جاء نتيجة لموقف الحزب الوطنى ، وأظن أنه لو استطاع الوردانى الهروب بأى كيفية ، فان ذلك سيقود الأوضاع الحالية الى حافة الهاوية » •

ومن طنطا ، أرسل عضو البعثة يقول : « أستطيع أن أقرر لكم أن الوضع الحالى لم يسبق له مثيل ، ولم يصادفنى شبيه له على مدى العشرين عاما التى قضيتها بين المصريين •• فى المنازل ، وفى القطارات ، حيث أسافر أحيانا ، وفى المقاهى ، وفى النوادى — كل أصدقائى متفقون معى على أن الحالة لم تكن أبدا أسوأ مما هى عليه الان منذ (عصيان عرابى) — وتعتبر طنطا مرتع خصب لأى تعصب ، وأى اثارة كفيلة باشعالها كما كانت أيام عرابى بشكل مخيف •• ماذا نفعل ؟ — لا أدرى » [٢٦] •

ومهما يكن من أمر ، فانه يستخلص من هذه التقارير ، ومن غيرها — أنه لم تقع حوادث دموية ، أو اضطرابات تقضى الى فوضى شاملة فى النواحى المختلفة ، كما يحلو للكثيرين من الكتاب أن يصوروا الوضع العام فى البلاد فى أعقاب مصرع بطرس غالى — كل ما هنالك، أنه كان لدى المسيحيين شعور عام بالخوف من وقوع مثل هذه الاضطرابات حتى سرت اشاعات فى أنحاء متفرقة ، سمع عنها أعضاء البعثة التبشيرية الأمريكية (قريبة من ناحيتهم)— لكنها لم تتأكد لديهم •

---

(26) National Archives Microfilm Publications., Ibid.

على أن الملفت للنظر ، فى موقف الانجليز ، من هـذا النزاع الطائفى هو أن سـلطات الاحتـلال عمدت الى اقصاء كبار الموظفين ، من مسلمين وأقباط ، واحلال عناصر من جلدتهم فيها ، بحجـة عـدم كفاءة المصريين عموما لشـغل هذه الوظائف ــ وفى مرحلة تالية ، عندما بدأت نبرات التذمر تزداد حدة ، خاصة بين أوساط المثقفين ، ركز الانجليز على تعيين عدد من المسـلمين فى بعض هذه الوظائف بالتـدريج ، تحت شـعار (حق الأغلبيـة) ــ وذلك حتى تثور مشكلة اضطهاد الأقباط ، وينمو الاحسـاس الذاتى لدى كل من المسـلمين والأقباط ــ ثم يسعى الانجليز بعد ذلك لجذب بعض العناصر القبطية اليهم ، الى أن تثـور المشكلة من الجانب الاخر ، فيتدخل الانجليز لعلاجها لصـالح الأقباط ، والتظاهر بحمايتها من المسلمين • ولا شك فى أن هذه السـياسة البريطانية قد نجحت فى الوفاء بالغـرض المنشود وهو خلق حالة من التوتر بين المسـلمين والأقباط ، انعكست على صفحات الجرائد ، حيث لجأ كل فريق الى اتهام الاخر بالتعصب ، وطفحت الصحف بالمقالات المتطرفة والتعبيرات الحادة • وكانت صحيفتا (الوطن) و (مصر) تنفخان فى هذه الروح • ورغم أن بطرس غالى كان يعارض هـذا الاتجاه ، فان حادث اغتيـاله قد زاد من تـلاحم الصـفوف القبطية ، وبدأ الكثيرون منهم يزيدون على الكتابة فى الصحف القبطية ، الشكوى الى الصـحافة الانجليزية ــ فسـارعت بعض هذه الصـحف ، مثل (ديلى نيوز) و (ديلى كرونيل) ــ وهما من صـحف الأحرار ، الى تأييد فكرة عقد مؤتمر للأقباط لحل خلافاتهم الطائفية ، وتوحيد مواقفهم المتباينة ــ وهى الفكرة التى تأجل تنفيذها بسبب حادث اغتيال رئيس الوزراء • هذا بالرغم من أن ألدون جورست كان معارضا لفكرة عقد هذا المؤتمر ، ورأى أن الأقباط يسـعون الى الحصول على مكانة أكثر من حجمهم الحقيقى ، بالاضـافة الى أن حالة التوتر التى أعقبت اغتيال بطرس غالى من الممكن أن تتحول الى صدام خطير يهدد الأمن ، ويثير مشـاعر المسلمين ، ورغم هذه المعارضة التى أبداها

جورست لعقد المؤتمر ، الا أن الدوائر الانجليزية فى لندن حرصت على الاســتفادة من هذه الفرصـــة ، وعدم اغضاب الأقباط ، فســمحت للحكومة المصرية بعقد المؤتمر ، بعد أن تعهد الأقباط بعدم حـــدوث شىء يؤدى الى الاخلال بالأمن ، وعدم التعرض للاوضاع الســياسية القائمة فى البـــلاد • وعلى ذلك ، تولى مطران أســيوط وجماعة من أعيان الوجه القبلى ، الدعوة لعقد المؤتمر ، وتلخصت التوصـــيات التى انتهى اليها (٢٧) ــ فى طلب العطلة يوم الأحد بجانب الجمعة ، وأن تكـــون القاعدة للتوظف هى الكفاءة وحدها ، ووضـــع نظام يكفل تمثيــل كل عنصر مصرى فى المجالس النيابية • هذا فى الوقت الذى لم يتعرض فيه المؤتمرون من قريب أو بعيد لوجود الاحتلال ، أو حتى مجرد انتقـــاد لسياسته أو مطالبته بتحقيق وعوده (٢٨) •

كان انعقاد المؤتمر القبطى بأسيوط فى مارس ١٩١١ ، ســببا فى بروز فكرة عقد مؤتمر اسلامى آخر فى شهر ابريل ١٩١١ ردا عليـــه ــ ولم يكن أمام الحكومة المصرية ، أو سلطات الاحتلال من حل ، سوى الموافقة عليه ، حتى توازن بين شـــعور أفراد الطائفتين ــ وبهذه الوســيلة يكسب الاحتلال الطرفين ، ويخسر الطرفان بعضــهما • واذا كان الاحتـــلال قد اســتفاد من عقد المؤتمر القبطى والمؤتمر الاسلامى (الذى سمى بالمصرى فيما بعد) ــ كمؤتمرين انقسامين ، فانه استفاد بدرجة أكبر من المؤتمر الاســلامى • ذلك أن رئيسه ــ رياض باشا ــ وسكرتارية المؤتمر ، كانوا على اتصال دائم بنظارة الداخلية ، يطلعونها على برامجهم ، ويتلقون منها مشورتها ، بالنســبة للعديد من المسائل • هذا الى أن المؤتمر قد ضـــم كل الأحزاب اليه ، بما فيها الحـــزب الوطنى ، وخلت كلمات أعضائه فيه من كل مناوءة لســياسة الاحتلال ، بعد أن منعت نظارة الداخلية مناقشة أى مسائل سياسية بداخله •

---

(٢٧) دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المصدر السابق ، ص٧٧ •
(٢٨) الرافعى ، المصدر السابق ، ص٢٩٣ •

ومهما يكن من أمر فقد نجحت سياسة الاحتلال فى الوقيعة ، وخداع الجماهير واجتذابها بعيدا عن الاهتمامات السياسية ، تحت ضغط الارهاب والقمع الادارى والقانونى — وأدت سياسة الفتنة الى ايجاد المبرر لخلق تنظيمات بوليسية ، أكثر خطورة على كفاح الوطنيين [٢٩] .

كما أثمر هذا الانشقاق أولى ثماره فى عام ١٩١٣ — عندما صدر القانون النظامى للجمعية التشريعية ، وتقرر فيه مبدأ (التمثيل الطائفى) — لتكريس الفرقة بين الأقباط والمسلمين — اذ نص على أن تقوم الحكومة بتعيين أربعة من الأقباط ، وثلاثة من عرب البدو — ونجحت سياسة الاحتلال فىالظهور بمظهر الحريص على صفوف الأقليات ، وتم اعداد قانون الهيئة التشريعية خفية عن الرأى العام ، الذى كان يطالب بانشاء « هيئة برلمانية ذات تكوين تمثيلى شامل ، واختصاص تشريعى مطلق) [٣٠] — ولكن الشعب لم يطلع على القانون الا بعد أن وقع عليه الخديوى عباس الثانى ، وبعد أن عقد هذا المجلس دورته الأولى ، تأجل انعقاده الى أجل غير مسمى . ثم قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، لتضع مصر كلها تحت الرقابة فى ظل الحماية البريطانية — حتى انتهت الحرب ، واشتعلت ثورة ١٩١٩ ، لتنقل الحركة الوطنية الى مسار جديد .

---

(٢٩) مصطفى النحاس جبر ، المصدر السابق ص١٢٠ .

(٣٠) جمال بدوى ، المصدر السابق ، ص٥١ .

من أرشيف الحركة اليسارية فى مصر

١٩١٩ ــ ١٩٢٥

د. عاصم الدسوقى
جامعة أسيوط وقطر

خضع تاريخ الحركة اليسارية فى مصر منذ مطلع هذا القرن الى عدد لا بأس به من الدراسات بأقلام مختلفة . وبعض هذه الدراسات يطلق على هذه الحركة اسم الحركة « الاشتراكية » ، والبعض الاخر يطلق عليها اسم الحركة « الشيوعية » مع وجود فارق جوهرى وزمنى بين التسميتين . وبعض أصحاب تلك الدراسات كانوا ينتمون فى فترة أو أخرى الى التنظيمات اليسارية فجاءت كتاباتهم من وحى معايشة الحركة فكرة وتطبيقا ومعاناة من قمع ومطاردة بمعرفة السلطات . والبعض الاخر كان من خارج اطار أى تجمع من تلك التجمعات ، ولنقل أنهم الأكاديميون الذين يبحثون عن جزئيات الموضوع وصولا الى حقيقة متكاملة ولايريدون لدراساتهم أن تكون منحازة .

وبصرف النظر عن الملاحظات التى قد توجه الى أصحاب تلك الدراسات من المنتمين ومن غير المنتمين ، فان الرجوع دوما الى أرشيف هذه الحركة لابد وأن يغنى محاولات التقييم فتتصحح بعض الأفكار الخاطئة حول تاريخ هذه الحركة أو العكس . كما تتبدد بعض سحب الغموض التى تكتنفها . ومن هنا كانت هذه المحاولة التى تقوم على الافادة من بعض وثائق وزارة الخارجية البريطانية المودعة بدار المحفوظات البريطانية [1] . وهى وثائق لم تتح لها الظهور من قبل

(١) هذه الوثائق موجودة تحت رقم F. O. 141-779 X IJ3967 مع اختلاف التواريخ .

منفصلة أو متضمنة فى بعض الدراسات المعينة [٢] • وفى محاولتنا ابراز هذه الأهمية كان لابد من الاشارة بين موضع وآخر الى الرأى أو المعلومة التى وردت فى تلك الدراسات من حيث وجود اختلاف بينها وبين تلك الوثائق •

ومما يزيد من صعوبة اجتلاء كل الحقائق عن هذه الحركة دفعة واحدة عدم وجود أرشيف خاص بها تحت عنوان أو آخر ، فالباحث يجد الوثائق المتعلقة بها متناثرة فى ثنايا المراسلات المتبادلة بين السلطات البريطانية فى مصر (دار المعتمد البريطانى ودار المندوب السامى ثم السفارة فيما بعد) وبين وزارة الخارجية البريطانية • والأمر يحتاج الى وقت طويل لاستخلاص تلك المادة الوثائقية لضمان جمع كل مايتعلق بالموضوع ، وهو أمر فوق طاقة الباحث الفردى • أما اذا انتقلنا الى الأرشيف المصرى فعلى الباحث أن يعد نفسه للحفر فى الأرض الصلدة •

* * *

ولعل البداية المناسبة لاستعراض هذه الوثائق الفتوى التى أصدرها مفتى الديار المصرية الشيخ محمد بخيت ضد الشيوعية [٣] فى

---

(٢) يعتبر الدكتور رفعت السعيد مؤرخ الحركة اليسارية فى مصر بما أصدره من سلسلة الدراسات المختلفة التى بدأت بكتابه « تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠ — ١٩٢٥ » ١٩٧٢ بيروت وما تلاه من دراسات على هذا النحو : اليسار المصرى ١٩٢٥ — ١٩٤٠ ، تاريخ المنظمات اليسارية فى مصر ١٩٤٠ — ١٩٥٠ ، الصحافة اليسارية فى مصر ١٩٢٥ — ١٩٤٨ ، اليسار المصرى والقضية الفلسطينية . وفى دراسته الأولى أشار الى بعض الوثائق البريطانية ليس بينها مانقوم نحن بنشره الان والتى لا تقلل بحال من شأن محاولاته القيمة وان كانت تساعد على اجتلاء حقائق الحركة اليسارية فى مصر .

(٣) يحسن فى هذا المجال الاشارة الى أن أغلب وثائق الفترة تطلق على الحركة اليسارية فى مصر اذ ذاك اسم « البلشفية » وفى أحيان قليلة تطلق عليها « الشيوعية » أو « الماركسية » . ويبدو أن ذلك يرجع الى انتصار البلاشفة الروس وهم الأغلبية على المناشفة (الأقلية) واعتلائهم السلطة فأصبح كل مناصر لذلك النوع من الأفكار والاتجاهات يعتبر بلشفيا .

١٨ أغسطس ١٩١٩ قائلا : « ان طريقة جماعة البلشفية طريقة تهدم الشرائع السماوية وعلى الأخص الشريعة الاسلامية »[٤] • وكان صدور هذه الفتوى جزءا من سياسة مواجهة النشاط اليسارى الذى كان يتغلغل فى الدوائر العمالية خلال أحداث ثورة ١٩١٩ لتوجيه الثورة لخدمة أهداف التحول الاجتماعى • وقد جاءت الفتوى بناء على سؤال زعم المفتى أنه وصله من أحد المسلمين • وكان معروفا لدى أوساط العناصر الثورية فى المجتمع أن السلطات البريطانية وراء اصدار هذه الفتوى خاصة وأنها ترجمت الى اللغة الانجليزية لتنتشر بين سكان المستعمرات البريطانية وأغلبها من الطوائف الاسلامية وخاصة فى الهند• وجريا على عادة السلطات البريطانية فقد أطلقت عملائها فى كل مكان لالتقاط الانطباعات المختلفة لصدور الفتوى للافادة منها فى رسم سياسة للمواجهة •

---

(٤) يفهم مما كتبه رفعت السعيد فى دراسته الأولى المشار اليها (ص ٢٢١ — ٢٢٤ الطبعة الخامسة) أن هذه الفتوى صدرت فور اعتزام العناصر الاشتراكية اعلان تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى فى أغسطس ١٩٢١ بناء على مانشرته جريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ١٩٢١/٨/١٦ لمراسلها بالاسكندرية . وكانت الفتوى — فى رأيه — جزءا من الحملة الضارية التى شنت على محاولة الاشتراكيين . ولكن الوثائق التى نحن بصددها تشير الى أن الفتوى صدرت فى ١٨ أغسطس ١٩١٩ وقبل اجتماع الاسكندرية السرى فى أغسطس ١٩٢١ الذى أذاعته الأهرام بشأن النية فى اعلان الحزب . وهذا يدل على وعى السلطات المبكر بنوايا العناصر الاشتراكية وترصدها اياهم . والأقرب الى التصديق أن هذه الفتوى صدرت عندما تيقن للسلطات البريطانية وجود خلايا اشتراكية بالقاهرة والاسكندرية وبورسعيد خلال ١٩١٩ (أنظر ص ١٩٧ من كتاب رفعت السعيد الذى استند فى ايراد هذه المعلومة على ماكتبه والتر لاكير فى كتابه الاتحاد السوفييتى والشرق الأوسط) ومن الملاحظ أن تلك السلطات لم تفكر فى مثل هذه الخطوة عندما كانت الاشتراكية فى نطاق الفكر دون الحركة فهى لم تصادر مثلا كتاب مصطفى حسنين المنصورى (تاريخ المذاهب الاشتراكية) الصادر فى ١٩١٥ .

وفى ٢٦ أغسطس ١٩١٩ كتب أحد هؤلاء العملاء ويدعى يوسف تقريرا [(٥)] للسلطات البريطانية المختصة يقول فيه أنه ذهب لمصر القديمة ليقابل الشيخ رشيد رضا الذى لم يحضر كعادته للمحل الذى اعتاد الجلوس فيه فى حى عابدين وبعد « التحيات والسلامات وتبادل الأحاديث فى مختلف الموضوعات » تكلما عن البلشفية وعن الفتوى التى أصدرها الشيخ بخيت ..

« وقال الشيخ رشيد أن الفتوى تعتبر تصرفا خاطئا بمختلف المقاييس من جانب المفتى نفسه ، ومن جانب الحكومة البريطانية التى طلبت منه اصدارها . فمن ناحية المفتى لأن الأسلوب الذى كتبت به الفتوى أسلوبا ضعيفا ركيكا ، ولأن المصادر التاريخية التى اعتمد عليها وخاصة فيما يتعلق بتاريخ الزرادشتية والتى أشار اليها تعتبر مصادر ضعيفة . وأما من الناحية الدينية فقد قال الشيخ رشيد أنه لايوجد بين المسلمين من يعتقد أن مسلما يستفتى المفتى عن جماعة يعرف أنها معادية للعقيدة .

« وعلى هذا فان الشيخ رشيد يقول ان كل شخص الان يعتقد أن المفتى قد أرغم على اصدار هذه الفتوى ، وأن السلطات البريطانية هى التى أرغمته . ومن هنا فان كل شخص فى مصر وفى الهند وفى أفغانستان وفى كل مكان يحاول معرفة الأسباب التى دعت الحكومة البريطانية لتحريض المفتى الأكبر على اصدار هذه الفتوى . ومن هنا أيضا سيحاول هؤلاء معرفة حقيقة البلشفية .

« ولقد قال الشيخ رشيد على وجه التحديد » أنه لايوجد فى مصر أحد يعرف الكثير عن حقيقة البلشفية قبل اصدار هذه الفتوى . كما أن الجرائد لم يحدث أن كتبت كثيرا عن البلشفية قبل اصدار هذه

---

(٥) من مكتب المندوب السامى البريطانى الى وزارة الداخلية فى ١٩١٩/٨/٢٨ .

الفتوى • وهذا ماجعل الشيخ كما يقول كاتب التقرير ، يعتقد أن صدور الفتوى كان تصرفا خاطئا أيضا من ناحية الحكومة البريطانية •

ولما سأله العميل (يوسف) عن رأيه فى البلشفية وهل تصلح لبلد اسلامى أم لاتصلح •• أجاب الشيخ الذى قال عنه العميل أنه « الشرقى الوحيد الذى يماثل ميكيافيللى » ، ان ذلك يتوقف على نوع الدعاية التى تبثها •• ان أى شخص — كما يقول الشيخ — يتميز بالقدرة على مخاطبة الناس يستطيع ببساطة أن ينشر البلشفية فى البلد حتى ولو كان هذا الشخص مسلما • فقد قال الشيخ أنه « اذا ماتكلمت مع الناس فى الشارع ومع الطبقة العاملة وتعرفت على مشكلاتهم واستخدمت فى حديثك آيات من القرآن فان كل آية من آياته يمكن تفسيرها لصالح البلشفية • ذلك أن البلشفية تماثل الى حد كبير كثيرا من تعاليم المفسرين الذين عاشوا فى صدر الاسلام • وعلى هذا فان « بيت المال » يعتبر عقيدة بلشفية ، ومذهب الحنابلة نفسه يعتبر كذلك بلشفيا » •

وقد أردف الشيخ قائلا « ولكن اذا ماأردت معارضة البلشفية ومقاومتها فلا ينبغى أن يكون ذلك عن طريق فتوى يصدرها شيخ عجوز هرم مثل الشيخ بخيت لأن كل شخص هنا يعتقد أن البلشفية وسيلة جديدة لاخراج الانجليز من مصر ، كما أن كل شخص يعتقد أن الفتوى لاقيمة لها لأنها فتوى السلطات الحاكمة » • واستمر قائلا : « اذا كنت تريد ايقاف تقدم البلشفية فى مصر فينبغى أولا أن تشرح حقيقتها • وقد يبدو ذلك صعبا ولكن لا مفر من ذلك • والمسألة أن البلشفية — كما هو معروف — ضد مبدأ الملكية ، وفى مصر يلاحظ أن طبقة الملاك كبيرة يبلغ عددها أربعة ملايين •• فاذا عرف هؤلاء أن البلشفية تعنى حرمانهم من ملكية الأرض التى يحبونها كثيرا فسوف يقف كل منهم بجانب الحكومة مقدما كل المساعدة والعون لايقافها • وفى هذه الحالة لن تكون الحكومة بحاجة الى ايقاف البلشفية

لأن طبقة المثقفين أنفسهم الذين يعارضون وجود الانجليز ينتمون الىطبقة الملاك بدرجة أو بأخرى فضلا عن تمتع بعضهم بمناصب رسمية فى الحكومة .. عليك فقط أن تشرح لهم ما هى البلشفية وسوف يقومون بأنفسهم بمعارضتها ومقاومتها » .

تلك هى خلاصة آراء الشيخ رشيد رضا عن البلشفية .

***

ومن تقرير آخر [٦] نعرف أن هذه الفتوى صدرت فى وقت غير مناسب وتسببت فى تنبيه أذهان المصريين دون « مبرر لذلك » . ورغم ما قيل من أن هذه الفتوى صدرت بناء على سؤال وجه الى المفتى من أحد الأشخاص الا أن عامة المصريين كما يقول كاتب التقرير، يعرفون أن الذى سأل هذا السؤال هو أحد عملاء المخابرات البريطانية فى فندق سافوى ، ومن ثم جعلهم ذلك يشكون فى أن السلطات البريطانية لها مصلحة خاصة فى استصدار الفتوى وأكثر من هذا فان الشائعات تسرى بأن المصطلحات الواردة بالفتوى وكذلك الجانب التاريخى فيها قد كتب أصلا باللغة الانجليزية ثم ترجم الى العربية . ولكل هذا ـ كما يقول كاتب التقرير ـ هبطت مكانة المفتى الأكبر لدى الأهالى بل ووزعت منشورات تسب المفتى وتلعنه .

ومن الطريف أن نذكر أن كاتب التقرير قد شبه اصدار الفتوى ضد البلشفية وتنبيه أذهان العامة فى مصر لهذا الموضوع دون مبرر بحكاية اليهودى الذى أيقظ ضابطا تركيا كان ينام فى أحد الخانات فى الطريق قائلا له أنه أثناء نومه وضعت حمارته جحشا صغيرا ويريد

---

(٦) وقد كتبه عميل آخر يدعى ابراهيم ديمترى فى ١٩١٩/٩/١٣ من فندق وندسور بالاسكندرية وقد أرسلت صورة منه الى مستشار الداخلية وصورة الى ادارة المخابرات بالخرطوم بالسودان لأنه يتضمن معلومات عن السودان .

منه التصرف لكى يواصل طريقه ، فما كان من الضابط الا أن امتطى ظهر الحمارة وترك اليهودى يسير على قدميه حاملا على ظهره الجحش الوليد • وبينما هما فى الطريق واليهودى يعانى من آلام الحمل الثقيل قابله يهوديا آخرا وتكلما معا بالعبرية طالبا أن يشرح له أســـباب هذه الورطة التى وقع فيها • فأجاب اليهودى المســكين بأنه ليـــس لديه مايقوله بهذا الشأن سوى أن التركى كان نائما وقد أيقظـــه من نـــومه •

* * *

ثم ينتقل المرشد يوسف فى تقريره السابق الى التعرف على آراء شخصية أخرى فى هذا المجال وهو أمين الرافعى وصــفه بأنه الزعيم الوطنى ورئيس التحرير السابق لجرائد الحزب الوطنى : اللواء والعلم والشعب • ولما سأله عن رأيه فى الحركة الحاضرة قال له أن كلماينشر الان يعتبر كلاما فارغا بالمقارنة لما سوف يقوله هو حالما تســـمح له وزارة الداخلية باستئناف اصــدار جريدته •وكان قد كتب الى الوزارة بهذا الخصوص طالبا اصــدار الترخيص اللازم وبات عنده أملا كبيرا فى الحصول عليـــه •

لكن كاتب التقرير يعلق قائلا بأن السماح لأمين الرافعى باصدار جريدته مرة أخرى يعتبر خطأ كبيرا ، وذلك أن الرافعى فى رأى ذلـك العميل هو الشخص الوحيد الذى يجســـد كراهية كل ما هو انجليزى ، فضلا عن أن آراءه تتضمن آراء الشيخ جاويش • ومن ناحية أخـــرى فالرافعى ــ كما يقول العميل ــ كاتبا من طراز الكتاب الفرنسيين الذين كانوا يكتبون آراءهم فى ظل الوصاية على الصــحف التى فرضت فى عهد لويس فيليب ، وبالتالى فلديه المقدرة على التبشـــير بالأفكار الثورية فى كلمات وعبارات بريئة من أى اتهام قد يوجه اليـــه •

ويبدو أن نشاط البلشفية فى مصر آنذاك كان من القوة والفاعلية

بحيث أن مراســل جريدة التايمز اللندنية فى مصر أرسل الى جريدته معبرا عن مخاوفه من أن الحركة النقابية التى تســود مصر الان تضم الى صــفوفها فيما يبدو عناصر بلشــفية مسئولية عن التحريض على الاضراب والمظاهرات • ويشير كاتب التقرير الى أن جريدة الأفكــار نشرت فى عددها الصادر فى ٢٦ أغسطس ١٩١٩ مقالة حامية وعنيفة ضد هذا المراســل حيث أنكرت انكارا مطلقا كل ما قاله بل وهاجمته • ولكن فى العمود الثانى من الصــفحة الثــانية نشرت الجــريدة مقالا بعنوان « آل ريتشاردز الســــادة الرحماء » بتوقيع ابراهيم رياض المحامى • وفى هذا المقال ــ كما لاحظ كاتب التقرير ــ يخاطب صاحبه الشركة الأوربية فى مصر فى عبارات تنضح بالرياء والنفاق بحيث لايمكن اعتبارها دعوة مباشرة للبلشــفية • ولكن فى الفقرة الأخيرة من المقال كشف الكاتب عن نواياه الحقيقية حيث قال : « يا الهى ان البلية لعظيمة وان الخطب لأعظم •• ارحمنا برحمتك حتى لا تكون النهاية أسوأ مما نحن فيه الان » •

ويضيف كاتب التقرير أيضا قائلا أن اعتقال محمد كامل حســين المحامى كان له وقعــا سيئا بين عمال الترام والشركات الأخرى . وأنه سمع أن بيزوتو Pizzuto سوف يدعو الى اضراب عام فى جميع أنحاء مصر اذا ما أصيب محاميهم باى أذى • ولقد نشــطت دعاية قوية بين عمال الترام والتليفونات والمياه فى جميع أنحاء مصر •

* * *

ويشــير تقرير ابراهيم ديمترى السابق الى أن اضرابات العمال التى حدثت فى مصر آنذاك لها شبهة بلشــفية •• وأن ماحدث يكفى لأن تتدخل الحكومة لتحســين أحوال العمال فيما يتعلق بالأجور •• الخ ثم تطالبهم بالعودة الى أعمالهم •• فاذا مارفض العمال العودة ســيكون عليهم أن يكسبوا عيشهم بأنفسهم •• فاذا مافشلوا فى ذلك فلابد وأن تبحث الحكومة ــ وهذا هو رأى صاحب التقرير ــ مسألة

اعادتهم الى قراهم ليعملوا فى الأرض كما كانوا من قبل بحجة أن الحكومة لايمكن أن تسمح للعاطلين عن العمل بالتسكع فى شــــوارع القاهرة خوفا من أن يصبحوا لصوصا وخطرين على الأمن العام •

ويستمر كاتب التقرير فى جمع المعلومات واستطلاع الاراء بشأن اضرابات ومظاهرات العمــال فيقول أنه منذ وصــوله الاسكندرية قابل حسين بك تيمور وهو محامى يتولى قضايا بعض العمال وكانت له معه مناقشات شيقة • وقد قال له الرجل أن العمال يعانون بشدة بسـبب غلاء المعيشــة وعدم كفاية الأجور • ولما سأله عما اذا كان يعلم شيئا عن الكيفية التى يعيش بها العمال المضربين هم وعائلاتهم أجاب حسين تيمور قائلا : أن بعضا منهم يشتغل فى أعمال مختلفة بمساعدة البعض الاخر من العمال ، وان سائقى العربات يسهمون فى اعالة اخوانهم خاصة وأن السائقين قد أفادوا من حركة الاضراب • ولما سأله أيضا عما اذا كان للاضراب مغزى سياسيا نفى ذلك وان لم ينكر امكانية اســتخدامه لأغراض سياسية • ويعلق كاتب التقرير قائلا : ربما يجهل العمــال الى حد كبير الدسائس السياسية ولكن الذين يوجهون حركة الاضرابات لهم أهدافهم من ذلك ولا شك • ومن ناحية أخرى يذكر أنه سمع أكثر من مرة من بعض عمال مصانع الدخان الذين يعملون فى دائرة المخابرات أن المحامين عرضـــوا على العمال أن يتكاتفوا معــا تحقيقا للاهداف الســياسية ، وفى مقابل ذلك سوف يقف المحامون بجانبهم فى الدفاع عن مطالبهم تجاه الشركات وتجــاه الحكومة • على أن العمال رفضـــوا ببساطة هذا العرض قائلين أنهم غرباء عن المدينة وليس لهم حيلة فى الســياسة ، وان كل مايريدونه هو العيش فى هــدوء لاعالة أسرهم بضروريات الحياة • ثم يذكر الكاتب أخيرا أنه ســمع أن الأمير عمر طوسون أعطى العمال فى الاســكندرية مرتب شــهرى ولكنه غير متأكد من صحة هذا الخبر رغم علمه بوجود حملة لجمع الأموال من هنــا وهنــاك •

***

وهناك تقريرا آخرا كتبه عميل آخر يدعى شريف محمود (٧) عن صدى البلشفية فى مصر وصدى الفتوى التى أصدرها مفتى الديار المصرية حيث يقول أن البلشفية هى الموضوع العام الذى يشغل الدوائر المصرية بحيث يبدو أن كل واحد يستقبل بشغف كبير الأخبار الواردة بالصحافة من حين لاخر والمتعلقة بالنشاط البلشفى . كما أن أنباء الانتصارات والنجاحات التى يحققها البلاشفة فى بلادهم تغمر المصريين بكل طبقاتهم بشعور الفرح والارتياح .

ويذكر شريف محمود أن المصريين أدانوا الفتوى التى اصدرها المفتى الأكبر ضد البلشفية وهم يعتبرون أن أنصار البلشفية يحاربون من أجل تحرير البشرية ، ويعتقدون أيضا أن تعاليم البلشفية تقوم على العدل والحق ذلك لأن انفر باشا Enver ونفر من أقوياء الترك بين المناصرين الأوفياء والتابعين للبلشفية ، مع أن انفر وأصحابه الأتراك من المسلمين الصادقين الأمناء بل من المتعصبين المتشددين فى اسلامهم .فاذا كانت البلشفية حقيقة شيئا سيئا كما تذكر الصحف فلايمكن أن يتعاطف معها أى مسلم أو ينضم اليها وخاصة من الأتراك والعرب . وهذا مايقوله المصريون الان ، ومن ناحية أخرى فالمصريين مقتنعين تماما بأن ابن سعود قد استولى على مكة بمساعدة الأتراك ثم تقدم فى طريقه الى دمشق وسوريا ، وهم لايبالون فيما يبدو بالمعلومات والأنباء التى تنشرها الصحافة المحلية حول تلك الموضوعات، وهم يعتقدون أيضا أن الأتراك يتقدمون من الجانب الاخر للاستيلاء على حلب وينتظرون بفارغ الصبر النتائج التى تسفر عنها هذه الحركات . لقد اعتزموا تفجير ثورة عامة فى كل أنحاء البلاد .

ثم يشير هذا التقرير الى أن الأحزاب العمالية التى تألفت حديثا

---

(٧) من شريف محمود بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩١٩ . ويبدو أن تلك التقارير قد كتبها هؤلاء العملاء باللغة العربية اصلا ثم ترجمت للمسئولين الانجليز للدراسة .

فى مصر على اتصـــال وثيق بالحركة الوطنية على الرغم من أن القواعد العمالية لاتعرف شيئا عن هذا الاتصـــال أما الأهالى فيبدو أنهم يعتقدون اعتقادا راســخا بأن المبادىء البلشفية ونضال البلاشـــفة يهدف الى الوقوف بجانب الضـــعفاء لنيل حقوقهم ، وبالتالى فان معاملة هـــذه الأحزاب العمالية بأى قدر من الضغوط سوف يضيف ــ كما يقـــول التقرير ــ الغاز للحركة المشـــتعلة ويوسع من شـــقة الخـــلاف بين بين الانجليز وبين الأهالى ..

ان السكان يعتبرون الانجليز أعداءهم الغلاظ ، وهم يتوقعـــون دوما أن تدور الدائرة على الانجليز ، وهم لذلك يصـــفقون لأى أخبار تصلهم مهما كان شأنها عن اضرابات العمال ومؤامرات عمال المنـــاجم ، والبلاشـــفة ، ويعتبرون كل ذلك بشـــير خير لخروجهم من براثن الحكم البريطـــانى .

وتتميز هذه التقـــارير بأنها تكشف عن آراء وانطباعات مختلفـــ الطبقات فى المجتمع المصرى حول القضايا المثارة مما لا يســـمح بنشره فى الصـــحف السيارة أو التصريح به علنا بشـــكل أو باخر . ويتوقف تجميع هذه الانطباعات على مهارة المرشـــد أو العميل الذى يعمـــل لصالح السلطات البريطانية . فهذا التقرير مثلا يشير الى أن المصريين يقولون أن الامبراطور الألمانى الذى يعيش فى هولندا الان يشرف على توجيه العمليـــات والنشاط البلشـــفى بهدوء تام ، وأن عملاءه فى كل مكان فى العمال يدعمون هذه الحركات بالســـلاح والذخيرة والأموال . ولقد برز دور هؤلاء العملاء بروزا جعل الانجليز أنفسهم يرتعدون فرقا من اضطرابات ونشاط البلاشـــفة الذى بات يهددهم ومن ثم فقـــد قبلوا مطالب العمال وأوقفوا تدخلهم فى شـــئون روسيا البلشفية .

ويعتقد المصريون أيضا ــ كما يقول التقرير ــ بأن ألمانيا ليســـت نائمة فى سبات بسبب ما حدث لها فى الحرب ، بل ان الألمان جميعـــا يعملون ليل نهار فى صناعة مختلف المنتجات التى سوف يغمرون بهـــا

أسواق العالم ويجنون منها الأرباح الطائلة . وأكثر من هذا فان المصريين يكذبون الأنباء التى تنشر حول ضعف الألمان حاليا ومحاكمة القيصر والاضطرابات الداخلية فى ألمانيا بينما يصدقون الأنباء التى تتواتر عن نشاط الألمان فى صناعة طائرات ركاب تحمل مائة شخص للتجارة مع أمريكا ويعتبرون ذلك برهانا واضحا عن قوة وصمود ألمانيا . كما يعتقدون أن ألمانيا لن تنفذ أى شرط من شروط معاهدة السلام (فرساى ١٩١٩).

ويضيف التقرير أيضا أن المصريين يعتقدون أن البلاشفة متأكدين من تعاون الطبقة العاملة الانجليزية معهم وان الحلفاء اذا كانوا أقوياء فينبغى لهم دخول ألمانيا والقاء القبض على القيصر وبهذا فقط يثبت الحلفاء أنهم حققوا نصرا حاسما وكاملا .

ويشير التقرير أيضا الى الانطباع الذى أخذه المصريون عن الرئيس الأمريكى ولسون حيث يفهمون أن مجلس الشيوخ الأمريكى لم يرحب ترحيبا حارا بالرئيس ولسون بعد عودته الى أمريكا فى أعقاب جهوده فى مؤتمر الصلح بل استقبلوه ببرود . ومن ثم قام بجولة فى أنحاء الولايات المتحدة ليحصل على تأييد وتعاطف الجماهير الناخبة ولكن ما لبث أن تعقبه اثنان من أعضاء مجلس الشيوخ ليفسدوا عليه خططه . وعندئذ وبعد انتهاء جولته بالولايات المتحدة الأمريكية أبدى اعتذاراته لانجلترا — كما يعتقد المصريون — عن فشله على الرغم من جهوده الكبيرة قائلا أنه غير قادر على تغيير مجرى الرأى العام فى بلاده . وبهذا أسدل الستار على الكوميديا الأمريكية على مسرح الحرب العظمى حيث انتهى الأمر الى اهتزاز وتفكك عقد الحلفاء . ويقول المصريون أن هذه النتيجة قد وضحت فى ايطاليا أولا ثم فى فرنسا ثانيا .

ولا يفوت صاحب التقرير أن يشير الى أنه سبق أن ألمح الى ذلك فى تقرير سبق أن قدمه بتاريخ ١٥ فبراير ١٩١٧ حيث قال فيه أنه من غير

المحتمل دخول أمريكا الحرب الى جانب الحلفاء ضد ألمانيا ما لم يكن لديها أسبابا وأغراضا تحملها على ذلك وكيف أنه شرح ذلك بالتفصيل آنذاك مما اثبتته الأحداث الأخيرة .

ثم يختتم هذه النقطة من التقرير بقوله أنه عندما نشرت الصحف الأنباء التى تقول باهتمام السناتو الأمريكى وفرنسا بالمسألة المصرية انتهز المصريون الفرصة وأظهروا شعورهم من خلال عشرات البرقيات المرسلة الى اميريكا وفرنسا والتى نشرتها الصحف المحلية . وهذا يؤدى كما يقول التقرير الى زيادة الشقة بين الانجليز والمصريين فى وجهات النظر المتعلقة بالمشكلة المصرية . ومن ثم فالأمر يتطلب تكتيكا ومجهودا غير عادى لاعادة الوفاق والانسجام بين الطرفين وتأسيس العلاقات على أسس متينة . وربما أن الوقت وحده كفيل باحداث المعجزة من حيث رأب الصدع الذى حدث فى مشاعر كل من الشعبين المعنيين .

* * *

على أن البلاشفة « المصريين » الذين هاجمتهم فتوى مفتى الديار المصرية لم يسكتوا على هذا الهجوم ولم يتراجعوا عن موقفهم ، بل أن الفتوى كانت تحد لهم ولبلشفيتهم . ففى الوثائق التى بين أيدينا منشورا موجها الى المصريين بعنوان « اعتنقوا البلشفية أيها المصريون — البلشفية والاسلام والشيخ بخيت » . وهو صادر من لجنة تدعى « اللجنة المستعجلة » ويحمل رقم ٧٣[٨] . وهذا يعنى أن هناك ٧٢ منشورا صدرت قبل ذلك ، وربما أصدرت اللجنة بعده عددا آخرا . ولكنى لم أعثر على أى من هذه المنشورات سواء السابقة أو اللاحقة . ولعل المنشورات السابقة هى المقصودة بالاشارة التى وردت فى تقرير ابراهيم ديمترى (١٩١٩/٩/١٣) الذى سبقت الاشارة اليه

---

(٨) انظر النص الكامل للمنشور بالملحق رقم (١) .

بخصوص المنشورات الموزعة التى تسـب المفتى وتلعنه ومن الملاحظ أيضا أن الدراسات المنشورة عن هذه الفترة لاتشـير من قريب أو من بعيد الى هذه المنشـورات أو الى تلك اللجنة المستعجلة التى أصدرت بالقطع ثلاث وسبعين منشـورا • ويلاحظ أن المنشور الذى بين أيدينـا غفل من التاريخ ولكن المسئول البريطانى كتب أعلاه بالانجليزية عبارة : نوفمبر ١٩١٩ • وبالتالى فان هذا يعنى أن اللجنة المستعجلة كانت على درجة هائلة من النشـاط والحيوية « والعجلة » حتى لقد أصـدرت ثلاث وسبعين منشورا خلال المدة من أغسطس الى نوفمبر ١٩١٩ •

والبلاشـفة المصريون فى هذا المنشور لايسبون الشيخ بخيت أو يلعنونه ، وانما يحاولون مناقشـة المقولة التى بنيت عليها الفتـوى مناقشة تاريخية وفلسفية ، ويقرنون بين البلشـفية وبين الاسـلام الحنيف • فنراهم يقولون أن البلشـفية « ليست من الفوضى وانكار الدين واستباحة الأعراض فى شىء ، وانما هى مبادىء عدل وانصـاف وحرية لاتتـافى الدين الاسلامى الحنيف ، بل هى قوة ارسلها الله الى الأرض يوم طغى الناس لتعيد الى الاسلام عهده الأول وعدله القويم »

فمن الناحية التاريخية يسـتعرض المنشور تاريخ « البلشفية » عندما نادى بها كارل ماركس « الألمانى الاشتراكى » فى روسيا ١٨٨٤ (ولعله يقصد عام ١٨٤٨) ، ثم قيام الحزب الاشتراكى الألمانى باصدار قانون ١٨٩١ يدعو فيه الى القضاء على النظام الألمانى القائم واستبداد أصحاب الأموال والنضـال لتحرير العمـال وتحويل وسائل الانتـاج كالسكك الحديدية والمناجم الى الملكية العامة « الأمة » ، واصـلاح الفروق بين الطبقات عن طريق اتحاد عمال العالم لاسـقاط الحكومات الرأسمالية ، وتغيير النظـام القائم دون اللجوء الى الفوضى « التى تحرمها الاشـتراكية » •

ثم يشـير المنشور الى ظهور كيرنسكى فى ١٩٠٠ وانقسام الحزب الاشتراكى الألمنى الى فريقين : المنشـفيك بزعامة مانوف ، والبلشفيك

بزعامة لينين الذى عاش فى سويسرا حتى١٩٠٥ ثم عاد الى روسيا وبقى فيها حتى ١٩٠٧ ثم عاد ثانية اليها بعد اشـــتعال الحرب العظمى حيث دعا الناس الى انتهاز فرصة الحرب والاطاحة بحكم القياصرة ، واحلال الحكومة الاشتراكية لضمان « ســعادة الفرد ورفاهية المجموع » فقامت الثورة الروســية ونجحت •

ثم يشـــير بعد ذلك الى مقومات سياسة الحكومة البلشفية الجديدة فى الداخل وفى الخارج من خلال منشـــورها فى مارس ومايو ١٩١٧ • ففى الخارج تتبنى حق الشعوب فى تقرير مصـــيرها ورفض الاضرار بمصالح الشـــعوب وارغامها على الخضوع لأى حكم أجنبى • وفى الداخل تقوم على محاربة الفوضى الاقتصادية وتنظيم وسائل الانتاج « ووضع اليد » على المحاصـــيل والمواصـــلات « وتوزيع » الحاجيات وضمان رفاهية العمال وزيادة الضرائب على الأغنياء : ضريبة الميراث وضريبـــة مكاسب الحرب وضريبة الأملاك •

وواضح من هذا أن « اللجنة المستعجلة » تشـــير الى المرحلة الأولى من الثورة الروســية (ثورة مارس ١٩١٧) وليس الى المرحلة الثانية (أكتوبر ١٩١٧) ، بدليل أن اللجنة تستشف من العرض التاريخى الذى عرضـــته أن « البلشـــفية هى اشتراكية معتدلة فحسب » تقوم على العدل والمساواة وعلى الملكية العامة لوسائل الانتـــاج « من مناجم وموانىء ومازاد عن حد معين من أملاك الأغنياء فى الأراضى » •

ثم تنتقل اللجنة المستعجلة الى مناقشـــة المقولتين الفلسفيتين الاتيتين •

ـــ رأى الاشتراكيين البلاشـــفة فى الدين وأنه رأيا صائبا حيث أن الاشتراكية تقوم على نظام اقتصادى محض « ولا دخل لها فى الدين لأن الدين شخصى ولكل انسان أن يعتنق من الأديان مايشاء » ، وعدم

تشجيع دين ومصادرة دين آخر وتحريم التفرقة بين الناس لاختلاف أديانهم .

ــ طريقة الزواج عند المسيحيين حيث يعيب الاشتراكيون البلشفيون هذه الطريقة لأنها مبنية على أساس مالى يجعل الزوجة ملكا للزوج وليس لها حق التصرف أو الطلاق الا بحكم يصدر بناء على أمر مخل بالشرف . ويطالب البلاشفة بأن يكون القبول هو أساس الزواج مع امكانية الطلاق متى شاء الزوجان .

وبعد هذا الاستعراض التاريخى والفلسفى تقول اللجنة المستعجلة للمفتى أن « البلشفية لاتخالف الاسلام فى شىء لأن الدين يدعو الى العدل والمساواة وحرية التدين ولا يرغم أحدا بالقوة على اعتناق الاسلام ، ويبنى الزواج على القبول والايجاب بين الزوجين ، ويسمح بالطلاق ، وهو حق الرجل يفوض به للمرأة فينفصلان متى استحالة العشرة بينهما » . ثم تقول أيضا أن الاسلام لا يحرم الملكية العامة لوسائل الانتاج والأراضى . وما الوقف الا نموذجا لذلك حيث تتحول الملكية من الأفراد الى ملكية الأمة » . وللحكومة حق التصرف بالغلة على على مستحقيها من خلال بيت المال والزكاة اللذان شرعهما الله لضمان حياة الفقراء العاجزين عن العمل .

ثم تختتم اللجنة منشورها بالاشارة الى أن كل الشعوب الان تعتنق البلشفية أو هى فى الطريق اليها . فالأتراك وهم مسلمون قد اعتنقوها . أما الفرس والأفغان والهنود واليابانيون والصينيون فهم يتقدمون اليها بخطى ثابتة واثقة . ثم انها تطرق الان أبواب فرنسا وايطاليا وانجلترا وأمريكا . وان « مصر ليتوقف مستقبلها على نجاح البلشفيةوتفكيك ملك بريطانيا » . ثم تدعو اللجنة فى النهاية كل المصريين لاعتناق البلشفية لأنها تعيد « مجدا سلف واستقلالا غصب وحرية هى حق لكم وللناس أجمعين » . ولعل هذا كله ما كان يعنيه الشيخ رشيد من أن الاسلام يحتوى على المبادىء البلشفية .

بعد ذلك ننتقل الى عام ١٩٢٠ والحركة الاشتراكية فى مصر فى مرحلة التكوين ، والسلطات البريطانية ترصد بواسطة عملائها حركات وسكنات العناصر النشطة التى تسعى الى تكوين حزب اشتراكى • ففى ذلك العام تأسس بالاسكندرية تحت اسم « جماعة الدراسات الاجتماعية» Groupe d'Etudes Sociales نادى [٩] يضم عناصر تتميز بأفكار تقدمية عن الحياة وعن المشكلات الاجتماعية الكبرى • وقد أعتاد أعضاء هذا النادى الاجتماع فى المكتبة العامة بشارع صلاح الدين حيث تعقد مؤتمرات عامة تتناول مختلف المسائل الاجتماعية • وأما المجلة الناطقة باسم هذه الجمعية فهى المجلة الشهرية « الأدب والاجتماع » Litteraire et Social المعروفة باسم التاجراماتا La Ta Grammata

ومن خلال الأخبار والمحاضرات التى أعتادت التاجراماتا نشرها عرضت أكثر الأفكار جرأة فيما يتعلق بالتقاليد الاجتماعية والأخلاقية • وكانت المناقشات التى تدور بين أعضاء هذه الجماعة فى البداية تعتبر ذات طابع أكاديمى صرف ، كما أن توزيع جريدتهم كان ينحصر بين الأعضاء وعدد محدود جدا من المثقفين خارج النادى • وبالتالى لم يكن يصل تأثيرها الى الطبقات العامة الجاهلة •

ولكن اتضح فيما بعد أن نشاط هذه الجمعية قد اتسع اتساعا

---

(٩) تقرير من مكتب المندوب السامى البريطانى بتاريخ ١٥ يونية ١٩٢١ • وتستند معلومات رفعت السعيد عن نشاط اليونانيين والأرمن فى الحركة الشيوعية فى تلك الفترة على تقرير كتبه نيقولا باباريدوتى عن ذكرياته عن المجموعة الشيوعية اليونانية وذلك بناء على طلبه (أى رفعت السعيد)، وكان ذلك فى الستينات ، أى بعد أربعين سنة من وقوع الأحداث . ولاشك ان الذاكرة بعد هذه المدة الطويلة لابد وأن تكون فى مرحلة ضعيفة • كما أنه اعتمد أيضا على كتاب والتر لاكير الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط
W. Laqueur, Communism and Nationalism in the Middle East
(أنظر هوامش ص١٧٢ — ١٧٤ من كتاب رفعت السعيد المشار اليه سابقا)•

ملحوظا وخصوصا بعد انضمام العنصر النسائى اليها ، وانضمام بعض العناصر النشطة مثل جوزيف روزنتال • كما لوحظ أيضا تطورا فى الأفكار التى يعتنقها أعضاء هذه الجماعة التى أصبحت شيوعية علنا • وهكذا أصبح اسم الجمعية (جماعة الدراسات الاجتماعية) قناعا يخفى تحته الأهداف الحقيقية لها •

وفى ذاك العام كان الأعضاء يجتمعون مرتين كل أسبوع بمقر المعهد العلمى الهللينى البطلمى Syllogue Scientifique Hellenic Ptolomee الكائن بميدان محمد على بمدينة الاسكندرية حيث بدأوا يخرجون عن دائرة مناقشاتهم المغلقة فى النادى الى الاحتكاك بالناس خارجه ، وتلقينهم المبادىء الشيوعية من خلال المناقشات وأعطائهم الكتب الشيوعية لقراءتها •• الخ •

على أن أهم أعضاء هذا النادى كما يقول صاحب التقرير كانوا تسعة أعضاء هم :

جوردانيز جوردانيدز Jordanis Jordanidis وكان يعمل بادارة الاحصاء سابقا ثم أصبح مدرسا لليونانية بكلية فكتوريا • وقد اشتكى تلاميذه الى أولياء أمورهم من أنه يدرس لهم الأفكار البلشفية فى الفصل ، وميشيل بيريديز Peridis وهو محامى ومتعصب متشدد للبلشفية ، وجان ليلاس Lallas وهو صحفى وذهب مؤخرا الى أثينا ، ونيكولاس زيليتاس وهو تاجر ومثقف وصاحب آراء متطرفة ويكتب فى التاجر اماتا تحت اسم ستيفانو بارجاس Pargas وزوجته أيضا وهى شخصية متطرفة ، والاخوان ياناكاكيز Yanakakis واحدهما يعمل موظفا فى بنك أثينا والاخر تاجرا للاسفنج بشارع البوستة وكلاهما معروف بالنضال كما أنهما أعضاء أيضا فى نادى أبوانى Apuani ، ثم جورج بيتريديز Petridis وهو مهندس وكيماوى واشتراكى العقيدة وينتمى الى الدولية الثانية ، مما يعنى

أنه أكثر اعتدالا فى آرائه عن الاخرين الذين ينتمون الى الدولية الثالثة ذات الأفكار الحمراء • وأيضا مدموزيل لالوهى Lalaouhi وتعمل فى تدريس الغناء والموسيقى ، وسيدات كثيرات لاتعرف أسماؤهن الان ، وأخيرا جوزيف روزنتال البلشفى المشهور بخطورته •

وفى القاهرة تأسس نادى مشابه تحت اشراف وتوجيه الاخوان ستافرينو Stavrinos أصحاب مكتبة الاداب La Papteris de L'Art الكائنة بشارع قصر النيل ، والمكتبة متعهدة استيراد وتوزيع الكتب والمجلات الاشتراكية والبلشفية • وتقوم مدموازيل ليلى تاتاراخى Lili Tottarachi [١٠] التى تعمل بمكتبة الاداب وهى متطرفة متشددة ، بدور الوساطة بين جمعية الاسكندرية وجمعية القاهرة • وحتى هذا التاريخ (١٥ يونية ١٩٢١) تم توزيع أربع كراسات على الأعضاء للدراسة هى : السوفييت والامبريالية العالمية Les Soviets et L'Imperialisme Mondial بقلم تروتسكى ، والارهاب Le Terrorisme بقلم تروتسكى والدولية الثالثة La 3ieme Internationale ، والارهاب والشيوعية le Terrorisme et Communisme (ضد كاوتسكى) بقلم تروتسكى أيضا ، ثم نشرة الدولية الثالثة بقلم بوريس سوفارين Souvarine

وواضح مما سبق أن جميع العناصر الرئيسية فى هذين الناديين من الأجانب وخاصة من اليونانيين •

* * *

أما فيما يتعلق بمراكز البلاشفة المصريين فيشير تقرير [١١] الى أنها موجودة فى طنطا والزقازيق والجيزة • وقائد الحركة فى طنطا

---

(١٠) يذكر رفعت السعيد أن اسمها ليلى بيتاراكى Lili Petaraki (ص ١٨٦) •

(١١) بتاريخ ٦ اكتوبر ١٩٢٠ ومرسل الى وزارة الخارجية البريطانية فى ٣٠ اكتوبر ومؤشرا عليه عبارة سرى جدا Strictly Confidential

والداعية لها هو محمد بك نبيه أحد المحامين الأثرياء فى المدينة ، وابنه سيد نبيه الذى سافر فى مايو الماضى (١٩٢٠) الى ألمانيا • وأيضا محمد على الفقى التاجر بطنطا الذى ذهب هو الاخر فى مايو الماضى الى أوربا فى رحلة زار فيها السويد والنرويج وألمانيا حيث كانت له لقاءات مع العناصر البلشفية هناك ، ثم عاد الى طنطا خلال سبتمبر وعنوانه : سيد محمد على الفقى بالقرب من ميدان سعد بطنطا •

أما فى الجيزة فان رئيس اللجنة البلشفية بها يوسف بك ثابت الداعية البلشفى النشط ثم نفهم من التقرير أن هناك تنسيقا وتفاهما بين الحزب الوطنى وبين البلاشفة فى مصر لتسهيل نشاط البلاشفة فى الحصول على الأسلحة والذخيرة حيث يشير كاتب التقرير الى أن على فهمى بك رئيس الحزب الوطنى بالقاهرة قد وعد أحد البلاشفة الروس الذى يقيم بطنطا بأنه سوف يفتح له ورشة بالقاهرة حيث يكون بامكانه تنسيق عمله مع رفاقه من أجل القضية البلشفية • كما يشير الى أن الحزب الوطنى قد شكل لجنة أموال برئاسة عارف بك الماردينى وارسالها الى الكولونيل اسماعيل حقى زوج ابنة سلطان وحيد الدين فى تركيا لشراء أسلحة وذخيرة وتوريدها للبلاشفة فى مصر • وقد جمعت اللجنة مائتان وخمسين ألف جنيه مصريا أسهم بثمانين ألف منها كل من محمد بك نبيه (المسئول البلشيفى فى طنطا) ، ويوسف بك المنشاوى ، ورئيس نيابة طنطا ، والشيخ محمد طبل ، وعبد الله بك وآخرون • وفى أغسطس ١٩٢٠ اتفق عارف بك الماردينى مع جاك اجيون Jack Agion نائب القنصل الهولندى بالاسكندرية ، ومسيو فيفالدى Vivaldi قنصل ايطاليا العام بالاسكندرية أيضا على اجراء الترتيبات اللازمة لارسال المبلغ المشار اليه الى القسطنطينية عن طريق ايطاليا وهولندا •

ولعل هذا اذا صدق يعكس ايمان الحزب الوطنى بالعمل المسلح لاستخلاص حقوق مصر الوطنية حيث كانت البداية فى ثورة ١٩١٩ بعد

أن كان الحزب تحت زعامة مصطفى كامل ثم محمد فريد من بعده يستند الى أسلوب المرافعات أمام الضمير العالمى لاستخلاص هذه الحقوق • فاذا كان ذلك حقيقة فلماذا لم يشتغل الحزب الوطنى بنفسه فى هـذا العمل المسلح بدلا من الاعتماد على البلاشفة ؟ •• هل يرجع هذا الى افتقاده الى الكوادر اللازمة خصوصا بعد تشتيت الحزب على أكثر من مرحلة بعد « هجرة » محمد فريد الى أوربا حتى لم يبق له الا الاسم والسمعة الوطنية •• ربما •• ولعله فى هـذا قد أثبت فعلا أنه قد حافظ على ولائه للقضـية الوطنية وعلى اخلاصـه لها •

وأكثر من هذا نجد أن على بك بدرخان مدير الجيزة قد باع أربعين مسدسا الى سيد حسين عصابى من طنطا التى ذهبت الى أيدى البلاشفة• ولكن الصفقة الثانية من هـذا السلاح قد صودرت فى أيدى البوليس فى محطة سكة حديد طنطا فى آخر أغسطس ١٩٢٠ •

ولم يكن البلاشفة فى طنطا وحدهم ضد الانجليز وضد نظام حكمهم، بل ان العساكر الهندية المعسكرة فى قشلاق طنطا أخذت تروج الدعـاية ضد الحكم البريطانى • وكان ذلك على أثر وصول خطاب الى المترجم الهندى بالمعسكر من أحد أقربائه بالهند بتاريخ أول يونية ١٩٢٠ يقول له فيه أن الناس قد ضاقت ذرعا بالحكم البريطانى هنـاك ، وأنهم بدأوا يهجرون بلادهم حيث غادرها فعلا مليونا ونصف اتجه ثمانمائة ألف منهم الى أفغانستان وسبعمائة ألف الى الأناضول عن طريف كبيف •

ولقد بدأ التحرك ضد العناصر التى يشتبه فى تعاونها مع الانجليز حيث أحرق منزل سليمان بك الشوربجى بطنطا فى سبتمبر بسبب اعلانه الولاء للانجليز وتهديده بالقتل اذا لم يتوقف عن نشـاطه الموالى لهم •

وفى أكتوبر ١٩٢٠ قابل عبد الستار الباسـل فى بارس الميجور فون بابن Von Papen للتباحث معه بشأن اتفاق يعقد بين الملكيين الألمان من ناحية والمتطرفين المصريين (الحزب الوطنى) والبلاشفة من ناحية

أخرى • وكان عبد الستار الباسل آنذاك وثيق الصلة بالبلاشفة وكان ينوى الذهاب الى موسكو • وأكثر من هذا فان سعد زغلول على الرغم من انكاره كل ما هو بلشفيا وشيوعيا عندما كان بأوربا ، الا أنه ثبت أنه كان على صلة بالديلى هيرالد (جريدة حزب العمال البريطانى)[١٢] • كما أنه كان على صلة وثيقة بدرجة أو بأخرى بالعناصر المعادية لبريطانيا وكلهم كانوا ومايزالون يتطلعون للحصول على مساعدات من البلاشفة للقيام بهجوم منسق على الامبراطورية البريطانية •

وتحقيقا لذلك فان شخصا يدعى زكى سيد الشركسى ، وكان ممثلا للسوفييت فى أنقره ، وصل الى بيروت فى طريقه الى مصر للتباحث مع سعد باشا زغلول بشأن الترتيبات اللازمة للتنسيق بين نشاط البلاشفة والوطنيين المصريين المتطرفين • ويذكر كاتب التقرير أن احدى الصحف البيروتية ذكرت أن الشركسى قد وصل الى مصر فعلا ولكن لم يعثر عليه لأنه من المحتمل جدا أن يكون قد دخل البلاد تحت اسم مستعار • ومع ذلك تبقى الحقيقة — كما يقول كاتبنا — أن مندوبا بلشفيا رسميا من المقرر وصوله الى مصر للتباحث مع زعيم الوطنيين فيها[١٣] •

---

(١٢) كان سعد زغلول حريصا على أن ينفى أى التقاء بينه وبين حزب العمال من ناحية المبادىء الاجتماعية . ففى خطاب لسعد زغلول لجريدة الجازيت (١٩٢١/٥/١٩) رد فيه على قول هذه الجريدة بأن الوفد متفق مع ارائها وآراء حزب العمال الاجتماعية قائلا : « أدهشنى ما قرأته فى صحيفتكم عن ارتياحى لخطة الديلى هيرالد الاجتماعية ولكنى أقول لكم ولقرائكم انى لست ممن يهتمون بالمباحثات فى هذه الشئون الاجتماعية وانى لا أجهد نفسى فى أمر الكومونية أو البلشفية ولا أبحث عن أيهما المناسب لحياتنا الاجتماعية اذ ليست عندى أية فكرة من هذه الوجهة .. واننا اتصلنا بالجريدة لأنها قبلت أن تكون وسيلة آرائنا السياسية (أنظر : محمد أنيس ، دراسة فى وثائق ثورة ١٩١٩ ، ص٢٢) »

(١٣) أنظر الملحق رقم (٢) عن شخصية زكى سيد الشركسى •

ومن ناحية أخرى ففى أواخر أبريل ١٩٢١ سافر من موسكو أحد عملاء البلاشفة ويدعى صالح بك فى طريقه الى جنيف للاتصال بالوطنيين المصريين الذين يعيشون هناك قبل وصوله الى مصر • وكانت المهمة المكلف بها العمل على تكوين حركة ثورية اسلامية •

والحق — كما يذهب التقرير — كان البلاشفة يبذلون جهدا واضحا فى مغازلة الوطنيين المصريين المتطرفين بدرجة تجعل استحالة تجنب الشك فى ذلك • وبصرف النظر عن سعد زغلول باشا ، فان الأمير عزيز حسن نفسه قد أدان فتوى الشيخ بخيت ضد البلشفية ، وقال أن صدورها يعتبر خطأ كبيرا ، وقال عن نفسه أنه بلشفيا ، وأن البلشفية هى أمل المصريين • ومن المعروف أن هذا الأمير على اتصال مستمر مع رجال الدين فى الأزهر من ناحية ، ومع كامل حسين المحامى ومستشار نقابة عمال الترام من ناحية أخرى •

ولقد ذكر الأمير عزيز حسن فى محادثة له (أبريل ١٩٢١) أن هناك أربعمائة باشفى فى فلسطين وانهم يريدون نشر البلشفية بين العرب ولكن الصعوبة التى تواجه هذه المحاولة انهم يتكلمون فقط الروسية أو الانجليزية الركيكة • ومن ثم فقد أرسلوا شخصا أو أكثر الى مصر لمحاولة تجنيد بعض المصريين للسفر الى فلسطين لتعليم اللغة العربية لهؤلاء البلاشفة الروس • وقال عزيز أن واحدا من هؤلاء الأشخاص قد زاره لكنه رفض ذكر اسمه وان كانت الشبهات تحوم حول روزنتال أو شخصا يهوديا روسيا كان قد تكلم فى اجتماع عمالى بحديقة الزهرية فى مايو الماضى (١٤) •

ويحاول هذا التقرير أن يشير الى وجود اتصال وثيق بين

---

(١٤) تقرير بتاريخ ٢١ يولية ١٩٢١ • وتشير وثائق رفعت السعيد الى أن هذا الشخص الذى تكلم مع الأمير عزيز حسن هو ادوارد زيدرمان Zeiderman (ص ١٨٠ — ١٨٣)

الحركة النقابية وبين الشـيوعية فى مصر حيث يذكر أن الحركة النقابية فى مصر بدأت على يد بيزوتو وهو ايطالى شـيوعى طرد من مصر فيما بعـد • والحركة النقابية فى بلد كمصر حيث الجماهير جاهلة وغـير متعلمة تجد بين عناصرها من يصغى الى الصيحة الشيوعية التى تقـول « يا عمال العالم انهضوا فلن تفقدوا شيئا سـوى أغلالكم » • وبعد طرد بيزوتو خلفـه موريس زيدنزيرج Zeidnserg أمين صـندوق احدى خلايا البلاشـفة الروس • وقد قال زيدنزيرج أن « الفكرة البلشفية تتقدم بخطى واسعة وان عدد البلاشفة فى مصر يزداد يوما بعد يوم حيث بلغ عدد معتنقيها من علماء الأزهر خمسة وأربعون عالما وأكثر من ثمانمائة طالب أزهرى وذلك فى سبتمبر ١٩١٩ • ولايجب أن ننسى أن نشاط البلاشفة وتأثيرهم قد تضاعف منذ ذلك الوقت » •

ولقد ترددت فى مايو الماضى (١٩٢١) شائعة تقول أن وفدا تجاريا روسيا سـيصل الى مصر ومن المحتمل أن يكون جوزيف روزنتال مروج هذه الشائعات الذى قال علنا أنه يأمل أن يعينه الوفد القادم مندوبا سوفيتيا فى مصر مكان زيمرنوف Simrnoff وأعضاء القنصلية الروسـية الذين لايمثلون فى رأيه السوفييت أو أى سلطة أخرى فى روسيا ، بل انهم كانوا يرتعدون خوفا من أن تقع القنصـلية فى أيدى قوميسيارا بلشـفيا •

وفى ١٨ يونية ١٩٢١ أرسـل جوزيف روزنتال باعتباره سـكرتير لجنة الاتحاد العام للعمال خطابا الى رئيس جمعية الدراسات الاجتماعية بصـفته رئيس الدولية الثالثة يشـير فيه الى أنه كان قد تقرر فى اجتماع يوم ١٧ مايو ١٩٢١ دعوة الجمعية العامة للاتحاد للأجتماع يوم ١٩ يونية ١٩٢١ لمناقشة موضـوعات معينة ، وجاء فى الخطاب : « أن لجنـة الاتحاد العام للعمال تطلب من نقابتك الاسـهام فى الاجتماع المزمع بارسـال مندوبين يمثلونك وممن لديهم القدرة على الكلام » [١٥] •

---

(١٥) أنظر الملحق رقم (٣) عن روزنتال •

أما العناصر البلشـــفية فى مصر التى تعمل صراحة على تدمـــير الامبراطورية البريطانية فى الشرق (١٩٢١) فيحددها التقرير كما يلى :

ــ نقابات العمال المختلفة •

ــ الوطنيون المتطرفون داخل مصر وخارجها المتصلون بالبلاشفة وفى مقدمتهم علماء الأزهر وطلابه وطلاب المدارس الأخرى •

ــ العناصر التركية وأعضاء الجامعة الاســلامية الذين على اتصال وتحالف مع البلاشـــفة •

ــ العملاء البلاشفة القادمون من أنقرة وبرلين وموسكو ويتجمعون فى مصر •

ــ البلاشـــفة المعروفين فى مصر •

ــ مركز الدولية الثالثة بالاســـكندرية •

وتكشف التقارير عن محاولات ايجاد اتصال بين الحركة الشيوعية وبين الحركة فى فلســـطين فنعلم أن ادارة البوليس فى فلســـطين قد أخطرت ادارة الأمن العام فى مصر بتاريخ ٢١ ديسمبر ١٩٢٠ بأســـماء أشخاص معينيين فى مصر ينتمون الى اللجنة المركزية لحركة Mafliga Paolem Socialim وهى حزب اشتراكى متطرف ــ كما يقول بوليس فلســـطين ــ يؤيد الدولية الثالثة ، وان لم يكن تابعا لهذه الدولية التى رفضـــت ذلك لعلاقته بالحركة القومية اليهودية (الصهيونية) •

وأهم هؤلاء الأشخاص المعنيين فى مصر بن زيون باسفولسكى Ben Zion Pasvolsky الذى يهدف الى ضم الحزب الوطنى المصرى الى الدولية الثالثة • وهذا الرجل يعمل موظفا فى مصنع ماسبرو للدخان ويعتنق الاراء الشـــيوعية علنا ، وهو على علاقة بجلال أفندى حسين سكرتير النقابة الزراعية ونقابة ترام هليوبوليس •

* * *

بعد أن استعرضنا نشاط اليسار فى مصر أو بلاشفة الدولية الثالثة على نحو ما تصف وثائق الفترة فمن المفيد أن نعرف الكيفية التى واجهت بها السلطات البريطانية هذا النشاط . ففى ٣ يولية ١٩٢١ (أى قبل تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى) عقد اجتماع بوزارة الداخلية بالاسكندرية حضره الاميرالاى راسل بك ، والقائمقام انجرام بك ، والمستر ويلسلى R.A. Wellesley والمستر هولم بيمان Hulme Beaman ، والليفتنات كولنيل ريدر Rider وفى هذا الاجتماع سئل انجرام بك عن رأيه فى معلومات بوليس مدينة الاسكندرية فيما يتعلق بوجود البلشفية فيها ، وخاصة النادى المعروف باسم « جماعة الدراسات الاجتماعية » ، وعلاقة هذه الجماعة بروزنتال . وأجاب انجرام على ذلك بقوله أنه لايرى ضرورة للاهتمام اهتماما جديا بأمر هذا النادى فهو فى رأيه مجرد مرسم يلتقى فيه الناس ويناقشون معا أفكارا تقدمية . أما مايتطلب مراقبة جدية فهو علاقات هذا النادى بروزنتال ، ونشاط روزنتال بشكل خاص حيث أنه الشخصية الرئيسية فى مصر الذى على اتصال بالنشاط الشيوعى الباشفى . كما أنه يحتمل اتصاله بالعناصر البلشفية فى أوربا وفى فلسطين . أما علاقاته بشخصيات مثل كامل حسين (المحامى ومستشار نقابة عمال الترام) ، أو سكوفوبولوس Scophopoulos بمنطقة القنال فهى غير محددة . ويبدو أن نشاطه منحصرا فى الاسكندرية فقط حتى الان ، ولو أن الاتصال بين مجموعة الاسكندرية ومجموعة القاهرة برئاسة بنزايون باسفولسكى قائما .

أما الخطوات المقترحة لمواجهة النشاط البلشفى فى مصر وخاصة فى الاسكندرية نظرا لوجود روزنتال بها ، فان قومندان بوليس الاسكندرية ومن معه كانوا غير ميالين الى اتخاذ أية اجراءات شديدة ضد روزنتال أو أى أشخاص آخرين فى الوقت الحاضر لعدم وجود أدلة كافية ضد روزنتال أو غيره من ناحية ، ولأنهم لم يشرعوا فى بث دعاية

ثورية من ناحية أخرى ، ولأن اتخاذ أية اجراءات مشـددة الان قد يدفع الحركة الى العمل السرى تحت الأرض وفى هذه الحالة سـوف يصعب مراقبتها ٠

وقد اعترض المستر بيمان على هذا الرأى قائلا بضرورة اتخـاذ اجراء فورى ضد الحركة الان تخوفا من وصـول الدعاية الشيوعية الى الجيش المصرى ، وأضـاف قائلا أنه لو نجح تنظيم بلشـفى واحد فى هذا البلد فسوف يكون من الصعوبة بمكان استئصال الحركة ٠

وانتهى المجتمعون الى التوصـيات التالية بالاضافة الى استمرار المراقبة العادية بعناية :

ـ عدم تشجيع الصـحافة بقدر الامكان على نشر مقـالات عن البلشفية أو الاشارة اليها خبريا لأنه من غـير المستحب لفت انتبـاه العامة الى هذا الموضوع ٠

ـ وجوب مصـادرة كل المطبوعات البلشفية أو الشيوعية ذات الطابع الثورى أو التى تثير الفوضى بشـكل محدد وأن كل الأشخاص الذين يطبعون مطبوعات بلشفية أو ينشرونها أو يوزعونها أو يبيعونها أو يعملون على نشرها بأى شكل من الأشكال سوف يكونون عرضة للمحاكمة بمقتضى قانون الاحكام العرفية ٠

ـ وضع كل النقابات العمالية وكل المنظمات المشابهة تحت المراقبة والتأكد عما اذا كانت الأفكار البلشـفية تصلهم أو لاتصلهم ٠

ـ ان يطلب المندوب السامى البريطانى من حكومة فلسطين أن تدقق فى منح تأشيرات الدخول الى مصر فى ضوء ماهو معروف من وجود عناصر بلشـفية فيها ٠

ـ اعادة النظر من وقت لاخر فى وضع البلشـفية وخاصة عند معرفة اية معلومات لها أهمية خاصة ٠

وواضح من هذه التوصيات أن الحركة اليسارية فى مصر حتى ١٩٢١ وقبل تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى على الأقل لم تكن من الخطورة بمكان بالنسبة لسلطات الأمن التى تركت عناصرها تعمل فى العلن وتحت أنظارها تسهيلا لمراقبتها وحتى لاتضطرها الى العمل السرى فيصعب تعقبها ومتابعتها ٠

* * *

غير أن تخوفات بيمان التى أبداها فى الاجتماع السابق (٣ يولية ١٩٢١) ما لبثت أن تحققت وكشفت الأيام التالية عن قوة الحركة الشيوعية فى مصر بعد أن كانت حتى نهاية ١٩٢٢ كما وصفها كين بويد [١٦] ــ رغم اعلان الحزب الاشتراكى المصرى ــ ليست أكثر من حركة نظرية قوامها أشخاص يبدون فى ثوب الفنانين الذين يتلهون بلعبة جديدة ، وانها كانت تقتصر أساسا على مدينة الاسكندرية تحت زعامة روزنتال ويهود روس آخرين من البلاشفة ٠

ولكن بعودة حسنى العرابى سكرتير الحزب الاشتراكى المصرى من موسكو ، وكان قد ذهب اليها ودرس مبادىء الدولية الثالثة وحضر المؤتمر الرابع للكومنتين الذى قرر ضرورة تغيير اسم الحزب الاشتراكى الى الحزب الشيوعى المصرى ، دبت روحا جديدة فى الحركة التى أصبحت ذات ملامح خطرة كما يقول كين بويد ٠ ففى مطلع ١٩٢٣ بدأ حسنى العرابى ومعه انطون مارون وآخرون ، وبمعاونة عناصر روسية ويونانية ممن قذف بهم البحر الى شواطىء الاسكندرية ، فى تأسيس الأندية وعقد الاجتماعات والتبشير بالمبادىء الشيوعية ، كما بدأوا العمل سرا بين عمال مصانع الاسكندرية من خلال أشخاص مثل كيتز

---

(١٦) تقرير بتاريخ ٢٢ يونية ١٩٢٥ مرفوع الى المندوب السامى البريطانى ليرفعه بدوره الى الخارجية البريطانية ٠ وكين بويد هو رئيس القسم الأوربى بادارة الأمن العام بوزارة الداخلية ٠

Katz وآخرون على شاكلته • كما بدأوا فى تكوين فروع مصرية للحزب الشيوعى فى الزقازيق والمنصورة وبعض مدن الأقاليم الأخرى •

وبدأ هؤلاء فى وضع الخطط اللازمة لاستيراد الأسلحة والمتفجرات لاستخدامها فى المواجهة مع السلطات • ولقد اكتشفت ضمن ما اكتشف من أشياء مؤامرة شيوعية لتفجير قطار المندوب السامى البريطانى • ولقد تم اكتشاف نوايا الحركة من خلال خطاب أرسله حسنى العرابى الى موسكو فى ١٨ مارس ١٩٢٣ أشار فيه الى أن الفرصة قد ضاعت منهم ، أى البلاشفة المصريين ، فى الافادة من الاضطرابات والمظاهرات التى وقعت فى مصر ويطلب المشورة • وكان هذا الخطاب قد أرسل مع شخص قبرصى يدعى هرلمبيديز فاتيلياذى Haralambidis Vatiliadi الذى احتجزته السلطات اليونانية فى ميناء بيريه بناء على اخطار من السلطات البريطانية فى مصر •

وهكذا اتضح للسلطات البريطانية مدى خطورة الحركة فألقى القبض على حسنى العرابى وأنطون مارون فى نفس يوم ١٨ مارس ١٩٢٣ بتهمة عقد اجتماعات معينة مخالفين بذلك قانون الأحكام العرفية ، وتقديمهما للمحاكمة أمام محكمة عسكرية •

ومن الطريف أن كين بويد يعرب عن أسفه لأن هذه المحكمة المتشربة بالمثل البريطانية فى القضاء برأت هذين الشخصين بحجة أن لكل فرد مطلق الحرية فى التعبير عن آرائه ، وأنه لايمكن اتخاذ أى شيء ضد أى فرد لمجرد أنه يعبر عن رأيه الى أن يشرع فى القيام بحركة منظمة على أساس هذه الأفكار (١٧) •

وعلى هذا فقد بدأ هذان الشخصان فورا فى ممارسة العمل بنفس الأدوات والوسائل • وفى نهاية فبراير ١٩٢٤ — أثناء حكومة سعد

---

(١٧) يذكر رفعت السعيد أن هذا الافراج جاء بناء على الغاء الأحكام العرفية (ص ٢٧٣) •

زغلول — ربما اضراب مصانع الغزل والنسيج الأهلية بالاسكندرية • وقد تسبب هذا الاضراب فى ازعاج سعد زغلول ازعاجا شديدا ، وان كان قد اعتقد أن الحزب الوطنى وراء هذا الاضراب • ومن ثم فقد أسرع كين بويد وعلى باشا جمال الدين (وكيل وزارة الداخلية) الى الاسكندرية ومعهما فرقة من المشاة لوضع حد للاضراب دون استخدام القوة •

ومن الملاحظ أن هذا الاضراب كان من نوعية خاصة ، فلاول مرة فى تاريخ مصر يتبع المضربون أسلوبا شيوعيا حقيقيا ، اذ أنهم احتلوا المصنع بعد أن طردوا أصحابه (الملاك) والجهاز الادارى وأعلنوا أنهم سوف يستمرون فى العمل من أجل مصالحهم لأن العمال الذين يعملون يجب أن يقتسموافيما بينهم الأرباح الناتجة من العمل • وبعد استعراض مظاهر القوة والدخول فى مفاوضات كثيرة انتهى الاضراب • والقى القبض على حسنى العرابى وأنطون مارون والشيخ صفوان أبو الفتح وآخرين وقدموا للمحاكمة حيث حكم عليهم بالسجن ثلاث سنوات فى ٦ أكتوبر ١٩٢٤ •

ومنذ هذا التاريخ وحتى نهاية ١٩٢٤ لم يسمع الا القليل عن الحركة الشيوعية المصرية على الرغم من أن التقارير تشير الى استمرار نشاط بعض الروس والأجانب الاخرين هذا فضلا عن أن الرقابة المفروضة على المراسلات أوضحت زيادة الاهتمام بالحركة الشيوعية المصرية من عناصر معينة تعيش فى باريس وانجلترا مثل الدكتور M. E. ومسز سيدار بول Cedar Paul

على أن هذه الضربة التى وجهت الى الحركة لم تؤد الى اضعافها ، فبعد صدور أحكام السجن بشهر واحد وفى ٧ نوفمبر ١٩٢٤ نشرت جريدة الأهرام قرارا صادرا من الحزب الشيوعى المصرى بتوقيع سكرتير الحزب يقول فيه : « ان الجمعية المركزية للحزب الشيوعى

المصرى قد اجتمعت يوم الثلاثاء ٤ نوفمبر وناقشت موضوع اضراب المعتقلين الشيوعيين عن الطعام وأشادت ببطولة الرفيق مارون • وحيث أن اضراب الرفاق المعتقلين عن الطعام الذى رفع اسم الحزب الشيوعى عاليا قد بلغ الان حدا بعيدا ، وحيث أننا أصبحنا متأكدين أن اصرار الرفيق ماورن على الاضراب لم يعد ضروريا ، فاننا نأمره باسم قواعد الحزب أن ينهى اضرابه ويتناول طعامه » •

وكان هذا — لدى بويد — يعنى أن أعضاء الحزب الذين لم يقدموا للمحاكمة السابقة لعدم كفاية الأدلة القانونية ضدهم استمروا فى نشاطهم فى نشر المبادىء الثورية التى تتعارض مع الأسس الجوهرية للدستور المصرى بهدف قلقلة النظام الاجتماعى فى البلاد • وقد قاموا بتوزيع منشورات مطبوعة تتضمن أفكارا وتعليمات شيوعية كالدعوة الى الغاء حق الملكية الفردية ، ومصادرة الملكيات الأخرى بوسائل غير مشروعة ، والاطاحة بالقانون والنظام القائم ، واحلال النظام الثورى الشيوعى مكانه باستخدام القوة والارهاب •

ويتضح من التقارير [١٨] أنه فى مطلع عام ١٩٢٥ — وبعد محاكمات أكتوبر ١٩٢٤ — قدم الى مصر من روسيا قسطنطين فايس Weiss تحت اسم كارل أفيجدور Avigdor [١٩] مندوبا عن القسم الشرقى بالكومنتيرن فى موسكو • وكان أفيجدور قد ذكر أنه نمساويا وجاء كمراسل لجريدة Der-Abead التى تصدر فى فيينا • وكانت برفقته

---

(١٨) بتاريخ ٢١ مايو ١٩٢٥ •

(١٩) يذكر عصام الدين حفنى ناصف أن فايس حضر الى مصر فى ١٩٢٧ وقال عنه أنه نمساويا (محضر النقاش معه بمعرفة رفعت السعيد ، ص٣١٤، ملحق رقم ٤) . ويذكر رفعت السعيد أن الاسم الحقيقى لافيجدور هو بهيل كوسى أحد كوادر الكومنتيرن الأساسية المكلفة بالعمل فى منطقة الشرق الأوسط . وقد ألقى القبض عليه فى مصر ١٩٢٥ وحكم عليه بالسجن (هامش ص١٨٠) •

مدموازيل شارلوت ابنة روزنتال ، ولما كانت ممنوعة من دخول الأراضى المصرية بنـــاء على أوامر ادارة الأمن العــام فقد بقيت مع والدها بالاســـكندرية بينما واصـــل أفيجدور طريقه الى القاهرة • وفى القاهرة أقام مع مستر بولاك Pollack (يهودى) بمنزله (٨ شـــارع فؤاد بشـــبرا) وهو يعمل موظفا بمحلات مورومز Morums المنسوجات • وفور وصوله شرع فى اعادة تنظيم الحزب الشـــيوعى مستخدما منزل بولاك مقرا يعقد فيه الاجتماعات التنظيمية •

وسرعان ما انضم اليهما اليس — وهو موظف بمحلات موروموز ، وعبد السميع أفندى الغنيمى (الموظف بوزارة المعارف) ، وشعبان حافظ (بمطبعة جريدة النظام واحد الذين حكم عليهم بالسجن فى القضية السابقة) ، والشيخ شاكر عبد الحليم (طالب بالأزهر) ، ورفيق أفندى جبور (المحرر بجريدة النظام) ، ومحمود طاهر العرابى (المحرر بجريدة كوكب الشرق) ، بالاضافة الى أشخاص آخرين تقول عنهم التقارير أنهم معروفون بالشـــكل نظرا لترددهم الكثير على بيت بولاك •

وما لبث أفيجدور أن كون فرعا آخرا فى الاسكندرية برئاســـة ياناكاكيز تاجر الاسفنج وعضوية كل من الهامى أفندى أمين (الموظف فى E.S.R.) ، وبيومى الباسوسى (براد) ، وحسان قطب (موظف بالجمرك) ، وحســـــان عبـــده (عامل بمصـــنع الثلج) ، ومحمود ابراهيم (سمكرى) •

وقد عينت مدموازيل شارولت روزنتال سكرتيرة لفرع الحـــزب بالاسكندرية ، كما عين عبد السميع الغنيمى سكرتيرا لفرع القاهرة •

ولقد غير أفيجدور النظام والأسلوب الذى كان يتبعه الحـــزب القديم (السابق) ووضع نظاما جديدا محكم التخطيط وقريب الشبه من الأسلوب المتبع فى الأحزاب الشيوعية بأوربا • فبالاضـــافة الى

لجنتى القاهرة والاسكندرية كون خلايا أخرى كثيرة على نطاق أصغر بالقاهرة والاسكندرية وبورسعيد حيث تتكون كل خلية من خمسة أعضاء فقط كل منهم يعرف الاخر ولايعرف أعضاء الخلايا الأخرى وهكذا • كما كون لجانا أخرى تعرف باسم « اللجان المؤقتة » • وكانت المهـام المنوطة بالأعضاء تتضمن القيام بالدعاية داخل تجمعات العمال والفلاحين لادخال أكبر عدد منهم الى الحزب •

كما غير أفيجدور الأسلوب الذى كان متبعا فى طباعة منشورات الحزب ، فبدلا من طبعها فى المطابع العامة المعروفة أصـبح الحزب يستخدم مطبعة حجرية خاصة به ، وتقرر أن لايكتب العضو المنضـم اسمه الحقيقى على طلب العضوية بل يكتب اسما مستعارا وذلك لتصعيب مهمة الحكومة فيما لو وقعت أوراق الحزب فى أيدى البوليس • واحتفظ أفيجدور فقط بكراسة خاصة تحتوى على الأسـماء الحقيقية للاعضاء •

وقد استأجر الحزب صندوقين للبريد أحدهما برقم ١٥٩١ بالقاهرة، والثانى برقم ١٩٥٠ بالاسكندرية لتلقى المراسـلات من داخل مصر وخارجها • وقد أصدر الحزب مجلة باسم « العلم الأحمر » وهى مجلة شيوعية تنشر الأفكار الثورية وتعرض نشاطات الحزب وتبين عزمه على تغيير النظام الحالى وصولا الى نظام شيوعى باستخدام العنـف والقوة • كما طبع الحزب برنامجه الذى لم يختلف عن برنامج الحزب السابق الذى حوكم زعمائه على نحو ماسبق ذكره • وطبعت أيضـا طلبات الانضمام •• كل هذا على المطبعة الحجرية ، وتم توزيعها بين العمال وغيرهم فى أنحاء مصر •

ولما كان هدف الحزب الشيوعى أساسا ضم كل عمال مصر فى اتحاد نقابى شـيوعى على نحو ماحدث فى المرة السابقة ، قرر أفيجدور أن يقوم رفيق جبور بمساعدة الشيخ شاكر عبد الحليم باصـدار جريدة باسم « الحسـاب » لتكون لسان حال العمال والفلاحين ، وتقوم

بنشر الدعاية اللازمة التى يقررها الحزب ، وتوزع دون مقابل بين العمال ، ويقوم على تغطية نفقات طبع الجريدة أفيجدور نيابة عن الحزب الشيوعى فى موسكو • وكان رفيق جبور يعمل مع رجل انجليزى يسمى طومسون الذى ظهر فجأة فى مصر ثم اتضح أن اسمه الأصلى جيمس كروسلى Crossley وعنوانه بانجلترا بمقاطعة مانشستر 13 West bank, Higher OPenshaw وزعيم الحزب الشيوعى هناك ، وكان قد حضر الى مصر من فلسطين •

وقد قام جبور باستئجار مكان (٩ شارع كامل) لاستخدامه مكتبا للجريدة ، وبدأ يوجه دعواته لعمال الترام والعمال الاخرين هو وأفيجدور وأحيانا طومسون لكى ينضموا الى نقاباتهم •

وعندما انتهى جبور من تنظيم الحزب على الأسس السابقة وجه الدعوة لعقد مؤتمر شيوعى عام فى ٢٥ — ٢٦ أبريل ١٩٢٥ بنادى الاتحاد الدولى (٥ شارع المناخ) حيث حضره اثنان وعشرون شخصا من بينهم طومسون ، وبولاك ، واليس ، ويناكاكيز ، ومحمود السمكرى ، وبيومى الباسوسى ، وشاكر عبد الحليم ، ورفيق جبور • كما حضرت ثلاث سيدات أوربيات منهن شارلوت روزنتال ، وزوجة اليس •

وقد افتتح عبد السميع أفندى الغنيمى المؤتمر باعتباره سكرتيرا للحزب (فرع القاهرة) حيث عبر عن اعجابه القلبى بمبادىء لينين وأرسل بتحياته الى الشيوعيين المصريين المعتقلين بالسجون • ثم تكلم أفيجدور بالانجليزية — وكان عبد السميع يقوم بالترجمة — حيث نقل الى المؤتمر تحيات الحزب الشيوعى فى موسكو ، وأبدى اعجابه بمثابرة المصريين على اعتناق المبادىء الشيوعية • ثم تلاه فى الحديث المستر طومسون (بالانجليزية أيضا وبترجمة عبد السميع أفندى) حيث نقل تحيات الحزب الشيوعى الانجليزى الى الحزب الشيوعى المصرى قائلا أن الحزبين الشيوعيين المصرى والفلسطينى متحدان

فعلا • وقال أيضا أنه لما كانت النية متجهة لعقد مؤتمر شـيوعى فى فلسطين فمن الضرورى حضور مندوبين عن الحزب الشـيوعى المصرى لهذا المؤتمر •

ثم اتخذ المؤتمر عدة قرارات من بينها ارسال اثنين من المصريين ، واثنين من السودانيين ، وفتاتين مصريتين للدراسة فى موسـكو على نفقة الحزب ، وانشـاء فروع للحزب فى مختلف المدن • وقد أبلغت موسكو بهذه القرارات • ثم أصدر الحزب بعد ذلك منشورين بعنوان : « يا عمال العالم اتحدوا » و « أتركوا مراكش » • وهذان المنشوران يشيران الى العمل الذى قام به أفيجدور لتوحيد الأحزاب الشـيوعية فى مصر وفلسـطين وسـوريا حيث طبعت جميعها فى مطبعة الحزب • هذا فضـلا عن أن الحزب الشـيوعى المصرى كان يوزع جريدتى الحزب الشيوعى الفلسـطينى : « حيفا » و « أنسانيا » بين العمال المصريين مما يبرهن على وجود اتصال تنظيمى بين هذه الاحـزاب جميعـا •

ثم تذكر التقارير المعلومات الاتية عن بعض أعضـاء الحزب الأساسيين :

عبد السميع أفندى الغنيمى ويعمل موظفا بوزارة المعارف واسمه الكودى (البحراوى) ، وكان سكرتيرا للحزب الشيوعى السابق كمـا يتضح من أوراق الحزب التى عثر عليها فى القضـية ، كما كان اسمه من بين المعتقلين فى تلك القضية تحت رقم ٣٦ ، وهو رئيس تحـرير جريدة « العلم الأحمر » ، وهو الذى يكتب برنامج الحزب الجـديد وطلبات العضوية التى طبعت على المطبعة الحجرية ، كما أنه ترجم عن الانجليزية مقالا بعنوان « تشريع العمل فى انجلترا » ، وقد نشر فى « الحساب » العدد رقم ١٧ ص٤ • كما أنه حضر المؤتمر الشيـوعى الذى انعقد بالقاهرة فى ٢٥ ـــ ٢٦ أبريل ١٩٢٥ والقى خطبه فيه • وهو

يتردد على منزل بولاك مقر رئاسة الحزب ، كما أنه ترجم مسودة البرنامج الشيوعى •

رفيق جبور وهو رئيس تحرير جريدة النظام واسمه الكودى « محمد صديق عنتر المصرى » ، وقد طبع فى ١٢ يناير ١٩٢٥ منشورا شيوعيا بعنوان « من العمال والفلاحين » وقد صادرته السلطات وأجرى محضرا رسميا بذلك • وبعد هذه المصادرة قام بنشره فى جريدة الحساب (العدد رقم ١٧ ص١٥) على الرغم من أنه يعرف مخالفة ذلك للقانون •

شعبان حافظ وهو من الزقازيق ويعمل فى مطبعة جريدة النظام واسمه الكودى (حامد الشرقاوى) • وقد حكم عليه بالسجن ستة أشهر فى القضية الأولى ، وهو الذى طبع المنشورين الشيوعيين : « يا عمال العالم اتحدوا » و « اتركوا مراكش » • وهو يتردد أيضا على منزل بولاك مقر رئاسة الحزب ، كما حضر أيضا المؤتمر العام (٢٥ — ٢٦ أبريل) ويحاول الحصول على تأشيرة للذهاب الى روسيا •

محمود ابراهيم السمكرى واسمه الكودى (المصرى) • حكم عليه بالسجن فى القضية الأولى وحضر المؤتمر العام المنعقد فى ٢٥ أبريل ، ويقيم فى لوكاندة العتبة الخضراء باسم محمد ابراهيم • وكان يتردد على بيت بولاك خلال مدة اقامته بالقاهرة من ١٧ — ٢٠ مايو ثم سافر الى الاسكندرية •

الشيخ شاكر عبد الحليم وهو طالب بالأزهر وحضر المؤتمر العام الشيوعى حيث كان يرتدى عمامة فى اليوم الأول (٢٥ أبريل) ، وجلبابا ومعطفا وطربوشا فى اليوم الثانى (٢٦ أبريل) • ويحاول الحصول على تأشيرة للذهاب الى روسيا • يساعد رفيق جبور فى اصدار جريدة الحساب لسان الحزب الشيوعى • وقد سافر الى بورسعيد يوم ١٦ مايو ١٩٢٥ ونزل فى فندق السعادة متخفيا فى زى بائع

جرائد • وقل ظل هناك يومى ١٧ ــ ١٨ قام خلالهما بتوزيع المنشــور الشيوعى « اتركوا مراكش » ، كما التقى براشد لطفى من جدة ، وعلى الخطيب من مراكش حيث كانا يقيمان معا فى نفس الفنــدق • وأثناء وجوده بالفندق طلب من صاحب الفندق أن يعرفه على شخص يبيع له جريدة الحساب • وقد اتفق فعلا مع على ابراهيم متعهد توزيع جرائد ببورسعيد لهذا الغرض • أما راشد لطفى وعلى الخطيب فقــد ثبت اتصالهما بالحزب الشيوعى المصرى • ويتردد الشيخ شاكر أيضا على بيت بولاك ، ويشارك فى تحرير العلم الأحمر ، كما شارك فى صــياغة برنامج الحزب الشيوعى • وقد ترجم بخط يده كتاب « بيانات لينين الشيوعية » ، كما ترجم للعربية مذكرة عن الموقف السياسى فى مصر ، ومسودة برنامج لتوحيد المتطرفين فى الحركة الثورية القومية •

محمود طاهر العرابى يتردد على منزل بولاك ويساعد رفيق جبور فى اصــدار جريدة الحساب • وحضر مع جبور الاجتماعات العمالية التى عقدت فى مقر نقابة عمال الترام ، ويكتب مقالات فى جريدة الحساب تحت اسم « صابر لطفى » •

أما أفيجدور ، وبولاك ، وطومسون فيعيشون فى ٨ شارع فؤاد بشبرا • وأما أليس فيقيم فى ٨ حارة حكرتام المتفرعة من شارع محمد على • ونشاطهم معروف وسبقت الاشارة اليه •

وأما عريان ، وعودة ، وعوض جبريل ، وحسان جميعى فكلها أسماء كودية ومعروفة لالهامى أفندى أمين ، وبيومى الباسوسى ، ويانا كاكيز الذين كتبوا لهم طلبات العضــوية •

وتذكر التقارير أنه قد ثبت لدى رجال الأمن وجود اتصال بين الحزب الشيوعى المصرى وبين الأحزاب الشيوعية الدولية فى أوربــا وخاصة الحزب الشيوعى فى موســكو وذلك من خلال المراســـلات والتوجيهات والمنشــورات التى كانت تصل للحزب الشيوعى المصرى

فى ديسمبر ١٩٢٤ وتم الاستيلاء عليها فى رقابة البريد • ومن الملاحظ أن هذه المستندات كانت مخبأة فى أغلفة الكتب حتى لايمكن اكتشـــافها الا بتمزيق الأغلفة • وكانت تصل الى صندوق بريد ١٥٩١ الخـــاص بالحزب كما سبقت الاشارة • وقد عثر فى أحد هذه المراســـلات على خطاب برقم ١٧٣٠ بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٢٤ صادر من اللجنة المركزية للكومنتيرن الى فرع القاهرة يذكر فيه : « أنه قد تقرر وضع مبلغ من الدولارات تحت تصرف الفرع » للصرف منه على المنشورات والمقالات المؤيدة لدعاية الشيوعية •

* * *

على أن كين بويد يصـــف الحزب الشيوعى المصرى آنذاك بأنه حركة شبه سرية • أما الحزب الثانى الذى يعد أكثر خطورة فى نظره فهو الذى يرأسه مايعرف بالأمير الروسى أوتومسكى Outomski والذى يضم عناصر روســــية ويهودية وآخرين من أمثال أندربييف ، وفالديسلاف ، وريسنكوف ، ورسنوف • وهذا الحزب يعمل بتوحيد مع حكيموف القنصـــل السوفييتى فى جـــدة أن لم يكن تحت توجيهـــه واشرافه •

وأمام هذا النشـــاط المتزايد والمتشـــابك للحركة الشيوعية المصرية قررت السلطات البريطانية توجيه ضربتها فى محاولة للقضاء نهائيـــا على الشيوعية فى مصر • ولهذا ففى مطلع يونية ١٩٢٥ تم اعتقال أعضاء التنظيم الأول الذى تحت رئاسة جبور بفرعيه فى القاهرة والاسكندرية• أما أعضاء فرع القاهرة الذين اعتقلوا فكانوا قسطنطين فايس ، ولايب الكونين Leib Elkonin ، وعبد السميع الغنيمى ، وشاكر عبدالحليم ومحمود طاهر العرابى ، وشالوم بولاك ، وريدال هارزليك Riedal Harszlik ، وشعبان حافظ ، وموشى بن آشير Asher ، ورفيق جبور نفســـه •

وأما أعضاء فرع الاسكندرية فكانوا : سكلاريس ياناكاكيز ، ومحمود ابراهيم السمكرى ، وحسان قطب ، وحسان عبده ، وبيومى الباسوسى ، وفكتور واينبرج Weinberg ، والهامى أمين وشارلوت روزنتال •

وقد أعرب كين بويد عن أمله فى ادانة المعتقلين لأن ادارة التحقيقات بوزارة الداخلية أنتهت فى تقريرها الى ضعف التهم المنسوبة لهم •

أما مستر كروسلى (المعروف باسم الياس طومسون) الذى كان روحا قياديا فى هذا التنظيم والذى كانت السلطات البريطانية تعجز عن التعامل معه بسبب جنسيته البريطانية بعكس الاخرين ، فقد غادر مصر مسرعا بعد أن قابله أحد المسئولين البريطانيين بالادارة الأوربية بوزارة الداخلية •

أما بالنسبة للتنظيم الثانى أو مايمكن تسميته بالتنظيم الروسى اليهودى كما يقول كين بويد ، فلم تعثر السلطات فى مقره الا على عدد قليل من المستندات لأنه كان يتعامل شفاهة عن طريق المندوبين والرسل• ولهذا فقد تم ابعاد بعض أفراده خارج البلاد ، وتحذير البعض ، وعدم السماح للبعض الاخر بدخول البلاد • أما الذين أبعدوا فهم : جافاندى ، وكارل لاوش Laoush وايفان بيفاروفيتش Pivavarovich وساركيسوف ، ورسنوف ، وزوف رسنكوف Zuif Resnikoff ، وابراهيم بك لافلوفا Laflufa ، وقنسطنطين ديمتريف سالايف Salayeff وسيرجى بيرديكوف Berdikoff ، ولاش فالديسلاف ، ونيسينمان Nissinman ، وكيرشينكو Kirichenko ، ومارى كورنيالى ، وكورت فيرنر Werner ، وعلى رأسهم الأمير أوتومسكى •

وأما الذين حذروا وأنذروا ووضعت منازلهم تحت الرقابة فكانوا: غانى جولدشند ، ووستنر ، والكيفسكى ، وليتفيننكو Litvinenko ومدام وايزمان •

وأما الذين لن يسمح لهم بدخول البلاد لأنهم بالخارج وقتذاك فكانوا كل من : برجوراري Ber Gourary وفيلاريبيف Filarieff

* * *

ومن المفيد أن نذكر في النهاية الرأى الذى انتهى اليه كين بويد فيما يتعلق بفاعلية الحركة الشيوعية فى مصر ، فهو يقول أن مصر محظوظة بأهلها الذين لايعتبرون أرضا خصبة لبذر بذور الشيوعية فيها . فالطبقة العاملة فيها بشكل عام لاتخضع لمعاملة سيئة ولا تحصل على أجور سيئة أيضا على الرغم من ضرورة القيام ببعض الاصلاحات فيما يتعلق بساعات العمل والأجور ومشكلات تكوين نقابات .. الخ ، مما يؤدى الى قطع الطريق على الدعاية الشيوعية ، أما الفلاحون فهم بفطرتهم بطيئوا الحركة ولن يستجيبوا بطبيعة الحال للشيوعية . ولكن حدث فى الانتخابات التى انتهت بتأليف حكومة سعد زغلول أن بعض المحامين من غير المسئولين ومن العناصر الطفيلية ، كانوا يطوفون القرى ويعدوا الفلاحين فى محاولة لكسب أصواتهم لصالح سعد زغلول، بأنه اذا حصل سعد زغلول على أغلبية الأصوات فسوف يتم توزيع الأرض بالتساوى بين المزارعين مما أدى الى قلقلة الفلاحين الامنين . وعلى هذا يتضح مدى خطورة المذاهب على مصر التى ترد من انجلترا أو باريس مع أشخاص مثل كروسلى ، أو من موسكو الى بولاك ، أو عن طريق تركيا الى « الأمير » أوتومسكى وأمثاله ، وهى خطورة أكبر من الأفكار النظرية التى يتكلم عنها جوزيف روزنتال .

أما الزعماء الشيوعيين من الأهالى المصريين حتى ولو كانوا قد تلقنوا الشيوعية فى موسكو فمن المحتمل كما يقول كين بويد ، أن لايمثلوا صعوبة كبرى لأن بعضهم يشتغل من أجل مكسب مالى شخصى ، والبعض الاخر يمكن استمالته بطريقة أو بأخرى . ولكن مما يصعب الموقف وجود حكيموف القنصل الروسى فى جدة واتصاله ولا شك بالعملاء

البلاشـــفة الروس فى مصر ، ووصول عناصر من انجلترا وفرنســـا وفلسطين يخفون نشاطهم تحت مبادىء الدولية الثانية ، وهى مبادىء شرعية ، ويقومون بتوجيه النصائح الذكية والمساعدات المختلفة فى أوساط العمال والحركة الســـياسية •

ولكن لما كانت الحركة الوطنية فى مصر والسودان أحد الوســـائل التى يعتمد عليها الشيوعيون فى اثارة الاضطرابات أمام الامبراطوريـــة البريطانية • ولما كان الحزب الشـــــيوعى البريطـــانى والكومنتيرن سيعملان ولا شك على تجديد نشاط « آلتهم » فى مصر ، فان كين بويد يعرب عن أمله وامتنانه فى الحصول من الســـلطات المعنية بانجلترا على الخطط والتوجيهات اللازمة لمواجهة النشاط الشيوعى فى مصر •

ملحق رقم (١)

منشـــور نمرة (٧٣)

اعتنقوا البلشفية أيها المصريون
البلشفية والاسلام والشـيخ بخيت

خدعوك يابخيت فرغت عن الصواب لخدمة الانجليز وكذبت على الحق وظلمت العدل فافتيت على غير علم وافتريت على الدين يــوم استفتاك اللنبى فى ثوب الســيد حسن الذى تجرأ وفســق فوصفت البلشفية على غير حقيقة مرضاة للانجليز أعداء الانسانية والعــدل • البلشفية يا شــيخنا ليست كما وصفها الأستاذ الغر ليســت من الفوضى وانكار الدين واستباحة الأعراض فى شىء وانما هى مبادىء عدل وانصاف وحرية لاتنافى الدين الاســلامى الحنيف بل هى قوة ارسلها الله الى الأرض يوم طغى الناس لتعيد الى الاسلام عهده الأول وعدله القــويم فلا تبقى على مفتى مذبذب مثلك أو شيخ ملحد كالشيخ حسن •

أرسلها الله لتطهر العالم من أدران الظلم والاستعباد الذى فشا فى العالم فلم يبق على حرية •

البلشــفية رسول هدى الى العالم أوحى بها الى الروس متعشقوا الظلم فيما مضى معجزة للبشر فان هى عمت الأرض فاستمسك بمبادئها الناس تفتحت نفوسهم الى الحق والعدل وأصبحوا الى الاسلام مقربين كأن الله أراد أن يعم الأرض اسلاما •

نادى بمبادئها ماركس الألمانى الاشــتراكى فى الروسيا سنة ١٨٨٤ فأخذ عنه ملنما نوف وأخذت من ذلك العهد تقوى وتشتد حتى ســنة ١٨٩١ اذ أصدر الحزب الاشتراكى الألمانى (قانون أفرت) يدعو فيــه

جمعيات البورجوا الى القضاء على النظام المالي واستبداد أصحاب الأموال واقامة حرب لتحرير العمال وتحويل وسائل الانتاج كالسكك الحديدية والمناجم الى ملك الأمة واصلاح الفروق بين الطبقات باتحاد عمال العالم واسقاط الحكومات المالية وتغيير النظام من غير ركون الى الفوضى التى تحرمها الاشتراكية •

وأعلن الحزب انضمام عمال العالم اليه وقال بانه لايمكن أن تقوم الاشتراكية على أساس متين الا اذا أخذ بها جميع العالم فينتهى العداء الدولى ويحل محله تبادل المصالح فيسعد الفرد ويسعد المجموع • وظهر كرنسكى واعتنق المذهب سنة ١٩٠٠ وفى سنة ١٩٠٧ انقسم المذهب الى حزبين حزب « المنشفيك » وعلى رأسه مانوف مؤيد الحلفاء وحزب « البلشفيك » وعلى رأسه « لينين » الذى عاش فى سويسرا حتى سنة ١٩٠٥ ثم عاد الى الروسيا ومكث الى سنة ١٩٠٧ • ولما قامت الحرب الأوربية أرسله الألمان الى الروسيا ثانية فدعا الناس الى انتهاز الفرصة وقلب ملك القياصرة واحلال حكومة اشتراكية تضمن سعادة الفرد ورفاهية المجموع ونجح فى مسعاه اذ قامت الثورة الروسية يوم ٩ مايو فتهدم ملك القياصرة وقيد الظلم والاستبداد ومصادرة الأديان • وقامت على أنقاضه حكومة البلشفيك بمبادئها القويمة لاسعاد البشر فأصدرت يوم ١٤ مارس سنة ١٩١٧ منشورا الى الأهالى تعلنهم بأن الحكم القديم قد زال وان الحكومة الجديدة التى يؤيدها الشعب قامت مكانها وسيكون واجبها العفو عن المجرمين السياسيين والدينيين واطلاق حرية الكلام والصحافة والاجتماع والنقابات والأحزاب حتى لمستخدمى الحكومة والجيش والغاء القيود والامتيازات الاجتماعية والدينية والجنسية وتقرير العدل بين الناس واقامة القانون مكان الفوضى•

وفى يوم ١٩ مايو سنة ١٩١٧ أصدرت المنشور الاتى (ان سياسة الحكومة الخارجية تنحصر فى اعادة السلم العام من غير الاضرار

بمصالح أحد أو ارغام أمة على حكمنا أو الاستيلاء على أملاكها بل ستعيد صلحا عادلا من غير ضم ولا غرامة مبنى على حق الشعوب فى تقرير مصيرها ٠

وستحارب الحكومة الفوضى الاقتصادية وستضع يدها على المحصول والمواصلات وطرق النقل وستوزع الحاجيات وتنظم وسائل الانتاج وستعمل الحكومة كل الاحتياطات لاستقلال الأراضى وضمان رفاهية العمال وستوجه اهتمامها الى زيادة الضرائب على الأغنياء — ضريبة الميراث وضريبة مكاسب الحرب الفاحشة وضريبة الأملاك وتطالب الحكومة من الأهالى تأييدها حتى تتمكن من القضاء على الفوضى واحباط تنظيم الثورة الرجعية (كتاب بوكات صحيفة ١٨٥) ٠

يؤخذ من ذلك أن البلشفية هى اشتراكية معتدلة فهى تسعى الى قلب النظام الحالى وايجاد نظام جديد مبنى على العدل والمساواة يضمن حياة الفرد وسعادة المجموع فيجعلون للأمة فى ثوب الحكومة حق امتلاك وسائل الانتاج من مناجم وموانى وما زاد عن حد معين من أملاك الأغنياء فى الأراضى وتسهيل العمل للعمال وتوزيع المحصول على كل بنسبة مجهوده (فيأخذ مثلا من يزرع عشرة أفدنة غلة هذه الأفدنة) فهى لاتترك فى الأمة فردا يتضور جوعا فان أصبح العامل غير قادر على العمل قامت الحكومة بصرف مايقوم بمعاشه وهى تجعل ارادة المجموع فوق ارادة الفرد كما قال أدولف هلد الا أنها قررت حقوقا للافراد قبل المجموع يطالبها بها ويرغمها على أدائها وقد حصرها باكس ورسيول رنجد فى ثلاث ٠

(١) حق الفرد فى أن يعيش فان أصبح عاجزا تكفل المجموع بمعاشه (٢) حق العمل ٠ أى أن كل فرد قادر على العمل يلزم الأمة أن تجد له عملا يرتزق منه (٣) حق العامل فى كل ماينتجه عمله — فيحرم الاشتراكيون الربا والفائدة ويقولون بأن المكسب الذى يأخذه المالك هو نتيجة عمل لم يؤجر عليه العامل ٠

أما رأى الاشتراكيين (البلشفيين) فى الدين فهو رأى صـــائب — فيقول معظم الاشتراكيين بأن الاشـــتراكية مبنية على نظام اقتصادى محض فلا دخل لها فى الدين لأن الدين شخصى ولكل انسان أن يعتنق من الأديان مايشـــاء •

ويقول آخرون — كونت بفرنسا وباكس بانجلترا (الاشـــتراكية والدين ص٥٢) وفرباخ وستام وسترن بالمانيا (كتاب Die Relingion der Zukunft) ، بأنه لاتقوم الاشتراكية الصحيحة الا مع دين حق فيعيبون على الحكومة تشجيع دين ومصادرة دين آخر ويحرمون التفرقة بين الناس لاختلاف أديانهم فيبيحون لكل فرد نصرانى أو مســلم أو يهودى أو طبيعى أن يدخل البرلمانات وهذا ماكان فى الروسيا حيث ألغى قانون تحريم دخول اليهود الى بلاد الروسيا •

ويعتقد الاشتراكيون بأن الله حاكم الكون المطلق والمســيح رأس الملوك وأن قانون الله الذى أنزله على عيسى يجب أن يشمل جميــع القوانين الأرضــية •

ويعيب الاشتراكيون البلشــفيك طريقة الزواج عند المســيحيين فانتقدها باكس الألمانى وقال أنها مبنية على أساس مالى يجعل الزوجة ملكا للزوج فليس لها حق التصرف ولايمكن حل عقــد الزواج الا بحكم يصدر بناء على أمر مخل بالشرف وقال موريس الألمانى بجعل أساس الزواج القبول وجعل الطلاق ممكنا متى شاء الزوجين •

وقال الدكتور سكافل الألمانى لم لا يجعل عقد الزواج هو القانون الذى يضمن المساواة بين الأفراد فى حق المحاكمة والانتخاب والملك والدين ويضمن سعادة الفرد بضمان حرية المجموع وتحريم الفــوضى واقامة العدل والرحمة •

فالبلشــفية يا شيخنا لاتخالف الاسلام فى شىء فالدين يدعو الى العدل والمساواة وحرية التدين فلا يرغم انســانا بالقوة على الاسلام

ويبنى الزواج على القبول والايجاب بين الزوجين والطلاق حق للرجل يفوض به للمرأة فيفصلان اذا ماساءت عشرتهما .

والاســلام أيها المفتى لايحرم ملكية الحكومة لوسائل الانتــاج والأراضى فالوقف يحول الأملاك من ملكية الأفراد الى ملكية الامة ويعطى الحكومة حق التصرف بالغلة على مستحقيها وبيت المال والزكاة شرعها الله بضمان حياة الفقراء الذين لايقدرون على عمل .

ونحن نتقــدم الى فضيلة الأستاذ بمبادىء البلشــفية الحقــة راجين منه أن يفتينا كما أفتى الانجليز يوم أن جاؤه والبلشفية تهدد حياتهم حياة الظلم والاستبداد ليخدع المسلمين من سكان مســتعمرات بريطانيا وينفرهم من البلشــفية كى لاتتمكن من قلوبهم فتكون الطامة الكبرى على عرش جورج فينهدم فتدفن تحته سياسة الاســتعمار وحكم الظلم والاستعباد . ان العالم ان عانى جور القرون الماضية وقامت حرب الأطماع فافنت الملايين من الرجال والنساء وجلهم من العمال والصناع الذين ذهبوا ضحية فى سبيل رفاهية الملوك والأمراء ولم يبذل من بؤسهم سعادة ومن فقرهم غنى بل زاد البلاء وعاد العامل الى بيته فلم يجد طعاما ومات أهله وولده جوعا شــعرت نفســه التى طهرتها مواقف البطولة بأن لها حقا فى الحياة السعيدة وان الشــقاء والفقر الذى هو فيه علته الأغنياء والأمراء فوجدت البلشــفية الى نفسه سبيلا ومن قلبه مكانا فسيحا فدفعته الى الدفاع عن حقه فتقوضت أركان الظلم فى الروسيا التى كانت مثل الاستبداد والجور ثم أخذت تمتد الى بلاد الأرض تطهرها من أدران الحكم القديم فيظهر العالم فى ثوبه الجديد والعدل والمساواة قانون الجميع .

فالبلشــفية هى بلاغ الحق فى يد العدالة يحرر المستعبدين من أمم الأرض وينصر المظلومين من الشعوب فلا تجد للقوى على الضعيف سلطانا غير سلطان الواجب والحق .

ومما يدل على صــلاحية مذهب البلشــفية القويم أنه ما من أمة اليوم الا اعتنــق الكثير منها هذا المذهب فالأتراك وهم مســلمون قد اعتنقوا مذهب البلشــفية ويحاربون من أجله والفرس والأفغان والهند واليابان يتقدمون نحو البلشــفية بقدم ثابتة واثقة بنجاحها •

واليوم قد طرقت البلشــفية أبوا بفرنسا وايطاليا وانجلترا ولن تلبث حتى تقلب الحكومات بها كما انقلبت حكومة القياصرة فيتبدل العالم من الشقاء سعادة ومن الفقر غنى ومن الظلم عدلا ومن الاستعباد حرية ويجمع الاخاء بين أفراد العالم على مختلف أجناسهم وأديانهم وأن مصر ليتوقف مســتقبلها على نجــاح البلشفية وتفكيك ملك بريطانيا فيرفع القيد الذى يقيــد المصريين وتأخــذ مصر حقــا من اســتقلال تام وحرية •

وأن الذين يقولون بأن البلشــفية تهدم أركان الأمن والســلام لهم الكذابون أعداؤها وأعداء الانســانية فمصر من يوم أن دخلتها البلشفية فى أحزاب الموظفين والطلبة والعمال تغير حالها وظهرت بمظهرها الحق الذى طالما شوهه الانجليز وهبت عليها نسمة من نسمات الحرية فجعلت كل فرد يشعر بأن له حقا فى الحياة الطيبة فنادى بالاستقلال التام والحرية •

فالى البلشــفية أيها المصريون اعتنقواها تعيد لكم مجدا ســلف واستقلالا غصب وحرية هى حق لكم وللناس أجمعين •

(اللجنــة المستعجلة)

الملحق رقم (٢)

مذكرة عن حالة زكى سيد الشركسى

(يونية ١٩٢١)

عرف اسم هذا الرجل للمرة الأولى حوالى ٢٦ مايو ١٩٢١ عندما نشرت الصحف المحلية نقلا عن صحيفة بيروتية أخبارا تقول أن أستاذا يدعى زكى سيد الشركسى قد وصل الى بيروت قادما من باكو فى طريقة الى مصر فى مهمة خاصة الى سعد زغلول باشا من لدن الحكومة التركية فى أنقرة ولترتيب الاجراءات اللازمة لبث الدعاية البلشفية فى البلاد •

وذكر مصدر آخر أنه وصل الى بيروت تحت اسم مستعار ثم غادرها الى مصر بالبحر حوالى ٢١ مايو ١٩٢١ ، ومن ثم أبلغت الموانىء باحكام الرقابة على القادمين •

وفى ٩ يونية ١٩٢١ نشرت الاجيبشيان جازيت نقلا عن فلسطين نيوز أن زكى سيد الشركسى قد وصل فعلا الى مصر • وقد أبدت الاجيبشيان جازيت منذ هذا العدد والاعداد التالية اهتماما بالغا بأخبار هذا الرجل • والواقع أنه لم يعثر له على أثر عند الموانىء المصرية •

وعلى هذا فقد قمنا بالتحريات اللازمة على قدم وساق • وفى ١٤ يونية وصلنا تقرير من أحد مصادرنا الموثوقة يقول : « أن شركسيا يدعى على زكى يوتا موجودا بالأزهر كطالب فى رواق الأتراك ومنذ ثلاثة أشهر مضت سافر الى آسيا الصغرى وعاد مرة أخرى منذ حوالى عشرين يوما • وعند وصوله أطلق على نفسه اسم زكى سيد الشركسى وتظاهر

بأنه مندوبا بلشفيا لحكومة أنقرة • وهو يعيش الآن فى تكية محمد أبو الدهب ويبدو أنه هو الأستاذ زكى سيد الشركسى نفسه » •

وفيما يلى بيانا موجزا عن آخر نشاطات على زكى يوتا :

١٩١٦ ـ ١٩١٧ ذكرت التقارير عنه أنه مثير للقلاقل والاضطرابات بالأزهر لدرجة أن شيخ رواقه رفع شكوى رسمية ضده فى ١٩١٧ •

١٩٢٠ تقرر اعادته الى تركيا لأنه أعلن عدم رغبته فى الجنسية التركية وعندئذ أدعى أنه روسيا • وأثناء فحص موضوع جنسيته غادر القاهرة فى ١٢ أكتوبر برفقة لاجىء روسى الى طنطا ومنها الى الزقازيق حيث استقر بأحد المدن المجاورة لكسب الأموال • وقد زعم أنه عم انفر باشا ، وان اللاجىء الذى كان يصحبه هو أحد أقرباء مصطفى كمال (اتاتورك) • ويبدو من التحريات التى أجريت أن مرافقه شخصا فارسيا يدعى محمد على وكان مجندا بجيش الكولشاك Kolchak أما دوائر القاهرة فتقول أنه ينتمى الى الجيش الأخضر وأنه بلشفيا •

وأخيرا تيقنت السلطات البريطانية بان على زكى يوتا أحد رعايا الروس وعندئذ تقرر صرف النظر عن ابعاده الى تركيا ولم يعد موضع اهتمام السلطات •

وفى ١١ مارس ١٩٢١ منح تأشيرة خروج للذهاب الى اضالية فى ٦ أبريل والعودة • وغادر مصر بالفعل على الرغم من أنه ادعى أثناء استجوابه أنه لم يبرح مصر خلال الاثنى عشر عاما الماضية • ولانعرف بالتفصيل تحركاته منذ غادر مصر الى أن عاد اليها فى ٢٢ مايو • والمعروف على وجه التأكيد أنه وصل فى ذلك اليوم الى ميناء بورسعيد قادما من بيروت على المركب الخديوية المحمودية • ومن المحتمل أنه كان على ظهر المركب عندما وصلت الى بيروت قبل ابحارها الى مصر •

ثم سمعنا بعد ذلك أنه فى أسيوط وذلك يوم ١٦ يونية حين نقل

الى المستشفى لعلاجه من جروح اصابته فى مشاجرة • وكانت سلطات أمن أسيوط قد ارتابت فى سلوكه ومن ثم القت القبض عليه فور خروجه من المستشفى وفتشت مسكنه ، وأجرت له محضرا رسميا أرسل الى ادارة أمن القاهرة • وقد عثر معه على الأوراق الاتية :

— خطاب مرسل الى شخص يدعى ابراهيم بك رشيد بتوقيع على زكى يقول فيه أنه قرر مغادرة مصر الى آسيا الصغرى ، وأنه اميرالاى سابق بالجيش التركى ، واختتم خطابه سائلا ابراهيم رشيد عن حاجته لبعض المال ليستعين به فى مواصلة سفره • ولما سئل عما جاء فى الخطاب أجاب صراحة أن ابراهيم بك رشيد رجلا تركيا وأنه أى على يوتا ، كان يأمل فى الحصول منه على بعض المال من خلال هذه الرواية الملفقة •

— تسعة صور فوتوغرافية له بالزى الروسى • وقال فى ذلك أن هذه الصورة أخذت له عندما كان مع صديق روسى (ولعله اللاجىء الذى ورد اسمه سابقا) الذى أعاره هذا الزى ليأخذ به صورة للذكرى •

— بطاقتان بريديتان عليهما صورة مصطفى كمال قال أنه اشتراهما

— نوتة على غلافها صورة لانفر باشا •

— عدد من جريدة وادى النيل التى نقلت عن الاجيبشيان جازيت الخبر الخاص بوصول سيد زكى الشركسى الى مصر •

وعلى كل حال فليس من الواضح لنا ما اذا كان على زكى يوتا هو نفسه زكى سيد الشركسى أو هما شخصان مختلفان •• أو ما اذا كان على يوتا بلشفيا حقيقيا أو غير ذلك • ومع ذلك فان بوليس القاهرة يميل الى الاعتقاد بأن على زكى يوتا انتحل اسم زكى سيد الشركسى لأغراضه الخاصة وأنه ليس عميلا بلشفيا •

أما معلومات بيروت عن تلك الوقائع فهى غير محددة وواضحة للان • ففى ٢٢ مايو نعرف أن على يوتا وصل الى بورسعيد على المركب المحمودية • وبناء على تقرير مبكر للقنصل العام البريطانى فى بيروت نعلم أن زكى سيد الشركسى وصل الى بيروت على نفس المركب يوم ١٨ مايو قادما من القسطنطينية ، وأن القنصل يعتقد أنه سافر الى مصر على نفس المركب تحت اسم غير معروف • فاذا كان ذلك صحيحا فان على يوتا وزكى سيد الشركسى اسمين مختلفين لشخص واحد • ثم ورد تقرير آخر من نفس القنصل يفيد أن زكى سيد الشركسى غادر بيروت فى ٢٠ مايو على ظهر المركب كويرنال Quirinale التابعة لشركة لويد تريستينو Lloyd Trestino وكان قد قدم عليها الى بيروت فى ١٨ مايو • ومازال التحرى جاريا •

الملحق رقم (٣)

مذكرة عن روزنتال

(يونية ١٩٢١)

هو معروف لدى بوليس الاسكندرية منذ عشرين عاما كرجل ذو أفكار تقدمية فى المسائل الاجتماعية • وقد وصـــفه البوليس من آن لآخر بأنه شخصا فوضويا ومهيجا جماهيريا وخطرا من الناحية السياسية• وقد قال عنه أحد المراقبين الذى يعرفه جيدا والموثوق به ، انه لا شك فى أن روزنتال يعتنق أشد الأفكار الشيوعية قوة ، وأن لديه القدرة والمهارة فى بذر هذه الأفكار بين الناس • ورغم أنه ليس عنصرا محرضا بالمعنى الاصطلاحى المعروف ، لكن لاشك فى أنه يريد تغيير النظـــام الاجتماعى الحاضر • ولا نعتقد بأنه يفضـــل أسلوب العنف • وكل مايهدف اليـــه الان هو توحيد كل عمال مصر فى اتحاد واحد كبير ، وان أحد وسائله لتحقيق ذلك تعليم العمال تدريجيا المبادىء الشيوعية التى يعتنقها •

وحيث أنه يعتنق مثل هذه الأفكار فقد كان من الطبيعى أن يرتبط بنادى مثل « جمعية الدراسات الاجتماعية » التى تتبع الدولية الثالثة بلا جدال • ولا شك أيضا أنه يعمل كوكيل أو مراسل للدولية الثالثة فى مصر • فهو على اتصال بليتفينوف Litvinoff المندوب البلشفى فى ريفال واستونيا ، وعلى اتصال أيضا بوكلاء هذه الدولية فى فيينا ونيويورك • وهناك احتمالا كبيرا بأنه على اتصال أيضا بالعنـــاصر البلشفية فى فلسطين ، اذ يوجد كثير من اليهود ذوى الأفكار الشيوعية داخل نقابته العمالية ، وهم على اتصال بدورهم بفلسطين ، ومن هنا

كان اتصال روزنتال مباشرة ببلاشفة فلسطين من خلال شخص معين يسافر بين مصر وفلسطين وان لم يتأكد لدينا هذا الاتصال •

وفى هذا الخصوص يجب ألا ننسى زيارة ابنة روزنتال لفلسطين فى نوفمبر (١٩٢٠) واعتقالها هناك • وقد قال عنها بوليس فلسطين أنها تعتنق آراء اشتراكية متطرفة ومعها مطبوعات خاصة بالدولية الثالثة ، وأنها عملت مع زعماء الـ Mafliga Paolem Socialim

أما المقابلة التى أجرتها تريفرز سايمونز Travers Symons المحررة المساعدة بالاجيبشيان جازيت مع روزنتال فى مايو ١٩٢١ فهى على جانب ملحوظ من الطرافة • فلقد عبر عن رضاه للطريقة التى تتقدم بها منظمته العمالية ، ثم قال أخيرا أنه لاتوجد أدنى فرصة لأن يصبح الفلاح المصرى شيوعيا ، وأن اعتراف لينين مؤخرا بافلاس حكومة موسكو افلاسا كاملا فى تحويل الفلاح الروسى الى الشيوعية يعتبر درسا جيدا له (روزنتال) فى دعايته للشيوعية بين الفلاحين المصريين فى المستقبل •

وفى مارس الماضى نوقش مع مستشار الداخلية موضوع الضرب بشدة على أيدى روزنتال • وبناء على رأى دكتور جرا نفيل الذى يعرف روزنتال جيدا تقرر عدم اتخاذ أية خطوات عاجلة من هذا النوع الان • أما الرأى الذى قاله جرا نفيل فيتلخص فى أن روزنتال شخصا له وضع رسمى فى الاسكندرية حيث أصبح أخيرا مستشارا للمجلس البلدى • كما قال أيضا أن مايقوم به روزنتال أيا كان فهو يقوم به فى العلن • وأكثر من هذا فان اتصال روزنتال بشخصية مثل مسز فوكس سايمونز يجعل أمر اضراره صعبا ، اذ لايبعد أن تثير هذه السيدة الغبار فى لندن ضد السلطات البريطانية فى مصر اذا ماتم ابعاد روزنتال عن البلاد

رغم أنه روسى الجنسية • وهذا يعنى ضرورة الاستناد على شواهد مؤكدة قبل اتخاذ أية اجراءات ضده استعدادا للرد على أية تساؤلات توجه • به ان الدكتور جرا نفيل ابدى شكوكه فى أن ابعاد روزنتال سيكون له نتيجة فعاله •

أما انجرام بك الذى درس البلشـــفية ويعـــرف روزنتال أيضـــا معرفة جيدة فقد أوضح بأنه يعتقد بعدم وجود خطر يخشى منه من هذه الناحية الان ، ذلك أن روزنتال يعلم أنه مراقب من البوليس ، وأنه يعلم خلال السنوات الماضية أننا شعرنا بأنه قد بدأ يتجاوز حدوده فتراجع عن نشاطه بناء على تحذير من البوليس •

«EGYPTIANS AND GREEKS» : NOTES ON HISTORIOGRAPHY

By

ABDULHALEEM MUHAMMAD HASSAN

The relationship between the natives and the Greek settlers has been one of the most controversial issues in the study of the social history of Ptolemaic and Roman Egypt. The interrelationship between the two «races»(1) had shown promise in the Delta well before Alexander's advent.(2) But during the early Ptolemaic period the situation grew rather complicated. Now the rulers, though Macedonians by origin, were clearly influenced by the Greek culture. Under their sovereignty the doors of Egypt were opened wide welcoming more Greek settlers. The new immigrants were probably more numerous now than at any time during the Saite era. Moreover, their role in the country's life reached a peak. The new régime depended heavily on them particularly in the army. It is true that the Saite kings employed Greeks in their army and allowed Greek counsellors to influence their internal policy- for instance, a work attributed to Aristotle gives a vivid example

---

(1) I use the word «races» here with every due reservation. Neither the Egyptians of the Saite era nor the foreign settlers of the same period were biologically of a specific distinctive race. The term «Greeks» is admittedly misleading both for the Saite and Ptolemaic periods, since a great part of the so-called «Greek» settlers can never have been ethnically pure Greeks. Indeed some of them were not fully hellenized or even superficially so. But since the term has already been established in modern litérature, and the alternative one, «foreigners», is no more convenient for the limited scope of the present paper, I shall use it.

(2) See e.g. Dittenberger, SIG, I, No. 1, Boardman, The Greeks Overseas, pp. 113 — 4.

of how an Athenian general, Chabrias, persuaded king Tachos to adopt certain economic measures which affected virtually all the inhabitants, not even sparing the priests(3). It is true also that they sympathized with the Greeks and their culture to the extent that at least two of them, Psammetichus I and Amasis, deserved the epithet philellén(4). But none of these kings had gone far off in this field as the early Ptolemies did. In essence the policy of the latter was a kind of continuation and furthering of the former's. But the early Ptolemies built an empire which included not only

---

(3) Ps. — Aristotle, Oeconomica, II. 25.

(4) Diodorus, I.67. 8 — 9 (Psammetichus); Herodotus, II. 178 (Amasis). Apart from the privileges which Amasis bestowed upon the Greek settlers, both soldiers and civilians, he himself is reported (Herodotus II.181), to have married a Greek lady. He also (ibid., 182) «dedicated offerings in Hellas. He gave to Cyrene a gilt image of Athena and a painted picture of himself, to Athena of Lindus two stone images and a marvellous linen breast-plate, and to Hera in Samos two wooden statues of him-self, which stood yet in my time behind the doors in the great shrine». Moreover, he is said (ibid., 180) to have contributed to the rebuilding of the Delphian temple by a donation of a thousand talents of alum. Herodotus also records (ibid., 159) that king Necho dedicated the armour in which he fought in his Syrian campaign (608 BC) to Apollo at Branchidae, near Miletus (see Boardman, The Greeks Overseas, p. 113). In 361 BC king Tachos had some gold coin minted, the model for which was derived from the Athenian tetradrachm. The obverse type shows the head of Athena, who we know had already been assimilated to the goddess Neith of Sais. The reverse shows the native Egyptian papyrus, along with the king's name in Greek, TAOS. (Kraay, Archaic and Classical Greek Coins, p. 76 and plt. 12. 217). His successor, Nechtanebus II, also had gold coin minted. The obverse type, a galloping horse, is wholly Greek; though the reverse consists of two Egyptian hieroglyphs, which together signify **nefer nub** «fine gold» (Kraay, ibid., p. 295 and plt. 62.1064).

Cyrenaica, Cyprus, and Coele Syria, but also, for longer or shorter periods, the coastal area of Asia Minor from Cilicia to the Dardanells, Thrace, and the Cyclades. In other words, their subjects were not only Egyptians, but also the inhabitants of these regions. The incessant wars of the Successors and the following period of the political balance of power and rivalry among the Hellenistic monarchies, made the domination over the Aegean a cardinal aim of the first Ptolemies. It is not surprising, therefore, to find in their court large numbers of prominent figures from their possessions outside Egypt, and from the Greek motherland where the competition among the leading three kingdoms of the Successors was high. The Ptolemaic empire also entailed an unprecedented intensification of coming and going between Egypt and the Aegean world. As the home of the ruaing Dynasty and the richest part of the Ptolemaic empire, Egypt was to become a centre for migrations. The most important difference between the Saite kings and the Ptolemies, however, is that the first only encouraged the Greek language ([5]), while retaining Egyptian as the official language of the administration; under the latter the Greek language, which had become increasingly dominant in the eastern Mediterranean and had won international recognition, was to replace Egyptian, thus opening the doors wide for Greek cultural influences in the country.

In the light of the new developments unedr the early Ptolemies, modern scholars agree almost unanimously on two principal standpoints: that the Greeks enjoyed a distinguished status in Egypt, and that although members of the two communities intermingled producing a class of «hybrids», others preserved their blood «uncontaminated». But they do not seem to agree on how and on what basis and for how long the Greeks were a distinguished class. Nor do they agree on the extent and the consequences of intermarriage and the mutual influence between the two peoples.

---

(5) Herodotus, II. 154; Diodorus, I. 67. 8—9, cf, Mosley «Greeks, Barbarians, Language and Contact» (**Ancient Society, II, 1971**), p. 3.

In the present paper I shall be limiting my attention to the discussion of certain preconceptions which seem to influence some modern scholars in their study of the Greek-native relationship in Ptolemaic and Roman Egypt, and which are bound to produce a subjective social history.

Some scholars maintain that the two peoples remained largely separate from and hostile to each other throughout the Ptolemaic and Roman eras. Rostovtzeff is a good example. «For the Egyptians — their mode of life, their religion, and their attitudes — the Greeks had no understanding and no sympathy. To a Greek an Egyptian was a barbarian in the modern sense of the word, a man who had no sharein civilized life. As late as the third century AD an Egyptian Greek writing to his «brethren» says: «You may take me, brethren, for a barbarian or an inhuman Egyptian»([6]).

The problem in this view lies in the document (P. Oxy. 1681) which Rostovtzeff cites as vindication. For there is absolutely nothing in it that can provide justification for his assumption that its author was a Greek. He calls himself «Ammonios», an Egyptian name derived from the name of the God Ammon signifying «He of Ammon»([7]). The addressees bear the Roman name of Julius and the Greek (also Roman) Hilarus. A person to whom Ammonius sends his greetings has the Hellenized Egyptian name of Isidora (or probably Isidorus). Apart from these names the letter is by and large no more than greetings and apology. The word «brethren», however, may be suggestive. It was used about that time as a conventional epithet among the Christians regardless

---

(6) Rostovtzeff, The Social and Economic History of the Roman Empire, pp. 275, 278. This contradicts another statement by the same scholar, The Social and Economic History of the Hellenistic World, p. 1099, that «during the second and first centuries B.C., ... natives were . . . . to be found in large numbers in the group of «Greeks» and Greeks in the group of «natives».

(7) Vergote, Les Noms Propres du P. Bruxelles Inv. E. 7616, p. 6.

of their nationalities and social backgrounds(8). It is not improbable, though this is only a surmise, that Ammonius was newly converted to Christianity and that his addressees were Christians. So, if one is to follow the interpretation of Rostovtzeff (and the editors of the document) that the word «Egyptian» is used by Ammonius in a pejorative sense, then the latent feelings could well have derived from religious antipathy rather than racial prejudice. However, it is not entirely strange to suppose that an Egyptian might sometimes become critical of his own people or a section of them, or might even defame them, intentionally or only in jest, for one reason or another. In a well-known document from 257 BC, the elders of a large group of peasants from the Heliopolite nome — who collectively undertook to cultivate 1000 arouras from the estate of Apollonius in the Fayum — complain of a

γραμματεὺς Αἰγύπτιος τῶν πονηρῶν

who, they say, does not allow Philadelphia to be settled and drives away those who try to come there(9). If one is to make a dramatic case of this

---

(8) «Brethren» is a very common word of Eusebius (c. 260 — 340 AD) denoting «Christians». See his Ecclesiastical History, e.g., VII. xi. 17: ....

πολλὴν ἡμῖν ἦγεν ἀδελφῶν τῶν ἀπ' Αἰγύπτου τὴν ἐπιμιξίαν,

ibid., xxii. 12 (see also 11):

Ἑρμάμμωνι δὲ πάλιν καὶ τοῖς κατ' Αἴγυπτον ἀδελφοῖς δι' ἐπιστολῆς κτλ.

Hermammon was an active Egyptian Christian during the reigns of Decius and Valerian and Gallienus; see ibid., VII, i, x. 2.

(9) P. Lond. 1954, 6 — 7.

document, then all these peasants would be taken for Greeks and not Egyptians !

Yet, the excerpt from the letter, correctly quoted above by Rostovtzeff, can also be literally translated as follows. «Perhaps you consider me, brethren, a barbarian or an inhuman Egyptian[10]. Evidently, the word «barbarian» here does not, unlike Restovtzeff's explanation, qualify the word «Egyptian». Moreover, the context and the spirit of the letter should suggest «rude» rather than «barbarian in the modern sense of the word», as the suitable interpretation. The word «Egyptian» is qualified only by «inhuman». It seems to me that «Egyptian» here actually reveals the identity of Ammonius, that he himself is Egyptian, but he suspects that his brethren might consider him «inhuman». Yet the context of the letter clearly indicates that Ammonius did not in fact do anything evil to his brethren. Probably all that happened is that he left abruptly without telling them and for some time he did not let them hear from him. He reminds them of his proven sentiments and explains that «many things urged me to visit my family». Moreover, he plans to see them shortly and tell them his news. It would be too academic, therefore, to take the word «inhuman» literally. It is quite possibe that Ammonius used it simply in the sense of «unfriendly» or «unmanly». There is nothing dramatic in the letter to suggest dramatic interpretations[11].

Even if Ammonius had a good Greek name and the names of his father and forefathers proved to be likewise, and even if he plainly stated that he was a Greek, how can we confidently argue that he, in the third century AD, reflects the experience of more than nine long centuries of Greek settlement in Egypt ? How can

---

(10) P.Oxy. 1681 = Select Papyri, 152 (3rd. cent. AD), 4 — 7 :

Ἴσως με νομίζετε, ἀδελφοί, βάρβαρόν τινα ἢ Αἰγύπτιον ἀνάνθρωπον εἶναι.

(11) Cf. Bickermann, «A Propos des astoi dans l'Egypte Gréco-Romaine» (Revue de Philologie de Littérature et d'Histoire Anciennes, 1927), p. 368.

we be sure whether he was a temporary resident (a foreigner) or a first-generation immigrant or a descendant of a pure Greek line in Egypt dating back to the third or even the seventh century BC ?

The document, however, is not the only source that Rostovtzeff cites. In his note on the above-quoted passage, he claims that «there has been very little change since the time of Ptolemy Philadelphus». Then he quotes the following words from Theocritus:

ἀλλάλοις ὁμαλοί, κακὰ παίγνια, πάντες ἐρινοί

adding that they were used by Praxinoa to characterize the native Egyptians. ([12]).

Praxinoa is one of two Syracusan women featured in a poem of Theocritus describing the life in Alexandria at the festival of Adonis in the time of Philadelphus. There is no doubt that in such an early period, when new Greek immigrants came in flocks to settle in Egypt, there had to be some sort of misunderstanding between the new-comers and the local inhabitants. Commenting on this particular passage, Gow remarks that although «in Praxinoa's allusion to the depravity of the natives we many if we choose, find a trace of the tension which necessarily underlay the relations between the dominant Greeks and Macedonians and the unprivileged Egyptians, she does not go much beyond what other Greeks had said of Egyptians before or what any Greek might say of any barbarian([13]).

---

(12) Rostovtzeff, SEHRW, p. 667 note 39.

(13) Gow, «The Adoniazusae of Theocritus» (Journal of Hellenic Studies, 1938), p. 191.

Gow's exegesis is not impossible, «if we choose». Nevertheless there is a significant problem in the text under discussion. For a key-word, erinoi, is by no means reliable. It is one of several modern conjectural emendations of an empty word, erioi, which appears in the medieval manuscripts of the text(14). Edmonds(15) adopts another emendation, ereioi. To this Liddel and Scott's «Greek-English Lexicon» gives no equivalent saying that it is a dubious reading of Theocritus. The short edition of the same lexicon states that it is «a term of insult to Egyptians». Apparently the term failed to occur in any other place of the known Greek literature. Thus the definition of the insult became anybody's guess. Edmonds chose the word «queer» as the proper meaning(16). Gow rendered it «a cursed lot»(17), while Dover preferred the emendation araioi translating it to «accursed»(18).

All these scholars are undoubtedly wall aware of a sound textual word, aergoi, which appears in a copy of the text in P. Antinoê Theocritus(19), and there seems to be no reason for not accepting it. In fact it explains the contents of the whole passage in which it occurs. For during the time of Soter I, Alexandria was still a city under formation. And it is not unlikely that the place attracted idle people who found there a good opportunity to earn their living through crime and mischief. Theocritus gives Philadelphus the credit of bringing this phenomenon to an end, so that the

---

(14) Dover, Theocritus, Select Poems, p. 47.

(15) Edmonds, The Greek Bucolic Poets, Theocritus, XV. 50 and note.

(16) Ibid.

(17) Gow, The Greek Bucolic Poets, p. 59.

(18) Dover, ThSP, line 50; see also his «vocabulary list».

(19) Johnson and Hunt, Two Theocritus Papyri, Idyll XV. 50.

inhabitants in his time enjoyed peace and safety. Thus when Praxinoa and her lady-friend found themselves in a street of Alexandria packed with the great multitudes of revellers, there was no cause for them to perceive any danger. It was an occasion to pay compliments to Philadelphus, that since his father died ([20]).

Οὐδεὶς κακοεργὸς δαλεῖται τὸν ἰόντα παρέρπων Αἰγυπτιστί. οἷα πρὶν ἐξ ἀπάτας κεκροτημένοι ἄνδρες ἔπαισδον, ἀλλάλοις ὁμαλοί, κακὰ παίχνια, πάντες ἀεργοί.

The «Egyptian fashion» here may lead, though not necessarily([21]), to the assumption that the criminals were Egyptians. Even so, the imputation is directed solely to the villains in the Alexandria of Soter I, not to the average Egyptians.

This is attested by another idyll of Theocritus, where the poet flatters Philadelphus that his subjects «occupy their business without let or hindrance»([22]). Egypt in his eye was a fruitful land that «possessed so many cities of men learned in labour.. and in

---

(20) Theocritus, XV. 44 — 50 (text quoted: 47 — 50).

(21) Alciphron, in a letter (IV. 19.4) supposedly written by Glycera to Menander, says that Ptolemy son of Lagus

δι' ὑπονοιῶν Αἰγυπτίοις θέλων Ἀττικισμοῖς σε διατωθάζειν.

The son of Lagus was not a native Egyptian nor was he an Athenian citizen either.

(22) Theocritus, XVII. 97:

λαοὶ δ' ἔργα περιστέλλονται ἕκηλοι.

them the lord and master of all is proud Ptolemy([23]). In short, Theocritus does not appear to shore up Rostovtzeff's view. And in any case he was only a visitor in Egypt; he did not settle there permanently.

In the same note, partly quoted above, Rostovtzeff finally says that «not even Philo was very enthusiastic about the Egyptians. Apart from his contempt for the Egyptian religion and the low opinion in general of the materialistic ideals of the Egyptians, he attacks in many places their passionate, unstable, rebellious and unreasonable character».

This, evidently, is irrelevant and even more confusing. For the simple fact is that the largest part of Philo's writings about the Egyptians is concerned with the experience of the Jews in Pharaonic Egypt according to the Old Testament; and has nothing whatsoever to do with the attitudes of the Greek settlers in Egypt towards the natives. Ironically he was one of the prominent leaders of the Jewish community in their strife against what modern scholars take for granted as Greeks in Alexandria during Caligula's reign. He wrote two essays, «Flaccus» and «The Embassy to Gaius», explaining the events of the strife, both in Alexandria and in the Emperor's court, from the Jewish point of view. He himself headed the Jewish embassy to the Emperor([24]) in an attempt to counter the allegations of the anti-Jews in Alexandria.

---

(23) Ibid., 81 — 5:

ἄστεα τόσσα βροτῶν ἔχει ἔργα
δαέντων ... τῶν πάντων Πτολεμαῖος
ἀγήνωρ ἐμβασιλεύει.

Cf. 77 — 80.

(24) Philo, Embassy, e.g. 181 — 184.

In reality Philo is an excellent witness not of the antipathy between the Greek settlers and the natives, but to their integration. In his «Embassy» he never uses the term «Greeks» to denote the anti-Jewish population in the city[25]. In «Flaccus» the term does not even occur at all. Philo employs only the terms «Alexandrians» and «Egyptians» interchangeably to designate the same group of people.

Commenting upon two passages of the «Embassy» (139 and 163), Smallwood claims that Philo «inaccurately and no doubt with intent to insult and not out of ignorance, attributes Egyptian animal-worship to the Alexandrians, who were Greeks, not Egyptians, and who moreover despised the depressed Egyptian peasantry[26].

Philo is free from such accusations. It is common knowledge that «Greeks» in the Delta of the Saite period had already adopted certain animal-worships[27]. And it is clear beyond any doubt that animal cults were flourishing in Alexandria during the Ptolemaic and Roman eras and, moreover, were introduced to Greeks outside Egypt, to Romans and even emperors.[28] Suffice it here to

---

(25) Without textual authority, Smallwood (Philonis Alexandrini Legatio ad Gaium) took the liberty of inserting the word «Greeks» into her translation of at least two passages : 124 and 133.

(26) Smallwood, ibid., p. 225 note 139. Smallwood does not seem to know that the Egyptians were not just a group of peasants.

(27) See e.q. Plato, Phaedrus, 274 C; Vermaseren, Apis, I, No. 132 and plt. LXXVII; U.P.Z.I.

(28) See e.g. Grenier, Anubis Alexandrin et Romain, Passim; Griffiths, Apuleins of Madauros, The Isis-Book. See also the references cited on p. 17 note 42.

point out that one of the influential Alexandrian leaders, who antagonized the Jews so much that Josephus attacked him bitterly in one of his works, was called «Apion». Apion, as Vergote explains, signifies «He of Apis»(29). Is it conceivable that a man bearing such a name could possibly have come from a background that cherished a genuine contempt of animal cults ? Apion was not a «depressed Egyptian peasant» !

In another passage of the «Embassy», Philo says that Caligula was unusually pleased by the news of his deification among the Alexandrians, and that he was under «the influence of some of his household who were continually laughing and joking with him». Then he adds, in the next passage, that «most of these were Egyptian... the leader of this whole Egyptian dance-band was one Helicon... who wormed his way into the imperial household(30).

If these two passages are divested of the harsh words, which naturally reflect the author's bitterness, the substance becomes very simple, and that is: some Egyptians in the Imperial court had a hold on Caligula and were able to enlist him against the Jews in Alexandria.(31). But Smallwood was moved to comment that «strictly speaking this should mean the depressed native classes of Egypt, and not include the Alexandrian Greeks, although possibly Philo uses the term here contemptuously to denote people who were in fact Greeks(32).

This, evidently, creates a curious paradox. For it is difficult to understand how they were «depressed» natives and in the same time were members of the Emperor's court. Moreover, it is misleading to attempt to censor the basic information which the

---

(29) Vergote, Les Noms Propres, p. 6.

(30) Philo, Embassy, 165 — 166 (trans. Smallwood, PhALG). Passage 166 is full of insults to Egyptians (ommitted from the quotation).

(31) See Malaise, Les Conditions de Pénétration et de Diffusion des Cultes Egyptiens en Italie, p. 398 and note 2.

(32) Smallwood, PhALG, p. 246 note 166.

passages convey by a cliché, claiming that Philo used the term «Egyptians» as an «insult» to Greeks. When he says «most of these were Egyptians»(33), he is simply reporting(34). The insults come afterwards.

Smallwood is not the first scholar to reach such amazing interpretations. Box, in his edition of «Flaccus», testifies that «Willrich's view (Judaica, pp. 128 — 30) that Philo calls the anti-Semitic inhabitants of Alexandria Egyptians to insult them, seems undeniable»(35). In another place, he claims that «Philo confuses the Egyptian population with the Greek» His best example of this alleged confusion is Philo's statement (On Flaccus, 92 — 3) on the disarmament of the Egyptians by the Romans. He accuses Philo of confusion between disarming the «Egyptians throughout the country» and the «houses» which ought to be searched, assuming that the first denotes natives, and the second Alexandria and, consequently, Greeks(36). «Houses», needless to say, were not an exclusively Alexandrian or Greek domestic device. Moreover, from the beginning Alexandria was not inhabited solely by Greeks, nor was it the only ulace in Egypt that accommodated Greek settlers either. In fact Philo was no exception in using the term«Egyptians» to describe all the inhabitants of Egypt, including Alexandria. The term was universally employed, to the

---

(33) Philo, Embassy, 166:

(34) It is a well-known fact that the time of Caligula marked the end of a period of persecution against the Egyptian cults in Rome. Caligula is also believed to have dedicated a temple to Isis in the Campus Martius. The emperor was by his upbringing inclined to establish his rule on oriental style. It was Alexandria which publicly gave birth to and fostered the idea of his godship, and no doubt the «Egyptians» in his court furthered his hopes in this direction. See Malaise, CPDCEI, pp. 395 — 401; see also Philo, Embassy, 338.

(35) Box, Philonis Alexandrini in Flaccum, p. 79 note 17.

(36) Ibid., p. 110 note 93.

same effect, by historians and writers from the Roman era.[37]. Were they also «insulting» the Greeks of Egypt by calling them «Egyptians», and «confusing» them with the natives ? !

Philo himself, however, settles this question when, in a meaningful statement, he says that Flaccus knew «that both the city and all Egypt have two classes of inhabitants, us and these[38]; in other words, Jews and Egyptians[39].

Swiderek remarks that «charmé par la littérature et la culture classique les savants ne voyaient le monde antique que par les yeux des Grecs et des Romains appertenant surtout aux classes élevées.[40]. This seems to be true. For when a distinguished

---

(37) e.g. Strabo, XII.3.34; XVI. 2.33; XVII. I. 11; Chrysostom, XXXII.36; Pausanias, I.ix. 1 — 2, II. ix. 3, IV. xxxii. 1, V.xxi. 12, 18; Appian, The Civil Wars, I. 4, 6, II. 90; Dio, XXXIX. 12 — 13, 58, XLII. 34 — 44, XLVIII. 27.2, LI.6.1; Plutarch, Pompey, LXXII.2; Philostratus, The Life of Apollonius, V. 24, 25, 28, Cf. Caesar, The Civil Wars, III. 110, 112.

(38) Philo, Flaccus, 43 (trans. Box, PhAF):

ὅτι καὶ ἡ πόλις οἰκήτορας ἔχει διττούς, ἡμᾶς τε καὶ τούτους, καὶ πᾶσα Αἴγυπτος.

Cf. ibid., 96.

(39) I am unable to understand the significance of Box's irrelevant remark (PhAF, p. 94 note 43) on this passage, that «Philo ignores the native Egyptian element in the population which was coeval with the foundation of the city». Philo shows no such intention. For if he does, then the passage would imply that he ignores them in all Egypt, which is certainly ridiculous. Box's own translation of the passage, which is correct, contradicts his interpretation.

(40) Swiderek, «La Société Indigène en Egypte au IIIe Siècle avant notre Ere d'après les Archives de Zenon» (The Journal of Juristic Papyrology, 1953 — 4), p. 231.

scholar like Bell, for example, writes that the «Egyptian religion.. consisted largely of primitive and barbarous myths», and that «the spiritual significance assigned to the myth of Isis and Osiris by a writer like Plutarch is mainly the work of the Greek mind working on Egyptian material[41], he, for a moment, sets aside the objectiveness of the historian. Yet in reality, as Bell himself undoubtedly, knows very well, these «barbarous» myths of the Egyptian religion were extremely effective in satisfying the spiritual needs of multitudes not only of Egyptians, but also of Greeks and Romans and many others all around the Mediterranean until the final triumph of Christianity[42]. Even as late as the mid-fourth century AD, «the function of the Anubiaci, who paraded with the mask of this god (sc. Anubis), was often undertaken in Rome by the nobles»[43]. Anubis was a dog-faced deity believed to be the son of Isis and the messenger of gods. By contrast, the Isis of Plutarch, «the work of the Greek mind», of «spiritual significance», was in fact no more than a philosophical view which meant little or nothing to the actual followers of the Egyptian goddess in antiquity.[44] And we haveno right, as students of history, to push our personal views into the religious doctrines of the ancients, or else we would find ourselves testing each by the standard of our own religion.[45] It is always easy to avail oneself of selected

---

(41) Bell, Cults and Creeds in Graeco-Roman Egypt, p. 2.

(42) For the spread of the Egyptian cults into the Mediterranean, see e.g. Dunand, Le Culte d'Isis dans le Bassin Oriental de la Mediterranée, three vols.; Malaise, CPDCEI, passim.

(43) Alfoldi, A Festival of Isis in Rome under the Christian Emperors of the IVth Century, p. 44; see also plates I — III, XIX.

(44) See Dunand, CIBOM, I, pp. 105 — 8.

(45) In his review of Bell's CCGRE, Youtie, Scriptiunculae, I, p. 553, remarks that «it was Bell's right, in a popular lecture, to award the palm to Christianity as «the truer and finer religion», but we are very far here from his usual unbiased empiricism».

passages from writers like Juvenal and Lucian and paint a repugnant picture of the Egyptian cults, but how far this would be from the reality of religious life in antiquity !

The double-sided obsession of the superiority and ingenuity of the «Greek mind» in Egypt on one hand, and the quiescent and conservative native mind on the other, can well be illustrated by a statement of Bevan.[46].

> To remedy.... the shifting relation between the Egyptian year and the natural year, Greek science at Alexandria was quite advanced enough to know that what was wanted was an extra day intercalated every fourth year. An attempt was made under Ptolemy III to carry this into effect. We know of it, because the decree of the Egyptian priesthood establishing the new system for their sacred year has been preserved for us. It is improbable that the Egyptian priesthood by themselves would ever have thought of instituting this rational change. We may, I think, believe that it came from a Greek brain at Alexandria and was supported by the royal will.

Yet, Diodorus and Strabo plainly give the credit of this achievement to the Theban priests.[47]

---

(46) Bevan, A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, p. 207, cf. note 1 of the same page.

(47) Diodorus, I.50.2: «They (the Theban priests) do not reckon the days by the moon, but by the sun, making their month of thirty days, and they add five and a quarter days to the twelve months and in this way fill out the cycle of the year». Strabo, XVII. 1.46: «It is due to these (Theban priests) that people reckon the days, not by the moon, but by the sun, adding to the twelve months of thirty days each five days each year; and, for the filling out of the whole year, since a fraction of the day runs over and above, they form a period of time from enough whole days, or whole years, to make the fractions that run over and above, when added together, amount to a day».

Fraser gives a striking example of another kind of obsession. He quotes a passage from Polybius (XV. 33.9) describing the massacre of Agathocles and his family in Alexandria: «All of them being delivered together into the hands of the mob, some began to bite them, some to stab them and others to gouge out their eyes. They tore each body as it fell limb from limb until they had mutilated them all. For the inhabitants of Egypt are capable of terrible violence when their anger is aroused». Although Polybius uses here the general term

οἱ κατὰ τὴν Αἴγυπτον ἄνθρωποι

Fraser insists that «it cannot be doubted that he means the native Egyptians», assuming that «they took advantage of the opportunity offered to them to express their general hatred of Greek rule». In order to justify this interpretation, he recalls two more incidents claiming, inaccurately, that they were parallels to this, one of which took place in c. 59 BC, and the other in the early fifth century AD.([48]). «These gruesome facts», he adds, «remind

---

(48) The first of these incidents was allegedly witnessed by Diodorus (I.83.8—9). It is about a Roman delegate who killed a cat by accident in Alexandria. Since the cat was sacred, a crowd of angry people chased him to his house. And «neither the officials sent by the king to beg the man off nor the fear of Rome which all the people felt were enough to save the man from punishment». Diodorus does not specify the nature of this timoria, nor does he claim that the angry crowd was purely native. Probably the man was only molested, for there is no recorded reaction on the part of the Romans to this incident. The second incident took place, also in Alexandria, in 415 AD. The victim this time was Hypatia, an intellectual lady and enthusiastic preacher of pagan doctrines. A band of «Christian fanatics, led by a certain Peter, dragged her to a church and, tearing off her garments, hewed her in pieces and burned the fragments of her body» (Bury, History of the Later Roman Empire, I, pp. 217 — 19). It would be a grave mistake to =

one that the great medical papyrus of the eighteenth dynasty of the Pharaohs records remedies against human bites». In this way Fraser seems to imply that «biting human-beings», among other atrocities, was a characteristic trait of the Egyptians. Therefore he takes what he calls an «almost anthropophagous mob» in Alexandria of the end of the third century BC as exclusively native. He appears to maintain a genuine belief that the participation of Greeks in such savageries is inconceivable(49).

= claim that the members of this tiny fanatic Christian band were descendants of a pure native Egyptian stock, or that their criminal act was characteristically Egyptian or Christian. The crime was a great shock to the public opinion at the time. It is to be recalled in this connection that no one nowadays can possibly hold abnormal crimes, which usually make headlines, as a mirror of the character of the whole nation in which they occur. It should also be noticed that the three episodes, gathered by Fraser, are not compatible. Time and circumstances are entirely different from one case to another.

(49) Fraser, Ptolemaic Alexandria, I, p. 82. Fraser, ibid., p. 84 and passim, attributes all the disasters of the «mob-rule» and signs of «cultural-decline» in Alexandria of the late Ptolemaic period, to «the adulteration of Greek by Egyptian blood». He tirelessly keeps repeating this view till the very last page (812) of his otherwise masterly work. «Still the background of the savage brutality of the city mob remained unaltered, and one cannot read the accounts of the dreadful savagery of the pagan element against Christians.., and the Christian element against pagans.., without recognizing how fraught with lasting and dire consequences was that period after the battle of Raphia when the Egyptian population first asserted itself in the city». In his astonishing racial interpretation of the history of Alexandria, Fraser overlooks the obvious fact that the Egyptian population was there all over the Nile valley, and that «the adulteration of Greek by Egyptian blood» took its course also in the chora, but without the «lasting and dire consequences» !

Referring to the same passage of Polybius, Bevan does not attempt to spare the Greeks. But he has no doubt that they were infected by the Egyptians. «It is with regard to these scenes», he writes, «that Polybius remarks that the inhabitants of Egypt (the remark applies evidently not only to the natives, but to the Greeks, who in this case mainly, if not exclusively, concerned, and who must be supposed to have taken on, by their residence, some quality of the environment) have an abnormal tendency to commit atrocities, when their angry passions are roused»(50).

This kind of logic(51) is confronted by the study of the Egyptian character in the Pharaonic period. Gardiner, for example, observes that the Egyptians «were kind, charitable, and courteous in their behaviour, and there are no evidences of barbarous savagery and cruelties»(52). He also observes that even the Egyptian language does not contain many words of crime.(53). This does not mean that they were an impeccable stock of people. Of course they had many faults like anyone else, but savagery does not seem to have been one of them. It is to be noticed that even the graphic treatise known as «The Admonitions of an Egyptian Sage», which refers to a period of an absolute anarchy and violent civil strife in Pharaonic Egypt, does not record atrocities parallel to that described by Polybius. However, it is a truism that any angry mob, ancient or modern, civilized or uncivilized, is capable of commiting dreadful

---

(50) Bevan, HEPD, p. 255; cf. pp. 57, 239 and note 2.

(51) Discussing the revolt of the Boukoloi in the second century AD, Milne, «Egyptian Nationalism under Greek and Roman Rule» (Journal of Egyptian Archaeology, 1928) p. 231, argues that the bulk of the rebels were natives, simply because «the course of struggle was marked by incidents which in their fanatical savagery were more Egyptian than Greek» (!)

(52) Gardiner, «Notes on the Ethics of the Egyptians» (Ancient Egypt, 1914), p. 58.

(53) Ibid., p. 55.

atrocities, especially if the angry masses are agitated by wily intriguers from the top leaders of the State, as was the case in the episode recorded by Polybius.[54].

The above discursive review is not without purpose. It is meant to illustrate two specific phenomena, related to each other, which often vitiate some of the modern literature about the native and the Greek settlers in Egypt. Evidently some analyses which maintain that the Greeks remained by and large hostile to the natives all through the Ptolemaic and Roman periods, are virtually groundless and mainly the result of excessive reading into the sources and unguarded generalizations. The second phenomenon, which might well have led to the first, is even more serious. Apparently because of personal fondness of the Greeks in general and their culture, some scholars tend to preconceive that the Greek settlers must have been superior to the natives culturally and socially and, above all, racially, Mommsen's view — that Egypt, when it became Roman, was «ein Land zwiefacher Nationalitât;. . stand neben und über dem Einheimischen der Grieche, jener der Knecht, dieser der

---

(54) See the sequence of events (Polybius, XV. 25 — 33) which led to the massacre. It is evident that the carnage was the culmination of a mounting hatred among practically all the inhabitants of the city, against Agathocles and his party, artfully nourished and exploited by high-level conspirators in the army and the government. The people were led to believe that Agathocles was planning to usurp the throne from their legitimate king, Epiphanes, who was still only a child, and that it was the king's wish to see him and his party destroyed. The mob's behaviour was, in the last analysis, a strong expression of loyalty and allegiance to the house of Ptolemy.

Herr»[55] — still surviving despite so many years of advanced and far better equipped studies.

Presumably some scholars, in their study of the Greek-native question in Egypt, are also influenced by the experience of modern European settlement in Africa in particular, and the nature of modern European colonization in general. A statement of one of the more forthright scholars, Bevan, implies this possibility.[56].

> No modern country in which a European race bears rule over a more numerous native race is quite like Ptolemaic Egypt. South Africa so far resembles it, that the European race there too has settled in the country as its permanent home, a minority amongst a native population, but the situation is different in so far as the natives of South Africa are primitive people, not, like the Egyptians, representatives of an ancient civilization of which the European immigrants stood in a certain awe. In that respect, India seems more analogous to Ptolemaic Egypt, but India again is unlike in the other respect — that the Europeans have not settled in the country as their permanent home.. And there were two important regards in which the relations between European and native in Ptolemaic Egypt differed from the relation between European and native today. In the first place.... many Greeks and Macedonians married natives. From this continual mixture of blood, the racial difference in Ptolemaic Egypt grew less and less with succeeding generations.. The other great difference between the relation of Greek to Egyptian in Ptolemaic Egypt and relation of «white man» to «native»

---

(55) Mommsen, Romische Geschichte, Band 7, p. 253.

(56) Bevan, HEPD, pp. 86 — 9.

> today is in the sphere of religion.. There was nothing in the Greek's religion to make him regard the Egyptian religion as heathenish or as idolatrous or as a religion essentially inferior to his own.. Greek and Egyptian ideas were jumbled up together in a strange amalgam, very much as Theosophy today dresses up bits of Hinduism for Europeans by amalgamating them with ideas borrowed from Christianity or from modern science. And if we want to realize how the Ptolemaic Greeks could both feel their superiority, as Greeks, to the native Egyptians, and at the same time do homage to the Egyptian religion, we might try to imagine what the difference could be today in India, if the English, professed Theosophy, made offerings on occasion to Hindu deities.

Despite Bevan's reservations, it is obvious that his argument is based on modern observations and the superiority of the «European race» to the «natives» in modern times. But as far as the Greeks themselves were concerned, there was no such idea of a «European race». In their eye the whole world was either «Greek» or «Barbarian». Even the Romans who ruled over the world, including Greece, were also barbarians.[57] The Macedonians who so much dominated the Greeks since the time of Philip II and Alexander the Great and the subsequent establishment of the Hellenistic monarchies of the Successors, were no more Greeks

---

(57) In the late first century BC, Dionysius of Halicarnassus (The Roman Antiquities, VII. 70 — 2) troubled himself to prove that the Romans were not,

ὥσπερ ἔνιοι νομίζουσι, βάρβαρα καὶ ἀνέστια.

Even to adopt a Roman name was considered by Greeks as an act of barbarismos (Philostratus, Life of Apollonius, IV.v).

than the Romans and the Egyptians and many other nations.[58] Yet it was not always strictly the «race» of the Greeks that mattered most, but rather their «culture». In the early fourth century BC Isocrates observed that the cultural influence of Athens had «brought about that the name «Hellenes» suggests no longer a race but an intelligence, and that the title «Hellenes» is applied rather to those who share our culture than to those who share a common blood.[59]

Nevertheless, their august and most exalted poet, Homer, was variously said to be from many different cities, amongst which was the Egyptian Thebes.[60] Herodotus claims that the accepted Greek version of the genealogy of the Dorian kings proves that they were originally Egyptians. For, he believes, although by the time of Perseus son of Danae they had come to be reckoned as Greeks, farther back than that, «if (Perseus') ancestors in each generation, from Danae daughter of Acrisius upward, be reckoned, then the leaders of the Dorians will be shown to be true-born

---

(58) E.g. Philostratus, ibid., I.xxxiv.:

ἐπειδὴ ἐν Ὀλύνθῳ ἀγωνιεῖται ἡ Μακεδονία, ἢ Αἰγύπτῳ, ἀλλὰ μὴ ἐν Ἕλλησι.

(59) Isocrates, Panegyricus, 50: ....

τὸ τῶν Ἑλλήνων ὄνομα πεποίηκε μηκέτι τοῦ γένους ἀλλὰ τῆς διανοίας δοκεῖν εἶναι, καὶ μᾶλλον Ἕλληνας καλεῖσθαι τοὺς τῆς παιδεύσεως τῆς ἡμετέρας ἢ τοὺς τῆς κοινῆς φύσεως μετέχοντας.

(60) Lucian, In Praise of Demosthenes, 6.

Egyptians».([61]) In the second century AD, Pausanias wrote that

ἦσαν δὲ οἱ Ναπλιεις ἐμοὶ δοκεῖν Αἰγύπτιοι τὰ παλαιότερα,

who came with Danaus to the Argolid, and two generations later were settled in Nauplia by Nauplius the son of Amymone».([62]) Similar arguments are obviously utterly unthinkable in the two modern examples cited by Bevan. Incidentally, neither Herodotus nor Pausanias was «insulting» Greeks by tracing their ancestry back to Egyptian origin, and the assumption that Homer was originally a native of the Egyptian Thebes was not a «slur» upon the reputation of the poet !

Still more reservations should be added to Bevan's. Ptolemaic Egypt was not a Greek colony, nor was it a Greek satellite either; and it would be a grave mistake to import modern colonial experiences into Ptolemaic Egypt and use them as an exemplar in any attempt to understand the social and political history of the country.([63]) Egypt was a fully independent kingdom virtually from

---

(61) Herodotus, VI. 53:

ἀπὸ δὲ Δανάης τῆς Ἀκρισίου καταλέγοντι τοὺς ἄνω αἰεὶ πατέρας αὐτῶν φαινοίατο ἂν ἐόντες οἱ τῶν Δωριέων ἡγεμόνες Αἰγύπτιοι ἰθαγενέες.

ibid., 54 — 5.

(62) Pausanias, IV.xxxv. 2.

(63) Unduly impressed by some recent publications treating the Prosopographia Ptolemaica, Will, «Bulletin Historique» (Revue Historique, 1979) pp. 456 — 7, has written that «les études des rapports entre ethnies en Egypte suggèrent

the first day Ptolemy son of Lagus assumed the reins of power. The Greek immigrants knew in advance that they were not going to reside in a Greek colony, but in the «kingdom» of Egypt. Imagining what could have been the response of Menander if Ptolemy son of Lagus had invited him to go and live in his kingdom, Alciphron believed, not without reason, that the Athenian comedist would have turned the invitation down. «Where indeed in Egypt», he ponders, «shall I see an Assembly of the people or a question put to the vote ? And where a democratic populace exercising such freedom ? .... is it so great a thing to consort with Ptolemy and with satraps.. whose friendship is not constant nor their enmity is free from risk ?»[64] (Incidentally, it should be borne in mind, in this connection, that not all the Greek immigrants were a hand-

---

= fortement que les Lagides et leur entourage hellénique agirent comme les enquêtes de sociologie coloniale ont montré qu'agirent les administrations coloniales modernes en Afrique et en Asie: en procédant à une sorte de dépolitisation du milieu indigène, destinée à assurer la suprématie absolue de la minorité allogène dominante. Mais la sociologie coloniale nous a encore fourni des enseignements sur d'autres points: en montrant que, lorsque le colonisateur est obligé de recourir (aux échelons inférieurs) à du personnel indigène, il tend à le recruter dans des milieux auxquels la tradition locale ne conférait pas d'autorité: il serait intéressant de savoir (mais sans doute n'est-ce qu'un vœu pieux) si les Lagides procédèrent de même. Et, d'autre part, la sociologie moderne nous donne de précieuses analyses des réactions indigènes à la colonisation (mobiles profonds d'opposition, formes de résistance, etc.» (!).

(64) Alciphron, Letters, IV. 18.10 — 13.

some bunch of Solons and Platos and Pericles, and, moreover, not all the settlers were Greeks). Ptolemy the son of Lagus, after he had arrived in Egypt, never saw his home in Macedonia again. Egypt became his country, while Macedonia became his rival, and he would not hesitate to fight his home of origin in order to secure the independence and supremacy of his own kingdom. His Dynasty's rule in Egypt cannot be compared in any way with the examples of modern colonial experiences cited by Bevan. If it is it would be rather among the many royal families who established their monarchies in countries which had not been their home of origin, in Europe and elsewhere (in Egypt we have the recent example of Mohammed Ali's Dynasty which had ruled the country for one and a half centuries until only thirty years ago; Mohammed Ali was an Albanian and not a native of Egypt) — but even here we must guard from deceptive resemblances. As for the «Greek» settlers themselves, how could they be likened to the «English in India» when most of them had comme in fact from regions already occupied by either the Ptolemaic or Seleucid or Macedonian or (from the early second century BC) Roman troops ? Many of them were even settled in Egypt after capture in war. They came from a wide variety of regions that had never been able to merge into «one country», or «one nation» under one and the same administration. On the contrary, they had almost constantly been at variance, waging wars against each other, and even in the face of a common threat such as that of Persia, they had never succeeded in forming a single truly united front. And what connection is there anyway between the «English» and the «Greeks» of antiquity ?

The Greek immigrants who came to live in Egypt in the early Ptolemaic period were not «pioneers». Thousands and thousands of Greeks before these had already established themselves in the Delta (and Memphis) in the Saite period. The relation between them and the natives there had been auspicious. It may be useful

to recall here the passage from Plato's Timaeus which indicates that the inhabitants of Sais in the Delta professed to be not only

μάλα φιλαθήναιοι but also

τινά τρόπον οἰκεῖοι to the

Athenians.([65]) Although the passage is concerned primarily with the inhabitants of Sais, it can be justifiably assumed that other sections of the Delta population had cherished similar favourable attitudes towards the Greeks and their culture. This does not mean that Delta people had been completely converted from Egyptian to Greek culture. This cannot be expected in any society anyway; and in Egypt in particular the background of the millenia was not that easy to obliterate. But it is evident from the available sources(66) that the two peoples had intermingled and reached coalescence in Lower Egypt centuries before the Ptolemaic period. When Ptolemy son of Lagus took over, there must have been enough common ground between the new immigrants and some sections of the local population there to speed up their integration.

The above critical notes can be easily multiplied. My quoted, and disputed, statements from some scholars are only few

---

(65) Plato, Timaeus, 21 E.

(66) See e.g. Dittenberger, Sylloge Inscriptionum Graecarum, I, no. 1, 1—2; U.P.Z. I; Vermaseren, Apis, I, no. 132 and plt. LXXVII. cf. Herodotus, II. 42; 50; Lefebvre, Le Tombeau de Petosiris, I, pp. 31—5, 90—108; III, plts. XIX, XXII. See also Boardman, The Greeks Overseas, pp. 113—4.

quotable and logically arguable examples among many. But this must not be understood as an attempt to underrate the previous efforts in this subject.

The objection has been limited to certain preconceived ideas and obsessions which are bound to deflect the study of the Greek-native question in Egypt from its objective course.